

أ.د. جريجوري كوساتش



الراية الحمراء في المشرق العربي

الأحزاب الشيوعية العربية
في عشرينات وثلاثينات القرن العشرين



تحرير النص العربي

د. ماجد بن عبدالعزيز التركي



سلسلة الإصدارات العلمية

الراية الحمراء في المشرق العربي!

الأحزاب الشيوعية العربية:
في عشرينات وثلاثينات القرن العشرين
(مصر - فلسطين - سوريا - لبنان)

تأليف:
الأستاذ الدكتور/ جريجوري كوساتش

تحرير النص العربي:
د. ماجد بن عبدالعزيز التركي

ترجمة:
مركز الإعلام والدراسات العربية - الروسية



مركز الإعلام والدراسات العربية - الروسية

Center of Information and Arabian - Russian Studies
фонд русско-арабских исследований и информации

المقر الرئيسي: موسكو - روسيا الاتحادية

الفرع الرئيسي: مدينة الرياض: ص.ب: ٢٣٠١٨٥، الرمز البريدي: ١١٣٢١،

المملكة العربية السعودية

Head Office: Moscow, Russia

Main Branch: P.O Box: 230185 Riyadh: 11321, Saudi Arabia

E mail: info.russianstudies@gmail.com

www.ciars.ru

ISBN 978-5-6046250-9-5

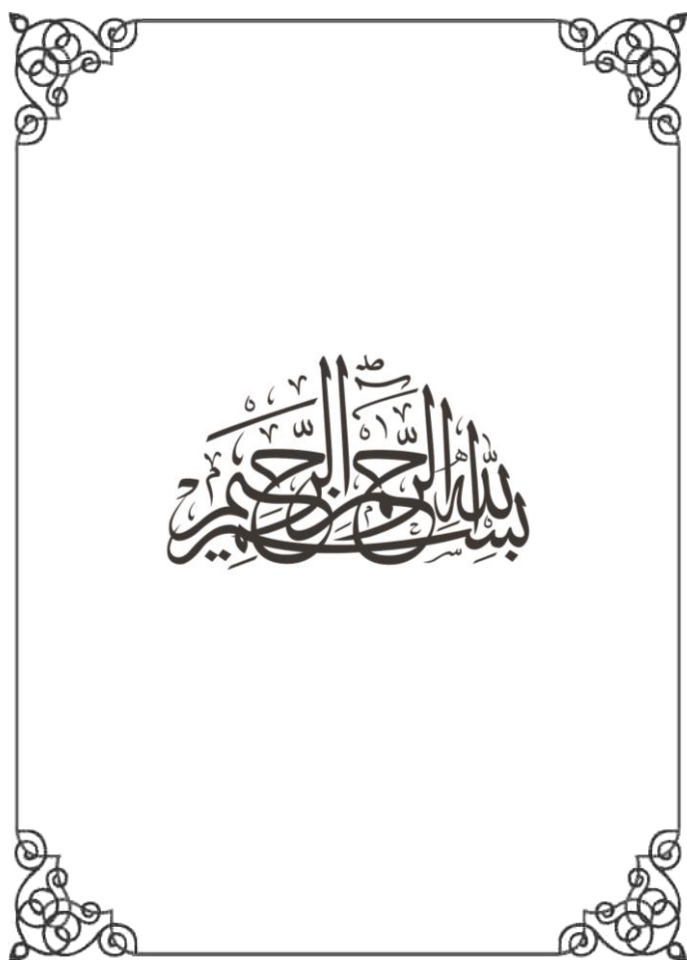


9 785604 625095

الطبعة الأولى

محرم / ١٤٤٤هـ، أغسطس / ٢٠٢٢م

حقوق النشر محفوظة



المحتويات

الصفحة	الموضوع
٩	كلمة الناشر
١١	مدخل
٥٥	الفصل الأول: الشيوعية في مصر: المثقفون الراديكاليون والحياة الاجتماعية والسياسية: في العشرينات - الثلاثينات، من القرن ٢٠:
٦٣	١. القضايا العمالية في نظريات وممارسات الاشتراكيين المصريين: (الحراك من أجل تأسيس الحزب الشيوعي).
٩٣	٢. الحزب الاشتراكي المصري: تفاقم الانشقاق الداخلي.
١٠٧	٣. تأسيس الحزب الشيوعي المصري.
١٤٤	٤. شيوعيو مصر: الجانب "الطبقي" من نشاطهم.
١٧٣	٥. الحزب الشيوعي المصري عملية الانهيار المتواصل: في النصف الثاني من العشرينات وفي الثلاثينات.
٢١٩	الفصل الثاني: الخيار الأممي لحل المشكلة القومية: الشيوعيون الفلسطينيون بين الحربين العالميتين:
٢٢٥	١. الراديكاليون من "بوعالي تسيون": ظروف إحياء فكرة "الأمية الاشتراكية"
٢٤٢	٢. الكومنترن و"بوعالي تسيون: الوضع الفلسطيني في العشرينيات

الصفحة	الموضوع
٢٦٥	٣. الاشتراكيون الفلسطينيون: الانضمام إلى الكومنترن.
٣٠٨	٤. الشيوعيون الفلسطينيون في النصف الثاني من العشرينات: محاولة لخلق جبهة عمالية يهودية عربية أممية في فلسطين.
٣٦٠	٥. الشيوعيون الفلسطينيون في الثلاثينيات: القضايا العربية واليهودية في فلسطين.
٤٢٠	٦. عصر "الجبهة الشعبية المناهضة للإمبريالية": والحزب الشيوعي الفلسطيني.
٤٤٩	الفصل الثالث: الفكرة الوطنية والرغبة الثورية: الشيوعيون في سوريا ولبنان:
٤٥٩	١. القوميون العرب في سوريا ولبنان: التجربة الروسية البلشفية: (نموذج لحركة محتملة على طريق النهضة الوطنية).
٥٠٣	٢. الأرمن في سوريا ولبنان: ظروف نشوء وتطور التيار الشيوعي في الحركة القومية.
٥٢٦	٣. الحزب الشيوعي السوري: بداية نشاط سياسي حقيقي.
٥٥٣	٤. الحزب الشيوعي السوري تكتيك "الطبقة ضد الطبقة": (في نهاية العشرينات، وبداية الثلاثينيات من القرن العشرين)
٥٩١	٥. التحولات والتغيرات في الحزب الشيوعي السوري: تشكيل منظمة العمل السياسي القومي العربي.

الموضوع	الصفحة
٦. الحزب الشيوعي السوري في النصف الثاني من الثلاثينيات: ممارسة إنشاء "جبهة شعبية مناهضة للإمبريالية".	٦٣٥
الخاتمة (بدلاً عن الخاتمة)	٦٧١

كلمة الناشر:

نسعد في مركز الإعلام والدراسات العربية - الروسية، بإصدار هذا الكتاب:

الراية الحمراء في المشرق العربي: الأحزاب الشيوعية العربية:

(مصر - فلسطين - سوريا - لبنان)

في عشرينات وثلاثينات القرن العشرين

وهو مترجم عن الطبعة الروسية الصادرة في موسكو، لمؤلفه الأستاذ الدكتور / **جريجوري كوساتش**، أستاذ التاريخ السياسي في عدد من الجامعات الروسية، وأحد أعمدة المستعربين الروس، وسبق هذا الكتاب عدد من الكتب للمؤلف، صدر عن المركز منها ثلاثة كتب علمية، (تطور السياسة الخارجية السعودية - السلك الدبلوماسي السعودي - عهد الملك سعود في الوثائق السوفيتية/ بالمشاركة مع د. ماجد التركي)، وتعد هذه الكتب مرجعاً علمياً وبحثياً في مجالها، استفاد منها عدد من الباحثين السعوديين في دراساتهم وبحوثهم الأكاديمية.

وجاء هذا الكتاب في (مدخل، وثلاثة فصول)، يُعد المدخل فضاء فكرياً تحليلياً عميقاً جداً، لمرحلة من أهم المراحل الفكرية التي عصفت بالعالم العربي، في أهم مناطق الحركة الفكرية العربية المعاصرة "مصر، فلسطين، سوريا، لبنان" كشف مدخل الكتاب التركيب البنوي الخطير الذي كانت عليه الاتجاهات الفكرية العربية "الوافدة" وكشف من جانب آخر العلاقات "الترابطية" الناشئة بين النخب المؤسسة للأحزاب الأيديولوجية في عالمنا العربي، والتي يتضح فيها الزوايا الخفية لمظاهر وحقائق التناقض مع العمق الفلسفي والحضاري للعالم العربي، مما أدى إلى كثير من مشاهد "التصادم الفكري على المستويين الشعبي والرسمي العربي، أما فصول الكتاب فتناولت في سرد تاريخي لشئ الأحزاب الشيوعية في كل من: (مصر، فلسطين، سوريا ولبنان).

ولترجمة هذه الكتاب حكاية ، فبعد التفاهم مع المؤلف ، وترحيبه بذلك ، بدأنا النظر في أي المترجمين أنسب لهذا العمل "بالنظر في مادته ولغته العالية العميقة" وتم الترتيب مع الدكتور/ خيرى الضامن "وهو من أكثر المترجمين تمكناً من الروسية إلى العربية" ، فأنتهى مقدمة الكتاب والفصل الأول ، ولكنه توفي قبل إتمام الكتاب ، فبدأنا البحث مجدداً عن مترجم يتقارب مع وعي ولغة "خيرى الضامن" حتى وصلنا إلى هذه الترجمة التي بين أيديكم.

وبين هذه وتلك ، كنا نسابق الزمن للانتهاء من الكتاب ، حتى نطلب من المؤلف إضافة متطلبين : (مقدمة خاصة للقارئ العربي ، وفصل خاص عن الأحزاب الشيوعية في الخليج العربي) ، حتى يكتمل رونق الكتاب عن أهم مرحلة فكرية عبثت بالساحة العربية في القرن العشرين.

وبالفعل اتصلت بالمؤلف "باعتبار صداقتنا وتعاوننا المستمر" أولاً للاطمئنان عليه ، والتشاور معه في هذا الأمر ، فإذا بي اتفاجأ أنه في المستشفى "ولم أعلم حينها علة مرضه" فحادثته "حديث الصديق لصديقه وتمنيت له الشفاء العاجل" وبعدها بفترة وجيزة هاتفت زوجته "وشركيته في مسيرته العلمية" الدكتورة/ يلينا مولكميان" فأخبرتني أنه في وعكة صحية شديدة ، فتحدثت معي بصوت متعب جداً (أنا تعباً جداً يا ماجد) ، ولم يمض بعدها أكثر من أسبوعين حتى ودع هذه الحياة تاركاً خلفه إرثاً علمياً ثرياً ، منه هذا الكتاب الذي بين أيديكم ، نقدمه لكم "كما هو" حرفاً بحرف ، وكلمة بكلمة ، ولا تزال في الكتاب ثلثة لم تُسد ، ملف "الأحزاب الشيوعية في الخليج العربي" وقد تكون محل الاهتمام في مسار علمي آخر.

والله ولي التوفيق.

ماجد التركى . رئيس المركز

مدخل

المهمة التي يتوخاها المؤلف نابعة من رغبته في متابعة عملية نشوء الأحزاب الشيوعية تنظيمياً وعقائدياً في أقطار الشرق الأوسط. والمقصود تحديداً (مصر وفلسطين وسوريا ولبنان) في عشرينات وثلاثينات القرن العشرين.

ظهرت آنذاك، في أراضٍ هذه الكيانات الجديدة أولى الجماعات التي أعلنت تقيدها بالماركسية وأقامت إرتباطات بالأممية الشيوعية (الكومنترن، الشيوعية الدولية) وقبلت شروط العضوية فيها وباتت فروعاً أو شعباً محلية لهذه المنظمة.

في عام ١٩٢١ تأسس الحزب الإشتراكي المصري (الأول) الذي انضم في العام التالي إلى الكومنترن وغير إسمه إلى الحزب الشيوعي المصري. وفي عام ١٩١٩ تأسس حزب العمال الإشتراكي في فلسطين، ومكنته ظروف نشوئه الخصوصية أن يغدو في عام ١٩٢٤ فرعاً للأممية الشيوعية ويتحول إلى الحزب الشيوعي الفلسطيني. وفي عام ١٩٢٤ ذاته تأسس التنظيم الشيوعي الموحد في سورية ولبنان وأقام في نفس العام علاقات مع الأممية^(١).

(١) ثمة مطبوعات كثيرة بعدة لغات مكرسة لنشوء الأحزاب والتنظيمات الشيوعية. ونشير هنا بهذا الخصوص

إلى كتابات المؤلفين الأمريكيين التي باتت مراجع كلاسيكية. منها:

- w z. sh. Communism and Nationalism In an madam Eby. L.N.
- Y.. 1956 and The Sovm Union and the myth: Bay. L. 1959, 11 также см memo.
- ников 5Бдга1 н.в Nationalism and Revolution '... me Arab World. Princeum, 1966 и.
- вр. 1, Th: 3. Umon and (he myx... World. 1917-1953. w., 1951.

وكذلك مؤلفات الباحثين الهندي أغواني والبريطاني رينار والفرنسي رودنسون والإسرائيلي كونفينو شامير.

- Communism ...the Ayah World. 1, 1969 Penna: 1. The USSR and Arabs. The ldwlogical D1mension. 1... 1971 про-, Rodmson m. Marxism: el mend: musulman. P, 1972 > Сопбпв m.. 51mm 5. (ваш.). The USSR and the Middle Eby. Jerusalem. 1973.

وتبقى خارج اهتمامات المؤلف الأحزاب الشيوعية الأخرى في المنطقة. بما فيها الأحزاب التي نشأت في بلدان المغرب العربي (تونس والجزائر والمملكة المغربية) والعراق. والقضية بالطبع ليست في كون هذه التنظيمات الشيوعية باتت واقعا هامشيا في المجتمع الإقليمي الذي نشأ آنذاك. فحدود هذا المجتمع لم تشهد على أية حال ترسيما جدياً إلا في النصف الثاني من الأربعينات. حيث ظهرت دولة إسرائيل في الجزء الأكبر من أراضي فلسطين التاريخية، وهناك نشأ على أساس الحزب الشيوعي الذي كان قائماً في فترة "الوجود العربي" في المنطقة التي حكمتها بريطانيا تنظيم أخذ ينشط في الحقيقة في ظروف سياسية وديموغرافية سكانية جديدة من حيث المبدأ. وإلى ذلك تكمن المسألة في أن حزبي تونس والجزائر اللذين أعلنوا عن إختيارهما الماركسي لم يتحولا إلى تنظيمين مستقلين عن وصاية الشيوعيين الفرنسيين التنظيمية والعقائدية إلا في نهاية الثلاثينات. أما شعبة الحزب الشيوعي الفرنسي في المغرب فلم تبق على قيد الوجود إلى أبعد من نهاية الثلاثينات، فيما بات الحزب الشيوعي العراقي شعبة للأمية الشيوعية في عام ١٩٣٦ م^(١).

(١) نشوء الخلايا الشيوعية في تونس والجزائر والمغرب يعود إلى عام ١٩٢٠ حين ظهرت شعبة الحزب الشيوعي الفرنسي في بلدان المغرب بعد مؤتمر الإشتراكيين الفرنسيين في مدينة تور حيث تأسس الحزب الشيوعي الفرنسي في ذلك العام. تلك الشعبة ظلت قائمة حتى عام ١٩٣٩، فيما تحول التنظيمات الشيوعيان في الجزائر وتونس إلى حزبين مستقلين في ١٩٣٦ و ١٩٣٩. الظروف التنظيمية الخصوصية لتأسيس خلايا هذه التنظيمات، ومن ذلك تواجدها الطويل بصفة شعبات للحزب الشيوعي الفرنسي وكذلك كون أعضاء هذه التنظيمات طوال العشرينات والثلاثينات من حملة الجنسية الفرنسية جعلاً من الضروري إعتبار تحليل نشوئها وطبيعة المرحلة المبكرة من نشاطها بحثاً مستقلاً بحذ ذاته. في عام ١٩٣٤ تأسس في العراق أول تنظيم شيوعي هو لجنة مكافحة الإستعمار والإستثمار التي بدلت إسمها إلى الحزب الشيوعي العراقي في عام ١٩٣٥. وتعود إلى العام المذكور أولى الإتصالات بين الشيوعيين العراقيين والكومنترن، حيث حضر ممثلوهم بصفة مراقبين في المؤتمر السابع للأمية الشيوعية. وفي عام =/=

إلا أننا نطرح مباشرة السؤال التالي: هل من حاجة في روسيا اليوم إلى دراسة عمليات نشوء الخلايا والأحزاب الشيوعية في المشرق العربي (علماً بأن هذه القضية يمكن أن تطرح بالنسبة لأي بلد أو منطقة أخرى في العالم)؟ هذا السؤال ليس مجرد سؤال عرضي وليس عبثياً بالطبع لأنه، على الأقل، مرتبط بوقائع التطور داخل روسيا في العهد ما بعد السوفيتي.

وهذا التطور بدوره ليس متناقضاً فحسب، بل أن تناقضه نفسه جعل ويجعل أطراف العملية السياسية المتنامية في روسيا يضيفون طابعاً أسطورياً على المرحلة السوفيتية التي اجتازتها في طريق التطور ويضم هذا الطريق، فيما يضم، الإهتمام المركز بمكانة روسيا في العالم التي أحييت ليس فقط فكرة "التبشير الأعمي" كما كتب البعض^(١)، بل وكذلك أداة تحقيقها، ألا وهي الأعمية الشيوعية والتنظيمات المنخرطة في عضويتها، بما فيها التي ظهرت في العالم العربي. التأويل الأسطوري الميثالوجي لنشاطها يكاد يعتبر الأحزاب الشيوعية في الشرق الأوسط (وكذلك التنظيمات المماثلة لها في سائر أنحاء العالم) وكالات سوفيتية تسعى إلى تحقيق الانقلاب الاشتراكي من أجل بناء "الإتحاد العالمي للجمهوريات السوفيتية".

روسيا الجديدة تنأى بنفسها عن الذين كانوا يمثلون "التوابع" الإقليميين للإتحاد السوفيتي الأكثر شهرة والأقدم من الناحية التاريخية، بل ومضت إلى أبعد، حيث

١٩٣٦ صار الحزب الشيوعي العراقي فرعاً أو شعبة في الكومنترن. إلا أن الحزب طورد بوحشية في الصيف التالي. وفي الواقع يعود تأسيسه الفعلي تنظيمياً وفكرياً إلى الأربعينات.

(١) راجع مثلاً: الدراسة التي قد تكون هي الأشهر والمكرسة لهذه المسائل بالنسبة لمنطقة الشرقين الأدنى والأوسط: فاسيليف، أ. "روسيا في الشرقين الأدنى والأوسط. من التبشير إلى النفعية البراغماتية. موسكو، ١٩٩٣ م.

جابهتهم بأشد العوائق دون رجعة. وكان ذلك أمراً منطقياً في إطار التوجهات العقائدية التي تقيد بها زعماء روسيا المعاصرة. فإذا كانت الأحزاب الشيوعية، بما فيها أحزاب العالم الغربي، قد "غرست" من قبل القيادة السوفيتية في البلدان التي نشطت فيها، وإذا كانت مرتبطة جينياً (من خلال الحبل السري) بالإتحاد السوفيتي فإن سقوطه ينبغي أن يضع حداً لوجودها. ازدواجية معنى هذا الموقف في الواقع سرعان ما تجلت للعيان. فالأحزاب الشيوعية في الشرق الأوسط والعالم العربي لم تترك الساحة السياسية في بلدانها. الأمر الذي لا يعني طبعاً أن بنيتها التنظيمية ونهجها السياسي، وأخيراً توجهاتها العقائدية لم تتعرض للتعديل الجدي أحياناً. إلا أن القضية لا تقتصر على ذلك وحده، بل لا تقتصر عليه عموماً.

الرغبة في التخلي عن التبشير لم تؤد أبداً إلى التشكيك في مكانة روسيا في العصر ما بعد السوفيتي. فقد ظل زعماءها ومتقفوها على إعتقادهم "بأن روسيا محكوم عليها أومبارك لها أن تظل في المستقبل القريب والأبعد دولة عظمى لها مصالحها العالمية والإقليمية"^(١) ولعلهم وضعوا العالم العربي والشرق الأوسط من هذه الناحية في المرتبة الأولى.

إلا أن حل المهمات الروسية الإقليمية غير ممكن، طبعاً، بدون الإعتماد على هذه القوى المحلية أو تلك التي ينبغي أن تكون حليفة لروسيا. وهنا عليها أن تنطلق من الوقائع القائمة فعلاً على نطاق المنطقة كلها وفي كل بلد من بلدانها. وتسوق هذه الوقائع بدورها الدليل على أن البنى السياسية القائمة في الشرق الأوسط والعالم العربي ليست متنوعة فحسب، بل وبالدرجة الأولى مائعة وضبابية جداً، الأمر الذي ينبع من الأسس القاعدية للمجتمع المحلي وينعكس مباشرة على مستوى السياسة التي يفرزها هذا المجتمع. عناصر

(١) المصدر ذاته، ص ٣٧٣.

العدالة الاجتماعية والنزعة القومية، بما فيها الصيغ الدينية لهذه العناصر، تبقى واقعاً لا يمكن تجاهله. والأكثر من ذلك تتوقف نجاحات النهج الإقليمي الروسي، بالدرجة الأولى، على مدى مراعاته لتلك العناصر.

ومع ذلك ثمة جانب آخر لنفس القضية. تطور العلاقات مع بلدان الشرق الأوسط والعالم العربي وطبيعة تلك العلاقات يقيّمها الطرف الثاني من وجهة نظر الموقف الروسي إزاء الذين كانوا بمثابة وكلاء محليين لروسيا في الماضي غير البعيد. في هذه المنطقة يعتبر الناس "روسيا ما بعد السوفيت" استمراراً للاتحاد السوفيتي. وهذه الرؤية لا تتوقف بأي حال على ماهية إعتبار روسيا لنفسها. ومن الواضح اليوم أن العالم العربي، من بين الطائفة الواسعة من الأحزاب والحركات الموجودة في روسيا، بصرف النظر عن إيديولوجية المسكين بمقاييد السلطة في البلاد وتوجهاتهم السياسية وممارساتهم النشاط اقليمي، يعطي الأفضلية لمن ينادي بتعاقب التقاليد، بما فيها تقاليد العلاقات الدولية التي نشأت في العهد السوفيتي.

غير أن المسألة لا تقتصر على ذلك وحده. فإن روسيا اليوم، ومهما بدت المفارقة عجيبة، لا تعرف منطقة الشرق الأوسط والعالم العربي إلا بالقدر القليل جداً. علماً بأن مختلف القوى السياسية الروسية لا تمل من تكرار القول بأن مصالح البلاد قريبة من مصالح العالم العربي، الأمر الذي يثبت، كما تعتقد، المستوى الرفيع للعلاقات الثنائية في العهد السوفيتي. وهذا المستوى الرفيع بمحذاته هو من أساطير العهد ما بعد السوفيتي. إلا أن سبب ظهور هذه الأسطورة يكمن، على ما يبدو، في كون روسيا، ليس فقط في المرحلة السوفيتية من تطورها، بل وفي العهود السابقة لها، عرضت على بلدان المنطقة العربية أو المناطق العربية التي كانت قانونياً في عهدة الحكومة العثمانية نموذج التطور الذي لم تعتبره روسيا نفسها نموذجاً متكاملًا وأصيلاً بالفعل.

طريق العصرية والتحديث الذي سلكته روسيا في فترة ما بعد ثورة أكتوبر، ناهيك عن ماضي الدولة الإمبراطورية، تغذى في الواقع على المثل العليا الغربية. أما "التبشير" الروسي في المشرق، بما فيه العالم العربي، فقد كان في نهاية الأمر محاولة لتحقيق الذات وتماهي روسيا كجزء من العالم الغربي. وكان ينبع، بقدر معين، من الطموح إلى تولي دور الغرب في العالم "المتخلف"، وهو دور ليس بوسعه في أي حال أن يكون جادة مطلقة للعالم السابق له، لكي يتخلص من عقدة الدولة التي تنتمي رمزياً إلى مضمار الحضارة الغربية. ورغبة منها في تغيير المشرق بقدر ما ربطت تاريخها على مدى عدة سنين مع الذين حاولت أن تحولهم إلى أتباع لها، لكنها لم تكن تطمح كثيراً إلى فهم خصوصية هؤلاء الأتباع ولا الجو السياسي الذي نشأوا فيه ولا مثلهم العليا ولا أسلوب تحقيق تلك المثل. بعبارة أخرى تخلت روسيا عن رؤية نفسها متجسدة فيهم. فعندما كانت تعمل في العالم العربي لم تتعمق في فهم حقيقته، بل انزلت على سطحه لا أكثر.

في حين أن هذه المنطقة كانت ستستطيع اليوم أيضاً أن تعرض على روسيا، بفضل التحليل الواقعي لظروف منشأ مجاميع العمل السياسي المعروفة والمبعدة المرمية من جانبها، الكثير مما يعتبر من ضروريات تطورها. ولعل الأكثر أهمية بهذا الخصوص أن الأحزاب والتنظيمات الشيوعية في العالم العربي، شان البلشفية، ظهرت ليس فقط في مرحلة سقوط الإمبراطوريتين العظميين العثمانية والروسية. لقد ظهرت على أساس التيارات الفكرية والسياسية المتضمنة لأوهام الماضي الإمبراطوري دافعة إلى الأمام مع ذلك فكرة إهانة الكرامة الوطنية وعدم إكمال النهضة الوطنية التي قطعها تدخل من الخارج أو تفاقم العزلة الدولية كما في الحالة السوفيتية.

بالنسبة لقسم من المثقفين الراديكاليين في العالم العربي - ولم يكن مهماً أنهم ممثلون من قبل حملة أيديولوجية "النهضة العربية" مع أنهم ينتمون في الغالب إلى الأقليات

المسيحية أو "القضية القومية" اليهودية أو الأرمنية، طرح السؤال عن مدى مصداقية عملية تحديث الكيانات الحكومية التي ظهرت مجدداً في منطقة الشرق الأوسط إذا كانت هذه العملية ملفعة بحلة المشرقية الواضحة. الغرب الذي أفرز هنا فكرة النهضة الوطنية وأسفر تأثيرها عن ظهور فئة المثقفين الوطنيين أنفسهم تنكر لهم. فراحوا يبحثون عن أيديولوجية قادرة على أن تضيفي لوناً من الشرعية على مهمات تحويل المجتمع والدولة، إلا أنها شرعية بعيدة شكلياً عن النماذج الغربية المعروفة لديهم. وباتت الماركسية هي تلك الأيديولوجية بعد أن غُرست في التربة الروسية التي بدت بلا جدال انذاك شبيهة بالتربة العربية بقدر كبير. وعندما اختارها مثقفو المنطقة العربية الراديكاليون لم يغيروا ما يلازمها من تقاليد البحث عن الإلهام في الغرب. إلا أن هذه الماركسية بدت في نظرهم بحلة البلشفية الروسية المقبولة من طرفهم من حيث أساليب العمل السياسي ومن حيث الطموح إلى حل مهمات التخلف والتبعية المماثلة. حالة التطور الاجتماعي والإقتصادي في العالم العربي بعد الحرب العالمية الأولى، حيث تقوضت الأمبراطورية العثمانية، دفعت مثقفي المنطقة إلى تأويل الأحداث في مصر وفلسطين وسورية ولبنان مشددين على المكون "الإشتراكي" لأيديولوجية النهضة الوطنية. أن تقرب هذا القسم من المثقفين العرب واليهود والأرمن من البلاشفة بات مسألة مستقبل بعيد. المثقفون الوطنيون القوميون كانوا يبحثون عن أساس، وجدوه بالطبع، لمثل هذا التقارب. سياسة الغرب في المنطقة دفعتهم إلى التحرك في هذا الاتجاه. إلا أن البلاشفة الروس انطلقوا هم أيضاً من أفكار مماثلة، فأضفوا صبغة راديكالية على تقاليد الإشتراكية "القومية" القائمة وسعوا بنفس القدر إلى البحث عن أشياع خارج بلادهم.

كان من أهم نتائج الحرب العالمية الأولى إدراج الأطراف العربية للإمبراطورية العثمانية ضمن ممتلكات بريطانيا وفرنسا فيما وراء البحار. مصر التي أحتلها الجنود

البريطانيون منذ العام ١٨٨٢ وُضعت بعد اندلاع الحرب خارج العائدية الحقوقية لحكومة إسطنبول، وتحت حماية الدولة المحتلة. وفي عام ١٩١٧ دخل الجيش البريطاني أراضي فلسطين التي غدت فيما بعد تحت الانتداب البريطاني. وفي عام ١٩٢٠ فرض الانتداب الفرنسي على سورية ولبنان. إلا أن المقصود لم يكن فقط إقامة الحكم الخارجي المباشر للأجنبي، والذي واجهت روسيا أيضاً بعد ثورة أكتوبر محاولات فرضه عليها.

حكم الأجنبي حول الطرائق القديمة لبلوغ الأهداف القومية والوطنية إلى موقف غير مقبول إطلاقاً في الوضع السياسي الجديد. وأخذت هذه الطرائق تتلون أكثر فأكثر بالتلاوين الاشتراكية. كما أخذت الأيديولوجية القومية لما قبل الحرب العالمية الأولى والتي تضم الموضوع العمالي (تحسين أوضاع "الشعب المضطهد المظلوم") تطرح بمزيد من الوضوح والدقة مسألة الطريق الاشتراكي نحو النهضة الوطنية. ومن الناحية الظاهرية بدا التأثير الروسي بالطبع وكأنه أهم سبب لتوجيه تركيز العناصر المكونة لإيديولوجية النهضة الوطنية. إلا أن مفعوله كان سيبقى متعذراً فيما لو غابت عن الأيديولوجية القومية نفسها عناصر الفكرة الاشتراكية وأن كانت البدائية أو التمهيدية. علماً بأن إمكانية إدراج هذه الفكرة بين مكونات الأيديولوجية القومية كانت تقوم ليس فقط على تأثير العمليات الجارية في ميدان البحث الفكري في أوروبا في عهد ما قبل الحرب. وقد تحققت هذه الإمكانية، لأن الولايات العربية في الإمبراطورية العثمانية أدرجت إقتصادياً، ومصر سياسياً أيضاً، في منظومة العلاقات العالمية. انماط الإنتاج الجديدة التي نشأت هناك نتيجة التوسع الأوروبي اقتضت ظهور الشغل المرتبط بها. وكان بوسع هذا أن يغدو، وقد غدا بالفعل، محط إهتمام الجيل الجديد من المثقفين الوطنيين، حيث بدأوا يرون فيه أداة قوية في التصدي للطبقات التقليدية. وباتت روسيا، كما تصور أبناء هذا الجيل الجديد، مثلاً رائعاً لإستخدام هذه الأداة والزحف نحو السلطة بواسطتها.

بالنسبة لتياسر المثقفين العرب الراديكالي في سورية ولبنان وفلسطين كانت المسألة ترتبط، في المقام الأول، بكون الإحتلال الأجنبي قسّم "بشكل مصطنع" المجال الجيوسياسي المسمى تاريخياً "بلاد الشام"، حيث كان ينبغي أن تقوم دولة وطنية موحدة. علماً بأن جزءاً من ذلك المجال - فلسطين - تعرض لخطر العزل التام لأن من المقرر إقامة "موطن قومي لليهود" على أراضيها. كما تقوضت المثل العليا "للنهضة العربية" لأن الكثرة السكانية "لبلاد الشام" التي بدت في أنظار المثقفين الراديكاليين واقعاً لا يتزعزع قد تفتت في أول صدام بواقع الوجود الأجنبي. سلطات الانتداب الفرنسية والبريطانية أسست داخل حدودها دويلات "طائفية" مفتعلة، في رأي هؤلاء المثقفين، أو كيانات سياسية معتمدة كلياً على تلك السلطات.

المثال الواضح على النوع الأول هو لبنان الذي كان يهيمن عليه السكان المسيحيون سياسياً وإقتصادياً. وكان بالإمكان أن تكون فلسطين هي النموذج الأول، في حال إزدياد عدد السكان اليهود ضمن حدودها. والمثال على الكيانات الثانية هو العراق أو شرق الأردن. حدود الكيانات (الدويلات) الجديدة في رأي المثقفين الراديكاليين لم تكن تراعي العلاقات الإقتصادية المعيشية الناشئة قبيل لاندلاع الحرب العالمية الأولى بين مختلف مناطق "بلاد الشام التاريخية"، بل اكتفت بترسيم ميادين نفوذ دولتي الانتداب مستجيبة لروح الجدوى والمصلحة السياسية.

إلا أن الواقع الناشئ من جديد تحت ضغوط مشددة من قبل الغرب ما كان سينشأ لو لم يشارك في عملية نشوئه أتباع وأذئاب دولتي الانتداب. وكانت تلك هي المعضلة الفكرية بالنسبة لمثقفي المنطقة. فالفكر العربي الراديكالي المتحرر الذي كانت بيروت ودمشق مركزاً له آنذاك أنشأ من بداية العشرينات أيديولوجية جديدة هي أيديولوجية النهضة الوطنية التي لم يكن يتصور عملية تطورها بدون المواجهة الفاعلة لثلاثة من خصوم انتقال العرب إلى

مرحلة أعلى في تطورهم. الأول والثاني هما "الغرب الإستعماري والصهيونية" والثالث هو "الرجعية العربية" بشكل مجمل "القوى الإقطاعية والرأسمالية المناوئة للمصالح الوطنية". وقدّمت الأوضاع الفعلية في المنطقة حججاً غير قليلة لتأويل الأحداث على هذه الصورة.

كان من أهم أولويات سياسة بريطانيا وفرنسا في الولايات العربية الشرقية للإمبراطورية العثمانية السابقة (سورية ولبنان وفلسطين) إقامة التعاون مع وجهاء البلد التقليديين. الحفاظ على ملكية الأراضي الكبيرة هناك حدد في الواقع أفضلية الطابع الزراعي لهذه البلدان، وبالتالي إقامة قسم كبير من السكان القادرين على العمل في الريف^(١). وبات ثبات القدرة الإقتصادية للطبقات التقليدية في ظروف الهيمنة الأجنبية ضماناً لحرمة دورها السياسي في المجتمع المحلي. ورغم التعديلات المعينة على سياسة إدارة دولتي الانتداب التي جرت بواسطتها محاولات إضعاف تنامي الحركة الوطنية لم تشكك السلطات البريطانية والفرنسية أبداً في الأسس المبدئية لنهج التحالف مع مالكي الأراضي الكبار وكهنة الكنائس المارونية في لبنان وزعماء الطوائف الأخرى بمن فيهم هيئة علماء

(١) في مطلع الثلاثينات كان الفلاحون يشكلون ٧١.٨٪ من سكان سورية ولبنان البالغ عددهم ثلاثة ملايين نسمة. في حين لم تكن نسبة سكان المدن العرب تتجاوز ٢٩٪ من أهالي فلسطين البالغ عددهم قرابة مليون وخمسمائة نسمة (عدد السكان اليهود بلغ انذاك ١٢٨٥٠٠ نسمة)، فيما يشكل اليهود نسبة ٧٣.٦٪ // الشريف، م. تاريخ فلسطين الإقتصادي الاجتماعي. بيروت ١٩٨٥ ص ١٠٠.

معطيات الباحث الفلسطيني هذه لا تتعارض مع إستنتاجات زميله الإسرائيلي فيما يخص الأوضاع الفلسطينية في بداية الثلاثينات // غوجانسكي ت. نشوء الرأسمالية في فلسطين. حيفا ١٩٨٦ ص ١٧١ - ١٧٢.

الموقف السوري في تلك الحقبة محلل بقدر كاف في البحثين التاليين: السباعي ب. عدوى الرأسمال الأجنبي في سورية ١٨٥٠ - ١٩٥٨ دمشق ١٩٦٨ ص ٤٠ - ٤٩. وكذلك م. الحموش تطور الإقتصاد السوري الحديث. دمشق ١٩٨٣ ص ١٢٤ - ١٢٦.

السنة وكبار رجال الأعمال الأوائل الذين نشأوا من بيئة النبلاء (البكوات) التقليديين^(١). دور هذه الفئات من المجتمع المحلي في الحياة السياسية بسورية ولبنان والمنطقة العربية من فلسطين، ظل من العوامل الفاعلة في الحياة السياسية ليس فقط في الفترة بين الحربين العالميتين، بل ولأمد طويل بعدها. وكاد هذا الواقع يغدو بالنسبة لعرب فلسطين أهم سبب لنكبة ١٩٤٨ م^(٢). واستنتج الوطنيون الراديكاليون العرب أن حالة الإضطهاد في البلدان التي نشأت في أراضي الشام التاريخية والبعيدة عن المضمون الوطني الحقيقي تعود ليس فقط إلى التوسع العسكري المباشر من قبل الدول الغربية. فقد ساعد على ذلك بقدر غير

(١) بعد احتلال سورية في عام ١٩٢٠ قسمت أراضيها إلى عدة دويلات طائفية - دولة دمشق السنية ودولة حلب السنية ودولة جبل الدروز ودولة جبل العلويين. ترأسها زعماء تقليديون سلم إليهم قسم كبير من الأراضي الأميرية العثمانية التي صادرها الفرنسيون، وكذلك سلطات الإدارة المحلية. سياسة الإعتماد على نخبة الطائفة المارونية كانت نهج سلوك الإدارة الفرنسية في لبنان أيضاً. وفيما بعد اعتبر الشيوعيون السوريون المناورة في التقدم نحو إحراز إستقلال سورية من قبل أكبر حزب سياسي في البلاد في أواخر العشرينات وفي الثلاثينات، أي الكتلة الوطنية المكونة أساساً من أبناء الطبقات التقليدية لكبار رجال الأعمال، دليلاً على التحالف الوثيق بين زعمائها وبين سلطات دولتي الانتداب. وجهة النظر هذه مسجلة بدقة في كتابات الأمين العام السابق للحزب الشيوعي السوري. راجع: حوار شامل مع الرفيق خالد بكداش حول قضايا التاريخ وقضايا الساعة. "النهج" ١٩٨٣ العدد ٢ ص ٩٦ - ١٣٩.

(٢) نتائج دراسات مركز الأبحاث التابع لمنظمة التحرير الفلسطينية ببيروت تدل على أن ٢٨ من ٣٢ عضواً (٨٧,٥٪) في اللجنة العربية العليا التي تشكلت عام ١٩٣٦ لقيادة وتمثيل المجتمع العربي الفلسطيني كانوا من أبناء أكبر العوائل العشائرية الفلسطينية. ربع أعضاء اللجنة فقط يمكن إعتبارهم من أبناء البرجوازية. وكان ١٨ عضواً في اللجنة (٦٤,٣٪) من كبار ملاكي الأراضي، وثلاثة منهم تجار معروفون، علماً بأن إثنين منهم ينحدران من العوائل التقليدية. هذه المعلومات لا تخص فترة ما بعد الحرب العالمية الأولى، فهي عائدة للنصف الثاني من الأربعينات // الناشف ت. النخبة السياسية للمجتمع العربي الفلسطيني. "شؤون فلسطينية" بيروت ١٩٧٥ العدد ٤٨ ص ١٣١ - ١٦٧.

قليل "الخونة" المحليون من أبناء طبقات رجال الأعمال التقليدية والمرتبطة بالمحتلين الأجانب. ثم أن الطبيعة الهامشية للرأسمال الوطني وإرتباطه الوثيق مع انماط الإنتاج التقليدية وظهور الإنتاج الرأسمالي الحديث على أساس التوظيفات المالية بالكامل تقريباً من دولتي الانتداب كل ذلك عزز التصور الانف الذكر^(١). وكان ذلك أمراً هاماً لأن غزو الرأسمال الأوروبي بشكل توسع إقتصادي وبشكل إحتلال إستعماري مباشر ما كان يعني أبداً تصفية البنى الإقطاعية العشائرية والإجتماعية والإقتصادية، بل اكتفى بتوجيه تطور ممتلكات فرنسا وبريطانيا من الأراضي الجديدة في الشرق الأوسط صوب تحويلها على الأغلب إلى أطراف زراعية وخامية للدولتين الإستعماريتين^(٢)، الأمر الذي حظي، في

(١) عملية نشوء العلاقات ذات الطابع الرأسمالي كحvisلة للتوسع الإستعماري الأوروبي في الولايات العربية من الإمبراطورية العثمانية مدروسة بالقدر الكافي في مؤلفات المؤرخين والإقتصاديين في العالم العربي. وقد أشاروا إلى أنه حصل في منتصف القرن الماضي "غرس أشكال النشاط الرأسمالي القائمة آنذاك في أوروبا الغربية بالبلاد العربية // تطور الرأسمالية في العالم العربي. موسكو ١٩٨٨ ص ٢٤ - ٢٥.

(٢) الإتجاه نحو تغيير وجهة تطور الإقتصاد في سورية نحو زراعة القطن والتبغ كان واضحاً في نشاط إدارة الانتداب الفرنسي. ونجد الشيء ذاته في لبنان. وبالنسبة لفلسطين كانت هناك طبيعة خصوصية لنشوء أسلوب الإنتاج الرأسمالي. هذه الأراضي المتخلفة القليلة السكان والمفتقرة إلى الثروات الطبيعية المرموقة جلبت انتباه الانجليز ليس لإعتبارات اقتصادية، بل لموقعها الإستراتيجي كمركز إسناد لحماية قناة السويس والطريق البري إلى الهند. وإقتصر النشاط الإقتصادي للإدارة البريطانية هنا على بعض قطاعات الإنتاج وعلى مشاريع البنية التحتية المرتبطة بحل المهمات العسكرية الإستراتيجية (السكك الحديدية وطرق السيارات وميناء حيفا الذي كان يتواجد فيه أيضاً أحد مستودعات انبوب النفط الممتد من العراق) وكذلك بإحتكار تجارة الجملة والتجارة الخارجية. ولعبت الدور الأساسي في نشوء النمط الرأسمالي بفلسطين رساميل البرجوازية الأوروبية الغربية ذات المنشأ اليهودي التي إستخدمها الصهاينة في بناء قاعدة اقتصادية "للموطن اليهودي القومي" التي غدت قطاعاً يهودياً خاصاً في الإقتصاد

=/=

إعتقاد القسم الراديكالي المتحرر من المثقفين الوطنيين ، بتأييد غير مشروط من طرف الزعماء التقليديين.

ما كان لفكرة النهضة الوطنية إلا أن تصطبغ بالتلاوين "الإشتراكية". فالتطور السابق لأيدولوجية "القضية الوطنية" وفر المقدمات الضرورية لهذا الغرض. إلا أن الوضع الجديد جعل تلك التلاوين أكثر سطوعاً ، حيث ساعد على بلورتها النهائية.

عملية التجديد الروحي التي دخلت التاريخ تحت مسمى " النهضة العربية " والتي بدأت في الولايات العربية للإمبراطورية العثمانية في النصف الأول من القرن التاسع عشر جاءت كفاتحة لإهتمام العرب غير المسبوق بمنجزات الفكر العلمي والتقني الأوروبي والثقافة الغربية وأصول الحياة الاجتماعية والسياسية في أوروبا^(١). أيدولوجية التنوير العربي التي ظهرت في تلك الحقبة وواجهت الركود الإقطاعي والتعصب الطائفي بالمثل العليا لبناء المجتمع العادل والتقدم الاجتماعي ومكافحة الإستبداد والطغيان كانت في الوقت ذاته إيدولوجية غرس الوعي الذاتي الوطني وروح المواطنة. ومن عناصرها المكونة التي لا تتجزأ العودة إلى تاريخ العرب الوطني التليد وأعظم آثار الحضارة العربية الإسلامية. كلا مكوني الفكر التنويري - الحداثة الأوروبية وتراث الحضارة العربية الإسلامية تفاعلا معاً ، بل وكاملاً أحدهما الآخر ، فدفعاً إلى الأمام مهمات التخلص من النير العثماني وبناء المجتمع الوطني على أسس ديمقراطية ، بما في ذلك تأسيس دولة وطنية موحدة في "بلاد الشام".

الفلسطيني يخدم في المقام الأول الوافدين اليهود من أوروبا الشرقية.

(١) ثمة بحوث روسية كثيرة جداً مكرسة لتحليل " النهضة العربية " ، نشير منها إلى كتابات ل. كوتلوف وز. ليفين وف. لوتسكي.

وغداً أمراً مبدئياً بالقدر الكافي أن أبناء الأوساط العربية المسيحية كانوا من أبرز ممثلي أيديولوجية التنوير في مرحلة إقامة قاعدتها النظرية وفيما بعد - في بداية القرن العشرين، حين تحولت هذه الأيديولوجية إلى وسيلة للممارسات السياسية. وهذا التقليد الذي تجسد بمعنى ما بعد سقوط الإمبراطورية العثمانية في الأحزاب العلمانية المدنية - الشيوعية والقومية^(١) التي نشأت في أراضي بلاد الشام ظل محافظاً على تواجدته. وبالطبع هذه الظاهرة يمكن أن تعزى إلى الاتصالات الأقدم بالنسبة للمسيحيين من جيرانهم المسلمين مع أوروبا ذات الديانة الواحدة التي كانوا لأمد طويل يعتبرونها "ملكة الصليب المناوئ للهِلال". ظهور المسيحيين الذين أدخلوا في متداول رعايا الإمبراطورية العثمانية المقسمين بحدود دينية أفكاراً ومفاهيم غير معروفة سابقاً على مقدمة مسرح الحياة السياسية والاجتماعية نابع ليس من إحترامهم الكبير لمنجزات أوروبا وقدرتهم الكبيرة على تكييف تلك المنجزات لواقع معيشتهم. فان تقبل منجزات الفكر العلمي والتقني الأوروبي، وكذلك نمط الحياة، لم يسفر على أية حال عن تبدلات راديكالية جذرية في الحياة الداخلية لطوائف واسعة من المذاهب المسيحية في "بلاد الشام". فقد ظلت تلك المذاهب مغلقة ليس فقط في وجه أبناء المذاهب المسيحية غير الأرثوذكسية، بل وكذلك أبناء الجماعات الدينية الأخرى. وقد احتفظت الطوائف المسيحية بالمراتبية العشائرية في تركيبها الاجتماعية.

(١) لعل من أفضل الأمثلة على بقاء تقاليد الدور الريادي للمسيحيين المحليين في مضمار الحياة السياسية العصرية في سورية هو ظهور الحزب السوري القومي الاجتماعي الذي أسسه في الثلاثينات انطون سعادة. كما لعب ميشيل عفلق الدور الرائد في تأسيس البنية التنظيمية والأيديولوجية البعثية - حزب البعث العربي الاشتراكي. أما في لبنان فقد ظهرت أولى الأحزاب السياسية كحصيلة لنشاط المسيحيين اللبنانيين، فيما ظهرت الأحزاب السياسية الإسلامية في هذا البلد في خمسينات القرن العشرين على أفضل تقدير.

وواصل رجال الدين أداء دور هام في تلك الطوائف ، بما في ذلك الدور السياسي. كانت مشرقيتهم الأكبر بالمقارنة مع مشرقية المسلمين تمثل جماعات بشرية ، ولا تمثل بالضرورة شخصياتهم الفردية.

ومع ذلك كان أبناء هذه الأقليات الدينية يتحدثون عن "الأعراب" مستخدمين في التداول اللفظي لزمانهم هذا المصطلح العابر للأديان والذي يقصد به البدو الرحل ويراد له أن يؤمن وحدة قومية شعارها الفكرة القائلة "الدين لله والوطن للجميع". وفي ظروف الأقلية التي تعتبرها الأكثرية الإسلامية عنصراً "غريباً" أو "مقبولاً" في أقل تقدير والتي تعقدها علاقات رجال الأعمال الجديدة التي جاء بها الأوروبيون وفتت المجتمع العثماني التقليدي^(١) شكّل المنورون المسيحيون في بلاد الشام مجتمعاً أضفوا فيه صفة الشرعية على وجودهم.

كان الفكر الاشتراكي جزءاً من أيديولوجية "النهضة العربية" وقد ظهر بالطبع كنتيجة لإطلاع المنورين على مختلف تيارات الاشتراكية الأوروبية وأعتبروه قضية لعدم التكافؤ الاجتماعي في المقام الأول. وإلى ذلك وُضع هذا الفكر ضمن مهمات إصلاح الحياة الاجتماعية على أساس مبادئ النزعتين الدستورية والبرلمانية وتوعية الشعب والانسان والأخلاق وتحرير الفرد من نير التقاليد ومن التعصب الديني^(٢). وقد حظي بقبول واسع نسبياً ولم يقتصر على فكرة المجابهة الطبقية والانقلاب الاشتراكي لصالح فئات السكان

(١) راجع بهذا الخصوص // جانتيف د. ر. التقليد والتجديد في المشرق العربي : الإصلاحات في ولايات الشام من الإمبراطورية العثمانية أواخر القرن الثامن عشر - أوائل القرن العشرين. موسكو ١٩٩٨.

(٢) راجع المزيد من التفاصيل بهذا الخصوص // كوساتش ج.ج. الأفكار الاشتراكية في المشرق العربي (أواخر القرن التاسع عشر - أوائل القرن العشرين) // القضايا الملحة للعملية الثورية العالمية. موسكو

المظلومة. لقد كانت تلك بالنسبة للمنورين العرب إشتراكية ذات خصوصية قومية واضحة. فالأمة مهانة مضطهدة. أعداؤها الجهل وإستبداد الحكام وغياب أبسط الحقوق المدنية والشخصية. وكان يمكن تخلص المجتمع من هذه العيوب بالمثال الأعلى الإشتراكي المفسر على أنه إشتراكية التعاون بين المنورين من أنصار الطريق الجديد للتطور الوطني القومي.

وقد ساقبت بداية القرن العشرين الدليل على أن الفكر الإشتراكي المقتبس من أوروبا والذي فسر على أنه طريق فعلي للنهضة الوطنية والإصلاح الدؤوب للمجتمع قد اكتسب سمات التقليد القومي. أحكامه طرحت على صفحات الروايات والبحوث الإجتماعية والمؤلفات المختصة بتحليل قضايا تطور الحركات الإشتراكية الأوروبية. وأخذ المؤلفون الذين كتبوا عن الإشتراكية يتولون ليس فقط دور المراسلين المجهولين للصحف والمجلات، بل وكذلك المشاركين النشطاء في الحياة الإجتماعية والسياسية. إلا أن الإشتراكية ظلت تعتبر بمثابة مستقبل بعيد ومثال أعلى يستغرق تطبيقه زمناً طويلاً، وستكرس لها حياة أكثر من جيل من مواصلي السير نحو الكمال الباطني والمتحررين أكثر فأكثر من نير الوسواس والخرافات المشين. ويستنتج من ذلك منطقياً عدم ضرورة وجود الحزب السياسي المناضل في الحال الحاضر من أجل الإشتراكية. وبالطبع ما كان يمكن الكلام انذاك عن البروليتاريا بوصفها الأساس الإجتماعي لمثل هذا الحزب.

حصيلة الحرب العالمية الأولى والثورة البلشفية في روسيا غيرت جذرياً البنية الداخلية للتقليد الإشتراكي في نظريات المثقفين الراديكاليين في بلاد الشام. الإحتلال الإستعماري غير الموقف من الغرب بإعتباره توجهاً لا جدال فيه للتطور. وبات من عناصر هذا التغيير رفض وانكار الإشتراكية الإصلاحية الغربية. أما الثورة الروسية، وبالدرجة الأولى خطابها المناهض للغرب بشدة، فقد أثار إهتماماً هائلاً لدى العرب بالتأويل الجديد للإشتراكية. وباتت هذه التأويلات بالنسبة لقسم من المثقفين الوطنيين فرصة للخروج من المأزق،

حيث شجعت الطموح إلى إقامة الإتصالات مع الذين إستطاعوا أن يقدموا بديلاً عن الحضارة الأوروبية التي لوثت سمعتها بنفسها.

البلاشفة أعادوا بناء الدولة العظمى بعد أن بدت منهارة مقوضة إلى الأبد. وكانت طرائق عملهم قابلة للإستعمال من أجل تحقيق فكرة الدولة الوطنية القومية العربية في إطار بلاد الشام التي قسمها الأجنبي إلى دويلات. وأخذ البلاشفة يبحثون جذور الطبقات "الرجعية" والنزعة الانفصالية الإقليمية والقومية. ولكن لماذا يُعتقد أن أعمالهم تنطوي من كل بد على صبغة سلبية، ولهذا السبب تغدو غير مقبولة إذا كانت الرغبة في "وطن للجميع" قد بددتها تصرفات "الرجعية" الإقطاعية والطائفية التي باتت من أعوان المستعمرين الغربيين؟ لماذا ينبغي أن ترفض أعمالهم في وضع ظهرت خلاله موضوعياً في حدود الدويلات التي فصلت على أرض الشام أسواق وطنية توجد في تطورها المستقر مصلحة لرجال الأعمال المحليين الذين تربوا بفضل الغرب وهم مرتبطون عضوياً بنفس الإقطاعيين و"شيوخ" الطوائف والجماعات الدينية؟ البلاشفة أنفسهم إعتمدوا على "البروليتاريا" المعدمين، أفلا يوجد في حدود "الأوطان" العربية "معدمون" لا يهتم بمصيرهم الأثرياء الأجانب والنبلاء المحليون وشيوخ العشائر؟

تجذر الفكرة الإشتراكية في بلاد الشام كان مرتبطاً إرتباطاً عضوياً بتطور الحركة الإشتراكية الأوروبية. ولعل الطابع الإصلاحي للتقليد الإشتراكي المحلي يحدده أيضاً تأويل الاشتراكية المهيمن في أوروبا في مطلع القرن العشرين. وبنفس القدر غدا تأويلها الجديد ثمرة لتأثير قوي من الخارج. الموقف الجديد غير الثابت بعد في البلدان التي ظهرت في الشرق الأوسط خلق توجها واضحاً نحو دفع جماعات الفعل السياسي الجديدة القليلة العدد إلى الأمام. وقد تنامت هذه الجماعات من الملابس السابقة لتطور المنطقة ومن الجو الفكري السائد في أراضيها. وباتت بمثابة نخبة مضادة. وفي سياق مواجهتها للنظام الذي قام وبدا

لمثلي هذه الجماعات بدون تبدل جوهرى أخذت تبحث عن قوة كبيرة يتطلبها تقدمها الموفق إلى الأمام. وباتت روسيا السوفيتية بالنسبة لها هي تلك القوة التي ربطت بها مصيرها عندما تحولت إلى جماعات شيوعية.

إلا أن الجماعات اليسارية في صفوف الأحزاب الاشتراكية اليهودية والأرمنية لعبت دوراً كبيراً في نشوء الأحزاب الشيوعية في الأقطار التي قامت في إطار بلاد الشام التاريخية. ورغم ذلك كان سيرها نحو الاتصالات مع روسيا البلشفية مميزاً، مع أن الأبعاد العامة لهذه العملية شبيهة بالطريق المماثل الذي سلكه رفاقها العرب.

الحركة الشيوعية في فلسطين "بدأت في بيئة الشغيلة اليهودية تماماً"^(١). وقد نشأت بتأثير عمليات التمايز والانشقاق في صفوف "الجناح اليساري للصهاينة"^(٢) الذي تمثله في المقام الأول الشعبة الفلسطينية لإتحاد العمال الاشتراكي اليهودي العالمي - بوعالي تسيون (عمال صهيون). وتلك أكبر منظمة سياسية متنفذة في صفوف كتلة الحركة القومية اليهودية في بداية القرن العشرين التي اعتبرت أن بالإمكان حل المسألة اليهودية، وإحياء الشعب اليهودي إرتباطاً بها، ليس في أراضي أوروبا الشرقية ومنها روسيا، بل في بلاد الشام، في فلسطين (إيريتس عزرائيل - أرض إسرائيل)^(٣).

(١) فيلنر م. خمسون عاماً من عمر الحزب الشيوعي في البلاد. تل أبيب ١٩٧٠. ص ٢٠.

(٢) توما أ. ستون عاماً على الحركة القومية العربية الفلسطينية. القدس ١٩٧٩ ص ٦٨.

(٣) ثمة مؤلفات كثيرة مكرسة لقضايا الصهيونية، بما فيها حركة بوعالي تسيون وقضايا التمايز في صفوفها. راجع مثلاً// الشريف م. الأهمية الشعبية وفلسطين ١٩١٩ - ١٩٢٨ بيروت ١٩٨٥. في الدراسات الروسية لهذه المسألة راجع// داديانى ل. نقد أيديولوجية وسياسة الاشتراكية الصهيونية. موسكو ١٩٨٦. //كوساتش ج.ج. من تاريخ نشوء الحزب الشيوعي الفلسطيني (١٩١٩ - ١٩٢٤) // الكفاح في سبيل التقدم الاجتماعي بالشرق. موسكو ١٩٩٠.

تشكلت الخلية الأولى لحزب "بوعالي تسيون" على تخوم عامي ١٩٠٠ - ١٩٠١ من قبل جماعة من المثقفين اليهود بمدينة مينسك. وفي الوقت ذاته ظهرت خلايا جديدة للحزب في عدد من مدن "الخط الحضري" الأخرى (مناطق إقامة اليهود في الإمبراطورية الروسية)، يكايرنسلاف وأوديسا وفيتيبسك وفيلنو ووارسو. وسرعان ما عبرت حركة بوعالي تسيون حدود روسيا، حيث ظهرت شعبة لها في النمسا - المجر (١٩٠٣) وفي الولايات المتحدة (١٩٠٣) وبريطانيا (١٩٠٥) وفلسطين (١٩٠٥). وفي مؤتمر شعبة بوعالي تسيون في لاهاي عام ١٩٠٧ تأسس إتحاد العمال الإشتراكي اليهودي العالمي (بوعالي تسيون)، وحضر المؤتمر وفد روسي برئاسة أحد أبرز منظري الإشتراكية الصهيونية بير بوروخوف.

أفكار بير بوروخوف التي انعكست بشكل مكثف في نظرية "القومية الفاعلة" تختلف عن فكرته حول "المنافسة القومية بلا هوادة" التي وضعها في مطلع القرن كأوضح ظاهرة للمرحلة الجديدة من تطور الرأسمالية^(١). وقد إستهدفت هذه المنافسة إمتلاك "مقومات الإنتاج"، بما فيها بالدرجة الأولى الدولة الوطنية التي هي "كيان جغرافي قومي تاريخي تتطور في حدوده القوى المنتجة لكل أمة". وهو يعتقد أن الأمة، اليهودية مثلاً، إذا كانت لا تمتلك هذا العنصر من "مقومات الإنتاج" فإن حل مشاكلها القومية يتطلب إزالة هذه "الحالة غير الطبيعية لمقومات الإنتاج". وبذلك فقط، كما يرى بوروخوف، تنهياً المقدمات لتطوير الصراع الطبقي في الدولة اليهودية، ذلك لأن عدم إمتلاك البروليتاريا لأرض

(١) هنا وفيما بعد أوردنا وجهة نظر بوعالي تسيون نقلاً عن بوروخوف ف. الطبقة والأمة. تونس ١٩٤٥

ص ٦١ - ٦٨ (بالفرنسية):

Boroehm .La Class: :1 la №13... Tunis, 194s, p 61-63

مضمونة يقود حتماً ليس إلى تعميق عمليات التمايز الاجتماعي ، بل على العكس إلى "هيمنة المسائل القومية على المسائل الطبقية بحكم أهمية الأولى".

بالنسبة لبوروخوف "الصهيوني الاشتراكي الديمقراطي الماركسي" البروليتاريا اليهودية فقط هي التي يمكن اعتبارها الطبقة الأكثر ثباتاً في طموحها إلى الحل الراديكالي الجذري لمسألة توفير "مقومات الإنتاج الطبيعية" للأمة. "إلا أن" شذوذ وجود اليهود غير الطبيعي "في أقطار أوروبا الشرقية لا يميز الكلام عن بروليتاريا يهودية قائمة فعلاً. البروليتاريا في البنية الاجتماعية للسكان اليهود ، بخلاف أمم أوروبا الشرقية الأخرى ، تشغل مرتبة متواضعة جداً ، بل أقل عددياً وفكرياً من البرجوازية الصغيرة. زد على ذلك أن هذه البروليتاريا ما كان بوسعها أن تظهر في أوروبا الشرقية. "المنافسة القومية" لرجال الأعمال من غير اليهود والتي تدعمها البنى السلطوية لدولة الأكثرية القومية من شأنها أن تحبط أية محاولة لظهورها ، وبالتالي لانبعاث الأمة نفسها في أي مكان ما عدا فلسطين (إيريس عزرائيل). أن الصيغة الاشتراكية لحل المشكلة اليهودية ، في رأي بوروخوف ، تقترح تنظيم الهجرة إلى بلد متخلف من الناحية الاقتصادية يحصل فيه الشغيلة اليهود على منفذ "مفتوح" إلى "قطاعات الإنتاج الأساسية". فلسطين ينبغي أن تكون هي البلد المقصود "بحكم الرابطة الروحية المتينة بينها وبين الجماهير الكادحة اليهودية".

في عدد من مؤلفاته تناول "بير بوروخوف" بهذا القدر أو ذاك مسألة عرب فلسطين أيضاً. وهو يسميهم "الأهالي المولودين في فلسطين". ويزعم أنهم لا يمتلكون ثقافة قومية خاصة بهم ولا غيرها من سمات الأمة. كتب يقول : "أنهم سيتقبلون أية ثقافة مستوردة بشرط أن تكون أرقى من ثقافتهم. ولن يستطيعوا أن يبدو أي مقاومة منظمة للتأثيرات الخارجية ولن يتمكنوا من الدخول في منافسة قومية". ولذا يجب أن ينصهر سكان فلسطين العرب من الناحيتين الاقتصادية والثقافية في بوتقة الذين يؤمنون النظام في البلد ويعملون

على تطوير قواه المنتجة"^(١).

في عام ١٩٠٥ وصلت إلى فلسطين أول مجموعة من الإشتراكيين الصهيونيين الروس. وفي العام التالي عقد المؤتمر الأول لشعبة "بوعالي تسيون" الفلسطينية. وقد تعالت في أثناء عمله بهذا القدر من الوضوح أو ذاك الدعوات لتوسيع توغل رساميل البرجوازية اليهودية داخل فلسطين لأن هذه الرساميل فقط تستطيع حفز بناء طبقة عاملة يهودية في البلد. وبات التعاون مع الصهاينة "البرجوازيين" بالنسبة لأعضاء بوعالي تسيون الفلسطينيين ضرورة ملحة لأن "الطبقة العاملة اليهودية" ما كانت ستظهر إلا بواسطة الرساميل التي يوظفونها في الإقتصاد الفلسطيني. وبدورها صارت تلك الطبقة فور نشوئها جزءاً من "جيش البروليتاريا العالمي" المناضل في سبيل التحويل الإشتراكي للعالم. ومن أجل التصدي للبرجوازية "العالمية"، بما فيها البرجوازية اليهودية. واختمر في صفوف الشعبة إعتقاد بضرورة الإتصالات مع مؤسسات المنظمة الصهيونية العالمية "البرجوازية" وفروعها الفلسطينية. وأعرب زعماء الشعبة عن تأييدهم للتخلي التام عن لغة الإيديش وإختيار اللغة العبرية بصفة اللغة الوطنية الوحيدة^(٢). وفي سياق مؤتمرهم الثاني عام ١٩٠٧ رفع

(١) أوفينبيرغ م. الشيوعية في فلسطين ١٩٧٥ ص ٥٤ (بالألمانية):

Kommunismus In Pala'stina. Nation und Klass...dzt anlikolonialen Revolution. Meisenheim-am-Glan, 1975. s 54.

(٢) في المؤتمر الخامس الذي عقدته في يافا عام ١٩١٠ شعبة بوعالي تسيون الفلسطينية التي تزعمها في تلك

السنوات ديفيد بن غوريون وإسحاق بن تسفي أقر برنامجها السياسي الذي تضمن حصيلة خمس سنوات تقريباً من البحث عن الشكل والطرق الملموسة لتحقيق أفكار بير بوروخوف في ظروف "الوطن التاريخي لليهود". وتتلخص الأحكام الأساسية لهذه الوثيقة فيما يلي: أشار صهاينة بوعالي الفلسطينيون إلى أن "هدفهم القومي" هو تأسيس "مجتمع يهودي ذي سيادة" في البلد الطريق إليه ينبغي أن يمر عبر زيادة تعداد العمال اليهود في حدود "أرض الوطن" وتعزيز مواقعهم في الحياة السياسية والإقتصادية
=/=

أفراد بوعالي تسيون الفلسطينيون شعار "الإستيلاء على الأرض" وشعار "الإستيلاء على العمل" في إتجاههما الشديد العداء للعرب^(١). وتوجه العمال اليهود إلى الأراضي التي إقتنتها صناديق المنظمة الصهيونية العالمية من الإقطاعيين العرب اللأباليين، وكان الهدف هو طرد الفلاحين العرب من هناك وتأسيس المستوطنات الزراعية اليهودية. كما بات من مهماتهم طرد العمال العرب من المؤسسات الانتاجية العائدة لرجال الأعمال اليهود. وأشار الشيوعيون الفلسطينيون فيما بعد إلى "أن الإشتراكيين اليهود الذين وصلوا إلى فلسطين دخلوا مباشرة في نزاع مع السكان المحليين" ولذا "بات العامل العربي ينظر إلى اليهودي ليس فقط كمنافس له بل وكدركي"^(٢).

والإجتماعية في فلسطين. ونص البرنامج على الرفض التام للغة الإيديش والثقافة التي بنيت عليها في بلدان الشتات اليهودي، وكذلك الإختيار النهائي للغة العبرية بصفتها "لغة الأمة". كما حلت إيجابياً مسألة مشاركة الشعبة في نشاط المؤسسات الصهيونية القائمة في فلسطين في تلك الحقبة بشرط "ألا يتعارض مبدئياً مع قضية العمال". وفيما بعد كان يتعين على "بوعالي تسيون" أن تنتقل إلى تنفيذ برنامج الحد الأعلى وهو تصفية الطبقات بتسليم وسائل الإنتاج إلى كل أفراد المجتمع بإعتبار ذلك طريقاً فعلياً نحو قيام النظام الإشتراكي العالمي. - أوفينبيرغ م. المصدر المذكور ص ١٥٠ - ١٥١.

(١) في الفترة ١٩٠٨ - ١٩١٠ تأسست بواسطة "الإستيطان العمالي" أولى التعاونيات الزراعية - الموشاوات والكيوتسات. هذه الشبكة من الجمعيات التعاونية تأسست ليس فقط في الزراعة، بل وفي ميادين الصناعة والبناء والخدمات، حيث أزيح العرب منها. وكانت نقابة الهستدروت (مختصر إسم الإتحاد العام للعمال اليهود) التي تسيطر عليها بوعالي تسيون أكبر نقابة في تلك الحقبة، بل النقابة المتخصصة الوحيدة في الشرق الأوسط. وما كان يقبل في عضويتها أحد سوى اليهود. وتجلى الموقف تجاه العمال العرب في قول بن غوريون من "أن حاجات الصهيونية" تتقاطع ليس فقط مع تشكيل النقابات المختلطة العربية اليهودية، بل وترفض أية مطالبة بأي نشاط في البيئة العربية يهدف إلى تشكيل منظمات عمالية وإتحادات نقابية هناك - أوفينبيرغ، المصدر المذكور، ص ١٤٧.

(٢) أفيغودور الحركة العمالية في فلسطين. مجلة "المراسلات الصحافية الأومية" ١٩٢٣ العدد ١٥ ص ٢٨٤.

=/=

ومع ذلك لم تشهد صفوف شعبة بوعالي تسيون الفلسطينية أبداً وحدة الرأي حول المسألة الرئيسية لنشاطها. ففي معرض التعليق على سير أعمال مؤتمرها الأول كتب أحد المشاركين فيه يقول: "الزعماء الذين تكلموا بإستهانة وإحتقار عن مشكلة تنظيم العمال العرب تعرضوا في سياق المناقشات لتهجمات شديدة... بن غوريون رفض قطعاً فكرة قبول العمال العرب في نقابة الشغيلة الزراعيين ... وكادت الخلافات في المؤتمر تتحول إلى انشقاق أمكن تجاوزه بعد أن طرح ممثلو الأكثرية إقتراحاً بمنع أي نشاط تنظيمي يقوم به الحزب رسمياً بين العرب، بشرط أن يتمتع أعضاء الحزب بحق البت في هذه المسألة بصورة فردية"^(١). وفي المؤتمر الثاني لبوعالي تسيون الفلسطينيين أعلن ممثلو جناحهم اليساري أن "الحزب يجب أن يرفع ليس شعار"الإستيلاء على العمل" الذي يعني طرد العرب من الأماكن التي يشغلونها في المعامل. فالعامل اليهودي يجب أن يطمح إلى تنظيم العامل العربي وبالتالي إلى تقليل تأثير الأفندية الإقطاعيين عليه (الأفندية هنا بمعنى الوجهاء العشائريين التقليديين - ملاحظة كوساتش)^(٢). انذاك تم بجهود اليساريين من أعضاء بوعالي تسيون تنظيم أول إضراب في تاريخ عرب فلسطين للعمال من قرية "اليهودية" العاملين في مزارع الحمضيات بمستوطنة بتاح - تكفا اليهودية الزراعية.

ولم تكن أقل حدة في صفوف بوعالي تسيون الفلسطينية مسألة اللغة. فاليساريون يعتقدون أن الإيديش (وهي لهجة ألمانية) وحدها تستطيع أن تكون اللغة التي يمكن

كانت شوفينية زعماء بوعالي تسيون ضد العرب دوماً أهم عامل للتمايز بين أنصار هذه الحركة الفلسطينيين في تلك الحقبة. راجع مذكرات الشخصية المعروفة في الحركة الشيوعية الفلسطينية والإسرائيلية روت لوبيتش // لوبيتش ر. إخترت حياة النضال. تل أبيب ١٩٨٥م، ص ١٩ - ٢٤.

(١) أوفينبيرغ، المصدر المذكور ص ١٤٧.

(٢) المصدر ذاته.

بواسطتها الاتصال مع الشعبات اليهودية الأخرى ، فاحتجوا بشدة على المكانة المميزة للعبرية كلغة رسمية وحيدة في بيئة سلالة الإشع الفلسطينيين^(١). إلا أن وجهة نظر هذه الأقلية رفضت نهائياً في فبراير ١٩١٩ ، خلال عمل المؤتمر الثامن لحزب بوعالي تسيون الفلسطيني. فقد رد ممثل الأغلبية إسحاق بن تسفي على خصومه قائلاً: "هنا ، في فلسطين ، لا مكان للإيديش. والحزب لن يبحث هذه المسألة بعد الان أبداً"^(٢). وإحتجاجاً على تصريح الزعيم انسحب أنصار الإيديش من قاعة الجلسات. إلا أن مشكلة اللغة ظلت طوال سنين ، حتى أواخر العشرينات ، موضع جدال في صفوف الاشتراكيين الصهاينة الفلسطينيين. وبدورهم دافع الشيوعيون طوال السنوات الأولى من نشاط الحزب الشيوعي في البلاد عن الإيديش معتبرين العبرية إحدى وسائل تحقيق المشروع الصهيوني لا أكثر^(٣).

الثورة البلشفية في روسيا التي واصل أعضاء بوعالي تسيون الفلسطينيون الإتصالات الوثيقة معها مارست تأثيراً لا جدال فيه على العمليات الجارية في صفوف هذا التنظيم. علماً بأن الفوارق التي بدت جذرية بين الوضع الروسي والوضع الفلسطيني يمكن أن

(١) في الأصل إيشوا (ربما الإشع) سكان فلسطين اليهود وكذلك مجمل مؤسساتهم السياسية والاقتصادية والإجتماعية في فترة ما قبل تأسيس دولة إسرائيل عام ١٩٤٨ .

(٢) المصدر ذاته ، ص ١٥٢ .

(٣) راجع أبوزيام الفاشية في فلسطين ١٩٢٤ ، ص ٣٠٣ - ٣٠٤ .

Abouziyam. L: assume an Palestine// «L'Inzemsunnal: syndicsle mug». 19249 N 39, P. 303-304.

حتى مطلع الثلاثينات كان الشيوعيون الفلسطينيون يصدرن مطبوعاتها باللغة الإيديش وحدها. وفي سبتمبر ١٩٣١ صدر بالعبرية أول عدد من جريدة "هاؤور" (النور) التي تعبر عن وجهة نظر الحزب. // فيلنر ميخا عشرون عاماً ثم أربعون . تل أبيب أكتوبر ١٩٨٥ ، ص ١١ .

تفسر في واقع الأمر لجهة إبراز سمات في كل منهما تعتبر تشابهاً موضوعياً بينهما. وما كان بوسع اليساريين من أعضاء بوعالي تسيون أن يتغاضوا عن أن بناء مجتمع اليسع الفلسطيني يبعث في "وطن اليهود التاريخي" أسوأ سمات "المنافسة القومية" التي باتت، بحسب بير بوروخوف، العائق الرئيسي على طريق البعث القومي لشعبهم. وبعد تأسيس قطاع رأسمالي زراعي وصناعي ومالي متطور نسبياً في فلسطين يخدمه بالأساس الوافدون اليهود والبرجوازية اليهودية المعتمدة على المنظمة الصهيونية العالمية والشعبة المحلية لبوعالي تسيون لم تهدف تلك المنافسة من ورائه بأي حال إلى أداء الدور الملازم تاريخياً للتوسع الإستيطاني اليهودي في المنطقة الأفريقية الآسيوية. فالقطاع المذكور شمل مجتمع اليسع فقط. فيما بقي النمط ما قبل الرأسمالي في الوسط العربي الفلسطيني على حاله دون تدمير، ولم يسمح للسكان العرب في هذه البلاد أن يشاركوا في الإنتاج الحديث إلا بالقدر القليل. ونشأت الواحة الرأسمالية الفلسطينية لدرجة كبيرة بدون مساهمة من السكان العرب. مستواها العالي نسبياً والرساميل المتركة فيها أعاقَت تطور الطبقات الحديثة في إطار المجتمع العربي الفلسطيني. وفي مدن فلسطين خلق نشاط الصناديق الصهيونية الإستيطاني في الريف الفلسطيني الذي حرم جماهير الفلاحين العرب الواسعة من ملكية الأرض فائضاً من السكان الذين أصابهم الإملاق. ولم تستطع أن تستوعب هذا الفائض قطاعات الإنتاج التقليدية والجديدة المحدودة التي ساعدت على ظهورها الإدارة البريطانية والبرجوازية العربية الضعيفة.

بديهي أن الموقف الناشئ في المجتمع العربي الفلسطيني لم يكن فقط نتيجة للأساليب الخصوصية في عمل بوعالي تسيون وحدها. فمن أسبابه قطاع لعوامل أوسع بكثير. إلا أن اليساريين من أعضاء بوعالي ما كان بوسعهم إلا ينطلقوا من أن "المجتمع اليهودي الحر في أرض إسرائيل" الذي نشأ بدعم سافر من زعمائهم قد غدا عائقاً في طريق البعث القومي

والتقدم الإجتماعي لشعب آخر. ولم يكونوا راضين من أن مجتمع اليسع الذي نشأ في فلسطين والذي ينبغي أن يساعد في المستقبل على إشراك اليهود في عملية التحويل الإشتراكي في العالم يعيق دخول شعب آخر مرحلة تحقيق أهداف أكثر من مجرد الانبعاث القومي.

الزعماء "الإشتراكيون" المهيمنون بالكامل على الحياة السياسية لمجتمع اليسع أقدموا بعد الحرب العالمية الأولى على خيانة المثل العليا لحزب بوعالي تسيون من أجل إعلاء شأن المصلحة القومية للبرجوازية اليهودية. وقد بات هذا الشعور مسيطراً على أعضاء الجناح اليساري لشعبة بوعالي تسيون في فلسطين. وأوضح مؤشر على تلك الخيانة، كما خيل إليهم، هو التخلي عن لغة الإيديش "الديمقراطية" التي تعتبر اللغة المحكية عند جماهير الكادحين. لقد ظهر في فلسطين بالكامل نفس الموقف القائم في الإمبراطورية الروسية وباقي دول أوروبا الشرقية. ولم يتغير سوى موقع الإضطهاد والمضطهدين. وكان ذلك وضعاً لا يطاق حسب الظاهر. إلا أن تصحيحه بات ممكناً بالإعتماد على قوة جديدة غدت من وقائع عالم ما بعد الحرب العالمية الأولى. هذه القوة الجديدة هي روسيا البلشفية. وقد صارت غواية فعلية بالنسبة ليساري بوعالي تسيون الذين لم يقطعوا الصلة بها أبداً، شأن جميع الإشتراكيين الفلسطينيين في سياق التوجهات المشتركة لتطورها السياسي والإجتماعي. فهناك شرعوا على أساس طبقي بحل المسألة القومية اليهودية، وأعلنوا عن عدم جواز معاداة السامية، وتوجه تطور الأحداث هناك، على ما يبدو، لجهة تحقيق الأخوة الفعلية للبروليتاريين. وهناك تحديداً طالبوا بأن تقوم جماعات البوعالي تسيون التي أعلنت عن طموحها لتقف تحت راية البلشفية وتعتبر نفسها طليعة بروليتارية بتنفيذ المهمة التاريخية لتنظيم الفلاحين العرب والبرجوازية الصغيرة العربية على غرار أشياهم الروس. وكان ذلك بالنسبة للثوريين الوطنيين اليهود، كما اعتقدوا في ذلك الحين،

الأمكانية الفعلية، ولعلها الوحيدة، لإضفاء الشرعية والمصادقية على تواجدهم في فلسطين.

لقد كانت فلسطين قسماً واحداً من أراضي بلاد الشام التاريخية حيث أسس أبناء الأقلية القومية في تلك السنوات تنظيماً شيوعياً محلياً. في حين لعب دوراً ملحوظاً في تأسيس أول جماعة شيوعية بלבان وسورية ممثلو الجناح الثوري في الحركة الوطنية الأرمنية. ويعزى انتقالهم من عدة وجوه إلى المواقف البلشفية ليس فقط إلى المستوى الرفيع نسبياً والطويل الأمد لتطور التقاليد الوطنية الاشتراكية، كما عند يهود فلسطين، بل وإلى ملابسات الكفاح من أجل "القضية الوطنية" الأرمنية.

الأفكار الاشتراكية بشكلها الوطني القومي باتت من وقائع الحركة الوطنية الأرمنية بالدرجة الأولى في أراضي الإمبراطورية العثمانية في تسعينات القرن التاسع عشر. وكان الداعية الأول والانشط لتلك الأفكار هو حزب الهنشاق (الناقوس) الاشتراكي الديمقراطي الذي تأسس بجنيف في أغسطس ١٨٨٧. وإسمه مقتبس من عنوان الجريدة التي أصدرها. وبعد ثلاثة أعوام تأسس في تفليس الحزب الوطني الاشتراكي الثاني الطاشناق (الإتحاد)^(١).

(١) أحكام برنامجي كلا حزبي الهنشاق والطاشناق كانت متشابهة لدرجة كبيرة. كلاهما كانا مرتبطين بالأمية الثانية، فيما كانت للهنشاق إتصالات نشيطة مع فريدريك أنجلز. إى أنه كان هناك تحديد إقليمي معين في ميادين نشاطهما. مجال نشاط الطاشناق في المقام الأول هو الجزء الروسي مما وراء القوقاس، بما في ذلك محافظة كارسكايا التي كانت انذاك ضمن روسيا، وكذلك إيران، فيما كان مجال نشاط الهنشاق بالدرجة الأولى محصوراً في حدود الإمبراطورية العثمانية، أي ولايات أرمينيا الغربية وقيليقيا. وإعتباراً من مايو ١٩١٨ وحتى نوفمبر ١٩٢٠ تزعم الطاشناق الجمهورية الأرمنية المستقلة في أراضي أرمينيا الشرقية التي كانت ضمن روسيا قبل عام ١٩١٧.

وكما هو شأن أعضاء بوعالي تسيون يرى الهنشاق أنه من المتعذر تطوير النضال الطبقي بين الأرمن المتواجدين حقوقياً في عهدة الإدارة العثمانية لأرمينيا الغربية وقيليقيا ما لم تحل هناك مشكلة تحررهم الوطني. وينص برنامج الحد الأدنى لحزبهم على تنظيم الانتفاضة المسلحة الوطنية الشاملة وصولاً إلى تخليص الأرمن من النير التركي، ثم توحيد جميع الأراضي الأرمنية وتأسيس الدولة المستقلة. وبعد ذلك فقط يمكن أن تحل قضايا برنامج الحد الأعلى الذي يفترض تسليم جميع وسائل الإنتاج إلى الشغيلة وبناء المجتمع الإشتراكي^(١).

إهتمام الهنشاق المركز بحل المسألة القومية الوطنية الأرمنية في المقام الأول على أساس بناء كيان الدولة المستقلة في أراضي الولايات الأرمنية العثمانية يقوم على الولايات الفعلية التي يتعرض لها الشعب من خلال القهر القومي القاسي الذي دفعه إلى حافة الانقراض البدني. هذا الطريق، في اعتقاد الهنشاق، هو الوحيد الذي يمكن من تهئية الظروف اللازمة لانتقال البروليتاريا الأرمنية اللاحق إلى دعم فكرة التحويل الإشتراكي للعالم. علماً بأن طرق بلوغ الأهداف الوطنية، في رأي الإشتراكيين الديمقراطيين الهنشاق، ينبغي أن تنطلق من "التضامن الوطني القومي". ومن أهم مكونات الطرق التي اختاروها لبناء الدولة الوطنية ليس فقط الإرهاب الفردي تجاه ممثلي الإدارة العثمانية القادر أن يلهب مشاعر الشعب الوطنية، بل والإعتماد على "حب الأرمن" في الدول "المسيحية" الكبرى المعنية بدعم الحركة الوطنية الأرمنية في الإمبراطورية العثمانية.

إبادة الشعب الأرمني على أيدي أزلام تركيا الفتاة في أرمينيا الغربية وقيليقيا عام

(١) هنا وفيما بعد: برنامج حزب الهنشاق // وثائق حزب الهنشاق الإشتراكي الديمقراطي ١٨٨٧ - ١٩٦٣

المجلد الأول. بيروت، ١٩٦٢، ص ١٩ - ٢٠.

١٩١٥ ، جعلت قسماً من الهنشاقي أمام ضرورة البحث عن سبل جديدة تفضي إلى تحقيق فكرة الانبعاث القومي وإعادة البناء الاجتماعي. إلا أن الكلام لم يعد يدور عن العمل في حدود بقعة وطنية باتت خالية من سكانها الأرمن. وانتقل مركز نشاط الحزب إلى ممتلكات فرنسا في أراضي الشرق الأوسط ، إلى سورية ولبنان.

وظهرت هنا بنتيجة التهجير القسري في عام ١٩١٥ والنهج المعادي للأرمن الذي إعتدته القيادة الكمالية الأتاتورية بعد الحرب العالمية الأولى أكبر مستوطنتين أرمنيتين خارج إطار أرمينيا الغربية وقيليقيا ، حيث بدأ بعث الحياة القومية للأرمن^(١). الكارثة المأساوية في زمن الحرب العالمية الأولى وعواقبها السياسية والإقتصادية والاجتماعية أبقت عند أرمن سورية ولبنان مشاعر العداء للمسلمين وشددت أهمية عقيدة "الوحدة الوطنية". وواصل السواد الأعظم من السكان الأرمن في كلا البلدين تأييدهم لقيادة الهنشاقي التقليدية وسياستها الرامية إلى التحالف الوثيق مع سلطات الانتداب^(٢). وكان ذلك أمراً مفهوماً. فإن أرمن البلدين يعتبرون أنفسهم "جزء" من عذاب الشعب ومصائبه ويرون أن مهمتهم الأولى هي إستعادة العدالة المنتهكة في عام ١٩١٥ على أساس العودة إلى الديار

(١) قبل عام ١٩١٤ كان السكان الأرمن في الأراضي التي دخلت فيما بعد ضمن سورية ولبنان تحت الانتداب يشكلون أقل من ٢٠ ألفاً ، فيما بلغ عددهم في عام ١٩٢٥ مستوى ١٥٠ ألف نسمة // توبوزيان و. خ. مشاركة أرمن سورية ولبنان في الحركة التحررية الوطنية والديمقراطية. يريفان ١٩٦٨ ص ١٩ - ٢٠.

(٢) يقول المؤرخ اللبناني مسعود ضاهر أن أرمن لبنان حافظوا على إستقلاليتهم النسبية كطائفة مسيحية من جهة ، وكجماعة قومية خاصة من جهة أخرى. ولذا كانت الحياة السياسية لأكثرية الأرمن تختلف عن الحياة السياسية للبنانيين في عهد الانتداب ، بل وكانت... مرتبطة بالنظام الحاكم...// ضاهر ، م. تاريخ لبنان الاجتماعي. بيروت ١٩٧٤ ، ص ص ٢٩٢ - ٢٩٣.

وتقرير المصير بحرية في أراضي أرمينيا الغربية وقيليقيا وبناء الدولة الوطنية هناك. أما حالة الإغتراب عن الأكثرية العربية فقد تفاقمت بسبب الفوارق الدينية واللغوية بين مجموعتي السكان والإستقلالية الذاتية الواسعة للأرمن في الحياة القومية.

القلة القليلة في صفوف الهنشاك إعتقدت بإمكانية سبل أخرى لحل المشاكل الناشئة. ولكن بالنسبة لهم أيضاً كان الانتقال إلى المواقع الشيوعية يتوقف على طائفة واسعة من الأحداث المؤلّة والمفسرة على نحو جديد ولها علاقة مباشرة بالشعب الذي وجد نفسه في جالية مغتربة حياتها القومية نفسها مهددة بالخطر بحكم الغربة. ومن أهم تلك الأحداث تطور الموقف في الجمهورية الأرمنية التي يحكمها الطاشناق، وكذلك في قيليقيا.

في عام ١٩٢٠ شنت القوات الأتاتورية هجوماً على أراضي أرمينيا. وإتضح أن "حب الأرمن" في الدول "المسيحية" الكبرى أسطورة لم تصمد أمام المحنة. دول الوفاق في الواقع رفضت تقديم أية مساعدة لأرمينيا. فهيمن على الأخيرة الخراب والمجاعة والأمراض وإحتل العدو معظم أراضيها حيث تراجعت أعداد غفيرة من المهجرين^(١). الهنشاك اليساريون أخذوا بهذا الخصوص يعتبرون أن انقاذ الأمة وصيانة قسم من الأراضي القومية وأن كان ضئيلاً يتطلبان إعادة النظر في موقف الطاشناق الرفض لروسيا السوفيتية حتى وأن كان على حساب ضياع الإستقلال^(٢).

(١) راجع بهذا الخصوص كانكروني غ. أرمينيا والحياة السياسية الأرمنية في عام ١٩١٨ بيروت ١٩٨٤.

(٢) ملابسات انتقال يساري الهنشاك إلى المواقف الشيوعية نتناولها على أساس مذكرات عضو الحركة الشيوعية الأقدم في لبنان مؤسس الجماعة الأرمنية الشيوعية اللبنانية الأولى "سبارتاكوس" أرتين مادويان: حياة على المتراس بيروت ١٩٨٦.

المؤلف (كوساتش) استخدم الترجمة العربية لهذه المذكرات. الأصل الأرمني لكتاب مادويان نشر في بيروت عام ١٩٠٠ تحت عنوان "الحياة على المتراس. مذكرات ومشاهدات".

وهم بالطبع كانوا يعرفون كيف فرض النظام السوفيتي على باكو، وعموما على أذربيجان. ويعرفون من يقف وراء انتفاضة مايو ١٩٢٠ في أرمينيا وكيف تطورت الأحداث في أراضيها خلال الفترة من نوفمبر ١٩٢٠ حتى أبريل ١٩٢١، حيث قامت القوات المسلحة لروسيا السوفيتية بعدوان سافر على البلد الذي إعترفت حكومة موسكو بإستقلاله. في معرض توصيف الأمزجة السائدة في تلك السنوات كتب القيادي البارز بين يساريي الهنشاقي ورئيس أول مجموعة شيوعية أرمنية لبنانية فيما بعد أرتين مادويان: أخذت أتأمل في تعاقب الأحداث. قبل ثلاثة أعوام قامت ثورة أكتوبر. وقبل فترة قصيرة، في أبريل ١٩٢٠، قامت ثورة في أذربيجان حيث حلت السلطة السوفيتية محل نظام المساواتيين الذي إشتهر ببرامج عدائه للأرمن. إقامة السلطة السوفيتية في أذربيجان أفرحت جميع الأرمن وخففت العبء الثقيل على فؤادي... وفجأة ومض في دماغي بصيص نور أضاء أفكاره. وتصورت أن انتصار البلاشفة في أرمينيا يؤمن لها حماية روسيا البلشفية ويضمن سلامة شعبها^(١).

ولد "أرتين مادويان" في قيقليا. وكان المفروض أن تقوم في أراضيها بعد الحرب العالمية الأولى منطقة حكم ذاتي للأرمن ضمن ممتلكات فرنسا في الشرق الأوسط. مادويان كان بين المتحمسين لتحقيق الأمنية المنشودة والذين يرون أنه سيحل قريباً يوم تقوم فيه أرمينيا الكبرى الممتدة من البحر إلى البحر (من البحر الأسود إلى الأبيض المتوسط)^(٢). إلا أن دولة الانتداب غيرت أولويات سياستها الخارجية. فالرغبة في التفاهم مع حكومة كمال أتاتورك جعلت الإدارة الفرنسية في قيقليا تتجه صوب كسب ود السكان المحليين الأتراك.

(١) المصدر ذاته، ص ٣٢.

(٢) المصدر ذاته، ص ٢٧ - ٢٨.

وفي بداية أغسطس ١٩٢١ فككت القوات الفرنسية حكومة هنشاق "الدولة الأرمنية المستقلة في قيليقيا" بعد يوم واحد من وجودها. وتجددت هناك النزاعات القومية التي إلزمت فيها الإدارة الفرنسية دوماً جانب الأتراك. وفي الوقت ذاته قدمت سياسة قيادة حزب الهنشاق القائمة على مبادئ التعاون مع فرنسا ورفض أي شكل من أشكال الإلتصال مع الزعماء الأتراك خدمة للقوميين الترك الراضين قطعاً للإعتراف بالحقوق القومية للأرمن. وفي نهاية عام ١٩٢١ وعلى أساس الإلتفاق مع حكومة كمال أتاتورك انسحبت القوات الفرنسية من قيليقيا. ومعها غادر جميع الأرمن المقيمين هناك.

مجرى الأحداث السياسية الدائرة حول أرمينيا من جهة وقيليقيا من جهة أخرى لم يترك مجالاً للشك بأن البلشفية يمكن أن تغدو ضماناً لبقاء الشعب على قيد الحياة في جزء وأن كان ضئيلاً من الأرض التي يعتبرها وطناً قومياً له. إلا أن المسألة بالنسبة لليساريين من أعضاء الهنشاق لا تقتصر على ذلك. نقل نشاط الحزب إلى بلد آخر، هو لبنان، الذي ما كان بوسعهم أن يعتبروه وطناً، جعلهم يطرحون مسألة سبل البقاء على قيد الحياة في البيئة الجديدة التي أرغمتها السياسة الحزبية التقليدية الموالية لفرنسا على مناهضة الطموحات القومية للأشخاص الذين يرون واجبهم في مكافحة سلطة الأجنبي المفروضة عليهم. وكان ضمان سلامة الذين أتيح لهم أن يبقوا على قيد الحياة في سنوات الإبادة أمراً ممكناً، في إعتقاد الجناح اليساري من الحزب، من خلال تغيير الأولويات السياسية. أما بقاء التوجه نحو الإدارة الفرنسية فهو ينطوي على تكرار مأساة الجلاء من قيليقيا، ولكن بعواقب أشد وأوخم. ثم أن التخلي عن نهج العزلة الذاتية وأقامة علاقات التحالف مع الإشتراكيين العرب والقيام بأعمال مشتركة معهم لصالح تصفية الإحتلال الأجنبي ومن أجل الإستقلال - في ذلك، بالنسبة لأرتين مادويان وانصاره، تتلخص تجربة البلشفية في انعكاساتها الملموسة على أرض لبنان وسورية.

الموقف الذي نشأ في مصر في مطلع العشرينات وأقتضى تأسيس التنظيم الشيوعي في هذا البلد يختلف من وجوه كثيرة عن الموقف في بلاد الشام.

فترة الحرب العالمية الأولى والسنوات القليلة التي أعقبتها غيرت جذرياً الأولويات الاقتصادية لتطور مصر ووضعها السياسي الداخلي، ومكانتها الدولية في آخر المطاف^(١). وكانت تلك العمليات من وجوه عديدة أعمق مما في سورية ولبنان وفلسطين. علماً بأن سياقاتها السياسية الداخلية ظلت دون تغيير حسب الظاهر. الإحتلال البريطاني للبلاد أبقى على الإدارة في أيدي سلالة الخديوي (السلطانية إعتباراً من عام ١٩١٤) التي أسسها محمد علي باشا الكبير. والتطور الإقتصادي لمصر بعد عام ١٨٨٢ حولها إلى بلد إحصائي الزراعة: القطن لأجل التصدير. وفي الأرض المصرية قناة السويس التي هي من أكبر طرق المواصلات الدولية.

وأدى انقطاع العلاقات الاقتصادية مع دولة الإحتلال بسبب العمليات الحربية إلى تفعيل نشاط رجال الأعمال المحليين. كما أن تبدل الأوضاع الدولية غير بصورة جذرية حالة الاقتصاد في البلد، ولم يعد رجال الأعمال المصريون ظاهرة هامشية كما كانوا^(٢) بل

(١) ثمة بحوث روسية كثيرة مكرسة لقضايا التطور الاجتماعي والإقتصادي لمصر في تلك الحقبة. نكتفي هنا بالإشارة إلى إثنين منها // فريدمان ل.أ. التطور الرأسمالي في مصر. موسكو ١٩٦٣. وكذلك // فريدمان ل.أ. مصر في ١٨٨٢ - ١٩٥٢. التركيبة الاجتماعية الاقتصادية للريف. موسكو ١٩٧٣. القضايا السياسية للفترة المذكورة تعالجها مؤلفات روسية منها // كوشيليف ف.س. مصر: من عرابي باشا حتى سعد زغلول ١٨٧٩ - ١٩٢٤. موسكو ١٩٧٦. وأخيراً لدينا الدراسة الضخمة حول تاريخ مصر السياسي في العصر الحديث // فاتيكوتيس ب.ج. تاريخ مصر من محمد علي حتى السادات. لندن. ١٩٧٦. (بالإنجليزية):

Vankmtis v.1. 11-e Нильогу of Egypt From Muhammad Ali (OSadat1..1976).

(٢) في معرض توصيف الوضع الإقتصادي لمصر قبل اندلاع الحرب العالمية الأولى كتب ليونيد فريدمان =/=

تحولوا إلى عامل ملموس في الاقتصاد المصري. وفي عام ١٩١٧ تشكلت اللجنة التجارية الصناعية المصرية بمبادرة من أبرز الصناعيين والماليين الوطنيين^(١). وفي عام ١٩٢٠ أسس رجال الأعمال المصريون أكبر مصرف وطني هو بنك "مصر" وهدفه تراكم المدخرات المالية اللازمة للتنمية الصناعية. معظم زبائن البنك الذي غدا فيما بعد شركة مالية صناعية مساهمة جبارة هم من صغار التجار والمتوسطين والموظفين وأصحاب الدخل الصغير في وملاك المنازل وأصحاب المهن الحرة والمثقفين الذين حملوا ودائعهم إليه لإعتمادات وطنية. إلا أن مؤسسيه وكبار مودعيه في الوقت ذاته ممن غدوا مدراء للبنك وفروعه في المحافظات هم من ملاك الأراضي الكبار والشخصيات السياسية البارزة في حاشية الخديوي.

لم تكن مصر مجرد إستثناء على خلفية الأقطار العربية التي نشأت في سنوات ما بعد الحرب في حدود بلاد الشام (تطور طبقات المجتمع الحديث في صفوف فلسطيني اليسع - بني إسرائيل جرى وفقاً لطرق مغايرة من حيث المبدأ). فقد عرضت مصر صيغاً أخرى

يقول: "نحن لا نعرف ولا حادثة واحدة تحول فيها الحرفي إلى عامل مانوفاكتوراً أولاً ثم إلى عامل مصنع" ويضيف: "الأسعار الإحتكارية الباهظة للمعدات والخامات والوقود والمزاحمة من طرف منتجات الصناعة الأجنبية الكبيرة وغياب النظام الإئتماني المتطور - كل ذلك كان يضيق على الحرفي، بل ويقلل لدرجة كبيرة أرباح مالكي المانوفاكتورا وغيرهم من صغار رجال الأعمال ويمتص الأموال التي يمكن في ظروف أخرى أن تستخدم في توسيع الإنتاج" // فريدمان ل. التطور الرأسمالي في مصر... ص ٢٣١.

(١) التقرير الذي رفعته اللجنة التجارية الصناعية المصرية بعد تشكيلها إلى الحكومة طالب بإعفاء الصناعة الوطنية المصرية من الضرائب العالية وتفضيل المنتجات المحلية لدى شراء دوائر الدولة للسلع الصناعية بأموال الحكومة وتأسيس بنك صناعي وإدخال نظام ضرائب الحماية وتأسيس وزارة التجارة والصناعة وتطوير شبكة المدارس والمؤسسات التعليمية المهنية والتجارية // المصدر ذاته، ص ٢٤٧.

لنشوء الحركة الشيوعية المحلية.

بديهي أن النزعة الوطنية باتت من مقدمات تشكيل تلك الحركة. إلا أنها كانت "نزعة مصرية" بعيدة في تلك السنوات عن أفكار القومية العربية لأبناء الشام. الأيديولوجية الوطنية المصرية انطلقت من ضرورة تحقيق وحدة "وادي النيل". وشعارها هو "تنوير الأمة" بوصفها مجتمعاً ناجزاً للمقيمين في الحدود الحالية لمصر والسودان. وتضمنت هذه الأيديولوجية مطلب الإدارة الدستورية للبلاد، إلا أن المسلمة الرئيسية فيها هي المطالبة بالإستقلال بوصفه شرطاً طبيعياً للإزدهار الإقتصادي والإجتماعي المرتقب "للأمة المصرية المتضامنة" والموحدة بأواصر التعااضد ووالتعاون المتبادل بين جميع أفرادها. وحتى بداية الحرب العالمية الأولى واصل ترويج أيديولوجية الوطنية المصرية أعضاء الحزب الوطني الذي أسسه مصطفى كامل وقاده فيما بعد محمد فريد^(١).

إلا أن نشاط الحزب الوطني المصري أحتوى بشكل واضح على سمات سنديكالية. فإن نهضة الحركة العمالية العفوية في السنوات التي سبقت الحرب العالمية الأولى جعلت محمد فريد يعتقد أن العمال المصريين يغدون حلفاء طبيعيين للمثقفين الوطنيين، ذلك بالدرجة الأولى لأن نضالاتهم ضد رجال الأعمال الأجانب المالكين للمؤسسات الانتاجية ومشاريع البنية التحتية الموجودة في مصر تساعد المثقفين في حل المهام التي يتوخونها.

(١) ثمة بحوث كثيرة مكرسة لنشاط الوطنيين المصريين، بما فيها الدراسات التي إستشهدنا بها في أعلاه. وللحديث عنهم كحركة فكرية سياسية سبقت الحركة الشيوعية المصرية نستشهد بكتاب رفعت السعيد: تاريخ الحركة الاشتراكية في مصر ١٩٠٠-١٩٢٥، بيروت ص ٢٥-٣٨. ونستشهد في الوقت ذاته بكتاب الباحث الإسرائيلي رامي جينات الذي يتناول بقدر ما مسائل انتشار الأفكار الاشتراكية في مصر:

оамк к. Egypt's anomplm Revolulmn, mп al-Khuli and Nasser's Socialism in the 1960
5. 1... 1997, P. 9-19.

وحظيت الحركة العمالية بدعم لا ريب فيه من جانب الصحافة الوطنية. وبدأ أعضاء الحزب الوطني منذ العام ١٩٠٨ بتأسيس مدارس عمالية مسائية في أحياء العمال في القاهرة والمراكز الصناعية الأخرى^(١).

وفي ربيع ١٩٠٩ تأسست "بإشراف الحزب الوطني" نقابة المهن الصناعية ولها فروع في القاهرة، والإسكندرية، والمنصورة، وطنطا. وفي عام ١٩١٢ تجاوز عدد أعضاء فرع النقابة في القاهرة ثلاثة آلاف عامل معظمهم من العاملين في المؤسسات الانتاجية والحرفية الصغيرة. وكان تأثير الحزب الوطني واضحاً على النقابات التي احتفظت باستقلاليتها التنظيمية (مثل نقابة السكك وسواق الترام والكهربائيين وعمال الغاز وإسالة المياه). جهدت قيادة الحزب في الترويج داخل الحركة العمالية لمجموعة قوانين العمل التي وضعتها وضمت مطالبات بزيادة الأجور وتوقيع إتفاقيات العمل بين النقابات وأصحاب المعامل وأيضاً حق الإضراب والإجازة وما إلى ذلك.

وساعد نشاط الوطنيين السنديكالي على انتشار الأفكار الاشتراكية في صفوف الحزب أكثر فأكثر، وهي أفكار باتت قائمة على تقاليد الاشتراكية القومية التي صيغت في مصر في مطلع القرن العشرين. وشارك ممثلو الحزب في عمل المؤتمرات الدولية للأمم المتحدة الثانية. فكانت لهم إتصالات متينة مع عدد من أعضاء منظماتها، وبالدرجة الأولى مع العمال البريطانيين. وفي عام ١٩١٠ أعلن محمد فريد عن ترابط مباشر بين السنديكالية

(١) هنا وفيما بعد راجع // عبد المنعم الغزالي. تاريخ الحركة النقابية المصرية ١٨٩٩-١٩٥٢. القاهرة

١٩٦٨. ص ص ٢٧-٤٨.

راجع أيضاً:

Couland J. kapra: sur l'islam Булькин =\ ouvrier égyptien (1952-11399) и Mouvement ouvrier, communism: ы nationalismes a... le monde arabe. Cahiers du «Mauvement швы», N 3. P., 1978. P, 14-15.

والنضال السياسي الذي يجب أن تبقى قيادته ، في إعتقاده ، بأيدي المثقفين المستنيرين المدعووين إلى نشر النشاط التوعوي بين العمال^(١).

الإشتراكية التي بات الوطنيون المصريون من انصارها هي نفس إشتراكية العمل (المشترك) التي دعا إليها أشياعهم العرب واليهود والأرمن في بلاد الشام. وكانوا يعتبرون المواضيع العمالية أداة الكفاح الوطني وفي الوقت ذاته وسيلة تحقيق الوفاق القومي في سياق بلوغ الهدف الوطني الذي تنوعت أشكاله وتميزت بخصوصيتها في كل من المجتمعات الأربعة - السكان العرب في بلاد الشام وفي مصر وأبناء الشيع الفلسطينيين وأرمن سورية ولبنان.

إلا أن التقاليد الإشتراكية الوطنية في مصر تميزت بصبغة أكثر أصالة مما في بلاد الشام. الوطنية المحلية ("المصرية" أو "التمصير") لا تنفي بالطبع انتماء الأغلبية الساحقة من سكان البلاد إلى الإسلام. مصر جزء من العالم الإسلامي ، الأمر الذي يدركه الشاميون أيضاً بكل بوضوح. ولكن ، ولأسباب كثيرة ، نشأ هنا أحد أكبر المراكز الإسلامية - الأزهر الذي مكّن مصر منذ بداية القرن من أداء دور أحد "مراكز القوى" الريادية في إطار المجتمع

(١) في ١ يوليو ١٩١١ كتبت لسان حال الوطنيين المصريين "اللواء" في مقالة بعنوان "حول الإشتراكية في مصر" تقول: لا أحد من المصريين ، لا المستخدم الصغير ولا العامل البائس قبل عهد الخديوي إسماعيل يعرف شيئاً عن الإشتراكية. إلا أن التطور الاجتماعي للبلاد أفضى إلى ظهور الإشتراكية. ونظراً لتوظيف الراسمائل العائدة إلى الأجانب في مصر ولوجود مشكلة ديون الدولة للأجنبي لا يمكننا الكلام عن إمكانية تحويل الإشتراكية في مصر إلى مبدأ للدولة دون أن نجازف بوجودنا القومي. غير أن الإشتراكية من وجهة نظر تعاليمها الاجتماعية تصلح لنا تماماً. فنحن في طليعة المنادين بالإشتراكية والداعين لها لاننا نرى فيها ضماناً للحفاظ على التوازن بين أثريائنا الجهلة الجشعين وبين الفقراء المعوزين الكادحين". //

الغزالي ، المصدر المذكور ص ٣٧.

الإسلامي. وباتت الاشتراكية المصرية ثمرة للنشاط الذهني ليس فقط لأنصار الفكرة الوطنية القومية. فقد لعب "المصلحون" الإسلاميون دوراً هائلاً في نشوئها.

بديهي أن مشاركتهم في صياغة التقاليد الاشتراكية لم تقتصر على مصر وحدها. فالسوري عبد الرحمن الكواكبي وجمال الدين الأفغاني كانا من السباقين إلى النظرة الاشتراكية في العالم العربي والإمبراطورية العثمانية^(١). إلا أن محاولة الجمع بين العقيدة الإسلامية والفكر الاشتراكي كانت في مصر على ما يبدو أطول زمناً وأوفر نجاحاً. ففي أواخر القرن التاسع عشر دعت إلى الجمع بينهما مجلة "المنار" الصادرة في القاهرة والعائدة لصاحبها الشخصية المعروفة بين "المصلحين" الإسلاميين الشيخ محمد رشيد رضا^(٢). وبعد فترة طويلة، في عام ١٩١٥، أثبت واقع ظهور كتاب "الاشتراكية" لمؤلفه مصطفى حسنين المنصوري^(٣) مدى أهمية مشاركة المصلحين الإسلاميين المصريين في نشوء التقاليد الاشتراكية بمصر.

كانت الأيديولوجية المصرية للنهضة الوطنية تختلف من نواح كثيرة عن التقاليد

(١) هنا وفيما بعد راجع بخصوص ذلك / كوساتش ج. الأفكار الاشتراكية في المشرق العربي (أواخر القرن التاسع عشر - بداية القرن العشرين) القضايا الملحة للعملية الثورية العالمية. موسكو ١٩٨٨.

(٢) في العدد ٤٩ لعام ١٨٩٨ مقالة بعنوان "الاشتراكية والدين" يؤكد كاتبها أن الاشتراكية التي كانت هدفاً عند بعض الجمعيات الأوروبية إنما هي ظاهرة مستحسنة وضرورية على العموم ذلك لأن أساسها المعتمد على العقل يكمن في الأحكام الإسلامية الحقيقية. ويضيف: مطالب الاشتراكية عادلة عموماً ويمكن أن نجد لها عذراً في تأسيس حزب يناهض الأثرياء المنافقين الغارقين في البذخ والموبقات ولا يساعدون الآخرين ولا يبدون رحمة بالفقراء والمعدمين. // شعبان ف. دخول المصطلحات والمفاهيم الاشتراكية إلى المنطقة العربية. // "الطريق" بيروت العدد ٣/٢ ١٩٨٤، ص ٢٣٥.

(٣) راجع عنه // رفعت السعيد. المصدر المذكور، ص ١٣١-١٦٥.

المماثلة في بلاد الشام، كما تختلف بالطبع عن الاشتراكية القومية بمفهومها اليهودي والأرمني. الأقليات المسيحية المصرية، بمن فيها الأقباط، لم تتبن التوجهات النهضوية لأن أصحابها كانوا متواصلين عضوياً مع البنى الاقتصادية الحكومية في البلاد من عهد ما قبل إحتلال القوات البريطانية، ثم مع نظام الإدارة البريطانية لمصر. ويخص ذلك بنفس القدر الطائفة اليهودية المصرية^(١). هذا الوضع دفع إلى الأمام ممثلي الأكثرية الدينية المسلمة التي تعتبر مواجهة السيطرة الغربية أمراً شرعياً وتقول بلزوم التصدي لها بتركيز الانتباه على الجانب الديني من قضية التحرر من نير الأجنبي، فيما يغدو المصريون غير المسلمين منطقياً ضمن معسكر تلك الأكثرية. أيديولوجية النهضة في مصر كانت من حيث تركيبة العناصر المكونة لها أكثر تعقيداً بكثير من الأيديولوجيات المماثلة لها في بلاد الشام. فقد توفرت لديها إمكانيات أكبر للتوفيق بين شتى الإتجاهات في تطورها الذاتي. كل شيء كان يتوقف فقط على الحالة الإجتماعية والسياسية الناشئة في البلد. فهي تحدد اتجاه التحول الداخلي لهذه الأيديولوجية.

وقد أفضى التطور التاريخي لمصر إلى ظهور أقوام وطوائف أخرى كثيرة. وهم في المقام الأول وافدون من أبناء الشام (ومعظمهم مسيحيون) واليهود، والأرمن، واليونانيين، والإيطاليين. وكانوا من نشطاء المشاركين في الحياة الاقتصادية المصرية^(٢). مع

(١) راجع عن ذلك // دياتلوف ف. إ. أقلية رجال الأعمال: هل هم باعة غرباء أم مرسلون من الله؟ التعايش والتصارع والتكامل في أقطار المشرق العربي وأفريقيا الإستوائية. موسكو ١٩٩٦.

(٢) بحسب تقديرات جينادي جورياتشكين بلغ عدد أبناء القوميات الأخرى، وبالتالي الطوائف الدينية المغايرة، في مصر في بداية الحرب العالمية الأولى ما لا يقل عن ثلث العدد الإجمالي للأيدي العاملة الماهرة وشبه الماهرة في الصناعة والبناء والنقل. وبجهودهم ظهرت في البلاد نقابات كثيرة ضمت في =/=

بقائهم على انتمائهم إلى جماعاتهم القومية بالدرجة الأولى. إلا أن قسطهم في الحركة العمالية المحلية وفي إثراء التقاليد الاشتراكية المصرية، كما في قيام الحركة الشيوعية بمصر، لا جدال فيه. وكان ذلك في طبيعة الأشياء. فقد تكرر الموقف الذي شهدناه في بلاد الشام، حيث كان العرب المحليون من أصول مسيحية عند منابع أيديولوجية النهضة الوطنية، فيما لعب أبناء اليهود والأرمن أحياناً دوراً يكاد يكون ريادياً في تأسيس أولى الخلايا الشيوعية. خصوصية دور الطوائف من القوميات الأخرى بمصر في الحياة الاجتماعية والاقتصادية للبلد دفعت قسماً من ممثلي تلك الطوائف إلى توفير جو من الاستقرار والثقة بيوم غد لأفراد طوائفهم. فيما جعلتهم الثورة الروسية يرون الطريق إلى هذا العدف في "الأخوة الأُمّية" للكادحين.

أحداث مارس ١٩١٩ غيرت الموقف جذرياً. فقد بات اعتقال أعضاء "الوفد المصري" وعلى رأسهم سعد زغلول، عندما هموا بالسفر إلى لندن للتفاوض على منح مصر الإستقلال، مبرراً رسمياً لبدء الانتفاضة الوطنية في البلاد^(١). وطرحت الانتفاضة مسألة إيجاد أشكال جديدة لبقاء الانجليز في مصر، ذلك لأن نظام الحماية أثبت عدم جدواه. وفي ٢٨ فبراير ١٩٢٢ نشرت الحكومة البريطانية بلاغ إلغاء نظام الإدارة السابق والإعتراف

المقام الأول عمال الجماعات القومية المعنية التي نظمت أولى الإضرابات. واحتفظت الطوائف اليونانية والإيطالية والأرمنية واليهودية بعلاقات وثيقة مع البلدان التي انحدرت منها وإستجابت للصراعات السياسية الناشئة هناك. وبديهي أن أبناء هذه الطوائف كانوا يعرفون التقاليد الاشتراكية القومية الناشئة هناك // جورياتشكين ج. التجديد الإستعماري وميلاد الطبقة العاملة في مصر (١٨٤١-١٩١٤) موسكو ١٩٩٢، ص ص ١٧١-١٨٦.

(١) حول سير انتفاضة مارس ١٩١٩ ودور الوفد المصري (ثم حزب الوفد) فيها راجع // كوشيليف ف. المصدر المذكور، ص ١٨٣ - ١٩٨.

بمصر دولة مستقلة ذات سيادة. وفي أبريل من العام التالي أقر الدستور الذي أعلن أن مصر مملكة دستورية. وفي منتصف عام ١٩٢٣ تحول الوفد المصري إلى حزب الوفد الذي أحرز فوزاً لا ريب فيه أثناء الانتخابات البرلمانية وشكل في يناير ١٩٢٤ أول حكومة للبلد المستقل برئاسة "أبي المصريين" سعد زغلول. وفي الحالة الجديدة التي نشأت في البلاد بعد انتفاضة ١٩١٩ إستلم الحكم في مصر ممثلو فئة رجال الأعمال الجدد المرتبطون بأوثق الوشائج مع طبقة ملاك الأراضي التقليديين.

لكن المكانة الدولية الجديدة لمصر لم تبهج الجميع. لأنها حافظت بالكامل على المواقع الاقتصادية لبريطانيا ، وكان الاستقلال منقوصاً من الناحية السياسية أيضاً. واستمر تواجد القوات المسلحة للدولة الاستعمارية التي تشرف على قناة السويس ، وظلت مؤسسات الدولة المصرية ، مثل الجيش ، تعمل برعاية المستشارين الانجليز. ولم تتحرر مصر بالكامل فيما يخص ممارسة العلاقات السياسية الخارجية. وكان الوضع بالنسبة للكثيرين من السياسيين يمثل "كارثة وطنية". وأثارت أمجة عدم الإرتياح العميق من حصيلة الانتفاضة موجة إرهابية طالت ممثلي بريطانيا في مصر وكذلك بعض الساسة المصريين^(١).

إلا أن ثمة جانباً آخر لنفس المشكلة. وهو يتلخص في كون إستلام الوفديين للسلطة لا يرضي العديد من نشطاء أحداث ١٩١٩ الذين ظلوا يمثلون جماعات سياسية هامشية تعتبر القيادة الجديدة للبلاد قوة خانت المصلحة الوطنية. ولم يكن القوميون المتطرفون المصريون راضين على الطريق المتعرج جداً الذي سلكته هذه القيادة للوصول إلى الإستقلال السياسي والإقتصادي الفعلي ، وكذلك "نزعتها القومية التدرجية" في الكفاح من أجل

(١) راجع ذلك في // رمضان ، عبد العظيم. تطور الحركة الوطنية في مصر من سنة ١٩١٨ إلى سنة ١٩٣٦.

التطور المستقل وتضييقها المتعمد لمهمات التحرك نحو الحرية وهوية طائفة المشاركين المتوقعين في هذا التحرك. وإعتبروا أن سبب ذلك يكمن في منشأ طبقة رجال الأعمال المصريين وفي مصالح الوجهاء السياسيين التي نشأت عنها ولادة تلك الطبقة، وهي طبقة لا ترى إمكانية نموها وتطورها الذاتي من دون الإعتماد على الفئة التقليدية من ملاك الأراضي والجهاز الإداري للمملكة المدعوم من الخارج. زد على ذلك أن القوميين المتطرفين أنفسهم ما كانوا يرضون بسياسة الوفد الإقتصادية الليبرالية ولا بالتخلي عن قيم المجتمع التقليدية، ومنها الإسلام.

الوحدة الوطنية التي تحققت في مارس ١٩١٩ وترأسها سعد زغلول في آخر المطاف تعرضت للتفتت من جديد. فقد انسحبت من عدة حركات وطنية جماعات المتطرفين الذين تتوقف أمزجتهم وميولهم على مشاعر خيبة الأمل الشديدة التي ترتدي ألوان العدالة الاجتماعية وغالباً ما تستشهد بالتأويل الديني لأفكار الحرية والمساواة. وبدورها عرضت أحداث مارس بقدر كاف من الوضوح أمام الإشتراكيين اليساريين المتحدرين من الطوائف الأخرى في البلاد هشاشة موقع مجاميعهم الوطنية في مصر. إذ يمكن التشكيك بوجودهم في البلاد حيث تعتبر تلك المجاميع بمثابة عملاء تقريباً لقوة خارجية. وقد يأتي هذا التشكيك، كما تجلّى في عام ١٩١٩، نتيجة لتصاعد العنف والفوضى مجدداً.

وقد وجد الجانبان - المتطرفون الراديكاليون المصريون وإشتراكيو الطوائف الأخرى المتعصبون - في تجربة روسيا السوفيتية إمكان الخروج من المأزق والتحول على هذا الأساس إلى مجموعة فعلية مناهضة للنخبة وقادرة على تحقيق نجاح في النضال من أجل الأهداف التي يرى الطرفان أنها تساعد على بناء مصر الجديدة فيما لو تحققت على أرض الواقع.

كلا الطرفين سارا في اتجاه إقامة العلاقات فيما بينهما. وهي عبارة عن إتصالات

تهدف إلى تخلص مصر من النفوذ الغربي ومن تواجد الأجنبي لتعتمد على تقاليدھا في سياق التقدم إلى الأمام. وإلى ذلك يراد لمصر نفسها أن تتحول إلى بلد إشتراكي، وأن تعلق في وادي النيل كلمة الأخوة البشرية المثلى. وكانت الرغبة في الأخوة تفسر بدورها على أنها تحالف جميع المظلومين والمضطهدين بصرف النظر عن القومية والديانة ولون البشرة. وبالطبع كان حل هذه المهمة في منتهى الصعوبة. إلا أن القضية لا تتعلق بالطموحات المبالغ فيها، بل وبكون كل طرف من الأطراف المتحركة لملاقاة بعضها البعض يفهم مضمون المهمة، في المحصلة الأخيرة، على طريقته الخاصة. على فكرة، فان نفس المشكلة كانت، ولو بصيغة أخرى، تواجه الثوريين الوطنيين العرب واليهود والأرمن في بلاد الشام الذين بدأوا يتحركون صوب الشيوعية، وبالتالي صوب التحالف مع روسيا السوفيتية، ومع الإتحاد السوفيتي بعدها.

تلك الأحزاب التي انبثقت عن الحركات الوطنية في عالم أخذ يكتسب بشكل واضح صفة تعدد الأقطاب واصلت تقاليد القومية القديمة. وما كان بالإمكان الخروج من الحالة الهامشية والتحول إلى مجموعة واقعية للفعل السياسي الذي تعادل أهميته تسلم السلطة من قبل النخبة المسيطرة في الدولة (مصر) أو الحركة الوطنية (ثوار الشام المتعددي التوجهات) إلا بالإعتماد على أحد قطبي هذا العالم. فمن كان يعلم في تلك الحقبة التي بدأت فيها هذه الأحزاب بالظهور أن القوة الخارجية التي إختارها أنصار تلك الأحزاب غير مستقرة داخليا وغير مهيمنة على الداخل.

ولذا فان مؤشرات نشاطها في منطقة العالم العربي ستتبدل بنفس القدر وأن هذه

القوة في آخر المطاف ستعرض للتفتت؟

الفصل الأول

الشيوعية في مصر:

المثقفون الراديكاليون

والحياة الاجتماعية والسياسية

في عشرينات - وثلاثينات / القرن العشرون

مدخل:

يرتبط ظهور أولى مجاميع أنصار الأمية الشيوعية في مصر، أول ما يرتبط، بالعمليات الجارية داخل الطوائف القومية المحلية. وذلك أمر في طبيعة الأشياء.

فهذه الطوائف تعتبر نفسها استمراراً للدولة الاستعمارية في الأرض المصرية وكانت مرتبطة مع تلك الدولة بآلاف الوشائج وتشاطرها معيشتها ومطامحها وأمانها. وما كان بوسع أفكار الثورة البلشفية الروسية التي تجذرت ذات مرة في إيطاليا واليونان، وفي أرمينيا التي تحولت إلى سوفيتية أو بين يهود أوروبا الشرقية، وبالتالي بين المهاجرين إلى فلسطين، أن تمر مرور الكرام بأولئك المتواجدين في بلاد الغرب (أفراد المستوطنات الإيطالية واليونانية واليهودية والأرمنية في مصر) والمتأثرين بالعمليات الجارية في أوطانهم والتي تمس شعوبهم^(١).

إلا أن ثمة سبباً آخر لانتشار أفكار التحويل الاشتراكي للعالم بين الوافدين إلى مصر. ونعني النهج العام للكومنترن التي سعت إلى تكوين خلايا لحلفاء روسيا السوفيتية في منطقة الشرق الأوسط. وكان للاهتمام بهذه المنطقة ما يبرره. إذ كانت منطقة نفوذ دولتين أوروبيتين عظميين، هما بريطانيا وفرنسا اللتين تكاد تعتبرهما العاصمة السوفيتية في مقدم

(١) في مايو ١٩٢١ كتب يوسف (جوزيف) روزنتال، في رسالة محررة بالإيدش من الإسكندرية إلى اللجنة التنفيذية للأمية الشيوعية أن الحلقات الاشتراكية الإيطالية واليونانية واليهودية في أكبر ميناء مصري "تنج نحو الثورة الروسية أكثر مما نحو الواقع المحلي"، المركز الروسي لحفظ ودراسة وثائق التاريخ المعاصر (اختصاراً أرشيف التاريخ المعاصر) ملف ٤٩٥، إضبارة ٨٥، وثيقة ٢، ص ٦. (فيما بعد تغيير اسم هذا المصدر كالآتي: الأرشيف الروسي الحكومي للتاريخ الاجتماعي والسياسي).

الخصوم السياسيين الخارجيين للكيان الدولي الجديد. علماً بأن الشرق الأوسط يقع على مقربة مباشرة من حدود هذا الكيان. وكانت موسكو ترى أن شرارة واحدة تكفي لتندلع هنا حركة عارمة معادية للاستعمار وقادرة على توسيع غير مسبوق لمجال نفوذ "الدولة العمالية الفلاحية". وكان يراد لممثلي الأمية الشيوعية هنا أن يمارسوا نشاطاً هادفاً مكثفاً. جاء في تقرير رفعه مكتب مجلس الدعاية الأمية إلى اللجنة التنفيذية للكونغرس في عام ١٩٢٠ أنه تأسس في الإسكندرية "مركز اتصال واستعلامات للشرق الإسلامي". وكان المفروض أن تفتح مؤسسة "الشرق" التجارية المتواجدة في أوديسا والتي تتولى دور حلقة الوصل لشبكة المخبرين السوفييت في الشرق الأوسط "فروعاً لها في بغداد والقاهرة أو الإسكندرية" وكذلك في "إحدى مدن فلسطين"^(١).

وفي أكتوبر ١٩٢٢ وصل إلى مفوضية التجارة الخارجية السوفيتية (ثم أحيل إلى اللجنة التنفيذية للأمية الشيوعية) "تقرير عن الحركة العمالية والشيوعية في مصر" موقع من قبل "أدولف كراوس" الذي يمثل "شركة التجارة المصرية السورية الفلسطينية" التي أسستها المخابرات الخارجية السوفيتية في القاهرة^(٢). وجاء فيه أنه في بداية عام ١٩٢١ "تشكلت في القاهرة بواسطة عدد من الرفاق الروس المنفيين من فلسطين" (المقصود أعضاء "بوعالي تسيون" اليساريون الذين وصلوا من روسيا إلى فلسطين - كوساتش) "جماعة صغيرة" من الشيوعيين. وبالطبع لم تكن تتكون من مصريين عرب. فحسب قول كراوس وصل من

(١) المصدر ذاته، ملف ٥٤٤، إضبارة ١، وثيقة ٩، ص ١-٢.

(٢) هنا وفيما بعد نقلاً عن:

Евурк :Rapport sur [c mouvement uuvrinr :1 cornmu'nislc.

المصدر ذاته، ملف ٤٩٥، إضبارة ٨٥، وثيقة ١٠، ص ١٧-٢٠.

فلسطين إلى مصر في أواخر العام ذاته / أفيجدور (قسطنطين فايس)، وكان من قياديي الحركة الشيوعية الفلسطينية في تلك الحقبة. وهو مخبر الكومنترن في الشرق الأوسط، وقد أشرف طوال عدة سنين في الواقع على الشيوعيين المصريين. وأشار كاتب التقرير إلى أن "أفيجدور" هذا زار القاهرة والإسكندرية وعدة مدن في محافظات مصر وأن نشاطه ساعد بقدر غير قليل على زيادة عدد الجماعة الشيوعية الأولى (التي ضمت ٤٠٠ شخص). إلا أن "أفيجدور" لم يكن يبالغ بأهمية الأعضاء الأجانب بالنسبة للشيوعيين". وكانت تلك ملاحظة جوهرية.

خطاب الكومنترن المناوئ للاستعمار لم يتستر على أهم أمر في نشاطها. زعماء هذه المنظمة وسائر أعضائها الذين من أصول أوروبية كانوا يعتقدون طبعاً بضرورة اجتذاب أبناء المناطق المحلية. وقد أكد أدولف كراوس أن أعضاء مجموعته "عندما عرف من الصحافة نبأ تأسيس الحزب الاشتراكي المصري" قرروا الانتساب إليه "معتقدين بأنه لا يمكن تأسيس شيء جدي وطويل الأمد في مصر بدون مشاركة العنصر الأجنبي". ولكنهم يفضلون "البروليتاريين" الحقيقيين في الاتصال مع الذين يمكن، باعتقادهم، أن يكونوا مناصرين محتملين للثورة البلشفية في الشرق الأوسط. وكان هؤلاء في مصر من أبناء الطوائف الأجنبية غير العربية.

كانت هذه الأفعال مفهومة وواضحة من الباطن. التوجهات الأمية للكومنترن تهدف بالدرجة الأولى ليس لحل مشاكل التحرر الوطني للشعوب المضطهدة، بل لتكوين جماعات قادرة على الحياة في المنطقة من أنصار روسيا السوفيتية قادرين على توسيع نفوذها هناك. أما تحرير الشعوب المضطهدة فقد كان مجرد وسيلة لشرعنه الهدف الرئيسي لهذه المنظمة. وبالطبع لن تكن ثمة أهمية، والحال هذه، للأصول القومية لقادة تلك الجماعات. إلا أن السير في هذا الاتجاه خلق فيما بعد جواً يهدد لا محالة بالتوتر المتبادل

والاغتراب بين الشيوعيين العرب وبين رفاقهم من الأصول غير العربية. وزاد في تعقد هذا الموقف أن أبناء الطوائف غير العربية، على الأقل في المرحلة الأولى من وجود التنظيمات الشيوعية في الشرق الأوسط (التنظيم المصري لم يكن استثناء من القاعدة بهذا المعنى)، لعبوا الدور القيادي في تلك التنظيمات.

إلا أن ثمة جانباً آخر للمشكلة يرتبط بالذين تسميهم وثائق الكومنترن "العناصر الأجنبية". جماعات الفعل الشيوعي التي ظهرت في مصر من أبناء الطوائف المحلية غير العربية لم تعد تستطيع العمل في إطار مستوطنات الوافدين وحدها. فكان من الضروري لها أن تجتذب أبناء المصريين الأصليين. لكن ذلك غير ممكن إلا بظهور تيار سياسي في هذه البيئة منبثق عن الحركة الوطنية المحلية ومعني بالتحالف مع روسيا السوفيتية وبمواصلة تقاليد الشيوعية في بلاده. نشوء الحزب الاشتراكي المصري وفر الأسس اللازمة لهذا الغرض حين أقدم على التبدلات الجذرية المعروفة في الحركة الوطنية المصرية.

الوحدة القصيرة الأمد التي تحققت في صفوفه أثناء انتفاضة ١٩١٩ اتخذت اتجاهاً واضحاً نحو التمايز والانشقاق. فقد انقسمت النخبة الوطنية على نفسها. ودشنت مصر مرحلة نشوء الحياة الحزبية الفعلية التي أثر في قيامها تأثيراً هائلاً الطابع الانتقالي لكيان الدولة المصرية الجديد والذي كان استقلاله السياسي بالطبع متيسراً ومحدوداً. وقد وفر هذا الوضع فرصة فعلية للتقدم إلى الأمام لجماعات جديدة من الفعل السياسي حاولت أن تواجه زعيم الأمة حزب الوفد فتوجهت لهذا السبب نحو الشعارات التي استحدثتها وفعلتها الأحداث في روسيا. وسار الاشتراكيون المصريون في هذا الاتجاه رغبة منهم في كسب حليف خارجي بدا لهم قادراً على إنجاح مواجهتهم للوفديين.

وقالوا إن الأمة لم تعد متجانسة. وأخذوا يرون فيها جماعات بشرية كبرى سموها "الطبقات". ولم تعد هذه الطبقات على ارتباط بأوروبا وحدها، فإن تواجدتها على أرض

مصر أثبتته أحداث مارس ١٩١٩ والسنوات التي أعقبته. وأضفت مشاركة العمال المصريين في الحركة الوطنية العامة عليه صفة الثورة الشعبية الحقيقية^(١). علماً بأن النهج الذي ظهر في تلك السنوات نحو انخراط العمال أكثر فأكثر في النضال ضد الاستعمار حظي بتأييد الوفديين وزعيمهم سعد زغلول^(٢). زد على ذلك أن هذا النهج بدا للاشتراكيين إحدى أهم وسائل حل مهماتهم السياسية.

إلا أن إمكانيات الحركة العمالية غدت حجة لإجراء تعديلات على المفهوم الذي طرحه حتى الوفديون لتلك المهمات التي أعلنوا أنها الأكثر أهمية بالنسبة للأمة. فإذا لم تعد الأمة تعتبر وحدة متجانسة، وإذا ظهرت فيها بوضوح متزايد مؤشرات الانكسارات

(١) في الفترة من ١٩١٩ وحتى ديسمبر ١٩٢١ قام في مصر ٨١ إضراباً شارك فيها أكثر من ٣٠ ألف عامل، ستون عاماً من نضال الشيوعيين المصريين. بدون تاريخ. ص ٢١.

(٢) في يوليو ١٩٢٤ تحدث سعد زغلول أثناء لقائه مع عمال السكك عن انتفاضة ١٩١٩ وقال ما معناه: عندما أدرك أنه شارك في هذه الحركة ليس فقط الطبقة العليا، بل وكذلك، وفي المقام الأول، الطبقة التي يسميها حسادنا طبقة العامة أشعر بفرح عظيم. فلو اقتصررت هذه الحركة على الطبقة العليا لما استطاعت أن تحقق ما حققت ولما تجذرت بهذا العمق ولما انتصر المبدأ الوطني. العامة هم الطبقة الأكبر بين طبقات الأمة. ليس لديها مطامع أنانية، ومبادئها ثابتة. وهي مبادئ الاستقلال التام لمصر والسودان. عندما يهتف صاحب الأموال والموظف الكبير: يحيا الوطن فهما يريدان أن يقولوا في الواقع: فلتحيا وظيفتي ومصالحتي! ولذا فإن الكثيرين ممن يمتلكون الرساميل الكبيرة والمناصب العالية ترددوا وغيروا مواقفهم. "العامة" فقط لم يترددوا أبداً ولم يغيروا معتقداتهم.، شهدي عطية الشافعي، تطور الحركة الوطنية المصرية ١٨٨٢-١٩٥٦. القاهرة ١٩٥٧، ص ٥٢.

وفي إحدى رسائله العائدة لعام ١٩١٩ أشار سعد زغلول، إلى أن النقابات العمالية القادرة على استنهاض الكادحين في فترة وجيزة لدعم الحركة الوطنية الشاملة إنما هي سلاح جبار لا يمكن تجاهله.

Couland 1. Régards em rhismire Pr 135.

الاجتماعية التي تفرق بين طبقاتها، وتلتزم كل طبقة منها موقفاً خصوصياً تجاه المشاكل التي تشغل بال الأمة وتجاه طرق حلها، فمن المنطقي الافتراض بأن الجماعة التي أبدت حزماً أكبر في مجابهة السيطرة الأجنبية ستساعد بأفضل صورة على تحقيق الأماني الوطنية المشتركة. وبات العمال هم تلك الجماعة. ولا بد من توعيتهم وتنظيمهم.

وكان ذلك يعني أيضاً أن الذين سعوا إلى توعية العمال وتنظيمهم يتصورون أنهم سيكونون بديلاً للقيادة الوطنية القائمة في مصر، قيادة الوفدين. والأكثر من ذلك أن طرحهم للمسألة العمالية كان مغايراً للسينديكالية النقابية التقليدية لسابقيهم في مجال النشاط في البيئة العمالية - الحزب الوطني. فالزعماء المرتقبون للاشتراكيين المصريين وللحزب الشيوعي (فيما بعد) طرحوا مهمة تأسيس حزب ثوري جديد يسعى للتعبير عن المثال الاجتماعي الأعلى. ويحل المهمات الوطنية على أساسه. قال يوسف (جوزيف) روزنتال، أحد مؤسسي الحزب الاشتراكي المصري، وهو مهاجر من روسيا حصل على الجنسية المصرية، أن "الأهداف السياسية" التي طرحها هو وزملاؤه في لحظة تأسيس الحزب "تختلف عن تلك التي يتوخاها حزبا النهضة الوطنية - الوفد والحزب الوطني"^(١).

(١) إفادة يوسف روزنتال أمام النائب العام المصري بخصوص التحقيق في نشاط أعضاء اللجنة المركزية للحزب الشيوعي المصري في: ٧ مارس ١٩٢٤، رفعت السعيد، تاريخ الحركة الاشتراكية في مصر، ص ٣٠٨.

(١) القضايا العمالية

في نظريات وممارسات الاشتراكيين المصريين الحراك من أجل تأسيس الحزب الشيوعي

في عام ١٩١٩ شكل مجموعة من الأعضاء السابقين في الحزب الوطني (عزيز ميرهم، ومنصور فهمي، ومحمود عزمي) ومن مثقفي القاهرة الليبراليين الحزب الديمقراطي الذي لم يطل به العمر كثيراً. هدف الحزب، كما أكد برنامجه، هو العمل على تأسيس النقابات العمالية. ولم يكن الأمر يقتصر على إحياء أحد تقاليد الحزب الوطني، بل تعداه إلى جعل هذا التقليد اتجاهًا دائمًا لعمل الحزب الجديد لا يتأثر بتقلبات الأحوال السياسية. واعتبر الحزب الديمقراطي من مهماته مساعدة الطبقات الكادحة في مسعاها لبلوغ التقدم المادي والمعنوي، وإعانة غير القادرين على العمل وتأمين انتفاع جميع سكان البلاد، حيثما أمكن، من الثروة الوطنية^(١).

إلا أن ظهور الحزب الديمقراطي كان دليلاً على أن عمليات جديدة تجري داخل الحركة الوطنية وأن الاتجاهات نحو التلون والصبغة الاجتماعية لقضايا المجتمع اشتدت أكثر مما سبق. ولعل التأكيد الذي لا يقبل الشك على ذلك ورد في وثائق الحزب الوطني المصري.

في عام ١٩١٧ وجه أعضاء الحزب الوطني نداءً إلى مؤتمر الاشتراكيين في

(١) أشار محمود عزمي إلى أن الحزب وضع في حجر الزاوية من نشاطه تطوير الحركة العمالية منذ نشأتها في البلاد خلال تلك السنوات والمساعدة في ظهورها وفي تأسيس النقابات وقيادتها والدفاع عن مصالح العمال والنظر في شكاواهم، رفعت السعيد، ص ١١٠.

استوكهولم^(١). كان النداء مكتوباً بضمير المتكلم، ومضمونه وتراكيب جملته تشير إلى أن كاتبه هو محمد فريد. يتحدث النداء عن الاستقلال المصري، الذي بات وهمياً في الواقع بعد الإعلان أن مصر محمية لبريطانيا.

في رأي كاتب الوثيقة، وهو بالطبع مشغول البال في المقام الأول بمصير بلاده، أن بلدان المشرق وقعت ضحية للسياسة الاستعمارية التي هي بنت الرأسمالية. وهذه تستخدم الدول وجيوشها لإخضاع البلدان التي تحتاج إليها بصفة سوق رخيص للخامات والأيدي العاملة. وهذا هو منبع سياسة التوسع الاستعماري. إلا أن حرية الشعب لا يمكن اجتثاثها حسب الأهواء ولا تعطى له حسب تلك الأهواء. الدول الكبرى لا يمكن أن تتصرف بالحرية كما بعملة نقدية في التوافقات فيما بينها. بريطانيا، بوصفها إحدى تلك الدول، لا يمكن أن. تستند إلى أي اتفاق أو معاهدة أو أية وثيقة دبلوماسية كسلاح. لا يجوز أن تعرض علينا وثائق من هذا النوع حتى وأن وجدت. فإن حرية الوطن أسمى من أية مثل عليها أخرى. الوطن لا يعود لجيل واحد. أنه ملك الأجيال الماضية والقادمة. وحتى جيل المصريين الحالي لا يحق له التصرف بمصيره على انفراد. الشعب نفسه لا يتمتع بحق تقرير مصيره.

بديهي أن تحرير مصر قضية تخص شعبها. إلا أن هذا الشعب يمكن ويجب أن يعتمد على "البروليتاريا الدولية" لأن هذه الطبقة هي الوحيدة القادرة على حقن الدماء التي تهدد بإعاقة سير البشرية إلى الأمام، وبإغراق الحضارة نفسها. وأعلن الوطنيون أنهم يؤمنون بأن هؤلاء البروليتاريات يستطيعون أن يوقفوا الحرب العالمية ويساعدوا شعوب الشرق في كسب الحرية خلافاً للشوفينيين الذين يخدعون أنفسهم بأمل في نصر مشكوك فيه، ورغم

(١) هنا وفيما بعد: أرشيف التاريخ المعاصر، ملف ٤٩٥ إضبارة ٨٥، وثيقة ١، ص ١-٣.

دسائس المستعمرين الساعين إلى توسيع ممتلكاتهم على حساب الأقوام المضطهدة. آنذاك تغدو مصر أيضاً حرة. وستكون بلداً عظيماً تضم أراضيها ليس فقط مصر ذاتها، بل ووادي النيل كله من خط الاستواء حتى البحر الأحمر والبحر الأبيض المتوسط. وستكون مصر للمصريين. ولعل قناة السويس وحدها تبقى في مصر الجديدة ملكاً مؤقتاً للأجانب. ومع ذلك ستكون لها مكانة محايدة. حياد قناة السويس، كما يقول النداء، لا يمكن أن يتحقق بالفعل إلا إذا تخلصت مصر من المحتلين الإنجليز وتركوها لشأنها. إلا أن القناة بوصفها أهم شريان يمر عبر الأراضي المصرية سوف تسترجع من أصحاب شركتها الإدارية مقابل تعويضات. وتتكفل مصر الجديدة بدفع جزء من تلك التعويضات. بعد بضع سنوات استشهد "برنامج الاشتراكيين المصريين" بكلمات محمد فريد حرفياً تقريباً.

كما كرر مؤسسو الحزب الديمقراطي ما قاله الوطنيون الراديكاليون، متناولين القضايا والمسائل العمالية من وجهة نظر احتياجات بلوغ الاستقلال وإشاعة الديمقراطية في مصر، وكل ما فعلوه هو التركيز على الجوانب الاجتماعية من أحكام برامجهم. وأشاروا إلى أن التنظيم الجديد سينطلق في نشاطه من مبادئ المساواة والتكافؤ بين الأمم والأخوة بين البشر وسيسعى إلى إعلاء كلمة مثل التقدم ودعم سيادة الشعب والعمل من أجل أن تشغل العدالة مكان القوة. ونادى أعضاء الحزب بالاعتراف بحق كل شعب بحكم نفسه بنفسه، وبشمول الصلاحيات القانونية المصرية لرعايا الدول الأجنبية المقيمين بمصر وبتأسيس برلمان مصري يقوم على الانتخابات الحرة من قبل الشعب ويتمتع بحق ثابت لتشكيل الحكومة الوطنية^(١).

(١) عبدالعظيم رمضان، الفكر الثوري في مصر قبل ثورة ٢٣ يولييه. القاهرة. ص ٤٢، رفعت السعيد ص

وبات هدف الحزب هو دعم نشر الحريات الديمقراطية في مصر وتحويلها إلى بلد ديمقراطي حقاً وفعلاً. وكان بإمكان مصر أن تغدو بلداً كهذا فيما لو جرت إصلاحات في المضمار السياسي وفي ميدان الاقتصاد والحياة الاجتماعية ومبادئ الأخلاق^(١). وكان المقصود هو التقدم التدريجي نحو تحقيق أفكار العدالة الوطنية والاجتماعية، وليس التحويل الثوري للبنى الاقتصادية والاجتماعية القائمة. فاليساريون المصريون في تلك الحقبة لم يكونوا يعرفون إمكانيات أخرى لتحقيق أفكار نشر الديمقراطية. وكانت التقاليد الاشتراكية الوطنية تستبعد إمكان استخدام طرائق العنف الثوري في عملية تغيير المجتمع الوطني. أما الثورة البلشفية فلم تكن بالنسبة لهم قدوة للمحاكاة. والقضية تكمن في التربية التي تلقوها وفي غط الحياة والطموح إلى الوسائل الإنسانية في الممارسة السياسية، بما في ذلك رغبتهم في البقاء جزءاً من النخبة الوطنية التي تمارس تأثيراً على السلطة ولو فكرياً فقط، دون أن يتخلفوا في صفوف الجماعة المאוثة للنخبة والمواجهة لها في هذا المجال^(٢)!!).

ومع ذلك لم يبادر أعضاء الحزب الديمقراطي إلى تشكيل مجموعة ضغط قوية من العمال النقابيين على الوفديين في مصر. وتولى هذا الدور الاشتراكيون من أبناء الطوائف

(١) سار بعض أعضاء الحزب الديمقراطي في آرائهم إلى أبعد، حيث افترض عزيز ميرهم أن بالإمكان في ظروف معينة حل المهام الحزبية بالطريق الثوري، ولكن بشكل استثناء من القاعدة. وهو يعتقد بعدم وجود دولة ديمقراطية واحدة في القارة الأوروبية ما عدا روسيا السوفيتية لأن قسماً كبيراً من الثروة الوطنية في تلك الدول يعود لجماعة صغيرة من السكان، فيما تحرم الأكثرية التي تنتج تلك الثروة من إمكانية التمتع بثمار عملها وعقلها // المصدر ذاته، ص ١٠٩ - ١١٠ وص ١١٨.

(٢) فيما بعد انضم أعضاء الجناح الوطني في الحزب الديمقراطي إلى الحزب الاشتراكي المصري، لكنهم سرعان ما تنكروا لمواقفهم وفضلوا عليها حزب الوفد.

غير العربية. وكان من أبرزهم يوسف روزنتال. لكنه هو أيضاً اكتفى بمواصلة تقاليد الجماعات الاشتراكية التي ظهرت في الإسكندرية قبل الحرب العالمية الأولى، وهي مكونة من أبناء الطوائف اليونانية، والإيطالية، والأرمنية، واليهودية. وجهودها تستهدف في المقام الأول تطوير الأشكال الاقتصادية لنضال الأجانب المقيمين في مصر، أما الطرق السياسية فقد رفضت قطعاً. بديهي أن تلك الجماعات لم تلجأ أبداً إلى طرق العمل السرية. إلا أن نشاطها في ظروف ما بعد الحرب لم يعد مقتصرًا على الأقليات غير العربية فقط. ففي السابق، كما يقول روزنتال، كانت كل النقابات التي شارك في تأسيسها تتكون بالكامل تقريباً من الأجانب، فيما كان عدد العرب قليلاً جداً في جميع ميادين الإنتاج. إلا أن عهد الاستقلال الوطني غيّر الموقف جذرياً. في عام ١٩٢٤ قال مؤكداً: "لاحظنا أن النقابات لا تستطيع أن تتدخل في المسائل السياسية بشكل فاعل كونها تتألف من عمال يختلفون عن بعضهم البعض من حيث المستوى الفكري، ومن حيث الميول السياسية المتقاطعة أحياناً. ولذا فكرنا في مسألة تأسيس حزب سياسي يمكنه أن يغدو لسان حال لنقابات العمال ويدافع عن مصالحها في الجمعية التأسيسية ويجعل الحكومة تشرّع قوانين لتأمين حقوق العمال المتروكين أمام مضايقات الرأسماليين"^(١). وبات إدراج العمال العرب في هذه العملية ضرورة من الدرجة الأولى.

في ٢٧ فبراير ١٩٢١ عقد في الإسكندرية المؤتمر التأسيسي للاتحاد العام للنقابات في مصر. افتتح المؤتمر يوسف روزنتال وألقى على مندوبيه الخطاب البرنامجي^(٢). تكلم

(١) رفعت السعيد، ص ٣٠٧ - ٣٠٨.

(٢) هنا وفيما بعد..

Discours-ngralnm prononcc' par Jaseph Rosemhal le 27 am" 1921 a l'ouverture de l'Assemblée: Gène'rale pom la créallon an... cm. en Egypte.

=/=

بالفرنسية ، اللغة التي تفهمها الإسكندرية الكوسموبوليتيكية آنذاك والتي استخدمها أيضاً المثقفون المصريون في مواجهة لغة المحتلين الإنجليز. ولم تكن كلماته تتطابق إلا قليلاً مع ما كان يتحدث عنه آنذاك زملاؤه وأشياعه المصريون. كما أنها لا تتطابق أصلاً السياق الذي صاغ فيه روزنتال والاشتراكيون المصريون الأفكار التي طرحوها.

هذا النقابي السنديكالي الأكثر تألقاً في مصر قال إن المؤتمر الذي يفتتحه "يرمز إلى أمل البشرية وأمانها وطموحها إلى المستقبل". وقد رأى روزنتال هذا المستقبل "يكاد يفتح في مصر - على هذه الأرض المضيف حيث لدى جميع الأمم مستوطنات كثيرة، البلد الذي يتكيف فيه الأجانب بسهولة ويعثرون على موقع لهم لكي يحققوا إمكانياتهم هنا دون عائق. ونحن مستعدون لكي نبين أن الشعب هنا في مصر مستعد للعيش في وئام ويمكنه أن يوحد صفوفه ويتوصل إلى التفاهم". والضمانة لتحقيق ذلك، على حد قوله، هي "العمل النزيه والإنتاج الذي يحتوي على جنين التناسق البشري وأخوة الأمم". وبفضل ذلك "يمكن أن تغدو مصر نموذجاً مصغراً لولايات متحدة عالمية وعصبة أمم نقابية حقيقية".

لم يذكر "روزنتال" في خطابه ولا مرة واحدة، سيطرة الأجانب على مصر. كان بعيداً كل البعد عن ربط القضية العمالية بمسألة الاستقلال المصري. فقد كانت هذه القضية بالنسبة له هي الطاغية على ما سواها. وبذلك كان يختلف عن سائر أنصاره. إلا أن كلماته كانت متأثرة بصدى أحداث ١٩١٩ عندما كان أفراد المستوطنات الأجنبية في مصر يعيشون حالة متوترة من توقع التنكيل، والعنف، والنهب، والسلب. ولذا، على ما يبدو، أكد روزنتال أن العمال يشعرون عفويًا بحاجة ملحة إلى التضامن والتعاقد الأخوي. فبين

العمال الفقراء فقط ، بين المظلومين والمعدمين ، يلمس المرء أنبل المشاعر والإخلاص الحقيقي الذي لا يعرف الأنانية. وإذا كنا نصادف عند العمال هنا وهناك الميل الشائن إلى التناحر والمنافسة ، والدسائس والغدر ، فما تلك إلا عواقب حتمية لا فرار منها لتأثير الحياة الاجتماعية الطفيلية الراهنة عليهم. هذا ما يقوله روزنتال.

كان يعتقد أن الطبقة المسيطرة ، ومنها بالنسبة بالطبع زعماء الوفد وعلماء المسلمين ، التي تعيش وتسعى إلى تخليد تلك المعيشة على حساب عرق ودماء الآخرين هي المسؤولة عن الأحقاد والحروب الفتاكة والنهب والسلب والشقاوات التي تطبق الخناق على المجتمع. وقد رأى روزنتال سبب الموقف الذي يجري فيه كل لحظة تشويه الطبيعة النبيلة للعمال في عزلة العاملين المناضلين في سبيل مصالحهم الحيوية وفي غياب الوحدة بينهم وفي جهالتهم الناجمة عن التربية بروح الشر والأحقاد القومية والعنصرية.

ولا بد من مواجهة وحدة الطبقة الحاكمة بالوحدة الأمية للشغيلة التي بفضلها تتجلى الميول الطبيعية العفوية لدى العمال نحو التفاهم والتعاون بأشكال عملية ملموسة ، فيما تغدو الخصال اللاواعية واضحة ودقيقة في صياغات مفهومة. وهذا ، برأي روزنتال ، ممكن فقط عندما تتقارب القوى الحيوية للشعوب المشتتة وتتوحد في تكتل جبار قادر على تزويد العمال بوسائل حماية مصالحهم المادية وكذلك الطبقة. هذه المصالح تجلت فيما هو ممنوع على العمال ، أي إمكانية التمتع بالثروات الروحية والمعنوية والجمالية التي أبدعتها عبقرية الناس بفضل جهود وعمل وتعاون البشرية الكادحة حقاً.

كان يوسف روزنتال ، بالطبع ، بعيداً عن نموذج البلشفي الطبقي الذي ارتسم فيما بعد. إلا أنه صادق ونزيه في موقفه من الذين اعتبرهم مظلومين ومضطهدين. ولا تحتوي كلماته أبداً على شعور من التقزز تجاههم ، ولا الرغبة في الركض إلى الأمام لبلوغ مناصب سياسية في حين يتحول عامة الناس إلى مجرد وسيلة لتحقيق الطموحات الشخصية

لدى البعض. لقد كان بالفعل يعتبر هؤلاء العامة "ملح الأرض" و خلاصة الخلاصة ويظن أن إعلاء شأنهم يساعد في تحسين العالم وجعله أكثر إنسانية وعدالة. ولذلك بالذات قال في خطابه أن النضال الطبقي الذي يخوضه الشغيلة المستغلون ليس نضالاً أنانياً من أجل مصالح تافهة ومحدودة، وإنما هو أعمق بكثير من حيث أهميته. النضال، بالنسبة له، في سبيل تحسين الأوضاع المادية للطبقة المنتجة وإثراء أحوالها المعنوية إنما هو أيضاً نضال من أجل إنعاش العمل، من أجل احترام الجهود الإنتاجية النافع لخير البشرية جمعاء ولإنقاذها. ويعود ذلك إلى أن الفقراء والأغنياء هم أجراء يعانون التعاسة، مثل مستأجريهم ومضطهديهم، في واقع الأمور الحالي. والعمل وحده قادر أن يكون الوسيلة الجبارة لإحياء البشرية. بالعمل وحده يمكن إنقاذ البشرية وإحيائها.

هذا المنطق دفع يوسف روزنتال إلى طرح مسألة السنديكالية^(١). النقابية. فالعمال عندما يشغلون مواقع موفقة وراء جدران قلعة حصينة هي النقابات يتمكنون بفضلها من حماية أنفسهم دون خصومهم. وإذا صار حق تأسيس النقابات حقاً شرعياً معترفاً به من قبل الجميع في العالم كله فمن الطبيعي أن يغدو من أصول الحياة في مصر. ولا معنى للخوف من مزاعم مثلي الطبقة الحاكمة الذين يعلنون أن النقابات تنظيمات تثير وتنتشر الأحقاد الطبقيّة. ويكفي أن نسأل الجنود العائدين من سوح القتال، كما يؤكد روزنتال، لكي نفهم من يؤجج الحروب والثورات في الواقع. "أما نحن - يقول - فنشن حرباً على

(١) السندكالية أو النقابية (بالإنجليزية Syndicalism) هي تيار راديكالي في الحركة العمالية بلغ أوج نشاطه في أوائل القرن العشرين. فكرة السندكالية الرئيسية هي إنشاء المنظمات المحلية القائمة على العمال ودعم مطالب العمال وحقوقهم من خلال الإضرابات. وفقاً للمؤرخ الماركسي إريك هوبسباوم، فقد كانت السندكالية سائدة في اليسار الثوري في العقد الذي سبق اندلاع الحرب العالمية الأولى لأن الماركسية كانت في معظمها إصلاحية في ذلك الوقت.

الحرب ونروج كراهية الكراهية وكفاحنا الطبقي يستهدف الانقسام الطبقي".

إلا أن المسألة بالنسبة ليوسف روزنتال لا تقتصر على تأسيس نقابات جديدة وتوسيع الموجود منها. فالدور القديم لهذه المؤسسات ولى زمانه في اعتقاده، لأن التنازلات الجزئية من الطبقة الحاكمة لا تغير الموقف العام لتدهور أوضاع الكادحين المتواصل. ومن الآن فصاعداً يجب أن تكون للنقابات واجبات وأهداف وطرق تنظيمية أخرى. والمطلوب هو تأسيس حزب عمالي موحد قوي وجبار وحسن التنظيم. ويجب أن يتكون هذا الحزب العمالي من الاتحادات النقابية والصناعية المنضمة إلى اتحاد فيدرالي واحد والتي ينبغي عليها، بدورها، أن تغدو عناصر مكونة لاتحاد كونفيدرالي عام مرتبط دولياً بأمثاله من البنى التنظيمية. وبواسطة هذا الحزب ينتظر أن يتم تخفيف الآلام البشرية وتطبيب الأمراض الاجتماعية.

وكان بالإمكان القيام بذلك فيما لو تولى العمال المعتمدين على حزبهم قيادة الماكنة الاجتماعية بهدف إنهاء الطفيليات. وعلى النقابات المنضمة إليه أن تغدو بدورها المنظمين الأساسيين للإنتاج والتوزيع. وفي الحقيقة يعتبر روزنتال الاتحاد العام للنقابات في مصر بمثابة الحزب العمالي المنشود. قال: "أمل أن يغدو اتحادنا مركز جذب لجميع الحركات العمالية في مصر". وماذا بخصوص برنامج عمله؟

أشار يوسف روزنتال وهو يتكلم في افتتاح مؤتمر الاتحاد العام للنقابات في مصر إلى أن أعضاء قيادته سيناضلون طبعاً من أجل أن تطبق في مصر أبسط حقوق الكادحين، وهي: (يوم عمل من ثمان ساعات وضمانة ضد البطالة ومدفوعات في حال المرض أو الإصابة أثناء الإنتاج). إلا أن أمراً آخر كان مبدئياً بالنسبة له. وهو في الواقع الجزء الأهم، باعتقاده، في هذه العملية التي سماها "بالنضال الطبقي"، ألا وهو فتح مدارس مهنية صناعية ومساكن للشغيلة وجامعات شعبية تابعة للنقابات وبمساعدة النقابات، حيث تلقى

المحاضرات وتقام الاحتفالات. كان يقيم في المشرق، وهناك أساس الوجود البشري حضارة لا تشبه الحضارة الغربية. إلا أن حضارة البشرية التي انبثقت في المشرق لا يمكن أن ترتدي حلة حيوية فعلية إلا إذا استطاعت أن تعتمد على العملية المادية الجارية في الحضارة الأوروبية. وبالطبع سيتم اندماج الحضارات والثقافات بمساعدة العمل الإنتاجي وفي إطار منظومة التكافؤ الاقتصادي. وسيحقق هذا الاندماج أخوة البشر - طوبى وأمنية شعوب الشرق وأنيائه. وأختم روزنتال خطابه بالشعارات التالية: فليحيا الاتحاد العام للنقابات في مصر! فليحيا العمل! المجد والتكريم للعمل الذي يحيا البشرية ويحررها!

في الثلاثين من يونيو ١٩٢١ نشر الاتحاد العام للنقابات في مصر نداءً "إلى جميع نقابات مصر"^(١) أفاد بأن مؤتمراً عقد في ١٤ يونيو ١٩٢١ بالإسكندرية لممثلي نقابات القاهرة والإسكندرية وبورسعيد والمحلة الكبرى والتي يبلغ إجمالي أعضائها قرابة ٤٠ ألف عضو. وأقر المؤتمر النظام الداخلي للاتحاد وانتخب لجنته الإدارية من ١١ عضواً.

واعتبر النداء عقد المؤتمر خطوة مهمة نحو تجاوز الوضع الذي يدل، في رأي واضعي النداء، على غياب النضوج الواعي والتام للحركة العمالية المصرية التي ازداد تعدادها دون أن تظهر في صفوفها مثل عليا دقيقة، ولا أهداف ولا تكتيك، ولا وحدة ولا تعاضد. وسبب ذلك الوضع يكمن في غياب الحزب السياسي.

وكرر النداء إحدى أهم أفكار يوسف روزنتال، وهي أن الاتحاد العام للنقابات في

(١) A Ious lzs syndicats d'Egpre المصدر ذاته، ص ٦ - ٧.

نص النداء الموجود في أرشيف التاريخ المعاصر منشور بالفرنسية على استمارة الاتحاد العام للنقابات في مصر واسم الاتحاد مكتوب على الاستمارة بالعربية والفرنسية Confédération générale du travail d'Egypte وفي الاستمارة عنوان بريد الاتحاد: الإسكندرية صندوق بريد رقم ١٨٥٥. وفي مقدمة نص النداء اقتباس من كارل ماركس. وفي ختام النص شعار "يا عمال العالم اتحدوا!".

مصر يسعى إلى تنسيق وتقارب وتركيز قوى العمال الذين أضعفهم التشرذم والتباعد. ولذا أعلنت اللجنة الإدارية للاتحاد أن المهمات التي تواجهه الآن تتلخص في سعيه لتغيير نظام نشاط النقابات الجاري في البلاد لكي يضيف عليه طابعاً طبقياً أكثر وضوحاً ويبنى نظاماً قوياً للتابعة المركزية للنقابات بإنشاء مراكز عمالية تشمل عموم مصر، بما فيها الاتحادات النقابية المحلية والريفية العاملة بقيادة الاتحاد العام للنقابات في مصر. وتنوي الهيئة القيادية للاتحاد الاتصال بالعمال الصناعيين والزراعيين غير المنخرطين بعد في الحركة النقابية، والسعي لتأسيس اتحادات مهنية لهم. كما أن المطلوب أيضاً هو أن اللجنة الإدارية ستساعد في إنشاء بورصة العمل في البلاد وكذلك المدارس الصناعية المهنية ومدارس التثقيف المعنوي الأخلاقي، وفي حل التناقضات التي تظهر داخل النقابات وفيما بينها. وبمشاركة اللجنة ينبغي أن تلقى في المدن المصرية الأساسية سلسلة محاضرات تعليمية عامة. وينبغي أن تساعد مطبوعات الاتحاد الدورية باللغات العربية والإيطالية واليونانية على توحيد الشغيلة المصريين. وسيمحو نشاط الاتحاد، كما جاء في النداء، الأحقاد الطبقية والتشرذم الطبقي. وتكررت فكرة روزنتال الأساسية في النداء أيضاً.

وكان من الأمور الهامة مبدئياً بيان اللجنة الإدارية الذي وعد بأن يقيم الاتحاد العام للنقابات في مصر علاقات مع الأمية النقابية. كما تحدث عن ذلك أيضاً روزنتال وهو من أبرز المنادين بالسنديكالية النقابية في مصر. ففي ٦ أكتوبر ١٩٢١ أرسلت إلى الإسكندرية رسالة من المكتب التنفيذي للأمية النقابية أكدت على استلامهم رسالة الاتحاد العام للنقابات في مصر المؤرخة في ٣٠ يوليو وشددت على أن "الأمية الحمراء للنقابات مسرورة لأن بروليتاريا مصر ساعدوا على توسيع صفوفها"^(١).

(١) أرشيف التاريخ المعاصر. ملف ٤٩٥، إضبارة ٨٥، وثيقة ١، ص ٩.

في عام ١٩٢٠ تأسس في الإسكندرية بإشراف يوسف روزنتال الحزب الاشتراكي الأممي الذي سماه أعضاؤه "بالحزب الاشتراكي في مصر". وهو مكون من السنديكاليين الأجانب والمصريين المقيمين في هذه المدينة. ومنهم سكرتير اللجنة المركزية المرتقب للحزب الشيوعي المصري أنطون مارون وأحد مؤسسي الحركة الشيوعية السورية اللبنانية فؤاد الشمالي.

كلمات روزنتال تضمنت معلومات مهمة. فالاشتراكيون الأجانب في مصر بذلوا جهداً للعمل المشترك مع زملائهم المصريين، ولم يعودوا يعتبرون أنفسهم جزءاً من الأحزاب الاشتراكية في البلدان الأوروبية. وكانوا يعتبرون "الحزب الاشتراكي المصري" حزباً عمالياً لمصر وجزءاً من تركيبها السياسية وتنظيماً يهدف إلى ممارسة النشاط بين العمال المحليين^(١). ينبغي "للحزب" الجديد أن يتحول إلى مركز جذب لعناصر من الثوريين الوطنيين المصريين الساعين ليكونوا بديلاً عن الوفديين. تركيبته التنظيمية وتوجهاته البرنامجية باتت بمثابة خميرة لتطور الجماعات الاشتراكية في صفوف المثقفين الوطنيين المصريين^(٢).

(١) قال يوسف روزنتال في إفادته أمام النائب العام المصري أن الإشتراكيين الأجانب في الإسكندرية فهموا ضرورة العمل بين المصريين في السنوات الأولى بعد الحرب العالمية عندما غادر المدينة كثير من الأجانب نظراً لأحداث ١٩١٩ والسنوات القليلة التي أعقبتها، فحل محلهم أبناء الريف والأحياء العربية، رفعت السعيد. ص ٣٠٧.

(٢) كان يوسف روزنتال، في تصور الإشتراكيين المصريين الأوائل، شخصاً سعى إلى الاستفادة من خبرته ومعارفه لغرض تأسيس حزب إشتراكي عمالي. يقول سلامة موسى، أحد مؤسسي الحزب الإشتراكي في مصر، أن الإشتراكيين المصريين كتبوا إلى روزنتال وسألوه عن برنامج حزبه. فيما أعرب مؤسس آخر هو علي العناني عن إعجابه بهذا الرجل وبالخبرة التي كسبها في الكفاح الطويل من أجل مبادئ =/=

إلا أن روزنتال أعطى زملاءه المصريين فكرة تأسيس الحزب العمالي فقط. ولكن كيف ينبغي أن يتشكل هذا الحزب وأي دور ينبغي أن يؤديه في الحياة السياسية لمصر؟ لقد ظل روزنتال في وقت تأسيسه للحزب الاشتراكي المصري وما بعد ممثلاً لفرع من الاشتراكية الأوروبية التي كانت طرق نشاطها وتوجهاتها الفكرية معروفة لدى المثقفين الوطنيين المصريين بفضل التقاليد الاشتراكية الوطنية. فيما كان روزنتال على يقين من أن الحزب العمالي يجب أن يبقى تنظيمًا لمثقفين يخوضون النضال في "مجلس الشعب/البرلمان" من أجل تلبية الطموحات الاقتصادية للكادحين. كان يرى أن هذا الحزب مدعو للبقاء على ارتباط وثيق مع المنظمات النقابية التي يعتبرها في الواقع بمثابة أعضاء جماعيين في الحزب. وينبغي لنشاط حزب العمال أن يتسم بطابع شرعي علني تماماً ويهدف إلى الاعتماد على النقابات الخاضعة له ويطالب الحكومة بإجراء الإصلاحات التي يمكن بواسطتها إزالة المظاهر الصارخة للظلم الاجتماعي.

فيما بعد اتهم روزنتال "بالفوضوية" و"الإصلاحية الاجتماعية" وفصل من الحزب الشيوعي المصري. إلا أن المشكلة لا تقتصر بالطبع على تمسكه المطلق بهذه الأيديولوجية أو التجربة "الإصلاحية" لنشاطه السابق في الاتحادات النقابية للعمال الأجانب في الإسكندرية. فالأفكار الإصلاحية تركزت في ذهنه نتيجة للاتصالات الأولى مع الكادحين المصريين غير المتعلمين والمثبعين بالأوهام القومية والدينية المرتبطة كلياً بالريف المتخلف المقهور. ورغم ذلك بات عمل مجموعته الاشتراكية بين المصريين نقطة التماس التي جعلت بالإمكان ومن المرغوب فيه إقامة الاتصالات بينها وبين قسم من الوطنيين الراديكاليين المصريين.

تطور هؤلاء الراديكاليين لعب الدور الحاسم في قيام الحركة الاشتراكية ثم الشيوعية في مصر. إلا أن الطريق الذي اجتازوه كان معقداً ومحفوفاً بالمخاطر والعذاب. فالثوريون الوطنيون المصريون اعتبروا المثال الأعلى الاشتراكي هدفاً منطقياً للتطور السياسي والاجتماعي يستبعد احتمال التغيير الجذري لتركيبية المجتمع وبنيتة الاجتماعية وقاعدته الاقتصادية. بهذا الشكل تصورت التقاليد الاشتراكية الوطنية هذا المثال الأعلى في مطلع القرن العشرين. إلا أن ثمة جانباً آخر لنفس القضية. ففي صفوف المثقفين كانت فئة المستخدمين قليلة العدد، الأمر الذي يتوقف على نظام التعليم الثانوي والعالي الذي كان قائماً عشية الاستقلال وبعده. وكان المثقفون بمعظمهم فئة مغلقة منطوية على نفسها، وهذا ما رسم حولها هالة الثقافة إلى جانب العزلة الثقافية^(١). وتوصل أفراد هذه الفئة الاجتماعية إلى فكرة ضرورة الحزب العمالي ليس لأنهم كانوا مهتمين "بناس العمل" المصريين أو أنهم شعروا بالتعاطف العميق معهم. فالأرجح أنهم كانوا يعاملون العمال بتساهل وتقزز^(٢). كانوا يبحثون عن موقعهم الشخصي في الحياة السياسية لبلادهم، فتصوروا أنهم سيتمكنون بتأسيس الحزب العمالي من إحراز مكانة قوة صنع القرار الحاسمة وليس الهامشية.

(١) راجع بهذا الخصوص، تشيرنوفسكايا، فالينتينيا. نشوء فئة المثقفين المصريين في القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين. موسكو ١٩٧٩ ص ٥٤-٧٨.

(٢) في مقابلة مع رفعت السعيد قال عضو اللجنة المركزية للحزب الشيوعي المصري عبدالرحمن فضل، وهو من أوائل المصريين الذين درسوا في الجامعة الشيوعية لكادحي الشرق، عن حسني العرابي، أحد مؤسسي الحزب الاشتراكي في مصر والحزب الشيوعي المصري أنه كان أحد سبعة أرستقراطيين من تجار القطن الذين أفلسوا، راح يبحث عن عمل، وغدا أرستقراطياً مفلساً أشبه بأحد البكوات الذين فقدوا أراضيهم. كان في كلامه مع بسطاء الناس في منتهى التهذيب والعذوبة، رفعت السعيد، ص ٢٩٩.

في عام ١٩٢١ تأسس في القاهرة كذلك الحزب الاشتراكي في مصر برئاسة سلامة موسى وعلي العناني. وانضم إليه ممثلو النخبة المثقفة في العاصمة (محمد عبد الله عنان وأحمد المدني وحسني محسن) وكذلك أحد علماء الأزهر الشيخ عبد اللطيف بجيت. وفي الفترة من ١٧ حتى ١٩ أغسطس ١٩٢١ نشرت "الأهرام" المصرية تصريحات زعماء المجموعة الاشتراكية القاهرية التي مكنت من تكوين فكرة عن أشكال بنيتها التنظيمية وعن المهمات التي طرحها مؤسسوها.

وفي ١٧ أغسطس أعلن سلامة موسى ، أنه يرى مع الدكتور العناني وجماعة من الشباب المتنورين ضرورة لتأسيس جمعية اشتراكية لدراسة مختلف تيارات التعاليم الاشتراكية. وفي اليوم التالي أشار علي العناني إلى أنه ومشاطريه في الرأي يسعون من زمان إلى تأسيس اتحاد اشتراكي في البلاد من بين المواطنين المصريين. وأخيراً ، في ١٩ سبتمبر كتب سلامة موسى في مقالة بعنوان "الاشتراكية المصرية" أن عدداً غير قليل من الاشتراكيين المصريين ، ومعظمهم لاحظوا بألم العين الصراع الجاري في أوروبا بين الرأسمال والعمل ، وتوصلوا إلى استنتاج حول ضرورة تأسيس جمعية يكونون جميعاً من أعضائها لكي تتوفر لهم فرصة دراسة النظرية الاشتراكية وسبل تطبيقها في الظروف المصرية^(١). وفيما بعد أفاد أفيجدور بهذا الخصوص أن تأثير هذه الجماعة شمل ما لا يقل عن ألفي شخص ، وأن مؤسسيها ينتمون إلى الجناح اليساري من الوطنيين^(٢).

وهكذا طرح أعضاء الجماعة الاشتراكية مسألة تشكيل حلقة من المثقفين المتفرغين

(١) المصدر ذاته ، ص ١٨٣.

(٢) تقرير أفيجدور إلى المكتب المصغر للكونمترن بتاريخ ٥ نوفمبر ١٩٢١ // أرشيف التاريخ المعاصر. ملف

٤٩٥ ، إضبارة ٨٥ ، وثيقة ٢ ، ص ٨.

لدراسة النظرية الاشتراكية. وكان المفروض أن تلم هذه الحلقة شمل الاشتراكيين المصريين. وكان هدف مؤسسيها الذي يستجيب لطموحاتهم التنويرية التوعوية هو تحديد مدى استجابة مستوى تطور البلاد للنظرية الاشتراكية. النصوص المنشورة في "الأهرام" لا تعطي مبرراً للقول بأن أعضاء الجمعية يهدفون إلى إقامة الاتصالات المباشرة مع النقابات العمالية.

كان سلامة موسى المنظر الأول لجماعة القاهرة، وهو المعروف بدعوته للأفكار الاشتراكية من عهد ما قبل الحرب العالمية الأولى. ففي عام ١٩٢٣ نشر كراساً بعنوان "الاشتراكية" لعب دوراً ملحوظاً في إطلاع الرأي العام المصري على مبادئ الاشتراكية في تفسيراتها الفايبة (الإصلاحية السلمية). ولم يخف سلامة موسى إعجابه الشديد بكارل ماركس، إلا أنه كان يؤمن كلياً بأن برنارد شو (الفايبي) أضفى على الأفكار الماركسية طابعاً إنسانياً حقاً. وظل سلامة موسى من المعجبين بهذا الكاتب حتى آخر أيامه.

كان كراس سلامة موسى عبارة عن مقالة فاضحة في نقد الرأسمالية^(١) تصور المجتمع البرجوازي في المقام الأول على أنه مجتمع لا إنساني سكت على التناحرات الاجتماعية الصارخة والأمراض والعيوب الملازمة له. وهو إلى ذلك مجتمع إجرامي حول الركض وراء الأرباح إلى وظيفة لجميع أفرادها. الفقر المدقع الفظيع والتفسخ الأخلاقي لدى البعض إلى جانب البخل والجشع والغنى الهائل الذي يقذي العيون والبؤس الأخلاقي والفساد لدى البعض الآخر - كل ذلك حصيلة ركض الجميع وراء الأرباح التي هي من حيث الجوهر القوة المحركة للرأسمالية التي حكم على ملايين الناس من أجلها بالمهانة وانعدام

(١) هنا وفيما بعد نستعرض كتاب سلامة موسى "الاشتراكية" نقلاً عن رفعت السعيد. تاريخ الحركة الاشتراكية في مصر، ص ٢٠٠ - ٢٠٥.

الشرف وفقدان الكرامة الشخصية والتي من أجلها تقترب الجرائم البشعة بحق البشرية والنزعة الإنسانية، ونعني الحروب واستعباد أهالي المستعمرات وحرمان الشعوب من أبسط حقوق التطور الذاتي والوجود المستقل. أن الرأسمالية هي الهلاك للجنس البشري برمته. هكذا، على وجه التقريب، كتب سلامة موسى. ولذلك تقتضي الضرورة الملحة استبدال الرأسمالية بمجتمع الاشتراكية والعدل والإنسانية، مجتمع ازدهار الطاقات الإبداعية للفرد ورخاء أسرة الشعوب التي تشكل هذا المجتمع.

كان سلامة موسى بعيداً كل البعد عن فكرة الثورة الاجتماعية بوصفها وسيلة لبلوغ المثال الأعلى للاشتراكية. فقد أهتم بطريق الإصلاحات الاجتماعية والتحويلات التدريجية المتعاقبة، وليس الطفرة السريعة. كل خطوة يخطوها الاشتراكيون إلى الأمام على طريق تحويل النظام الاجتماعي لابد وأن تتناسب مع مدى وعي الأمة. وأكد سلامة موسى أن الاشتراكيين ليسوا ثواراً يقتصر هدفهم على الاستيلاء على السلطة بالعنف، ثم مصادرة أملاك الأثرياء ونفيهم من البلاد. هذا من هذيان ضعيفي العقول، وليس من أفكار ذوي العقل السليم. نشاط الاشتراكيين في سياق الانتخابات البرلمانية خير دليل على أنهم يدخلون المنازل من أبوابها وينوون بلوغ أهدافهم بالطرق الشرعية. ثم يصور سلامة موسى نشاط الاشتراكيين الأوروبيين كهدف للتحويلات الاجتماعية المتواترة التي تضم في المقام الأول إقامة النمط البرلماني للحكم وتشكيل حكومة تمكن الجماهير الشعبية من الاقتناع بضرورة إجراء الإصلاحات الاشتراكية. وتفترض هذه الإصلاحات، فيما تفترض، الإعلان قانوناً عن يوم العمل من ثماني ساعات وتأمين نظام الضمان الاجتماعي وتوسيع القطاع الاقتصادي العام وبناء نظام التعليم الحكومي والصحة.

ويرى سلامة موسى أن عناصر الاقتصاد الاشتراكي موجودة بمعنى ما في مصر. وهي تتجلى في السكك الحديدية الحكومية كونها تدار في مصلحة الأمة جمعاء وتصرف

عائدها على تأسيس دوائر نافعة للمجتمع ، وكذلك المجالس البلدية التي تتولى إدارة إسالة المياه وخطوط الكهرباء. أما هدف الاشتراكية فيتلخص ، باعتقاده ، في مواصلة توسيع هذه المشاريع والواحاح للبناء الاجتماعي الجديد. الاشتراكية - يقول - تتطلب أن تنتقل المجالس البلدية بالتدريج من إدارة الماء والكهرباء إلى حيازة خطوط الترام والمخابز والمسارح والمسكن والمباني العامة. كما يتلخص هدفها بأن تأخذ الحكومة بالتدريج زمام تسيير أمور الأراضي والمصانع والمناجم ، وليس السكك الحديدية وحدها.

في عام ١٩٢١ أقدم سلامة موسى ، على خطوة عريضة إلى الأمام ، بدعوته إلى بناء المجتمع الاشتراكي. إلا أنه ظل مع ذلك بعيداً عن أي شكل من أشكال إسقاط السلطة بالقوة. ولم تكن البلشفية تحظى بإعجابه ، بل تثير الخوف في نفسه. وفي كتاباته المؤرخة في العام المذكور والمنشورة في مختلف صحف القاهرة أعلن مراراً وتكراراً أنه من مؤيدي الاشتراكية المعتدلة التي ترفض من حيث المبدأ التجربة البلشفية القائمة على الطفرة وعلى استخدام الوسائل المتطرفة لبلوغ الهدف. وكتب مرة أخرى ما معناه أن الاشتراكية بطبيعتها ومن حيث الوسائل التي تستخدمها يجب أن تكون تطويرية تدريجية. والأمة ينبغي أن تستوعب مبادئها على قدر ارتفاع مستوى تطور تربيتها. أما الأساليب والمواقف الأخرى فيمكن أن تكون مجرد تكرار للنموذج البلشفي ، وربما بصيغة أسوأ وأكثر عنفاً^(١).

وكرر ثانية: إذا كان الهدف الأسمى للاشتراكية هو إلغاء الملكية الخاصة واستبدالها بالملكية العامة فعلى الطريق الموصل إلى ذلك مراحل أو أهداف الحد الأدنى الأكثر أهمية من الهدف الأسمى. والأمر الرئيسي في نشاط الاشتراكيين ، كما يعتقد سلامة موسى ،

(١) هنا وفيما بعد راجع: عباس ، رؤوف الحركة العمالية في مصر ، ١٨٩٩ - ١٩٥٢ ، القاهرة ١٩٦٧ ، ص

يجب أن يكون هو الخطوات الرامية إلى رفع مستوى تعليم الشغيلة وحصولهم على الوعي الاقتصادي. والمجتمع الاشتراكي الذي خطط له ينبغي أن يقوم على التعاون مع السلطات في وضع وإقرار مجموعة قوانين العمل الرامية إلى تحسين ظروف العمل ومعيشة العمال المصريين. أما في الريف فيجب أن يستثير الاشتراكيون مشاعر المسؤولية الأخلاقية والتشريعية لدى ملاك الأراضي المصريين تجاه الفلاحين. وأشار سلامة موسى إلى أن المجتمع ليس عدواً لملاك الأراضي المصريين، بل هو بمثابة صديق ينبههم إلى مصالحهم التي تتوافق بالكامل مع مصالح الكادحين.

فكرة الاشتراكية التدريجية لم تقتصر على سلامة موسى، بل أعجبت أيضاً الكثيرين من أفراد مجموعته.

في عام ١٩٢٢ صدر في القاهرة كتاب حسين نامق "خلاصة الاقتصاد..." المؤلف خريج جامعة أوكسفورد، وقد حاول أن يعرض بصيغة مبسطة أصول الاقتصاد السياسي، فألف كتابه بشكل سؤال وجواب (أسئلة القراء وأجوبة الكاتب). ورداً على سؤال عن أهم مبدأ للمجتمع الاشتراكي أجاب: "التعاونيات الإلزامية بين الناس". ما يعني من جديد أن الاشتراكية هي "التعاون المشترك" بين أفراد المجتمع. وهذا الفهم للاشتراكية بدوره جعله منطقياً يرد على السؤال: هل يمكن بناء الاشتراكية في إطار النظام الاجتماعي الدستوري الحالي؟ قائلاً: نعم، والدليل على ذلك أن حكومات العديد من البلدان في الحال الحاضر مالكة أو مهيمنة على قسم كبير أو معظم المؤسسات الإنتاجية. فيما يدعو الاشتراكيون، كما يقول، إلى وضع هذه المؤسسات تحت رقابة الحكومة، ولكن بالحجم الكامل وبأوسع مما يجري الآن^(١). المسألة لم تعد متعلقة بالبلدان الأوروبية

(١) رفعت السعيد، ص ص ١٢٣ - ١٢٤.

وحدها. فهي تخص مصر مباشرة. بعد أن أحرزت الاستقلال وباتت مملكة دستورية حيث شكل الوفديون بزعامة سعد زغلول في عام ١٩٢٤ أول حكومة وطنية في تاريخ البلاد. وكان الاشتراكيون المصريون يسعون فقط إلى دفع هذه الحكومة نحو الإجراءات الأكثر حزماً تجاه الرأسمال الأجنبي الخاص.

كما كان متأثراً بأيديولوجية العماليين البريطانيين حسني العرابي الذي مثل فيما بعد الحزب الاشتراكي المصري في المؤتمر الرابع للكومنترن. ففي بداية العشرينات نشر ترجمته لكتاب رامزي ماكدونالد "الحركة الاشتراكية"^(١).

كما أيد محمد عبدالله عنان أفكار الاشتراكية بقدر ليس قليلاً، حيث نشر في "الأهرام" ليوم ٢٥ أغسطس ١٩٢١ مقالة بعنوان ذي دلالة كبيرة: الاشتراكية المصرية لا تدعو إلى الثورة والفوضى. وعرض في المقالة رؤيته للفوارق بين الاشتراكية والشيوعية كمرحلتين من تشكيلة اجتماعية واقتصادية واحدة. ويرى عنان أن وقت الشيوعية في مصر لم يحن بعد. وطالما الأمر كذلك فينبغي للإشتراكيين المصريين أن يناضلوا من أجل مبادئ الاشتراكية التي تجسدت بأفضل صورة، كما يعتقد، في نشاط اشتراكي أوروبا الغربية. ومثالهم ينبغي أن يبين للرأي العام المصري أن الاشتراكيين المصريين أيضاً لا يدعون إلى الفوضى. أعمالهم تهدف إلى تصفية الآثار السلبية للحالة الراهنة للملكية الخاصة والسعي إلى إقامة نظام حكم في البلاد عادل على قدر الإمكان^(٢).

المجموعة الاشتراكية القاهرية لم تكن متجانسة. فقد ضمت أيضاً أشخاصاً انطلقوا صوب الاشتراكية ليس من المفهوم المدني العلماني لقوانين تطور المجتمع. ومنهم، على

(١) المصدر ذاته، ص ١١٩.

(٢) المصدر ذاته، ص ١٢٠.

سبيل المثال ، الشيخ صفوان أبو الفتح الذي غدا فيما بعد من زعماء الحزب الشيوعي المصري^(١). إلا أن المسألة ليست في هذا الأمر. فقد كانت اشتراكيته ثمرة البحث الذهني الفكري غير المرتبط بواقع الحركة العمالية نفسها. معظم أفراد هذه الجماعة كانوا من حيث المنشأ الاجتماعي والمكانة في المجتمع بعيدين جداً عن حياة الفئات الدنيا من المجتمع المصري ، ولم يروا في تلك الفئات بالطبع قوة قادرة على تولي أمور البناء. ولا يستثنى من ذلك سوى الذين جاءوا إلى الاشتراكية من منطلق الإسلام. جامعة الأزهر كانت دوماً مفتوحة أمام أبناء فئات من المجتمع أوسع بكثير ، ولم يكن بينهم بالطبع أبناء الأرستقراطية والنخبة التقليدية. ثم أن التطور التاريخي لفئة العلماء المصريين يفترض تأمين مكانة خصوصية لهم في المجتمع ، ومن ذلك دورهم في الوساطة بين السلطة والشعب^(٢). وحتى في هذه الحالة لا تطرح المسألة على أنها تأويل لمكانة الحركة العمالية كقوة مدعوة تاريخياً للإبداع الاجتماعي. شيوخ الأزهر يمكن أن يهتموا بالناس العاملين فقط كدليل على عدم مطابقة واقع الحياة لأحكام الشريعة. هؤلاء "الناس" هم "المعدمون" الذين دعا الله على لسان الرسول إلى معونتهم ومساعدتهم. عموماً الآراء الاشتراكية لجماعة سلامة موسى القاهرية ملونة ، على الأرجح ، بتلاوين النزعة الإنسانية المفهومة والتي لا تفترض مطلقاً أن أصحابها يمكن أن يدعوا في زمن ما إلى إسقاط النظام القائم بالعنف.

(١) تحدث عنه عبدالرحمن فضل فقال : كان الشيخ صفوان أبو الفتح من علماء الأزهر ومن كبار معلمي القانون فيه. وكنا نسميه معلماً. وهو أشبه باللهيب المستعز. لقد بذل الشيخ صفوان الكثير من أجل اجتذاب العديد من شيوخ الأزهر إلى جانبنا. لقد طبق صفوان الماركسية في الحياة وكأما الرسول نفسه يتحدث عنها ، المصدر ذاته ، ص ٣٠٠.

(٢) راجع تاريخ هذه العملية عند ، كيريلين س. الإسلام في مصر العثمانية القرن الثامن عشر - النصف الأول من القرن التاسع عشر. موسكو ١٩٩٨.

في معرض تقييم إمكانيات جماعة القاهرة أفاد المخبر أدولف كراوس أن معظم أفرادها "ليسوا شيوعيين أبداً، بل ولا يعرفون" ألف باء "النظرية الماركسية. إلا أن ثمة شيئاً آخر أهم بكثير، ألا وهو "أن الحزب الجديد يمكن أن يغدو ساحة لدعايتنا الشيوعية" وهو لا ينتمي لا إلى الأهمية الشيوعية الثانية ولا الثانية والنصف، غير أن الجماعة الشيوعية التي شكلها قررت الانتساب إلى الحزب الاشتراكي المصري محتفظة بشيء من الاستقلالية الذاتية"^(١). لعل ذلك هو اهم ما ورد في تقرير المخبر السوفيتي في القاهرة.

وأخيراً استلمت الكومنترن الأداة الضرورية لها كل ضرورة للعمل المرتقب في مصر. فهي لم تهتم أبداً بكون أعضاء هذه الجماعة الاشتراكية بعيدين كل البعد عن الماركسية، ويمثلون من هذه الناحية صفحة بيضاء. فالأهم من ذلك أنهم من الناحية التنظيمية لا ينتمون إلى أية منظمة دولية معادية تدعي، مثل الكومنترن، بالتعبير عن مصالح البروليتاريا. وحتى انتمائهم إلى الحزب الاشتراكي المصري يمكن أن يساعد على بلورة البدايات "البلشفية" حقاً. وهذا مهم لأن كلتا الجماعتين الاشتراكيتين المصريتين، القاهرية والإسكندرانية تملان إلى إقامة علاقات تنظيمية وثيقة فيما بينهما. ولكن ما أصعب الجهد الذي بذله ممثلو الكومنترن في حراثة هذا الحقل! كتب أفيجدور من القاهرة إلى موسكو في نوفمبر ١٩٢٢: "زغلول حي حتى في قلوب أعضاء الحزب الاشتراكي. وعلينا أن نأخذ ذلك بنظر الاعتبار". وبخصوص اتصالاته مع الوطنيين قال أفيجدور: أن أعضاء الحزب الاشتراكي المصري يرفضون الاتصال مع ممثلي الحزب الوطني لأنهم "ضد زغلول"^(٢).

(١) أرشيف التاريخ المعاصر. ملف ٤٩٥، إضبارة ٨٥، وثيقة ١٠، ص ١٨.

(٢) المصدر ذاته، وثيقة ١٢، ص ٨٨.

في أواخر صيف ١٩٢١ أقام اشتراكيو القاهرة وأنصار روزنتال في الإسكندرية اتصالات متبادلة. وفي ١٦ أغسطس من العام ذاته كتب مراسل "الأهرام" في الإسكندرية أن السيد روزنتال يطمح من زمان إلى تأسيس حزب اشتراكي في هذه البلاد. ويحاول إقناع مجموعة الوطنيين المحليين أن يرافقوه في السير على طريق تحقيق مخططه. وقد نجح في إقناع الدكتور الأفندي العناني ليكون سكرتيراً للكتلة (الشعبة) الوطنية (العربية) للحزب المرتقب، فيما يكون هو شخصياً سكرتيراً للكتلتين الفرنسية والإنجليزية. ويضيف المراسل: أن الموقف الاشتراكي القائم في البلاد يتطلب منا جميعاً متابعة الكيفية التي سيكون عليها الحزب المذكور ليس لأننا نكره نظرية وتطبيق الاشتراكية، بل لأننا لا نقبل بالاتجاهات المتطرفة الداعية إلى الاضطراب والفوضى. إننا نطمح إلى التطور التدريجي. نحن لا نعرف اشتراكية الدكتور العناني، هل هي متطرفة أم واقعية. لكننا نعرف شيئاً عن اشتراكية السيد روزنتال. نعرف أنه بات متطرفاً. فهل يؤيد الدكتور العناني وجهة نظره؟^(١).

ما كتبه المراسل يتضمن معلومة مهمة. فلو تشكل في مصر تنظيم اشتراكي موحد يضم أنصار الحزب الاشتراكي المصري في الإسكندرية وجماعة القاهرة بزعامة سلامة موسى لبات من الناحية التنظيمية يمثل نوعاً فريداً من الاتحاد الفيدرالي تتعايش فيه بصورة متوازنة الكتلة المصرية وكتلة أبناء الطوائف الأجنبية. وبالطبع ستلعب الكتلة الثانية دور القوة الطليعية بالمقارنة مع الكتلة الأولى.

روزنتال بات مواطناً مصرياً في فترة إقامة الاتصالات بين التنظيمين. آنذاك، في العشرينات، كان الناس في مصر يخشون نفوذ البلاشفة، فيما استغل خصومه منحدره وأصله من بلاد البلاشفة. وأشار الباحثون السوفييت، والحق معهم، إلى أنه ما كان قادراً

(١) رفعت السعيد، ص ١٨٥.

على تزعم الحزب الجديد، مع أن لديه مبررات كثيرة لهذا الغرض وفي مقدمها مكانته كأكبر داعية للسنديكالية النقابية في مصر^(١). زد على ذلك أنه ظل متمسكاً بمواقف الإصلاح الاجتماعي، الأمر الذي يروق لمؤيديه في القاهرة. ومع ذلك كان قادراً على الاتصال بالأمية الشيوعية، كما أكد مراسل "الأهرام". على أية حال ورد في محاضر مؤتمرها الثالث الذي عقد بموسكو في يونيو - يوليو ١٩٢١ أن ممثل الشيوعيين المصريين شارك فيه^(٢) وما كان ذلك الممثل بالطبع من جماعة القاهرة.

آنذاك كانت الجماعة الاشتراكية في الإسكندرية تعمل باتجاه تأسيس مركز نقابي لعموم مصر. قال روزنتال بهذا الخصوص: "في عام ١٩٢٠ نشرتُ نداءً إلى النقابات العمالية دعوتها فيه إلى تأسيس اتحاد يضمها جميعاً". وفي العام ذاته عقد في الإسكندرية المؤتمر الوطني العام للنقابات ومثل مندوبوه ٣٥ ألف عامل منظم نقابياً. ومع ذلك أسفر موقف بعض الزعماء المنتمين إلى الوفد والحزب الوطني عن إفشال مبادراته^(٣).

وفي مارس ١٩٢١^(٤) تأسس في القاهرة الاتحاد المصري للعمل الذي ضم قرابة ٢٠ منظمة نقابية^(٥). وشارك في تأسيسه بفاعلية كبيرة الناشط في الحزب الاشتراكي المصري من الإسكندرية المحامي أنطون مارون. إلا أن روزنتال يقول إن عدد أعضاء الاتحاد "لا يتجاوز

(١) يقول فلاديمير كوشيليف: "لاعتبارات تكتيكية ظل يوسف روزنتال وراء الكواليس، مع أنه كان في

بادئ الأمر، كما تشير كل الدلائل، القائد الفعلي للحزب"، كوشيليف ف. ص ٢٢٨.

(٢) المؤتمر العالمي الثالث للأمية الشيوعية. محضر الجلسات. بتروغراد ١٩٢٢، ص ٤٩٦.

(٣) رفعت السعيد، ص ٣٠٨.

(٤) شامي أ. (ألكسندر) الحزب الشيوعي المصري. موسكو - لينينغراد ١٩٢٩، ص ٥١.

(٥) الغزالي، عبدالمعزم. تاريخ الحركة النقابية المصرية ١٨٩٩ - ١٩٥٢ القاهرة ١٩٦٨، ص ٨٩.

ثلاثة آلاف عامل^(١). وقد عمل نصير وتلميذ روزنتال بصورة مستقلة ، فطبق ليس فكرة معلمه التي بدت له إصلاحية تقود إلى الذوبان في التنظيم الأوسع الذي يلعب فيه الوفديون والوطنيون الدور الأول للنقابات العمالية الاشتراكية التي يقودونها بالفعل. لقد عارض أنطون مارون مبادرات روزنتال فأسس اتحاداً نقابياً يعتبره بالطبع "طبقياً" حقاً ، مع أن الثمن كان باهضاً ، وهو الانقسام في صفوف الحركة العمالية الوطنية. وغدا الرهان في اللعبة التي بدأت في صفوف الاشتراكيين عالياً. قسم منهم استعد للسير على خطى البلاشفة. إلا أن روزنتال كان لا يزال راية لمن يشاطره معتقداته ولمن يطمح إلى راديكالية أكثر تطرفاً من راديكاليته.

في موسكو خلقوا أسطورة بالطبع. إلا أنها أسطورة لها أسبابها التي تتطلب المزيد من الأدلة الجديدة على توسع صفوف "جيش البروليتاريا العالمي" بالمبالغة في المعتقدات الشيوعية للاشتراكيين المصريين ، بمن فيهم يوسف روزنتال. إلا أن المسألة في نقطة أخرى. فبحكم التوجهات القائمة في موسكو ما كان بوسع المسؤولين هناك أن لا يقولوا "لمثل الشيوعيين المصريين" (روزنتال) أن قيادة الحزب الذي يسعى لتأسيسه يجب أن تكون ، في المقام الأول ، من أبناء مصر. وبذلك كان سيتأكد بالفعل أن هذا الحزب وطني. إلا أن القضية لم تقتصر على ذلك فقط.

إقامة الاتصالات مع موسكو كانت عاملاً متعدد الجوانب والأصعدة. بالطبع جماعات الفعل الاشتراكي وممثلوها الذين سعوا إلى إقامة تلك الاتصالات لم يكونوا في بادئ الأمر يتصورون أن الكومنترن سيطلب منهم مقابل هذه الاتصالات تبدلات جذرية من حيث الموقف من التجربة البلشفية ، ومن حيث التغيير الجذري لطرق العمل السياسي

(١) رفعت السعيد ، ص ٣٠٨.

بناءً على تلك التبدلات. كان سيخيل إليهم أن الاتصالات بالعاصمة السوفيتية ستساعدهم في أن يتحولوا إلى قوة تؤثر جوهرياً في العملية السياسية داخل بلادهم مع احتفاظهم بمعتقداتهم السياسية دون تغيير. تحويل هذه المعتقدات أمر ممكن، ولكن ليس بتأثير قوة حليف خارجي، بل بفعل العوامل الداخلية لتطورهم هم أنفسهم، وكذلك بفعل تطورات الحالة السياسية في البلاد. هكذا فعل الوطنيون من ممثلي الاشتراكية المصرية الذين تواصلوا مع الأمية الثانية. هكذا فعل في آخر المطاف الوفديون عندما سعوا إلى الاعتراف بشرعية مطالبتهم باستقلال مصر من طرف الرأي العام العالمي آنذاك. هكذا فعل فيما بعد ممثلو القوى السياسية الأخرى في مصر، بمن فيهم جمال عبد الناصر.

يوسف روزنتال لم يذكر أبداً أنه زار موسكو. والأرجح أنه لم يزرها^(١). القضية في أمر آخر. فهو يعتقد، على ما يبدو، أن تأسيس الحزب الشيوعي المصري في غير أوانه. وقد ظل حتى بعد تأسيسه على رأيه بأن الوقت في مصر لم يحن لتكرار التجربة البلشفية. فهذا البلد ظل بعيداً عن الثورة الاجتماعية. وكان يظن أن أكبر مهمات تلك السنوات تنشئة

(١) تفيد الوثائق المتوفرة أن يوسف روزنتال دعي لحضور مؤتمر الكومنترن. وفي ١٧ مايو ١٩٢١ بعث من الإسكندرية رسالة إلى موسكو ذكر فيها أنه لا يستطيع مغادرة مصر لأنه لا يريد أن يترك العمل التنظيمي في الاتحاد العام للنقابات في مصر بأيدي غير مطلعة. وأضاف يقول: "ينبغي أن نبقي على حذر ونعمل على قدر الإمكان من أجل حماية النقابات التي تشكلت توأماً من تأثير العناصر الضارة". ومع ذلك اعتبر روزنتال أن من المهم تمثيل مصر في مؤتمر الكومنترن والنقابات الحمراء. فمن المهم أن تعرف البروليتاريا العالمية أن الحركة العمالية الجبارة تتطور وتتسع في مصر أيضاً، وستلعب في القريب العاجل بلا شك دوراً كبيراً في حياة شعوب الشرق. ونأمل أن يحصل الجيشان البروليتاريان في شبه الجزيرة العربية ومصر قريباً على التأييد والإسناد من طرف فيالق الجماهير العاملة في الشرق. وسنناضل بصفوف متراسة ضد النظام الرأسمالي والاستغلال". الرسالة في الأصل مكتوبة بالإيدش. هنا وفيما بعد، أرشيف التاريخ المعاصر، ملف ٤٩٥، إضبارة ٨٥، وثيقة ٢، ص ٢.

حركة نقابية واسعة وقوية. علماً بأن العمل التنظيمي في الاتحاد العام للنقابات في مصر لا يجوز أن يترك في أيدي غير عملية. كما كان موقفه انتقادياً تجاه شروط عضوية الكومنترن. قال: "لو كنت قد شاركت في صياغة تلك الشروط لما وافقت عليها دون قيد"^(١). في العادة ما كان السنديكاليون من أبناء الطوائف الأجنبية في بلدان المشرق العربي يرون في المشاركين المحليين في الحركات الوطنية قوة تقدمية موضوعياً. لم يروا فيهم، بالدرجة الأولى، سوى مخربين يمارسون العنف. وقد استنتجوا بناءً على اعتقادهم هذا أن قيادة الحركة الاشتراكية ينبغي أن تبقى حكراً على الوافدين الأجانب المستنيرين، وأن الحركة نفسها يجب أن تغدو نواة ترص حولها الوطنيين وتغير آراءهم جذرياً من خلال الدعاية بينهم لقضية الأخوة الأممية للكادحين^(٢). إلا أن الاتحاد العام للنقابات في مصر دفع أبناء البلد إلى القيادة.

وإلى ذلك ينبغي أن توضع الاتصالات مع موسكو في سياق أوسع. فعندما كسبت مصر الاستقلال ظلت مع ذلك بعيدة عن المثال الأعلى للتطور المستقل الذي نادى به الوطنيون المصريون، ومنهم بقدر ما الوفديون. لقد سعى الوطنيون المصريون، بمن فيهم محمد فريد، إلى الحصول على التأييد من السلطة الجديدة في بتروغراد، ثم في موسكو، لفكرة الاستقلال التام لبلادهم. المشاركون في العمليات الإرهابية التي اجتاحت موجتها مصر بعد انتفاضة ١٩١٩ أخذوا يرون في الثورة البلشفية الروسية نموذجاً

(١) رمضان، عبد العظيم ص ٥٣٥.

(٢) لعل ذلك تأكد بأوضح صورة في مواقف بعض الشيوعيين الجزائريين من أصل أوروبي (حادث شعبة الحزب الشيوعي الفرنسي في مدينة سيدي بلعباس) في ربيع ١٩٢١. راجع ذلك في:

Sivan E. Communism: el nationalism: en Algéde P.1976, P. 24-36.

يستحق المحاكاة^(١).

وتوصل الراديكاليون المصريون إلى استنتاج مفاده أن ثمة ترابطاً داخلياً بين مكانة بلادهم الجدية المتسيرة وبين نشاط الوفديين الذين يدعون أنهم المعبرون الوحيدون عن أمني الأمة. حزب كبار ملاك الأراضي ورجال الأعمال والماليين الذين انبثقوا من هذه الطبقة لم يتمكن من الدفاع عن الاستقلال الوطني الحق. كما لم يستطع أن يدافع عن هذا الاستقلال بالطبع البلاط الملكي الفاسد والمتفسخ أخلاقياً. لقد أن أوان ظهور زعماء آخرين على مقدمة المسرح السياسي انطلاقاً من الوقائع المصرية في أعقاب الحرب العالمية الأولى. وهم بحاجة إلى دعم وإسناد، كما خيل إليهم، من قوة خارجية جبارة تتصدى بفاعلية لعدو استقلال بلادهم التقليدي - بريطانيا. ولن يتمكنوا من كسب مودة تلك القوة إلا بشرط واحد هو رفض طرق العمل التي تقيد بها زعماء الجماعات الاشتراكية المحلية والإعلان المكثف عن التمسك بالبلشفية. زد على ذلك أن الزعماء الجدد كانوا من أبناء البلد ويعرفون بالطبع أن ذلك من شروط حصولهم على تأييد الكومنترن.

في ١٩ أغسطس ١٩٢١ نشرت "الأهرام" ذاتها ردين على ما كتبه مراسلها من الإسكندرية بتاريخ: ١٦ أغسطس.

أحدهما موقع من قبل "علي العناني" يقول فيه أن الاشتراكية التي يدعو إليها عملية ومعتدلة. والحزب الذي يقترح تشكيله سيعمل في إطار الاعتدال ويسترشد بمبادئ التكافؤ والتضامن الواردة في القوانين للعلاقات المتبادلة بين الناس وينطلق من طبيعة البلاد وطبيعة القوانين والقرارات الدستورية السارية فيها^(٢).

(١) راجع حول ذلك، كوشيليف ف. ص ٢٢٤.

(٢) رفعت السعيد، ص ١٨٧.

أما الرد الثاني الموقع من قبل "اشتراكي صادق" فهو يختلف من حيث الأساس ويقول إن الوثائق البرنامجية للحزب الاشتراكي المرتقب ستضمن توجيهات لأفعال مجيدة ترمي إلى تصفية أهداف الظلم التي فرضها الرأسمال على العمل في مصر. ويضيف الكاتب أن الظروف الاجتماعية لكل بلد لا تتعارض أبداً مع مبادئ الاشتراكية التي هي في المقام الأول دعوة لدعم الحقوق الطبيعية للإنسان وتصفية النظم الاستبدادية التي تعتمد عليها جماعات الرأسماليين لاضطهاد فئات اجتماعية أكبر منهم كثيراً. وبسبب وجود هذه الأنظمة تتسع الهوية بين الرخاء والفاقة، بين الهناء والويلات، فيما تسيطر قوى الغدر على الضعفاء والمعوذين. ويواصل الكاتب: الحزب الاشتراكي الذي سيتأسس في بلادنا سيقوم بالطبع بعلاقات مع موسكو التي هي سند الحركة الاشتراكية وداعم أمجاد العمل ونذير الرأسمالية. مبادئ موسكو أو البلشفية هي دون ريب أسمى تجسيد لمبادئ الاشتراكية^(١).

كل شيء في هذه الوثيقة كان جديداً. لهجتها ومفرداتها وتراكيب جملها المنمقة بتلاوين الخطاب الديني فضلاً عن التلاوين الطبقية، وكذلك تحديد أهداف الحزب ومهماته، وأخيراً الإشارة بمنتهى الدقة إلى روسيا السوفيتية التي اختارها الكاتب كنموذج لا شائبة فيه لتصرفاته وأفعاله اللاحقة. العمل السنديكالي الذي مارسه أنطون مارون في القاهرة أعطى ثماره. فقبل تأسيس الحزب الاشتراكي لعموم مصر تجلّى في صفوفه بوضوح خط الانكسار أو الانشقاق المتوقع بين أعضائه، وكان بينهم ليس فقط أفراد المجموعة الاشتراكية في الإسكندرية، بل ومجموعة القاهرة أيضاً. وبات واضحاً أن التوازن بين المنخرطين في صفوفه مهزوز، وانهم ليسوا من رأي واحد، وأن تمايزاً داخلياً يجري في

(١) المصدر ذاته، ص ١٨٦.

حدود السيل العام للثوريين المتحررين الراديكاليين. والموقف من موسكو أهم مؤشر على هذا التمايز.

إلا أن المسألة في واقع الأمر باتت أكثر براغماتية ونفعية. فكرة الإصلاح القائم على التعاون المشترك من شأنها أن تقود أفراد كلتا المجموعتين إلى الذوبان حتماً في الكيانات السياسية الأكبر شأناً والتي طرحت وروجت لفكرة التعاقب التدريجي في التحويلات الاجتماعية والاقتصادية. في حين أن التركيز على الجانب الطبقي لنفس تلك التحويلات من شأنه أن يساعد أطراف الثورة الاشتراكية على صيانة استقلالها التنظيمي فيما لو ظهرت ملابسات مناسبة لهذا الغرض ، وفي مقدمها الدعم الثابت من قوة خارجية. وحتى هذه المهمة كانت بالنسبة لهم لا أكثر من تكتيك. فهم يعتقدون أن الاعتماد على تلك القوة الخارجية في الظروف المواتية يمكن أن يحولهم إلى تنظيم حزبي مهيمن في المجتمع الوطني.

(٢) الحزب الاشتراكي المصري: تفاقم الانشقاق الداخلي

في أواسط أغسطس ١٩٢١ أعلن عن تأسيس الحزب الاشتراكي في مصر الذي ضم مجموعات (سلامة موسى ، علي العناني ، ويوسف روزنتال) والجناح الوطني من الحزب الديمقراطي السابق^(١).

في ٢٩ أغسطس من العام ذاته نشرت "الأهرام" نص بيان الحزب الاشتراكي وأول وثيقة منهجية للحزب الجديد جاء فيها^(٢): في الوقت الذي تتصرف فيه الأنظمة الاحتكارية دون عقاب بحياة الناس وأرواحهم وعقولهم وطاقاتهم تتوغل في أفئدة الناس المعذبة أهداف ومبادئ الاشتراكية. مهمة هذه المبادئ هي تخلص البشرية من نير قوى المضايقة والاضطهاد ومساعدتها في بلوغ الأهداف التي تتوخاها، أهداف العدالة الطبيعية ودعم طموحات الناس إلى الأخوة والسلام في إطار المجتمع البشري والتصدي لنوايا المستعمرين والاستغلاليين. فهؤلاء حرموا الشعوب والأفراد من الحرية محاولين تأمين رخائهم وازدهارهم من خلال اضطهاد الأمم والمجتمعات الضعيفة بلا رحمة. وجاء في البيان أن أوضح مظهر للولايات البشعة التي يسببها استبداد الأنظمة الحاكمة هو حرمان معظم الأمم من الحرية ومن أية حقوق أخرى على يد الدول الاستعمارية التي تحكمها تلك الأنظمة. الأغلبية الساحقة من أفراد المجتمع اليوم مستعبدة من قبل الأقلية الضئيلة

(١) عدم التجانس الداخلي في الحزب الاشتراكي المصري واقع لم ينكره الشيوعيون المصريون أيضاً في الثمانينات. فقد أشاروا إلى أن تشكيل الحزب الاشتراكي في مصر كان نتيجة للتعامل بين حركات مختلفة وأشكال متباينة من النشاط السياسي والفكري والنقابي ، "ستون عاماً" ص ١٦.

(٢) نقلاً عن "ستون عاماً" ص ١٧ - ١٩.

العدوانية التي استأثرت بالأموال الطبيعية والعمل. وهذا الاستئثار ليس له ما يبرره من وجهة نظر العدالة. لقد حكمت الأقلية على الأكثرية بالمهانة واستحوذت على ثمار عملها ونضالها.

ويشير البيان إلى أن أيدي الاستعمار امتدت إلى مصر وحرمتها من الحرية باسم سياسة تلك الأنظمة الرأسمالية. المستعمرون يسعون إلى الاستحواذ على ثرواتها واستغلال عمل أبنائها. المستعمرون يهيمنون على المجتمع المصري بالكامل. سيطرتهم حرمت المصريين من نصيبهم من السعادة، والرأسمال يضطهد العمال بقساوة مرهقة لدرجة أسفرت عن ظهور الثروة الخسيسة إلى جنب الفقر المدقع، وعن توسيع الهوة بين الرخاء والبؤس. وبحكم ذلك يجب أن تدخل إلى هذه البلاد أيضاً المبادئ الاشتراكية العادلة المناوئة للأنظمة الرأسمالية والهادفة إلى تخفيف الاضطهاد والويلات الصارخة التي تسببها تلك الأنظمة. ولهذا الغرض قرر أخوة العمل في مصر تأسيس حزب اشتراكي.

ويطرح البيان المهمات التي يتولى حزب البروليتاريا الجديد حلها. ففي المضمار السياسي ينادي الحزب الاشتراكي بتحرير مصر ووادي النيل كله من نير الاستعمار. ويعلن عن تصميمه على مكافحة كل مظاهر الاستعمار في أي جزء من العالم والنضال من أجل حق كل شعب في تقرير مصيره ومن أجل الأخوة بين جميع الأمم على أساس مبادئ التكافؤ والمنفعة المتبادلة. وفي الميدان الاقتصادي يرى الاشتراكيون المصريون من الضروري النضال في سبيل إزالة استغلال جماعة من السكان لجماعة أخرى ومن أجل إحقاق الحقوق الطبيعية لكل طبقات المجتمع ومن أجل بناء المجتمع الاشتراكي الذي تقوم أسسه الاقتصادية على استلام الأمة كلها ثرواتها الطبيعية ومصادر الإنتاج الاجتماعي، وعلى التوزيع العادل لمنتجات العمل بين العاملين وفقاً لقانون الإنتاج والقابليات الشخصية للمشاركين فيه وعلى إطفاء لهيب المنافسة الرأسمالية.

وفي المجال الاجتماعي ينوي الحزب دفع إمكانية حصول جميع أبناء الأمة وطبقاتها وفئاتها على التعليم الإلزامي المجاني وتحرير المرأة الشرقية. أما إحقاق الحق والعدالة الاجتماعية بالنسبة للعمال فيفترض أن يقوم به الحزب من خلال تحسين أحوال العمال بزيادة الأجور، وكذلك تقديم المعونة لهم أو المعاشات التقاعدية في حال الشيخوخة أو البطالة الاضطرارية.

وأعلن الاشتراكيون المصريون أن حزبهم سيسعى إلى تحقيق المبادئ التي طرحها على أساس التنافس بين الأحزاب والدعاية السلمية اعتماداً على النقابات الزراعية والصناعية التي يشكلها وكذلك التعاونيات الإنتاجية والاستهلاكية، ونوابه في البرلمان والمجالس البلدية وغيرها من الهيئات السلطوية. وقد سعى الحزب الاشتراكي في مصر إلى تطبيق أفكار الأصول الديمقراطية للتمثيل البرلماني الذي يعتبره وسيلة للتخلي عن المنح النقدية وفتح المجال على قدر الإمكان أمام انتخاب الرجال والنساء لعضوية الهيئة العليا للسلطة التشريعية. وكان المفروض أن تتم الدعاية السلمية لأهداف الحزب الاشتراكي المصري ومهامه بصورة علنية وبالشكلين التحريري والشفوي. ويأمل الحزب أنه سيحظى في سياق عمله لتحقيق مهماته بالتعاطف والسمعة الطيبة عند جميع أبناء الأمة.

هذا وقد وقع بيان الحزب الاشتراكي في مصر كل من علي العناني وسلامة موسى ومحمد عبدالله عنان وحسني العرابي.

كانت الوثيقة البرنامجية للتنظيم الموحد للاشتراكيين المصريين ظاهرة ملحوظة من عدة

وجوه.

جاء البرنامج مديلاً بتوقيعات زعماء مجموعة القاهرة، ويخلو من توقيع يوسف روزنتال رغم مشاركته النشطة في المحادثات بشأن توحيد المجموعتين وفي تأسيس الحزب نفسه. وقد أوضح ذلك في إفادته أمام النائب العام على النحو التالي: ... لاحظت لدى بعض

الوطنين اهتماماً بالاشتراكية. وكان بين المهتمين بها حسني أفندي العربي والدكتور علي العناني الأفندي وسلامة أفندي موسى والبروفيسور عبدالله عنان. اتفقت معهم بشأن ضرورة تأسيس الحزب الاشتراكي في مصر... وحرروا لهذا الغرض بياناً تضمن مبادئ الحزب. وقد وقعوا هذا البيان. أنا لم أوقعه لأنني كنت أعتقد أن ظهوره مديلاً بتوقيع شخص أجنبي مع انني أحمل الجنسية المصرية قد يفسر كمحاولة من الأجنبي للتدخل في قضية مصرية صرف^(١).

بعبارة أخرى أن بيان الحزب الاشتراكي عكس وجهة نظر أفراد مجموعة الإسكندرية بصورة غير مباشرة. إلا أن عضوية روزنتال في "اللجنة الإدارية"^(٢) للحزب الجديد ومقره في القاهرة تسوق الدليل في الحقيقة على أنه كان موافقاً على الأحكام الأساسية في هذه الوثيقة. وبدا الأمر وكأن قيادة جماعة القاهرة اختطفت المبادرة. إلا أن الحزب الاشتراكي، كما تفيد وثيقته البرنامجية، وضع في حجر الزاوية من نشاطاته بالدرجة الأولى حل القضايا الوطنية لمصر وتحريرها الفعلي من نير الاستعمار. أما مسائل التفاوت الاجتماعي فقد اعتبرها الحزب ناجمة عن مكانة البلاد كضيعة للاستغلايين الأجانب. ولم يتضمن البيان أدنى تلميح إلى احتمال توجهه نحو بلاشفة موسكو. وإلا لكانت المسألة ستطرح على نحو آخر- التحرر الاجتماعي للبروليتاريا هو الاتجاه الرئيسي للنضال!

وبات بيان الحزب الاشتراكي دليلاً اضافياً بليغاً جداً على المواقف الإنسانية العامة

(١) رفعت السعيد، ص ٣١٢.

(٢) أحياناً كان روزنتال يسمي الهيئة القيادية للحزب الاشتراكي المصري "باللجنة الإدارية"، تصريح روزنتال بشأن أصداء إفادته أمام النائب العام، المصدر ذاته ص ٣١٢. إلا أن كلمة "إدارية" العربية التي استخدمها روزنتال متعددة المعاني، وهي تعني أيضاً "قيادية".

لواضعيه تجاه قضية نشوء أسلوب الإنتاج الرأسمالي وتطوره ونتائج ذلك التطور، وبينها بالنسبة لمصر، طبعاً، استعبادها الاستعماري. الوثيقة البرنامجية للتنظيم الموحد للاشتراكيين المصريين انطلقت في تعريف ظاهرة التوسع الاستعماري الأوروبي من الفكرة القائلة أنه في الحالة المصرية ليس ثمة طبيعة لتطور القوى المنتجة في المجتمع وأنه ليس ظاهرة تقدمية، بل هو شيء أدخل على حياة الشعوب من الخارج، من المصدر الشيطاني للشرور والعنف. هذه الوثيقة لم تتضمن أية محاولة لتحليل منشأ التشكيلة الاجتماعية التي ولدت الغزو الاستعماري، بل اكتفت بانتقادها فقط. زد على ذلك أن الانتقاد استهدف في الواقع العلاقات البرجوازية التي نشأت في أوروبا الغربية، وليس في مصر نفسها. لقد انطلق الاشتراكيون المصريون من فكرة سلامة موسى التي طرحها في كراسه عن "الاشتراكية" عام ١٩١٣، والقائلة أن إحراز مصر الاستقلال الوطني يقطع عملية تجزئة المجتمع المصري بالعلاقات المستوردة والقائمة على الركض وراء الأرباح، بل ويساعد على استعادة لمّ شمل المصريين الذي كان قائماً قبل عهد الاستعمار بأواصر الأخوة والعدالة الطبيعية^(١). وبذلك توصلوا منطقياً إلى التوجهات وأشكال النشاط التي أعلنوها. وظلوا منورين توعويين يسعون إلى تحقيق ما اعتبره سلامة موسى شيئاً كانت له حقاً قيمته في سنوات ما قبل الحرب العالمية الأولى.

وكانت للوضع الناشئ دلالاته. فالمسألة لا تقتصر، بالطبع، على ظهور بعض الحالات الحزبية المشابهة للحالة الروسية (وليس الروسية وحدها). كان هذا التشابه طبعاً مجرد ملامح ثانوية للجانب الأهم في تطور بلدان "الحضارة غير الأوروبية". فقد انتهى الإعجاب الواسع - من الشعور بمركب النقص حتى الرغبة في التشريق الفوري - بعد أن

(١) رفعت السعيد، ص ص ٢٠٣ - ٢٠٤.

كان أساساً لأفكار التطور السابق في المجتمع المصري، وحل محله إنكار أو استنكار يكاد يكون كاملاً. هذه المرة كان المقصود ولو بصورة جزئية تشكيل بنية حزبية ربما هي المظهر الأول في مصر لحركة تنادي بالعودة إلى تربة الوطن وترفض أن يكون الغرب بديلاً عن الوجود الوطني الذي بات يعتبر، بدوره، قيمة كبيرة الشأن بحد ذاتها.

ويستفاد من نص بيان الحزب الاشتراكي المصري أن الحزب بحكم الملابس بنية تنظيمية تتضمن معتقداتها عناصر تبدو للوهلة الأولى غير متلائمة. فنجد هنا دفاعاً عن شعارات الثورة الفرنسية الكبرى، فيما نجد جنبها في الوقت ذاته الخطاب الاجتماعي الإسلامي الذي بات يضاهي تلك الشعارات. ويمكن أن نرى في بيان الحزب بكل سهولة إشارات إلى الفئات الاجتماعية المصرية الصرف التي يصب عليها الحزب جام غضبه معتبراً إياها سنداً للاستعمار الغربي. ولهذا السبب يمكن اعتبارها عميلة له، فيما يبين ظهورها على المسرح السياسي أن الحزب الاشتراكي يكاد يميل إلى طرح مهمات الثورة الديمقراطية العامة. إلا أن هذا الحزب تأسس في بلد لم تغب فيه عن وعي النخبة المثقفة الناشئة تصورات التقاليد الإسلامية بشأن ضرورة تصحيح وإصلاح القيادة الفاسدة التي تعتبر أفعالها سيئة ليس لأنها تشكل إهانة مباشرة لكرامة الإنسان بوصفها من أسمى قيم المجتمع، بل لأنها تتعارض مع النظرة الدينية لقضية حكم رعايا البلد. والمسألة هنا بالطبع لا تكمن في تشدد الإسلام أو نزعة المحافظة، بل في مستوى تطور البلد الذي لا يسمح بعد بفصل الدولة بأوسع معانيها عن الدين بأوسع معانيه أيضاً.

الاهتمام بتربة الوطن جرد مؤسسي الحزب الاشتراكي وواضعي بيانه من تأثير الفابية أو "الاشتراكية الإصلاحية" كما كان الأمر في البداية. تربة الوطن لم تحظ باهتمام هاتين النظريتين. بالعكس "تربة الوطن" تضمنت شيئاً شبيهاً بهما، إلا أن المفاهيم التي بدت وكأنها مقتبسة من الغرب كانت في واقع الأمر، وبحكم الفارق الزمني والاختلاف بين

شكلي الاشتراكية الأوروبية والاشتراكية المصرية ، قد بعثت من التقاليد السابقة في مصر. نفور مؤسسي الحزب الاشتراكي المصري من البلشفية قائم على تحولهم من الإعجاب بالغرب إلى التغني بترية الوطن. ولعلمهم لمسوا في البلشفية عفويةً ، من مصطلحي "العنف" و"الفوضى" ، تعبيراً مكثفاً عن التوجه الغربي. والتواصل مع البلشفية كان سيتطلب منهم في الواقع الاعتراف بالصفة التقدمية لغزو مصر الاستعماري ، لأن هذا الغزو أدرج ضمن تطور البلد نظاماً جديداً للعلاقات الاقتصادية والاجتماعية. إدخال الواحة الرأسمالية الأوروبية إلى مصر خلق فئة رجال الأعمال المحليين التي لعبت دوراً غير قليل فيها جماعات السكان من غير عرب مصر. وكان ينبغي أن ينتج عن التطور في هذا الاتجاه ظهور طبقة البروليتاريا المصرية القادرة على استخدام العنف لتفكيك نظام الاتصالات الاقتصادية والاجتماعية القائم بالفعل. وكان من شأن الثورة الاشتراكية في الغرب أن تساعد بدورها في قيام أخوة إنسانية حقيقية ، حيث يصار إلى محو الفوارق بين الغرب والشرق نهائياً ، على حساب خسارة الشرق طبعاً. وما كان بوسع مؤسسي الاشتراكية المصرية أن يعتبروا وجهة النظر هذه واقعية حقاً ، ذلك على الأقل لأن تطور بلادهم في هذا الاتجاه يتطلب ضحايا هائلة.

لقد أثار تأسيس الحزب الاشتراكي المصري مداولات أخذت تتطور في هذا الاتجاه في أوساط الاشتراكيين المصريين. وكانوا يعتقدون أن الخطوة التي قام بها أنصار الاشتراكية "المعتدلون" تضيي الشرعية كذلك على أنصارها "المتطرفين". واشتدت المجادلات من جديد على صفحات الجرائد المصرية^(١). أطيايف المشاركين فيها واسعة ، من المثقفين الليبراليين

(١) طائفة واسعة من الآراء التي طرحت بهذه الخصوص واردة عند عبدالعظيم رمضان ، ص ٥١٧ - ٥١٩. وكذلك رؤوف عباس ، ص ٢٣٦.

حتى رجال الدين. وكانت تساؤلاتهم منطقية تماماً. والأكثر من ذلك أن كل اهتمام المسائلين تركز على الذين تناولوا الاشتراكية بصيغتها الثورية.

محمد حسنين هيكل المقرب إلى سلامة موسى تساءل عما إذا كان الاشتراكيون يعتقدون بأن التربة الحالية في مصر صالحة أم أنها منافية لاستيعاب المبادئ الاشتراكية؟ وما مدى تعمق الصراع بين مختلف فئات السكان المصريين؟ وهل كسبت فكرة الاشتراكية عقول العمال وقلوبهم؟ إذا تمكن الحزب الاشتراكي من استلام السلطة هل سيتترك الفلاحين في نفس وضعهم الحالي أم أنه يلغي ملكية الأرض، بما فيها الملكية الصغيرة؟ وأخيراً يشير الرجل إلى أنه يؤيد آراء أخوته الاشتراكيين فيما يخص ضرورة تحسين ظروف معيشة الطبقات الدنيا. إلا أن بين الاشتراكية والإصلاح فرقاً جوهرياً. الإصلاح يمكن تحقيقه مع الإبقاء على الملكية الخاصة القائمة للأرض، فيما الاشتراكية لا يمكن بناؤها إلا بتصفية هذه الملكية. وإذا أكتفى الأخوة بالنقطة الأولى فهم إصلاحيون وليسوا اشتراكيين. وإذا رأوا أن التربة المصرية قد نضجت لنشر مبادئ الاشتراكية فليحاولوا إقناعنا بأنهم يعتمدون على أدلة علمية دقيقة^(١). وبالطبع كان إيراد هذه الأدلة متعذراً. غير أن الممارسات السياسية لم تتطلب إيرادها.

ومنذ لحظة تشكيله حُرم الحزب الاشتراكي من الوسط الضروري لمواصلة نشاطه. إذ فقد بمنتهى السرعة الفئة التي ولدته في الحقيقة وكان بوسعها أن تعبر عن مثله العليا. مؤسسو الحزب تحدثوا في بيانهم عن التعاطف والسمعة الطيبة بين جميع أفراد الأمة. إلا أن الأمر لم يقتصر على ذلك. فقد رأى المثقفون المصريون الليبراليون، بأسلوبهم "الترابي" (تربة الوطن)، أن العمليات الجارية في الحزب الاشتراكي تسوق الدليل على أسوأ

(١) رمضان ع.ع. ص ٥١٨ - ٥١٩.

التوقعات. وهي لم تكن سراً خافياً على أحد، لأن أنصار التيارين "المعتدل" و"المتطرف" في صفوف الحزب خاضوا مجادلات علنية حول الإجراءات الحزبية المستقبلية.

وبعد إعلان برنامج الحزب أشار منظره الأول، ممثل "المدرسة الكلاسيكية" في الاشتراكية المصرية سلامة موسى، إلى أن تأسيس الحزب كان، على ما يبدو، خطوة خاطئة، لأن قسماً من الرأي العام المصري والبريطاني سىرى فيه أداة لنقل تجربة البلاشفة إلى التربة المصرية، وهم أغرقوا روسيا في حومة الموت والخراب. وقال ما معناه: لا ينبغي لنا أن نوصل المأزق السياسي الذي ولجناه إلى حالته الخطيرة كيلا يتحجج خصوم استقلالنا في إنجلترا بأن الشيوعيين والبلاشفة ينشطون في مصر^(١).

في ٢٤ سبتمبر ١٩٢١ نشرت "الأهرام" مقالة حسني محسن أكد فيها بدوره: إننا نطالب فعلاً باستعادة الحقوق المنتهكة. وفيما يخص الحقوق السياسية نحن نطالب خصمنا الإنجليزي بها. أما الحقوق الاقتصادية فنحن نطالب بها خصمنا الرأسمالي بصرف النظر عما إذا كان أجنبياً أم مصرياً. ويناصرنا المدافعون عن الحق والعدالة. فليوحد العمال صفوفهم تحت راية الحزب الاشتراكي المصري ويخوضوا النضال من أجل إصلاح كل ما أفسدته أيدي أنصار الماضي وظلامي العصور الوسطى^(٢).

وفي اليوم التالي نشرت "الأهرام" ذاتها مقالة عبدالله عنان التي أعلن فيها على الملأ: أؤكد أن الرأسمال موجود هنا، في مصر. وهو يطبق في هذا البلد نهج استنزاف وقتل العامل المحروم من الحقوق. استحواذ قسم من السكان في هذه البلاد على الأموال يصاحبه

(١) عباس. ر، ص ٢٣٦.

(٢) رفعت السعيد، ص ٢٠٤.

استبداد غير مسبوق^(١).

وأخيراً، في ١٢ سبتمبر ١٩٢١، نشرت "الأهرام" نداءً موقعاً من قبل سكرتير نقابة عمال التبغ (لبناني الأصل) أديب قشعمي "إلى الرأي العام المصري" جاء فيه: إذا كانت أموال هائلة تتراكم في خزائن أصحاب الماكينات والعمال لا يمتلكون الحد الأدنى من أسباب العيش فهل يدل ذلك على الوطنية الحقّة والعدالة؟ فالعمال هم الذين بنوا هذه المصانع الضخمة وضحوا في سبيلها بدمائهم وحقوقهم المقدسة. فهل يسكت الشعب المصري على هذه الوحشية الفظيعة؟ هذه المضايقات تتنافى مع الفضيلة والكرامة، ولا يخامرنا شك في أن الشعب كله سيهب لنصرة المظلومين ويسدد الضربة القاضية، الضربة الوطنية الصادقة إلى ظالمهم^(٢).

الموقف داخل الحزب كان أكثر تعقيداً من المتوقع في بادئ الأمر. حسني محيسن وعبدالله عنان، وهما من أبرز "الإصلاحيين"، لم ينتسبا فيما بعد إلى الحزب الشيوعي المصري الذي شكله الجناح "المتطرف" من الحزب الاشتراكي مع أن أقوالهما تدل على انهما كانا مستعدين لهذه الخطوة. ويبدو أنه لا موجب للتفريق العميق بين "المتطرفين" و"المعتدلين" في الحزب المذكور رغم توفر القواعد المنطقية الشكلية لمثل هذا التفريق. فالمتطرفون كان ينبغي أن يناصروا السنديكالية المهنية للمستخدمين وصغار الموظفين، فيما يمثل المعتدلون منظرين من أبناء الطبقات العليا. إلا أن تلك القواعد لم تفعل فعلها في الحالة التي نحن بصدددها.

في آخر المطاف نجد أن قسماً من الذين يعتبرون بحكم المنطق من أعضاء الكتلة الأولى

(١) المصدر ذاته.

(٢) المصدر ذاته، ص ص ٢٠٤ - ٢٠٥.

الإصلاحية، باتوا من الكتلة الثانية. حسني العرابي خير مثال على ذلك. فهذا "البك" المتحدر من عائلة أرستقراطية بات من أبرز شخصيات الحزب الشيوعي المصري. فيما نرى السينديكالي (المستخدم) يوسف روزنتال خارج صفوف هذا الحزب. نحن أمام لعبة سياسية سرعان ما انهارت بعدما كانت تستهدف كسب الزعامة في حزب "اجتماعي" علني بمصر ويمثل الجناح اليساري في صفوف الحزب الاشتراكي المصري. ولم يعد أحد، حتى من خصوم الحزب، يشك في أنه سيتخلص في القريب العاجل من قبول الليبرالية ويسارع في اللحاق بالذين بادروا إلى جعله من وقائع الحياة السياسية في البلاد. أدنى تباطؤ في هذه اللعبة يقلل رهان المشاركين فيها. في حين أنهم كانوا يطمحون إلى الحصول على دعم من روسيا البلشفية. إلا أن ذلك يتطلب كسب ثقتها، والسبيل الأمثل لهذا الغرض هو استخدام نفس الخطاب المستخدم في روسيا وبات طبيعياً هناك. ومع ذلك كسب اللعبة أولئك الذين أفلحوا في ربط مصيرهم بالاتحاد العام المصري للعمل الذي أسسه أنطون مارون.

أعضاء الحزب الاشتراكي "الميلون" إلى الجناح المتطرف تحولوا إلى نشطاء السنديكالية. بفضلهم أقيمت علاقات العمل مع الأعضاء البسطاء غير المنتمين إلى مركز النقابات الذي يشرف عليه الحزب الاشتراكي. وقد تولوا دور المحامين في المحاكمات التي أقامتها السلطات ضد المضربين، وكانوا ينظمون الإضرابات ويدعون إلى تشريع قوانين العمل ويشاركون في محو الأمية بين العمال وأفراد عوائلهم. وقد طبقوا في الواقع نفس النهج الذي اعتبرته قيادة الأمية النقابية العاملة بإشراف الأمية الشيوعية نهجاً طبقياً وثورياً حقاً. كتبت مجلة "أمية النقابات الحمراء" في نوفمبر ١٩٢١: "الاتحاد العام للعمل المصري تنظيم ثوري تماماً تضم هيئة رئاسته أغلبية من أنصار الأمية النقابية. وقد شارك ممثلوه في عمل المؤتمر التأسيسي (للأمية النقابية - ج. كوساتش). الرسالة الرسمية التي وصلت من الإسكندرية في ديسمبر

تفيد بأن هيئة رئاسة الاتحاد أيدت الأهمية النقابية ، وأن هذه المسألة سببت فيها نهائياً في اجتماع ممثلي كل النقابات (أعضاء تنظيم الاتحاد العام للعمل المصري - ج. كوساتش)^(١). وقد نشر الخبر عن السنديكاليين المصريين في استعراض "قوانا".

إلا أن ثمة جانباً ثانياً لا يقل أهمية عن الجانب الأول للعمل السنديكالي النقابي "للمتطرفين" في الحزب الاشتراكي المصري. ففي مقابلة مع الباحث المصري المعروف لقضايا نشوء الحركة الشيوعية في مصر رفعت السعيد قال عضو اللجنة المركزية للحزب الشيوعي المصري منذ العشرينات عبدالرحمن فضل الذي كان من أوائل الطلبة المصريين في الجامعة الشيوعية لكادحي الشرق بموسكو؛ أن ثورة ١٩١٩ أيقظت فينا الرغبة في العمل الجماعي. وأعجبنا طرق الوطنيين الذين أسسوا النقابات. وتبعاً لهم أسسنا نقابة عمالية في قرية طلسمات حلق الجمل بمحافظة البحيرة حيث كانت تعمل شركة بريطانية في استثمار الأراضي البكر. وكانت تلك النقابة إحدى النقابات الكثيرة التي تأسست في البلاد بعد ثورة ١٩١٩. واتسع نشاط النقابة، وحاولت الشركة أن تمارس ضغطاً عليها. إلا أن نقابات العمال في دمهور والإسكندرية تدخلت وأيدتنا. وأخذنا، نحن زعماء النقابة، نتردد على الإسكندرية بانتظام وملتقي قادة العمال هناك. وبفضلهم انتسبنا إلى الحزب الاشتراكي في المدينة^(٢).

صفوف الحزب اكتملت بأعضاء باتوا في داخله سنداً لليساريين. وعندما تأسس في

(١) استعراض "قوانا"، أهمية النقابات الحمراء. موسكو، ١٩٢١ العدد ١١، ص ٥٣٥.

راجع كذلك، غيلر ل. إ. النقابات في الشرق. تقرير المؤتمر الدولي الثاني للأهمية النقابية الحمراء. موسكو ١٩٢٣، ص ٢٥ - ٢٦.

(٢) رفعت السعيد، ص ١٨٢ - ١٨٣.

الإسكندرية أواخر سنة ١٩٢١ "الاتحاد العام للنقابات في مصر" على هيكليّة "الاتحاد العام للعمل المصري" انضمت إليه ٣٢ نقابة^(١) تجاوز إجمالي أعضائها ٢٠ ألف عامل^(٢). وكانت تلك هي الأغلبية الساحقة من النقابات العمالية المسجلة آنذاك رسمياً في مصر. وقد عُدت أعضاء جماعيين في الحزب الاشتراكي المصري. زد على ذلك أن الجماهير العمالية التي انتسبت إلى الحزب من خلال النقابات التي أسسها اليساريون قد غيرت بالطبع الجو السائد فيه. ولم يعد الكلام يدور عن حلقة تنويرية اشتراكية، ولا عن بقاء قيادة الحزب "الإصلاحية".

في سنة ١٩٢٢ انتسب الاتحاد العام للنقابات في مصر إلى الأمية النقابية. إلا أن مسألة الانتساب إلى هذه المنظمة قد حلت في الواقع قبل ذلك بكثير. ففي ١٧ نوفمبر ١٩٢١ بعث أمين عام اتحاد النقابات يوسف روزنتال إلى أمين عام المكتب التنفيذي للأمية النقابية الحمراء سولومون لوزوفسكي رسالة أكد فيها استلام رسالة الأمية النقابية التي حملها إلى قيادة الاتحاد العام للنقابات في مصر ممثله بعد أن شارك في عمل المؤتمر الأول التأسيسي للأمية النقابية. وكتب روزنتال يقول: "أن هيئة رئاسة الاتحاد العام للنقابات في مصر المكونة بمعظمها من الشيوعيين توافق على الطلب من المكتب التنفيذي للأمية النقابية الحمراء أن يقبلها في صفوفه"^(٣). كان ذلك انعطافاً جديداً في الموضوع، ولم يكن مفاجئاً

(١) الغزالي، عبد المنعم ص ٨٩. أشار جاك كولان الباحث الفرنسي المتخصص بقضايا الحركة العمالية والشيوعية في البلدان العربية إلى أن ٤٣ نقابة سجلت في مصر آنذاك..

(2) Ibid. P. 186. Couland J. Op. cit.

(٣) المصدر ذاته، ملف ٥٣٤ إضبارة ٧، وثيقة ٢٨٢، ص ١.

وذكر روزنتال في رسالته معلومة منشورة في استعراض "قوانا" عدد نوفمبر ١٩٢١ من مجلة "الأمية النقابية الحمراء"، وورد فيها أن المؤتمر الاستثنائي لاتحاد النقابات العام في مصر سيعقد في القريب العاجل
=/=

بأي حال.

في ٢٠ يوليو ١٩٢٢ بعثت قيادة الاتحاد العام للنقابات في مصر رسالة ثانية إلى سولومون لوزوفسكي موقعة هذه المرة من قبل روزنتال ونائبه فؤاد الشمالي وإسكندر سابا. وقد وقع كلا النائبين الرسالة بالعربية، ويبدو أن لذلك الأمر دلالة. جاء فيها أن الاتحاد العام للنقابات في مصر استلم الدعوة للمشاركة في عمل المؤتمر الثاني للأمية النقابية بوصفه منظمة عضواً فيها. كما أشارت الرسالة إلى أن خبر الدعوة من الأمية وكذلك قرار قيادة الاتحاد العام للنقابات في مصر بإرسال وفد عنه إلى المؤتمر منشوران في لسان حال الاتحاد الرسمي جريدة "الشبيبة"^(١).

المقر الرسمي للحزب الاشتراكي المصري ظل في القاهرة. وكان "الإصلاحيون" لا يزالون مهيمنين عليه. وفي الوقت ذاته غدت الإسكندرية التي هي أكبر ميناء في البلاد وأهم مركز صناعي المكان الذي تحشد فيه أنصار البلشفية المصريون الذين وصلوا على أية حال نشاطهم العلني معتمدين على الشخصية البارزة في الأوساط النقابية يوسف روزنتال. إلا أن تلك كانت مجرد "فترة انتقالية" طال أمدتها في تطور الحزب الاشتراكي المصري. فالحزب كان يقترب من الانفجار الداخلي الذي لا مفر منه.

بحضور ممثلي جميع التنظيمات الأعضاء فيه، وسيتم هناك قرار نهائي. ثم يرسل طلب رسمي، كما كتب روزنتال، إلى موسكو. الرسالة مكتوبة باللغة الفرنسية واللغة العربية على استمارة "Confédération générale" اتحاد النقابات العام في مصر (وكذلك اتحاد النقابات العام في القطر المصري). وعلى استمارة الرسالة عنوان اتحاد النقابات العام في مصر: الإسكندرية، ص ب ١٨٥٥.

(١) المصدر ذاته، ص ٢. في بداية يوليو ١٩٢٢ صدر العدد الأول والأخير من هذه الجريدة مزيناً بصورة المطرقة والمنجل، عبد العظيم رمضان، ص ٥٣٠.

(٣) تأسيس الحزب الشيوعي المصري

في ٣٠ يوليو ١٩٢٢ عقد في الإسكندرية المؤتمر الأول للحزب الاشتراكي في مصر. وفي إفادته أمام النائب العام تحدث يوسف روزنتال عن الأسباب التي دفعت الحزب لعقد المؤتمر: "مقر قيادة الحزب كان في القاهرة، وقد شكلنا نحن عدة فروع في المحافظات^(١). وكان واضحاً لنا أن فرع القاهرة لا يبدي حماساً كافياً لحل هذه المهمة الكبيرة. فيما أبدى فرع الإسكندرية رغم قلة أعضائه أهلية أكثر من المركز الإداري للحزب. وطالب ممثلو فروع المحافظات بنقل مقر الحزب إلى الإسكندرية، الأمر الذي تم بعد أن وافق على وجهة النظر هذه أعضاء الفروع الحزبية في الجلسة الخاصة التي كرسست لبحث هذه المسألة"^(٢).

وقدّم "فؤاد الشمالي" معلومات أدق عن المؤتمر: في الثلاثين من يوليو عقد في الإسكندرية مؤتمر حضره مندوبون عن جميع الفروع الحزبية في البلاد وبينهم مندوبو لجنة القاهرة. وتقرر إنشاء المؤتمر بالإجماع تحويل فرع الإسكندرية إلى المركز الإداري للحزب. كما تقرر بأغلبية الأصوات تبني النهج الشيوعي للإشتراكية. وتم في المؤتمر انتخاب اللجنة المركزية للحزب^(٣).

ومع ذلك عمّ دار الكلام في وثائق المؤتمر الأول، بما فيها محاضر جلساته

(١) حتى ذلك الحين تشكلت، بالإضافة إلى فرعي الحزب الاشتراكي المصري في القاهرة والإسكندرية، فروع أخرى في بورسعيد والمنصورة وطنطا ودمنهور وغيرها من المدن المصرية. واستخدم روزنتال بدوره ضمير الجمع "نحن" ليؤكد أن الفضل في تأسيس فروع الحزب يعود لكتلة الإسكندرية وحدها.

(٢) رفعت السعيد، ص ١٠٨ - ١٠٩.

(٣) المصدر ذاته، ص ٢٢٥.

والموضوعات والقرارات التي اتخذها؟^(١) أنها تتطلب قراءة معمقة.

يفيد محضر جلسات المؤتمر الذي عقد في المركز الحزبي للمجموعة الاشتراكية في الإسكندرية أن عدد منوبه ٨٥ شخصاً يمثلون التنظيمات الأعضاء في الحزب الاشتراكي المصري في شبن الكوم والمحلة الكبرى والقاهرة، وطنطا والزقازيق والإسكندرية. أدار جلساته يوسف روزنتال.

وأقر مندوبو المؤتمر مبادئ الحزب. وهي في صياغات متشدة واضحة لا تحمل معنيين (تصفية الملكية الخاصة وتحويلها إلى ملكية شيوعية وإقامة دكتاتورية البروليتاريا ومنع استغلال الإنسان للإنسان ومنع استعباد أمة لأمة). الدولة يجب أن تكون قوة مهيمنة تمارس الرقابة التامة على مصادر الثروات وتطبق شعار الجميع للجميع. ولهذا الغرض اقترح مندوبو المؤتمر إيجاد مصانع جديدة واستخدام المكائن في الإنتاج وتجويد خصوبة التربة. ويصار في مصر الاشتراكية المرتقبة إلى تحقيق المساواة بين الرجل والمرأة وتطبيق نظام التعليم العام المجاني ودمج العمل الصناعي بالعمل الزراعي وضمان حرية الرأي والمعتقد. زد على ذلك أن مندوبي المؤتمر يعتقدون بأن تطبيق هذه المبادئ يعني أن شعب مصر ينخرط في صفوف الثورة الاجتماعية العالمية، الأمر الذي يفترض أن الحزب نفسه يسعى، من جانبه، إلى الانضمام إلى صفوف الأمية الشيوعية.

(١) هنا وفيما بعد نقلاً عن:

Procès Verbal: cf General Meeting Councilhead on 3011. July 1922, cl Résolution adaptées py la 2-ième Assemblée: 0mm dur...; Socialist: Egyptien Ienue an siège delение du Pam a Alexandric le 30 j 1922.

أرشيف التاريخ المعاصر، ملف ٤٩٥، إضبارة، ٨٥ وثيقة ١١، ص ١-٣، وص ٤-١٣، الوثيقة الأولى مطبوعة على استمارة مؤشرة بالعربية: الحزب الاشتراكي المصري. وموقعة بالعربية أيضاً من قبل حسني العرابي.

بديهي أن المؤتمر انتخب الهيئة القيادية للحزب، وهي اللجنة المركزية، من ١١ عضواً برئاسة السكرتير العام حسني العرابي. وضمت اللجنة ممثلي المجموعتين الإسكندرانية والقاهرية، ومنهم أنطون مارون وأحمد المدني وفؤاد الشمالي وإسكندر سابا. فيما تولى يوسف روزنتال مهمة أمين صندوق الحزب. الخمسة الباقون من أعضاء اللجنة المركزية هم مسؤولو تنظيمات الحزب في المحافظات. كلهم عرب من أبناء مصر. علماً بأن اللجنة لم تضم ولا واحداً من كبار زعماء الحركة الاشتراكية الوطنية (سلامة موسى وعلي العناني وعبد الله عنان) وكانت لذلك دلالة.

أكدت مواد المؤتمر أن اللجنة المركزية للحزب الاشتراكي المصري يجب أن تتولى القيادة السياسية والمعنوية والفعلية الحقيقية ليس للحزب وحده، بل ولجميع الشغيلة والمستغلين. وأعتبر المؤتمر الهيئة القيادية العليا مرجعية تتولى نشر الأفكار الاجتماعية بين أعضاء الحزب وجميع العمال. ومهمتها هي تتبّع مساهمة الحزب الاشتراكي في الانتخابات البرلمانية وكذلك سلوك أعضاء كتلته. كل وثائق اللجنة المركزية يجب أن تستجيب لروح قرارات الأهمية الشيوعية. وأخيراً أكدت مواد المؤتمر أن اللجنة المركزية تنتخب من قبل مؤتمر (جمعية عامة) لكل فروع الحزب لفترة سنة واحدة. وكل فرع من فروع الحزب ينتخب بدوره لجنته الخاصة في جلسة عامة له. واعتبرت قرارات اللجنة التنفيذية للأهمية الشيوعية إلزامية للجنة المركزية للحزب، فيما تعتبر قراراتها هي إلزامية التنفيذ بالنسبة للهيئات القيادية الدنيا وجميع أعضاء الحزب. مقر اللجنة المركزية يتواجد في الإسكندرية.

كانت وثائق المؤتمر بليغة وأكثر استفاضة. وأشارت الموضوعات (رؤوس الأقسام) التي أقرها الحزب إلى أنه يطرح بين مهماته تربية وتنظيم عمال مصر وفلاحيهما وتحويلهم إلى طبقة قوية مستعدة مادياً ومعنوياً للمشاركة في الثورة الاجتماعية العالمية العظمى الرامية إلى إسقاط النظام الرأسمالي القائم على الامتيازات وعلى استغلال الإنسان

للإنسان. وكان الاشتراكيون المصريون يريدون استبدال هذا النظام بالنظام الشيوعي القائم على التكافؤ الاقتصادي والاجتماعي وعلى التضامن في العمل والطيبات التي تضمنها دكتاتورية البروليتاريا والزامية العمل. علماً بأنهم أشاروا إلى أن البروليتاريا المصرية المظلومة تتعرض إلى قهر مزدوج اجتماعي وقومي. ولذا فهي يجب أن تتضامن مع البروليتاريا العالمية ضد العدو المشترك - الرأسمالية الاستعمارية. كان ذلك إعلاناً سافراً، وساذجاً، عن مبادئ العقيدة الشيوعية. لاسيما أن الموضوعات نفسها تفيد بأن الحزب الاشتراكي المصري عندما يلتحق بالأمية الثالثة يقوم بخطوة اجتماعية لصالح البروليتاريا المصرية، بل وبخطوة نحو التحرر الوطني والأمني، ذلك أن الأمية الثالثة بأفعالها النشطة ونفوذها الهائل تساند جميع الشعوب. واعتبر الاشتراكيون المصريون الكومنترن نقيضاً للأمية الثانية التي هي منظمة "إصلاحية انتهازية" برر زعمائها توسع الدول الاستعمارية تجاه البلدان الشرقية، متصورين أن غزو البلدان المتخلفة يؤدي إلى تحسين الوضع الاقتصادي للطبقة العاملة الأوروبية. وعندما انتسب الحزب الاشتراكي المصري إلى الأمية الثالثة، المنظمة الدولية الجبارة، فقد سار على طريق رسالتها العظمى. في النضال من أجل تحرير البروليتاريا المضطهدة والأمم المقهورة.

وقد سار الحزب بوضوح وثبات على طريق التحول إلى جماعة للفعل السياسي مناهضة للنخبة. وفي مراسلاته مع موسكو أخذ يستخدم التسمية الجديدة أكثر فأكثر (وكانت آنذاك غير معترف بها في موسكو): حزب توزيع الثروة المصري^(١). وقطع الحزب

(١) راجع المصدر ذاته وثيقة ٢، ص ٣٤.

آنذاك لم تكن قيد الاستعمال مفردة "الشيوعية"، ما أضفى نكهة خاصة على محاولات الإشتراكيين المصريين نقل مضمون هذا المصطلح إلى العربية. في الترجمة العكسية من العربية تبدو تسمية الحزب =/=

صلاته مع زعماء الاشتراكية الوطنية، وراح يسمي الطبقة الحاكمة المصرية صراحة خصمه الأساسي تقريباً.

في باب "الحزب الاشتراكي والمسألة الوطنية" من موضوعات المؤتمر الأول ورد كلام شديد اللهجة مفاده أن الإيديولوجية الوطنية للشعوب المضطهدة وطموحها إلى الاستقلال يستثمران من قبل الطبقات الغنية لمنافعها الخاصة. ممثلو الطبقة الغنية الأجنبية في البلدان المضطهدة يعملون بصفة معاونين وشركاء للأسياد الأجانب لأنهم يتقاسمون معاً الغنائم المنتزعة من الشعب ويغدون وطنيين مسعورين عندما يستأثر الأجنبي بحصة الأسد من الغنائم أو عندما يعتبر الأسياد الأجانب أنفسهم أقوىاء لدرجة تكفي للتمتع بالغنيمة على انفراد. حينئذ يتقدم الوطنيون إلى الأمام ويرفعون الرايات ويمارسون الدعاية النشيطة. فليرحل الأجانب. وليعيش الاستقلال لأصحاب البلاد. ويتابع النص: الشعب الكادح هو العنصر الحقيقي للأمة. وهو الوحيد الذي يحب بلا حدود ولا أنانية أرضه الأم التي يحييها ويرويهها بدمائه ثم يأتي الكهان المغرضون ليخدعوه.

جرى الإعلان عن الحزب الاشتراكي المصري بوصفه حزباً للشعب الكادح، ولذا فهو يجب أن يكون في الخط الأمامي من النضال في سبيل الاستقلال الوطني الحقيقي والتحرر الفعلي التام من الأسياد الخارجيين والداخليين. هكذا تقول الموضوعات. وارتباطاً بذلك رفض مندوبو المؤتمر الأول قطعاً التضامن والتعاون مع الاستغلاليين أعداء الشعب في سياق حل المسألة الوطنية. وعندما أعلن الاشتراكيون المصريون أن الحزب الاشتراكي هو حزب النضال الطبقي فقد أكدوا أن الاستقلال الحقيقي للشعوب لا يتم في ظل النظام الرأسمالي الذي ينطوي على جنين السيطرة والاضطهاد. وهم يقولون إن الأممية هي

كالاتي: الحزب المصري لإعادة توزيع الثروات. الأمر الذي كان له رد فعل معين لدى المجتمع المصري.

القادرة فقط على تحقيق الاستقلال. الوطني. وأن أدواته هي العناصر الثورية الفاعلة الحازمة التي تدفع الطبقة العاملة إلى التحرر التام من العبودية. وكان عليهم أن يقيموا في مصر نظام دكتاتورية البروليتاريا الأداة الفاعلة الوحيدة القادرة على تذليل مقاومة الدكتاتورية البرجوازية الحالية.

إلا أنهم افترضوا أن أبسط استقلال وطني شكلي تقدمه الدولة الغاصبة يتطلب من الشعب المصري مشاركة في الحياة الديمقراطية التي يمارسها البرلمان على أساس انتخابات الهيئة التشريعية العليا. ومع ذلك لا يعني الطابع الطبقي للحزب الاشتراكي المصري أن الحزب يجب أن يفلت ويلقي سلاح النضال الانتخابي من أجل البرلمان. الاشتراكيون المصريون أعلنوا بالطبع أن الدكتاتورية البرجوازية لا يمكن أن تكتسب وتتخطم إلا بالقوة. وأن الانتخابات مسألة ثانوية. إلا أنهم أكدوا أن الدعاية الانتخابية هي إحدى وسائل نشر الأفكار الاشتراكية بين الجماهير. وهي شكل للعمل يستهدف رص صفوف الشغيلة وتنظيمهم في حزب طبقي مركزي من أجل حل الأزمة الثورية المرتقبة. ولهذا الغرض يتعين على اللجنة المركزية للحزب أن تجمع بين تكتيك النضال الانتخابي وبين المصلحة العامة للشيوعية.

ولقد بات الحزب بالطبع طليعة التحويل الاجتماعي لنظام المجتمع بواسطة الثورة وليس بالحلول المسكّنة في إطار النظام القائم. إلا أنه كان بحاجة إلى القوة التي ينبغي أن تتحول إلى طليعة يقودها. وأعلن الحزب أن تلك القوة هي النقابات التي تعتبر مدرسة مؤهلة للبروليتاريا، حيث تتعلم فيها توجيه الإنتاج والاستهلال في ظروف المجتمع الاشتراكي. وكانت توجد في مصر، إلى جانب الاتحاد العام للنقابات، نقابات أخرى، إلا أنها كانت موبوءة ومملوكة لزمرة مثقفين يتوخون من ورائها مكاسب شخصية وتسبب المناصب. وكان على الحزب الاشتراكي أن يكيف هذه النقابات ويوجهها صوب حل

مهامها الحقيقية. وعلى أعضاء الحزب أن يتوغلوا فيها ويمارسوا الدعاية هناك لأفكار وعقيدة الاشتراكية والصراع الطبقي. وكان يراد لهذه النقابات أن تكون أممية وأن يدرج ضمنها العمال الأوروبيون والأجانب للاستفادة منهم في تحقيق أبسط مطالب البروليتاريا وتحويل هذه المنظمات إلى جبهة موحدة للطبقة العاملة.

وأبدى الحزب في موضوعاته اهتماماً لا يقل عن ذلك بالمسألة الفلاحية. فجاء فيها أن قضايا كادحي الحقول في مصر التي هي بالأساس بلد زراعي يجب أن تحتل مركز الصدارة من اهتمام الاشتراكيين. وكان الحزب الاشتراكي يرى من الضروري له أن يتقارب مع هذه الطبقة ويدرس أوضاعها ويعيش بينها ويكسب ودها وثقتها. والطريق إلى ذلك يمتد عبر الضغط الشديد على أرباب العمل من أجل زيادة مكافأة أتعاب الفلاحين وتحسين أحوالهم المعيشية من خلال إعادة توزيع ميزانية الدولة لصالح هذه الفئة من الكادحين وفتح المدارس التي تساعد على رفع المستوى الذهني للفلاحين. ورأى مندوبو المؤتمر أن من واجبهم أن ينظموا التعاونيات الاستهلاكية في الريف وأن يشكلوا هناك نقابات الدفاع والمقاومة. ولم يروا ضرورة للبدء فوراً بالدعاية للبرنامج الزراعي الشيوعي بين الفلاحين. ذلك أمر يمكن القيام به بعد كسب ثقتهم. في البداية أراد الحزب الاشتراكي المصري أن يوصل إلى الفلاحين شعار: الأرض الأم يجب أن تطعم جميع أبنائها. الأرض كما أكدت الموضوعات لا يمكن أن تعود إلى أحد. أنها ملك للمجموع الذي يفلحها. ويعني ذلك أن ملكية الملاك الكبار المتبشرين يجب أن تصادر من قبل سلطة الشعب المستقل. هؤلاء الأشخاص يجب أن ينتهوا ويختفوا كما اختفى الوجهاء بفعل الثورة الفرنسية الكبرى. أما الروليتاريا الحالية فبفضل مكتسباتها ستشغل الطريق الذي كانت تحتله البرجوازية. باب الموضوعات بشأن الفلاحين ينتهي بالتفاؤل: الفلاح المصري بطبيعته ذكي فطين بما فيه الكفاية. عقله متفتح للاستيعاب. وهو يستطيع أن ينصت بسرعة ويفهم النصيحة الطيبة،

لكن المبادرات تعوزه. الجهالة حولته إلى قدرتي متشائم يرزح تحت العبودية والبؤس. وبفضل إخلاصه لقضية هؤلاء المحرومين يمكن أن يغدو الحزب الاشتراكي المصري جذوة روحية حية بالنسبة لهذا الجمهور القوي المتين مع أنه لا يزال غافياً.

كما حدد الحزب الاشتراكي المصري موقفه من مسألة تحرير المرأة. فقد أكدت موضوعات المؤتمر الأول بهذا الخصوص أن الاشتراكيين يؤيدون بالكامل النقطة النسوية وسيعملون على تحقيق مساواة المرأة بالرجل في الميادين المدني والفكري والاقتصادي والسياسي.

ويستحق الاهتمام بخاصة طبعاً موقف الحزب من الدين. بالنسبة للاشتراكيين تعاليم جميع الأديان ومبادئها وأصولها لا تتقاطع بأي حال مع العقيدة الاجتماعية والعلم. بالعكس، فالدين يتضمن قوانين وتنبؤات تؤيد وتدعم الرؤية الشيوعية (النظرية) للعالم والمشكلة تتلخص في كون الشيوخ الرسميين والقساوسة والحاخامات الذين يتقاضون رواتب جيدة إنما يمارسون الدعوة ضد العقيدة الاجتماعية، بينما الإنسان الشرقي مثالي حالم وشاعر عاطفي يميل إلى الروح ويصدق بسهولة بالصوفيات التجريدية الخادعة. إلا أن المسألة لا تقتصر على ذلك.

فقد أعلن مندوبو المؤتمر الأول أن الحزب ينبغي أن يكون جاداً في موقفه من الطموحات الروحية للشعب المصري، وأن يأخذ بالاعتبار حالته النفسية وطباعه ويعمل بمودة وحنان على توعية هذا الشعب ويشرح له أن الاشتراكية بعيدة عن التناول على عقيدة الدين الخالص المرتبطة منذ البداية بمرجعياته الحقيقية. وقالوا إن الاشتراكية تكمل هذه العقيدة وتتولى تجسيد المثال الأعلى الديني عملياً ومادياً. كل ما يريده الحزب الاشتراكي هو مكافحة التعصب الرامي إلى إبقاء الجماهير رهينة الجهالة والأوهام وتسهيل استغلالها من قبل الأسياد. إلا أن مهمته الأولى باتت هي التصدي للتعصب الأعمى

المشوه والحقد على أصحاب الديانات الأخرى. وتؤكد الموضوعات أن الدين كنظرية سماوية لا يمكن أن يكون أداة مادية للاضطهاد. أنه قضية شخصية، وهو عنصر من عناصر الوعي الذاتي للإنسان. وسيعمل الحزب الاشتراكي على تربية الشعب بروح احترام حرية الفكر وحرية الانتقاد وحرية الرأي والتسامح والاحترام المتبادل، وتلك هي الشروط الأساسية لوجود الحياة الاجتماعية الأخوية المتناسقة في ظل التكافؤ الاقتصادي. وفي رأي مندوبي المؤتمر مقدمة غير قليلة لهذا النوع من الحياة الاجتماعية. فالأجناس الإسلامي والمسيحي واليهودي في الشرق، ورغم تدينها العميق وميولها الغيبية والقدرية، إنما هي متسامحة وتدعو بصراحة إلى احترام ثقافة الأجناس الأخرى وأخلاقيها وعاداتها. زد على ذلك أن شعوب الشرق تعترف بتفوق الحضارة وبمنجزات الشعوب الغربية في المعارف التقنية. وبهذا الخصوص لابد لشعوب الشرق أن تستوعب بارتياح كل المزايا التي يوفرها لها التقدم المعاصر، ولكن بشرط ألا يتخذ التدخل الأوروبي شكل غزو الأسيا والستغاليين الجشعين. إلا أن هذا الشرط لا ينفذ. وهذا هو سبب الحقد الواضح المشروع على نير الظالمين والأسياد الأجانب.

تعايير الموضوعات الجميلة عن الدين وعن نفسية الشرق أكثر جدية بكثير من المصطلحات التجريدية بشأن دكتاتورية البروليتاريا والصراع الطبقي، ذلك لأن الكلام دار عن التنظيمات والحزب وعن مؤتمره الأول أكثر مما تكرر لهجة الشيوعيين المعتادة. زد على ذلك أن هذه التعابير كشفت عن حقيقتهم. فهم عندما غدوا بلاشفة ظلوا من المثقفين والمستخدمين الذين ابتعدوا من زمان، كما خيل إليهم، عن عادات ونمط تفكير الوسط الذي خلقهم. لقد ارتقوا قمة المعرفة وحققوا نجاحاً مرموقاً في المناصب والمنافع، مثل يوسف روزنتال صاحب متجر المصوغات والمجوهرات في وسط مدينة الإسكندرية الكوسموبوليتية جداً والتي لا تشبه سائر مدن مصر.

ولكن كم كانت معيشتهم هشة مزعزة إذا كانوا لا يزالون يتذكرون التنكيل بالأجانب في عام ١٩١٩ كما تتذكره الجماعات من القوميات غير العربية. وقد ظلوا أجانب في أنظار المصريين العرب. وهذا ما دفعهم للكلام عن "الأمية البروليتارية" التي ربما كان بالإمكان أن تساعد في تفادي أحداث الماضي المأساوية. وهذا ما جعلهم يهدئون نفوسهم بحكايات عن "تسامح" شعوب الشرق وعظمة حضارتها وأديانها، وقدرتها في آخر المطاف على احترام "حضارة الغرب" وتقبل منجزات التقدم العلمي والتقني. كانت مفردات "الثقافة" و"الديانة" و"الحضارة" بالنسبة لهم مصطلحات مرادفة "لبروليتاريا" و"الأمية". إلا أن الاشتراكيين الطموحين إلى الشيوعية نسوا أن مصطلحات الماركسية التي ينطقون بها ذات مرة تجعلهم يتصرفون على نحو تغدو فيه تلك المصطلحات الموجهة إلى "الكادحين" المحيطين بهم دافعاً "لأهل الشرق" هؤلاء نحو تصرفات تناسب هذه المصطلحات لدرجة يصعب معها منعهم من ذلك. إلا أن المسألة لا تقتصر على هذا الأمر. فقد بدأت إشكالات قدرة حول هؤلاء المستخدمين. جاء بها رفاقهم الجدد تحت راية الشيوعية وكانوا أنفسهم سيقعون أول ضحية لهذه الإشكالات.

في بداية أغسطس ١٩٢٢ كتب مراسل "الأهرام" في الإسكندرية أن الحزب الاشتراكي يسمي نفسه وينشر في وثائقه الرسمية اسمه الجديد: الفرع المصري للأمية الشيوعية. ويضيف المراسل: وقد نشر بيان باسم الجمعية العامة لهذا الحزب عن القرارات التي اتخذها الحزب، وبينها قرار يفيد أن اللجنة المركزية للحزب ستتواجد من الآن فصاعداً في الإسكندرية وأن الحزب سينتمي إلى الأمية الثالثة. وهكذا أمانا البلشفية الحقيقية، لأن برنامج الحزب يتضمن إشارة إلى أن قراراته تطابق نهج الأمية الثالثة في موسكو^(١).

(١) رفعت السعيد، ص ٢٢٦-٢٢٧.

إلا أن حقيقة الواقع الفعلي لم تكن ذات معنى واحد. فالوثائق التي أقرها المؤتمر الأول للحزب الاشتراكي المصري كانت على الأرجح تستجيب لأمزجة وميول قسم من أعضائه الذين يمثلون الطوائف غير العربية وذات الأصول الأجنبية وقسم ضئيل من الاشتراكيين العرب (مع أن فؤاد الشمالي وأنطون مارون وإسكندر سابا يمكن اعتبارهم أجنبان لأنهم من أبناء الجالية السورية اللبنانية في مصر). والدليل على ذلك هو نص هذه الوثائق. ففيها تتجلى بوضوح فكرة روزنتال القديمة عن مصر بوصفها نسخة مصغرة عن الولايات العالمية المتحدة ونموذجاً حقيقياً لعصبة الأمم. واضعو تلك الوثائق قليلو المعرفة بالريف المصري. وعندما طرح شعار الأرض الأم التي تطعم جميع أبنائها تكلموا من جديد بروح تلك الفكرة نفسها. والأكثر من ذلك أنهم في الإسكندرية الكوسموبوليتية سعوا حتى قبل المؤتمر إلى الاتصال بالكومنترن مصورين أنفسهم بصفة قيادة فعلية للجماعة الشيوعية المصرية.

وكان روزنتال في مايو ١٩٢١ فاتح اللجنة التنفيذية للأمية الشيوعية بالموضوع داعياً إلى تمثيل مصر بأسرع ما يمكن في مؤتمرات الكومنترن والنقابات الحمراء. وكان يقول أن البروليتريا العالمية يجب أن تعرف أن في مصر تتطور حركة عمالية جبارة ستلعب في المستقبل القريب دون ريب دوراً كبيراً في حياة شعوب الشرق^(١). وبهذا الخصوص عبر أفيجدور عن رأي مجموعة الإسكندرية ورفع إلى قيادة الكومنترن بيان الحزب الاشتراكي المصري الصادر في أغسطس ١٩٢١ قائلاً إن الكتلة الناطقة بالعربية في حزبهم نشرت بياناً متواضعاً جداً وغامضاً ومربكاً. إلا أنه لم يكن متشائماً أبداً، حيث أعلن أنه "ستحصل بين الاشتراكيين العرب آجلاً أم عاجلاً بلورة الأفكار الشيوعية حقاً. وضمانة ذلك هي

(١) أرشيف التاريخ المعاصر، ملف ٤٩٥، إضبارة ٨٥، وثيقة ٢، ص ٢.

تشكيل جماعة حزبية موحدة تنظيمياً حيث اختلطت العناصر الأوروبية وتضامنت مع العناصر المحلية (العربية) وستوفر للعناصر المحلية إمكانية التطور الحر دون فرض أفكار ومبادئ متحيزة عليها" والأكثر من ذلك أن أعضاء جماعة الإسكندرية يعتقدون أن الأفكار الشيوعية تغرس بين أهل الشرق بصورة أسهل من أهل الغرب إذا لم تتعرض أخلاقياتهم وعاداتهم وطباعهم لعنف شديد^(١). إلا أن الواقع الفعلي يسوق الدليل على أن المجموعة الشيوعية القوية تجاهلت رأي المصريين العرب، أو لم تبد القدر الكافي بمراعاته في سعيها إلى كسب ثقة اللجنة التنفيذية للأمية الشيوعية فوراً وترسيخ مواقعها كمجموعة قيادية.

وباتت "الأهرام" من جديد ساحة لتصادم وجهات نظر ممثلي الكتلة الشيوعية والكتلة "المعتدلة" في الحزب الاشتراكي المصري، والأولى تعبر عن رأي أبناء القوميات غير العربية والثانية تعبر عن رأي المصريين العرب. ففي ٩ أغسطس ١٩٢٢ نشر سلامة موسى في "الأهرام" مقالة جاء فيها أن الرغبة في تأسيس حزب شيوعي في مصر يقيم اتصالات دائمة مع موسكو إنما تشكل خطراً على الحركة من أجل الاستقلال. وأكد أن ولاءنا لمصر يجب أن يكون أعلى من إخلاصنا للاشتراكية. الاستقلال هو الهدف الأول. أما الاشتراكية فهي الهدف الثاني^(٢). وكان من حق سلامة موسى أن يتكلم على هذا النحو. فهو على صواب في رأيه بأن الخطاب البلشفي للحزب الاشتراكي المصري يفضي فيما بعد إلى انفجار الفوضى والعنف بنتائج لا تحمد عقباه. زد على ذلك أن سلامة موسى يعرف،

(1) la situation en Egypte. Lem: d'Alexandrie de 10 octobre 1921.

وكذلك المصدر ذاته، ص ١١.

(٢) رفعت السعيد، ص ٢٢٩.

على ما يبدو، أن يوسف روزنتال أبلغ موسكو في نوفمبر ١٩٢١ أن الحزب الاشتراكي المصري والحزب الشيوعي المصري يمثلان كياناً واحداً، وأن تسميته الرسمية بالحزب الاشتراكي مجرد تنازل تحت ضغط الأوضاع. فثمة قانون حالة الحرب وغيره من القوانين الجائرة السارية المفعول هنا. إلا أن هذه التسمية إجراء وقتي^(١).

بعد عشرة أيام نشرت "الأهرام" رداً على سلامة موسى موقِعاً من قبل عبد الله عنان، جاء فيه: قبل عام دعونا إلى تأسيس الحزب الاشتراكي ونشرنا آنذاك بياناً أو برنامجاً تضمن هذه الدعوة. وقد مر عام على بدء عملنا بالطرق السلمية الهادئة. ولم ننس لحظة الظروف الطارئة في البلاد. وقد أعلننا على رؤوس الأشهاد أننا لسنا ثواراً، بل مناصرين للتطور السياسي والاجتماعي التدريجي. لكننا مضطرون اليوم للاعتراف بعدم وجود اشتراكية "وطنية" ماعدا الاشتراكية البريطانية الرجعية ومن تلاميذها الرفيق سلامة موسى الذي عاش في أجوائها سنوات طويلة. ولذا لا نتفق مع الرفيق سلامة موسى فيما يخص وجود اشتراكية وطنية مصرية. طموحنا في الانتساب إلى الأهمية الثالثة له علاقة مباشرة برغبتنا في التضامن مع الرفاق في جميع أنحاء العالم. أن أية محاولة "للاعتدال" في نظرية وتطبيق الاشتراكية إنما تفضي إلى خيانة مبادئها والانحدار نحو مواقع الرجعية. أن الاختيار الشيوعي للحزب ليس ابتعاداً عن مبادئ الاشتراكية. بالعكس فالشيوعية ومثلها العليا التي قامت عليها الجمهورية السوفيتية هي المنار الذي يهدي الطبقة العاملة إلى وعي قواها. أنها أسمى مظهر للاشتراكية في النظرية والتطبيق. بهذا المعنى رد عنان على سلامة موسى^(٢).

(١) أرشيف التاريخ المعاصر ملف ٤٩٥، إضبارة ٨٥، وثيقة ٢، ص ٣٤.

(٢) رفعت السعيد، ص ٢٢٩ - ٢٣٠.

وجاءت لهجة فؤاد الشمالي أكثر حدة، حيث قال ما معناه: بودنا أن نقول لزعماء الاشتراكية المصرية أنه ينبغي لهم أن يوفرُوا للعمال إمكانية ممارسة شؤونهم بأنفسهم. الاشتراكية تنطلق من البيئة العمالية وهي مدعوة لخدمة العمال. أنها غير مخصصة للتجار وملاك الأراضي والمحامين^(١).

لم يعد ثمة مجال للنكوص عن السير نحو الانقسام النهائي دون رجعة. وفي نهاية أكتوبر ١٩٢٢ سافر عضو قيادة الحزب الاشتراكي المصري حسني العرابي إلى موسكو للمشاركة في أعمال المؤتمر الرابع للأمية الشيوعية التي أصر أعضاء كتلة الإسكندرية على الانتماء إليها.

وجاء في تقرير لجنة الطعون الذي قدم إلى المؤتمر في ١٧ نوفمبر ١٩٢٢ أن الرفاق المصريين "ارسلوا مندوباً واحداً، وقد سمح له أن يشارك في المؤتمر "بصوت استشاري"^(٢) وفي ذات اليوم أفاد رئيس الجلسة البلشفي البلغاري ف. كاربوف أنه ستعقد في مساء ١٧ نوفمبر جلسة "اللجنة المصرية" برئاسة الشيوعي الياباني سان كاتاياما لبحث مسألة قبول الحزب الاشتراكي المصري في صفوف الكومنترن^(٣).

وفي سياق جلسة المؤتمر يوم ٢٣ نوفمبر ١٩٢٢، ولدى مناقشة "المسألة الشرقية" أعطيت الكلمة إلى "سكرتير الحزب الشيوعي المصري ممثل العمال المصريين في مؤتمر الأمية النقابية" حسني العرابي. ويمكن اعتبار خطابه عرضاً لوجهة نظر كتلة الإسكندرية في الحزب الاشتراكي المصري. حول الوضع في مصر.

(١) المصدر ذاته، ص ٢٣٨.

(٢) نشرة رقم ١٣ تاريخ ٢١ نوفمبر ١٩٢٢ المؤتمر الرابع للأمية الشيوعية، موسكو ١٩٢٢، ص ٥.

(٣) المصدر ذاته، ص ٢٧.

حسني العرابي تكلم بالعربية. ترجمت له شارلوت روزنتال التي كانت آنذاك طالبة في الجامعة الشيوعية لكادحي الشرق^(١)، وكان خطابه بليغاً: نحن في مصر ننتظر ذلك اليوم القريب عندما ترفرف الراية الحمراء فوق الأهرامات لتحياي الراية الحمراء فوق الكرملين^(٢). لقد نضجت مصر، كما قال، لاستيعاب أفكار الاشتراكية. وخير دليل على ذلك نمو صفوف الحزب الذي يمثله، والذي يقدر عدد أعضائه بألف عضو. وفيما بعد - يؤكد حسني العرابي - نأمل أن يزداد العدد بأصفار قدر الأصفار المخصصة بتعبير الرفيق لينين إلى الأوراق النقدية الجديدة. وسيضاف هذا العدد إلى أعضاء الاتحاد العام للنقابات في مصر، وهو يضم في عام ١٩٢٢، حسب تقديراته، ٢٧٥٠ عاملاً. ويرى حزبه أن أهم اتجاه في نشاطه ينبغي أن يكون ليس فقط إنهاء المواجهة مع بريطانيا، بل والكفاح القاسي ضد البرجوازية الوطنية التي يمثلها حزب الوفد. وأعلن حسني العرابي أن الحركة الوفدية تحولت نهائياً إلى قوة محافظة وضعت نصب عينها مهمة حماية الدستور الجديد للبلاد والمعاهدة بين مصر وبريطانيا.

الاشتراكيون المصريون الراغبون في الانتساب إلى الكومنترن قدموا المؤتمر هذه المنظمة صورة زاهية بالطبع بالنسبة لإمكاناتهم الفعلية للوضع في بلادهم. فقد قال مندوبهم أن

(١) سافرت إلى موسكو في مارس ١٩٢٢، أرشيف التاريخ المعاصر، ملف ٤٩٥، إضبارة ٨٥، وثيقة ١٢، ص ٤.

(٢) هنا وفيما بعد نستشهد بكلمة حسني عرابي نقلاً عن، نشرة رقم ٢٠، تاريخ ٢٩ نوفمبر ١٩٢٢. المؤتمر الرابع للأمية الشيوعية. موسكو، ١٩٢٢، ص ٥ - ٧.

نشير إلى أن الترجمة الفرنسية لخطاب حسني العرابي عرضت هذه الفكرة بصياغة أخرى: "... عندما ترفرف الراية الحمراء فوق الأهرام كما ترفرف الآن فوق الكرملين" ..

الصراع بين زملائه من جهة والوفديين من جهة أخرى سيكون قاسياً. لكنه تابع يقول: نحن لا نخشاه لعلنا بأن قوة ونفوذ الحزب الاشتراكي المصري في ازدياد يوماً بعد يوم. حالياً - يقول حسني العرابي - يمارس الرفاق المصريون بالقول والفعل نضالاً نشيطاً من أجل فضح البرجوازية الوطنية ومن أجل نشر الأيديولوجية الماركسية اللينينية في صفوف الطبقة العاملة. ويضيف أنهم مهتمون أيضاً بالجماهير الفلاحية المضطهدة، الأمر الذي يتطلب صياغة البرنامج الزراعي للحزب في القريب العاجل.

كان هذا الأرسطراطي بالأمس تلميذاً مجتهداً اليوم. لقد تكلم مع جمهور المستمعين إليه بأسلوب مفهوم مستفيداً مما تعود عليه المندوبون من لحظات الصمت التي يستخدمونها هم أيضاً في تصوير الأوهام على أنها واقع معاش. المهمة التي وضعها نصب عينية تتطلب طريقة معينة للسلوك والكلام. كان عليه أن يحقق القبول في عضوية الكومنترن، (وتلك مسألة باتت محلولة في الحقيقة) بل ويخلق انطباعاً طيباً في نفوس قادة المنظمة. ولذلك بالذات تناول بصورة احادية الجانب واقعاً لا جدال فيه وهو طبيعة مناورات حزب الوفد أثناء انتفاضة ١٩١٩ الوطنية العامة حيث أيد زعماء الحزب صراحة تحجيم عملية تفعيل التصدي للمستعمرين الأجانب.

ومع ذلك لزم حسني العرابي الصمت بخصوص أمر آخر: لو أن القيادة الوفدية آنذاك طبقت تكتيكاً آخر هل كان ذلك التكتيك سيغير الموقف البريطاني من مسألة استقلال مصر؟ طبعاً أن هذا الاستقلال كان سيبقى متعزداً بدون الأحداث الثورية لعام ١٩١٩. إلا أنه كان سيبقى متعزداً بنفس القدر لولا المساومات والتنازلات التي أقدم عليها الوفد. والأكثر من ذلك أن حسني العرابي لا بد أن يفهم بأنه ألقى خطابه في فترة تواجه بلاده فيها ظروفًا في منتهى الخطورة.

فلم يمض وقت طويل على صدور بلاغ الحكومة البريطانية (فبراير ١٩٢٢) حول

الاعتراف باستقلال الدولة المصرية. ولم يكن دستور البلاد قد أقر بعد، ولم تشكل هيئات السلطة الوطنية. فإن أبسط ذريعة كان بوسع بريطانيا أن تتحجج بها للتخلي عن الالتزامات التي أخذتها على عاتقها تجاه المحمية السابقة. معارضة السيادة المصرية كانوا في لندن أقوياء وذوي نفوذ كبير. أما في مصر فإن أفعال أولئك المعارضين كانت ستحظى بالتفهم لدى قوى لها وزنها، ومن بينها البلاط الملكي الساعي إلى عدم السماح للوفدين بالوصول إلى قمة السلطة التنفيذية. وعندما أعلن حسني العرابي وزملاؤه عن استعدادهم للانقلاب الاشتراكي وشروعهم بالتحضير له سددوا ضربة إلى أنصار السيادة المصرية الفعلين، وهي سيادة كانت منقوصة بحكم نفعية الداعين إليها. لقد دعموا في واقع الحال أولئك الذين حاكوا الدسائس ضد وطنهم داخل البلاد وخارجها. وعندما أقسموا على حبهم له إنما خانوه في واقع الأمر رغم قساوة الاعتراف بهذه الحقيقة.

ومع ذلك بدأ الحزب الصغير في أنظار جمهور مندوبي المؤتمر قوة طبقية كبيرة مستعدة اليوم لتنحية الذين يمثلون، برأيها، الرجعية الاجتماعية. علماً بأن التلاعب بالحقائق يكاد يكون واضحاً للعيان. النقابات العمالية المنضوية تحت راية الاتحاد العام للنقابات في مصر كانت بالطبع إنجازاً هائلاً للاشتراكيين من جماعة الإسكندرية. فلم تكن لدى شيوعي الشرق في عشرينات القرن العشرين وبعدها إنجازات بهذا الحجم. إلا أن العمال المنضمين إلى صفوف تلك النقابات كانوا قطرة في بحر الملايين من سكان مصر، في حين أن أنصار حسني العرابي، كما اعترف بنفسه، لم يشرعوا بعد بوضع برنامجهم الخاص بالمسألة الزراعية. ثم ما مدى إمكان إعجاب عمال النقابات بفكرة الانقلاب الاشتراكي؟ وما هو المحتوى الذي يمكنهم أن يضمّنوه في ذلك البرنامج؟ هذه الأسئلة ظلت بالطبع دون جواب. وما كان أحد ينوي أن يطرحها على حسني العرابي. قيادة الكومنترن مهمة بزيادة عدد أنصارها.

إلا أن ثمة جانباً آخر للمشكلة. كتلة الحزب الاشتراكي في الإسكندرية كانت لا تزال ضعيفة، ولذا سعى حتى في نوفمبر ١٩٢٢ إلى إبقاء القيادة في الحزب وفي الاتحاد العام للنقابات بيد السياسيين المعروفين على الساحة السياسية في البلاد أو على الأقل في الأوساط الليبرالية من المجتمع. وكان ذلك نهجاً رشيداً مكّن الحزب من احتلال موقعه في المؤسسة السياسية دون متاعب تذكر. فالقطيعة مع سلامة موسى وعلي العناني أو يوسف روزنتال من شأنها أن تضطر الحزب إلى البحث عن وسائل أخرى أكثر صعوبة بالطبع لإضفاء الشرعية على وجوده في المجتمع. زد على ذلك أن الحرمان من قيادة الحزب ذات الشأن الاجتماعي الكبير يكاد يعني في ظروف مصر خلال العشرينات الانتقال كلياً إلى أشكال العمل السياسي السري.

كان لابد لاشتراكي الإسكندرية والمتحدث بالنيابة عنهم حسني العرابي أن يدركوا حجم ثمن القطيعة مع مؤسسي الحركة الاشتراكية المصرية. هل كانوا يعلقون آمالاً بهذا الخصوص على الكومنترن؟ الجواب على هذا السؤال لابد أن يكون بالإيجاب. وإلا فإن تركيز المندوب المصري في المؤتمر الرابع للكومنترن على الجانب الاجتماعي من نشاطهم والسلبية المتناهية تجاه المشاكل الوطنية في البلاد ورغبة المندوب في إثبات أن زملاءه مستعدون لإقامة دكتاتورية البروليتاريا بوصفها الحل الوحيد في كل الظروف للمشاكل الوطنية والاجتماعية تبقى أموراً لا تفسير لها من حيث المنطق. فالاعتراف من جانب الكومنترن يمكن، كما خيل لحسني العرابي، أن يعوض عن قلة عدد الشيوعيين على النطاق الوطني. فهم عندما يفقدون الاعتراف داخل البلد يكتسبون اعترافاً دولياً. وبالطبع كان هذا الاعتراف سيبقى محدوداً في إطار روسيا والجمهوريات السوفيتية الأخرى والشيوعيين المناهضين للمعسكر الاستعماري. ولكن ربما كان ضيق المجال الجغرافي الذي انتصرت فيه البروليتاريا مسألة وقتية لا أكثر؟ وإذا بات انتصارها عالمياً

بالفعل يحل اليوم الذي يتم فيه الاعتراف بهم في بلدهم.

على فكرة، يبدو أن ذلك لا يشغل بال حسني العرابي ولا الكومنترن. فالعراقي عندما وصل إلى موسكو أعد هناك رؤوس أقلام خطابه على المؤتمر الرابع للكونمترن. وكانت تلك المسودة أكثر بلاغة من الكلمة التي ألقاها. كان ينوي في المقام الأول أن يقول لندوبي المؤتمر أن لا يخشوا قوة الرأسمالية ذات الأصول الأجنبية، ذلك لأنه حالما ينتهي نير الاستعمار سيقضي العمال المصريون على الرأسمالية هناك بأفضل صورة. إلا أن الأهم من ذلك مشهد آخر في المسودة ذاتها. كان المندوب المصري ينوي أن يقول صراحة ما معناه: رفاقنا الروس حسناً يفعلون لو أنهم اعترفوا بأن الساعة قريبة حيث الحركة المصرية تغدو سيفاً بيد روسيا السوفيتية في كفاحها من أجل الثورة العالمية^(١). كانت تلك متاجرة بلا حياء بمصالح البلد، والعرابي لا بد وأن يفهم ذلك. إلا أنه كان مهتماً في المقام الأول بتحقيق طموحاته.

ومن الطبيعي أن تنصت موسكو إلى هذه الكلمات، ولا تطلب سوى التفوه بها في صيغة مجازية مقبولة وسهلة على الهضم. وفي الحقيقة قال سان كاتاياما الشيء ذاته عندما قدم في ٢٨ نوفمبر ١٩٢٢ تقرير "اللجنة المصرية" نيابة عن أعضائها حول العمل الذي أنجزوه^(٢).

وجاء في التقرير أن اللجنة اجتمعت عدة مرات لبحث مسألة انتساب الحزب الاشتراكي المصري لعضوية الأمانة الشيوعية. وخلال جلساتها استمعت إلى تقرير ممثل

(١) أرشيف التاريخ المعاصر، ملف ٤٩٥، إضبارة ٨٥، وثيقة ١٢، ص ٥٤ - ٥٥.

(٢) هنا وفيما بعد كلمة سان كاتاياما والقرار المقترح من قبل اللجنة نقلاً عن: نشرة رقم ٢٧، تاريخ ٦

ديسمبر ١٩٢٢. المؤتمر الرابع للأمانة الشيوعية. موسكو، ١٩٢٢، ص ٨.

الحزب أمام المؤتمر عن نشاطاته. وأجرى أعضاء اللجنة تحليلاً شاملاً للتقرير. قال سان كاتاياما فيما بعد أن اللجنة انطلقت في عملها من أهمية مصر بالنسبة لتطور العملية الثورية في الشرق الأوسط وفي القارة الآسيوية عموماً. ورأت اللجنة أن من الضروري أن تأخذ بالاعتبار أيضاً مستوى تطور الحركة التحررية المناهضة للإنجليز في مصر والتي يلعب دوراً متزايداً في صفوفها "الشيوعيون والعمال الثوريون المناضلون في سبيل استقلال بلادهم استقلالاً تاماً وليس شكلياً منقوصاً".

وأضاف سان كاتاياما أن الحزب الاشتراكي المصري، برأي اللجنة، ينبغي أن يحظى "بدعم الكومنترن" التي يجب "أن تمد يد المساعدة إلى الحركة الشيوعية المصرية وتتعترف بالحزب الاشتراكي المصري" لاسيما "أن الحزب الشيوعي المصري - على حد تعبيره - لا يزال حديث العهد ولا يمتلك خبرة العمل في مختلف ميادين نشاطه... مع أن الرفاق المصريين يسرون على نهج الكومنترن". كان بوسع الحزب الاشتراكي المصري أن يغدو عضواً في الأهمية الشيوعية بشرط أن يتقبل وينفذ عدة متطلبات أعدها أعضاء اللجنة.

أكدت "اللجنة المصرية" لمؤتمر الكومنترن الرابع في القرار الذي اقترحته على المؤتمر وتبناه الأخير في نفس اليوم، أن تقرير ممثل الحزب الاشتراكي المصري الذي نظرت فيه "يبين بالقدر الكافي أن الحزب المذكور يمثل حركة ثورية كبيرة نسبياً تتوافق بالتمام والكمال مع التحرك العام للأهمية الشيوعية". ولكنها أشارت في تقريرها إلى أن "ضم الحزب الاشتراكي المصري إلى الكومنترن ينبغي أن يؤجل إلى حين:

أ - فصل الحزب بعض العناصر غير المرغوب فيها من عضويته.

ب - عقد مؤتمر تجري فيه محاولة لتوحيد الحزب الاشتراكي المصري مع جميع العناصر الشيوعية المتواجدة حالياً في مصر خارج صفوف الحزب الاشتراكي المصري لكنها تتقبل الشروط الـ ٢١ للأهمية الشيوعية.

ت - تغيير اسم الحزب إلى "الحزب الشيوعي المصري". واقترحت اللجنة على الاشتراكيين المصريين عقد مؤتمرهم لبحث وقبول هذه الشروط على أن يلتئم المؤتمر قبل ١٥ أغسطس ١٩٢٣. وفي منتصف ديسمبر ١٩٢٢ عاد حسني العرابي إلى مصر. وبالطبع أطلعوه أثناء مكوثه في موسكو على الموضوعات التي أعدها في يونيو المستشرق السوفيتي المعروف آنذاك "قسطنطين ترويانوفسكي"، الباحث في القسم الشرقي لدى اللجنة التنفيذية للكونمترن بشأن برنامج وتكتيك الحزب الشيوعي المصري.

فقد أكدت هذه الوثيقة على "نشوء قاعدة في مصر للعمل الشيوعي ليس فقط في المشرق العربي، بل وفي الشرق الأوسط كله... على امتداد الساحل الجنوبي والجنوب الشرقي من البحر الأبيض المتوسط"^(١). ويرى ترويانوفسكي أن هذا الأمر مبدئي لأن مصر مهمة للغاية "بالنسبة للرأسمالية البريطانية، بحكم موقع هذا البلد على مفترق الطرق البحرية الرئيسية التي تربط أوروبا بأفريقيا وآسيا، وعموماً القسم الغربي من الإمبراطورية البريطانية (المركز) مع قسمها الشرقي (الهند)". ويضيف: "ولفصل دماغ الإمبراطورية عن عمودها الفقري ينبغي قطع عصب الرقبة هذا، وهو مصر بالنسبة للإمبريالية البريطانية". والمقصود قناة السويس التي تتولى دور "بؤرة" السياسة الدولية. "كان الاستيلاء على القناة يعني من الناحيتين العسكرية والسياسية إخضاع واحتلال البلد كله، كذلك إعادة القناة إلى أصحابها الطبيعيين تعني التحرر السياسي والاستقلال لمصر". زد على ذلك أن تغيير مكانة هذا الشريان المائي (مؤلف الموضوعات يتحدث عن ضرورة رفع الاشتراكيين شعار تأميم القناة) من شأنه أن يشطر الإمبراطورية البريطانية شطرين بالإضافة إلى تفكيك

(١) هنا وفيما بعد، أرشيف التاريخ المعاصر، ملف ٤٩٥، إضبارة ٨٥، وثيقة ٦، ص ٣٥ - ٤٨.

الإمبراطورية". إلا أن النهج الجيوسياسي السوفيتي الذي أثقله قسطنطين ترويانوفسكي بالشعارات كان يميل إلى مواصلة التطور.

وقد أكد كاتب الموضوعات أنه "طالما تبقى السودان في أيدي الرأسماليين الإنجليز تبقى الثورة المصرية عرضة للخطر" لأن أراضيها "حلقة وصل بين كلا شطري الإمبراطورية البريطانية". وبحكم ذلك حتى قطع قناة السويس عنها يضعف ولا يلغي الصلة المباشرة الحية بين "الدماغ" و"العمود الفقري"، بين الدولة الاستعمارية ومستعمراتها. يقول ترويانوفسكي أن السودان هي تكملة وإضافة لمصر، وهي يجب أن تكون جزءاً من الدولة المصرية. كما أن السودان يجب أن تعود لمصر لأن شغيلة السودان بصفتهم الطبقة الكبيرة الأضعف وغير المستيقظة ينبغي أن تجد سنداً متيناً أميناً عند الطبقات الكادحة في مصر". الموضوعات عرضت على الرفاق المصريين الجدد، وفيها بالطبع دعاية لتجربة الفيدرالية السوفيتية (السودان يجب أن تكون جزءاً فيدرالياً من الدولة المصرية المستقلة حقاً، لا أقل ولا أكثر، وفي هذه الدولة يهيمن على الوضع شغيلة مصر والسودان). إلا أن هذه الفيدرالية كشفت عن رباؤها وزيفها عندما كتب واضع الموضوعات يقول أن السودان ضرورية لمصر لأن "فيها فحماً وهي غير مأهولة". وينبغي تنظيم الهجرة إليها من مصر "المكتظة بالسكان".

ولا داعي للقول إن وجهتي نظر حسني العرابي وقسطنطين ترويانوفسكي اللتين ظهرتتا إلى الوجود بصرف النظر عن بعضهما البعض إنما هما متطابقتان، بل وتكملان إحداهما الأخرى وتعتمدان على بعضهما. كانت هناك متاجرة أو مزايادة. وعدوا المندوب المصري بتسليمه السودان، في مقابل الحصول على التأييد التام من قبل أنصاره في مصر لنهجهم في السياسة الخارجية. وبدوره كان حسني العرابي مستعداً للاعتراف بشرعية دعاوى موسكو في وطنه وفي المجال الجيوسياسي المحيط به في مقابل الاعتراف به من قبل

منظمة الكومنترن بصفة زعيم لفرعها في مصر.

الشروط التي طرحها الكومنترن لقبول الحزب الاشتراكي المصري ما كانت لتحظى بموافقة الذين باتوا يسمون أنفسهم "بالشيوعيين" في صفوف الحزب وينعتون فرع الإسكندرية "الحزب الشيوعي المصري". هذا أمر دلل عليه خطاب حسني العرابي في المؤتمر الرابع للكومنترن وكذلك نشاط رفاقه في مصر قبل الخطاب المذكور. والأكثر من ذلك أن الدليل جاء من حصيلة المناقشة التمهيدية لمطالب الكومنترن في الاجتماع الذي عقدته القيادة الحزبية في أعقاب عودة حسني العرابي. فالأمر الرئيس ليس هذا.

قيادة الكومنترن طالبت بفصل "بعض العناصر غير المرغوب فيها" من صفوف الحزب الاشتراكي المصري. والأرجح أن هذا المطلب ظهر أثناء مكوث العرابي في موسكو. على أية حال، كانت قيادة الحزب الاشتراكي، بمن فيها أفيجدور، تتصور في بادئ الأمر أن وفد الحزب الذي سيصل إلى المؤتمر الرابع للكومنترن يضم شخصين وبرتاسة يوسف روزنتال. وفي اللحظات الأخيرة وبسبب رفض السلطات منحه جواز سفر جرى استبدال النقابي المصري الشهير بحسني العرابي مع إدراج شارلوت روزنتال ضمن الوفد^(١).

وتركت "العناصر غير المرغوب فيها" صفوف الحزب. والسؤال الذي يطرح نفسه: من هم يا ترى؟ وما هي الأسباب الحقيقية التي جعلتهم يتركون الحزب عشية تحويله إلى تنظيم شيوعي؟

المؤتمر الأول للحزب الاشتراكي المصري فصل من عضوية الحزب كلاً من سلامة موسى وعلي العناني لمشاركتهما في حركة الردة وكتاباتهما في الصحافة ضد الحزب. وبعد عودة حسني العرابي من موسكو فصل فؤاد الشمالي من اللجنة المركزية ثم من الحزب

(١) المصدر ذاته، ص ٢٩.

بسبب ميله إلى "الدسائس". والمقصود أنه حاول أن يشكل في الجالية السورية اللبنانية بالإسكندرية حزب العمال اللبنانيين^(١). وقد دفعته إلى ذلك عملية "تمصير" الحزب الاشتراكي. وبعد فترة نفته السلطات المصرية إلى بيروت. وفي الوقت ذاته أدرج ضمن اللجنة المركزية حسن شعبان والشيخ صفوان أبو الفتح^(٢). وكان عدد الأجانب في صفوفه يتقلص بإطراد، فيما أخذ يتزايد عدد المتقدمين للقيادة من تنظيمات المحافظات. وساعد العرابي نفسه على تشجيع تطورهم السياسي، فأوجد حلقة من المناصرين تلتف حوله. إلا أنه ظل في الوقت ذاته يسعى بإصرار إلى جعل اللجنة التنفيذية للأمية الشيوعية تستقدم "على جناح السرعة" مجموعة من الدارسين المصريين إلى الجامعة الشيوعية لكادحي الشرق في موسكو^(٣). وكان ذلك أيضاً من السبل المؤدية إلى تعزيز مواقعه.

وترك الحزب عبدالله عنان وقد بات حتى ذلك الحين سكتيراً لفرع الحزب الاشتراكي في القاهرة بدعم من أنصاره الإسكندرانيين. كانت آراؤه الفكرية حين رجوع حسني العرابي من موسكو، وكذلك موقعه في تركيبة مراتبة الحزب الجديدة، تشير على ما يبدو إلى إمكانية انتسابه إلى التنظيم الشيوعي. إلا أنه نشر في أواخر ديسمبر ١٩٢٢ تصريحاً صحافياً أعلن فيه أنه لم يشارك في اجتماع قادة الحزب في الإسكندرية لمناقشة الشروط التي طرحتها الكومنترن. ولعل أهم ما في تصريحه المفردات التي استخدمها وشطبت بالكامل ما تكلم عنه قبل ثلاثة أشهر في اعتراضاته على سلامة موسى. كانت العودة إلى الخطاب "الإصلاحي" القديم ذات أهمية مبدئية: فرع الإسكندرية يستثمر تركيبة الحزب

(١) المصدر ذاته، وثيقة ١١، ص ٢٨ - ٢٩.

(٢) المصدر ذاته، ص ١٤ - ١٥.

(٣) المصدر ذاته، وثيقة ١٢، ص ٧٦.

الاشتراكي المصري في سعيه لنشر أكثر الشعارات تطرفاً في البلاد وتشويه سمعة المثل العليا للاشتراكية الحقيقية^(١).

ولقد تعرض الحزب الاشتراكي المصري إلى تبدلات جذرية. اعترف بذلك أفيجدور حينما أبلغ اللجنة التنفيذية للأمية الشيوعية عن عدم رغبة جماعة من أبناء الطوائف غير العربية بالبقاء في الحزب (ومنهم جماعة القاهرة الأوروبية المكونة من ١٨ - ٢٠ شخصاً)، وقد أعربوا عن استيائهم الشديد من تصرفات حسني العرابي. وحل محلهم أبناء مصر الذين قال عنهم المسؤول عن الفرع المصري للأمية الشيوعية: "أن العنصر الشيوعي الواعي بين الأعضاء الأجانب في الحزب (بنسبة ٩٧٪ من أعضائه) ضئيل للغاية". وكان أفيجدور يعتقد أن عدد أعضاء الحزب الاشتراكي المصري لا يتجاوز ٩٠٠ شخص، وقال: "أن ٥٠٪ أو أكثر" من أعضاء الحزب يترددون على المساجد، بمن فيهم أعضاء في اللجنة المركزية. ويجري السكوت على ذلك "لأن ٩٠٪ من أعضاء الحزب من العمال لم يمضوا مع سلامة موسى"^(٢). وتلك مسألة جوهرية لأن سلامة موسى ناشد في رسالته إلى جميع فروع الحزب الاشتراكي في النصف الأول من سبتمبر ١٩٢٢ أعضاء الحزب مستخدماً التعابير القرآنية أن يعودوا إلى السراط المستقيم ويلتفوا حوله^(٣).

وبعد أيام دقق أفيجدور المعطيات الأولية، وكتب أن العدد الإجمالي لأعضاء الحزب الاشتراكي المصري ٩٩٣، منهم ٦٥٢ عاملاً وفلاحاً. ١٤٣ من الأعضاء كانوا

(١) رفعت السعيد، ص ٢٣٧ - ٢٣٨.

(٢) رسالة أفيجدور من مصر إلى ج. سافاروف في ٩ نوفمبر ١٩٢٢، أرشيف التاريخ المعاصر. المصدر ذاته، ص ٨٠ - ٨٢.

(٣) المصدر ذاته، وثيقة ١٤، ص ٢٠.

موظفين في المكاتب وفي مختلف دوائر الدولة. وبينهم ٢٨ معلماً و١٣ محامياً و٢١ طالباً و١٢٣ من ممثلي مختلف المهن، ومعظمهم من صغار الباعة^(١). كلهم عرب من أبناء مصر. كان معظم من في صفوف الحزب في الحقيقة أصحاب أكثر أشكال القومية تطرفاً وكذلك كراهية الغير التي تكاد تكون متطرفة بحكم وضعهم الاجتماعي وتربيتهم وظروف عملهم. وكان الدافع إلى ذلك هو هيمنة سلطة الأجانب ونهج الوفدين الذي بدا لهم انتهازياً. وقد قرأوا عقيدة الشيوعية على أنها الحق على الأجنبي ورأوا في ممارستها فرصة لبلوغ ذروة السلطة.

إلا أن الفضيحة الأشد صدى ودويًا هي بالطبع فصل يوسف روزنتال من الحزب. ففي النصف الثاني من ديسمبر ١٩٢٢ بعث له حسني العرابي رسالة استفزازية في الواقع جاء فيها: نظراً لطلب اللجنة التنفيذية للكونمترن فصل تاجر المجوهرات يوسف روزنتال من الحزب أحيطك بأن اللجنة التنفيذية للأمية الشيوعية لا تعتبرك شيوعياً حقيقياً. أنت تستخدم الحزب في مصلحتك. والحزب ليس بحاجة إليك.

وبعد النظر في طلب الكومنترن قررت اللجنة المركزية فصلك نهائياً من الحزب. وجاء في الرسالة أيضاً: انطلاقاً من قرار اللجنة المركزية للحزب الاشتراكي المصري قررت قيادة الاتحاد العام لل نقابات في مصر شطب اسمك من قائمة أعضائه^(٢). لقد أتهم يوسف روزنتال "بالفوضوية"^(٣). وأخفقت كل محاولاته لإحقاق الحق ومناشداته العديدة إلى اللجنة التنفيذية للكونمترن. فاللجنة تعتر كثيراً بحسني العرابي، ولذا رفضت أي تدخل في

(١) رسالة أفيجدور من القاهرة في ١٦ نوفمبر ١٩٢٢، المصدر ذاته، ص ٨٧.

(٢) المصدر ذاته، ص ٤.

(٣) رفعت السعيد، ص ٢٣٧.

الخلاف بينه وبين روزنتال مع أنها اعترفت باحتمال تشويه المعلومات بصدد الموقف الفعلي للكونغرس في هذه المسألة^(١). علماً بأن موقف أفيجدور، شاهد العيان على عواقب الفضيحة، تلخص في محاولته العثور على حل وسط ما، فاقترح "الاكتفاء بتنحية روزنتال من العمل في اللجنة المركزية دون طرده نهائياً من الحزب"^(٢).

وعين أحمد المدني أميناً جديداً للصندوق، وهو من أبناء القاهرة وأحد مؤسسي جماعة سلامة موسى وعلي العناني. وقد تولى قبل ذلك مهمة سكرتير الحزب الاشتراكي المصري^(٣). المدني من أنصار روزنتال، وقد واجه وضعاً يتعين عليه أن يختار فيه بين الولاء لصديقه أو خيانتته. بعد أيام أعلن استقالته، بل وانسحابه من الحزب مشدداً أن هذا الشكل من الشيوعية يفوق تحمل مصر التي لن تطبق مبادئه^(٤). وقال المدني في رسالته إلى موسكو في ديسمبر ١٩٢٢ (انطلاقاً من تصريحات حسني العرابي) أن قرار اللجنة التنفيذية للكونغرس قاسٍ ويخلق في الحزب جوّاً من الافتراءات الكبرى حينما تصدر عن قيادته اتهامات ضد روزنتال بأنه برجوازي المنحدر. ثم يتساءل بسذاجة: هل يجوز اعتبار الشخص برجوازيّاً إذا كان يضحى بكل شيء في سبيل المبادئ العظمى؟^(٥) وكان المهم بالطبع ليس هذا السؤال، بل توصيف الموقف الذي نشأ في الحزب بسبب طبيعة المسائل التي عكف قادته على حلها باستخدام القرار الذي دبروه وصدر عن اللجنة التنفيذية

(١) أرشيف التاريخ المعاصر، ملف ٢٩٥، إضبارة ٨٥، وثيقة ١٨، ص ص ١-٢، ص ٥-٧.

(٢) رسالة أفيجدور إلى اللجنة التنفيذية للكونغرس في ٢ مارس ١٩٢٣، المصدر ذاته، ص ١-٢.

(٣) نقلاً عن ف. كوشيليف، ص ٢٣٠.

(٤) المصدر ذاته.

(٥) رسالة أحمد المدني إلى إ. سافاروف من الإسكندرية في ٢٢ ديسمبر ١٩٢٢، أرشيف التاريخ المعاصر،

ملف ٤٩٥، إضبارة ٨٥، وثيقة ١٤، ص ٥-٧.

للكومنترن من أجل بلوغ أغراضهم.

موسكو تعمدت في عدم ملاحظة التبدلات الجارية داخل الحزب. وقد تجاهلت ، على سبيل المثال ، رأي الشيوعي الإيطالي أ. كبا (آرزيل) الذي فتش نشاط الحزب الاشتراكي المصري. حين زار مصر ربيع عام ١٩٢٣. فقد أفاد في تقريره بأن "حياة العديد من فروع الحزب (المكونة أساساً من الأوروبيين - كوستش) مكبوتة ومشلولة". وبالتالي ظهرت "دكتاتورية القادة الحاليين على الحزب وهيمنة فرع الإسكندرية على الفروع الباقية وتناحر خطير بين فرع الإسكندرية وباقي الحزب". أما الاتحاد العام للنقابات في مصر فهو ، كما أفاد الشيوعي الإيطالي ، تنظيم محلي في منتهى الضعف والخور يضم فقط بعض نقابات الإسكندرية ومنها عمال معامل الجعة وعمال إنارة الفوانيس". ويرى كبا أن حسني العرابي يمانع في تصحيح الوضع القائم "خشية أن يتزعزع موقعه الشخصي إذا إنتسب إلى الحزب أشخاص لا يميلون إليه". ومن ناحية أخرى تعزز موقف حسني العرابي لأن "اللجنة المركزية التي يترأسها" تنشر في المجتمع المصري كراهية الآخرين"^(١). ورد كبا من باريس في بداية ١٩٢٣ على اتهامات حسني العرابي له أمام اللجنة التنفيذية للكومنترن بأنه "شوفياني أوروبي" قائلاً: "لا يمكننا السكوت على ظهور حزب قومي على واجهته رقعة الحزب الشيوعي ويمكن أن يغدو أداة للسيطرة بيد حسني وحاشيته. فهو يستطيع دوماً أن يستخدم هذه الأداة لاستفزاز وشانتاج الكومنترن كل مرة عندما يحتاج إلى شيء منها ولا يستلمه"^(٢).

يبدو أن حسني العرابي كسب بالفعل ود قيادة الكومنترن. فقد تمكن من إقناعها بأنه

(١) المصدر ذاته ، وثيقة ٢١ ، ص ٤٢.

(٢) المصدر ذاته ، ص ٥٨ - ٥٩.

هو ذلك القائد القادر على حل المهمة التي تحدث عنها صراحة قرار "اللجنة المصرية" باستخدام مصر لحفز الحركة الثورية في الشرق الأوسط ، بل وفي آسيا كلها ربما. لقد حصلت فتنة عادية في صفوف الحزب الاشتراكي المصري بحجة تحويله إلى حزب شيوعي عندما شرع الزعيم المتمتع بثقة القيادة العليا في موسكو بتشكيل "فريق" له حين غدا سكرتيراً للحزب الاشتراكي المصري وسكرتيراً للاتحاد العام للنقابات في مصر.

الأيديولوجيا الشيوعية لم تكن علاجاً شافياً لهذه المصيبة المعتادة بالنسبة للبنى الحزبية في البلدان الشرقية. فالحزب الذي أسسه المصريون الموالون للكومنترن انخرط دون متاعب في العملية العامة لنشوء طائفة واسعة من التنظيمات والحركات في العشرينات وما بعدها في البلاد العربية وفي الشرق الأوسط. وبات الحزب الاشتراكي المصري في فترة تحوله إلى جماعة الفعل السياسي المعتمدة على البلشفية واحداً من أول الأمثلة على تشكيل أحزاب غير طبقية ، بل أحزاب إقليمية أدت طموحاتها العقائدية إلى إطفاء جوهرها الداخلي الفعلي. زد على ذلك أن تلك الطموحات كانت مترجرة ومزعزعة تماماً وعرضة لتأثير التبدلات الناجمة بدورها عن تذبذب الملبسات والأوضاع السياسية.

وقد "تمصر" الحزب الاشتراكي بسرعة وباطراد. فقد تولت قيادته إلى الأبد ، كما بدا الأمر آنذاك ، مجموعة متراسة من أبناء مصر ، من محافظاها ، وأزاحت الغرباء الذين لم يعودوا يأملون في الصعود إلى قمة الهرم الحزبي. بديهي أن "تمصير" الحزب الاشتراكي لا يعني بأنه لم يبق في صفوفه أجنبان أو أبناء الطوائف غير العربية الذين استعربوا. فقد احتفظت بعضوية الحزب ، على سبيل المثال ، شارلوت روزنتال. وانتسب إلى الحزب بعد فترة قصيرة زوجها أفيجدور. ومع ذلك فإن عملية "تجذره" في التربة الوطنية وما ترتب عليها من غلق باب النخبة أمام الزعماء الآخرين استبعاد إمكانية انضمام الجماعات الشيوعية التي تنشط بموازاة الحزب. أن إمكانية ظهور أبناء الطوائف المصرية غير العربية في

قيادة الحزب الذي بات يسمى الحزب الشيوعي المصري لم تتوفر لأول مرة إلا بعد عام ١٩٢٤ حيث سددت السلطات ضربة شديدة إلى الحزب. ومع ذلك كان على الحزب الاشتراكي المصري أن ينفذ الشروط الأخرى التي طرحتها قيادة الكومنترن.

اللجنة المركزية للحزب الاشتراكي التي اعتمدت تسمية "الحزب الشيوعي المصري" اتخذت قراراً بعقد مؤتمرها الثاني في ٦ - ٧ يناير ١٩٢٣^(١) مع أن المقصود في الواقع هو "مؤتمر من جميع أعضاء الحزب الاشتراكي المصري"، كما جاء في قرار اللجنة المركزية بهذا الخصوص. وقد اقيم المؤتمر الشيوعي المصري في الموعد بمبنى الحزب على شارع نوبار باشا ١٨ بمدينة الإسكندرية^(٢). ونظر المؤتمر بالأساس في المصادقة على قرار اللجنة المركزية بشأن قبول شروط الكومنترن وكذلك البرنامج الجديد. واضطر مندوبو المؤتمر إلى قطع أعماله بسبب مدهامة السلطات. وصدر بهذا الخصوص قرار يقضي باعتبار جلسة ٦ يناير مرحلة في التحضير للمؤتمر الذي ينبغي أن يعقد بعد عشرين يوماً وتتخذ فيه القرارات النهائية بخصوص كل المسائل.

في ٢٥ يناير ١٩٢٣ استأنف المؤتمر أعماله في مزرعة بضواحي الإسكندرية. وأعرب مندوبوه عن موافقتهم التامة على فكرة الانتساب إلى الكومنترن وقبلوا الشروط التي طرحها مؤتمرها الرابع وأقروا برنامج الحزب الشيوعي المصري وكذلك برنامج الفلاحين الخاص بالمسألة الزراعية. وكان من الصعب تصور انعطاف للأحداث على

(١) راجع بهذا الخصوص، ستون عاماً، ص ٢٢.

ثمة معلومات تفصيلية نسبياً عن المؤتمر الثاني للحزب الشيوعي المصري. راجع:

Der Kongress des K. P. Ägyptens, 1923, N 1, s. 212.

(٢) هنا وفيما بعد راجع: المؤتمر الشيوعي المصري، أرشيف التاريخ المعاصر، ملف ٤٩٥، إضبارة ٨٥،

وثيقة ٢٢، ص ١-٢.

غير هذه الصورة.

هكذا ظهر الحزب الشيوعي في مصر. وأعلن في برنامجه^(١) أنه يناضل من أجل التحرير السياسي والاقتصادي والاجتماعي لوادي النيل ضد كل ما يعيق تقدم الشعبين المصري والسوداني والنمو المطرد للاقتصاد ومن أجل تخليص الشعبين من العبودية والاستعمار. وارتباطاً بذلك أعلن الحزب الشيوعي المصري أن نشاطه العملي يستهدف الربط الوثيق بين الشعبين ليس لاستبعاد الجماهير الكادحة في السودان، بل من أجل منفعة كلا الشعبين. والمقصود هو الاستثمار المشترك للثروات الطبيعية في البلدين وكذلك التعاون بينهما من أجل مكافحة المستبدين الأجانب والمحليين. واقترح الحزب الشيوعي المصري تشكيل جبهة موحدة في مصر من العناصر "الأشد تطرفاً والموثوق بهم" من الحركة الوطنية والذين يطرح الشيوعيون بينهم شعار أهلية قناة السويس. ويرى الحزب أن هذا الشعار مهم لأنه يخص إحدى أهم النقاط الحيوية بالنسبة للاستعمار البريطاني. هذا الجزء من البرنامج يكاد يكون تكراراً تاماً لحجج، بل وحتى أسلوب موضوعات قسطنطين ترويانوفسكي (كما فهمها حسني العرابي على الأقل).

النقاط المتبقية في هذا البرنامج المقتضب جداً، والممل في الحقيقة، باهتة وغير معمقة. أنها مجرد تعداد بسيط للأحكام العامة المقتبسة من المطبوعات الشيوعية ذات الشعبية الواسعة، مع أنها تتضمن بقدر ما خصوصية مصرية. ويدور فيها الكلام عن تأسيس النقابات والتوغل في المنظمات العمالية القائمة والتدخل في تشريعات العمل وتشكيل التعاونيات الإنتاجية والاستهلاكية. هذه الوثيقة تطرح بالطبع مسألة شطب ديون الدولة المصرية وتصفية الامتيازات الرأسمالية التي يتمتع بها الأجانب واستحداث التعليم المجاني

(١) هنا وفيما بعد راجع: برنامج الحزب الشيوعي المصري، المصدر ذاته، ص ٣ - ٥.

العام وتشكيل كتلة عمالية في البرلمان . ويطالب البرنامج بفصل الحكومة عن جميع التوجهات الدينية وتأمين حرية المعتقد والعبادات الدينية ، وكذلك إعلان ضمانات حرية التجمع وحرية الصحافة وحرية الرأي ، وأيضاً إطلاق سراح السجناء السياسيين.

التشوه الذي تعرض له الحزب حرمه من كبار الخطباء والكتاب الموهوبين والمفكرين المشهورين. وفي أفضل الأحوال كررت الوثيقة بصيغة مبتورة أحكام بيان الحزب الاشتراكي المصري الذي كان قد نشر في أغسطس ١٩٢١ ، ولكن بعد تأطيره ببعض الأفكار البلشفية. وبعبارة أخرى يختلف البرنامج الجديد عن برنامج المؤتمر الأول بالمزيد من الاعتدال والإصلاحية وغياب الحماس الثوري الواضح. يكفي أن نشير إلى عدم ذكر دكتاتورية البروليتاريا والثورة الاشتراكية في برنامج الشيوعيين

ويخص ذلك بنفس القدر برنامج الفلاحين^(١). فقد أعلن الحزب فيه أنه سيطالب في سياق تنفيذ النظرية الشيوعية القائلة "الأرض لمن يفلحها" بشطب ديون الفلاحين الذين لا تتجاوز أراضيهم ٣٠ فداناً^(٢). وإعفاء الفلاحين المالكين لأراضٍ تقل مساحتها عن ١٠ فدانات من الضرائب.

ويصر البرنامج على تأسيس اتحادات نقابية للفلاحين الأكثر فقراً ، وكذلك بنوك تعاونية لتحسين أوضاعهم المادية. وتؤكد هذه الوثيقة أن الشيوعيين المصريين يطالبون بتحديد الحد الأعلى للملكية الأرضية على أن لا يتجاوز ١٠٠ فدان ومصادرة فائض الأراضي وتوزيعه على الفلاحين المحرومين منها وتشكيل مجالس الفلاحين الفقراء في الريف المصري. على فكرة ، المقصود في هذه الحالة ليس الوقائع المصرية الفعلية ، بقدر

(١) هنا وفيما بعد راجع : برنامج الفلاحين ، المصدر ذاته ص ٥ - ٦ .

(٢) الفدان يعادل / ٠,٤٢ هكتار.

ما هو تجربة الثورة الروسية التي اضيفت إليها معطيات الإحصاءات المصرية الرسمية، كما وردت في البرنامج. إلا أن الوثيقة لم تتضمن ولا كلمة واحدة عن تحالف العمال والفلاحين في كفاحهم المشترك من أجل التغيير الاجتماعي في البلاد.

ومع ذلك يسمي الحزب نفسه بالشيوعي. فلم يكن بوسعهم أن يتجاهل هذا المطلب المتشدد والإنذاري الذي طرحته الكومنترن. واستخدم المؤتمر الثاني للحزب الشيوعي المصري بطاقات العضوية الإلزامية. وهي عبارة عن هوية بشكل كراسة صغيرة حمراء كتب عليها باللغتين العربية والفرنسية: الحزب الشيوعي المصري. تأسس عام ١٩٢١. المقر الإسكندرية. ولكل هوية رقم. وعلى داخل الغلاف معلومات عن حامل الهوية باللغتين (الاسم الأول والثاني والمواطنة والمهنة وتاريخ الانتساب والتوقيع). والهوية موقعة من قبل السكرتير العام للحزب وأمين الصندوق. الصفحات الداخلية من الهوية مخصصة لتأشير دفع بدلات الاشتراك^(١). إلا أن تغيير اسم الحزب في ظروف مصر آنذاك خلق صعوبات غير قليلة.

اللغة العربية في ذلك العهد ومفرداتها السياسية والاقتصادية والاجتماعية كانت لا تزال في طور الصياغة الجديدة، ولذا استخدم مصطلح "الإباحية" المتعدد المعاني للتعبير عن مفهوم "الشيوعية". فهذا المصطلح على أية حال لا يحتوي على مضمون سلبي جداً بالمقارنة مع رديفه الشيوعي. مفهوم "الإباحي" كان محاولة للاقتباس الغربي المباشر. إلا أن الوسط العربي فهمه بمعنى دعوة أعضاء الحزب الشيوعي المصري إلى نشر كل ما هو مباح ولا أخلاقي في المجتمع المصري المحافظ. وكانت الدعاية المعتادة المناوئة للشيوعية هنا، في

(١) مواصفات هوية العضوية في الحزب الشيوعي المصري، أرشيف التاريخ المعاصر، ملف ٤٩٥، إضبارة ٨٥، وثيقة ٢٢، ص ٣٩ - ٤١.

مصر، وفي أقطار المنطقة العربية عموماً، خلال تلك الحقبة، قد استفادت بنجاح كبير من التعابير والمصطلحات المستخدمة ضد الشيوعية^(١). إلا أن الأمر ليس فقط في الجانب اللغوي من القضية.

فالصراع الداخلي على الزعامة في الحزب الشيوعي المصري الحديث العهد قد خلق حوله فراغاً نشأ على نحو طبيعي. لقد فقد الحزب الأوساط الليبرالية والتنويرية التقليدية، حيث اضطر ممثلوهم إلى ترك الحزب. في حين أن الحزب لم يمتلك بعد قاعدة اجتماعية فعلية. وظل توجه الحزب التام نحو استخدام سبل العمل المشروعة وحدها هو الطاغى على الشيوعيين أيضاً، لأن كسب الوزن السياسي الفعلي في البلاد يتطلب تثبيت موقع الحزب في قائمة التنظيمات النشطة والمعروفة للرأي العام. أما العمل السري فلا يكاد يوفر الظروف اللازمة لهذا الغرض. إلا أن العلنية الشرعية تتطلب الاعتدال الذي بدا صائباً من حيث التكتيك لأن الوضع الخصوصي بمصر في فترة نشوء الحزب ساعد على مزاولته. كانت تلك حقبة فريدة بين الحكم وغيابه. فالبلد كسب الاستقلال واعترفت بسيادته سلطات الدولة الاستعمارية، إلا أن عملية تشكيل البنى السلطوية التنفيذية لم تنته بعد. وفي بداية فبراير ١٩٢٤ فقط تشكلت حكومة سعد زغلول التي بات تسلمها مقاليد السلطة ممكناً بعد فوز الوفديين المحقق في الانتخابات البرلمانية في أبريل ١٩٢٣. إلا أن الشيوعيين كانوا يعللون النفس متوهمين بأن فترة الليبرالية النسبية غير الراسخة والتنازلات الاضطرارية من جانب السلطات ستستمر بلا نهاية، مع أن مداهمة البوليس الانعقاد العلني للمؤتمر الثاني للحزب الشيوعي المصري ساقط الدليل على أن حبل الصبر لدى الدولة ليس طويلاً.

(١) بخصوص نطاق الحركة المعادية للشيوعية راجع، عبدالعظيم رمضان، ص ٥١٧ - ٥١٩.

ومع ذلك ثمة جانب آخر "لإصلاحية" الشيوعيين المصريين. فإن أية بنية سياسية في المجتمع الذي لم تنشأ فيه بعد وحدة المجال الوطني - والحزب الشيوعي لا يمكن أن يغدو استثناءً من القاعدة - تبدو بمثابة الجمع الهش بين هياكل النخبة القائمة والتشكيلات المناهضة لتلك النخبة من حيث المبدأ. وكلا الجانبين قد يتلونان بتلاوين انتماءاتهما الدينية أو الإقليمية أو القومية (في المجتمع المتعدد القوميات). ويتعرض هذا الجمع الهش للتذبذب الذي تسببه ملابسات متنوعة بقدر كبير. وتلك الملابسات بالنسبة للحزب الشيوعي المصري هي التوجه إلى الكومنترن.

استبدال النخبة الحزبية القائمة يتطلب من خصمها - الكتلة القاهرية والكتلة الإسكندرية في حالة الحزب الاشتراكي المصري - التوجه صوب الإفراط في الراديكالية. فالأساليب الأخرى لتعزيز المواقع داخل الحزب ليست كافية موضوعياً. ثم أن فوز الجماعة المناهضة للنخبة والاعتراف بها كقوة قيادية من جانب قوة خارجية كسب ثقتها أمر ضروري لا يفترض بالضرورة مواصلة تصعيد التوجهات المتطرفة. فإن حدود الإفراط فيها مقيدة بالشروط التي تطرحها القوة الخارجية المشجعة للانقسام داخل الحزب. وهي موسكو في الحالة التي نحن بصدددها. الراديكالية تغدو طريقة لكسب الدور القيادي في الحزب، لكنها لا تغدو هدفاً بذاته. وتصبح العودة إلى مواقع الانطلاق - أحكام بيان الحزب الاشتراكي المصري - ظاهرة عادية وليست خارقة أو استثنائية. وبالطبع يجري تجديد تلك الأحكام بعض الشيء، كما حصل في برنامج الحزب الشيوعي المصري.

ولكن في كل الأحوال الحزب الشيوعي المصري اكتفى بالتكيف للظروف الجديدة لوجوده. الناجمة عن مطالبة الكومنترن القاسية بتبديل اسم الحزب. تناسب القوى الذي أوجده حسني العرابي داخل الحزب الاشتراكي المصري بصورة استبدال شكلي للمقولة

العقائدية للنظرية والتطبيق فيه حكمَ على الحزب الشيوعي المصري الجديد بتنازلات جدية لحليفته الخارجية الكومنترن، فبات فرعاً مصرياً للأمية الشيوعية. وكانت أحكام الكومنترن في هذه الحالة دوغمائية جداً وقائمة على المهمات التجريدية لتحويل العالم اجتماعياً وليس على وقائع البلدان التي استُحدثت عضوية الكومنترن فيها. وبالطبع كان وراء ذلك طموح إلى تحويل العاصمة السوفيتية إلى واحد من مراكز القوى العالمية. وفي الحال حكم الصراع السياسي في مصر بهذا الخصوص على الحزب أن يكون هامشياً استخدم منافسوه السياسيون ضده بالقدر الكامل علاقاته الوثيقة مع دولة أجنبية، وهم دوماً يدعون بأنهم القوة الوطنية حقاً وفعلاً. ومن ناحية أخرى هل كانت روسيا السوفيتية، ثم الاتحاد السوفيتي، قادرة على أن تغدو قطباً جذاباً حقاً للتطور العالمي في أنظار المصريين؟ فهذا الموضوع كاد أن يكون بالنسبة للحزب الشيوعي المصري حاسماً ليغدو حزباً متنفذاً حقاً، وليس مجرد قوة وطنية متوقعة.

ومع ذلك كان بوسع الكومنترن في بداية عام ١٩٢٣ أن تعتبر الاشتراكيين المصريين قد نفذوا مطالبها المتعلقة بقبولهم في عضوية هذا التنظيم الشيوعي العالمي. في سياق المؤتمر الخامس للأمية الشيوعية (يونيو - يوليو ١٩٢٤) أعتبر الحزب الشيوعي المصري فرعاً كامل الحقوق من فروع الأمية. آنذاك كان في عضوية الحزب ٧٠٠ شخص، وكان يومئذٍ أكبر تنظيم شيوعي في المنطقة العربية ومن أهم الأحزاب في المشرق^(١). كتب افيجدور إلى

(1) Correspondances Inlemalionales, 1924. N 56. P, 598.

نشير إلى أن معلومات صحافة الكومنترن تفيد أن عدد أعضاء الحزب الشيوعي الفلسطيني بلغ ١٠٠ عضو. وعدد أعضاء الحزب الشيوعي التركي ٦٠٠ عضو والحزب الشيوعي الصيني ٨٠٠ عضو.

Correspondances Imemalionalesu. 1924. N 102, 1>_1 12.

موسكو معلقاً على حصيلة تحولات الحزب: "يتجلى في مثال مصر بكل وضوح التطور الطبيعي للوطنية القومية الصرف إلى شيوعية"^(١). تلك ملاحظة هامة!

(١) تقرير سياسي تنظيمي عن مصر للفترة ١٩٢١ - ١٩٢٢، أرشيف التاريخ المعاصر، ملف ٤٩٥، إضبارة ٨٥، وثيقة ١٢، ص ١٠١.

(٤) شيوعيو مصر:

الجانب "الطبقي" من نشاطهم

حينما انتسب الحزب إلى الكومنترن، وبات يمثل فرعاً مصرياً لها تعين عليه أن يتعهد بتنفيذ نهج هذه المنظمة في مصر. وهذا أمر طبيعي لا مفر منه. علماً بأن الكومنترن عملت بالطبع، وهي تحل مهمات السياسة الخارجية للدولة السوفيتية، على تبرير نهجها النظري اعتماداً على ضرورة تحقيق الثورة الاشتراكية العالمية بشرط أن يكون فرعها في كل بلد أداة لتحقيقها. ولم تكن مصر استثناءً من هذه القاعدة. فيما يجب أن يكون نشاط الشيوعيين المصريين، كما في كل مكان، موجهاً نحو حل مهمتهم الاستراتيجية (بوصفها جزءاً من المهمة الاستراتيجية العامة للكومنترن والدولة السوفيتية) المرتبطة شكلياً مع موعد اقتراب عهد الثورة الاجتماعية في هذا البلد.

إلا أن نهج الكومنترن في الشرق يفترض نظرياً أن الثورة الاجتماعية البروليتارية لا يمكن أن تغدو هناك واقعاً فورياً. والأحزاب الشيوعية المحلية لا يمكن أن تغدو أداة للانقلاب الاشتراكي إلا بالاعتماد على قوة فعلية لخصوم الاضطهاد الخارجي والحكام المحليين على حد سواء. في النظرية يسمى هؤلاء الخصوم "البروليتاريا" و"الطبقة العاملة" أو "الشغيلة". علماً بأن وجهة نظر الكومنترن في العشرينات تتلخص في كون الطبقة العاملة في البلدان المنضوية تحت المفهوم العام "الشرق" كانت ضعيفة متشرذمة وموزعة على مؤسسات إنتاجية صغيرة ومجهرية، وهي غير منظمة في الواقع ومتعددة القوميات والأديان ومصابة بعدوى الأوهام والضلالات. زد على ذلك أن هذه الطبقة كانت مهمة في المقام الأول (وهذا جزء من النظرية) بحل المهمة الوطنية العامة، مهمة التحرر من النير الأجنبي. ويعني ذلك أن رص صفوفها تحت شعارات معاداة الغرب، وبالتالي النزعة القومية

المتشددة، أمر قابل للتحقيق في غضون فترة قصيرة، في المستقبل القريب المرئي في الواقع.

كما كانت الكومنترن تعتقد أيضاً أن من الخطأ الجسيم العمل في اتجاه القطيعة بين الحركة العمالية والحراك العام لمناهضي العنف الخارجي حتى إذا كانت هذه المجابهة تتصاعد بإشراف خصوم الفكرة الاشتراكية الموضوعيين أو الذين وصفتهم المطبوعات السوفيتية في ذلك العصر "بالبرجوازية الوطنية". وتلك أيضاً كانت نظرية تقول إن ساحة القومية المناهضة للغرب قد استولى عليها أولئك الذين لا يسمون أنفسهم بالشيوعيين، وبحكم ذلك لا يمكن أن يكونوا من أنصار دولة "العمال والفلاحين". وكانت البرغماتية الطبيعية للفعل السياسي تتطلب بهذا الخصوص أن يرفع الشيوعيون شعارات مناهضة للغرب أكثر جذرية من شعارات "البرجوازية الوطنية" من جهة ويفضحوا نهج المناورات في سلوك زعماء الحركة الوطنية من جهة أخرى. إلا أن على الشيوعيين من أجل ذلك أن يتحالفوا مع أحزاب "البرجوازية الوطنية" ويقدموا على تنفيذ نهج تشكيل جبهة موحدة معها لمكافحة الاستعمار ويؤيدوا مطالبها الوطنية الحقة. فلا وجود لدى شيوعيي بلدان الشرق طريق آخر لإقامة رقابتهم على "الشغيلة"^(١). إلا أن القيام بذلك كان في منتهى الصعوبة.

وبالطبع تعرض موقف الكومنترن فيما بعد لتذبذب شديد، فصارت المنظمة ترفض

(١) راجع مثلاً إحدى وثائق الكومنترن لتلك الحقبة: موضوعات "المسألة الشرقية" في المؤتمر الرابع للأمية الشيوعية. وهي تحلل الموقف في مصر أيضاً، الأمية الشيوعية في وثائقها. قرارات وموضوعات ونداءات مؤتمرات الكومنترن والجلسات العامة للجنة التنفيذية للكومنترن ١٩١٩ - ١٩٣٢ موسكو ١٩٣٣، ص ٣١٧ - ٣٢٥.

إمكانية أي شكل للعلاقات الائتلافية بين الشيوعيين الشرقيين والقوميين المحليين. وانعكس ذلك بشكل كارثي على أوضاع الأحزاب الشيوعية في المنطقة. وإلى ذلك لاحت في موقف الأهمية الشيوعية بكل وضوح فكرة تحويل المجال الجيوسياسي الهائل - من كوريا حتى أفريقيا - إلى ساحة للصراع بين الغرب والدولة السوفيتية. وحصر هذا الموقف في الواقع دور الأحزاب والحركات الوطنية في إطار الأداة التي تظهر التربة أمام ظهور قوة على الساحة السياسية اعتبرها الرأي العام في البلدان الشرقية خلال تلك الحقبة وبعدها "عميلة" لدولة أجنبية.

إلا أن المقصود والحال هذه شيئاً آخر هو كيف فهم الشيوعيون المصريون المهمات التي طرحت عليهم في تلك المرحلة من تطور بلادهم التي نعتها الكومنترن، تبعاً للتفسير المعهود لتطور روسيا، بمرحلة الثورة البرجوازية الديمقراطية؟

أن إقبال المصريين الذين صاروا في آخر المطاف شيوعيين على التحالف مع الاتحاد السوفيتي كان نتيجة لتطرف النظرات القومية الراديكالية عند أشخاص بعيدين بالمطلق عن أية نظرية أممية، وعن القضية العمالية أيضاً. وقد اضطر السنديكاليون النقابيون الحقيقيون وأنصار الآراء الإنسانية بخصوص المجتمع البشري إلى ترك الحزب الاشتراكي المصري في لحظة تحوله إلى تنظيم وصف نفسه بالشيوعي. وبدورها كانت قيادة الحزب الشيوعي المصري (حسني العرابي على الأقل) تدرك دون ريب أنها دفعت هذا الثمن مقابل الانتساب إلى الكومنترن. والدليل المقنع على ذلك هو تكرار الفكرة الجيوسياسية السوفيتية في برنامج الحزب الشيوعي المصري. زد على ذلك أن القيادة نفسها، كما تفيد وثائق عديدة، تعتقد بأنه لو انتقلت الجماعة التي تقودها إلى معسكر التوابع السوفيتية صراحة فلماذا لا يغدو الاتحاد السوفيتي سنداً متيناً لها. والذي حصل هو ما توقعه أ. كبا مبكراً ووصفه بإمكان "الشانتاج" ضد الكومنترن.

في مارس ١٩٢٣ وجه حسني العرابي رسالة إلى اللجنة التنفيذية للكونغرس لهجتها في منتهى الصراحة. كتب يقول: في الصيف الماضي وعدم بتقديم دعم معنوي ومساعدة مادية لنا. وطالما أن الوعد حصل وبما أن الحزب حقق تقدماً كبيراً إلى الأمام، ما جعل الإرهاق الذي طال الحزب حالياً يغدو كارثياً، فأمام الحزب اليوم فرصتان فقط، إما أن يحظى بالدعم وإما أن يهوي ويموت. ويضيف العرابي: إذا هلك الحزب يتباطأ بالنتيجة التقدم نحو الشيوعية ليس في مصر فقط، بل وفي المشرق، وكذلك على نطاق الثورة العالمية. هذه التعبيرات الجميلة واستخدام مفردة الثورة بالبنط العريض قيلت لهدف مبتذل تماماً هو المال. إلا أن السكرتير العام للحزب الشيوعي المصري تفنن في إدراج هذا الهدف ضمن النظرية الشيوعية: في ظل الحكومة السابقة كان بوسعنا أن نبدأ بإصدار جريدة وننتفع من سقوط زعماء الوفد. وكان بوسعنا أن نشير اضطراباً شديداً خلال استقالة الحكومة ونستفيد من تشكيل السلطات الحكومية الجديدة رغم أن الشعب كله مستاء. كان بوسعنا أن نكسب مقعدين أو ثلاثة في البرلمان الذي لا يمكننا الآن إلا أن نقاطعه، كذلك كان من الممكن أن نستفيد من الإضرابات العديدة^(١).

الشيء الرئيسي في هذه الرسالة هو بالطبع ليس طلب المساعدة المالية (وهو طلب لم يعد له مجال بعد أن انتهت المتاجرة التي جرت في موسكو أثناء عمل المؤتمر الرابع للكونغرس بموافقة حسني العرابي على الدعاوى السوفيتية في شأن المجال الجيوسياسي المصري). ثم أن علاقات التحالف بين الدولة السوفيتية والشيوعيين المصريين تفترض القيام بالعمل المناسب من جانب الدولة الريادية في الثنائي المذكور. الشيء الأكثر أهمية هو ثقة كاتب الرسالة بأن الحزب الشيوعي المصري لو استلم تلك المساعدة لصار في الحال

(١) أرشيف التاريخ المعاصر، ملف ٤٩٥، إضرابة ٨٥، وثيقة ٢٣، ص ١-٢.

تقريباً قوة سياسية ذات شأن كبير في بلاده. كان حسني العرابي يعتقد واثقاً أن كل المقدمات متوفرة لهذا الغرض.

وكان لديه بعض المبررات في هذا الاعتقاد. عدد أعضاء الحزب ازداد لدرجة ما، حتى بلغ في مايو ١٩٢٣ (حسب مصادر مستقلة) ١٣٥٤ عضواً^(١). وأخذ يعود إليه أبناء القوميات غير العربية (كان عددهم في تلك الحقبة ٢٠٠ عضو). إلا أن ذلك حصل ليس لأنهم راضون عن قيادة الحزب، بل لسبب أبسط هو أنهم لا يستطيعون الحصول على اعتراف الكومنترن إلا بالانتساب إلى الحزب أو العودة إليه^(٢). وكانت للحزب سبعة فروع في مختلف مناطق البلاد، بما فيها القاهرة والإسكندرية. وأخذ يستعيد مواقعه في الاتحاد العام للنقابات في مصر، وفتح مدرسة حزبية في الإسكندرية.

خلال العام ١٩٢٣ وبداية العام ١٩٢٤ حصلت إضرابات في الإسكندرية والقاهرة ومدن مصرية أخرى بادر لتنظيمها الاتحاد العام للنقابات في مصر. علماً بأن ساحة الإضرابات هي، في المقام الأول، المصانع العائدة لرأس المال الوطني أو الدولة المصرية. وفي بداية ١٩٢٤ بلغت الحركة الإضرابية أوجها بقيادة الشيوعيين. وفي فبراير ١٩٢٤ تحول

(١) هنا وفيما بعد: تقرير:

sur 1^{er} summon du Parti Communist: Egyptian Moscou. 25 mai 1923.

من إعداد الشيوعي اليوناني ش. فاتيليوس، المصدر ذاته، ص ص ٤ - ٩.

(٢) هكذا فعل مثلاً يوسف روزنتال حيث أبلغ جريجوري زينوفييف في رسالة من الإسكندرية في سبتمبر ١٩٢٣ أنه شكل مع عدد من أنصاره، بمن فيهم أحمد المدني جماعة التربية الاشتراكية النقابية التعاونية التي تنوي فتح "مدرسة ماركسية" التدريس فيها باللغة العربية وإصدار جريدة عربية والقيام بجولة على مصر لإلقاء سلسلة محاضرات في مواضيع عمالية. إلا أنه يريد استئناف الاتصال بالحزب الشيوعي المصري، أرشيف التاريخ المعاصر، ملف ٤٩٥، إضبارة ٨٥، وثيقة ٢٥، ص ص ٥٥ - ٥٧.

إضراب عمال مصنع إيجولين لاستخلاص الزيوت في الإسكندرية المعارضين على فصل الشطاء النقابيين إلى حملة سياسية احتل العمال خلالها مبنى المصنع ورفعوا الرايات الحمراء^(١).

وطالبت الكومنترن الحزب الشيوعي المصري بعمل بين الفلاحين. وفي الحقيقة فإن برنامج الفلاحين لم يظهر إلا بعد رحلة حسني العرابي إلى موسكو. وكانت تلك مهمة صعبة. فالريف ظل سندا للسلطة وقيمة تقليدية من قيم المجتمع الوطني. فيما كان الفلاحون بدورهم لا يثقون طبعاً بالمدينة التي تستهوي أهالي الريف وتبعدهم عنها. وقد استعان حزب الوفد بالفلاحين وحظي بتأييدهم على الدوام.

ومع ذلك حاول الشيوعيون أن ينشطوا في هذا الاتجاه أيضاً مستفيدين من الإمكانيات المحدودة التي توفرت لهم في تلك الحقبة. واجتذب الحزب للعمل مع الفلاحين مهندسين زراعيين من أعضائه ومن المتعاطفين معه^(٢). وحاول الحزب أن يعتمد على العمال الزراعيين الموسمين وعلى النازحين من المناطق الريفية إلى المدن، فشكل لجناً خاصة للعمل معهم^(٣). كانت الاتصالات مع الفلاحين تشكل جانباً هاماً من نشاط خلايا الحزب الشيوعي المصري التي تعتبر في المدن الصغيرة مراكز تقليدية لإقامة الأسواق

(١) تقرير (sur 1h summon du Patti Communist: Egyptian) من إعداد الشيوعي اليوناني

الأصل س. ياناكليس في ٢٨ يونيو ١٩٢٤، المصدر ذاته، وثيقة ٣٤، ص ٢١ - ٣٩.

(٢) راجع المقابلة مع الشيوعي المصري القديم ح. سند، رفعت السعيد، ص ٢٨٤.

(٣) في فبراير ١٩٢٤ كتبت "الأهرام" أن الشيوعيين وأنصارهم يشكلون للعمل في الريف لجناً تنشط بين المتعاقدين من العمال الزراعيين والمشغولين في تطهير قنوات الري والعاملين في المزارع والحقول، المصدر ذاته، ص ٢٦٠.

الشعبية الفلاحية^(١). وتمكن الحزب في عدد من المناطق الريفية أن يشكل خلايا حزبية أعضاؤها من العمال الزراعيين والفلاحين^(٢).

كما استعان الحزب الشيوعي المصري في نشاطاته بعلماء الدين المتواجدين في صفوفه. وعلى أية حال يستنتج ذلك من نص قرار المحكمة الجنائية بالإسكندرية في قضية الحزب الشيوعي المصري الصادر في ٦ أكتوبر ١٩٢٤. ففيه ورد أن عضو اللجنة المركزية للحزب صفوان أبو الفتح شيخ جامعة الأزهر ألقى على طلابه تعليقات تمتدح الشيوعية. وأشارت تلك الوثيقة إلى أن المتهم الآخر في هذه القضية، عبد الحافظ عوض، روج للشيوعية على المكشوف بين طلبة مدرسة الأحمدي الدينية في طنطا، زاعماً أن هذه العقيدة تطابق الدين الإسلامي تماماً. كانت المدارس الدينية، شأنها شأن الأزهر، في تلك الحقبة بالأساس مراكز تعليمية لأبناء الريف والمدن الصغيرة في المحافظات.

يبدو أن التأويل الاشتراكي للإسلام والتركيز على الجانب الاجتماعي من العقيدة

(١) راجع ذلك في المقابلة مع سند ومع الشخصية الأخرى في الحركة الشيوعية في العشرينات السيد الصبري، المصدر ذاته، ص ص ٢٧٩ و ٢٨٤.

(٢) كتبت الأهرام عن وجودها في صعيد مصر، المصدر ذاته، ص ٢٦٠.

أبلغ سند بدوره رفعت السعيد أن أعضاء المنظمة الحزبية في المنصورة، وهو من أعضائها، أسسوا في ١٩٢٣-١٩٢٤ خلية ضمت فلاحين القريتين المجاورتين المنزل والسنبلاوين، وبفضل ذلك اقيمت اتصالات مباشرة مع الفلاحين.، المصدر ذاته، ص ٢٨٤.

وبدوره أفاد عضو اللجنة المركزية للحزب الشيوعي المصري إسكندر سابا في عام ١٩٢٤ رداً على استفسار أفيجدور بشأن القوام الاجتماعي للحزب أنه كان يضم ٣١ فلاحاً. علماً بأن العدد الإجمالي لأعضاء الحزب آنذاك يقدر بـ ٩٩٣ شخصاً، أرشيف التاريخ المعاصر، ملف ٤٩٥، إضبارة ٨٥، وثيقة ٣٤، ص ١١٣ - ١١٦.

الإسلامية وسيلة أكثر فاعلية بالنسبة للشيوعيين في التواصل مع الفلاحين من الدعاية الطبقيّة التي تفتقر إلى الصبغة الدينية. لقد حاولوا على أية حال أن يجمعوا بين العقيدة الدينية التقليدية وبين مبادراتهم الشخصية. قرار المحكمة الآنف الذكر يقول أن أعضاء الحزب الشيوعي المصري عندما روجوا لفكرة تحديد الحد الأعلى للملكية الأراضي استشهدوا بسيدنا عمر بن العاص رضي الله عنه ، (صحابي وقائد عسكري فتح مصر سنة ٦٤٢ - كوستاتش) الذي صادر الملكية الكبيرة للأراضي^(١). إلا أن نطاق نشاط الشيوعيين في الريف وكذلك حصيلة ذاك النشاط كانا محدودين وضئيلين. وظل الريف ضيعة للوفد. على فكرة أن البعض في الكومنترن كلموا الشيوعيين المصريين بشأن خصوصية العمل بين طلبة الأزهر^(٢).

لقد نشأ موقف طبيعي لدرجة كبيرة. فبعد أن حظي الحزب باهتمام الحليفة الخارجية التي بدت له قوية أخذ يتباهى ويبالغ في إمكانياته. الفترة الانتقالية بين السلطتين في تطور مصر والتي أشار إليها حسني عرابي في رسالته إلى الكومنترن جعلت الحزب يثق بقوته الكبيرة المعززة بإنجازات فعلية وأن كانت محدودة جداً.

لم تكن تلك مجرد نظرية ، بل كانت ممارسة أيضاً. فقد تسلم مؤتمر الكومنترن برقية تهنئة (وصلت من الإسكندرية علناً) بعثها المشاركون في اجتماع جماهيري عقد هناك في : ٧ نوفمبر ١٩٢٢ ، وهي تتحدث عن اجتماع غفير عقد لمناسبة " ٧ نوفمبر " ويعبر عن ولائه

(١) نقلاً عن رفعت السعيد ، ص ٣١٧ وص ٣٢٠.

(٢) قرارات لجنة الاستعمار لدى اللجنة التنفيذية للكومنترن حول الحزب الشيوعي المصري (١٩٢٥) ،

أرشيف التاريخ المعاصر ، ملف ٤٩٥ ، إضبارة ٨٥ ، وثيقة ٣٩ ، ص ٢٣.

العميق للأمية. وتضيف البرقية: نتمنى كامل النجاح للمؤتمر من أجل انتصار البروليتاريا العالمية^(١). ومن جانبه كتب مراسل "الأهرام" بالإسكندرية في ١١ نوفمبر من العام ذاته أن الاجتماع الجماهيري الذي عقد هناك في ذلك اليوم مكرس لقيام الثورة الروسية وبزوغ فجر الحرية. وقد افتتح الاجتماع وأختتم بنشيد "الأمية". وتحدث فيه يوسف روزنتال وأحمد المدني. وأثناء الاجتماع أزيح الستار عن نصب يجسد الحرية مقيدة من قبل الرأسماليين وأحد العمال يحطم سلاسلها^(٢).

والأكثر من ذلك أن أنصار حسني العرابي وزعوا في الإسكندرية قبيل سفره إلى موسكو نداءً موقعاً من قبله إلى شغيلة العمل البدني والفكري، وهو مكرس لإعلان أول دستور مصري في أبريل ١٩٢٣ والانتخابات البرلمانية المرتقبة القائمة على أساس هذا الدستور. يبدأ النداء بلهجة حادة دون لف أو دوران: من أعطى لهؤلاء الأرستقراطيين (الوفديين - كوساتش) الحق في التحدث باسم الشعب؟ التحرير لا يتم إلا برص صفوف كادحي العالم كله في جيش موحد مكلف بإعلان الثورة الاشتراكية العالمية وبناء دولة الشغيلة الاشتراكية الموحدة. وما لم تختف الطبقات والتناقضات الاقتصادية التي تفرق بينها لن تستطيع أية برلمانات أن تعبر حقاً عن إرادة الشعب. وأكد الحزب الشيوعي المصري في النداء أنه من حيث المبدأ لا يعترف بشرعية البرلمان ويكافحه. صحيح أن الحزب سيشارك في الانتخابات البرلمانية، ولكن لهدف واحد هو تدمير البرلمان بالكامل^(٣). وبعد ذلك صارت لهجة النداء أكثر اعتدالاً.

(١) نشرة رقم ٥ تاريخ ١٤ نوفمبر ١٩٢٢. المؤتمر الرابع للأمية الشيوعية، موسكو، ١٩٢٢، ص ٢.

(٢) رفعت السعيد، ص ٢٣٢.

(٣) هنا وفيما بعد، أرشيف التاريخ المعاصر، ملف ٤٩٥، إضبارة ٨٥، وثيقة ١١، ص ٣٧ - ٤٠.

وجاء فيه: إننا حالياً نعتقد من الإجرام أن نقف مكتوفي الأيدي مكتفين بالمقاطعة السلبية للانتخابات البرلمانية. وهذا يعني أن الشيوعيين ما كانوا يريدون الاستنكاف عن استخدام أية فرصة لخدمة قضية الشعب. كما يعني أنهم يدعون العمال والفلاحين أن يستعرضوا قواهم ويحققوا إدراج أحكام في الدستور تحمي مصالح الكادحين وكذلك انتخاب ممثليهم الحقيقيين لعضوية البرلمان والذين يدافعون عن طموحاتهم وأمانهم وحدها. ويختم هذه الوثيقة شعار "تحيا مصر الحرة" ! تحيا الشيوعية!

كان الشيوعيون واثقين من أنفسهم أكثر من اللازم^(١). وهذا هو سبب قناعتهم

(١) كانت قيادة الحزب الشيوعي المصري بالطبع على علم بموقف السلطات من النشاط الشيوعي في البلاد. ففي وزارة الداخلية المصرية شعبة متخصصة بمكافحة "الخطر الشيوعي". وفي خريف ١٩٢٣ ادرجت ضمن مجموعة القوانين الجنائية المصرية مواد بفرض قيود كبيرة على حرية الحركة النقابية. وباتت تلك المواد أساساً حقوقياً لمنع الإضرابات غير المرخصة من قبل السلطات، باعتبارها تطاولاً على حرية العمل. وقيدت تلك المواد نطاق نشاط النقابات العمالية وحصرته في إطار حفظ النظام العام ومنحت أرباب العمل حق فصل النشطاء النقابيين غير المرغوب فيهم ونصت على عقوبة السجن ضد الذين يلحقون بأفعالهم غير المشروعة ضرراً بالملكات المنقولة وغير المنقولة، أبو بكر، عدوى النشاط الشيوعي في مصر. ١٩٢١ - ١٩٥٠، القاهرة ١٩٨٣، ص ٢٥ - ٢٩.

المادة ١٥١ من مجموعة القوانين الجنائية تتضمن فقرة خصوصية بشأن الحدود المسموح بها لانتقاد نظام الدولة وهي موجهة ضد أعمال الشغب الهادفة إلى رفض أو احتقار الحكومة. وجاء في التوضيح الصادر خصيصاً عن وزارة العدل المصرية لتفسير هذه المادة أنها تهدف إلى الحيلولة دون انتشار الأفكار الفوضوية والشيوعية التي تشكل خطراً على الأمن العام في البلاد، المصدر ذاته، ص ٣٠.

وأبدت السلطات المصرية على المكشوف استعدادها لوضع حد لنشاط الحزب الشيوعي المصري. فقد منعت عقد مؤتمره الثاني علنياً، ولم تسمح بإصدار جريدته، كما منعت إلقاء المحاضرات في المركز الحزبي بالإسكندرية. وشتت الصحافة الحكومية الرسمية حملة دعائية على الشيوعية. وفي ١٨ مارس ١٩٢٣ في معمعان تحضير الشيوعيين لتظاهرة عمالية جماهيرية في الإسكندرية تحت شعارات مقاطعة

=/=

بضرورة التوجه التام صوب العمل العلني. فحتى بعد اعتقال عدد من أفراد قيادة الحزب في مارس ١٩٢٤ ظل الأعضاء الناجون من الاعتال يبعثون إلى فروع المحافظات تعليمات بعدم جواز الانتقال إلى النشاط السري. إلا أن تلك التعليمات تضمنت توصيات بإتلاف قوائم أعضاء الفروع، وفي الغالب لم تنفذ تلك التعليمات^(١). كان البعض في الحزب الشيوعي المصري يعتقدون أن أية محاولة لضربهم ستسبب فوراً رداً حازماً من الطبقة العاملة للدفاع عنهم.

بديهي أن الشيوعيين ما كان بوسعهم أن يتجاهلوا التوجهات العامة للكومنترن بشأن ضرورة إقامة علاقات ائتلافية بينهم وبين الوطنيين. ففي نوفمبر ١٩٢٢ أبلغ أفيجدور موسكو بالجهود التي يبذلها لتنظيم العمل المشترك مع الوطنيين وبداية الاتصالات مع محمد حافظ رمضان ممثل الحزب الوطني. وأشار أفيجدور إلى أن هذا العمل ينبغي أن ينطلق من بعض الأحكام البرنامجية التي تنص على جلاء القوات البريطانية وضم السودان وتأميم قناة السويس وتصفية الاستسلام وشطب ديون الدولة المصرية وإلغاء الهيمنة البريطانية على الشؤون المالية المصرية^(٢). كان أعضاء الحزب الوطني في تلك الحقبة عبارة عن جماعة صغيرة نسبياً تضم، حسب تقديرات أفيجدور، ٧٠٠ - ٧٥٠ عضواً^(٣).

لجنة التحكيم الحكومية احتلت قوات الشرطة، مقر الحزب الشيوعي المصري والاتحاد العام للنقابات في مصر. وتم لفترة وجيزة توقيف أربعة من قادة التنظيمين، وبينهم حسني العرابي وأنطون مارون، رفعت السعيد، ص ٢٤٠، ص ٢٤٩.

- (١) في بداية مارس ١٩٢٤ أجرت الشرطة تحريات في مبنى فرع الحزب الشيوعي المصري في المحلة الكبرى وعثر هناك على "أوراق" مغطاة بالغبار وشبكة العنكبوت، رفعت السعيد، ص ٢٦٦.
- (٢) أرشيف التاريخ المعاصر، ملف ٤٩٥، إضبارة ٨٥، وثيقة ١٢، ص ٨٨.
- (٣) هنا وفيما بعد، المصدر ذاته، ص ٩٢-٩٣.

ولكن اتضح أن الشيوعيين الذين عملوا في مصر كانوا قليلي المعرفة بالوقائع الحزبية المحلية (علماً بأنه انضم إلى الحزب الشيوعي المصري في فترة تأسيسه أعضاء سابقون في حركة الوطنيين). وبعث أفيجدور في المقام الأول إلى حافظ رمضان قائمة باللغة الفرنسية بعدة أسئلة أراد أن يعرف من ورائها حقيقة الأشخاص الذين يريد حزبه أن يتحالف معهم. فقد أراد المشرف على الحزب الشيوعي المصري (أفيجدور) أن يعرف، على سبيل المثال، القضايا الأساسية في برنامج الحركة التحررية للوطنيين، والنقاط الأساسية للخلاف مع الوفديين وموقف الوطنيين من المسألة الزراعية في مصر ومن مستقبل الحركة العمالية في هذا البلد^(١). وكان ذلك في منتهى الغرابة. ففي مصر آنذاك كانت ثمة صحافة حرة بقدر كافٍ، ومنها إصدارات الوطنيين أنفسهم. كما صدر آنذاك الكثير من الكتب والبحوث والبرامج الوطنية، منشورة باللغة العربية في المقام الأول طبعاً. فكيف استطاع شخص عمل في العشرينات في هذا البلد الذي يتكلم العربية ألا يجيد القراءة والكتابة بهذه اللغة؟ كيف استطاع أن يصوغ وجهة نظره فيما يخص القضايا التي كانت تشغل بال هذا البلد في تلك الحقبة دون أن يكون ملماً بلغة الأغلبية الساحقة من السكان؟ على فكرة، بات واضحاً أن هذا الجانب لم يكن يتسم بأهمية بالنسبة لأفيجدور. لقد كان معلماً وليس متعلماً (تلميذاً). أسئلته الموجهة إلى حافظ رمضان رافقتها رسالة مكتوبة بخط يده وهي خير دليل على ذلك..

كتب أفيجدور في رسالته (بالفرنسية): لمن "الغد"؟ تلك هي القضية. من يؤمن بالشعب ويشق بنفسه لا يخشى هذا السؤال. التاريخ شهد وقائع تمكنت فيها "الأقلية"

(1) Les questions a Hafcz-bcy Ramadan.

وكذلك المصدر ذاته، وثيقة ٣٦، ص ٥.

(يقصد البلاشفة طبعاً - كوساتش) المتمرسه بسنوات الكفاح الطويلة والقوية برسوخ ثقتها بالشعب الكادح والمناضلة من أجله ومعه من تذليل كل الصعاب في طريقها ورفعت بفخر واعتزاز راية الحرية هناك حيث كانت الرجعية تحتفل يوم أمس بالنصر. ويضيف: أن الشعب المصري الذي خلق حضارة عظمى في الماضي عندما لم يكن "متحضرين اليوم" قد اخترعوا الأبجدية بعد لا يستطيع أن يسكت على سيطرة بريطانيا. ثم يهتف أفيجدور: في مثل هذه اللحظات يتطلب التاريخ ردّاً صريحاً مباشراً من الذين يناضلون في سبيل الشعب. التاريخ لن يتسامح مع التردد والتهيب والتحاييل عندما يتطلب الموقف ردّاً قطعياً: "كلا، أبداً". ويطالب كاتب الرسالة بأن يدعو الوطنيون الشعب إلى النضال ضد الظالمين، ولكن ليس ضدهم وحدهم، بل وضد "الخونة السافرين والمستترين". والمقصود هنا بالطبع الزعماء الوفديون. وظلت لهجة المعلم الحماسية طاغية على باقي الرسالة: لقد ولى زمان المدافع عبر صفحات الجرائد والتعابير الجارحة ضد العدو (الوفد - كوساتش). يجب تهيئة الشعب للنضال من أجل أبسط حقوقه، من أجل الحرية. يجب تزويده بشعار مفهوم (شعار الثورة بالطبع - كوساتش)، يجب دعوته للوقوف في صف المناضلين. ويختتم أفيجدور رسالته بالكلمات التالية "كل الطيبين في الشعب سيلبون هذا النداء!"⁽¹⁾. خلاصة القول: ضد الوفد وبالتحالف مع الحزب الشيوعي المصري يجب الشروع بالحركة ضد الوجود البريطاني في البلاد اعتماداً على تجربة البلاشفة. أفيجدور نفسه لم يكن يثق كثيراً بإمكانية الاتصالات المتينة مع الوطنيين حيث كتب إلى اللجنة التنفيذية للكونغرس يقول: "سننظر

(1) Les letter a Hafcz-bcy Ramadan.

كيف سيرد هؤلاء السادة على مقترحاتنا!"^(١). وتبعاً للنهج العام للحزب والكومنترن كان أفيجدور يسعى إلى "فضحهم" فقط، وليس إلى إقامة علاقات ائتلافية متكافئة معهم. ولذلك بالذات أعد مسبقاً للمحادثات مع حافظ رمضان شروطاً تعجيزية لا يقبلها الوطنيون. وكان المفروض أن يؤيد الوطنيون مطلب الشيوعيين بتأميم الأوقاف وأراضي العائلة المالكة وأراضي الملكية الخاصة التي تتجاوز مساحتها ١٠٠ فدان. والمقترح أن توزع هذه الأراضي على الفلاحين المحرومين من الأراضي أو الذين يملكون القليل منها. وينبغي أن تشطب ديونهم، كما ينبغي تحديد الحد الأدنى من الأجور للعمال الزراعيين. وينبغي أن يستلم أصحاب الأراضي القليلة مياه الري مجاناً، وأن تفرض ضريبة تصاعدية على الملكية الخاصة في البلاد. وإلى جانب هذه المطالب اقترح الشيوعيون على حلفائهم المرتقبين بذل الجهود لتحديد يوم العمل من ثماني ساعات وتثبيت حق الإضراب للعمال قانونياً وتأميم أهم ميادين الاقتصاد الوطني (السكك والترام ومعامل السكر واستخراج البترول وتوليد الكهرباء). كما اقترح الشيوعيون على أعضاء الحزب الوطني الانتساب إلى الاتحاد العام للنقابات في مصر. وكان هذا الاتحاد سيغدو لا حزبياً، بشرط أن يعمل على أساس طبقي. وأقترح أن يخصص للوطنيين مقعدان من مقاعد قيادة الاتحاد الأربعة. ولكن عليهم أن يعلنوا بأن الحزب الوطني يؤيد اعتراف مصر رسمياً بروسيا السوفيتية. وكان الأمر يعني في الواقع ابتلاع الحركة الوطنية. إلا أن الوطنيين لم يدخلوا في مفاوضات مع الحزب الشيوعي المصري^(٢).

(١) رسالة أفيجدور إلى اللجنة التنفيذية للكومنترن من الإسكندرية في ٧ ديسمبر ١٩٢٢، المصدر ذاته

ص ١٥٨.

(٢) المصدر ذاته، ص ١٦٠.

علماء بأن الشيوعيين في النصف الأول من العشرينات لم يتكلموا ولم يعملوا في اتجاه إقامة علاقات تحالف بينهم وبين الوفد، الحزب الوطني الريادي في مصر. مرة واحدة فقط بعثوا إلى هذا الحزب مذكرة أقرب إلى الإنذار.

في فبراير ١٩٢٤، بعد استلام السلطة في البلاد من قبل حكومة الوفديين، ورئيسها "أبو المصريين" سعد زغلول، وجه الحزب الشيوعي المصري "رسالة مفتوحة" إلى رئيس أول حكومة وطنية. والرسالة تستحق أن نستشهد بها بأكبر قدر ممكن من التفصيل^(١).

كتب الشيوعيون فيها: فتحت صفحة جديدة في تاريخ البلاد بفضل الشغيلة والفلاحين الفقراء المصريين. وقالوا لزعيم الوفد أن برنامجه غير واضح وأنه يجب أن تدرج فيه النقطة التالية: لن نبدأ أي مفاوضات مع الإنجليز قبل الجلاء التام للقوات البريطانية من البلاد وتصفية الاحتلال فوراً وإلغاء القوانين الجائرة والاعتراف بالاتحاد السوفيتي وفتح بورصة العمل وتوفير الشغل للعاطلين. واقترح الشيوعيون على سعد زغلول المساعدة في تنظيم الفلاحين مع العمال. والأكثر من ذلك أنهم ذكروا له صراحة أن العمال والفلاحين في السابق انتظروا وصبروا، أما الآن فسيسددون الصاع صاعين لكل ضربة يتعرضون لها. كان ذلك في الواقع تهديداً سافراً.

كان الشيوعيون المصريون يعتقدون أنهم أصبحوا حزباً احتكر بالكامل قيادة الحركة العمالية. ومن هذه المقدمة الخاطئة بلا ريب يستخلص استنتاج آخر لا يقل خطأً، ألا وهو أن الجبهة المناهضة للاستعمار والتي تطالب بها الكومنترن يمكن تشكيلها على أساس إقامة علاقات ائتلافية بين الحزب الشيوعي وبين زعماء النقابات العمالية وحزب الوفد الذي بقي الفلاحون يناصرونه. وفي إطار هذا الائتلاف ينبغي أن يكون

(١) هنا وفيما بعد، المصدر ذاته، وثيقة ٣٧، ص ٤.

الشيوعيون بالطبع القوة القيادية ، وهذا على فكرة هو سبب حدة المطالب المرسومة بشأن مهمات الوفديين.

إلا أن أصل هذه المقدمة الخاطئة مفهوم بالخطوط العريضة. الشيوعيون المصريون باتوا يعرفون "المهمة الاشتراكية" للكادحين وإخضاع جماهير الفلاحين لهم ودورهم النفعي الصرف في الثورة الاشتراكية المرتقبة. وإلى ذلك كانوا يعرفون أنهم تحديداً يجب أن يوجهوا في بلادهم سير العمال والفلاحين باتجاه بلوغ الهدف المنشود. فهذا الهدف تجسد فيهم أنفسهم لأنهم غدوا أعضاء في الكومنترن ، ذلك الجيش العالمي العظيم المكافح من أجل القضية العادلة. إلا أنهم لم يكونوا يشكون طبعاً في أن خطواتهم العملية ستحظى دوماً بدعم من جانب منظمة جبارة هي الأمية الشيوعية والدولة العمالية الفلاحية التي تقف من ورائها - الاتحاد السوفيتي. كانوا في الواقع يقولون للوفديين أن اعترفهم بهذه الدولة يفتح أمام الوفد آفاقاً وإمكانيات جديدة تماماً للعمل. فالاعتماد على الاتحاد السوفيتي يمكن هؤلاء الزعماء ، إذا أرادوا ذلك حقاً وفعلاً ، من الحل السريع والفعال لجميع المهمات الوطنية. وإذا لم يقدموا على إقامة العلاقات مع حليف الشيوعيين الخارجي يغدو مفهوماً للجميع في مصر أن الوفد لا أكثر من قوة مقيدة بمصالحها الطبقية الأثنية الضيقة. بعبارة أخرى ، أن الاعتراف بالاتحاد السوفيتي يجب أن يغدو الكشف القادر على فضح النوايا الحقيقية "لزعماء الأمة" (آباء المصريين).

لقد تجاهلت حكومة الوفد هذا النداء ، بل وتذرعت بأحداث مصنع إيجولين في الإسكندرية في فبراير ١٩٢٤ لتسدد ضربة إلى الحزب الشيوعي المصري. فتعرض للتنكيل جميع أعضاء اللجنة المركزية للحزب وقيادات النقابات المرتبطة به. وجاء في رسالة الحزب المؤرخة في ٦ مارس ١٩٢٤ إلى اللجنة التنفيذية للكومنترن: إننا مدمرون بالمعنى الحرفي

للكلمة فنياً (تنظيماً) ومعنوياً^(١). كما تحدثت الرسائل التي وصلت إلى اللجنة المذكورة من القاهرة والإسكندرية عن ضرورة بناء الحزب من جديد^(٢) وعن قلة عدد أعضائه وعن انتقال جميع النقابات التي يشرف عليها الحزب الشيوعي إلى المركز النقابي الوفدي^(٣). وفي محاكمة الشيوعيين التي جرت في سبتمبر من العام ذاته وجهت إليهم تهمة نشر أفكار هدامة في الفترة من ١٠ ديسمبر ١٩٢٢ حتى ١ مارس ١٩٢٣ تتعارض مع الدستور وتدعو إلى تدبير أعمال إجرامية والانتقام من أصحاب المؤسسات الإنتاجية^(٤). وصدرت أحكام بالسجن ثلاثة أعوام على حسني العرابي وأنطون مارون وصفوان أبو الفتح وغيرهم من قيادة الحزب والاتحاد العام للنقابات في مصر. إما رؤساء التنظيمات الحزبية في المحافظات فقد حكم عليهم بالسجن لمدة ستة أشهر مع الأشغال الشاقة. وقد توفي أنطون مارون في السجن بعد أن أضرب عن الطعام. يبدو أن ذلك تصرف من شخص متحمس وحساس للغاية، فيما أصر باقي أعضاء الحزب الطلقاء عليه أن يكف فوراً عن هذه

(١) أشارت الرسالة إلى أن التحريات أجريت في نفس الوقت يومي ٢ و ٣ مارس في مباني الحزب الشيوعي المصري والاتحاد العام للنقابات في مصر بمدن الإسكندرية والقاهرة والزقازيق والمنصورة، وقد صادرت الشرطة مطبوعات الحزب وإعلاناته وأرشفه.

وفي رسالة إلى اللجنة التنفيذية للكومنترن بتاريخ ١٣ مارس ١٩٢٤ كتب الشيوعيون المصريون عن التحريات واعتقال شيوعيين ونقابيين ثوريين في طنطا. وجاء في الرسالة أن من بقي حراً طليقاً إثنان أو ثلاثة فقط من أعضاء اللجنة المركزية، المصدر ذاته، ملف ٥٣٩، إضبارة ٣، وثيقة ٦٢٩، ص ١٨.

(٢) المصدر ذاته، ملف ٤٩٥، إضبارة ٨٥، ص ٥٠.

(٣) المصدر ذاته، ص ٥٩ - ٦٠.

(٤) هنا وفيما بعد، قرار المحكمة الجنائية بالإسكندرية في قضية الحزب الشيوعي المصري، رفعت السعيد،

المبادرة غير الضرورية^(١).

لم تهبّ الطبقة العاملة لدعم "طليعتها". فقد كانت دعوة شخصية من "أبي المصريين" سعد زغلول إلى عمال مصنع إيجولين كافية لتركوا الأماكن التي احتلوها في المصنع كي يعود إليه النظام^(٢). وفي ١٥ مارس ١٩٢٤ بعد أسبوعين من الهجمة على الحزب الشيوعي المصري والاتحاد العام للنقابات أعلن في الإسكندرية عن تأسيس الاتحاد الوفدي العام للنقابات العمالية. وبعد ثلاثة أشهر من تأسيس هذه المنظمة بلغ عدد أعضائها ١٢٠٠٠ شخص. وفي خريف العام ذاته ضمت ١٢٠ نقابة عدد أعضائها الإجمالي ١٥٠ ألف شخص^(٣). وفيما بعد ازداد عدد أعضاء المركز النقابي الوفدي^(٤).

وخلافاً للشيوعيين عمل الوفد ليس على أساس المخططات النظرية التجريدية المثقلة بالتعميمات والمفتقرة إلى إي اعتماد على الواقع المعاش في مصر في العشرينات. كان الوفد

(١) في نوفمبر ١٩٢٤ نشرت اللجنة المركزية للحزب الشيوعي المصري في "Journal d Egypte" نبأ الاجتماع الموسع الذي عقدته اللجنة في ٤ نوفمبر من العام ذاته وبحث فيه مسألة جدوى الاستمرار في الإضراب عن الطعام الذي أعلنه أنطون مارون في السجن. ويستشهد النبأ بفقرات من محضر الجلسة. واقترح الحزب على مارون من خلال الجريدة أن ينهي الإضراب تقيداً بالانضباط الحزبي، وذكر أن سلوكه في السجن رفع منزلة الحزب الشيوعي المصري حتى بدون الإضراب عن الطعام. أرشيف التاريخ المعاصر، ملف ٥٣٩، إضرابة ٣، وثيقة ٦٢٩، ص ٢٢.

(٢) رفعت السعيد، ص ٢٥٦ - ٢٥٨.

(٣) رفعت السعيد، اليسار المصري ١٩٢٥ - ١٩٤٠، بيروت ١٩٧٢، ص ٢٧ - ٣٠.

(٤) تفيد معلومات الشيوعيين المصريين أن عدد المنتسبين إلى اتحاد الوفد بلغ في عام ١٩٢٦ مستوى ٦٠٠٠ آلاف شخص، أرشيف التاريخ المعاصر، ملف ٥٣٩، إضرابة ٣، وثيقة ٦٣٠، ص ٥. راجع المعلومات عن تأسيس المركز النقابي للوفد وبرنامجه وصحافته وبنيته التنظيمية في مصر، الحركة النقابية العالمية. دليل المركز النقابي. موسكو - لينينغراد ١٩٢٧، المجلد ٧، ص ٢٣٠ - ٢٣٢.

مشاركاً واقعياً في العملية السياسية الجارية في بلد بقيت فيه القوات البريطانية حتى بعد إعلان الاستقلال وكان المستشارون الإنجليز يسيطرون على الجيش والدوائر المالية والقضائية، فيما يمتلك الأجانب قناة السويس والمؤسسات الصناعية والمصارف ومزارع القطن. وكان حل المسألة الزراعية في هذه البلاد أمراً يخص المستقبل. وإلى ذلك كان في هذا البلد بلاط ملكي فاسد^(١). وهذا البلد نفسه يشعر بأنه أمة عظيمة تعود منابع حضارتها إلى غابر الزمان. أوروبا، بالمقارنة مع مصر التي أهانتها حتى بمنحها السيادة، كانت قارة لدويلات بربرية فتية.

الوفد رص صفوف هذه الأمة وأعاد لها الروح وقادها إلى طريق الاستقلال وأن كان شكلياً، وما كان يستطيع، بعد استلام مقاليد الحكم فعلياً، أن يبقى مكتوف الأيدي أمام دعاوى الحزب الشيوعي المصري الذي علق آماله على قوة خارجية. فهذا التنظيم الصغير يمكن أن يحرم الوفديين من تأييد فصائل كبيرة من الكادحين المصريين ويسدد الضربات إلى المواقع التي شغلوها داخل البلاد ويوفر الإمكانيات الفعلية لإعادة توزيع القوى في معسكر خصومهم - بريطانيا والبلاط الملكي. طبعي أن الشيوعيين ما كان بوسعهم أن يفعلوا ذلك بقواهم الخاصة ولا حتى بقوى حلفائهم السوفييت. لكنهم خلقوا حول الوفد بتصرفاتهم وتصريحاتهم الطموحة الواردة في رسائلهم ونداءاتهم جواً من الارتباك وغياب الاستقرار. وكان بوسع خصوم الوفد أن يستفيدوا من تصرفات الشيوعيين. ولكي يتم استباقهم تعين على حكومة سعد زغلول أن تسدد لهم ضربة تحذيرية.

(١) راجع قضايا العلاقات المتبادلة بين المراكز الثلاثة للحياة السياسية في مصر في العشرينات والثلاثينات - الوفد والإنجليز والبلاط الملكي ومنظماته السياسية في المواد الوثائقية، حسن يوسف، القصر ودوره في السياسة المصرية ١٩٢٢ - ١٩٥٢، القاهرة، ١٩٨٢، ص ٧٦ - ٨٥.

وبعد سرعة تدمير "المشاكس" الضعيف دون أن يعاقب تقريباً (الأحكام على قياديي الحزب الشيوعي واتحاد النقابات جاءت مخففة بالمقارنة مع فداحة التهم الموجهة إليهم) لم يضعف الوفد أبداً معسكر أنصاره. بالعكس، فعندما اعترض طريق الفوضى المحتملة في البلاد كسب هالة الحزب المستعد لكل التضحيات من أجل خير الأمة واستقرارها وحماية مصالحها. وكان ذلك مهماً بخاصة لأن الفعاليات العمالية بقيادة الشيوعيين جرت في الإسكندرية حيث نسبة الأجانب المقيمين هناك كبيرة دوماً. فالاضطرابات في هذه المدينة تهدد بالتدخل المسلح من قبل بريطانيا في الشؤون الداخلية المصرية بحجة حماية رعايا الدول الأوروبية المقيمين في أراضيها. وبذلك تتوفر للبلاط الملكي الذريعة المنشودة لحل البرلمان الوفدي وإقالة حكومة سعد زغلول.

ومهم هنا أيضاً السؤال المرتبط برد فعل الكومنترن على أحداث تدمير فرعها المصري. فالمقدمات النظرية التي بناها الشيوعيون المصريون انطلقت على أية حال من التوجهات العامة التي رسمت استراتيجية وتكتيك لجنهتها التنفيذية فيما يخص بلدان الشرق. قيادة الكومنترن كانت بالطبع تفهم بأن الشيوعيين المصريين ضعفاء في واقع الأمر. يدل على ذلك، مثلاً، تقرير اللجنة التنفيذية الذي رفعه جريجوري زينوفييف إلى المؤتمر الرابع. فقد جاء فيه على سبيل المثال: "خلال العام الحالي نشأت لدينا نوى بعضها ضعيف وبعضها لا بأس به في تركيا والصين ومصر. بالطبع لا ينبغي أن ننساق وراء الأوهام. أنها نوى صغيرة جداً، ومع ذلك تمثل خطوة إلى الأمام، وعلينا أن نساعد الرفاق هناك ليمارسوا عملهم المزدوج - أولاً توسيع نواة الحركة البروليتارية، وثانياً - تولي مهمة الطليعة لكامل الحركة التحررية المناهضة للبرجوازية"^(١).

(١) نشرة رقم ١ - ٢ تاريخ ١٢ نوفمبر ١٩٢٢، المؤتمر الرابع للأمية الشيوعية، موسكو، ١٩٢٢، ص ٣٠.

في الحقيقة كان ذلك طرْحاً للمسألة ذا معنيين. ومع ذلك فقد جاء من حزب طلب زعماءه من الكومنترن أكثر من مرة وبإلحاح تزويدهم بالنصائح وإرسال رفاق إلى مصر ليوضحوا نهج المنظمة التي انتسب إليها حزبهم^(١). كان أنصار هذه المنظمة في مصر يعلقون عليها آمالاً كبيرة جداً. طموحهم إلى دخول "المعركة الأخيرة الحاسمة" ضد البرجوازية المحلية ورسالتهم الشديدة اللهجة إلى سعد زغلول ما كانا سيتم لو لم يكونوا يتصورون أن الكومنترن تقف من ورائهم وكذلك الدولة التي حققت المثال الأعلى الذي يلوح أمام أنظارهم في الأفق.

إلا أن رد فعل الكومنترن على الأحداث في مصر كان متحفظاً بقدر ما. اللجنة التنفيذية للأمية الشيوعية دعت طبعاً لتنظيم حملة عالمية تضامناً مع الرفاق المصريين. وفي عام ١٩٢٤ بعثت رسالة إلى "السجناء المصريين" جاء فيها: "أن زغلول باشا وحكومته يدعيان بأنهما يدافعان عن الشعب المصري وعن استقلال مصر من الاستعمار البريطاني. وهؤلاء في الوقت ذاته يعذبونكم أنتم أعضاء الحزب الشيوعي المصري أفضل ممثلي شعبكم وأكثر المناضلين صموداً وثباتاً ضد الاستعمار!". وتضيف الرسالة: "ولكنهم حتى بضمن أقسى الملاحقات لن يتمكنوا من تدمير حركة مثل حركتكم التي تغوص جذورها عميقاً في فقر واستغلال العمال والفلاحين الكادحين. لقد خرجت بضع عشرات من المقاتلين اليوم من المعركة، إلا أنه ستحل الآلاف محلهم وسيخوضون النضال حتى يزول نير الرأسماليين والإقطاعيين في مصر وفي العالم أجمع"^(٢). كانت تلك كلمات عادية

(١) الإشارة إلى ذلك مع مقتبسات من النداء موجودة في حكم المحكمة الجنائية بالإسكندرية، رفعت

السعيد، تاريخ الفكر الاشتراكي في مصر، ص ٣١٤.

(٢) Correspondances Imemalionales ١٩٢٤ العدد ٧٨، ص ٨٨٦.

بالمناسبة ولا تلزم الكومنترن بأية إجراءات جديدة. واندرجت أحداث مصر في السياق المعقد للعلاقات السوفيتية البريطانية الذي ترك بالطبع بصمته على موقف اللجنة التنفيذية للكومنترن منه. والأرجح أن الكومنترن كانت تميل إلى التقييم السلبي والتنصل عن فعالية الحزب الشيوعي المصري في مصنع إيجولين^(١).

وحتى فيما بعد لم تعترف الكومنترن بأن جزءاً كبيراً من الذنب في تقويض الحزب الشيوعي المصري يقع عليها. ففي عام ١٩٣٤ نشرت مجلة "الشرق الثوري" الصادرة عن الجامعة الشيوعية لكادحي الشرق مقالة بقلم قسطنطين أفيجدور عن "المراحل الأساسية في تطور الحزب الشيوعي المصري"^(٢). وتضمنت محاولة لتحليل أحداث ١٩٢٤، بما فيها تدمير الحزب الشيوعي. كتب الرجل أشياء معقولة، منها أن في هذا الحزب "زعماء وجمهوراً، لكن الديمقراطية الحزبية غائبة ولا صلة متينة بين أولئك وهؤلاء". ولعل من الممكن تصديق أفيجدور، فهو كان يعمل آنذاك وفيما بعد في مصر. لأنه حينما كتب أن

مطبوعات الكومنترن نشرت فيما بعد أيضاً أنباءً عن أحوال السجناء الشيوعيين المصريين، نفهيم أ. إضراب الشيوعيين عن الطعام في مصر // "الأمية الشيوعية" ١٩٢٥ العدد ١، ص ١٥٢-١٥٣، وكذلك Correspondances Imemalionales ١٩٢٤، العدد ٢٦، ص ٢٩٧ - ٢٩٧ و ١٩٢٤، العدد ٧١، ص ٨٥٥

وتجدر الإشارة إلى نعي أنطون مارون:

Martyrs. Amon Марон//Инципанонаje Pleszomspendenz, 1925. N 123, s 1179.

(١) أحد بيانات اللجنة التنفيذية للكومنترن الذي أعلن على الملأ، طبعاً بعد تدمير الحزب الشيوعي المصري، اعتبر تصرفات الشيوعيين المصريين عملاً غير موزون وغير منظم جيداً، Correspondances Imemalionales ١٩٢٤ العدد ٢٦، ص ٢٩٧ - ٢٩٨.

(٢) هنا وفيما بعد راجع أفيجدور. المراحل الأساسية لتطور الحزب الشيوعي المصري، "الشرق الثوري" موسكو ١٩٣٤، العدد ٦، ص ٧٩.

القيادة العليا للحزب الشيوعي المصري عندما عملت مع أعضاء تنظيماته الدنيا في المحافظات "اكتفت بإرسال التعليمات الدورية" وأنها "لم تسع أبداً إلى تنوير العمال بالفوارق بين النقابات كتتنظيمات اقتصادية للطبقة العاملة وبين الحزب الذي هو طبيعتها السياسية" كان كل ما كتبه حقيقة لا ريب فيها. وكان حقيقة أيضاً وجود اتصال عضوي متين في الفترة ١٩٢٢ - ١٩٢٤ بين الحزب الشيوعي المصري والاتحاد العام للنقابات في مصر. وأن الهيئات القيادية لكلا التنظيمين تواجدت في مبنى واحد في الإسكندرية وتشكلان في الواقع بنية واحدة علنية تماماً. أيجادور نقل بالطبع معلومة موثوقة عندما كتب يقول إن كل من يعلن عن تعاطفه مع الشيوعية ويحضر الاجتماعات الحزبية مهما كانت طبيعتها يعتبر عضواً في الحزب الشيوعي المصري. لكن المحزن أن وراء التحليل "الموضوعي" لأسباب الكارثة الأولى التي ألت بالشيوعيين المصريين رغبة ممثل الكومنترن بمصر في تبييض صفحته وصفحة اللجنة التنفيذية للأمية التي أوفدته إلى هناك وإبراز دوره الشخصي في المرحلة القادمة من تطور الحركة الشيوعية المصرية ، وهذا هو الأهم. ويبدو أن ذلك واحد من الأمثلة الكثيرة على ظاهرة التقاليد السوفيتية.

إلا أن الشيوعيين المصريين المغيبين في السجون لم يكونوا بالطبع يهتمون كثيراً بأسباب عزوف من كانوا يعتبرونهم القوة التي تمد لهم يد العون الشامل والتأييد المعنوي والمادي. هذا الموقف المتنصل عن معونتهم لا بد وأن يشير لديهم خيبة أمل ليس فقط في إمكانيات حليفهم الخارجي ، بل وفي المثل العليا للعقيدة الأيديولوجية المرتبطة بتلك الإمكانيات والتي يروج لها هذا الحليف.

لقد أخذ الحزب الشيوعي المصري يتفكك ولم يصمد في أول مواجهة مع الواقع القاسي المحيط به. وما تفكك ليس فقط جهاز تحقيق نموذج الشيوعية (المقدمات النظرية) في مصر. فقد دشنت عهد التفتت الخطير الصيغة "المصرية" لهذا النموذج. وكذلك إمكانية

الاستئناف السريع للتنظيم الذي يمكن أن تكون لأبناء البلد كلمة فيه.

الحركة الشيوعية المصرية تنامت بين أحضان الحركة الوطنية ونشأت من داخلها. أنصارها يتقيدون بأكثر مظاهرها سطوعاً وغير المقبولة في الغالب لدى المجتمع المتمدن (معاداة السامية وطائفة واسعة من ألوان كراهية الغير). لقد شاهدوا الحفوت الجزئي في حماسة الميول القومية بمصر بعد ثورة ١٩١٩ وسعوا بإخلاص إلى إنعاشها. ولكن الصق بهم نعت "الأميين" لمجرد أنهم انتموا شكلياً إلى المنظمة الشيوعية وكان يجب عليهم أن يحلوا المهمات التي دعت لها هذه المنظمة بوصفها أعلى شكل من الأمية.

ولكنهم عندما تيقنوا أن الكومنترن غير قادرة على مساعدتهم في حل مهماتهم الوطنية، بل والأنكى من ذلك عاجزة عن تقديم معونة جدية في المصيبة التي ألمت بهم أخذوا يبحثون عن حليف جديد. وتبدلت معتقداتهم "الشيوعية" بسهولة وحل محلها غيرها. حصل ذلك ليس بفعل عوامل مادية (فالحلفاء الجدد لم يكونوا أسخياء هم أيضاً، ثم أن ذلك لم يكن هو الذي يشغل بالهم على أية حال) بل لأن حل مهمة الانبعاث القومي لوطنهم التي تعذبهم كانت مبدئية بالنسبة لهم. ويعتبر مسألة أخرى تماماً كونهم اختاروا حلفاءهم من بين الذين عرضوا عليهم من جديد طرقاً "هدامة" لحل هذه المهمة. كانوا قد تربوا في بيئة ثقافة سياسية قائمة على التدمير أكثر مما على البناء.

عندما خرج حسني العرابي من السجن غادر مصر. فقد كان صعباً عليه بالطبع أن يعيش في بلد يعرف الناس فيه أنه حكم عليه بالسجن بتهمة الانتماء إلى الحزب الشيوعي. اختيار البلد الذي يلجأ إليه لم يكن واسعاً، إما الاتحاد السوفيتي أو ألمانيا. الحصول على تأشيرة الدخول إلى الاتحاد السوفيتي ممكن خارج مصر فقط. أما ألمانيا ففي القاهرة. ودفعه الزعل على حلفائه السابقين إلى اختيار برلين. حيث يحصل الوطنيون المصريون دوماً على ملاذ (التنافس الألماني البريطاني في الشرق الأوسط وشمال أفريقيا كان من وقائع الحياة

السياسية في تلك الحقبة). تفيد مذكرات المقربين إليه في أواخر العشرينات وأوائل الثلاثينات أنه أعجب بالنازيين في ألمانيا^(١). أعجبه خطابهم المناهض لبريطانيا ووعودهم بتحرير مصر والعالم العربي كله وتصريحاتهم بشأن ضرورة الحيلولة دون بناء وطن قومي لليهود في فلسطين. كان الرفاق في العاصمة السوفيتية قد حدثوه عن ذلك سابقاً. إلا أنه في سياق اللقاءات مع ممثليها فيما بعد واجهه لا قابلية وعدم اهتمام به شخصياً بعد اعتقاله. وكان يمكنه أن يفترض بأن معاملة الجانب الألماني له ستكون مثل معاملة موسكو. إلا أن الإنسان يأمل دوماً بأن ميدان السياسة أيضاً يقوم بقدر ما على أساس مبادئ الأخلاق.

في منتصف الثلاثينات عاد حسني العرابي إلى مصر. استقبله رفاق الحزب السابقون والذين انتسبوا إليه بعد هجمة ١٩٢٤. فقد ظل بالنسبة لهم نفس الشخصية التي يمكنها بدعمها للشيوعيين أن تجتذب المزيد من الأعضاء إلى الحزب. وكان هو، بدوره، يتفهم أن مهمة التحرير التام لوطنه من نير الأجنبي تتطلب اعتماداً على قوة خارجية. ولكن عندما توجه إليه بعض الشيوعيين بعد هجوم ألمانيا على الاتحاد السوفيتي لكي يشجب غزو الفاشيين بوصفه الزعيم السابق للحزب الشيوعي المصري رفض القيام بذلك. لقد اختار، كما بدا له وللكتيرين في عام ١٩٤١، القوة التي بإمكانها، بعد فرض سيطرتها على أوروبا والזحف في العمق السوفيتي، أن تلحق هزيمة ساحقة بالإنجليز وترغمهم على مغادرة مصر. حسني العرابي ما كان آنذاك يتعاطف مع بلد أنصاره السابقين، فالاتحاد السوفيتي غداً حليفاً لبريطانيا عدو مصر. وأكد أنصاره السابقون أنه في عام ١٩٤٢، عندما احتلت القوات المسلحة الألمانية - الإيطالية مصر، شكل تنظيمًا سياسيًا موالياً

(١) هنا وفيما بعد مقابلة رفعت السعيد مع أحد مناضلي الحركة الشيوعية في مصر في العشرينات والثلاثينات حسام الدين حفني ناصر، رفعت السعيد، ص ٢٩٤ - ٢٩٥.

للفاشيين و"حكومة ظل" مستعدة لاستقبال قوات دول المحور في القاهرة. إلا أن حصيلة معركة العلمين ومعركة ستالينغراد غيرت توجهاته في السياسة الخارجية، فأخذ يبحث عن التواصل مع الشيوعيين بنفسه.

حسني العرابي لم يكن شيوعياً ولا نازياً. فهل قدم له الوضع الدولي الذي عاش فيه خياراً آخر غير الصيغتين السوفيتية والنازية للدعم الخارجي لطموحه وأحلامه التوافقية لحرية بلاده؟ وكلتاها اقترحتا تحويلاً جذرياً متطرفاً للعالم، وكلتاها اقترحتا هذا التحويل لبلد يعتبر هامشياً في منظومة العلاقات الدولية في زمانه. وكلا الدولتين واجهتا عدو مصر المتمثل في أقوى دولة في فترة ما بين الحربين العالميتين. زد على ذلك أن كلتا الدولتين الهامشيتين ألحقتا ببريطانيا خسائر جسيمة في فترة نضالهما من أجل تعزيز مواقعهما في العالم. وكلتاها باتتا مركز جذب للقومي المصري. فالانتصار الوقتي لإحدهما في المناوشة من أجل كسب عقله وفؤاده يتوقف على ملاسبات نابعة من تجربته الحياتية ومن الوضع الدولي الراهن. إلا أن هذا القومي الوطني عندما يختار الاتحاد السوفيتي أو ألمانيا يبقى دوماً موالياً لوطنه.

ثم أن لدى الأشخاص الذين انتسبوا إلى الحزب الشيوعي المصري أسباباً شخصية ليتبنوا الشيوعية، أسباباً مفهومة وطبيعية من الناحية الإنسانية. كانوا يريدون التعليم. وهم ليسوا أثرياء، فيما عرض عليهم الحزب فرصة الحصول على التعليم المجاني في "روسيا السوفيتية". وكان المهم ليس مكان الدراسة، بل اكتساب مهنة كريمة لائقه. هناك، في الاتحاد السوفيتي الذي وصلوا إليه، علموهم ليس فقط أصول العقيدة الشيوعية، بل وما كانوا بأمس الحاجة إليه - النجارة أو الخراطة اللتين تعتبران أحياناً من المهن المحترمة، وكذلك الطب^(١). فهل ظلوا شيوعيين فيما بعد؟ هذا يتوقف على ظروف حياتهم الفعلية.

(١) مقابلة رفعت السعيد مع عبدالرحمن فضل، رفعت السعيد، ص ٣٠٢.

ولكن بفضل الحزب تمكن بعض المصريين (وعدددهم قليل جداً بالطبع) من تحسين مستوى معيشتهم وتسليم مناصب. فهل كانت تلك نفعية براغماتية معتادة؟ طبعاً، فالإنسان لا يستطيع أن يكرس حياته كلها لمثل أعلى تجردي.

أعضاء الحزب الشيوعي المصري، بمن فيهم زعماءه، ظلوا كسائر الناس العاديين. كانوا بحاجة إلى المال ووظنوا أن الكومنترن ستقدم لهم معونة مالية حالما يطلبونها. ذكر حكم المحكمة في الإسكندرية أن المتهمين بقضية الحزب الشيوعي المصري اعترفوا طوعاً بأنهم تلقوا دعماً مادياً من "اللجنة التنفيذية للأمية الشيوعية". ومن جهته ترجم حسني العرابي بدون أي ضغط عليه أثناء التحقيق معه رسالة مكتوبة بالفرنسية، عثرت عليها الشرطة وكان قد أرسلها إلى اللجنة التنفيذية للكومنترن وطلب فيها مساعدة مالية عاجلة للحزب^(١). كل ذلك لم يكن يتعارض مع معتقداته الوطنية ومعتقدات رفاقه. كانوا يحبون وطنهم رغم تعرضه للمهانة اليوم. كانوا يحبونه لعلمهم بأنه مضطر اليوم إلى ارتداء رث الثياب مع أن تاريخه والحضارات التي قامت في أراضيهم ومعنوياته العالية تستحق احترام الجميع. ومن أجله عقدوا الصلات مع الذين قالوا لهم أنهم يؤيدون نضالهم في سبيل حرية مصر.

في أغلب الأحيان كان ممثلو الجيل الأول من الشيوعيين المصريين سذجاً غير مجريين. يصدقون بكل ما يقوله لهم زملاؤهم الأكبر سناً والرفاق المحنكون من قيادة الكومنترن. فالأشخاص الذين قادوا الحزب الشيوعي المصري كانوا يعتقدون صادقين أن انتماء الشخص للطبقة الدنيا يحوله تلقائياً إلى مناضل من أجل قضية التغيير الاجتماعي لوطنه. شهادة أحد الشيوعيين المصريين من تلك الحقبة عن حسني العرابي خير دليل على ذلك.

(١) المصدر ذاته، ص ٣١٤.

قال عن الزعيم الأول للحزب الشيوعي أنه كان طيب القلب يسهل إقناعه^(١) من قبل الذين يبرهنون له بإصرار أنهم من أصول عمالية لبيعهم إلى موسكو على هذا الأساس. وقد نظم العرابي شخصياً مسألة دراسة محمود عبد العزيز هناك ، في حين أنه مجند من قبل المخابرات البريطانية. وفي عام ١٩٢٨ عاد هذا الأخير من العاصمة الروسية وتولى منصب السكرتير العام للجنة المركزية للحزب الشيوعي المصري الذي أعيد بناؤه من جديد (قائد الفرع المحلي للكومنترن يجب أن يكون بالطبع من أبناء البلد ويمثل سكانها بالأساس) وواصل خدمة أسياده الإنجليز حتى العام ١٩٣٢. وكان لدى زعماء الكومنترن مرشحون مصريون بدلاء لهذا المنصب درسوا في الجامعة الشيوعية لكادحي الشرق. إلا أن الاختيار وقع على محمود عبد العزيز. وألقي الذنب في ذلك فيما بعد على حسني العرابي طبعاً ، وليس على الرفاق السوفييت الأكثر خبرة ومعرفة^(٢). إلا أن ذلك كان في طبيعة الأشياء.

ومع ذلك أشرفت على الانتهاء المرحلة الأولى من وجود الحزب الشيوعي المصري حيث حول الضغط الشديد من قبل اللجنة التنفيذية للكومنترن الحزب الاشتراكي المصري من تنظيم ليبرالي تنويري إلى حزب شيوعي. النشاط "الطبقي" لهذا الحزب قاده إلى الكارثة. وطرحت مهمة إعادة بنائه. وأفلحت الكومنترن في تنفيذها. إلا أن الشيوعيين المصريين من الجيل الجديد تعين عليهم هذه المرة أن يعملوا على أساس توجهات مغايرة من حيث المبدأ طرحتها عليهم قيادتهم العليا. غير أن هذه التوجهات تستجيب أكثر لميول المشاركين في المرحلة الجديدة من نشاط الحزب الشيوعي المصري. وقد انتسب إلى الحزب أناس جدد قليلو المعرفة ، بل وغير راغبين في معرفة شيء عن الأحكام الأساسية

(١) راجع مقابلة رفعت السعيد مع عبد الفتاح القاضي ، المصدر ذاته ، ص ٢٨٨ - ٢٨٩.

(٢) أفيجدور ، ص ص ٨٠ - ٨١.

لتنظيمهم. فالضربة التي سددها الوفد إليه جعلتهم يعتبرون هذا التنظيم، وكذلك أية تنظيمات حزبية أخرى في البلاد إصلاحية خائنة. ولم يعد الحزب الشيوعي الجديد راغباً في خلق الإنسان "الجديد" ولا بتنوير الأمة. كان هو نفسه تجسيداً للمثال الأعلى، فيما بات أعضاؤه هم الأناس "الجدد" المنشودون والذين يصنعون تاريخ مصر الجديد^(١).

(١) القيادة الجديدة للحزب الشيوعي المصري المتوجه كلياً صوب إعلان الثورة الاشتراكية تعمدت التخلي عن أي شكل من أشكال العمل في النقابات الوفدية. ورفضت حتى فكرة علاقات التحالف مع أعضاء الحزب الوطني. واقتصرت نشاط فرع المنظمة الدولية لإغاثة العمال الذي تأسس بفضل الشيوعيين على أعضاء الحزب الشيوعي المصري، مع رفض قاطع لتقديم أية معونة مادية للسجناء السياسيين وأفراد عوائلهم إذا لم يكونوا من الشيوعيين، أرشيف التاريخ المعاصر، ملف ٥٣٩، إضبارة ٣، وثيقة ٦٢٩، ص ٤ و ١١ و ٣١ - ٣٢.

وثمة دلالة كبيرة لتقويم المرحلة الأولى من نشاط الحزب الشيوعي المصري من قبل الذين خلفوا حسني العرابي وأنصاره. كتب العضو البارز في الحركة الشيوعية المصرية أواخر الثلاثينات وأوائل الأربعينات مارسيل إسرائيل أن الحزب في النصف الأول من العشرينات لم يكن مستعداً لممارسة العمل السري. وكان منعزلاً عن حركة الجماهير وليس له صلات جدية مع الفلاحين. ولم تكن اتصالاته مع الطبقة العاملة متينة بالقدر الكافي. إلا أن ذلك مجرد كلام بالمناسبة، لأن وضع الشيوعيين المصريين من هذه الناحية في زمن مارسيل إسرائيل كان أسوأ من ذلك. والمهم في تقويمه الاستنتاج بأن الحزب لم تكن فيه فعلاً كوادراً ثورية. وكان ذلك تلميحاً صريحاً إلى تاريخ تأسيس الحزب الشيوعي المصري وإلى ماضى مؤسسيه.، تقرير مارسيل إسرائيل، رفعت السعيد. اليسار المصري، ص ٢٦١.

(٥) الحزب الشيوعي المصري في النصف الثاني من العشرينات وفي الثلاثينات عملية الانهيار المتواصل

في مطلع أكتوبر ١٩٢٤ استؤنف نشاط الحزب الشيوعي المصري ، وتم تشكيل لجنته المركزية الجديدة وإحياء فروعه في المدن والمحافظات التي عملت ، شأن اللجنة المركزية نفسها ، في سرية تامة^(١).

وفي أواخر أبريل ١٩٢٥ عقد المؤتمر الثالث للحزب الشيوعي المصري بحضور ٢٢ مندوباً نصفهم من أبناء الطوائف غير العربية^(٢). وأشار القرار الذي اتخذته المندوبون حول تقرير اللجنة المركزية إلى أن الحزب يستأنف عمله منذ البداية^(٣) وأن مهمته هي من جديد استعادة مواقعه في الحركة العمالية. وبما أن غالبية الطبقة العاملة المصرية ، كما يعتقد الشيوعيون ، غير منظمة والنقابات القائمة غير قادرة على خوض النضال الطبقي فإن الحزب الشيوعي المصري يجب أن يؤسس منظمة مهنية خاصة به مماثلة للاتحاد العام للنقابات في مصر الذي تم تدميره.

(١) في مقابلة مع المشارك الآخر في الحركة الشيوعية المصرية محمد دويدار يشير رفعت السعيد إلى وجود عدة خلايا للحزب الشيوعي المصري في طنطا عام ١٩٢٧ ، نشاطها كان في منتهى السرية. والصلات بين الخلايا تتم عن طريق عدد قليل جداً من الأشخاص. وكانت الخلايا تدرس الماركسية وتناقش الأوضاع في الاتحاد السوفيتي. المصدر ذاته ، ص ٢٢٨.

(٢) رسالة من مصر بتاريخ ٢٨ أبريل ١٩٢٥ ، أرشيف التاريخ المعاصر ، ملف ٤٩٥ ، إضبارة ٨٥ ، وثيقة ٤١ ، ص ٢١ - ٢٢.

(٣) هنا وفيما بعد وثائق المؤتمر الثالث للحزب الشيوعي المصري ، نقلاً عن المصدر ذاته ، وثيقة ٤٢ ، ص ١٢ - ١.

ونشأ انطباع وكأن الكومنترن لا تعلق آمالاً كبيرة على إمكان بناء تنظيم حزبي متين في مصر. والأكثر من ذلك أن المسؤولين في الكومنترن ليست لديهم، على ما يبدو، أوهام بأن الحزب الشيوعي المصري الجديد يمكن أن يخرج إلى العلن ويتحول إلى قوة سياسية متنفذة. وارتباطاً بذلك، على الأرجح، اقترحت اللجنة التنفيذية للكومنترن على الشيوعيين المصريين تأسيس "كتلة من ثلاثة أحزاب شيوعية شرقاً ووسطية"، هي المصري والفلسطيني والسوري. وبالطبع يبقى كل حزب منها مستقلاً، فيما تتولى اللجنة التنفيذية للتكتل أمر تنسيق نشاط تلك الأحزاب وتعمل على "تقوية نفوذ الحركة الشيوعية في بلدانها والبلدان المجاورة بحيث تتشكل هناك فروع لتلك الأحزاب". وبالطبع كان تحرك اللجنة التنفيذية للكومنترن في هذا الاتجاه قائماً على الاعتقاد بأن العالم العربي يشكل وحدة قومية وجيوسياسية (وكذلك الاعتقاد، كما ورد في أحد قرارات المؤتمر، بأن الأحزاب الثلاثة توحد عملها وفقاً لوحدة المهمات الموكلة إليها وعلى أساس تجانس طبيعة الأحزاب الثلاثة). ومن هذه المقدمة تستنتج فكرة تأسيس منظمة شيوعية موحدة من جهة ومن جهة أخرى لا بد لفكرة "تأسيس التكتل أن تدفع زعماء الحركات الوطنية في هذه البلدان إلى توحيد قواهم في النضال ضد الإمبريالية الرأسمالية". إلا أن المسألة لا تقتصر على ذلك.

اتخذ المؤتمر الثالث للحزب الشيوعي المصري، بمبادرة من اللجنة التنفيذية للأمم المتحدة الشيوعية بالطبع، قراراً بشأن مسألة تأسيس "حزب عمالي فلاحى" في مصر. والمقصود منظمة سياسية علنية تتبنى برنامج الحد الأدنى للحزب الشيوعي المصري وتعمل تحت رقابة مشددة من الشيوعيين وبقيادتهم. ويتضمن برنامج الحد الأدنى هذا المطالبة بجلاء القوات البريطانية وتأمين قناة السويس وبسط الأهلية الحقوقية المصرية على السودان وإقامة العلاقات التجارية والدبلوماسية مع الاتحاد السوفيتي ووضع التشريعات العمالية

وحل المسألة الزراعية. أعضاء الحزب الشيوعي المصري يجب أن ينضموا إليها ليمارسوا النشاط العلني بهذه الصورة. بديهي أن تضم هذه المنظمة العناصر اليسارية في النقابات وفي الوسط الفلاحي وفي الحزبين المصريين الوفد والوطني. وكان الحزب الشيوعي المصري يأمل بأنه سيحقق العلنية بهذه الصورة تحديداً وسيجد قاعدة لتعبئة أعضاء جدد لأن السياسة اللامبدئية للأحزاب القومية تخنق حماس الجماهير الثوري. وبدوره يوفر الحزب العمالي الفلاحي لهذه الجماهير فرصة أن تلعب دوراً هاماً لأنه سيعمل على رص صفوفها ويغمدو قادراً على تجاوز تذبذب القوميين. وشرعت جريدة "الحساب" بالدعاية لفكرة الحزب الشيوعي المصري هذه. وقد صدرت هذه الجريدة ربيع عام ١٩٢٥ برئاسة أحد سكرتيري اللجنة المركزية الجديدة رفيق جبور، وهو من أصل سوري^(١).

في مارس ١٩٢٥ عشية الانتخابات البرلمانية التي أجريت بعد استقالة الحكومة الوفدية الأولى برئاسة سعد زغلول^(٢) قام الشيوعيون بمحاولة لتشكيل لجنة الدفاع عن

(١) كتبت الصحيفة عن نفسها أنها "صحيفة سياسية اجتماعية اقتصادية يومية" تدافع عن حقوق العمال والفلاحين، وتصدر مؤقتاً مرة في الأسبوع. ونشرت في العدد الصادر بالقاهرة في ١٧ أبريل ١٩٢٥ افتتاحية موقعة من قبل رفيق جبور عن الضرائب الجديدة. وكذلك مقالة عن مهمات النقابات ورسائل العمال والفلاحين ومحتويات وثائق المؤتمر الثالث للحزب الشيوعي المصري، المصدر ذاته، ص ١٥ - ٢٢.

(٢) في نوفمبر ١٩٢٤ طالب رئيس الوزراء سعد زغلول بسحب الضباط الإنجليز من الجيش المصري. ورداً على هذا الطلب تعمدت قيادة القوات المسلحة المصرية في تعيين الجنرال البريطاني لي ستيك حاكماً عسكرياً للسودان. وفي ١٩ نوفمبر أصيب القائد العام الجديد بجراح مميتة في هجوم إرهابي في القاهرة. وبعد ثلاثة أيام أُنذرت بريطانيا حكومة الوفد مطالبة ليس فقط بالاعتذار على الحادث ومعاقبة المذنبين، بل ودفع تعويضات وسحب القوات المصرية من السودان التي هي تحت إدارة بريطانية مصرية مشتركة والاعتراف للحكومة البريطانية بحق الدفاع عن مصالح الأجانب في مصر وما إلى ذلك. وبعد أن رفضت =/=

حقوق العمال والفلاحين كلفت بمهمة المشاركة في الحملة الانتخابية. إلا أن تقويمهم لحزب الوفد الذي فقد مكانته القيادية في الدولة المصرية بفعل ضغوط الإنجليز والبلاط الملكي كان قطعياً وشديداً. بدا الأمر وكأن الحزب الشيوعي غير مهتم بنتائج التحول في الحياة السياسية لمصر. فقد وضع علامة المساواة بين الحركة الوفدية وبين من حلوا محلها: القوميون يجيدون قمع تدمير الشغيلة لا أسوأ من صنائع بريطانيا^(١).

وفي ٦ مارس و٨ مايو ١٩٢٥ نشرت جريدة "الحساب" مقالين بقلم رفيق جبور الأولى عن الموقف الطبقي في مصر، والثانية عن الحزب^(٢). كلتاهما تعكسان بالطبع وجهة نظر اللجنة المركزية للحزب الشيوعي المصري، وليس وجهة نظر كاتبهما.

المقالة الأولى تفرد حيزاً كبيراً لتحليل أوضاع الطبقة العاملة المصرية وحركتها النقابية. ولم يكن تناول أحد زعماء الحزب اهم قضية في تراكيب الشيوعيين العقائدية أمراً جاء بالصدفة أو غير متوقع. فطالما اعتبر الحزب نفسه طليعة الكادحين عليه أن يمتلك تصوراً دقيقاً عن القوة الاجتماعية التي وضع مصالحها في حجر الزاوية من نشاطه. وإلى ذلك فإن التحليل المتمعن للحالة الكمية والنوعية لهذه الطبقة ومنظومة العلاقات المتنوعة بينها وبين كل فئات المجتمع المصري ينبغي أن يكون هو الأساس الذي يقوم عليه النهج التكتيكي والاستراتيجي الذي وضعه الحزب الشيوعي المصري لسلوكه ونشاطه. بعبارة أخرى،

حكومة سعد زغلول تلبية بعض تلك المطالب أقالها الملك في ٢٤ نوفمبر ١٩٢٤، وبعد شهر حل البرلمان الذي تعود للوفد الأغلبية المطلقة من نوابه.

(١) "الأمية الشيوعية"، ١٩٢٥، العدد ١، ص ١٥٢.

(٢) النص الكامل لكلتا المقالتين منشور في كتاب رفعت السعيد "ثلاثة لبنانيين في القاهرة". المؤلفات الكاملة، المجلد الأول، القاهرة ١٩٧٨، ص ٣٥٠-٣٦٨. هنا وفيما بعد نقلاً عن هذا المصدر.

توصيف جريدة "الحساب" وارد عند، رفعت السعيد، اليسار المصري، ص ١٧ - ٣٢.

مقالة رفيق جبور اكتسبت أهمية كبيرة كوثيقة من وثائق الحزب.

وقد تضمنت أحكامها الأساسية ما يلي : الطبقة العاملة المصرية أكبر قوة ذات شأن من الناحية الكمية في المجتمع المصري ، أكثر من ٩٠٪ من العدد الإجمالي للأمة المصرية. هذه الحصة الكبيرة للطبقة المذكورة تقوم على كونها ، حسب رفيق جبور ، تضم العمال والفلاحين. وبعد نصف قرن تقريباً ، في بداية ستينات القرن العشرين ، نسمع الكلام ذاته. نسمع عن الشغيلة أو الكادحين الذين يشكلون أغلبية الأمة. إلا أن هذا الكلام يصدر هذه المرة عن جمال عبدالناصر وعن منظري الخيار الاشتراكي بين الضباط الأحرار^(١). على أية حال الفارق بين المصطلحين المترادفين العمال والكادحين اصطلاحى ومائع بقدر كبير.

أغلبية الأمة ، العمال ، يواجههم خصمهم الرئيسي ، طبقة أرباب العمل والإقطاعيين القليلة العدد. وثمة هوة سحيقة تفصل بين القطبين الاجتماعيين المتواجهين. مصالحهما متعارضة بالكامل. إلا أن المقطع العرضي السوسيولوجي للمجتمع المصري لا يكتفي بالتقسيم إلى قطبين. فقد وجد فيه رفيق جبور فئة أو شريحة من المستخدمين وذوي المهن الحرة. وهي غير متجانسة بالأساس ومكونة من الفقراء والأغنياء. الفقراء يشكلون الطبقة المتوسطة التي تغدو موضوعاً حليفاً للطبقة العاملة ، والأغنياء يمثلون الهيمنة الطبقيّة لأرباب العمل والإقطاعيين. عهد جمال عبدالناصر يطرح نفس المخطط السوسيولوجي.

كما تستحق الاهتمام وجهة نظر الكاتب بخصوص الحركة النقابية المصرية التي يقودها الوفد. فرغم الجهود الكبيرة لمؤسسيها وزعمائها- يقول جبور- ظلت الحركة غير منظمة بالقدر الكافي. ولا وجود لعلاقات وثيقة بين النقابات المنتسبة إلى الاتحاد الوفدي ،

(1) 3 R. Egypt's incomplete Revolution 1. 19-2 Ginat.

كما لا تتحلى بروح التضامن والتكاتف. ولم تتحول إلى مدرسة يتلقى فيها العمال خبرة العمل بالقدر الذي يحصل في أوروبا وأميركا. ويستتج رفيق جبور أن الإمكانية الوحيدة لتصحيح الموقف هي إصدار جريدة "الحساب" التي تطلع العمال على المهمات الحقيقية لنضال الكادحين وتصرفهم عن الوعود والعهود التي يطلقها ممثلو الطبقات الأخرى وتجذبهم إلى صف الذين يحرصون عليهم فعلاً ويحاولون مساعدتهم في استعادة حقوقهم المسلوبة^(١).

هذا الموقف يمكن أن يدل على عدم رغبة الحزب في العمل في النقابات الصفراء. ولم يكن هذا الموقف ظاهرة ملازمة للحزب الشيوعي المصري في العشرينات، بل جاءت في وقت متأخر^(٢). إلا أن القضية، على ما يبدو، ليست في ذلك.

(١) رفعت السعيد، ثلاثة لبنانيين في القاهرة، ص ٣٥٩ - ٣٦٨.

(٢) تحدث إسماعيل المندوب المصري في المؤتمر الخامس للأمية النقابية وقال أن الحزب الشيوعي المصري يعتبر الاستعمار البريطاني والبرجوازية الوطنية وأحزابها أعداء للطبقة العاملة المصرية. وأكد أن البرجوازية تؤسس تنظيمات عمالية وهمية لنشر نفوذها بين الكادحين، وأن النقابات الوفدية تطبق سياسة إصلاحية فاشية. ولكن، بفضل نضالنا المنتظم الدؤوب - يقول - تذوب طاقاتها كالثلج تحت أشعة الشمس الحارقة. ويرى إسماعيل أن النقابات الكثيرة لا تعود بأي نفع على العمال لأن في قيادتها من يسمون بالمستشارين من الأطباء والمحامين الذين يستغلونها لمصالحهم الشخصية. ومن جهة أخرى نرى الوضع العصيب للطبقة العاملة الوطنية وسياسة التضليل وخيانة الأحزاب الوطنية والإرهاب الحكومي والنير الاستعماري إلى جانب الكفاح الثوري في العالم كله ونجاحات الطبقة العاملة السوفيتية - كل ذلك يضيفي صفة الثورية على العمال المصريين ويزيد من فعاليتهم ويعمق وعيهم الطبقي. فإذا كان العمال في السابق يميلون إلى القومية والتدين فقد عادوا الآن إلى طريق النضال الطبقي. ويؤكد ممثل التنظيم النقابي الثوري المصري أن الوفد فقد ثقة العمال، وهؤلاء أخذوا يعلقون آمالهم على الحزب الشيوعي. إلا أن الحزب الشيوعي نفسه، كما يقول، لا يزال في الخلف. وتكمن أسباب ذلك في =/=

الإعلان عن تبني أسس العقيدة الشيوعية لا يعني بالضرورة أن الحزب الذي يتبناها يعتبرها إلزامية له. زد على ذلك أن هذه العقيدة في المجتمع الذي لا يزال بعيداً عن التحول إلى كيان وطني فعلي تلقى تفسيراً من الحزب المعني كوسيلة لكسب الشرعية العلنية قبل كل شيء في ذلك المجتمع (على فكرة، هذا يخص بنفس القدر التنظيمات الأخرى غير الشيوعية). ويعتبر هذا الحزب نفسه أداة لبلوغ التجانس الاجتماعي وحلقة مركزية لوحدة الأمة المرتقبة تلتف حولها كل العناصر التي لا تزال مشتتة. بديهي أن تركيبة هذه العناصر ينبغي أن تستجيب لأسس العقيدة الأيديولوجية التي يسترشد بها الحزب المذكور. فإذا كانت الشيوعية هي المرشد الرسمي للعمل فلا بد أن تغدو الطبقة العاملة الحلقة المركزية في البنية الاجتماعية التي يكونها (الحزب الذي يدخل الساحة السياسية تحت راية الإسلام يختلف عن الشيوعيين بكون المسلمين الذين هم أيضاً أكثرية الأمة يغدون بمثابة تلك الحلقة المركزية).

وبهذا المعنى لم يحل رفيق جبور التركيبية الاجتماعية في مصر، بل اقترح مخططاً لإعادة تركيبة المجتمع مستقبلاً على أساس الماركسية المفسرة وفقاً للتجربة البلشفية. وبالطبع العقيدة الأيديولوجية للحزب الناشط في مجال قومي بعيد عن الكمال البنوي النهائي تؤثر أيضاً على انتقاء العناصر الاجتماعية المشتتة التي ينوي إعادة بنائها. بالنسبة للشيوعيين لا يمكن إدراج أرباب العمل وملاك الأراضي ضمن البنية المنتظرة. وقد بين رفيق جبور ذلك بوضوح من جديد. بعبارة أخرى أنه لم يحل

المستوى المتدني للوعي الطبقي عند العمال المصريين وتأثير الوفد القوي والإرهاب الحكومي الذي ينتزع الكثير من الضحايا من صفوفنا، المؤتمر الخامس للأمية النقابية، ١٥ - ٣٠ أغسطس ١٩٣٠. تقرير مخزن. القرارات والمقررات، موسكو ١٩٣٠، ص ٤٤٣ - ٤٤٤.

الواقع، بل اكتفى باستشفاف الأمانى والتطلع إلى المستقبل. ومع ذلك ففي مقالته عن الموقف الطبقي في مصر تحدث ضمناً عن جانب آخر من استشفافه وتطلعه إلى المستقبل.

بنية المستقبل ظهرت ليس فقط من الأيديولوجية الشيوعية (وبنفس القدر من العقيدة الإسلامية والديمقراطية الثورية والقومية وهلمجرا). كما ظهرت من الوعي الذاتي لأنصارها الذين باتوا حلقة مركزية فعلية لها. فالمستقبل - سواء كان الاشتراكية أم الشيوعية - قد تجسد فعلاً في الحزب الشيوعي المصري، في الناس الجدد، الذين غدوا اليوم أعضاء فيه. وهذا هو سبب التركيز المتواصل في الخطاب الذي يستخدمه الحزب (شأن خطاب الإسلاميين والقوميين وغيرهم) على التضحيات التي قدمها وعلى الإرهاب الذي تمارسه السلطات والمستعمرون وعلى المجتمع القديم المتعفن. مجتمع المستقبل، مجتمع العدالة الاجتماعية بناء الشيوعيون اليوم، وأدرجت في بنيتها اليوم أيضاً فقط العناصر والشرائح الاجتماعية التي تستجيب لأحكام العقيدة - العمال والفلاحون والمستخدمون الفقراء وأصحاب المهن الحرة. وبات الحزب الشيوعي المصري "نادياً للنخبة" أبوابه مفتوحة ليس بفضل جذب أعضائه لشخص ما، بل بفضل الاختيار الحر لدى الشغيلة أنفسهم. ولو تمكن الحزب آنذاك من تسلم السلطة لغير نسيج المجتمع المصري جذرياً. ولتمت إعادة البناء هذه بحيث يستجيب المجتمع لأذواق الحزب وعاداته. في الواقع هكذا فعل جمال عبد الناصر وأنصاره عندما استلموا مقاليد الحكم في ستينات القرن العشرين.

مقالة رفيق جبور الثانية (عن الحزب) عبرت عن هذه الأفكار في الواقع^(١).

أشار فيها الكاتب إلى أن مصر ظلت مستعمرة بعد إعلان الاستقلال الرسمي ، فكان لا يزال يلزمها التواجد البريطاني المتعدد الجوانب. لكنه يعتقد أن الاستعمار البريطاني لم يعد بالإمكان اعتباره العدو الأساسي للكادحين. ففي القريب العاجل - برأي رفيق جبور- يبدأ عصر غروب جبروته بسبب الخلافات القاسية بين الدول الاستعمارية من جهة وبنتيجة النضال المتصاعد باطراد للكادحين في تلك الدول.

خصوم العمال المصريين ، وعدوهم. الفعلي ، خلافاً للاستعمار البريطاني ، هم زعماء الحركة الوطنية الذين انتسبوا إلى هذه الحركة من أجل مصالحهم الأنانية. أن كون الحركة الثورية العمالية الفلاحية للشعب المصري تناهض المستعمرين الإنجليز وترأسها الباشوات والرأسماليون وملاك الأراضي سار بالنضال التحرري إلى الوراء. حصل ذلك لأن الأحزاب في مصر اليوم تمثل جماعات سياسية لا مبدئية تفتقر إلى أية أهداف ملموسة. **والشعب ليس له قائد حقيقي.** كُتب هذا الكلام في عهد تنحية حكومة سعد زغلول وتعسف أحمد زيوار باشا صنيعة البلاط ، وفي فترة فوز الوفد من جديد بالأغلبية الساحقة من الأمة خلال الانتخابات النيابية في مارس ١٩٢٥.

لكن رفيق جبور ما كان يستطيع الكتابة على نحو آخر. والأكثر من ذلك أنه اعتبر تنحية الحكومة الوفدية وانتصار الرجعية الملكية حدثين نافعين جداً للطبقة العاملة. فبفضلهما رفع القناع عن وجه الوفد وبدا في نظر الكادحين حزباً لا أخلاقياً سيئ التنظيم

(١) هنا وفيما بعد ، رفعت السعيد ، ص ٣٥٩ - ٣٦٨.

كان رفيق جبور ينوي مواصلة كتابة مقالته هذه. إلا أنه أعتقل في مايو ١٩٢٥ ، فيما منعت السلطات جريدة "الحساب".

ولا حاجة للشعب إليه. وقد هيا الحدثان اللحظة اللازمة لتأسيس حزب العمال، لأن الطبقة العاملة لا يمكنها أن تنتظر إلى ما لا نهاية انتصار الوطنيين الحقيقيين على المزيفين. وكان يتعين على الحزب الشيوعي المصري أن ينتهز هذه الفرصة الملائمة ويزيح الأحزاب القائمة حالياً ويرص صفوف الطبقة العاملة، أي جميع العمال والفلاحين المصريين تحت راياته. وإذا سرنا وفق هذا المنطق تغدو الاشتراكية هدفاً قريباً جداً، ذلك لوجود حزب شيوعي في البلاد والحلقة الأساسية لنظامها السياسي وأداة التحول الجذري للعلاقات الاجتماعية والاقتصادية القائمة.

وللحقيقة لا بد من الإشارة إلى أن الحزب الشيوعي المصري وجه في مايو ١٩٢٥ مذكرة إلى الحزب الوطني والوفديين اليساريين^(١) أشار فيها إلى أن الوضع في مصر يشهد تصاعد الرجعية الاستعمارية والهبوط الوقتي في الحركة الثورية. وهذا يدفع العناصر الثورية حقاً التي ترى هدفها في تحرير البلاد من الاستعمار البريطاني إلى رسم طريق ووسائل رص صفوفها في كتلة موحدة.

ويتضمن نص الوثيقة تهجمات سافرة ومهينة على الوفد تتهمه بأن أحد أسباب خفوت طاقات الجماهير هو سياسته الانتهازية. وأكد الشيوعيون أن لانتهازية الوفد طبيعة اجتماعية. لأن هذا الحزب يعبر عن مصالح الفئة المتوسطة من السكان المصريين،

(١) هنا وفيما بعد راجع:

Memorandum on the Political Action... in Egypt and the 01 ngam for ...ty ...a... of the left wing of the revolutionary naivny Movement.

أرشيف التاريخ المعاصر، ملف ٤٩٥، إضبارة ٨٥، وثيقة ٤٣، ص ٥٠ - ٥٥.

استلمت اللجنة التنفيذية للأمية الشيوعية نص هذه الوثيقة مع رسالة من أفيجدور، جاء فيها: "لا نأمل بأن هؤلاء السادة سيرغبون في تلوّث سمعتهم مع الشيوعيين، ومن المستبعد أن يتوصلوا إلى نتائج ملموسة"، المصدر ذاته، ص ٤٨ - ٤٩.

البرجوازية التجارية من أهالي المدن والمثقفين ، وهم ليس لهم مصلحة في تحرير مصر التام والنهائي من الهيمنة البريطانية رغم الخطاب الثوري لزعمائهم ، ذلك لأن مصالحهم الاقتصادية مترابطة بوشائج عديدة مع استثمار الراساميل الأجنبية في مصر. والدليل على ذلك ، كما جاء في المذكرة ، هو سياسة التنازلات الوفدية فيما يخص السودان وقناة السويس.

وخاطب الحزب الشيوعي المصري الوفديين متوقعاً التفكك الوشيك لحزب الوفد ، حيث يمضي جناحه اليساري مع الفلاحين فيما يسلك جناحه اليميني طريق المزيد من الاستسلام. وقال الشيوعيون الشيء ذاته في الواقع بخصوص الحزب الوطني. وأضافوا: طالما أن مصر معرضة للرسملة أكثر من سائر بلدان الشرق الأوسط فإن هذين الحزبين يدافعان بشكل مسعور عن مصالحهما الطبقية ويؤيدان بقاء القوات البريطانية والرأسمال البريطاني في مصر ويتحولان إلى متاريس تهدد الحركة الوطنية الثورية. ويمكن توفير حافز جديد لهذه الحركة فيما لو مضت الجماعات اليسارية في الحركة الوطنية صوب الحزب العمالي الفلاحي. وكان هذا بالطبع موقفاً بعيداً عن الواقعية.

في مارس ١٩٢٥ وجه الفرع المصري للمنظمة الدولية لإغاثة العمال (وهو فرع للحزب الشيوعي المصري في الواقع) رسالة إلى المنظمات السوفيتية المشرفة عليه جاء فيها أن الحزب الشيوعي المصري لا يزال فتياً وصغيراً من حيث عدد الأعضاء ، وهذا الأمر لا يمكنه من بناء جهاز للتصدي لضربة الحكومة المتوقعة. ولكن تجري في صفوف الحزب ، كما يؤكد الشيوعيون المصريون ، إعادة تنظيم ستساعد الحزب ليس فقط في استعادة مواقعه السابقة بين العمال (قبل الهجمة الأولى على الحزب - كوساتش) ، بل واستبعاد إمكانية تكرار حالة ١٩٢٤. وضمانة ذلك ، كما أشارت الرسالة ، هي المرحلة الجديدة من نهضة الحركة العمالية الفلاحية. فالكادحون المصريون ، كما تقول الرسالة ، ينهضون ضد النير

المزدوج للمستعمرين البريطانيين وحلفائهم البرجوازيين المحليين. غرائزهم الطبقية تتحول أكثر فأكثر إلى وعي طبقي يستنهض الجماهير العمالية والفلاحية للنضال. أما الحزب الشيوعي المصري فهو، كما تفيد الرسالة، ينظم قواه وسيقود الشغيلة في المعركة ضد الاستعمار البريطاني وضد استغلالهم من قبل البرجوازية الإقطاعية المحلية^(١).

ولكن في مايو ١٩٢٥ اعتقل في مختلف المدن المصرية ١٨ شخصاً بتهمة الانتماء إلى الحزب الشيوعي. وأحيل على المحاكمة ١٣ منهم^(٢). وبين هؤلاء جميع أعضاء اللجنة المركزية للحزب التي أعيد تشكيلها في خريف ١٩٢٤، بمن فيهم رفيق جبور^(٣). واتخذ البلاط وحماته الإنجليز من المرافعة التي جرت في قضية "المؤامرة الشيوعية" في سبتمبر ١٩٢٥ ذريعة لحل الجمعية التأسيسية ومعظم نوابها انتخبوا بقوائم حزب الوفد. ودمر الحزب الشيوعي المصري للمرة الثانية. وشهدت السنوات اللاحقة باستمرار تقريباً ضربات قاسية متلاحقة من جانب السلطات على الحركة الشيوعية المصرية. الموقف الذي واجهه

(١) المصدر ذاته، ملف ٥٣٩، إضبارة ٣، وثيقة ٦٢٩، ص ٦٣ - ٦٥.

(٢) كان بين أعضاء قيادة الحزب الشيوعي المصري الذين اعتقلوا وأحيلوا على المحاكمة قسطنطين فايس (أفيجدور) وشالوم بولياك ومون أيلكونين ورزينا أرشامي ومحمد الغنيمي ورفيق جبور وشاكر عبد الحليم وشعبان حافظ وشارلوت روزنتال وأمين الغني ويومي الباسوسي وس. ياناكاكيس وهارون وينبيرغ. وقد اتهموا بأنهم توحّدوا في الفترة من ٦ أكتوبر ١٩٢٤ في تنظيم إجرامي يهدف إلى تعطيل الدستور وإسقاط النظام الدستوري بالقوة والتطاول على الملكية الخاصة وممارسة الإرهاب ضد طبقة الملاك والارتباط بالأهمية الثالثة، المصدر ذاته، ص ٧٠ - ٧١.

(٣) بعد إطلاق سراحه أبعث رفيق جبور إلى دمشق، ثم "أستدعي" إلى فلسطين حيث واصل نشاطه الشيوعي. وتوفي في ٥ يونيو ١٩٢٧، وقد حول الشيوعيون الفلسطينيون تشييعه إلى تظاهرة سياسية كتبوا عنها إلى اللجنة التنفيذية للأهمية الشيوعية أن التشيع أثر في نفوس العرب لأن اليهود والمسلمين حضروا تشييع مسيحي. المصدر ذاته، ملف ٤٩٥، إضبارة ٨١، وثيقة ٥٨، ص ١٩.

الحزب الشيوعي المصري في النصف الثاني من العشرينات وفي الثلاثينات طرح على الأقل سؤالين هامين ومتراپطين ترابطاً وثيقاً في الواقع. السؤال الأول يتعلق بموقف الكومنترن المرجعية الأعلى بالنسبة للحزب فيما يخص تطور الأوضاع في البلدان المستعمرة والتابعة، كما يخص توجيهات الكومنترن التي تحدد تكتيك السلوك السياسي للأحزاب الشيوعية في تلك البلدان، بما فيها طبعاً الحزب الشيوعي المصري. والسؤال الثاني حول تقويم الشيوعيين المصريين للموقف الناشئ حول حزبهم.

الفكرة التي أعرب عنها مراراً دارسو نشوء الحركة الشيوعية في العالم العربي^(١) تقول أن الأحزاب الشيوعية المحلية ما كان بوسعها أن تغدو قوة سياسية فعلية، لأن ما أعاق ذلك هو التذبذب الشديد في النهج التكتيكي للكومنترن في الشرق (على سبيل المثال قرارات مؤتمرها الرابع) حيث لا يبدو أنها تفسر الأحداث الفعلية بالشكل الصحيح. والمقصود هنا ليس فقط الحدود الزمنية لهذه الفترة أو تلك من فترات تطبيق نهج اللجنة التنفيذية للكومنترن. فالمسألة، على ما يبدو، أكثر تعقيداً.

صحيح أن المؤتمر السادس للأمية الشيوعية في أغسطس - سبتمبر ١٩٢٨ كان غير جذرياً وجهة النهج السياسي للأحزاب الشيوعية في الشرق. فإذا كانت الكومنترن سابقاً توصي بتأييد الحركة الوطنية التي تقودها البرجوازية المحلية، فهي باتت بعد المؤتمر السادس تقترح تكتيك "الطبقة ضد الطبقة"، أي المجابهة القاسية للأحزاب البرجوازية الجماهيرية السائرة على رأس الحركة من أجل التحرر من نير الأجنبي. وكانت لهذا التكتيك صلات

(١) هذه الفكرة مشتركة في مؤلفات لأكبر وأجواني وأتباعهما :

Laqueur W Z, Th: Sovm Union and the Middle East F Agwani م.3.. op.
m. r. 139-190.

مباشرة بمصر التي يوجد فيها حزب من هذا النوع هو الوفد. ولكن كيف كانت توجيهات اللجنة التنفيذية للأمية الشيوعية قبل مؤتمرها السادس؟

المؤتمر الرابع للكونغرس الذي عقد في نوفمبر - ديسمبر ١٩٢٢ أقر موضوعات بشأن المسألة الشرقية^(١). وهي تقول إن أمام البروليتاريا الفتية في المستعمرات (في خطاب ذاك الزمان كان هذا المفهوم رديفاً للحزب الشيوعي - كوساتش) "نضالاً طويلاً الأمد ضد الاستغلال الاستعماري وضد الطبقات الحاكمة المحلية". ويتعين على بروليتاريا بلدان الشرق أن تؤدي دور "الزعيم السياسي" لجماهير الكادحين الواسعة. ولهذا الغرض يجب أن يشارك حزبها بهمة ونشاط في الحركة المناهضة للاستعمار والتي تقودها طبقات معادية للبروليتاريا. "فإن رفض شيوعيين المستعمرات المشاركة في النضال ضد الإمبريالية بحجة الدفاع عن المصالح الطبقية الذاتية إنما هو انتهازية من أسوأ الأنواع ويمكن أن يشوه سمعة الثورة البروليتارية في الشرق". هكذا تقول الموضوعات. إلا أنها تتضمن في الوقت ذاته فكرة أن مشاركة الشيوعيين في الحركة الوطنية لا تعني الرغبة في "الوحدة الوطنية أو الوئام المدني مع الديمقراطيين البرجوازيين". أن الطبقة العاملة (الشيوعيين - كوساتش) عندما تناضل ضد الاستعمار ينبغي أن تغدو الزعيم الحقيقي للأمة. والمقصود هو إزاحة القوميين "البرجوازيين" إلى هامش العملية السياسية أو، على الأقل، فصل جزء من المشاركين فيها (ليس العمال والفلاحين أنفسهم - كوساتش) عن زعمائهم الحاليين وجذبهم لجهة الشيوعيين. كان طرح المسألة على هذه الصورة ذا معنيين، يدفع إلى التفكير ليس بالقيمة الذاتية للحركة الوطنية كظاهرة هامة في فترة ما بين الحربين العالميتين، بل بمجرد قيمتها

(١) هنا وفيما بعد المقتطفات من هذه الوثيقة نقلاً عن الأمية الشيوعية في وثائقها. قرارات وموضوعات ونداءات مؤتمرات الكونغرس والجلسات العامة للجنة التنفيذية، ص ٣١٧-٣٢٥.

كأداة ينبغي أن يستخدمها الشيوعيون. في حين أن الشيوعيين بدوا بمثابة الحركة التي يعود لها المستقبل في بلدانهم.

وتفرد موضوعات المسألة الشرقية مكانة خصوصية للمسألة الزراعية. الاستنتاجات المتعلقة بها في هذه الوثيقة تنطلق من عدة مقدمات بينها المثال المصري. وتفترض هذه الاستنتاجات أن تصفية الملكية الإقطاعية الكبيرة للأرض توسع كثيراً حلقة المشاركين في النضال التحرري وتفضي إلى إشاعة الراديكالية فيه بقدر غير مسبوق. وفي هذا الجزء من الوثيقة تشير الموضوعات اعتماداً على المثال المصري إلى السياسة الزراعية النصفية المتبورة للزعماء البرجوازيين للحركة الوطنية. وعلى شيوعي الشرق عدم الاكتفاء بانتقادهم، بل الاعتماد على أفعال الجماهير الفلاحية الواسعة في وضع برنامج زراعي خاص بهم. وتضيف الموضوعات: "لغرض إشراك جماهير الفلاحين الفاعل والنشيط في النضال من أجل التحرر الوطني لابد من إجراء تبدل جذري في أسس ملكية الأراضي ولا بد أيضاً من إرغام الأحزاب القومية البرجوازية على استيعاب هذا البرنامج الزراعي الثوري بأكبر قدر ممكن". وهكذا جرى التأكيد على فكرة تحويل الحركة الوطنية إلى مجرد أداة. لقد اقترحت الموضوعات على الشيوعيين في الواقع تدمير قيادة هذه الحركة وإرغامها على تقبل هذا البرنامج. وما كان بالإمكان تحقيق ذلك إلا بإشعال لهيب تمرد فلاحى ودفع الفلاحين (والعمال طبعاً) إلى نضال يتجاوز حدود النضال ضد الاستعمار، واستنهاضهم للانتفاضة ضد زعمائهم الحاليين. وبدا ذلك في نفس الموضوعات تكتيكاً "لجبهة محددة ضد الاستعمار" تشكل على أساس الاحتفاظ بالدور السياسي المستقل للشيوعيين وتوصلهم إلى اتفاقات "وقتية" مع الديمقراطية البرجوازية. وأهم عنصر في هذا التكتيك هو "تحالف" الحركة الوطنية مع "البروليتاريا العالمية والجمهوريات السوفيتية".

الكومنترن في منتصف العشرينات نظرت أكثر من مرة في الوضع بمصر وفي مسائل

تكتيك الحزب الشيوعي المصري. ففي الجلسة الموسعة الخامسة التي عقدتها اللجنة التنفيذية للكونغرس في مارس - أبريل ١٩٢٥ جرى التأكيد بخاصة على أن الحركة الوفدية تمر بمرحلة أزمة عميقة وخيبة أمل في التوصل إلى اتفاق بالتراضي مع الأوساط الحاكمة في بريطانيا. وجاء في استنتاجات الجلسة "أن القطيعة التي حصلت بين العامل الكبير في الحركة الوطنية الثورية المصرية، حزب الوفد، وبين الحكومة البريطانية في عهد وزارة ماكدونالد العمالية اتسعت أكثر بسبب انهيار عهد الوثام الديمقراطي وانتقال السلطة إلى المحافظين الإنجليز. وأفضى الصراع المتصاعد بين الحركة الوطنية الثورية والسياسة العدوانية للمستعمرين الإنجليز إلى المزيد من التلاحم بين جميع القوى الوطنية الثورية المكافحة من أجل إسقاط النير الاستعماري وفي سبيل الاستقلال التام للشعب المصري". كانت تلك بالفعل - والفكرة واضحة للعيان - لحظة ملائمة بوسع الحزب الشيوعي أن ينتهزها "ليقترب من الحركة التحررية العامة بهدف تشكيل تحالف موحد مناهض للاستعمار مكون من كلا الحزبين الوطنيين الثوريين - الحزب الوطني والوفد لتوسيع وتعميق قاعدة نضال الحركة التحررية الوطنية"^(١).

وبهذا الخصوص طرح خبراء اللجنة التنفيذية للكونغرس (ومعظمهم شيوعيون من فلسطين) مسألة تطور التمايز الطبقي داخل الحركة الوفدية بتأثير تطور الأحداث الثورية. قيادة الوفد ما كانت تستطيع تطبيق سياسة توفيقية سافرة تجاه بريطانيا وزمرة البلاط دون أن تجازف بفقدان ثقة الجماهير. وظهر جناح يساري داخل الوفد يدرك أصحابه "أن فكرة استبدال النظام البرلماني بالاستقلال الحقيقي مجرد وهم"^(٢). وأكد هؤلاء الخبراء أن مواقع

(١) "الأمية الشيوعية" ١٩٢٥، العدد ٤، ص ٦٨.

(2) Correspondances Internationales, 1926, N 116. P. 1307.

الجناح اليساري داخل الوفد ستميل إلى التعزز إذا كانت قيادة هذا الحزب التي تدعي بدور المدافع عن المصالح الوطنية العامة ستقدم على المزيد من التنازلات للإنجليز وتتخلى عن تعبئة الجماهير للنضال الحاسم ضدهم^(١). أما مهمة الشيوعيين في هذه الظروف فتتلخص في "الاستفادة إلى أقصى حد من الميول المناهضة للاستعمار في صفوف الوفد المصري". وعليهم "أن يوسعوا ويؤججوا هذه النزاعات ويشركوا الجماهير فيها ويحولوها إلى عملية ثورية"^(٢). كان هذا هو الاستنتاج الذي خرجت به اللجنة التنفيذية للكونمترن.

في عام ١٩٢٧ توفي سعد زغلول. وقد كتبت صحافة الكومنترن عن وفاته. وما جاء في النعي الذي نشر في «Correspondances Internationales»، وكتبه الشيوعي الفلسطيني يوسف بيرجر، ذو دلالة كبيرة.

كان سعد زغلول، كما جاء في النعي، شخصية لا جدال في هيبتها. وقد ساعد على الحد من القوى الطاردة في صفوف الوفد. وفاته جعلت هذا الحزب على شفا الانشقاق. وبهذا الخصوص تطرح من جديد في جدول أعمال الحركة الوطنية المصرية المسائل الملحة المرتبطة بسبل التطور اللاحق للوفديين - "النضال ضد الاستعمار أم المساومة؟ الحركة الثورية الموحدة للشغيلة أم وجود الزمر السياسية التي تشكلت حسب الأهواء والروابط الشخصية؟ المشاركة في قيادة حركة العمال والفلاحين المنظمة ومراعاة مصالح الفلاحين أم هيمنة البرجوازية في ظل سيطرة الإقطاعيين؟" لقد أن الأوان للشيوعيين أن يجتذبوا نهائياً الجناح اليساري المتذبذب من الوفديين باستخدام تكتيك الجبهة المناهضة للاستعمار، وبالتالي التحكم بالحركة الوطنية. ويجب ألا تغيب عن بال الحزب الشيوعي المصري تجربته

(1) Correspondances Internationales, 1923. N 49. P. 585.

(2) ماديال. أبعاد الدور الثوري للبرجوازية الاستعمارية في ثورات المستعمرات، "الأمية الشيوعية" ١٩٢٨، العدد ٣٣/٣٤، ص ٦١.

الخاصة. فهو لا ينبغي أن يفلت زمام المبادرة أو يفرط في يقظته أبدا. الوفديون اليساريون أيضاً يتحملون مسؤولية أفعال سعد زغلول "عندما طبق إجراءات جائرة جداً لقمع أي مظهر للحركة العمالية وحل نقابات العمال وصوت لقوانين حماية الملكية وجهاز الدولة البرجوازية"^(١).

قرارات المؤتمر السادس للكومنترن كررت في الواقع ما أعلنه المؤتمر الرابع والاجتماعات الكاملة للجنة التنفيذية للكومنترن بعده. إلا أن الأحكام المتماثلة الواردة فيها، وبالدرجة الأولى في موضوعات المؤتمر السادس، عن "الحركة الثورية في المستعمرات والبلدان شبه المستعمرة" جاءت بتركيز هادف أكبر.

وأطلقت هذه الموضوعات على الجناح اليساري في قيادة الحركة الوطنية نعت "الإصلاحية القومية" الانتهازية. وزعماءه - وهو أمر ملازم لمصر - "ميالون إلى التذبذب الشديد يتأرجحون بين الإمبريالية والثورة". موقفهم كبح سير الحركة الثورية من جهة، وعجل من جهة أخرى في "عملية اليقظة السياسية للجماهير الكادحة الواسعة"^(٢). وتستنتج من ذلك على الأقل ضرورة عزل "الإصلاحيين القوميين" لأن تذبذبهم يمكن أن يسدد ضربة لا ترحم إلى طموحات جماهير الكادحين في البلدان المستعمرة والتابعة وسعيها إلى التخلص من "عدوهم المباشر" - تحالف قوى الاستعمار والرجعية الإقطاعية و"صنيعته" الملك فؤاد. ويعني ذلك أن الشيوعيين من الآن فصاعداً مكلفون بمهمة تحقيق الانقلاب الاشتراكي وكذلك الثورة البرجوازية الديمقراطية: "في النضال ضد هذه القوة

(1) Correspondances Internationales» J. (Jérusalem), La mort de Zaghloul Pachn N 95, 1>1338, 1927.

(٢) هنا وفيما بعد، تقرير مختزل عن المؤتمر السادس للكومنترن، إصدار رقم ٦، موسكو - لينينغراد، ١٩٢٩، ص ص ١٣٦ - ١٥٦.

المناهضة للثورة (التحالف الاستعماري الإقطاعي - كوساتش) يجب أن يسير الشيوعيون الهنود والمصريون والاندونيسيون في مقدمة الجميع وأن يكافحوا بحزم وصمود وبسالة أكثر من أية جماعة برجوازية صغيرة أو ثورية قومية ...".

في قسم الموضوعات الخاص بمصر نجد الاستنتاج التالي: "في مصر لا يمكن للحزب الشيوعي أن يلعب دوراً هاماً في الحركة الوطنية إلا إذا اعتمد على البروليتاريا المنظمة. ولذا فإن تنظيم نقابات العمال المصريين وتقوية النضال الطبقي وقيادته أكبر مهمة من الدرجة الأولى للحزب الشيوعي". وتواصل الموضوعات الكلام عن ضرورة إزاحة "الوطنيين - القوميين البرجوازيين" من قيادة الحركة النقابية المصرية، وتشكيل "تنظيم طبقي حقيقي للعمال" على هذا الأساس، وعن تنظيم العمال الزراعيين والفلاحين. وهم أيضاً يجب أن يتصدوا لتحالف المستعمرين والإقطاعيين، وكذلك بالطبع الانتهازيين المتذبذبين في معسكر "الإصلاحيين القوميين".

فهل نشأ بالفعل تناقض جذري بين الاستنتاجات الواردة في قرارات مختلف مؤتمرات الكومنترن؟ الجواب ينبغي أن يكون سلبياً بالطبع من الناحية التطبيقية، في سياق استيعاب هذه الاستنتاجات من قبل شيوعي الشرق، بمن فيهم المصريون. ففي الحالة الأولى (المؤتمر الرابع للأمية الشيوعية) تلقوا اقتراحات بالمشاركة في الحركة الوطنية العامة من خلال تشكيل "جبهة مناهضة للاستعمار" مع "الوطنيين البرجوازيين" وتشجيع عملية التمايز الداخلي في صفوفهم وصولاً إلى انتقال "الجناح اليساري" لصف الحزب الشيوعي. فيما تلقوا. في الحالة الثانية (المؤتمر السادس) تعليمات بتسديد ضربات مباشرة إلى هذا الجناح اليساري المتذبذب جداً من ناحية المواقع التي يشغلها، وبحكم ذلك تكون تلك الضربات أخطر من ضربات "الرجعية الإقطاعية". الفوارق في التلاوين بين موقفي اللجنة التنفيذية للكومنترن هذين كانت بالنسبة للأحزاب الشيوعية الشرقية متمادية في النظرية والتنظير

طبعاً ، ولذا فهي فوارق تجريدية. أما التطبيق في نشاطها ، ومثال الحزب الشيوعي المصري خير دليل على ذلك ، فقد بين دوماً أن الأحزاب البرجوازية القائدة للحركة الوطنية ترى في الشيوعيين جماعة سياسية غير مريحة أبداً وتسدد لهم الضربات بصرف النظر عن تلاوين معتقداتها "الثورية". كان موقفا اللجنة التنفيذية للكونمترن في واقع الأمر شيئاً واحداً بالنسبة لشيوعيين الشرق.

إلا أن ثمة أمراً آخر جعل هذين الموقفين متماثلين ليس فقط من ناحية التطبيق اليومي لهذا الحزب الشيوعي المشرقي أو ذلك. فالكونمترن ما كانت تستطيع ألا تقترح على هذه الأحزاب توصيات انعزالية في الواقع. كانت اللجنة التنفيذية تعرف بالطبع الأسباب التي تجتذب الأشخاص للانخراط في صفوف الشيوعية. هؤلاء كانوا قوميين ويمكن في التقاء الصدف والمناسبات أن يعودوا ويشكلوا كتلة ما من الحركة الوطنية وأن بقدر من الراديكالية. والحيلولة دون السير في هذا الاتجاه ممكنة بشرط واحد هو المواجهة المتواصلة بين الحزب الشيوعي وانصارهم السابقين ، على أساس رسم الحدود الدقيقة بين "الطبقة" القاسية و"القومية" "الوطنية" الضبابية المائعة. وإلا تختفي في البلدان المستعمرة والتابعة التي باتت ساحة للمجابهة بين الاتحاد السوفيتي والغرب تلك الفئات التي انخرطت حديثاً في صفوف مؤيدي الفكرة الشيوعية. وهذا ما جعل الكونمترن تطبق من جديد نهجاً موحداً على العموم لعدم المواجهة المتواصلة بين الأحزاب الشيوعية الشرقية وبين الذين يعتبرون بتفنن كبير خصوماً لها.

أساس هذه المواجهة والآمال المعلقة عليها قائمة على وهم استلام السلطة مستقبلاً ، عندما يسلم الانقلاب الاشتراكي في المستقبل المنظور تلك السلطة إلى الذين يكونون أكثر ثباتاً ويتمسكون بأكبر قدر بالنهج "الطبقي" ويكونون بالطبع أكثر حزماً في مواجهتهم للأجنبي والاستغلاليين المحليين. كان ذلك طرْحاً غائباً صرفاً للمسألة. إلا أن هذا الطرح

وحده وفر المغزى والمعنى للحياة المفعمة بالويلات والمصائب والضحايا اللامتناهية والتي باتت من نصيب الشيوعيين. كان عليهم أن يثقوا بصحة قضيتهم.

كيف تقبل الشيوعيون المصريون، إذن، الموقف الناشئ حولهم؟

في عام ١٩٢٩ نشرت مجلة "الشرق الثوري" في عددتين متتالين مراسلات من مصر بقلم عضو في اللجنة المركزية للحزب الشيوعي المصري اسمه الحركي "جبلي".

المقالة الأولى بعنوان "المأزق"^(١) وهي مكرسة في المقام الأول لتحليل اتجاهات نشاط الوفد الذي كان آنذاك يمثل حزباً للمعارضة العلنية للبلاط الملكي وحكومة الحزب الدستوري الليبرالي الذي شكله الملك برئاسة م. محمود. ولكنها تناولت أيضاً الوضع في الحزب الشيوعي. كتب "جبلي" ما معناه أن الحركة العمالية في مصر ضعيفة جداً، وحزب الطبقة العاملة الذي أضعفته عدة ضربات متتالية لا يمكن اعتباره في الحال الحاضر عاملاً سياسياً جدياً. كان ذلك اعترافاً هاماً، بدا وكأنه انطلق من ضرورة خلق الظروف اللازمة لزيادة تعداد الحزب الشيوعي المصري وتقوية نفوذه. وتأكد هذا الانطباع عندما رسم كاتب المقالة صورة للوضع في حزب الوفد مغايرة نوعياً.

فقد أفاد جبلي أن الوفد في الحال الحاضر يمكن أن يحصل دون ريب على تأييد البرجوازية المتوسطة والصغيرة والمتقفين، ولديه اتصالات لا تزال متينة مع الفلاحين ويتمتع ببعض الشعبية حتى في الأوساط العمالية. ويفهم من كلامه أيضاً أنه ما من حزب سياسي في مصر آنذاك، لا الدستوري الليبرالي ولا حزب البلاط الثاني الاتحاد لا يقارن مع الوفد بأي حال. ولو جرت في البلاد انتخابات ديمقراطية حقاً لأمكن الوفد أن يحصل على الأغلبية المطلقة للأصوات في البرلمان، ولا يستطيع على هذا الأساس أن يشكل

(١) "الشرق الثوري" ١٩٢٩، العدد ٦، ص ١٤٦ - ١٥٠.

حكومة الحزب الواحد. خصومه السياسيون ظلوا ممسكين بمقاليد السلطة بفضل بريطانيا لا غير.

إلا أن متابعة أفكار الكاتب اللاحقة أكثر متعة وإثارة. يقول: موجات الاستياء العفوي من النظام السياسي القائم تتلاطم على شواطئ الوفد. وينتظر الناس من زعمائه ومن تلاميذ زغلول وأشياعه القول الفصل. إلا أن أخشى ما يخشاه الوفد هو حراك الجماهير. هذا الحزب يحاول تضيق نطاق الحركة الوطنية ويدخلها في الأطر الشرعية كلما نهضت وكلما حصل أدنى تملل شعبي. ويضيف: الوفد ينشد دوماً مشاطرة الجماهير، لكنه يتحاشى مشاركتها بكل الوسائل. وهذا القول صحيح بالطبع صحة تهيب الوفد وحلوله النصفية ووسطيته. الموقف الطبقي للحزب الشيوعي المصري في حدود منطق تحليله كان بالطبع تبريراً صائباً للمأزق الذي واجهه الحزب السياسي الريادي في البلاد. ولكن ماذا كان ينبغي القيام به لتغيير هذا الوضع؟

بحسب جبلي المعارضة المبدئية الوحيدة لهيمنة الاستعمار البريطاني والرجعية الداخلية يمكن أن تأتي فقط من الحركة الجبارة للكادحين المصريين، الطبقة العاملة والفلاحين. تلك كلمات من ذهب. فواجب الشيوعيين، كما يقول، هو مراعاة الاستياء العميق لدى السكان الكادحين جميعاً وتعبئة الجماهير ليلتفوا حول مطالب الحرية السياسية الحقيقية والتكافؤ الاجتماعي. آنذاك فقط تنتصر الحركة الوطنية الثورية على نظام القهر الاستعماري وعلى سلطة الأرستقراطية الإقطاعية.

ولقد ظهر شعور غريب بلامعقولية الموقف. ففي مصر حركة وطنية قوية، لكن الشيوعيين ينظرون إليها نظرة الاستعلاء والازدراء، ويظلون بمنأى عنها ويعدون سر ثورتهم الوطنية كبديل عن الظاهرة الحاضرة على أرض الواقع. علماً بأنهم لا يتعدون قيد أنملة عن السبل التي رسمتها الكومنترن، لأنهم يرون فيها الأمر الرئيسي وهو الحفاظ

على استقلالية الحركة العمالية و"عذريتها الطبقية". فهل يعقل أنهم معجبون بحالة الحزب الذي يتعرض للملاحقة طول الوقت ولا يرغبون في تغيير الواقع المحيط بهم، بل ينتظرون أن يقدم لهم هذا الواقع إمكانية الاستعانة بضحاياهم وخسائرهم ليلعبوا عليها ويتقدموا إلى الأمام؟ هل يعقل أن الحزب الشيوعي المصري كان ينتظر أن يصل جمهور الكادحين نفسه إلى مرحلة خيبة الأمل في قيادتهم؟ ولكن لكي يحصل ذلك لابد من حدوث أزمة حقيقية للوفد. وعلى أية حال، فقد أشار جبلي في مقالته إلى قرب حلول الوقت الذي يستطيع فيه الكادحون بأنفسهم أن يكتسوا المتحجرين من الوفد.

في يوليو ١٩٣٠ اندلعت من جديد انتفاضة وطنية يقودها الوفديون ويشارك فيها آلاف مؤلفة من فقراء المدن والأرياف. وتحدث الشيوعيون المصريون في كتابات بصحافة الكومنترن عن إعلان الأحكام العرفية في البلاد وعن الاشتباكات الدموية بين الثوار والقوات الحكومية في المنصورة والإسكندرية ومنطقة قناة السويس. إلا أن رسائلهم من مصر لم تتضمن ولا كلمة واحدة عن مشاركتهم في المقاومة ولا عن بطولة وتضحيات المناضلين الفعليين في سبيل الحرية. الرسائل تحدثت فقط عن دسائس "الامبرياليين الاجتماعيين" وعن زعماء الوفد وأعوانهم الذين استهدفهم حراب العسكر^(١).

على أية حال شارك الحزب على نحو ما في تلك الأحداث. فخلال الانتفاضة نشر الحزب الشيوعي بياناً فضح تكتيك الأحزاب القومية ودعا العمال والفلاحين إلى توحيد الصفوف لإسقاط الهيمنة الإستعمارية والرأسمالية المحلية^(٢). كان هذا البيان الوثيقة الوحيدة للشيوعيين المصريين في أيام يوليو ١٩٣٠. وجاء فيه: فليشارك هؤلاء الأشخاص

(١) راجع مثلاً: Correspondnnces Inlemalinnales, 1930. N 66, P. 830

(2) Cnrrespondances mxcmationnks, 1930. N 64, 1, 71:2.

(الوفديون وأعدائهم - كوساتش) أنفسهم في التظاهرات وليناضلوا بأنفسهم ويموتوا طالما أنهم يدافعون عن مصالحهم الخاصة^(١). كان الشيوعيون ينتظرون آنذاك بأمل كبير انقساماً في صفوف الثوار وعزوف الجماهير عن قاداتها. حتى أنهم زعموا أن ذلك يحصل بالفعل مصورين أوهامهم على أنها هي الواقع^(٢).

ولكن ألم يكن الرفض الحازم حتى لفكرة التعاون مع الوفديين قد شمل أيضاً علاقات الحزب الشيوعي المصري مع القوى السياسية الأخرى في البلاد؟ لنعد إلى كتابات جبلي لنطلع على رأيه بهذا الخصوص.

مقالته الثانية بعنوان: حزب ليس لديه ما يقوله^(٣). والمقصود الحزب الوطني المصري. وهو ثاني حزب سياسي في مصر من حيث الأهمية. ومن الناحية التاريخية هو أول تنظيم في البلاد طالب بالاستقلال الوطني وأبدى في السنوات التي سبقت الحرب العالمية الأولى اهتماماً كبيراً بتنظيم الحركة العمالية المصرية، وكان في أواخر العشرينات وبداية الثلاثينات عضواً في عصبة مناهضة الاستعمار التي كانت تعمل برعاية الكومنترن. كان الوطنيون المصريون في تلك السنوات جناحاً يسارياً علنياً للحركة الوطنية في مصر.

كتب جبلي أن الوطنيين حزب لمثقفي البرجوازية الصغيرة كانوا يعملون بوصفهم

(١) أفيجدور. أزمة النهضة الثورية في مصر، "الشرق الثوري"، ١٩٣٢، العدد ١ - ٢، ص ١٣٢.

(٢) أبلغوا في رسائلهم من البلاد أن تطور الأحداث كشف عن تناقض عميق بين البرجوازية والبروليتاريا، بين القوميين وملايين الفلاحين. وتنتقل الفئات الحاسمة من السكان المصريين - العمال والفلاحون إلى مواقع النضال ليس فقط ضد الاستعمار، بل وكذلك ضد مديري شؤون الاستعمار البريطاني في مصر - البرجوازيين المصريين.

Correspondances Inlemationales, 1930, N 67, P. 843.

(٣) "الشرق الثوري" ١٩٢٩، العدد ٧، ص ٢٨٨ - ٢٩١.

القوة السياسية العلنية الوحيدة في البلاد والتي ترفض قطعاً إمكانية تنسيق مصالح مصر مع مصالح بريطانيا. بعبارة أخرى يدور الكلام عن تنظيم راديكالي يشكك في نهج الوفديين في الحركة الوطنية وعن نصير وحليف محتمل للشيوعيين في النضال من أجل المثل العليا التي يعتبرونها مثلهم هم. زد على ذلك أن الوطنيين تعاونوا مع الكومنترن، وأن بصورة غير مباشرة، الأمر الذي من شأنه أن يقوي الاتجاه نحو ميل كلتا مجموعتي الفعل السياسي إلى بعضهما البعض وتشكيل علاقات ائتلافية بينهما. ولكن اتضح فجأة أن الشيوعيين ليسوا معنيين بذلك أبداً.

وأشار جبلي إلى أن الوطنيين الذين يتعرضون لضغوط من البرجوازية الصغيرة المتأثرة بالراديكالية سلطوا نقداً شديداً على مواقف الوفديين ولاموهم على تنازلات الوفد ووصموا مساوماته بالخيانة. وأصروا على أن التفاوض مع بريطانيا غير ممكن طالما يربط الجيش البريطاني في الأراضي المصرية. وأحياناً كانوا، كما يقول، يقدمون على التفاتات ثورية جداً، مثل عضويتهم في عصبة مناهضة الاستعمار. ولكن هل كانت ثمة إمكانية لتثبيت مواقع الوطنيين الإيجابية؟ الشيوعيون يجيبون بالنفي على هذا السؤال. جبلي يصر على أن الحزب الوطني في أي حادث سياسي جدي (يبدو أنه اعتبر من أمثال هذا الحادث ما سيجري في المستقبل، وخصوصاً نضالات الكادحين بقيادة الشيوعيين) يبقى بمنأى عنه وأن صفوف هذا الحزب تتضاءل باطراد. ويقول إن الحزب الوطني عندما ينتقد الوفد يظل مع ذلك في معسكر أنصار الرجعية السافرين.

ويرى الكاتب أن من الضروري إكمال التفكك التنظيمي للوطنيين وانتساب العناصر الحية من هذا الحزب إلى الحزب الشيوعي المصري. وطالما أن الحزب الوطني يلفظ أنفاسه (حيث يعرض، كما يقول الكاتب، عدم قدرته على ترك خشبة المسرح ويثبت بكامل سلوكه الجماهير الشغيلة عدم جدوى

راديكاليته البرجوازية الصغيرة الصاخبة) فمن الضروري الإجهاز عليه وتعجيل تفككه.

وبذلك يزداد الإحساس بلامعقولية الموقف. الشيوعيون يسعون من جديد إلى البقاء بمنأى عن العملية السياسية الجارية فعلاً. ومن جديد ينظرون بازدراء وتعالٍ إلى المشارك الفعلي، ولو بقدر أقل من الوفد، في الأحداث الجارية في بلادهم. ظلوا يمثلون نادياً للنخبة، وكتلة ضئيلة تنتظر الانهيار العام الوشيك، وعندها يخرجون إلى الشعب في ساعة الهلاك لإنقاذه وإلقاء طوق النجاة بوصفهم المناضلين الحقيقيين من أجل سعادة الشعب. حركتهم الثورية الوطنية التي ينوون تشكيلها كما يزعمون يجب أن تتألف في واقع الأمر من أعضاء الحزب الشيوعي المصري وحده. وينبغي تفكيك الحزب الوطني حتى تختار عناصره الحية بنفسها الانتساب إلى نادي الصفوة الشيوعية. وبالطبع لن يعرض عليهم أحد في هذا النادي مناصب عليا وأدواراً قيادية.

وإلى ذلك كانت مقالة "جبلي" بمثابة إخبارية عادية على الوطنيين. فقد قدمت إلى الكومنترن تقويماً شديداً السلبي لأن اتصالاتهم مع موسكو يمكن أن تفضي إلى ظهور قناة موازية أخرى لعلاقات روسيا بمصر وظهور تنافس مع الحزب الوطني يمكن ألا تروق نتيجته للشيوعيين. وكان ذلك أخشى ما يخشونه. على فكرة، تلك الإخبارية ظهرت عندما كانت اللجنة التنفيذية للكومنترن تعمل بإصرار على تحقيق فكرة ضرورة نضال شيوعي الشرق من أجل تفكيك أحزاب البرجوازية الصغيرة. وبعد فترة طويلة من ذلك تكرر هذا الموقف، في وضع تاريخي مغاير طبعاً، ولكن بنفس أساليب الدسائس والإخباريات، عندما أخذ الاتحاد السوفيتي يقيم علاقات وثيقة بقدر ما مع الأنظمة "الثورية الديمقراطية" في الأقطار العربية المستقلة. وقد تطورت تلك العلاقات بالطبع بما يلحق ضرراً كبيراً بشيوعي تلك البلدان.

ولكن كيف كان تطور الحزب الشيوعي المصري نفسه في تلك السنوات؟ هذا سؤال

مبدئي.

في العادة يعتبر أهم سبب لركود الحزب الشيوعي المصري في النصف الثاني من العشرينات وفي الثلاثينات خيانة سكرتيه العام محمود عبدالعزيز^(١). هذا أمر لا بد من الموافقة عليه. فالدوائر الأمنية المصرية والمخابرات البريطانية في مصر حصلت على معلومات وافية عن الحزب. ما جعله يناشد اللجنة التنفيذية للكونمترن طول الوقت أن توافق على تشكيل مكتب سياسي (هيئة قيادية عليا) له في أحد بلدان البحر الأبيض المتوسط أو أوروبا (اليونان أو النمسا على الأرجح) يتولى قيادة الحزب من الخارج دون متاعب. وبذلك يتخلص من لزوم تجديد رئاسته طول الوقت. إلا أن اللجنة التنفيذية للكونمترن كانت ترفض الطلب دوماً^(٢). وهذا أمر مفهوم. فإعالة هيئة قيادية للحزب الشيوعي المصري في الخارج تتطلب مالا. وقد لجأ الشيوعيون المصريون الذين يفهمون هذه الحقيقة إلى تكتيك ابتزاز الكومنترن الذي استخدمه "حسني العرابي" لأول مرة. وعندما

(١) قرار فصله من الحزب (بسبب الدسائس والتشويش على الصفوف الحزبية) اتخذته اللجنة التنفيذية للكونمترن في ١٠ يوليو ١٩٣٢، وليس قبل ذلك. وجاء فيه أن رفاق عبدالعزيز اتهموه بالعمالة والتجسس. ومع ذلك فصل من الحزب لأنه "رفض المشول أمام اللجنة التنفيذية للكونمترن ليبرر ساحته"، أرشيف التاريخ المعاصر، ملف ٤٩٥، إضبارة ٨٥، وثيقة ٩٦، ص ٢٣.

إلا أن المعلومات عن خيانة محمود عبد العزيز كانت تتوارد على موسكو طول الوقت. ويكفي هنا الاستشهاد بتصريح الشيوعي الأرمني الأصل م. بوغوسيان الذي أبعد من مصر إلى الاتحاد السوفيتي عام ١٩٣٠، المصدر ذاته وثيقة ٩٥، ص ٨ - ٩.

(٢) هنا وفيما بعد راجع، مثلاً، تقرير الممثل المصري علي إلى اللجنة التنفيذية للكونمترن في ٢٨ يوليو ١٩٢٧ ومسودة القرار بشأن هذا التقرير في ٥ أغسطس ١٩٢٧، أرشيف التاريخ المعاصر، ملف ٤٩٥، إضبارة ٨٥، وثيقة ٥٥، ص ١ - ٩ و ٣٤ - ٣٥.

قدم ممثل الحزب هذا الطلب إلى القسم الشرقي في اللجنة التنفيذية للكونمترن نوه بأن انهيار الحزب الشيوعي في مصر أضعف تأثير روسيا على الشعب المصري في حين كان الموقف من روسيا سابقاً كموقف المسلمين من مكة. ولولا الحرب في الصين ولولا المشتريات الأخيرة للحكومة السوفيتية من القطن المصري لنسي المصريون الاتحاد السوفيتي.

التقارير التي كانت تصل إلى القسم الشرقي في اللجنة التنفيذية للكونمترن في أواخر العشرينات تفيد أن الحزب الشيوعي المصري يتدهور على الدوام. إلا أن هذه التدهور حصل حتى بعد عام ١٩٣٢ عندما فصل محمود عبد العزيز من الحزب.

جاء في تقرير أرسل من القاهرة إلى موسكو بتاريخ مارس ١٩٢٧ أنه "لا وجود في البلد لأي تنظيم سوى شارلوت (ابنة روزنتال - كوساتش) ورفيقي من الإسكندرية. جولة مراسل اللجنة التنفيذية للكونمترن على الإسكندرية والقاهرة وبورسعيد وطنطا والزقازيق والمنصورة بينت أن عدد أنصار الشيوعية المحليين لا يكاد يصل إلى ثلاثين شخصاً في أفضل الأحوال^(١). زد على ذلك أن مجادلات متواصلة تجري بينهم فيما يخص ضرورة الحفاظ على الحزب (شارلوت روزنتال تعتقد أن وجود الحزب الشيوعي في بلد مستعمر بدون دعم مادي كامل من الكومترن متعذر من حيث المبدأ)^(٢).

في عام ١٩٢٨ زار مصر اثنان من ممثلي اللجنة التنفيذية للكونمترن دون ترابط فيما بينهما. أحدهما شيوعي من فلسطين اسمه يعقوب تبير (الاسم الحركي شامي) كان يعمل في جهاز اللجنة التنفيذية، والسكرتير العام للجنة المركزية للحزب الشيوعي الفلسطيني

(١) المصدر ذاته، وثيقة ٥٧، ص ١-٣.

(٢) المصدر ذاته، ص ٢٥.

فولف أفيربوخ (اسمه الحركي أبو زيام). آنذاك كان أفيجدور المعتقل للمرة الثانية أثناء الهجمة على الحزب قد أبعد من مصر، فيما كانت اللجنة التنفيذية للكومنترن بحاجة إلى تقويم واقعي غير متحيز للموقف في البلاد، وبالتالي لوضع الحزب الشيوعي المصري وإمكانياته.

عندما عاد شامي إلى موسكو أعد موضوعات عن مصر أشار فيها إلى ضعف الحركة الشيوعية المصرية تنظيمياً، وكذلك إلى المشاحنات اللامتناهية بين الرفاق المصريين والتي أفضت إلى تفتت الحزب إلى عدة جماعات ومجاميع لا تمارس في الواقع أي عمل حزبي^(١). وباعتقاده أن المصريين لن يتمكنوا من استئناف نشاط الحزب. و"ينبغي إرسال مجموعة من الفلسطينيين أو السوريين من خريجي جامعة كادحي الشرق إلى مصر". وينبغي حل كل الهيئات الحزبية الموجودة آنذاك وإرسال "رفاق مخولين من الأهمية الشيوعية إلى مصر". وكان ينتظر أن يت رأس هو التنظيم الحزبي الجديد.

وفيما بعد أعرب شامي في الحقيقة عن تشاؤم شديد فيما يخص إمكانيات الحركة الشيوعية المصرية. ففي مسودة القرار التي أعدها عن مصر بعنوان "المهمات الأساسية للحركة الوطنية الثورية والشيوعية في مصر" يقول إن العدو الأول للحركة الوطنية المحلية هو سياسة الخطاب الثوري الأجوف التي اعتمدها الوفديون وكذلك الوفد نفسه كحزب^(٢). الفكرة القديمة لحزب العمال والفلاحين شطبها الوفد في الواقع. فإن نفوذ هذا الحزب بين الجماهير كبير جداً، ولم يعد هناك حزب شيوعي في الواقع. ولا سبيل إلا تشكيل حلف في البلاد لجميع القوى الثورية على أساس برنامج ثوري ديمقراطي يضم

(١) هنا وفيما بعد، المصدر ذاته، ص ١-٢.

(٢) هنا وفيما بعد، المصدر ذاته، ص ٧-١٠.

شعارات مكافحة الاستعمار بلا هوادة والاستقلال التام لمصر والسودان وإعلان الجمهورية وتطبيق التشريعات العمالية والاجتماعية على نطاق واسع والحل الثوري لمشكلة الأراضي والمياه وعقد معاهدة مع الاتحاد السوفيتي. وكان المفروض أن يتألف هذا التحالف من النقابات والمنظمات الطلابية واتحادات الحرفيين والتجار ونوادي الثقافة والتنظيمات العلنية للوفديين والوطنيين وحتى بعض القوميين المتنفذين.

أما تقرير "أبوزيام" فقد وصل إلى موسكو في مارس ١٩٢٨ من فلسطين^(١). كتب يقول: عندما وصلت لم تكن هناك خلايا. كان هناك عزيز (محمود عبدالعزيز - كوساتش) وحده يقوم بكل الأعمال على هواه. الكوادر القديمة توزعوا على القرى والأرياف بعد السجن وانشغلوا بمسائل المعيشة. والخلاف قائم بين الأوروبيين والعرب. لقد كان أبوزيام يرى حل المسائل المتعلقة بالحزب الشيوعي المصري في تشكيل قيادة موحدة للحزبين (المصري والفلسطيني - كوساتش) وفيما بعد يصار إلى تأسيس مركز قيادي موحد. وبدا وكأن المطروح هو الفكرة التي عرضتها الكومنترن لتشكيل اتحاد فيدرالي لشيوعيين الشرق تتم قيادته هذه المرة من فلسطين. وأعلن الحزب الشيوعي الفلسطيني عن نيته إرسال عدد من الرفاق إلى مصر للعمل في اللجان المحلية وكذلك بعض الفنيين والمدرسين. وكان ينبغي من جهة أخرى أن يتم في فلسطين تأهيل الشيوعيين المصريين. ووضع كلا الحزبين خطة عمل موحدة وشكلا ممثلية مشتركة لدى اللجنة التنفيذية للكومنترن، وأخيراً وزعا القوى لباقي الأقطار العربية (شرق الأردن وسورية وغيرهما). وبالطبع الأموال التي اعتمدتها الكومنترن للحزب الشيوعي المصري تنتقل إلى عهدة القيادة الموحدة. كما أعلن أبوزيام أن اللجنة التنفيذية للكومنترن اعترفت من حيث المبدأ بضرورة الاتحاد الشيوعي العربي،

(١) هنا وفيما بعد، المصدر ذاته، وثيقة ٧٣، ص ٢-١١.

ما يعني أنه يجب على كلا الحزبين أن يقدموا إلى المؤتمر السادس للكونغرس خطة تأسيس الاتحاد.

إلا أن اللجنة التنفيذية للكونغرس كانت في أواخر العشرينات تميل أكثر إلى قبول مقترحات شامي. فأرسلت إلى مصر أحد خريجي جامعة كادحي الشرق يحمل الاسم الحركي طنطوف. وقد منح كل صلاحيات اللجنة اللازمة، وتمكن في آخر المطاف أن يوحد مختلف الجماعات الشيوعية المشتتة. إلا أن ما حصل، أغلب الظن، هو الاستئناف الشكلي لعمل التنظيم الموحد الذي ضم، على حد قوله، خمسة أعضاء من النادي الأرمني في القاهرة و ٢٥ من طلبة المدارس المحلية وخمسة من عمال السكك الحديدية. ولم يتجاوز عدد شيوعي الإسكندرية عشرة أشخاص^(١). ومع ذلك تم بمجهود طنطوف تشكيل لجنة مؤقتة للحزب الشيوعي المصري شرعت بالتحضير لمؤتمر جديد للحزب^(٢).

واعتبرت اللجنة التنفيذية للكونغرس إجراءات طنطوف نجاحاً كبيراً. ففي وثيقة بعنوان: "مسودة رسالة إلى الحزب الشيوعي في مصر"^(٣) مؤرخة في يناير ١٩٢٩ أشارت اللجنة إلى "الإرتياح من توقف الخلافات والنزاعات" وكون الحزب قد بدأ السير نحو التحضير لمؤتمر جديد تحت شعار "التقوية التنظيمية" و"التوغل في النقابات". إلا أن الكونغرس نصحت حلفاءها المصريين أن لا ينسوا "الشعار السياسي الأساسي للنضال الثوري ضد الاستعمار وتحرير مصر والسودان وتأسيس الجمهورية". وطلبت منهم "أن يربطوا هذا الشعار بفكرة السوفيات". واعتبرت هذه الوثيقة حزب الوفد "أخطر عدو

(١) المصدر ذاته، وثيقة ٩٨، ص ١-٧.

(٢) المصدر ذاته، وثيقة ١٠٢، ص ١-٥.

(٣) هنا وفيما بعد، المصدر ذاته، وثيقة ٧٥، ص ٢-٧.

للجماهير الشعبية المصرية" وطالبت الحزب الشيوعي المصري بالنضال "ضد الوفد كحزب وفضح كل خطوة خيانية منه بلا هوادة" (وكان على الحزب الشيوعي أن يناضل بنفس القدر أيضاً ضد الحزب الوطني). ولذا "يغدو النضال ضد أيديولوجية الوفد شرطاً ضرورياً لنجاح النضال ضد الاستعمار والرجعية البرجوازية الإقطاعية". كان ذلك قسوة كبيرة في طرح المسألة على نحو دفع الجماعة الصغيرة من الشيوعيين إلى شفا الكارثة^(١).

في أواخر عام ١٩٣١ بات الحزب الشيوعي المصري يضم ٤٠٠ عضو ثلثاهم من العمال والمستخدمين والباعة العرب، والباقون عمال أرمن ويونانيون من منتسبي نواديهم. وكانت ثمة خلايا حزبية في القاهرة والإسكندرية وطنطا والزقازيق وبورسعيد والسويس وأسيوط وعدد من المدن الأخرى. ومع ذلك لم تغلح الكومنترن في توسيع نفوذها بين النقابات (ما عدا نقابة عمال البناء الثورية التي شكلتها) إلا أن زعماء الكومنترن كانوا يحتفظون بـ ١٥٠ عنواناً لفلاحين لهم صلات معهم^(٢).

في عام ١٩٣١ ذاته عقد المؤتمر الرابع للحزب الشيوعي المصري، وخلال له تم انتخاب اللجنة المركزية الجديدة للحزب^(٣) وإقرار البرنامج الحزبي وبرنامج الفلاحين^(١). كلاهما

(١) هذه الوثيقة فنددت موقف أبوزيام بالكامل. فقد جاء فيها "أن كلاً من هذه الأحزاب الثلاثة (الفلسطيني والسوري والمصري - كوساتش) يعتبر فرعاً مستقلاً للكومنترن مرتبطاً بها مباشرة ويعمل تحت إشرافها تماماً. وبالتالي فليست صحيحة المعلومة التي استلتموها والقائلة أن السكرتارية الشرقية قبلت اقتراح عقد مؤتمر للأحزاب الثلاثة لهذا الغرض". ومع ذلك كانت الكومنترن تعتقد أن من الضروري لهذه الأحزاب أن "تقيم الاتصالات اللازمة وتساعد بعضها البعض فكرياً ومادياً (بتبادل الخبرات والزيارات والمواد والأدبيات وما إلى ذلك)"، المصدر ذاته، ص ص ٦ - ٧.

(٢) تقرير عن الوضع في مصر مؤرخ في ١٨ نوفمبر ١٩٣١، المصدر ذاته، وثيقة ٩١، ص ص ١ - ١١.

(٣) ضمت عبده وفريدمان وجرجي ورشيد وزيدان وسليمان، وسعيد ومحمد ومهران. كما بات زكي =/=

مكتوبان بالعربية ويستشهدان كثيراً بوثائق المؤتمر الثاني للحزب.

برنامج الحزب الشيوعي المصري يعلن من جديد أن الحزب يناضل في سبيل التحرير السياسي والاجتماعي والاقتصادي لوادي النيل ، وفي سبيل تقدم الشعبين المصري والسوداني وتخليصهما من نير الاستعمار والعبودية. ولابد من الترابط الوثيق بين الشعبين ، ولكن ليس من أجل استعباد الطبقة العاملة السودانية ، بل من أجل نفع الشعبين ومن أجل الاستثمار المشترك للثروات الطبيعية ومكافحة ظلم الأجانب والوطنيين. ويقترح البرنامج من جديد تشكيل جبهة في كلا البلدين من العناصر "الأشد تطرفاً والموثوق بها" في صفوف الحركة الوطنية. ولا تختلف مطالب الحزب الشيوعي الباقية عن أحكامه لبرنامج عام ١٩٢٣. ويخص ذلك بنفس القدر برنامج الفلاحين الجديد الذي لا تغيير فيه سوى بعض مفردات الديباجة.

إلا أن «Correspondances Internationales» نشرت في عام ١٩٣٢ مسودة برنامج عمل الحزب الشيوعي المصري التي أرسلت إلى موسكو من قبل "جماعة من الشيوعيين المصريين" ، كما كتبت المجلة ، لمناقشتها في أقسام الكومنترن المعنية^(٢). وفي عام ١٩٣٤

وأحمد مرشحين لعضوية اللجنة المركزية. أما المكتب السياسي فقد ضم فريدمان وعبدو وجرجي ، المصدر ذاته ، وثيقة ٨٩ ، ص ٤.

ولا موجب للقول بأن هذه الأسماء أسماء حركية. فإن السرية تامة ، وفي ذلك دلالة كبيرة على حالة الحزب.

(١) هنا وفيما بعد : برنامج الحزب الشيوعي المصري وبرنامج الفلاحين ، المصدر ذاته ، ص ٦ و ٦ ألف.
(2) Correspondances Internationales, 1932, N 48, P. 523.

وكذلك :

Correspondances Internationales, 1932, N 49. P. 534-535.
Correspondances Internationales, 1932, N 511, P. 546-547.
=/=

نشرت هذه الوثيقة بصفة برنامج عمل للحزب الشيوعي المصري، من دون تعديلات تستحق الذكر، في مجموعة صدرت بموسكو تحت عنوان "الوثائق البرنامجية للأحزاب الشيوعية في الشرق"^(١).

بداية هذه الوثيقة مكرسة بالطبع للوضع الاجتماعي والاقتصادي في مصر. وكانت، كما هو المتوقع، وحيدة الجانب. (مصر مزرعة عبيد للقطن، الصناعة الوطنية ضعيفة

قد يكون من المشكوك فيه أن هذه الوثيقة كتبها الشيوعيون المصريون أنفسهم. فهي تختلف كثيراً عن وثائقهم من حيث اللغة والأسلوب ومن حيث المعرفة والاستخدام الفطين للمصطلحات الشيوعية. والأرجح أن برنامج عمل الحزب الشيوعي المصري هو ثمرة أبداع العاملين في القسم الشرقي لدى الأمانة الشيوعية. الوثائق المحفوظة في أرشيف التاريخ المعاصر توفر الدليل الكافي على إمكان التوصل إلى استنتاج كهذا. فقد أبلغ طنطوف من مصر، على سبيل المثال، أن "اللجنة المؤقتة للحزب الشيوعي المصري" التي شكلها ترجو "إرسال" برنامج العمل غير المعروف بالنسبة لأعضاء هذه اللجنة"، أرشيف التاريخ المعاصر، ملف ٤٩٥، إضبارة ٨٥، وثيقة ١٠٢، ص ٥.

ويشير تقرير عن نشاط الحزب الشيوعي المصري مؤرخ في ٢١ يناير ١٩٣٥ ويتناول الفترة بين مؤتمري الكومنترون السادس والسابع إلى أن هذا البرنامج "صاغ بمساعدة أفضل بروليتاري مصر والأمانة الشيوعية"، المصدر ذاته، وثيقة ١٠٨، ص ٣٠.

وأخيراً لا توجد بين وثائق أرشيف التاريخ المعاصر نسخة عربية أصلية لهذه الوثيقة (وهي يجب أن تكون باللغة العربية فيما لو كانت قد كتبت في مصر). ولكن يوجد الأصل الروسي وقد أشير فيه إلى أنه "مسودة وثيقة للسكرتارية الشرقية". ويبدو أنها ترجمت إلى اللغة العربية لمناقشتها فيما بعد مع ممثلي الحزب الشيوعي المصري، المصدر ذاته، وثيقة ٩٣، ص ٨ - ١٧، ص ٢٣٧ - ٢٤٩.

(١) الوثائق البرنامجية للأحزاب الشيوعية في الشرق، مراجعة ل. ماديان، ب. ميف، م. أوراخيلوفشيلي، ج. سافاروف. موسكو ١٩٣٤، ص ١٧٠ - ١٨٢.

هنا وفيما بعد المقتطفات من برنامج عمل الحزب الشيوعي المصري نقلاً عن النص المنشور في مجموعة الوثائق هذه.

تتطور ببطء في نطاق محدود، السواد الأعظم من السكان مقيدون بالأرض، الشعب المصري يزرع تحت نيرين - الاستعمار البريطاني والنظام الملكي الفاسد المأجور القاسي). وكان يراد لتحليل الوضع الداخلي للبلاد من قبل الحزب الشيوعي المصري أن يثبت (في إطار توجيهات وثائق الكومنترن) أن إسقاط النير الاستعماري والنظام الملكي الرجعي وتحقيق الاستقلال التام هما المهمة المباشرة للثورة على الاستعمار والإقطاعية في مصر. والمقصود كذلك الثورة الفلاحية الزراعية، وبالطبع إقامة الدكتاتورية الثورية الديمقراطية للطبقة العاملة والفلاحين بشكل حكومة عمالية فلاحية سوفيتية. ويتلخص باقي المهمة في إقامة دكتاتورية البروليتاريا وبناء الاشتراكية وتصفية الطبقات وشمول الملكية العامة الكاملة جميع وسائل الإنتاج.

كما أعلنت الوثيقة البرنامجية للحزب الشيوعي المصري بصورة قطعية أن الوفد حزب للإصلاحية القومية البرجوازية الإقطاعية المعادية للثورة. وأنه حزب خداع الشعب، حزب الخيانة الوطنية. يساوم من أجل عطايا زهيدة من الاستعمار والطغمة الملكية ليعزز مكانة الرأسماليين والإقطاعيين على حساب العمال والفلاحين. الوفد، كما يقول الشيوعيون المصريون، يحاول أن يتزعم الحركة الجماهيرية ليستنزف قواها ويقمعها ويخونها ويتاجر بمصالحها. معارضته للملك فؤاد وبريطانيا مجرد قناع، فهو في واقع الأمر يبحث مع الاستعمار وصنائه في مصر عن مخرج من الأزمة عن طريق مواصلة استعباد وتقييد الجماهير الشعبية. في حين أن الحزب الوطني الذي عبر عن استياء الفئات البرجوازية الصغيرة الواسعة انحدر صوب تأييد طغمة فؤاد. مجمل تاريخ تطور مصر بعد الحرب العالمية الأولى يصوره برنامج عمل الحزب الشيوعي المصري بعبارة مصقولة: جماهير العمال والفلاحين وشغيلة المدن مضت للنضال بتفانٍ وإخلاص، إلا أن من قادها هم من القوى الغربية الخائنة والمعادية للثورة والتي تبعد الضربة عن الاستعمار كل مرة.

وبحسب المنطق المعتاد طالب الشيوعيون المصريون بالكفاح الشديد دون هوادة ضد الوفديين والانتقال إلى مواقع الصراع الطبقي البروليتاري الحازم. وأخذوا يزعمون أن هوة سحيقة تفصل بين معسكر الوفد ومعسكر الثورة الزراعية الفلاحية الشعبية المناهضة للاستعمار. وأن العمال والفلاحين المصريين لا يمكن أن يتوقعوا الرحمة أو يطلبوها من فوق. وقد أعلن الحزب الشيوعي المصري أن الجبهة الثورية العمالية الفلاحية تقوم وتنمو وتوسع في البلاد من أسفل على أساس التصدي المباشر للأسياد والاستغلاليين. ويعتقد الحزب أن المشاركين في هذه الجبهة قد نضجوا لخوض المعركة الحاسمة من أجل الثورة الزراعية الفلاحية المناهضة للاستعمار ومن أجل سلطة العمال والفلاحين السوفيتية التي توفر مقدمات النضال اللاحق في سبيل الدكتاتورية والاشتراكية. وأخيراً زعم الحزب الشيوعي المصري أنه طالما يطرح الكادحون بأنفسهم هذه الشعارات فإن طليعتهم الطبيعية - الحزب الشيوعي ستغدو في القريب العاجل قوة جماهيرية. وهي بالذات ستنظم التصدي العمالي الفلاحي لوحوش الاستعمار والإقطاعيين والمرايين والبرجوازية المعادية للثورة. ومن ثم تتزعم مسيرة الكادحين المضطرة نحو الاشتراكية.

على فكرة، ليس في تلك المزاعم والتأكيدات شيء جديد. فهي لم تأت من فراغ. وإنما باتت تفصيلاً وشروحاً للأفكار التي أعرب عنها الشيوعيون المصريون سابقاً. إلا أن المهم هو تقويم هذا البرنامج من قبل أبرز المسؤولين في جهاز الكومنترن. بل الأرجح أن هذا البرنامج قد وضع أصلاً ليس في مصر، وإنما من قبل موظفي اللجنة التنفيذية للكومنترن في موسكو.

هيئة مراجعة مجموعة وثائق الكومنترن التي نشر فيها هذا البرنامج (وهم مادار وميف وأوراخييلوشفيلي وسافاروف) أشارت إلى أن برنامج الحزب الشيوعي المصري أقره الحزب بعد "تنحية القيادة السابقة" التي غرق أعضاؤها في "الدسائس والمشاحنات". كما أشارت

الهيئة إلى أن البرنامج الجديد يمكن أن يلعب دوراً هاماً في "استئناف عمل الحزب واستعادة عافيته وتوسيع عمله الجماهيري". وتوقعت الهيئة أنه بفضل هذه الوثيقة سيتخلص الحزب الشيوعي المصري من آثار العهد الذي لم يتمكن فيه بسبب اللجوء إلى العمل السري من تحقيق "أية نجاحات في ميدان النشاط الجماهيري"^(١). وكانت تلك توقعات جريئة!

ووردت في تقويم برنامج عمل الحزب الشيوعي المصري مفردات تفيد بأن "القيادة السابقة التي غرقت في الدسائس" قد نحيت ولا بد أن يحقق الحزب الآن نجاحاً في نشاطه. والمقصود هو فترة ١٩٢٨ - ١٩٣٢ عندما ترأس محمود عبد العزيز الحزب. وكانت تلك فترة كثيفة فعلاً في حياة الشيوعيين المصريين ألحقت ضرراً جسيماً بالحركة الشيوعية المصرية. على فكرة، هذه المرة أيضاً ألقى موطفو الكومنترن مسؤولية تعيينه سكرتيراً عاماً للحزب الشيوعي المصري على أعضاء فريقه.

إلا أن قضية الكادر في الحزب الشيوعي المصري وتأثيره على نهج الشيوعيين المصريين تستحق الاهتمام بخاصة. الضربة الأولى التي سددتها السلطات إلى الحزب في عام ١٩٢٤ استدعت تبدلات جذرية في صفوفه. وأخذ الحزب يفقد دور الأداة لتحقيق النموذج "المصري" للشيوعية. فقد انضم إليه أكثر من السابق ممثلو الطوائف غير العربية، وبات عددهم هو الغالب بين أعضائه. وخلال الفترة من ١٩٢٤ حتى ١٩٢٨ كان أفيجدور في الواقع يؤدي دور الأمين العام للحزب. وبدا وكأن الطابع الأممي للعقيدة الشيوعية بات هنا، في مصر، واقعاً لا ريب فيه. وهذا، بالطبع، لا يعني عدم وجود مصريين في الحزب. فهم موجودون في لجنته المركزية. في تلك الحقبة زاد الحزب عدد فروع وخلاياه في الأماكن والمحافظات التي لم تكن موجودة فيها قبل عام ١٩٢٤.

(١) المصدر ذاته.

وبديهي أن يزداد هناك عدد الأهالي الأصليين بين الأعضاء بعيداً عن الإسكندرية والقاهرة اللتين تتحشد فيهما الطوائف غير العربية. زد على ذلك أن النهج المتشدد للجنة المركزية الجديدة للحزب الشيوعي المصري نحو زيادة عدد العمال والفلاحين في صفوف الحزب قد أفضى إلى تقوية عملية غرس الحزب في المجتمع المصري. إلا أن لهذه العملية جانباً آخر لا ينبغي تجاهله.

اعتقال حسني العرابي مع مؤسسي الحزب الوطني الذين انضموا إلى قيادة الحزب الشيوعي الجديد، وانسحبوا منه فيما بعد، قد شطب نهائياً إمكانيات إضفاء الشرعية على تواجده في المجتمع المصري. والتي كانت قائمة على ارتباطه المتواضع مع التقاليد الاشتراكية الوطنية والفئة التي تتبنى تلك التقاليد. لقد تحول الحزب الشيوعي المصري بعد هجمة ١٩٢٤ إلى تنظيم حزبي مختلف من حيث المبدأ. والدليل القاطع على التبدلات التي جرت فيه هو الانتقال من العلنية إلى العمل السري. ومن ذلك الحين بات حصوله على مكانة شرعية يتوقف على المجابهة القاسية وبلا هوادة ضد الدولة ومؤسساتها السياسية وكل الأحزاب والحركات السياسية الفاعلة على ساحة السياسة في البلاد والتي احتفظت، خلافاً للحزب الشيوعي، بعلاقات فعلية مع الطبقة الوطنية "المثقفة" والمجتمع الذي شكلته. الحزب الشيوعي رُمي خارج ذلك المجتمع.

الطبقة "المثقفة" المصرية ما كان بوسعها طبعاً أن تستوعب أفيجدور، على سبيل المثال. إلا أن ذلك لا يعني أبداً هيمنة أو هام قومية ثابتة على هذه الطبقة. فإن يوسف روزنتال، على أية حال، كان جزءاً من هذه الطبقة. بعبارة أخرى، المقصود ليس الانتماء القومي، بل قواعد السلوك السياسي المقبولة لدى ممثلي هذه الطبقة، وهي القواعد التي باتت عاملاً لقبول أو رفض هذا الشخص أو ذاك في صفوفها. ومن جهة أخرى لم يكن حضور المصريين الأصليين الواسع في الحزب ولجنته المركزية يعني أن "الطبقة المثقفة" يمكن

أن تغير موقفها من الشيوعيين المصريين. فقد رأت تلك الطبقة في هؤلاء المصريين جهلة مغرورين من أبناء الفئات الدنيا من المجتمع يتميزون بالخشونة والغلظة. وإلى ذلك كانوا يشكلون خطراً لأنهم يعلنون صراحة عن رغبتهم في تسديد ضربة للمثقفين في حياتهم المعيشية وتصفية اسس نفوذهم الروحي وتأثيرهم على المجتمع الوطني. وما كان بوسع الطبقة "المثقفة" المصرية أن تسكت على ذلك، فتضامنت مع السلطات التي سلطت ضرباتها المتتالية على حزب أعلن أنه المعبر الفعلي عن مصالح السواد الأعظم الكادح من الأمة.

لقد وجد الحزب الشيوعي المصري نفسه في مأزق لا مخرج منه. وكان تفاؤل موظفي الكومنترن بشأن برنامجه الجديد (وهو على الأرجح ثمرة من إنتاج الكومنترن نفسها) لا معنى له في واقع الحال. هذا المأزق من فعل الكومنترن نفسها. حينما ظلت حتى عام ١٩٣٤ على الأقل تطالب الحزب بتسديد الضربة في المقام الأول إلى الوفد الذي يشكل "أكبر خطر على تطور الحركة العمالية الفلاحية المناهضة للاستعمار". ومن ناحية أخرى "الطبقة العاملة برئاسة الحزب الشيوعي المصري هي وحدها القادرة على تحقيق الثورة"^(١)، كما تؤكد وثيقة اللجنة التنفيذية للكومنترن التي نحن بصدددها.

في يوليو - أغسطس ١٩٣٥ عقد المؤتمر السابع للأمية الشيوعية. وشارك فيه مندوب عن الحزب الشيوعي المصري. تحدث في كلمته عما علّمه جيداً. أكد أن الشغيلة المصريين يخوضون النضال الفعال ضد الاستعمار بقيادة "الزعماء الإصلاحيين". وأعلن أن بين هؤلاء الزعماء والمستعمرين البريطانيين تناقضات جديدة. ويتميز كفاح الشغيلة المصريين، كما قال المندوب، باستخدام مختلف أشكال المواجهة - المطالبة بإشاعة الديمقراطية

(١) أرشيف التاريخ المعاصر، ملف ٤٩٥، إضبارة ٨٥، وثيقة ١٠٥، ص ١ - ٧.

Projet de lettre: du PCE. 20 mars 1934.

والإضرابات والاشتباكات المسلحة. وكان ينبغي للحزب الشيوعي المصري أن يتبنى الشعار الجديد الذي طرحته الكومنترن والذي يطالب بتشكيل جبهة موحدة لمكافحة الاستعمار في بلدان الشرق تضم أيضاً أحزاب البرجوازية الوطنية.

إلا أن دروس الماضي كانت أقوى. فقد ذكر مندوب الشيوعيين المصريين أن نضالات الشغيلة في بلاده لم تتجاوز الأهداف التي رسمها القادة الإصلاحيون. وأكد من جديد أن مصالح القوميين البرجوازيين الجذرية ومصالح الجماهير العمالية الفلاحية على طرفي نقيض. وظل بمثابة البديهة بالنسبة له أن البرجوازية تحاول الاستفادة من الحراك الجماهيري. فقال في ختام خطابه ما معناه: أن عبر الماضي تكشف عن عدم صدق وعود القومية البرجوازية، وعلينا أن نشكل جبهة شعبية واسعة مناهضة للاستعمار لتحرير الشعب المصري وطناً ومجتمعاً^(١). حقاً، ففي أواخر يناير ١٩٣٦ خاطب الشيوعيون المصريون القوى السياسية في بلادهم قائلين إن الانتصار على الاستعمار غير ممكن إلا برص صفوف الشعب كله وتوحيده في النضال في إطار "جبهة شعبية متحدة"^(٢). إلا أنهم أوضحوا موقفهم بعد شهر في نداء إلى الجماهير المصرية قائلين إن الحزب الشيوعي يناشد الجماهير المصرية أن تتحلى باليقظة تجاه سياسة أولئك الساعين إلى تصوير أنفسهم قادة. على الجماهير أن تدرك بأن الاستقلال لا يتحقق إلا بالانتفاضة المسلحة. الثورة وحدها قادرة على طرد الاستعمار من البلاد^(٣).

(1) Correspondances Internationales, 1935. N 65166, P. 943.

(٢) منشور الحزب الشيوعي المصري بتاريخ ٣١ يناير ١٩٣٦ "إلى تقوية الجبهة الشعبية ضد المستعمر الغاضب"، أرشيف التاريخ المعاصر، ملف ٤٩٥، إضرابة ١٤، وثيقة ٣٧١، ص ١.

(3) Appel]ru Pani communist: aux masses e'gyptiennes, 23 гэты 1936 и Там me. я. 2-3.

مضى ما لا يقل عن ثلاثة أعوام على نشر برنامج عمل الحزب الشيوعي المصري الذي علقت عليه الكومنترن آمالاً عريضة. وقد تخلصت الكومنترن بدورها من "صبغة الانعزالية" الملازمة للسنوات الفائتة، كما أكد الباحثون الروس أكثر من مرة^(١). وبعد اختتام أعمال المؤتمر السابع للكومنترن أقرت سكرتارية اللجنة التنفيذية في ٢٩ فبراير ١٩٣٦ "مهمات الأحزاب الشيوعية في البلاد العربية للنضال من أجل الجبهة الشعبية المناوئة للاستعمار". ولفتت هذه الوثيقة انتباه الشيوعيين المصريين إلى ضرورة تطبيق سياسة واقعية صائبة إزاء الوفد الذي هو "الحزب الوطني الأكبر جبروتاً في البلاد وله تأثير هائل على الجماهير الشعبية". وأوصت الوثيقة الشيوعيين المصريين بتأييد مطالب الوفد المناوئة للاستعمار، مع التزام اليقظة تجاه محاولات زعمائه للتساوم مع المستعمرين على حساب مصالح الشعب المصري^(٢). إلا أن الشيوعيين المصريين قرأوا في قسم الوثيقة المتعلق بهم العبارة الأخيرة فقط. والعبارة الأخيرة هي في الواقع المسألة الرئيسية حتى بالنسبة للجنة التنفيذية للكومنترن.

على فكرة، الحزب الشيوعي المصري لم يعد قادراً على التقيد حتى بهذه العبارة. ففي النصف الثاني من الثلاثينات خفت نشاطه نهائياً^(٣). وفي عام ١٩٣٧ نظرت اللجنة

(١) راجع مثلاً، كوساتش ج. الكومنترن والأحزاب الشيوعية في الأقطار العربية في العشرينات والثلاثينات، الكومنترن والشرق. نقد النقد. ضد تزوير الإستراتيجية والتكتيك اللينين في الحركة التحررية الوطنية. موسكو، ١٩٧٨، ص ٣٢٤.

(٢) نقلاً عن الطبعة الأولى لهذه الوثيقة، ريزنيكوف، أ. ب. ص ٢٧٥ - ٢٧٨.

(٣) اعتباراً من أواخر الثلاثينات نشطت في الأراضي المصرية جماعات شيوعية متفرقة أرست بدايات "التعددية" في الحركة الشيوعية هناك. وقد أسس تلك الجماعات أشخاص من أصول إيطالية وفرنسية ويونانية ويهودية معادون للفاشية. وكان أهم اتجاه في نشاطها هو مكافحة النازية الألمانية والفاشية
=/=

التنفيذية في نشاط الكومنترن بمصر وتحدثت فقط عن وجود "حركة شعبية في هذا البلد تناضل من أجل الحقوق الديمقراطية للشعب المصري وانضمام مصر إلى عصبة الأمم وإلغاء نظام الاستسلام للأجنبي". وكذلك عن "المثقفين المصريين التقدميين". واقترحت اللجنة التنفيذية للكومنترن على الأحزاب الشيوعية في بريطانيا وفرنسا وسورية أن تقدم المساعدة "للتقدميين" المصريين، وأشارت إلى أن من مهمات الشيوعيين السوريين "انتقاء وابتعاث ثلاثة مصريين للدراسة في موسكو". ويراد لهم أن يعملوا على إصدار "مجلة أدبية تقدمية" في مصر يمكن أن تلتف حولها "العناصر الديمقراطية التقدمية"^(١). ولا كلمة واحدة عن الحزب الشيوعي المصري.

إلا أن ثمة جانباً للقضية لا يمكن تجاهله بأي حال. فالكومنترن لم تعترف يوماً بأخطائها فيما يخص علاقاتها لمخلفاتها في الشرق الأوسط. وهذا يخص الحزب الشيوعي

الإيطالية والنظريات والممارسات العنصرية والمعادية للسامية. أما الجماعات الشيوعية المصرية فقد كانت، أن وجدت، تعمل بمنتهى السرية، ولذا فهي ليست معروفة للكثيرين. وفي النصف الثاني من الأربعينات فقط توفرت في مصر من جديد ظروف ساعدت أعضاء الجماعات الشيوعية من جنسيات غير عربية على إقامة اتصالات مع زملائهم المصريين. على فكرة، عملية إقامة تلك الاتصالات كانت تفترض مشاركة أفراد هذه الجماعات في التوعية النظرية لممثلي الأكثرية القومية ممن يشاطرونهم المعتقد. رفعت السعيد، تاريخ المنظمات اليسارية المصرية. ١٩٤٠ - ١٩٥٠، القاهرة ١٩٧٦م.

راجع كذلك، بيروج. أنري كوريل، رجل من طراز فريد. الحركة الشيوعية المصرية بمنتصف القرن. بيروت، ١٩٨٠م. (استخدم المؤلف ترجمة الجزء الأول من بحث الكاتب الفرنسي جيل بيرو المكرس لشخصية من أبرز شخصيات الحركة الشيوعية المصرية في الأربعينات والخمسينات).

(1) Draft of Decision of the Secretariat of the ECCI on the Egyptian Question. 14.05.1937.

أرشيف التاريخ المعاصر، ملف ٤٩٥، إضبارة ١٤، وثيقة ٣٧٣، ص ١ - ٢.

المصري قبل غيره. فإن إجراءاتها فيما يتعلق بالعملاء السوفييت الأوائل في هذه المنطقة أُرست في الواقع أسس التقليد المرتقب الذي يتوخى التوسع المطرد للقوى المتعاونة مع الاتحاد السوفيتي في الشرق الأوسط.

في معرض تقييم إخفاق التجربة الشيوعية في مصر خلال العشرينات والثلاثينات
قالت اللجنة التنفيذية للكونمترن: "كانت الحالة الداخلية المتدهورة للحزب عقبة كأداء تقريباً" على طريق "التطور اللاحق للحركة الثورية". وفي عام ١٩٣٥، عشية المؤتمر السابع، ظلوا يقولون هناك لو أن الشيوعيين المصريين تقيّدوا ببرنامج العمل بإخلاص "لاستولى هذا البرنامج على عقول الجماهير الواسعة من العمال والفلاحين. وتحدثت اللجنة التنفيذية عن المساعدة الضخمة التي قدمتها إلى الحزب الشيوعي المصري مؤكدة أن اللجنة "زودته بالتعليمات الملموسة تماماً" وطالبت بأن يتخلص من "خطر الانعزالية"^(١). ولم ترد ولا كلمة واحدة عن مدى انعزالية هذا البرنامج نفسه.

وبالعكس عندما كلفت اللجنة التنفيذية للكونمترن الشيوعي الفرنسي أندريه مارتى في عام ١٩٣٥ بالعمل على إحياء فرعها المصري رأت من الضروري أن تشرك في هذا الأمر ليس الذين عملوا في صفوفه سابقاً، وإنما تنظم إيفاد وجبة جديدة إلى مصر مكونة من "رفاق يجيدون اللغة العربية". ومن جديد باتت مصر ضرورية لاعتبارات جيوسياسية. كان يتعين على مارتى "أن يدعوا الجماهير الشعبية، وخصوصاً العمال، إلى تنظيم العمليات القتالية فوراً ضد نقل المواد الحربية والقوات الإيطالية عبر قناة السويس"^(٢).

(١) المصدر ذاته، وثيقة ١٠٩، ص ٣٠ - ٣١.

(٢) قرار سكرتارية اللجنة التنفيذية للكونمترن في ٢٨ نوفمبر ١٩٣٥ حول المسألة المصرية.. نفس المصدر،

كانت رحي الحرب الإيطالية الحبشية تدور. ولكن كيف سيعيش هؤلاء العمال ويطعمون أولادهم إذا أغلقت قناة السويس؟ على فكرة، كان مارتي يتفهم تماماً مضمون المهمة التي أوكلت إليه عندما أفاد في تقريره إلى اللجنة التنفيذية للكونغرس بأن نشاطه في مصر سيساعد على تسديد "الضربة إلى الاستعمار البريطاني في الموضع الذي هو ضعيف فيه"^(١). والمقصود هنا ليس دعم مقاومة الشعب الأثيوبي. هذه المفردات كانت ضرورية للتظاهر من جديد بشرعية العقيدة الجيوسياسية السوفيتية.

وماذا بشأن الشيوعيين المصريين من نشاط المحاولة الأولى لتأسيس الحزب؟ بعضهم تواجدوا في الاتحاد السوفيتي بصفة لاجئين سياسيين. وكان بينهم أشخاص معروفون - شارلوت روزنتال، وعضوا اللجنة المركزية الثانية للحزب الشيوعي المصري بعد نكسة الحزب في عام ١٩٢٤ شالوم بولياك ومون أيلكونين. وقد وردت بعض المعطيات عنهم في "معلومات عن اللاجئين السياسيين في الاتحاد السوفيتي".

فقد جاء في هذه المدونة أن شارلوت روزنتال هي "ابنة تاجر مجوهرات يقال إنها انتسبت إلى الحزب الشيوعي المصري في عام ١٩١٩ وتعرضت للاعتقال مراراً". وبمساعدة زوجها أفيجدور (قسطنطين فايس الذي كان معتقلاً في تلك الفترة أثناء حملة التطهير أواخر الثلاثينات) "تم ضمها إلى الحزب الشيوعي السوفيتي (البلشفي) مع مدة خدمة مزورة منذ العام ١٩١٩". وكانت توصف "بالعنصر المشكوك فيه" وفصلت من العمل في جامعة كادحي الشرق، وفي مارس ١٩٣٦ عملت مؤقتاً في شركة "إنتوريست" السياحية. المعلومات عن شالوم بولياك أقل: "في عام ١٩٢٧ أبعده إلى الاتحاد السوفيتي، ومكانه

(١) أندريه مارتي، الوضع في مصر ومهام الأحزاب الشيوعية. الأهمية الدولية للحركة في مصر ارتباطاً بالحرب في الحبشة. ٢٦ نوفمبر ١٩٣٥، المصدر ذاته، ص ٥٢.

حالياً مجهول" (المقصود حالياً مارس ١٩٣٦ - كوساتش). وعن مون ايلكونين تقول المدونة أن عضويته "في الحزب الشيوعي مشكوك فيها منذ عام ١٩٢١". ومكان إقامته مجهول أيضاً في مارس ١٩٣٦^(١). كانوا مجرد مادة بشرية مستهلكة مرمية في سلة مهملات التاريخ.

(١) معلومات عن اللاجئين المصريين في الاتحاد السوفيتي. من عليميان حتى أيلكونين، المصدر ذاته، وثيقة ١١٥، ص ١ - ٢٨.

الفصل الثاني

الخيار الأممي لحل المشكلة القومية:

الشيوعيون الفلسطينيون

بين الحربين العالميتين

مدخل:

هل من الممكن حل قضية النهضة القومية - والحديث يدور هنا عن الشعب اليهودي - على أساس المثل والقيم الأُمّية؟ في هذا السؤال نفسه، يبدو وجود التناقض.

يبدو الانبعاث القومي كظاهرة، من نواح عديدة، أمراً مفعماً بالاكْتفاء الذاتي لكن، بطبيعة الحال، فإن مشكلة الانبعاث القومي لأية أمة - وهنا الشعب اليهودي لا يشكل أي استثناء - تطرح مهمة خلق ظروف مواتية لنجاح العملية، القادرة على إخراجها من حالة التدهور الأخلاقي، أو إمكانية التدمير المادي.

وهذا صحيح بغض النظر عن مكان تنفيذ هذه العملية - في "الوطن التاريخي لليهود" - في فلسطين أو في "بلدان الشتات"، حيث أصبح اليهود، على مدى تاريخ طويل من وجودهم من السكان الأصليين لتلك البلاد، على الرغم من أن اختيار مكان التنفيذ يقوم على الفور بصبغ الحركة نحو البعث نفسها بألوان محددة إضافية.

ولكن رغم ذلك تبقى مهمة خلق المناخ الملائم كشرط للنهوض القومي ليست مهمة أُمّية. بل على العكس من ذلك، تبدو حاملة في نفسها نصاً فرعياً قومياً واضح التعبير تماماً. في حالة بعث القومية اليهودية في فلسطين، أصبحت هذه مهمة لـ"ليشوف" (السكان اليهود في فلسطين قبل قيام الكيان الإسرائيلي)، وليس بتاتا السكان العرب في ذلك البلد، الذين كانوا يفوقون بالعدد اليهود الفلسطينيين ويحيطون بهم من كل جانب. لكن الاكتفاء الذاتي لعملية الانبعاث للقومية اليهودية، التي بدأها بوغالي تسيون (عمال صهيون) في فلسطين، تحدت كذلك من خلال حقيقة أن إطارها الزمني والأهداف التي سعت إليها، تزامنت مع الحركة العالمية لخلق "شخصية إنسانية جديدة". وتطورت هذه العملية في السياق الأُمّي المحدد. وبالإضافة إلى ذلك، كانت هذه العملية بدون شك، أحد عناصر

هذا السياق.

ويجب القول أنه من خلال نفس التقليد الروحي للتنوير القومي اليهودي (Haskalah)، تم تحديد منشأ تيار التركيز على فلسطين في فكرة وممارسة الانبعاث القومي للشعب اليهودي، كما الايديشية في البوند (البوند - الجبهة اليهودية العامة وهو حزب سياسي يهودي علماني اشتراكي نشأ في روسيا القيصرية في سنة ١٨٩٧ ودعا إلى بقاء اليهود في أوروبا وعدم الهجرة إلى إسرائيل) الذين رفضوا بحزم فكرة "الوطن التاريخي" واعتقدوا أن "دول الشتات" فقط (Hagslut)، وبالذات روسيا في حدودها الدولية في بداية القرن - قد تكون المكان الذي سيصبح فيه الإحياء اليهودي، حقيقة واقعة.

تطورت ظاهرة التنوير ذاتها كرد فعل لمنطقة ضخمة من الحضارة غير الغربية على التحدي المتمثل في أوروبا. لقد كانت حركة بوعالي تسيون جزءا من الحياة السياسية الروسية، وكرر تطورها الثقلبات والمنعطفات في تطور النظرية والممارسة الاشتراكية الروسية، وفي النهاية، أصبحت "الروسية أهم ركيزة لإحياء الثقافة اليهودية بالعبرية في فلسطين"، والحياة القومية لاحقا في إسرائيل. كان ذلك أمرا طبيعيا، لأن الفكر الاشتراكي الروسي نفسه بكل أشكاله المختلفة لم يكن أكثر من رد فعل روسيا على نفس التحديات من جانب أوروبا.

في الوقت نفسه، دخلت في تناقضات حادة فيما بينها، سياقات حل المشكلة العالمية للمساواة الوطنية والعدالة الاجتماعية (خلق "شخصية إنسانية جديدة")، وأشكال الاكتفاء الذاتي على المستوى القومي من تنفيذها (ويشمل ذلك بالتساوي ممارسة البوند وممارسة بوعالي تسيون).

أدت عملية الاكتفاء الذاتي لإحياء القومية اليهودية في فلسطين، التي وُضعت في سياق الحركة العالمية نحو المثل الاشتراكية للعدالة، إلى ظهور الحزب الشيوعي هناك. كان

مؤسسو هذا الحزب وشخصياته البارزة طوال العشرينات والثلاثينيات من القرن الماضي، حتى إنشاء دولة إسرائيل وانسحاب هذه القطعة الإقليمية التي نشأت فقط بعد الحرب العالمية الأولى إلى خارج العالم العربي، من اليهود.

لكن هذا لا يعني عدم ظهور كتلة عربية جادة داخل الحركة الشيوعية الفلسطينية. هل كان بهذا الشكل، الانبعاث القومي غير مكثفي ذاتيا؟ أم أن الوظائف التي سعى الحزب الشيوعي الفلسطيني إلى توليها وقت تشكيله كانت أوسع من مجرد خلق ظروف موالية لبناء "موطن قومي"، وفي المستقبل، دولة قومية؟

ويجب القول إنه لم يكن من الممكن تقييد فكرة "الإنسان الجديد"، بهذا الإطار القومي أو ذاك بسبب طابعها العالمي في الفترة ما بين الحربين العالميتين. لقد سعت لتخطيه، ولتتجاوز حدوده الضيقة ولجلب "السعادة" للبداية الشخصية التي تم تغييرها جذريا من قبل الآخرين. لقد تواجد هذا السعي في صميم هذه الفكرة. وفقط في لحظة نقل العبء الرئيسي لجهود بوعالي تسيون إلى فلسطين، أدى ذلك باستمرار إلى تآكل ما بدا لهم - وكان ذلك صحيحا - بمثابة الحدود الضيقة للوجود القومي.

الجدل حول دور كل من اللغتين اليديشية والعبرية في حياة اليسوف، والموقف الذي كان ينبغي اتخاذه فيما يتعلق بالشغيلة العرب، وبشكل أوسع، بالسكان العرب في فلسطين والأراضي المجاورة، وأخيرا مسألة مهمة الطبقة العاملة اليهودية، التي تم إنشاؤها في أرض إسرائيل بجهود الاشتراكيين اليهود - كل هذا كان محاولة للتغلب على التناقض بين سياق تطور عملية الانبعاث القومي والأشكال الضيقة لاكتفائه الذاتي.

ومع ذلك، لكي يتم تنفيذ هذه المحاولة بالفعل، كان هناك حاجة إلى عذر وتبرير. لقد تمثل ذلك في دفعة قوية من الخارج، من المكان الذي ظهرت منه حركة بوعالي تسيون، من البلاد التي استمرت هذه الحركة في الشعور بوجود صلات عميقة لا تنفصم معها. هذه

الدولة كانت روسيا ، التي بدت للاشتراكيين اليهود في فلسطين هذه المرة ليس كدولة مذابح دموية ، بل كنوع جديد من الدولة مبنية على أساس نموذج تنموي جديد بشكل أساسي.

لقد أصبحت بمثابة الأساس "لروسية" لكل من اليشوف ، وإسرائيل في العقود الأولى من وجودها. لقد تحولت روسيا إلى "الوطن القديم" (khamoledet hayashana). بدا النموذج البلشفي للتطور ، أنسب تجسيد لفكرة "الشخصية الإنسانية الجديدة". وكان يجب أن يتكرر في فلسطين ، هذه المرة مع نفس بشكل حاسم حدود "البناء الموجه قومياً".

(١) الراديكاليون من بوعالي تسيون؛ ظروف إحياء فكرة "الأممية الاشتراكية"

لقد طرحت فترة ما بعد نهاية الحرب العالمية الأولى مهمات جديدة بشكل أساسي للقمة الفلسطينية في حركة بوعالي تسيون. لقد استند الانتداب الذي حصلت عليه بريطانيا لحكم فلسطين، من بين أمور أخرى، على أحكام وعد بلفور^(١). لقد حصلت فكرة إقامة وطن قومي لليهود "The Jewish national home"، في بلاد كان عدد اليهود فيها قليلا^(٢)، على الاعتراف الدولي. لكن ذلك لم يكن يعني أن تنفيذ هذا الحكم من التفويض يجب أن يبقى حقا حصريا للمجتمع الدولي في ذلك الشكل من نشاطاته، والتي أصبحت في أوائل العشرينات من القرن الماضي من حقائق العصر.

أن تحقيق التفاعل بين المنظمة الصهيونية العالمية (WZO) وبريطانيا العظمى، خلق بالطبع أحد أهم المتطلبات الأساسية للنشاط الناجح لأتباع حركة بوعالي تسيون، والذي قدم الدعم الخارجي الذي يحتاجونه لحل مهمتهم الفورية - تنفيذ إمكانية وفرصة انبعث

(١) في ٢ نوفمبر ١٩١٧، صدر عن الحكومة البريطانية بيان (سمي على اسم وزير الخارجية البريطاني) بشأن الموافقة على فكرة إنشاء "وطن قومي لليهود" في فلسطين. هذه الوثيقة، التي اعترفت بها دول الحلفاء - فرنسا والولايات المتحدة وإيطاليا، أدرجت في معاهدة سيفر المبرمة بين القوى المنتصرة وتركيا السلطانية، وكذلك في التفويض الصادر إلى بريطانيا العظمى من مجلس عصبة الأمم في ٢٤ يوليو ١٩٢٢ لتحكم من خلاله فلسطين.

(٢) في بداية عام ١٩١٩، قُدِّر عدد سكان فلسطين بنحو ٦٣٩ ألف نسمة. من بينهم ٦٦٠٠٠ يهودي، و٦١٠٠٠ مسيحي، والباقي عرب ومسلمين.

"Near East", January 31, 1919 // Cited. Quoted from: RTSKHIDNI, f. 495, op. 81, unit ridge 1, l. one.

"الشخصية اليهودية الحرة" في أرض إسرائيل. ومن هذه اللحظة ، بات هذا المشروع يعتمد على الضمانات الدولية اللازمة.

على أي حال ، ظلت هذه الضمانات غير كافية لحل مشروع بوعالي تسيون بنجاح. ولكن على الأغلب كان الأمر الأهم يبدو وقبل كل شيء يكمن ليس في ذلك. لقد دار الحديث عن تغيير حاد في المسار السياسي للاشراكين اليهود في فلسطين ، ولتحقيق ذلك كان عليهم التخلي عن جمود التفكير القديم الذي كان لا يزال قائماً في صفوفهم. يمكن تلخيص هذا النوع من التفكير ، باستخدام كلمات الكلاسيكية الماركسية ، على أنه "السمات العالمية التقدمية العظيمة في الثقافة اليهودية : أهميتها ، وتبليتها للحركات المتقدمة للعصر ..."^(١).

لقد تطلب "بناء الأمة" تقييدا صارما لهذه العملية في إطار الاكتفاء الذاتي. كان على خطوط الصدع المحتملة التي نشأت في السياق الجديد الذي ظهر في القسم الفلسطيني من بوعالي تسيون في الوقت الذي كانت فيه فلسطين لا تزال تحت الولاية العثمانية بعد انتهاء الحرب ، أن تحصل على شكلها المتبلور النهائي.

لم يكن من الممكن أن تصبح الايديشية اللغة الرسمية للشوف ، بالطبع ، ليس لأنها نشأت في "بلدان الشتات" ، بل لأن "الوطن التاريخي لليهود" كان يفترض مسبقا عودة إلزامية إلى لغة "الأسلاف التوراتية" لليهود. لقد عززت اللغة العبرية الوجود الفلسطيني للسكان اليهود المحليين. كان عليهم التوقف عن الشعور بأنهم مجموعة من المهاجرين المعرضين للاهتزاز. وبفضل اللغة ، أصبح هذا المجتمع جزءا لا يتجزأ من واقع أرض إسرائيل التي باشرت بالانبعاث.

(١) لينين ف. ملاحظات نقدية حول المسألة القومية // PSS ، المجلد ٢٤ ص ١٢٢-١٢٣.

علاوة على ذلك ، حولت العبرية اليشوف ، إلى نموذج مثالي للشتات ، وإلى النموذج الذي يجب أن يتم السعي إليه الآن ، وإلى النموذج الأولي لمستقبلها القريب أو البعيد. لقد تم دفع الشتات جانبا. لم يعد بإمكان اليهود "الأُميين" لعب الدور الرائد في حياة الناس. لقد أصبح العنصر "القومي" يلعب أكثر فأكثر الدور المركزي^(١).

تم طرح فكرة إنشاء الأمة ، التي كان يجب أن تكون "البروليتاريا" من بين عناصرها بعد الحرب العالمية الأولى ، كمهمة ملحة بالفعل للاشتراكيين اليهود في فلسطين - بنود الانتداب الذي حصلت عليه بريطانيا العظمى لحكم هذا البلد ، حددت بوضوح أراضيها وحدودها. في ذات الوقت ، حصلت شعارات "اكتساب الأرض" و "اكتساب العمل" على تبلور تفصيلي دقيق.

وتطلب تنفيذها في البيئة الجديدة إنشاء منظمة سياسية موحدة تعمل بشكل هادف ، والتي تحتل مكانة مركزية في هيكل المؤسسات السياسية لليشوف. وبمبادرة من الدكتور بن غوريون ، باشر بوغالي تسيون بالمفاوضات مع ممثلي حزب هبوعيل حتساير (حزب العامل الفتي - الذي نشط في فلسطين في الفترة من ١٩٠٥ إلى ١٩٣٠) الذي كان الجناح اليميني لتكتل أحزاب العمال بين اليشوف^(٢). وفي مارس ١٩١٩ ، تم إنشاء منظمة جديدة

(١) في الأدبيات الوطنية المحلية في السنوات الأخيرة ، ترد ملاحظات مهمة في هذا الصدد في // كورنيلوف. أ. سيف ومحراث دافيد بن غوريون. نيغني نوفغورود ، ١٩٩٦ ، ص ٣١-٣٢.

(٢) تأسس حزب هبوعيل حتساير في عام ١٩٠٥-١٩٠٦ ، في روسيا بواسطة غوردون. أ.د. ووضع هذا الحزب نصب عينيه مهمة خلق "مجتمع تعاوني" في فلسطين كوسيلة لتكوين "شعب جديد". واعتبر الحزب أن "الشعب اليهودي بأكمله هو بروليتاريا بالمعنى القومي" ، مما يعني عدم موافقة الحزب على فكرة أي شكل من أشكال الصراع الطبقي في البيئة اليهودية. ومنذ تشكيله تعاون الحزب بنشاط مع المنظمة الصهيونية العالمية.

// Laqueur W.Z. History of Zionism, P. 270-275.

في مستوطنة بتاح تكفا - أخذوت هافودا (اتحاد العمل). وفي قرار إنشائها تمت الإشارة إلى أن "توحيد العمال في صفوف المنظمة يتم بهدف تطوير النشاط الاقتصادي والسياسي بينهم، وكذلك العمل في مجال الثقافة"^(١). والنتيجة المنطقية لإنشاء هذه الأداة القوية لتعبئة اليشوف لحل المشاكل التي تحددها احتياجات "بناء الأمة"، كانت تشكيل مركز نقابي مهني يوحد السكان اليهود القادرين على العمل في فلسطين. في ديسمبر عام ١٩٢٠، تم في المؤتمر الأول للنقابات، تكوين وإنشاء الاتحاد العام للعمال اليهود في أرض إسرائيل - الهستدروت، الذي وحد في صفوفه ما يقرب من خمسة آلاف عضو منظم في نقابات عمالية مستقلة^(٢).

هذه المنظمة كانت في ذلك الوقت، بل وخلال الفترة ما بين الحربين العالميتين كلها، أكبر منظمة نقابية في الشرق الأوسط. وطبعاً حالت الأهداف القومية الموضوعية أمامها دون انضمام العمال من أصل عربي إلى صفوفها. لقد سعى زعماء بوغالي تسيون الفلسطينيين لفرض سيطرتهم على قيادة اليشوف، لذلك عمدوا إلى تطوير العلاقات مع المنظمة الصهيونية العالمية وهي مشكلة لم تكن بالبسيطة والسهلة.

لقد نظرت قيادة المنظمة الصهيونية العالمية، "البرجوازية" وفقاً لتعبيرهم، إلى بوغالي تسيون كحزب طرح فكرة إعادة التنظيم الاشتراكي للعالم، والتي كانت فلسطين بالطبع

(1) Kurzman D. Ben-Gurion: Prophet of Fire. N.-Y., 1983, P. 141-142.

(٢) إيدوس.خ. مقالات عن الحركة العمالية في بلاد الشرق. م، ١٩٢٢، ص ٨٣.

نشأت النقابات العمالية الفلسطينية الأولى - العمال الزراعيون وعمال المطابع، التي توحد العمال

اليهود فقط، في ١٩٠٥-١٩٠٦. في القدس // نفس المرجع، ص ٨١.

وفقاً لتعداد السكان في عام ١٩٢٢، كان عدد السكان اليهود في فلسطين حوالي ٨٤ ألف نسمة //

غوجينسكي ت. نفس المرجع، ص ١٩٦.

جزءاً منه. لقد كان هذا الحزب "عالمياً" في لحظة إنشائه بسبب الوضع الخاص لليهود في الشتات. علاوة على ذلك، بداية العشرينات. ظهرت وتحفزت فيه نزعة واضحة إلى حد ما لإقامة اتصالات مع روسيا السوفيتية، والتي تجسدت في بدء المفاوضات بشأن الانضمام إلى الكومنترن. وهو ما جعل بن غوريون وإسحاق بن تسفي، اللذين كانا يترأسان قسمه الفلسطيني، يواجهان الحاجة إلى تطوير بديل فعال لهذا الاتجاه.

كان هذا البديل بلا شك، غاية وهدفاً في حد ذاته. الحديث كان يدور عن مهمة براغماتية الطابع. و"البناء القومي" ككل، والعنصر المحدد الذي يظهر نتيجة له وهو البروليتاريا الذي يخلص الأمة من وضعها غير الطبيعي - لم يكن له أن ينجح بدون التركيز القوي على ذلك الجانب من نظرية بير بوروخوف، التي أطلق عليها اسم "الوحدة القومية".

كان السؤال الوحيد الذي ظهر يتلخص في، إلى متى يجب أن تستمر مرحلة تطور الشعب، التي حددها هذا المفهوم؟ لقد دفع وجود البيئة العربية المعادية والإدراك بأن التحالف مع بريطانيا لا يمكن أن يكون طويلاً ويستمر إلى ما لا نهاية، بزعمي بوغالي تسيون في فلسطين إلى الاستنتاج بأن "الوحدة" بين "الطبقة العاملة اليهودية" و "البرجوازية اليهودية" التي لا يزال تشكيلها النهائي في فلسطين بعيداً، سيستغرق حقبة تاريخية كاملة.

احتاجت المنظمة الصهيونية العالمية إلى براهين على أن أنصار بوغالي تسيون الفلسطينيون كانوا فعلاً يناون بأنفسهم عن التنظيم العالمي لهذا الحزب. وبالفعل باتت هذه البراهين حقيقة واقعة. ومن بينها يمكن ذكر على سبيل المثال، اختيار اللغة للشوف. ولكن على الأغلب، كان البرهان الذي لا يقل عن ذلك قوة على تنفيذهم لها التحول والانعطاف، كان تأسيس حزب Ahdut HaAvoda "وحدة العمل"، الذي ضم الحزب الصهيوني غير الاشتراكي، الساعي دائماً للحفاظ على العلاقات مع الصهاينة

"البرجوازيين".

في الواقع ، تشهد هذه الخطوة على بداية الانفصال التنظيمي بين قسم بوعالي تسيون الفلسطيني واتحاد العمال الاشتراكي اليهودي العالمي "شتالي تسيوي" ، والذي استمر في استلهاه عقيدته من أفكار بوروخوف.

وفي عام ١٩٢٠ ، شارك حزب "وحدة العمل" ، في انتخابات جمعية نواب فلسطين البريطانية - Asefat HaNivharim ، التي تعتبر من حيث الجوهر برلمان اليشوف ، وحصل ممثلو الحزب على ٧٠ مقعدا من أصل ٣١٤ مقعدا^(١).

وبذلك تحول هذا الحزب إلى قوة سياسية رائدة وقام بتشكيل هيئة السلطة التنفيذية للسكان اليهود في فلسطين أيام الانتداب. وأصبح الحزب ، الهيكل السياسي الذي يمثل إرادة الغالبية العظمى من السكان اليهود. وبالتالي انحصر دور المنظمة الصهيونية العالمية في قيادة الشتات ، وتحول أهدوت هافودا إلى هيئة فرضت سيطرتها على فلسطين^(٢).

وهكذا قام بوعالي تسيون الفلسطينيون بمراجعة راديكالية لفكرة "السمة التقدمية العالمية" للثقافة اليهودية. لقد كرسوا أنفسهم قبل كل شيء لتنفيذ مهام بناء الأمة وكانت الأداة في تحقيق ذلك - الحركة العمالية لليشوف ، التي أصبحت تجذب بعد ذلك الرأسمال "القومي" ليشارك في تطويرها. ولكن ذلك لم ينل إعجاب الجميع ، وفي مارس عام ١٩١٩ ، قال بعض الأنصار السابقين أن زعماء بوعالي تسيون الفلسطينيين جعلوا الفكرة

(1) Kurzman D., op. cit., P. 143-144.

(2) المعتمد في أغسطس ١٨٩٧ من قبل المؤتمر الأول للمنظمة الصهيونية العالمية ، الذي عقد في بازل في سويسرا ، قدم البرنامج كأهدافه الرئيسية تعزيز "استعمار فلسطين من قبل العمال الزراعيين والصناعيين اليهود" ، وكذلك بناء مؤسسات السلطة القومية هناك..

// Laqueur W.Z. (ed.). The Israel-Arab Reader. N.-Y., 1968, P. 11-12.

الاشتراكية "مبتذلة" على الرغم من أنها الشكل الأكثر ملائمة للتعبير عن الفكرة العالمية لتوقع ظهور "الشخصية الإنسانية الجديدة" في ذلك الوقت. لقد رفضوا هذه الفكرة، وتوجهوا إلى "معسكر البرجوازية القومية"، وحلّوا الحزب الاشتراكي في "مستنقع العقيدة القومية" وبدأوا في المشاركة في مؤسسات السلطة "البعيدة عن المصالح الحقيقية للطبقة العاملة".

أصبح المؤتمر التأسيسي لحزب أهدوت هافودا في بتاح تكفا بمثابة السبب للانقسام في القسم الفلسطيني في بوغالي تسيون. أعلنت الأقلية اليسارية في الحزب، الرفضة للانضمام إلى المنظمة المنشأة حديثاً، عن نيتها إجراء أنشطة سياسية مستقلة. وأعلنت عن إعادة تأسيس "حزب بوغالي تسيون اليساري".

وفي ١٥-١٧ أكتوبر ١٩١٩، انعقد المؤتمر الأول له في يافا، وحضرته بعض الجماعات الاشتراكية الأخرى من اليسوف، الذين لم يكونوا في السابق جزءاً من حركة بوغالي تسيون.

أُطلق على المنظمة السياسية الجديدة اسم حزب العمال الاشتراكي لفلسطين - بوغالي تسيون (SWPP)^(١). ولمنصب رئيس الحزب تم انتخاب يعقوب ميرزون الذي كان في نفس الوقت عضواً في اللجنة المركزية لـ SWPP.

في ذلك الوقت كان يبلغ من العمر ٢٩ عاماً. ووصل إلى فلسطين قادماً من روسيا (حيث كان عضواً في بوغالي تسيون قبل الهجرة)، على ما يبدو في بداية الحرب العالمية

(١) فيلنير م. الاستشهاد بنفس المرجع ص ٢٢-٢٣.

لطالما اعتبر الشيوعيون الفلسطينيون، ولاحقاً، الإسرائيليون، أن هذا المؤتمر هو نقطة الانطلاق لبداية الحركة الشيوعية في البلاد // المرجع نفسه، ص ٢٣.

الأولى. ووفقاً لتصريحه الشخصي كان "يعقوب ميرزون" قبيل مغادرته لروسيا، يدرس "في دورات الدراسات الشرقية في بتروغراد"، وفي فلسطين مارس مهنة "الفلاح والصحفي"^(١).

وجرى الحديث عن ضرورة قطع العلاقة مع الغالية التي انضمت إلى صفوف أهدوت هافودا، وبالتالي إضفاء الشرعية على عملية إنعاش المبادئ الأمية لبوعالي تسيون، بشكل صارم وواضح، وقال مؤسسو حزب SWPP: "هل يوجد في هذا البلد الصغير، حيث لا توجد فيه صناعة وبروليتاريا، مكان للحركة العمالية، بشكل عام، وللحركة الشيوعية البلشفية على وجه الخصوص؟ وأجاب على ذلك الماركسيون القدامى "من بوعالي تسيون الذين اختاروا الطريق إلى الغيتو القومي الصهيوني: "لا". لقد استبدلوا الراية الحمراء للتضامن الأممي للبروليتاريا بالراية الزرقاء والبيضاء (ألوان علم منظمة الصهيونية العالمية، ولاحقاً - إسرائيل) للوحدة القومية. ولا شك في أن انهيار بوعالي تسيون هو انهيار للإصلاحية في الدول الأخرى أيضاً".

ثم تابعوا لاحقاً: "لندن الإمبريالية أم موسكو البروليتارية؟ أغسطس ١٩١٤ أو أكتوبر ١٩١٧؟ بلفور أم لينين؟ المؤتمر الصهيوني أم الأمية الشيوعية؟ كانت هذه هي الخطوة الأولى في تطور الحركة البلشفية في فلسطين"^(٢). لقد تم نطق هذه الكلمات في عام ١٩٢٨ وكان ذلك يعني فقط أنه وبعد ٩ سنوات، ظل الشعور بإنجاز عمل بطولي حقيقي، يشكل فخر مجموعة صغيرة من الناس^(٣)، الذين تركوا شركاءهم الجدد، وهو

(١) استمارة يا. ميرزون تم تدوينها في موسكو في ٩ فبراير ١٩٢١.

RTSHID-NI, f. 495, op. 212, unit ridge 258, l. 3.

(٢) المرجع نفسه، ص ١٠ - ٢١.

(٣) خلال تطرقه إلى الذين تركوا صفوف القسم الفلسطيني السابق في بوعالي تسيون، ذكر م. فيلنير =/=

الشيء الرئيسي الذي حدد في يوم ما ، حياتهم إلى الأبد. وهكذا، تم في ١٧-١٩ أكتوبر ١٩١٩ في يافا، انعقاد المؤتمر الأول لحزب SWPP. وخلال افتتاحه، قال أحد ممثلي أقلية بوغالي تسيون السابقة يا.خالدي: "ينعقد مؤتمرنا في جو خائق. لا يوجد بيننا القادة السابقين في حزبنا، لقد تركوا صفوف الحزب مع الأغلبية الساحقة من أعضائه. نحن لا نمثل سوى أقلية صغيرة وضعيفة، ومع ذلك، فنحن ملتزمون بمبادئنا وتطلعاتنا"^(١).

وقد أيده في ذلك يعقوب ميرزون، الذي أكد أن الانقسام في القسم الفلسطيني من بوغالي تسيون متطابق مع "الانقسام الذي تسبب بظهور الجناحين اليساري واليميني في كل الأحزاب الاشتراكية في العالم، الانقسام بين الإصلاحيين المستندين إلى النظام الرأسمالي المقابل والساعين فقط لإجراء بعض التحسينات عليه، وبين الاشتراكيين الذين يناضلون لتغيير هذا النظام نفسه بطريقة ثورية، من خلال ثورة اشتراكية".

ولاحقا عند دراسة عملية إنشاء SWPP في السياق الذي اقترحه حول "النضال العالمي بين معسكر القوى الثورية ومعسكر الإصلاحية في صفوف الحركة العمالية العالمية"، أكد يعقوب ميرزون، على أن الطابع الاشتراكي الحقيقي لكل "حزب عمالي" هو موقفه من الحرب العالمية والثورة في روسيا. وأشار إلى أنه في "كل حزب اشتراكي، في كل دولة، وقف العشرات من الثوريين الأيمنين للدفاع عن فكرة الاشتراكية وضد الحرب، ومن خلال جهودهم تم إنقاذ نقائهم" (نقاء الفكرة الاشتراكية).

الأسماء التالية: يا.خالدي، ويا. ميرزون، وف. أفيبروخ (دانيل)، وغ. دوا (أدموني) // المرجع

نفسه، ص ٢٣.

(١) هنا ولاحقا أدناه // المرجع نفسه، ص ٢٣ - ٢٦.

ووفقا له ، تم تجسيد الفكرة الاشتراكية ، في روسيا بعد حلول أكتوبر. وحسب اعتقاده باتت روسيا تلك الدولة التي "يوجد فيها شكل مختلف تماما من الديمقراطية والسياسة والسلطة. هناك توجد ديمقراطية تبدأ بعبارة "من أجل الشعب". وبالتالي ، فإن أي دعوات لإسقاط النظام السوفييتي بحجة "الدفاع عن الديمقراطية" هي دعوة إجرامية.

بالعودة إلى سياسة قادة بوعالي تسيون في اليسوف ، قال يعقوب ميرزون: "كارهي صهيون - هذا هو الاسم الذي سيطلقونه علينا عندما يسمعون كلماتنا. ... ولكن إذا كان حب صهيون يفترض مسبقا تحويل فلسطين إلى ملاذ آمن للوسطاء والمضاربين اليهود ، وإذا كان أصدقاء صهيون يعني الذين ينتمون إلى النوع الذي يدعو إلى البناء ، عن طريق تدمير ما تم إنشاؤه بالفعل ، وإذا كان أصدقاء صهيون هم أولئك المواطنين في مستوطناتنا الذين سيتسببون عاجلا أم آجلاً بكارثة لنا جميعا ، فسنكون فخورين بأن نستمتع لهذه التسمية من شفاههم حتى يصبح الخط الفاصل بيننا أكثر وضوحا".

وتحدث ميرزون كذلك عن "تهديد" الإصلاح "من جانب بوعالي تسيون للشغيلة اليهود الذين يعيشون في فلسطين. وقال مخاطبهم: "يدعو حزبنا بلا كلل العمال اليهود ، الذين يرون في هذه اللحظة الصهيونية السبيل الوحيد لإنقاذهم: اعلموا أن كل تلك القلاع التي يسعى الصهاينة ... لتشييدها هنا ، هي قلاع من الهواء لا أكثر. على الرغم من أنها تبدو رائعة وجميلة من الخارج ، إلا أن أساسها يرتكز على قواعد مملوءة بالبارود الجاهزة للانفجار في كل ثانية. لا تصدقوا في الوعود المغرية لمن هم في السلطة. إبحثوا عن طرق جديدة مسارات للسلام مع جماهير الشعب الذي يعيش هنا. تذكروا أن كل صديق جديد لصهيون يصل إلى هنا ، وينزع من سكان البلد أراضيهم ويستغلهم ، يزيد فقط من كمية تلك المواد المتفجرة التي تم وضعها بالفعل تحت أساس بنايتنا".

وحسب اعتقاد ميرزون ، من هذا الوضع المترتب يمكن أن يكون هناك مخرج واحد

فقط من هذا الوضع. وأشار إلى أن حزب SWPP يرى أن "الصهيونية البروليتارية" تربط تحقيق المثل الأعلى الصهيوني بانتصار الثورة الاشتراكية".

بعبارة أخرى، لا يساور الحزب الشك في أن الصهيونية "ستتجسد على أنها صهيونية اشتراكية، وإلا فإن الفكرة الصهيونية لن تتحقق أبدا".

لقد سعى الاشتراكيون الفلسطينيون إلى توجيه رأس الحربة في نضالهم ضد ما أسموه "الأشكال غير الاشتراكية للصهيونية، بما في ذلك البرجوازية وكذلك البروليتارية المعتدلة". لقد رأى حزب SWPP فيهم "ظاهرة غير مجدية وخيثة".

ويجب القول أن الأفكار التي طرحتها كلا المجموعتين من القسم السياسي الفلسطيني السابق لبوعالي تسيون - "الأغلبية" و "الأقلية"، لم تكن ليس فقط قابلة للمطابقة، بل وتقع في مستويات مختلفة تماما فيما بينها. سيكون من غير المجدي التأكيد على أن وجهة نظر إحدى هاتين المجموعتين صحيحة، وبالتالي فإن الأخرى خاطئة. كلاهما لم يكن بأي حال من الأحوال قابلين للتحليل المنطقي.

طبعاً كان سعي "الأغلبية" من بوعالي تسيون الفلسطيني لحل المهمة القومية - البناء القومي - تنطلق وتنبع من الرغبة الحقيقية لليهود الروس ومن أوروبا الشرقية الذين هاجروا إلى فلسطين للتخلص من الاضطهاد والمشاغل المعادية للسامية المتفشية وفرارا من المذابح والعنف. لقد ساعدتهم الهجرة على إنقاذ حياتهم وكرامتهم الإنسانية. وفي أغلب الأحيان، كان هؤلاء الأشخاص بعيدين عن مشاكل البلاد ولم يسعوا على الإطلاق إلى الاستيلاء على أراضي الفلاحين العرب ومصادرة ممتلكاتهم. لكن بمجرد وصولهم إلى أرض إسرائيل، تحولوا إلى جزء من الجالية القومية، وقد تطلبت ظروف الحفاظ عليها في ذلك الوقت، تعزيز العلاقات بينها وبين سلطات دولة الانتداب. هنا في فلسطين، أجبر تحالف اليسوف، والدولة الرائدة في ذلك الوقت بين الحربين العالميتين، المواطنين اليهود

على العيش في ظروف من الصراع العرقي المستمر. كان ضدهم، في المقام الأول وربما الوحيد، رأس حربة نضال العرب الفلسطينيين، وعلى رأسهم قاداتهم التقليديون - "Effendi" (الأفندية).

واصطدم اليسوف، بمذبحة دعائية نظمها قادة الحركة القومية العربية الفلسطينية، والتي وشارك فيها أيضاً العمال العرب، الذين حاول جزء كبير من المستوطنين اليهود اعتبارهم كحلفاء طبيعيين لهم في النضال المشترك ضد الظالمين من الأجانب والطبقيين. لكن بأيدي هؤلاء الشغيلة العرب تم ارتكاب مجازر دموية بحق سكان القرى والأحياء اليهودية. ودفع واقع فلسطين، العمال اليهود ليس إلى التضامن الأممي مع العمال العرب والفلاحين، بل إلى المشاركة في بناء الأمة، وقام قاداتهم الذين دعوا إلى الاشتراكية، بتطوير علاقاتهم مع البرجوازية القومية عن عمد. وعلاوة على ذلك، كان عمال اليسوف - أصحاب المتاجر بالأمس والحرفيين من روسيا وأوروبا الشرقية - يحملون في نفوسهم شحنة قوية من نفسية التعصب القومي. لقد كانوا بعيدين كل البعد، عن الاحتجاج على مسالك قاداتهم. بل على العكس من ذلك، خلق الوضع السائد حول اليهود الفلسطينيين في هؤلاء الناس، ربما، شعورا لم يكن من الممكن تصوره سابقا، من التضامن والتماسك، والذي لم يترك بتاتا وبأي حال من الأحوال أي مجال للأخوة بين الأعراق. لقد تغير اليسوف، بسبب "بناء الأمة" اليهودي في فلسطين. وتبلورت في ممارسته، العديد من السمات المحددة التي جعلته إلى حد كبير أقرب إلى النماذج الكلاسيكية للحركات الوطنية في المناطق غير الأوروبية من العالم الحديث. وأهمها كان أنه تم إبعاد الطبقات الاجتماعية الجديدة لليهود - عمال المؤسسات الزراعية والمستوطنات الزراعية (الموشاف والكيبوتس) عن تنفيذ المهمة التي اعتبرها الماركسيون الاتجاه الرائد في نشاطهم.

تلك الأشكال من النهضة القومية للشعب ، التي كانت تعتبر في بداية القرن أداة لإدخال القيم والمثل الاشتراكية فيها - ومن أجل ذلك بالذات كان يجب أن تظهر وتنشأ البروليتاريا اليهودية في فلسطين - لم تعد بعد الآن ، تعتبر ضرورية. بل على العكس من ذلك ، بدأت هذه الطبقة الاجتماعية الجديدة تتحرك نحو التعاون الوثيق مع البرجوازية الوطنية. وبدأ العمال اليهود في بناء الدولة القومية.

لقد سعى بوعالي تسيون الفلسطينيون لمنع التطور المطرد لهذه العملية. ولكن في الواقع الحقيقي لفلسطين في ذلك الوقت ، كان هذا يعني أن حزب SWPP ، في لحظة انطلاقه بالفعل ، أصبح مهماً في حياة اليسوف السياسية.

وقد حدث ذلك ليس فقط ، لأن خصوم هذا الحزب العقائديين استخدموا على نطاق واسع مصطلح "كارهي صهيون" ، أو لأن الحزب أصبح على الفور هدفاً للاضطهاد من قبل الإدارة البريطانية ، بل لأنه رغم محافظته على مصطلح "الصهيونية" في قاموسه السياسي ، ترك الحزب حل المسألة القومية اليهودية إلى لحظة انتصار "الثورة الاشتراكية العالمية".

لكن هذه الكلمات الجميلة كانت بالطبع ، مجرد طرح رمزي ، وكان الأمر يتعلق بفكرة فضة وبسيطة ، يكمن جوهرها في رغبة هذا الحزب في السيطرة على السلطة كما فعل البلاشفة الروس.

ولكن ، مع ذلك ، كان كل ذلك يقال للأشخاص الذين سعوا بالفعل اليوم إلى حل مشاكلهم الملحة ، والذين عانوا من أهوال المذابح في تلك البلدان التي أتوا منها إلى فلسطين ، حيث أصبحوا مرة أخرى ضحايا الدعاية والممارسات المعادية للسامية. بعبارة أخرى ، لقد تضمنت فكرة "الصهيونية البروليتارية" لمسة واضحة جداً للعدمية القومية ، والتي بالطبع ، لم يستطع اليسوف ، فهمها وقبولها. ولهذا السبب بالذات تحولوا إلى

البلشفية. لقد أثبت المثال الروسي - وكما بدا آنذاك، أخيرا - عظمة فكرة خلق "الإنسان الجديد". أن السعي إلى تحول جذري لليهود من أجل المشاركة في تنفيذ هذه الفكرة هذه المرة، كما اعتقد الاشتراكيون الفلسطينيون، تلقى في البلشفية تأكيداً عملياً لحيوته. وهي لم تعد كما ظنوا مجرد فكرة مجردة، يمكن دائماً تبرير التلاعب بها من خلال الاحتياجات البراغمية للحياة الواقعية - وكان إنشاء أهدوت هافودا تأكيداً حاسماً على ذلك بالنسبة لهم. كان الاشتراكيون الفلسطينيون ينظرون إلى "الصهيونية البروليتارية" على أنها صدى محلي، ومن حيث الجوهر، مرادف لـ "الأمية البروليتارية" البلشفية وكانت بالنسبة لهم الباب الذي فتح للعالم الواسع للمثل الاشتراكية المنشودة. كانوا بحاجة للأعراف من جانب الكومنترن، لأن هذا الاعتراف يمكن أن يكون بمثابة مقياس لأحقيتهم الذاتية، وتحويل ضعفهم وعدم أهميتهم داخل بيئتهم القومية إلى قوة ضخمة لا تقاوم.

بالطبع، تم تحديد وجهة نظر الأقلية في بوعالي تسيون انطلاقاً من أسباب تتعلق بعوامل داخلية وخارجية. وتم تبرير اختيار أيديولوجية "الصهيونية البروليتارية"، بالواقع السائد في فلسطين نفسها، حيث تعمقت التناقضات بين المجموعتين القوميتين بشكل دوري - كما حدث بالفعل في القدس عام ١٩١٩ - مما أدى إلى اشتباكات دامية.

وفي أساس هذه العقيدة، كان توجد، الرغبة في ضمان الوجود الآمن لليشوف، لأنه بهذه الطريقة فقط يصبح من الممكن إنشاء بروليتاريا يهودية ذات توجه "اشتراكي". بدوره، كان يجب على التحرك نحو التحالف مع العمال العرب و "تحريرهم" من القوة المطلقة لـ "الأفنديين"، أن يصبح بمثابة الحلقة المركزية في ضمان هذا الوجود الآمن.

من المستبعد أن تكون قد ظهرت الأوهام لدى أي من المشاركين في بوعالي تسيون الفلسطينية الناشئة (وكان ذلك محققاً) حول "البروليتاريا" العربية أيضاً، وحول إمكانية ضمها بسرعة إلى حد ما في صفوف مؤيدي "إعادة التنظيم الاشتراكي للعالم". طبعاً،

أعلنت قرارات المؤتمر الأول لـ (SWPP)، التزام الحزب بالبحث عن "سبيل للتقارب والتفاهم" مع العمال العرب^(١).

ولكن في الواقع، كان الحديث يدور عن تقريب الواقع الفلسطيني إلى فكرة بوروخوف عن "اندماج" السكان العرب المحليين، الذين لن يكونوا قادرين على طرح "منافسة قومية" كبيرة للمهاجرين اليهود - البروليتاريين. لكن هذه المرة، اكتسبت هذه الفكرة صيغة "طبقية" مصقولة.

ولكن في ذات الوقت، لم يتم بتاتا التشكيك بأي حال من الأحوال في بقية الطروحات العقائدية البوعالتسوية - ومن بينها أهمها - استمرار الهجرة اليهودية الجماعية إلى أرض إسرائيل. وكان ذلك مفهوما. ووفقا لذلك، كان "الإخوة الطبقيون" العرب "المثقفون" بحاجة إلى من يقودهم. وكان من المفترض أن يكون هؤلاء القادة، من "البروليتاريين" اليهود، والذين سيحولهم وصولهم إلى فلسطين في النهاية إلى أحد مفارز "الثورة الاشتراكية العالمية". وعندما أدان يعقوب ميرزون "أصدقاء صهيون"، قام فقط برسم الحد بين أولئك الذين يتطلعون إلى فلسطين من أجل المشاركة في "بناء الأمة البرجوازية" (اعتبر وجودهم هناك بالطبع غير مقبولا)، وأولئك الذين يصلون هناك بدوافع ذات طبيعة "طبقية". في "الوطن التاريخي لليهود"، ظل يُنظر إليهم على أنهم ضيوف مرحب بهم.

لقد احتاج SWPP إلى اتصالات مع حركة الكومنترن. بالنسبة للحزب، كان ذلك حاجة ضرورية بشكل موضوعي. لكن طريق تربيها كان يجب أن يمر عبر الاتحاد العالمي للعمال الاشتراكيين اليهود - بوعالي تسيون. في قرارات المؤتمر الأول للحزب، جرت

(١) المرجع نفسه، ص ٢٦.

الإشارة إلى أنه سيدخل صفوفها مرة أخرى. ولكن نيل عضويتها كان ممكن أن يصبح حقيقة نهائية فقط إذا حدد بوعالي تسيون موقفه من الأمية الثانية (الكومنترن الثاني)، الذي رفض حزب SWPP (كان منظمة ذات توجه "إصلاحي") رفضا قاطعا الاعتراف بها أو إرسال ممثل عن حزب إليها. وعلاوة على ذلك، أشار الاشتراكيون الفلسطينيون إلى أنه إذا نفذ بوعالي تسيون هذا الدخول، فإنهم سيرفضون اعتباره مركزهم القائد^(١).

بالنسبة لحزب SWPP، كان طرح السؤال بهذا القبيل، أمرا مبدئيا. والحديث دار هنا ليس عن "سلوكه غير المطرد" أو وجود "البقايا القومية" في بنائه الأيديولوجي وممارساته، كما تم القول مرات عديدة في اللجنة التنفيذية للأمية الشيوعية. ويكفي تذكر كلمات يا. خالدي الذي تحدث عن "الأجواء الخانقة" للمؤتمر الذي نظمته أقلية بوعالي تسيون الفلسطينية، وعن غياب "قادة سابقين ... للحزب" بين المندوبين.

كان اسم بن غوريون واسم بن تسييفي، مؤسسي القسم الفلسطيني في بوعالي تسيون، ونشاطهما يتسبب في ظهور تيار قوي من العواطف والانفعالات في أذهان كل عضو من أعضاء اليسوف. هل يمكن أن يلعب يا. خالدي ويعقوب ميرزون دورا كاريزميا مماثلا؟ هل كانا، في أحسن الأحوال، ينتميان إلى قادة الطبقة الثانية من التسلسل الهرمي للحزب ويستطيعان تقديم الزخم والبريق اللازم للهيكل السياسي الذي يقومان بإعادة تشييده وخلق الظروف الضرورية لاستعادة نفوذه في صفوف الحركة العمالية؟

لم تكن هذه التساؤلات بلاغية بأي حال من الأحوال، وعلى الأرجح، يمكن فقط الحصول على إجابة سلبية عليها.

بالمقابل كانت المحافظة على الاتصالات مع بوعالي تسيون وهي المنظمة ذات النطاق

(١) المرجع نفسه.

العالمي ، ستساعد حزب SWPP ، في حل بشكل إيجابي المهام المطروحة أمامه. وكانت العضوية في صفوفه ، وكذلك الاتصالات مع الكومنترن ، ستكون لهذا الحزب بمثابة الأداة الطبيعية لإضفاء الشرعية على أنشطته في الظروف الجديدة لوجوده.

(٢) الكومنترن وبوعالي تسيون والوضع الفلسطيني في العشرينيات

لأول مرة تمت مناقشة مشكلة فلسطين في جانبها الواسع، بما في ذلك موقف الكومنترن من مختلف المجموعات الاشتراكية التي ظهرت في أوائل العشرينيات إطار الحركة العمالية اليهودية، وكذلك من الحركة القومية العربية، تمت مناقشتها لأول مرة في ٢٨ يوليو ١٩٢٠ خلال المؤتمر الثاني للكومنترن في سياق المناقشة العامة لـ "تقرير لجنة القضايا القومية والاستعمارية في ٢٦ يونيو" الذي قدمه فلاديمير لينين^(١).

وخلال النقاش الذي تم حول التقرير، تحدثت ممثلة "البوند الشيوعي"^(٢) ماريا ياكوفليفنا فرومكينا وكذلك عضو المكتب المركزي للأقسام اليهودية^(٣) في اللجنة المركزية

(١) في الأدبيات الوطنية المحلية، لا يوجد عدد كافٍ من الأعمال المكرسة لهذه المسألة. لكن مع ذلك نلاحظ عمل ل.يا. دادباني "الأمية الاشتراكية العمالية والصهيونية" // "شعوب آسيا وأفريقيا"، M، ١٩٧٦، العدد ٢؛ و "نقد عقيدة وسياسة الصهيونية الاجتماعية". م، ١٩٨٦. بالإضافة إلى ذلك، يتم النظر في هذه المسألة من قبل غ.غ. كوساتش. من تاريخ تشكيل الحزب الشيوعي الفلسطيني (١٩١٩-١٩٢٤) // النضال من أجل التقدم الاجتماعي في الشرق. التاريخ والحداثة. م، ١٩٩٠.

(٢) "البوند الشيوعي" - منظمة أنشأها الجناح اليساري لحزب البوند في مارس ١٩١٩. بعد انقسام البوند، خلال المؤتمر الثاني عشر لهذا الحزب، الذي عقد في أبريل ١٩٢٠ في موسكو، بدأ "البوند الشيوعي" المفاوضات، التي عقدت تحت الإشراف الشخصي لـ ف. لينين، بشأن دخول أعضائها في الحزب الشيوعي الروسي (ب).

(٣) الأقسام اليهودية - اسم المجموعات الشيوعية اليهودية في صفوف الحزب الشيوعي الروسي (ب)، التي تم إنشاؤها جنباً إلى جنب مع التشكيلات القومية الأخرى. كانت المهمة الرئيسية لمثل هذه الأقسام هي نشر الأيديولوجية الشيوعية بين الأقلية اليهودية في روسيا السوفيتية. وقامت الأقسام اليهودية ذلك بحل
=/=

للحزب الحزب الشيوعي الروسي (البلاشفة) أبرام نوموفيتش ميرزين. وفي نفس اليوم تم تخصيص كلمة مطولة عن القضية الفلسطينية قدمها م. كوهن هير مثل بوغالي تسيون.

وكان يجب على ممثل بوغالي تسيون أن يبحث في موسكو ويحل مشكلة إقامة أوسع علاقة ممكنة بين منظمته والأمية الشيوعية. ولبت هذه المهمة كذلك أهداف الكومنترن - تم حضور كوهن هير في المؤتمر الثاني كحل وسط. في البداية قررت لجنة الاعتماد في المؤتمر حرمانه من حق حضور الجلسات لأنه كان مثل حزبا "قوميا"، لكنها لاحقا اعتبرت أنه من الممكن منحه حق الصوت الاستشاري كممثل لـ SWPP، كحزب "يسعى للانتقال إلى المواقف الشيوعية"^(١).

لكن طبعا لم تكن الرغبة في إقامة اتصالات مع الكومنترن، تمثل بالنسبة بوغالي تسيون الهدف بحد ذاته، ولكنها نابعة من اعتبارات ذات طبيعة براغماتية. في صفوف هذه المنظمة، كانت هناك بالفعل مجموعات اشتراكية راديكالية - وفي بعض الأحيان أقسام كاملة، وبمثابة التأكيد الأكثر لفتا للانتباه يمكن اعتبار أن حزب SWPP - كان معجبا بالثورة البلشفية في روسيا. وبالطبع كان بوغالي تسيون يشعر بضغط هذه المجموعات؛ وتسبب ذلك بظهور نزعات الطرد المركزي في صفوفه.

وبالطبع، كان يجب على حزب SWPP، أن يتواجد في مركز اهتمام قيادة بوغالي تسيون - لأن الحديث دار عن ذلك القسم من حركة بوغالي تسيون الذي تطور في البلاد

مهمة محددة - التصدي لنشاطات البوند والمنظمات الصهيونية. تم عقد أول مؤتمر للأقسام اليهودية في أكتوبر ١٩١٨ في موسكو. في يناير ١٩٣٠، تم حل هذه الأقسام وهيئاتها القيادية، مثل التشكيلات الحزبية القومية الأخرى.

(١) المؤتمر الثاني للكومنترن (يوليو - أغسطس ١٩٢٠) م، ١٩٣٤، ص ١٤٩.

التي كانت تمثل "الموطن التاريخي لليهود". هناك كان يجب أن تظهر البروليتاريا اليهودية ، وهناك كان يجب عليها أن تدخل في الثورة الاشتراكية العالمية.

لكن لم تكن قيادة بوعالي تسيون تتصور على الإطلاق ، أن التغلب على الميول الطاردة على أساس إقامة وتعزيز العلاقات مع الكومنترن يمكن أن يتم كعملية تخليها الفوري أو المطرد عن المحافظة على استقلاليتها التنظيمية أو الأيديولوجية. هذه المنظمة لم ترغب في أي حال من الأحوال بالتحول إلى منظمة شيوعية. لذلك استمرت نشاطاتها بالاعتماد على المواقف الاشتراكية - الصهيونية : حماية المصالح الخاصة للعمال اليهود في بلدان إقامتهم ، وحرية الهجرة اليهودية إلى فلسطين وخلق على أراضيها المقدمات اللازمة لتحقيق الاهداف الاشتراكية العليا لحركة بوعالي تسيون. وكان هذا أمرا طبيعيا - فقد ظل السكان اليهود في دول أوروبا الشرقية يتعرضون للتمييز القومي ، الأمر الذي حدد مسبقا الحفاظ على مشاعر الهجرة الفلسطينية في صفوفهم.

لكن رغم ذلك ، كانت المهمة الملقاة على عاتق كوهن هير صعبة للغاية. كان اهتمام الكومنترن بإقامة علاقات مع بوعالي تسيون ينطلق من ظروف مختلفة جوهريا. وبالطبع ، لم تشاهد اللجنة التنفيذية للأمية الشيوعية وجود ضرورة في المحافظة على الوحدة التنظيمية والأيديولوجية للمنظمة ، التي اعتبرتها ليست "ثورية" بشكل كاف و"إصلاحية ، وبرجوازية صغيرة".

ويجب القول ، أن الأهداف التي سعت اللجنة إليها في علاقاتها مع بوعالي تسيون ، كانت تتعارض بشكل مباشر مع أهداف الشريك. بحلول الوقت الذي انعقد فيه المؤتمر الثاني للكومنترن ، حدث انقسام في صفوف الحزب السياسي الرائد للحركة العمالية اليهودية في روسيا وأوروبا الشرقية - البوند ، الذي انضم بعض أعضائه إلى الحزب الشيوعي الروسي (ب). وعلى عكس بوعالي تسيون ، لم يكن البوند هيكلا حزبيا

صهيونيا.

إلا أن هاتين المنظميتين، كما الحزب الشيوعي الروسي (ب)، نشأتا من الحركة الاشتراكية الديمقراطية الروسية وارتبطتا مع البلاشفة الروس بروابط ليست بالبسيطة في مجال المعارضة المشتركة للقيصرية. لقد أكد البوند على الدوام، على وجود مهام متميزة خاصة لنضال العمال اليهود، وفي هذا الصدد شدد على الحاجة إلى وجود تكوين سياسي مستقل لهم، وتم تقييم ذلك في البيئة البلشفية على أنه تجسيد للرغبة في العزلة القومية، وكظهور التعبير عن آراء "مؤيدي وأنصار اليهودية الطبقية القديمة" الذين روجوا لشعارات "الخاصات والبرجوازية"^(١).

بالطبع، كان ينبغي أن يكون موقف الكومنترن أكثر صرامة تجاه بوعالي تسيون. ولم يكن بمقدوره إلا السير على خط دعم الانقسام في هذه الحركة، لذلك وضع الكومنترن كهدف مباشر، جذب إلى جانبه الراديكاليين من بوعالي تسيون. ولعب حضور ممثلي الأقسام الشيوعية اليهودية التي تم إنشاؤها بالفعل في الحزب الشيوعي الروسي (ب) (المكتب المركزي للأقسام اليهودية)، وكذلك الجزء الشيوعي من البوند (البوند الشيوعي)، في المؤتمر الثاني دور تقوية هذه النزعات.

كان من أهم بنود كلمة فورمكينا، اقتراح لتضمين، كحاشية لإحدى الأطروحات حول القضايا الوطنية والاستعمارية، الإضافة التالية: "كمثال على الخداع الذي تقع كضحية له الجماهير الكادحة من الأمم المضطهدة والذي تتحمل مسؤوليته دول الوفاق وكذلك البرجوازية في تلك الدول، يمكن ذكر فعاليات ومشاريع الصهاينة في فلسطين، الذين وبذريعة إقامة دولة يهودية مستقلة، أخضعوا الجماهير العاملة العربية للنير

(١) فلاديمير لينين، المرجع الذي تم الاقتباس منه في السابق. ص ١٢٢-١٢٣.

الإنكليزي، في حين أن اليهود هناك لا يشكلون سوى أقلية من السكان. يجب فضح هذا الخداع غير المسبوق بأي ثمن، خاصة وأن الصهاينة ينفذون عملهم هذا في جميع البلدان بين العمال اليهود المتخلفين في محاولة لإنشاء مجموعات بروليتارية ذات ميول صهيونية (بوعالي تسيون) التي كانت تسعى في الفترة الأخيرة إلى استخدام العبارات الشيوعية^(١).

ويشار إلى أن الإضافة، التي اقترحها ممثل "البوند الشيوعي" تضمنت ليس فقط الكثير من المبالغات وعدم الدقة والتقييمات غير الصحيحة، بل وقامت بتزوير واضح ومكشوف للوضع الفلسطيني. يكفي الإشارة على الأقل إلى تأكيدها على أن قادة الحركة الصهيونية كان لهم تأثير حاسم على السياسة الخارجية لبريطانيا.

لكن الأمر الأهم لم يتلخص في ذلك. لقد اتخذت فرومكينا موقفا متصلبا غير قابل للتوفيق، وهو سبب يمكن أن يجعله غير صحيحا، فيما يتعلق بحركة بوعالي تسيون، لأنه توجد منذ زمن بعيد خلافات بين البوند وهذه المنظمة فيما يتعلق بقضية فلسطين. لقد أصبحت المذكورة أعلاه، شيوعية منذ فترة غير بعيدة ومثل أي مبتدئ، كانت قاسية ولا تتهاود بتاتا فيما يتعلق بـ "فكرتها الصحيحة" الأخيرة غير المستنيرة عن الماضي، وفيما يتعلق بأولئك الذين لم يتمكنوا مثلها، من التغلب على عبء هذا الماضي. ولكن، كما أصبح واضحا، لم تكن هي الوحيدة التي اتخذت مثل هذا الموقف.

وبعد كلمة فرومكينا حول القضية الفلسطينية، تحدث أبرام ميرزين خلال المؤتمر الثاني للكونغرس. وأشار إلى أن الأقسام اليهودية في الحزب الشيوعي الروسي (ب) تتفق

(١) المؤتمر الثاني للكونغرس، ص ١٤٠ - ١٤١.

عموما مع موقف الحزب المعلن تجاه الصهيونية الاشتراكية^(١).

ووفقا له ، تكمن خطورة عقيدتها وممارستها في ظروف فلسطين ، أولا وقبل كل شيء ، في أن بوعالي تسيون ، قامت وبشكل مصطنع بفصل نضال بروليتاريا الأقلية اليهودية عن نضال بروليتاريا الأغلبية العربية.

وشدد ميرزين ، على أن ذلك تم لأنه "داخل كل أقلية قومية ، توجد مجموعة قومية ضيقة الأفق من الحرفيين وصغار التجار ، وهي أكبر وأقوى من البروليتاريا كونها حضرية في الغالب ، وهي أكثر رجعية بكثير من الأغلبية البرجوازية الصغيرة في أمة الأغلبية التي تتكون من الفلاحين ، الذين وقفوا على طريق الثورة خلال النضال ضد الملاك وأصحاب الأراضي".

لقد تبلورت وجهة نظر ميرزين ، ونشأت خلال تبادل الآراء بينه وبين فلاديمير لينين وكانت تمثل في جوهرها استمرارا مباشرا لآراء لينين.

وفي هذا المجال ، تعتبر مهمة إحدى الوثائق المتعلقة بإعداد "طروحات حول القضايا القومية والاستعمارية". والحديث يدور عن رسالة فلاديمير لينين التي كتبها في يوليو ١٩٢٠ ، وفيها طلب من ميرزين ، بصفته عضوا في وفد الحزب الشيوعي الروسي (ب) إلى المؤتمر ، أن يضيف بندا إضافيا إلى "الطروحات" يخصص للعلاقات القومية في أوكرانيا. واقترح لينين على ميرزين ، أن يستخدم خلال ذلك المعطيات التي قدمها موسى رافيس ، البوندي السابق وأحد قادة الجناح اليساري لحزب البوند في أوكرانيا منذ عام ١٩١٩ وعضو الحزب الشيوعي الروسي (ب)^(٢).

(١) هنا ولاحقا أدناه // المرجع نفسه ، ص ١٤٥-١٤٨.

(٢) هنا ولاحقا أدناه // من فلاديمير لينين إلى ميرزين أ. // PSS ، المجلد ٥١ ، ص ٢١٩-٢٢٠.

ووفقا لاقتراح لينين، كان يجب في هذه الإضافة "للطروحات" نقل الفكرة القائلة أنه في أوكرانيا حيث انتصرت السلطة السوفيتية، تم القضاء على الصراع القومي "التمثل ليس فقط في شكل مذابح وتدمير وهو أمر لا يمكن للجمهورية البرجوازية الأكثر ديمقراطية التخلص منه، بل وعلى تلك التي تظهر شكل مشاحنات ومشاجرات صغيرة".

وذكر لينين أن "تصفيتها كان تعبيرا ملموسا عن النضال المشترك لممثلي مختلف القوميات ضد البرجوازية. هذا النضال وحد عمال جميع الأمم".

وأضاف لينين، أن القضاء على الكراهية القومية في أوكرانيا تم بفضل قيام "دكتاتورية البروليتاريا"، التي "تقمع" حرية عمل البرجوازية والمثقفين البرجوازيين، أي "استخدام القوة والتأثير والمعرفة من قبل البرجوازية لتحريض الصراع الطبقي".

ولا شك في أن استنتاجات لينين، كانت تكمن في الاتجاه السائد للأفكار البلشفية حول أساليب حل المسألة القومية، والتي تم تنفيذها في النهاية في روسيا السوفيتية والجمهوريات السوفيتية الأخرى. ومع ذلك، كان السياق السياسي لهذه الآراء يثير الاعتراضات.

وبالنسبة للسكان اليهود في أوكرانيا، تم في المقام الأول، استخدام التعاريف التي كان يستخدمها فلاديمير لينين - "البرجوازية الصغيرة" و "المثقفون البرجوازيون". بالطبع، كانت هذه الطبقات الاجتماعية موجودة أيضاً في هيكل المجموعات القومية الأخرى في الجمهورية. ولكن اليهود هناك كانوا في غالبيتهم الساحقة من سكان المدن.

وكان على السلطة الجديدة - "دكتاتورية البروليتاريا" - توجيه ضربة لهم، أولاً وقبل كل شيء مما يعني، طبعا، ليس فقط مصادرة ممتلكات تلك الشرائح الاجتماعية التي كانت المصدر الرئيسي "للشجار" بين الأعراق. ووفقا لنفس منطق تطور الفكر كان يجب على تلك الجماعات من يهود أوكرانيا المعنية فعلا بالانضمام إلى السلطة الجديدة،

أن تضع نفسها بشكل كامل وغير مشروط في "خدمة" الشغيلة الأيمن من الأغلبية القومية في أوكرانيا وبشكل عفوي..

لقد طالبتهم "ديكتاتورية البروليتاريا" بذلك، رغم أن ممثلي هذه الأغلبية كانوا مسؤولين بشكل مباشر عن مقتل الآلاف من مواطنيهم اليهود خلال سنوات الحرب الأهلية. وتوصل الشيوعيون السوفييت الآخرون إلى استنتاجات مماثلة.

في صيف عام ١٩٢٠، نُشرت في موسكو أول دراسة سوفياتية مكرسة للقضية الفلسطينية بعنوان "المذبحة الفلسطينية والفكرة الفلسطينية"^(١) لمؤلفها م. رافيس، وسبب نشر هذا العمل كانت مذبحة القدس اليهودية عام ١٩١٩.

في ذلك العمل، كتب المؤلف: "في صفوف البروليتاريا اليهودية (حتى في أكثر الأوقات التصالحية)، لم يكن للفكرة الصهيونية أي مصداقية واعتماد. كل هذه الجماعات الصهيونية والإقليمية والمجموعات الصغيرة، التي تسترت باسم العمال والاشتراكية، ظهرت وأخذت تنمو ليس لأن الأفكار الصهيونية تغلغت في الحركة العمالية، بل على العكس من ذلك، نتيجة لتفكك الصهيونية تحت تأثير انتقادها من اليسار. كان انتقاد الأفكار القومية والصهيونية بمثابة التطور للنضال الطبقي الثوري للبروليتاريا اليهودية، التي تعاضدت بالإجماع مع العمال الروس والبولنديين ضد الرأسماليين اليهود والروس والبولنديين وضد القيصرية. وفي الفترة عندما كان فيه العمال اليهود يسرون بالفعل تحت راية الاشتراكية، لم يكن من الممكن أن تحظى باهتمامهم وأن تجرفهم، فكرة، يعتمد تنفيذها كلياً وتتعلق بالكامل بابتسامات بعض الدبلوماسيين من هذه الدولة الرأسمالية أو تلك".

(١) هنا ولاحقاً أدناه // رافيس م. المذبحة الفلسطينية والفكرة الفلسطينية. م، ١٩٢٠، ص ١٩-٢٣.

لقد حاول رافيس ، كما حاولت فرومكينا قبله ، أن يتعد وينأى بنفسه بشدة عن ماضيه البوندي. وقد تجلى ذلك من خلال ذكره لبعض الصهاينة و "الإقليميين". لكن تنفيذ ذلك كان غريبا فعلا! كأنه لم تكن هناك مجادلات عقائدية غاضبة بين البلاشفة والبونديين ، وهو أمر كان يذكره جيدا كل قراء أعماله. كأنه لم تكن هناك موجة واسعة من الهجرة اليهودية من روسيا متجهة ، بما في ذلك ، إلى فلسطين. وأخيرا ، لقد حاول رافيس إنشاء صورة شاعرية حقا للعلاقات بين الأعراق داخل الإمبراطورية الروسية عشية الأحداث الثورية في أواخر شتاء وخريف عام ١٩١٧ ، وكذلك خلال الحرب الأهلية التي تلت ذلك. فعلا هل كان بمقدوره القيام بغير ذلك؟ خاصة بعد أن تحول إلى بلشفي وبات عليه المشاركة في إنشاء إيديولوجية جديدة للسلطة "الأممية" ، التي يجب أن تعطيها هالة الشرعية الضرورية.

لقد اعتقد رافيس أن خطر الصهيونية يكمن ، أولا وقبل كل شيء ، في حقيقة أن الإمبريالية البريطانية ، باستخدامها لهذه الحركة ، ستكون قادرة على تعزيز هيمنتها في فلسطين ، وتحريض "الجماهير العربية ضد اليهود".

وقد كتب في هذا الصدد : "... الحركة القومية للعرب - تعتبر ثورية لأنها مدعوة لضرب قلب الإمبريالية الانكليزية - لكن يمكن توجيهها بعيدا عن عدوها الرئيسي ، عن الإمبريالية وضد جموع الأبرياء من اليهود والمستوطنين في سوريا وفلسطين والجزائر والمغرب وجميع البلدان بشكل عام على ساحل البحر المتوسط. ... في كل مكان ، ينتشر عملاء الإمبريالية المأجورين الذين ومن أجل صرف الغضب عن أنفسهم ، ينشرون شائعات حول ... استيلاء اليهود على فلسطين ، في الوقت الذي ابتعد الجزء السليم من اليهود عن الصهيونية منذ البداية".

وتابع رافيس القول : "في هذه اللحظة ، بات من المعيب حمل اسم الصهيوني. الحياة

بجد ذاتها تتطلب التخلي والرفض الكامل عن الصهيونية - هذا هو مطلب الحياة الأخير، الموجه إلى جميع المجموعات اليسارية اليهودية الاشتراكية، وسيكره الثالث، الأمية الشيوعية".

ويرى رافيس أنه سيتوجب لاحقا على الشيوعيين في الشرق أن يفكروا مجددا في كيفية وقف انتشار "الضرر" الذي تسببه عقيدة وممارسات الصهيونية للعمال العرب واليهود. وقال: "و ضد السياسة الاستفزازية المتمثلة في تحريض العرب ضد الجماهير اليهودية، المخدوعين والخاضعين للاستغلال مثلهم من جانب الإمبريالية، يطرح الشيوعيون فكرة العمل المشترك والنضال المشترك بين الفلاحين العرب واليهود والجماهير البروليتارية ضد أي اضطهاد، سواء كان من جانب الرأس المال البريطاني أو اليهودي".

لا يمكن لهذه النصوص المقتبسة إلا أن تسبب الاستغراب والخيرة اليوم. لكنها تحتوي على الكثير من الأمور المأساوية والطبيعية المعتادة لتلك الحقبة التي عاشت في حالة من الجمود في انتظار الثورة الاشتراكية العالمية، التي من أجلها تمت التضحية بالواقع في سبيل الأوهام. أما الحقيقة، فتمثلت في لحظة بداية الصحوة القومية للشعوب، التي كان يُنظر إليها كوسيلة غير ملائمة كثيرة لتنفيذ فكرة التضامن البروليتاري الأممي. وخلال ذلك تم بالكامل تجاهل الفكرة القائلة بأن الأمية الحقيقية تعني أقصى قدر من التنمية والرضا الشامل للتطلعات القومية للشعوب. والحديث هنا طبعاً لا يتعلق باليهود فقط.

كان الواقع يتمثل في تلك السنوات بالطابع المذبذب للحركة العربية الفلسطينية، الخاضعة لقيادة الزعماء المحليين، الذين استخدموا الاحتجاجات العفوية للفلاحين ضد طردهم من الأرض التي باعها الأفندي نفسه إلى صناديق الاستعمار الصهيوني من أجل رفع ثمن قطع الأراضي التي يمتلكها هذا الأفندي.

وكان يجب أن تمر سنوات عديدة قبل أن تظهر في هذه الحركة، إلى حد ما، ظهرت

قوى أخرى يمكنها أن تبدأ بإدراك الطبيعة المدمرة لسياسة النخبة العربية الفلسطينية. وتم إعلان هذه الحركة بشكل قاطع كحركة تقدمية لأنها تتألف في غالبيتها من الفلاحين! في الوقت نفسه، لم يُسمح بأدنى تلميح إلى أن الذنب في التحريض على المشاعر المعادية لليهود في كل من فلسطين وبلدان أخرى من العالم العربي، يقع على عاتق ليس فقط الأجانب الذين يمارسون الاضطهاد، بل وعلى النبلاء المحليين، الذين كان التحالف معهم من الاتجاهات الأولوية لسياسة دول المتروبول (الدول الاستعمارية).

وأخيراً يجب القول إنه يلاحظ في كلمات فروكينا وميرزين ورافيس، وجود التحيز الواضح والتحامل الذي يعود في سببه إلى نضال القوى السياسية المختلفة في الحركة العمالية والقومية اليهودية. في تلك السنوات وخلال عدة سنوات لاحقة، عمل أنصار بوغالي تسيون بشكل قانوني في روسيا السوفيتية، مقدمين أنفسهم كبديل لكل من "البوند الشيوعي" والأقسام اليهودية في الحزب الشيوعي الثوري (ب). علاوة على ذلك، في حديثه في المؤتمر، ذكر كوهن هيرر علانية أن موقف م. فرومكينا يعتبر بمثابة بعثها المصطنع للتناقضات الحزبية في الحركة العمالية اليهودية.

وأضاف المذكور، أن الهدف "القومي" لأنصار بوغالي تسيون، لم يطمس بتاتا المنظور الاشتراكي لنضالهم.

وشدد السيد كوهن هيرر على أنه في الوقت الذي "دعم فيه البوند جميع الحكومات المعادية للثورة في روسيا"، كان بوغالي تسيون أول حزب سياسي من "البروليتاريا اليهودية، التي انحازت إلى البلاشفة في النضال ضد الثورة المضادة" ومن سبيل تحقيق "الثورة العالمية"^(١).

(١) المؤتمر الثاني للكونغرس، ص ١٥٠.

لكن في الواقع ، لم يكن هذا الكلام موضوعيا طبعاً ، لأن بوعالي تسيون سعى في الواقع للتحالف مع البلاشفة عشية وبعد أكتوبر ١٩١٧ ، كان يريد حل مشاكله السياسية الخاصة. وأهمها إضعاف البوند. وكانت كلمة "الاشتراكية" في هذا السياق ، ليست إلا مجرد كلمة جميلة دورية أخرى.

ويجدر القول ، أن كوهن هيبير تحدث بعد اثنين من خصومه ، بالتالي تمكن من إدراك وفهم النقاط الرئيسية في تقريرهما وبالتالي الدخول فوراً في مناقشة معهما. وفي كلمته أعرب قبل كل شيء عن رفضه الشديد لتلك الإضافة إلى "أطروحات حول المسألة القومية والاستعمارية" التي قدمها ممثل "البوند الشيوعي". وفي نفس الوقت أشار إلى أن حزبه لا يعترض بأي حال من الأحوال على الحاجة إلى محاربة الصهيونية "البرجوازية" ، علاوة على أنه يعارضها بحزم ، لأنها "وضعت نفسها بشكل طبيعي في خدمة الإمبريالية البريطانية". ولكن ووفقاً له ، فإن إضافة البند الذي يشجب "الصهيونية البرجوازية" إلى النص ، سيلزم المؤتمر باتخاذ قرار يدين "الحركات البورجوازية الوطنية الأخرى التي تعتبر حركات تحريرية".

ووفقاً لمنطق ممثل بوعالي تسيون ، يتوجب على الكومنترن أن ينظر بشكل متحامل أكثر إلى تلك الحركات في الشرق الأوسط التي يقودها زعماء العشائر التقليديون أثناء وبعد الحرب العالمية الأولى^(١).

الوثائق المتعلقة بهذا الموضوع موجودة في مجموعة "الحركة الشيوعية واليشوف في أرض إسرائيل في

١٩٢٠-١٩٤٨" ، التي أعدتها كلية العلوم الإنسانية في الجامعة العبرية في القدس.

// Frenkel I. Khatnua hacommunism ve haishuv be Eretz-Israel. 1920-1948. Jerusalem, 1975, pp. 37-38.

(١) هنا ولاحقاً أدناه // المؤتمر الثاني للكومنترن ، ص ١٥٠-١٥٤.

ويرى هذا الممثل أن هذه الحركات لم تكن أكثر من رغبة القوى الرجعية ، المدعومة من البريطانيين ، لتصفية المؤسسة القائمة على أساس "التعليمات الشيوعية البدائية للقانون الإسلامي للممتلكات العامة للفلاحين المستقرين على الأرض" ، إنشاء أقدم أشكال العبودية للسكان المستقرين في هذه البلدان ، أي التنظيم الإقطاعي لفرض سيطرة زعماء القبائل "البدوية" على السكان الفلاحين". وبعد ذلك هتف الممثل المذكور: "لقد دعمت الشيوعية الأممية هذه الحركة وزعيمها ... الأمير فيصل^(١) ودعمت أمثاله من المناضلين من أجل الحرية - يالها من بداية غريبة للغاية".

وفي كلمته هذه ، عبّر كوهن هيبير ليس فقط عن وجهة نظر قيادة بوعالي تسيون بل وعن وجهات نظر الاشتراكيين الفلسطينيين الذين عبروا عن أفكار مماثلة. في أغسطس ١٩٢٠ ، في المؤتمر الأول لشعوب الشرق في باكو ، قدم حزب SWPP ، مذكرة "الفلسطينية كعامل للثورة في الشرق" لينظر فيها مندوبوه^(٢). وأشارت الوثيقة إلى أن الطبقات السائدة - "رجال الدين و ... العناصر الإقطاعية -

(١) الحديث دار عن حول نجل حاكم الحجاز الهاشمي ، الشريف حسين ، الذي قاد الانتفاضة المناهضة لتركيا لسكان هذه المحافظة ، وكذلك "سوريا التاريخية" خلال الحرب العالمية الأولى. قام ضابط المخابرات الإنجليزية المعروف لورانس العرب بدور نشط في التحضير لهذه الانتفاضة. افترض المشاركون العرب في الانتفاضة أن نيتها ستكون تشكيل كيان قومي موحد ضمن أراضي "سوريا التاريخية" ، تدعمه بريطانيا العظمى ويرأسه ملك هاشمي. ولكن في أبريل ١٩٢٠ ، منحت عصبة الأمم فرنسا الانتداب لتحكم أراضي سوريا الحديثة ولبنان. وفي يوليو من العام نفسه دخلت القوات المسلحة الفرنسية دمشق التي أصبحت عاصمة "المملكة العربية". غادر فيصل المدينة عشية احتلالها من قبل الفرنسيين. بعد ذلك ، وبدعم من بريطانيا العظمى ، أصبح فيصل ، الملك الهاشمي الأول للعراق.

(٢) فيما يلي مرجع هذه الوثيقة. مقتبس من :

RTSKHIDNI, f. 544, op. 2, units ridge 15, l. 1-5.

والملاك" في الشرق الأوسط ، "حيث تسود العلاقات الإقطاعية أو الأبوية" تسعى إلى "توحيد حركة التحرير ضد الإمبريالية الأوروبية ، مع تعزيز مواقفها الطبقية والديكتاتورية السياسية والروحية".

وشددت الوثيقة ، على أنه "يجري التعبير عن هذه المحاولة في المنطقة العربية ، على شكل نزعة إسلامية شاملة تحمل في ذاتها جنين الاستبداد المستقبلي للإقطاعية وملاك الأراضي الذي سيظهر في اليوم الثاني بعد الإطاحة بالسيطرة الأجنبية".

وهذا يعني فقط أن "تعض الطبقات المالكة في الشرق ، وعدم قدرتها ... على إنشاء دولة شبه إقطاعية محكوم عليها بالفناء والوقوع في الاستعباد الاقتصادي حتى مع وجود الاستقلال السياسي ، يجعل من الضروري توجيه الحركة الثورية للجماهير العاملة في الدول الشرقية المضطهدة ليس فقط ضد الحكام الأجانب ، بل وضد مضطهديهم المحليين"^(١).

(١) في عام ١٩٢٤ ، نُشر في موسكو كتاب "الطبقة العاملة والحركة العمالية في فلسطين". وتمت صياغته على أساس مواد من المؤتمر الثالث لحزب العمال الاشتراكي الفلسطيني الذي عقد في أبريل ١٩٢١ ، حيث تم التأكيد على أن "ما يسمى بالحركة القومية العربية يرأسها ملاك الأراضي ، وأصحاب العقارات ، وبشكل عام العناصر الاستغلالية الطفيلية" الذين تتلخص مطالبهم في فرض حظر كامل على الهجرة اليهودية إلى البلاد ، و "إنهاء جميع أشكال الإغاثة من أجل الصناعة" ، والاعتراف بلغة الدولة الوحيدة - العربية ، وتوحيد فلسطين في كيان دولة واحدة مع الحجاز وبلاد ما بين النهرين وغيرها من الأراضي العربية تحت سيطرة "حكومة قومية عربية".

وشدد الاشتراكيون الفلسطينيون على أن القوى التي تتزعم هذه الحركة تقوم بتخويف جماهير الفلاحين "الخاملة" بـ "الصهيونية والبلشفية" وتستخدم "مساعدة الدوائر الرجعية في لندن" في أنشطتها. وشددوا على أن إحدى مهام الحزب في ذلك الوقت "النضال الحاسم ضد حركة المئات السوداء القومية للأفنديين الذين يسعون إلى ترسيخ أسلوب المجتمع الأبوي-الإقطاعي في البلاد والهيمنة السياسية لملاك

=/=

كما ذكر كوهن هير، لا يسعى حزبه إلى إقامة دولة يهودية في فلسطين، وبالذات بالاعتماد على الإمبريالية البريطانية. وشدد على أن هدف الحزب، هو فقط تطوير عملية الهجرة الحرة لليهود من تلك البلدان التي يعيشون فيها في "كتلة متماسكة" ودخولهم الحر إلى فلسطين لاستعمار هذا البلد "طالما بقي خاضعا للبرجوازية البريطانية أو أي بورجوازية أخرى".

ووفقا له، كان يجب أن يتحقق هذا الهدف، في سياق النضال الشرس ضد "البرجوازية اليهودية والعالمية" ومع تلقي "المساعدة" من الكومنترن. وتعتبر الهجرة اليهودية إلى فلسطين وإنشاء المشاريع الزراعية والصناعية اليهودية على أراضيها شرطاً ضروريا لكي يعاد السكان اليهود في أوروبا الشرقية على العمل الإنتاجي. وقال: "عندما تتحول فلسطين، مع تطور الثورة الاجتماعية، إلى دولة سوفيتية، ستصبح قضية الاستعمار اليهودي لهذه الدولة جزءاً من القضية العامة لجذب الجماهير اليهودية إلى العمل المنتج، ومشاركتهم في البناء الاجتماعي لمجتمع بشري عامل حر"^(١).

وأكد كوهن هير، أن المهاجرين اليهود يمثلون في فلسطين "البروليتاريا الحديثة الوحيدة" المحرومة في الواقع من أية ممتلكات كانت والمفعمة في نفس الوقت بالوعي الطبقي والإرادة المندفعة للنضال البرولتاري.

وبما أن الطبقة العاملة العربية في هذا البلد لا تزال تمر "بمرحلة التطور الجنيني"، فإن "الطليعة الطبيعية للعمال العرب التي ستقودهم إلى النضال الثوري، وتوقظ الوعي

الأراضي والأثرياء الحضريين". // الطبقة العاملة والحركة العاملة في فلسطين (على أساس مواد اللجنة

المركزية "بوعالي - تسيون" لفلسطين). إصدار عام ١٩٢٤، ص ٢٢ و ٢٩.

(١) هنا ولاحقا، انظر: المؤتمر الثاني للكومنترن، ص ١٥٣-١٥٤.

السياسي فيهم، هي حزبنا هناك الذي يخدم بإخلاص مبادئ الأمية الشيوعية، ويقوم بدعاية نشطة للغاية بين هذه الجماهير". ولكن الكلمات الأخيرة هذه للسيد كوهن هيبر، اتسمت ببعض المبالغة.

بنفس هذه الطريقة، فكر الاشتراكيون الفلسطينيون. وأشاروا في مذكرة "الفلسطينية كعامل في الثورة في الشرق" إلى ضرورة تنظيم الهجرة اليهودية الجماعية إلى فلسطين، والتي كان ينبغي بالطبع أن يقودوها بأنفسهم لأن "إنشاء المجتمع الشيوعي اليهودي في فلسطين... يتماشى تماماً مع مصالح السكان الأصليين، الطبقات الفقيرة وشبه البروليتارية للأمة العربية، وسيكون ذا أهمية كبرى لمصير الشرق بأسره". وشددوا على أن "البروليتاريا اليهودية في المدن" ستكون قادرة على تنظيم هذه "الأمة". وسيحدث هذا لأن "الجماهير المهاجرة من العمال اليهود... ستملاً الخلل في البنية الاقتصادية للشعب العربي، لتصبح بشكل موضوعي الأسمت البروليتاري لعمال سوريا ومصر والدول الأخرى المجاورة".

ويجب القول إن أيديولوجية "الصهيونية البروليتارية" التي اتبعها الاشتراكيون الفلسطينيون أجبرتهم على القول إن "العامل اليهودي... سيجلب إلى هذه البلاد الثقافة الرأسمالية وكذلك الوعي الذاتي البروليتاري - الثوري وكذلك الفهم لعلاقات الإنتاج في المجتمع الحديث، وأخيراً، التجربة المعروفة للبناء السوفيتي".

اتسمت بالطابع المبدئي المهم كذلك الآفاق المستقبلية لكل من فلسطين والمجال الجيوسياسي المحيط. وأوضحت الوثيقة التي تم الاقتباس منها أن "إعادة توطين العمال اليهود في فلسطين" يحولها "إلى بؤرة حرب أهلية، إلى قاعدة للبناء الشيوعي". بدوره سيؤدي "الموقع الجغرافي لفلسطين وقربها من قناة السويس وأهمية الربط بين آسيا وإفريقيا وأوروبا"، في النهاية إلى أن هذا البلد ستصبح ليس فقط المركز العقائدي، بل والتنظيمي للشرق الأوسط بأكمله".

لهذا السبب بالتحديد، "يرى الشيوخ والأمرء وغيرهم من العناصر الطفيلية، في الكومونات الزراعية والمؤسسات الإنتاجية التي أسسها العمال اليهود، بمثابة المنافسة الاقتصادية والسياسية لهم. لهذا السبب تعلن الطبقات الحاكمة بين العرب عن نضال لا هوادة فيه ضد الجماهير الكادحة اليهودية"، الأمر الذي يلقي "التعاطف الكامل والدعم من مالك الأرض اليهودي، الذي يتجنب أيضاً العامل اليهودي".

لكن "البرجوازية الصهيونية" تخشى أيضاً "توطين الجماهير اليهودية في فلسطين"، لأن هذه الجماهير "تحمل معها شبح الشيوعية الأحمر".

ووفقاً للمذكرة، هذه البرجوازية "بعد أن فقدت كل امتيازاتها الطبقية في الاتحاد السوفيتي تشعر بالرعب من الانتصار الوشيك للديكتاتورية البروليتارية في جميع أنحاء أوروبا الشرقية"، لذلك تسعى "إلى خلق ملجأ لنفسها في فلسطين". وطبعاً سيكون حليفها كما وحليف "الإقطاعيين العرب"، "الاحتلال البريطاني لفلسطين". ترى البرجوازية الصهيونية فيه "قوة حقيقية يمكنها الاعتماد عليها في النضال ضد الجماهير الكادحة اليهودية"^(١).

قام كوهن هير، بالطبع، بمراجعة التركيبات النظرية لبوروخوف. ويمكن هنا ذكر تصريحاته، وكذلك تصريحات مؤيديه الفلسطينيين، حول الطابع "البروليتاري" للمهاجرين اليهود إلى فلسطين، إذا طرحت هناك مهمة إنشاء أساس "عملي" للأمة التي تولد من جديد. لقد حاول هو وطبعاً الاشتراكيون الفلسطينيون (كما حدث بالفعل في ممارسة إقامة العلاقات بين شيوعي الشرق الأوسط اللاحقين والكومنترن)، حاولوا المتاجرة

(١) RTSKHIDNI المركز الروسي لتخزين ودراسة وثائق التاريخ المعاصر.

والتفاوض علنا. من أجل الحصول على اعتراف بوعالي تسيون وقسمه الفلسطيني كمنظمة عضو في الكومنترن، اقترح على موسكو توسيع دائرة مؤيديها على الفور ليس فقط في فلسطين الصغيرة، ولكن في جميع أنحاء الشرق الأوسط. وقد سعى مثل أنصاره الفلسطينيين، إلى زيادة نفوذه في أوساط اليهود السوفيت، وعلى هذا الأساس لتحقيق زيادة في هجرتهم إلى فلسطين.

لكن كوهن هير، قام بطرح العديد من الأسئلة في إطار الخطاب الماركسي، بشكل محدد تماما، حيث لفتت الانتباه، على سبيل المثال، إلى الفكرة التي طرحها لينين وبالتالي الكومنترن عن التحالف مع حركات التحرر غير البروليتارية (بما في ذلك "المناضل من أجل الحرية الأمير فيصل") ليست معنية بتحرير شعوب الشرق، بل تعني فقط اهتمام موسكو بتوسيع نطاق تأثيرها الجيوسياسي الخاص. وهذا في نهاية المطاف، أعطاه الفرصة للمساومة مع الكومنترن. ومع ذلك خلال قامه بهذه المساومة، استخدم الخطاب الماركسي أفضل من خصومه الذين تحولوا إلى شيوعيين الآن. لهذا السبب، بدا أقل تحيزا، على الرغم من أن عدم تحيزه، بالطبع، كان بالطبع وهميا، - لقد احتاجت بوعالي تسيون إلى الاعتراف بالكومنترن، ولهذا كان كان يجب على ممثله فرض حد صارم بين الطبيعة "الرجعية" للعرب الأفنديين والبرجوازية اليهودية، و"تقدمية" بوعالي تسيون، بما في ذلك الاشتراكيين الفلسطينيين.

لكن رغم ذلك كانت "الحرفية" الماركسية لدى كوهن هير، في تقييماته لأهمية القطاع الرأسمالي الذي غرسه المهاجرون اليهود في فلسطين للمرحلة "الاشتراكية" المستقبلية لتطور هذا البلد أو دور العناصر "البروليتارية الأجنبية" في تشكيل وزيادة تطوير الحركة الشيوعية في الشرق، كان أكثر فائدة (بالطبع وفقا للطريقة الماركسية) من الانصياع السياسي الصريح للبولنديين السابقين.

في خطابات فروكينا وميرزين وفي عمل رافيس ، ظهرت بوضوح الفكرة القائلة بأن "تقدمية" الحركة الوطنية في فلسطين وبشكل عام في منطقة العالم العربي تتحدد فقط من خلال حقيقة أنها موجهة ضد الطموحات الإمبريالية لبريطانيا - العدو الرئيسي للسياسة الخارجية لروسيا السوفيتية ، وفيما بعد للاتحاد السوفيتي ككل.

لم تتمكن اللجنة التنفيذية للأمية الشيوعية ، كما أصبح واضحا بالفعل خلال عمل المؤتمر الثاني للأمية الشيوعية ، أن تدعم بشكل كامل موقف مؤيديها الذين أصبحوا شيوعيين بالفعل. كان يجب أن يتحدد موقفها وفقا لظروف السياسة البراغماتية. في الوقت نفسه ، كما أظهرت الوثائق التي ظهرت بعد المؤتمر ، حاولت هذه اللجنة أن تضع حدا بيم بوعالي تسيون من جهة وقسمها الفلسطيني من جهة أخرى.

بالطبع كانت ظروف نشاط حزب SWPP ، مختلفة اختلافا جوهريا عن تلك التي تبلورت قبل أقسام بوعالي تسيون ، على سبيل المثال ، في بولندا أو ليتوانيا. حاولت قيادة الكومنترن أن تأخذ في الحسبان الاختلاف بين هذه الشروط ، والانطلاق من نقاط خطاب كوهن هيبير ، على الرغم من غرابة ذلك ، ومحاوله أخذها في الاعتبار قدر الإمكان من أجل خلق في فلسطين - وعلى نطاق أوسع ، على أراضي "سوريا التاريخية" - أداة لأنشطتها الخاصة. لقد قال كوهن هيبير وكذلك أنصاره الفلسطينيين ، لقيادة الكومنترن علنا أن هناك مجموعة في فلسطين تعتبر التجربة البلشفية بمثابة النموذج المثالي لها. وهذه المجموعة مستعدة للاعتراف بروسيا السوفياتية (طبعاً كانت موسكو على علم بوجودها الهامشية داخل يشوف) لتوسيع دائرة أتباعها داخل الشرق الأوسط بأكمله.

بالإضافة إلى ذلك ، أدركت اللجنة التنفيذية للأمية الشيوعية ، صحة كلام كوهن هيبير (كما انصاره الفلسطينيين) الذي قال إنه لا توجد بين صفوف الحركو الوطنية

الفلسطينية العربية اي بديل حقيقي للنخبة التقليدية التي يمثلها اصحاب الأراضي الكبار. أما النخبة التقليدية (ولمثال الأسرة الهاشمية هنا فعلا دلالة واضحة) فقد سعت للحفاظ على العلاقات مع بريطانيا.

في هذه الحالة ، فإن إغراء حل المشاكل الجيوسياسية السوفيتية ، باللجوء إلى استخدام مجموعة تسعى للتواصل مع الكومنترن ، كان ليس فقط قوياً ، بل وطبيعياً أيضاً من الناحية السياسية.

في الوقت نفسه ، أصبح تبرير هذا الإغراء بالإشارة إلى "أمية" القيم والمثل الشيوعية و "البروليتارية" ، أي إلى التضامن العمالي فوق الوطني ، مناسباً أكثر بكثير عما هو عليه في العديد من بلدان الشرق الأخرى.

ويجب القول إن الخصوصية الفلسطينية ، التي ميزت هذا البلد بشكل حاد عن الدول الأخرى التي تشكلت مؤخراً في الشرق الأوسط ، تلخصت في أنه تكونت على أراضيها ليس أقلية قومية ، بعيدة كل البعد عن الحياة المحلية وتسعى جاهدة لتحقيق زيادة عديدة ، لكنها لم تؤخذ بالاعتبار. لقد أصبح إغراء البراغماتية السياسية قوياً بشكل لا يقاوم.

وجاءت نتيجة المناقشات حول مجموعة واسعة من القضايا المتعلقة بالقضايا الفلسطينية ، على شكل تضمين نص "ملخصات حول القضايا الوطنية والاستعمارية" ، الإضافة التي اعتمدها المؤتمر الثاني للكومنترن ، والتي كان أساسها اقتراح فروميكينا. لقد تمت الإشارة في هذه الإضافة إلى ضرورة "القيام التوضيح للجماهير الواسعة في كل الدول وخاصة المتخلفة منها وفضح أمامها الخداع الكبير الذي تقوم به الدول الإمبريالية بشكل منهجي بمساعدة الطبقات المتميزة في البلدان المضطهدة تحت ستار إنشاء دول مستقلة سياسياً ، مما أدى إلى ظهور دول تعتمد عليها بالكامل في العلاقات الاقتصادية والمالية والعسكرية.

وكمثال ساطع على الخداع الذي تعرضت له جماهير الشغيلة في الأمم المضطهدة الذي تم بجهود المشتركة لإمبريالية الوفاق والطبقات البرجوازية في الأمم المضطهدة، يمكن ذكر المشروع الفلسطيني للصهيانية، والصهيونية بشكل عام، التي تحت ستار إنشاء دولة يهودية في فلسطين قررت تقديم كضحية للاستغلال البريطاني الشغيلة العرب في فلسطين، حيث يشكل العمال اليهود فقط أقلية صغيرة^(١).

ويجب القول، أن النسخة النهائية من الإضافة جاءت مختلفة بشكل كبير عن المشروع الذي اقترحه ممثل "البوند الشيوعي". وكان فيها الكثير من الأشياء المثيرة للاهتمام.

بالطبع اتسم الجزء الأول من الوثيقة بالنظرة السلبية القوية تجاه حركات التحرر لشعوب العالم المستعمر والتابع، التي أعلنت الإنجاز الحقيقي - إنشاء دولة قومية - الذي ليس إلا خداعاً للعمال من جانب الدول الإمبريالية والطبقات ذات الامتياز في ذلك البلد أو ذاك. والحديث دار هنا ليس فقط عن فلسطين، بل عن دائرة أوسع بكثير من دول الشرق. في الواقع، أعلن الكومنترن نضالاً عديداً للمعنى لتحقيق الاستقلال السياسي، مما يعني أن الحل الحقيقي للمسألة القومية كان ممكناً فقط على أساس الانقلاب الاشتراكي. وكان ذلك موازاة مثيرة للاهتمام لفكرة حزب SWPP، القائلة بأنه إذا كانت تحقيق الصهيونية ممكناً، ففقط في شكلها "البروليتاري"، وينبغي تأجيل الحصول على الاستقلال الفلسطيني حتى وقت تنفيذ ثورة اجتماعية فيها.

الجزء الثاني من الإضافة، تضمن إدانة رسمية للصهيونية. لكن في نص الإضافة، التي اعتمدها المؤتمر الثاني، جاء أن الصهيونية كانت "رجعية" لأنها دخلت في تحالف مع الوفاق، وكذلك لأن أتباعها، يسعون جاهدين لإقامة دولتهم الخاصة، ويرفضون العمل

(١) المؤتمر الثاني للكومنترن، ص ٤٩٥.

في البيئة العربية الفلسطينية. وفي الشكل الأخير من الإضافة، بدت إدانة الصهيونية بمثابة صياغة عامة للمسألة، دون أي تجسيد إضافي. في النص الجديد، لم يرد أي ذكر لـ "الصهيونية البروليتارية" على الإطلاق، ولم يتم ذكر الجماعات الاشتراكية اليسارية في مختلف الأقسام الوطنية في بوعالي تسيون. وكانت هذه تحفظات مهمة للغاية بالنسبة للكومنترن. ويجدر القول إن كوهن هير، لم يتمكن في نهاية المطاف من حل المهمات الملقة على عاتقه.

لقد رفض الكومنترن، الاعتراف بالوجود المستقل لبوعالي تسيون كمنظمة "البروليتاريا اليهودية ذات التوجه الاشتراكي في العالم بأسره". وبذلك بات واضحاً، أن إمكانية استمرار الاتصالات بين المنظمين، وبدون شك انضمام بوعالي تسيون إلى الأمية الشيوعية، لم يكن من الممكن تصوره دون تخليها عن نموذجها العقائدية. ولكن خلال ذلك اعتبرت اللجنة التنفيذية للأمية الشيوعية، أنه من الضروري ومن الممكن تطوير العلاقات الثنائية مع تلك المجموعات والأقسام في بوعالي تسيون (وكان من بينها حزب SWPP)، التي حددت لنفسها مهمة إقامة اتصالات مع الكومنترن. بعبارة أخرى، لقد سعت قيادة هذه المنظمة بشكل مكشوف إلى تأجيج وتقوية المواقف المركزية الطاردة داخل حركة بوعالي تسيون، وفي نهاية المطاف، إلى تقسيمها. ومع ذلك في الوقت نفسه، كان من الواضح أنه في حالة وقوع التفاهم الحقيقي للوضع داخل بوعالي تسيون، فلن تنضم غالبية مؤيديها إلى صفوف الكومنترن. لكن اللعبة كانت قد بدأت وتمت المراهنات.

وتم تبرير كل الهفوات والغلطات والأخطاء، باسم استخدام الثورة الاشتراكية القادمة كأداة لانتصار السلطة السوفيتية على نطاق عالمي من العالم.

لقد جرى الحديث خلال ذلك، فقط عن أمر واحد لا غير - أما كل شيء أو لا شيء. ولم يكن هناك أي معنى للحديث هنا عن اختيار تكتيكات أخف وأسلم

للسلوك، ولا عن العمل المطرد لاجتذاب هذه المنظمة الجماهيرية، أو عن الأهمية الإستراتيجية لعملية الحفاظ على الاتصال وتنسيق الإجراءات. لتحقيق ذلك كان يجب العمل بجد، بينما كان اعتماد الضغط السياسي كمسار، بالطبع، أبسط وأكثر سهولة.

(٣) الاشتراكيون الفلسطينيون: الانضمام إلى الكومنترن

لقد بيّنت الفترة التي مرت بعد انتهاء عمل المؤتمر الثاني ، أن الكومنترن يسعى إلى إقامة اتصالات مباشرة حزب SWPP. لكن الاشتراكيون الفلسطينيون استمروا في رؤية أنفسهم كمجموعة خاضعة لقرارات مركزهم الحاكم ، الذي بقي متمثلاً في بوعالي تسيون. بعبارة أخرى ، بقيت إمكانية انتقالهم النهائي إلى موقع الكومنترن تعتمد في النهاية على تطوير عمليات الطرد المركزي في صفوف الحركة. وكان هذا الطرف أحد الأسباب التي أدت ، مواصلة اللجنة التنفيذية اتصالاتها مع الحركة رغم انضمام بوعالي تسيون إلى صفوفها. وفي أغسطس ١٩٢٠ ، تم عقد مؤتمر بوعالي تسيون في فيينا.

أظهرت مناقشة نتائج رحلة كوهن هيدر ، إلى موسكو ، والتي تمت أثناء المؤتمر ، أن هناك أقلية بين المشاركين في المؤتمر الذين يعتبرون أنه من الضروري مواصلة المفاوضات مع الأمية الشيوعية. وكان يعقوب ميرزون من بين أعضاء هذه المجموعة من المندوبين^(١).

في سبتمبر ١٩٢٠ ، وصل يعقوب ميرزون إلى موسكو. في الاستمارة التي كتبها بعد وصوله ، قال إن كفيله أ. ميرزين وكذلك عضو "الحزب الشيوعي المصري" ف. أفربوخ. وجاء في نفس الاستمارة أن ممثل الاشتراكيين الفلسطينيين هو في الوقت نفسه عضو في اللجنة المركزية لـ "التنظيم الشيوعي في مصر" ، لكنه "قدم إلى العاصمة السوفيتية بتكليف من قبل اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الفلسطيني" ، للمفاوضات مع اللجنة التنفيذية

(1) Daniel. The Comintern and Palestine // "On the eve", M., 1920, No. 6, pp. 3-5 // in: Frenkel I., op. production, pp. 17-18.

للكومنترين" (١).

بعد مرور عام تقريبا على ذلك، أكد معرفته به، أفغدور المشرف على عمل الشيوعيين المصريين (٢). ويبقى أن نفترض أن يعقوب ميرزون والزعيم المستقبلي للشيوعيين الفلسطينيين ف. أفربوخ (أبو زيام) كانا أعضاء في مجموعة يساريين من بوغالي تسيون طردت من فلسطين إلى مصر، وساهما في تشكيل أول جماعة شيوعية "أوروبية" في هذه الدولة المجاورة.

كان التقليد السوفييتي، الذي بدأ بالفعل يتبلور في ذلك الوقت، يتطلب أن يتم إجراء المفاوضات الأولية مع ممثل حزب أو منظمة أجنبية من قبل طرف مثل تابع للجنة المركزية للحزب الشيوعي الروسي (ب)، متخصص في القضايا في هذا المجال. في حالة يعقوب ميرزون، كان هذا الطرف يتمثل في المكتب المركزي للأقسام اليهودية التابع للجنة المركزية للحزب الشيوعي الروسي (ب). وفي ١٦ سبتمبر ١٩٢٠ جرت هذه المفاوضات.

وأشار محضر المفاوضات إلى صحة "الرغبة في إنشاء حزب شيوعي إقليمي داخل الاحتلال البريطاني (مصر وفلسطين) كثقل معاكس للأحزاب اليهودية الموجودة في فلسطين (بوغالي تسيون) ذات الاتجاهات المختلفة".

وخلال ذلك، تم تكليف أ. ميرزون، "بالتعرف على جميع مواد الفريق ميرزون

(١) RTSKHIDNI المركز الروسي لتخزين ودراسة وثائق التاريخ المعاصر.

F. 544 . op. 2, units ridge 258. p3.

(٢) رسالة من أفغدور من القاهرة إلى اللجنة التنفيذية للأمية الشيوعية بتاريخ ١٧ يناير ١٩٢٢ // RTSKHIDNI، ص. ٤٩٥، المرجع السابق. الوحدة ٨٥ نقطة الحفظ رقم ١٢، ص ١١٨-١١٩.

وتقديم رأيه إلى المكتب المركزي (المكتب المركزي للأقسام اليهودية) حول طبيعة الحزب الشيوعي الفلسطيني الذي يمثله الرفيق ميرزون وحول مدى توافق مهامه ، مع مهمات الحزب الشيوعي الإقليمي".

وطلبت قيادة المكتب المركزي ، من اللجنة التنفيذية "عدم إصدار قرار بشأن هذا الحزب حتى تقديم رأي المكتب المركزي"^(١).

وطبعا قام المكتب المركزي للأقسام اليهودية ، بتنفيذ الخط العام لقيادة الحزب (الذي كان الكومنترن جزءا منه). بالطبع ، لقد حاولوا هناك الحفاظ على دورهم كخبراء في مجال المسألة اليهودية ، بالإضافة إلى لعب دور "الحقيقة العليا المتألفة بالنور" التي تدخل في اتصالات مع المنظمات اليهودية غير الشيوعية. ولكن المكتب المركزي أبدى الإصرار الأشد في موضوع إنشاء منظمة شيوعية "إقليمية" في فلسطين ، مما يعني فقط أنه يجب على حزب SWPP أن يقطع جميع العلاقات بينه وبين بوغالي تسيون. لكن المطالبة بمنح حزب SWPP صفة الحزب "الإقليمي" حمل في ذاتها دلالات مفهومية أكبر.

لقد وجهت ضربة إلى حجر الزاوية في أيديولوجية بوغالي تسيون - فكرة "الطابع العالمي للأمة اليهودية الموحدة ذات المصالح المشتركة".

من وجهة نظر الخطاب البلشفي ، كانت لصياغة السؤال بهذا الشكل ، منطقتها الداخلي الخاص. كان انتصار الثورة الاشتراكية في روسيا والجمهوريات السوفيتية الأخرى يعني بداية حل جذري لـ "المسألة اليهودية".

(١) مقتطف من محضر اجتماع المكتب المركزي إيفسكيتسي تحت إشراف اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الروسي بتاريخ ١٦ سبتمبر ١٩٢٠ // المرجع نفسه ، نفس المكان.

f. 495, op. 81, unit ridge 3, l. 2.

هنا توقف السكان اليهود عن التعرض للاضطهاد والإذلال والتمييز. بعبارة أخرى، لم تعد تشملهم الأطروحة الأساسية لنظرية بوروخوف، ناهيك عن افتراضات الصهيونية "البرجوازية". وإذا كانت الثورة البلشفية ستصبح طريقة عالمية لحل المشكلة القومية (و"المسألة اليهودية" كانت قسما منها)، فإن الهجرة إلى فلسطين باتت تفتقد أي معنى لها. كان على السكان اليهود في أوروبا الشرقية والعالم العربي والدول الأخرى، الوقوف تحت رايات الأحزاب الشيوعية المحلية، من أجل تغيير الواقع الاجتماعي والاقتصادي القائم هناك، وفي نفس الوقت تغيير وضعهم. وخلال ذلك، لحظة إنجاز الثورة الاشتراكية ستصبح بالنسبة لهؤلاء السكان نقطة البداية للبعث القومي "البروليتاري" الحقيقي.

بطبيعة الحال، لم يكن بمقدور موسكو التحدث عن إعادة تهجير السكان اليهود من فلسطين. كان عليهم المحافظة على وضعهم كمواطنين في هذا البلد، ويتحولوا إلى إحدى الأقليات القومية المحلية. كان جوهر المشكلة يكمن في أن تشكيل اليسوف في هذا البلد كان نتيجة لتلك الحقبة - عصر الرأسمالية، والذي كان يعتبر، في إطار نفس الخطاب البلشفي، شرطا ضروريا للانتقال إلى أعلى المستويات التطور البشري - الاشتراكية.

علاوة على ذلك، كانت الأقلية اليهودية الفلسطينية، بالطبع، أكثر ملاءمة من مواطنيها العرب، وكانت مدرجة في نظام الإنتاج الرأسمالي، أي أنها كانت أكثر "بروليتارية". تطلبت العقيدة الجيوسياسية السوفيتية، إلى حد ما، نجاح الصهيونية بالفعل في فلسطين، بما في ذلك بالطبع، مؤيدوها من بوغالي تسيون.

لكن تنفيذ الثورة الاشتراكية في روسيا كان يمثل بداية عصر التغلب على الرأسمالية على النطاق العالمي، بما في ذلك، بالطبع، في فلسطين.

ومن الآن فصاعدا، كان يجب على الأقلية اليهودية رفض المشاركة في النهضة

القومية "البرجوازية"، وأن تتحول إلى طليعة جماهيرية ضخمة لمن تمت تسميتهم بـ "الشغيلة العرب".

كان من المقرر تنفيذ هذه المهمة بواسطة حزب SWPP. في العاصمة السوفيتية تم اعتبار هذه المهمة، بلا شك أكثر عظمة من السير في طريق "البرجوازية القومية". لكن رغم ذلك، كان الذين يجب عليهم تحقيق هذه "الإقليمية"، لا يزالون بعيدين كل البعد عن الاستجابة لهذا المطلب.

خلال لقائه مع أعضاء المكتب المركزي للأقسام اليهودية، قام يعقوب ميرزون بتسليمهم قرار "الأقلية" في المؤتمر الخامس لبوعالي تسيون في فيينا - "القرار حول فلسطين"، الذي كان هو نفسه المبادر لصدوره. وفي القرار تمت الإشارة إلى أن خصوصية وضع السكان اليهود تكمن في حقيقة أنهم يشكلون "أقلية حضرية دائمة إلى حد ما بين الأغلبية الريفية الساحقة".

في الوقت نفسه، لم يكن الأمر يتعلق فقط بوضعهم على أراضي الجمهوريات السوفيتية، بل في فلسطين قبل كل شيء. إذا كانت السلطات الجديدة في روسيا وأوكرانيا، عند حلها للمسألة اليهودية، قد بدأت بالفعل في إنشاء "فروع وأشكال عمل جديدة" يشارك فيها اليهود (كان الأمر يتعلق بـ "الصناعة والزراعة الضخمة على وجه الخصوص")، فلا شك أن حل هذه المسألة كان يجري في فلسطين بشكل عفوي لأنها وقعت في شبكة السياسة الاستعمارية الرأسمالية.

لكن مع ذلك، كانت تجري على أراضيها "إعادة هيكلة جذرية للحياة الاقتصادية اليهودية". السؤال كان يتلخص في أمر واحد - "يجب إنشاء مجتمع اشتراكي يهودي هناك تحت قيادة الحزب الشيوعي اليهودي العالمي، بمساعدة مادية ومعنوية من البروليتاريا

العالمية، ووسائل وأجهزة الدول السوفيتية الاشتراكية ومركزها الدولي - الأمية الثالثة^(١). في هذه الوثيقة، شاهد أعضاء المكتب المركزي للأقسام اليهودية النقطة الرئيسية - الاشتراكيون الفلسطينيون مستعدون لمحاربة "الصهيونية البرجوازية"، وهم لا يرفضون بأي حال التحالف مع العرب المعادين لبريطانيا والصهيونية، والأهم من ذلك، أنهم يعترفون بالتغيير في وضع السكان اليهود في الجمهوريات السوفيتية ...

بعبارة أخرى، كان يمكن أن يصبحوا الميدان المطلوب لتطوير الأنشطة "الأمية" في وسطهم، مما قد يخلق "المقدمات المسبقة" لظهور منظمة شيوعية "إقليمية" في فلسطين. في ضوء ذلك، فإن الانفصال الأخير للاشتراكيين الفلسطينيين عن "الحزب الشيوعي اليهودي العالمي" - بوغالي تسيون يمكن أن يتحقق بشكل سريع نسبياً. ولعلمهم بمهام السياسة الخارجية السوفيتية، قاموا بمباركة لقاء يعقوب ميرزون مع مثلي اللجنة التنفيذية.

في ٢١ سبتمبر ١٩٢٠، تم عقد جلسة اللجنة التنفيذية للأمية الشيوعية، حيث نوقشت قضية حزب العمال الاشتراكي الفلسطيني بحضور يعقوب ميرزون. وخلال ذلك قام ممثل حزب SWPP بزيارة باكو، حيث انعقد المؤتمر الأول لشعوب الشرق في سبتمبر ١٩٢٠^(٢).

(١) المرجع نفسه، ص ٣.

(٢) الوثائق التي تم تبنيها هناك حددت بوضوح اللهجات في سياسة الكومنترن في الشرق الأوسط. تمت دعوة السكان العرب في "سوريا التاريخية" إلى انتفاضة ثورية ضد مضطهدهم البريطانيين والفرنسيين. وفي هذا الصدد، جاء في النداء الذي تم تبنيه في باكو "لجماهير بلاد فارس وأرمينيا وتركيا المستعبدين": "أيها الفلاحون في سوريا والجزيرة العربية! لقد وعدكم الإنجليز والفرنسيون بالاستقلال، والآن احتلت قواتهم بلادكم، وهم يُملون عليكم قوانينهم، وبعد أن حررت أنفسكم من السلطان التركي، أصبحتم الآن عبيداً لحكومتى باريس ولندن، والتي تختلف عن سلطان فقط من حيث إنهم يضطهدونكم =/=

في تلك كان هذا الممثل ، معروفًا بشكل جيد في اللجنة التنفيذية للأمية الشيوعية. وهناك كانوا يعرفون كذلك أن يعقوب ميرزون تحدث في ١١ أغسطس ١٩٢٠ ، أمام مندوبي مؤتمر بوعالي تسيون في فيينا. وفي خطابه هذا قال ، أن المشروع الصهيوني حول "الخلاص السريع والفريد والكامل" لليهود في فلسطين ليس أكثر من كلام طوباوي ، لأنه لا يمكن هناك الحصول على "أرض غير مأهولة وقابلة للزراعة"^(١).

وشدد يعقوب ميرزون ، على أنه يوجد في فلسطين فلاحين عرب لا يملكون الأرض ويحلمون بالحصول عليها ، وهم "سيقاومون بشدة محاولات العناصر الحضرية ، وخاصة بعض سكان البلاد (من المهاجرين اليهود) للتوغل في الريف".

وفي باقي كلمات خطابه ، خرج ممثل الاشتراكيين الفلسطينيين إلى استنتاج لم يترك أي شكوك حول ميوله السياسية : "عدم رغبتنا في إظهار التضامن مع جماهير العمال العرب ، وابتعادنا عنهم ، يقوي كراهيتهم لنا التي تتصاعد الآن نتيجة توجهننا المفتوح نحو الصداقة مع نظام إمبريالي أجنبي".

ويسرقونكم بشكل اكبر "/" الشيوعية الدولية" ، ١٩٢٠ ، العدد ١٢ ، ص ٢٢٦١-٢٢٦٢. بدوره ، دعا المؤتمر في باكو ، العمال العرب واليهود في فلسطين ، في الواقع ، إلى وحدة العمل الدولية ضد عدوهم المشترك - بريطانيا العظمى. وليس التلميح لأية إدانة للصهيونية! في القسم المخصص للقضية الفلسطينية ، جاء في نداء "إلى شعوب الشرق" : "ماذا فعلت إنجلترا بفلسطين ، حيث ، قامت في البداية لإرضاء الرأسماليين اليهود-الإنجليز ، بطرد العرب من أراضيهم ، من أجل إعطاء هذه الأراضي للمستوطنين اليهود" ، ثم محاولة تحويل "سخط العرب ، على المستوطنين اليهود ، وبث الفتنة والعداء والكراهية ... وإضعاف هؤلاء الآخرين من أجل فرض سيطرتها على الجميع "/" شعوب الشرق" ، باكو ، ١٩٢٠ ، ص ٥٩.

(١) هنا ولاحقا // فيلنرم. مقتبسات ص ٢٧-٢٨.

واعتبر يعقوب ميرزون، أن مهمة العمال اليهود، كانت تكمن في "إنشاء منظمات اقتصادية وسياسية مشتركة لجميع العمال في البلاد، تسمح بحشد وتضامن العمال اليهود والعرب في صفوف نقابة عمالية واحدة، وتعزيز القوى للنضال في سبيل تخليص البلاد من القمع البريطاني الثقيل".

هذا البيان كان في غاية الأهمية، على الرغم من أنه من حيث الجوهر، لم يكن مراجعة لمواقف بوغالي تسيون العامة. لكن المهم هنا هو أن اللجنة التنفيذية شاهدت فيه فكرة الوحدة الأممية للعمال الفلسطينيين، القدرة على تقريبهم بشكل موضوعي من المثل الأعلى البلشفي.

في هذا الصدد، لم يكن من المهم على الإطلاق كيف يمكن تجسيد هذه الفكرة بشكل ملائم في الظروف الفلسطينية. كان الأمر يتعلق فقط بتحول أنصار يعقوب ميرزون إلى أنصار خاضعين لرقابة صارمة من جانب الكومنترين وإلى موالين للدولة السوفيتية. وهنا كان من الأهم تقريب خطابهم بشكل نهائي من خطاب البلاشفة، وليس التطابق الحقيقي لكل منهما مع الواقع.

لقد عرفت اللجنة التنفيذية، طبعاً من كلمات يعقوب ميرزون، أن "اليمنيين" في قيادة بوغالي تسيون، يشعرون بالقلق بشأن نمو المشاعر الراديكالية في صفوف حزب SWPP، وهم يعتزمون إرسال ممثليهم إلى فلسطين. لقد تم تفويضهم بحل قسم بوغالي تسيون الذي تم ترميمه لتوه في هذا البلد وإنشاء كتلة يسارية على أساسه في Akhdut Haavoda. من جانبه حاول يعقوب ميرزون خلال رحلته إلى موسكو، منع تطور الأحداث في هذا الاتجاه. وطمح إلى نفس الشيء رفاقه في الحزب الذين بقوا في فلسطين. وبدأ أن الوضع كان يتطور بشكل مريح جداً للجنة التنفيذية.

لقد قدم ممثل حزب SWPP إلى اللجنة التنفيذية للأممية الشيوعية، تقريراً عن

نشاطات حزبه. وفيه أشار إلى أن SWPP هو حزب شيوعي لا يوجد لديه شيء مشترك مع قسم بوعالي تسيون الذي كان موجودا في فلسطين حتى عام ١٩١٩. إلا أن الاشتراكيين الفلسطينيين، لأسباب تكتيكية، سعوا إلى إبقاء اسم المنظمة كما كان عند ظهور مؤسسي الحزب.

وأشار التقرير إلى أن حزب SWPP يعمل بين العمال اليهود والعرب، لكنه يواجه في أنشطته صعوبات ذات طبيعة موضوعية، بما في ذلك عدم ثقة السكان العرب تجاه الثوار اليهود.

وأكد يعقوب ميرزون، أنه إذا كان "العمال اليهود" يشكلون غالبية كوادر الحزب القيادية، فإن "الجماهير العربية العاملة تشكل الأغلبية الساحقة بين الذين يقعون تحت تأثير الحزب"^(١). لكن كل هذا الكلام لم يكن صحيحا بتاتا.

وتلقى يعقوب ميرزون الرد التالي: "ترحب اللجنة التنفيذية ببداية الحركة العمالية الثورية في فلسطين"^(٢)، لكن سيتم حل مسألة انضمامها إلى الكومنترن فقط بعد أن تتم في صفوفها مناقشة وتطبيق قرارات المؤتمر الثاني للكومنترن (وبالذات ٢١ بندا من قراراتها) "وبعد ذلك تم تغيير اسم الحزب.

وتم كذلك إبلاغه، بأن قيادة الكومنترن مستعدة "الآن" لبحث مسألة إمكانية تمويل

(١) المرجع نفسه، ص ٢٨.

(٢) هنا ولاحقا: قرار اللجنة التنفيذية للأمية الشيوعية بشأن الحزب الاشتراكي الفلسطيني في ٢١ سبتمبر

١٩٢٠ // RTSKhIDNI .. (f. 495, op. 81, unit ridge 2, l. one)

وفي تقرير نشر بهذه المناسبة من قبل "المراسلون الأعميون"، بدا نص القرار مختلفا: "اللجنة التنفيذية للأمية الشيوعية ترحب بسطوع فجر الحركة الثورية في فلسطين." // "المراسلون الأعميون"، عام ١٩٢٠. ن رقم ١٤، ص ٢٩٢١-٢٩٢٢.

الحزب". وفي ٢٧ نوفمبر ١٩٢٠ ، اتخذت هيئة رئاسة مكتب مجلس الدعاية الدولية قرارها حول ضرورة إدراج حزب SWPP " في مجال أنشطة المجلس".

وكمشرف سوفيتي على نشاطه تم تعيين البلشفي الشهير ورئيس المكتب المركزي للأقسام اليهودية التابع للجنة المركزية للحزب الشيوعي الروسي (ب) في وقت إنشائه ، وبطل تصفية المنظمات الصهيونية في الجمهوريات السوفيتية إس. م. ديمانشتاين^(١).

واستمرت عملية تطبيق سياسة العصا والجزرة في المستقبل^(٢). لقد حاول يعقوب ميرزون مقاومة الضغط الذي مورس عليه. وكانت الأساليب المستخدمة في هذا الصدد تقليدية. لقد شدد على أهمية فلسطين بالنسبة للممارسات الجيوسياسية السوفيتية ، وأكد على أنه في حال تلقي حربه للدعم الكامل من جانب موسكو ، فستفقد بريطانيا السيطرة على "السويس وعلى ثروة مصر والقارة الإفريقية والاتصالات التي تربطها ببلاد الرافدين والهند"^(٣). لكن يبقى غير واضحاً بتاتا ، كيف سيتمكن من تنفيذ كل ذلك منظمة تضم في

(١) RTSKHIDNI المركز الروسي لتخزين ودراسة وثائق التاريخ المعاصر.

f. 495, op. 81, unit ridge3, 1.2.

(٢) الاشتراكيون الفلسطينيون حصلوا على مساعدة مادية ، وتمت دعوتهم للمشاركة مع حق التصويت الاستشاري في أعمال المؤتمرين الثالث والرابع للأمية الشيوعية. في الوقت نفسه ، حتى عام ١٩٢٤ ، عندما انضم الاشتراكيون الفلسطينيون رسمياً إلى صفوفها ، رفض الكومنترن اعتبار حزب هذا الحزب حزباً شيوعياً.

وأشار تقرير لجنة التفويض للمؤتمر الثالث للكومنترن إلى أن منح ممثلي عدد من البلدان ، بما في ذلك فلسطين ، الحق في التصويت الاستشاري يعني فقط أن الحركة الموجودة هناك "تعتبر حركة ثورية وليست سياسية وشيوعية" / / المؤتمر العالمي الثالث للأمية الشيوعية. تقرير حربي. عام ١٩٢٢ ، ص ٤٩٧.

نشرة المؤتمر الرابع للأمية الشيوعية. ١٧ نوفمبر ١٩٢٢. نشر في عام ١٩٢٢ ، صفحة رقم ٤.

(٣) هنا ولاحقاً :

صفوفها، حسب قوله، ٤٠٠ عضو، حتى لو كانت، كما زعم، تدير نقابات عمالية "أمية" يهودية عربية في يافا وحيفا والقدس. لكن هذا مجددا لم يكن مهما بتاتا. كان الأمر يتعلق فقط بالأفكار والخيال الفكري، الذي لا يرتبط ظهوره دائما وبشكل مباشر بالواقع. في ذات الوقت، حاول يعقوب ميرزون بكل قوته الحفاظ على حزب SWPP ضمن اليسوف، وحاول التأكيد للجنة التنفيذية استحالة إنشاء منظمة شيوعية عربية يهودية دولية واحدة في فلسطين على الفور.

ووفقا له، "اقتنع رفاقنا الفلسطينيون بضرر الأحزاب الشيوعية الوطنية الانفصالية في البلاد"، وخلصوا إلى "الحاجة إلى تنظيم الحزب وفقا للمبدأ الإقليمي".

لكن، في الوقت نفسه، كان من المفترض أن يتألف هذا الحزب "الإقليمي" من "أقسام قومية" - يهودية وعربية - مع "مركز سياسي واحد". بالطبع، كان لا يزال يتعين إنشاء القسم العربي، ولكن في جميع الأحوال، كان الضمان لتنفيذ هذا الأمر، فضلا عن تحوله السريع إلى قسم شيوعي، هو وجود حزب SWPP، لأنه القوة القادرة على "تنظيم وشحذ عمال فلسطين بالروح الشيوعية من أجل النضال الثوري ضد الرأسمالية الناشئة"^(١).

في ٢٠ أكتوبر ١٩٢٠، تلقت اللجنة التنفيذية رسالة من يافا تفيد بأن المؤتمر الثاني لحزب SWPP الذي انعقد هناك، وكذلك "مؤتمر الجماهير اليهودية والعربية في فلسطين"

Mémorandum der Sozialistischen Arbeiterpartei Palästinas (Poale Zion) an die Executive der Kommunistischen Internationale, Moskau, den 18 September 1920 // RTSHIDNI, f. 495, on. 81, unit ridge 5, l. 7-11.

(١) رسالة غير مؤرخة من يا. ميرزون إلى اللجنة التنفيذية للأمية الشيوعية، كتبها أثناء إقامته في موسكو // المرجع نفسه، ص ١-٢.

الذي انعقد هناك في الفترة من ٥ إلى ٦ أكتوبر من العام نفسه، قاما بتشكيل الحزب الشيوعي الفلسطيني. ونوهت الرسالة بأن هذا الحزب وافق على قبول البنود الـ ٢١ للمؤتمر الثاني (للكومنترن) ويعلن بحماس كبير عن انضمامه كقسم في الكومنترن. وأشارت الرسالة إلى أن ممثل الحزب سيصل في المستقبل القريب إلى موسكو لإجراء محادثات مع اللجنة التنفيذية للأمم المتحدة الشيوعية^(١).

في تلك الفترة وبعدها لاحقا اعتقد الاشتراكيون الفلسطينيون بصدق أن انعطافا قد حدث فعلا في حياة حزبهم اعتبارا "من أكتوبر ١٩٢٠"، وأنه "تمت صياغة المبادئ الشيوعية الأساسية للحزب بوضوح وتم وضع لائحة تنظيمية"^(٢). كانت هناك بعض الشروط المسبقة لذلك.

في محضر المؤتمر الثاني، جرت الإشارة إلى أنه حضر المؤتمر ثمانية مندوبين يمثلون "٤٠٠ عامل يهودي وعربي"^(٣). وهذه المجموعة غير الكبيرة أعلنت نفسها بمثابة "المؤتمر التأسيسي للحزب الشيوعي الفلسطيني" وانتخبت اللجنة المركزية من "ثلاثة رفاق". وكانت مهامها تتمثل في "تنظيم حزب شيوعي سري ومنضبط بصرامة من العمال اليهود والعرب"، و"تطوير الحركة المهنية وخلق الروح الثورية فيها، وخاصة بين العمال العرب"، وكذلك تحويل الحركة التعاونية القائمة في فلسطين إلى حركة "اشتراكية"، وفوق القومية".

(1) RTSKHIDNI, f. 495, op. 81, unit ridge 5, l. 12.

(2) تقرير إلى اللجنة التنفيذية للكومنترن بتاريخ ١٥ يوليو ١٩٢١، موقع من قبل رئيس الحزب الشيوعي الفلسطيني // المرجع نفسه..

RTSKHIDNI, f. 495, op. 81, unit ridge 5, l. 12.

(3) Here and below: Minutes No. 1 of the conference // Ibid., f. 495, op. 81, unit ridge 6, l. One.

كان من المفترض أن تقوم اللجنة المركزية "بإبلاغ اللجنة التنفيذية للأمية الثالثة على الفور بأن الحزب يقبل جميع شروط القبول" و"تطالب بضم فوري للحزب الشيوعي الفلسطيني في صفوف الكومنترن باعتباره الحزب الشيوعي الوحيد لفلسطين، وكذلك منحه التمثيل في اللجنة التنفيذية".

كان من المفترض أن تقيم اللجنة المركزية علاقات مع الحزب الشيوعي المصري و"مع جميع العناصر الشيوعية الأخرى في الشرق الأوسط بهدف إنشاء اتحاد فيدرالي لجميع الأحزاب الشيوعية" في المنطقة.

وتم تكليف اللجنة المركزية بمسؤولية البدء في إصدار نشرة إعلامية باللغة العربية وبلغية الإيدش، تحت اسم "أنباء الشرق الأوسط" وإعداد مسودة وثيقة لبرنامج للحزب. وكانت أهم وثائق الحزب الشيوعي الفلسطيني، "مبادئه" و"لائحته التنظيمية"^(١).

في الأولى، أعلن الحزب نفسه، كمنظمة "تقف بالكامل على منصة الأمية الشيوعية الثالثة" وكونها تعتبر "القسم الفلسطيني لهذه الأمية الثالثة". وطبعا تم إعلان الهدف النهائي لنشاطها هو الشيوعية - المجتمع حيث "لا يمكن فيه وجود الاضطهاد الطبقي والقومي، حيث يشكل كل البشر أسرة عاملة واحدة، وحيث يجد كل عامل التطبيق لمقدراته، ويتلقى كل شيء وفقا لاحتياجاته".

وطبعا كان من الممكن إنشاء هذا المجتمع، فقط على أساس "الصراع الطبقي الثوري"، وليس من خلال تسوية التناقضات الطبقيّة في المجتمع، بل على العكس من ذلك، من خلال مقاومة هذه التناقضات، وليس من خلال المساومة والتوافق مع البرجوازية، بل من خلال الصراع الطبقي الصارم في الميدان الاقتصادي والسياسي.

(١) هنا ولاحقا الاقتباس من نفس المرجع ص رقم ٢.

وخلال ذلك كان يجب أن تصبح دكتاتورية البروليتاريا "وسيلة لتحقيق الهدف النهائي" للحزب.

وكان الحزب "يؤمن بشدة" بأن "انتزاع السلطة من أيدي السادة والحكام الحاليين" لا يمكن إلا "من خلال انتفاضة مسلحة وثورة لجميع الجماهير والأمم المضطهدة"، وليس من خلال الانتصارات في صناديق الاقتراع والعمل الدستوري البرلماني.

لقد نصت "اللائحة التنظيمية" للحزب الشيوعي الفلسطيني على أنه يقوم على "مبدأ الأقسام القومية"، التي "تخضع بالكامل لانضباط المؤسسات الحزبية".

بدورها، "تتمتع الأقسام القومية بالاستقلالية فيما يتعلق بالأنشطة التنظيمية والدعاية الداخلية بين أبناء قوميتها، وكذلك بخصوص وتجاه المهمات البروليتارية -الوطنية المحددة، الناشئة عن الخصائص القومية".

ومن هذا المنطلق، فإن "كل قسم قومي يستطيع تنظيم مؤتمراته القومية الخاصة به ... بالإضافة إلى الهيئات المركزية التي تحكم وتقود عمل الأقسام المحلية ضمن اختصاص هذه الأخيرة".

وعلاوة على ذلك تمت في "اللائحة التنظيمية" الإشارة إلى أن "كل قسم قومي يمكن أن يتحد مع نفس الأقسام القومية من البلدان الأخرى التي لديها نفس البرنامج، في اتحاد بين الأقاليم". ويجب أن يقوم الحزب الشيوعي الفلسطيني، بالموافقة على برامج الأقسام القومية.

لقد حاول الاشتراكيون الفلسطينيون إيجاد مخرج من المأزق الذي وجدوا أنفسهم فيه، نتيجة ضغوط الكومنترن ونتيجة لأزمة داخلية عميقة كان سببها تطور الوضع الفلسطيني الداخلي. في النهاية، أصبحت مبادئهم تدل على أن خطابهم، أخذ يتسم بدون شك بالطابع البلشفي. واعتبارا من تلك الفترة، أصبحت نشاطاتهم موجهة إلى

"كشف الطبيعة الإجرامية" للأحزاب القومية "الاشتراكية الوطنية" أمام الجماهير البروليتارية اليهودية في فلسطين و"تمهيد الطريق لتغلغل أفكار الشيوعية في بيئة العمل اليهودية المتعفنة والمشبعة بسموم الانعزال والشوفينية"^(١).

لكن هذا لا يعني بأي حال من الأحوال أن قواعد الحزب التي قاموا بصياغتها، كانت تلبي وتتناسب مع متطلبات اللجنة التنفيذية للأمم المتحدة الشيوعية.

طبعاً لم يكن هناك أي أعضاء عرب، في صفوف الحزب الشيوعي الفلسطيني. ظهر أول شيوعي من أصل عربي في صفوف التنظيم الشيوعي الفلسطيني فقط في عام ١٩٢٥ وليس قبل ذلك^(٢). ولهذا السبب فقط، قال الاشتراكيون الفلسطينيون في رسالتهم إلى الكومنترن، أنه تم المؤتمر الثاني لحزبهم تمثيل "العمال اليهود والعرب" - والحديث في الحالة الأخيرة، دار على الأغلب عن بعض الأعضاء العرب في بعض النقابات الفلسطينية الأمية (على وجه الخصوص في يافا).

لقد بقي إنشاء وتشكيل "قسم قومي" عربي في الحزب، أمراً بعيد المنال. وبقي قادة حزب SWPP، يتحدثون فقط عن الحاجة إلى إنشاء "مجموعة صغيرة من الدعاة والمروجين العرب، وتثقيفهم بالروح الشيوعية وإعدادهم للعمل بين الجماهير العربية". وطبعاً جرى

(١) هنا ولاحقاً: (Ibid., f. 495, op. 81, unit ridge 9, l. 1-2).

(٢) فيلنرم، المرجع السابق. ص ٣٣.

وفقاً للرأي المؤرخ الفلسطيني المعروف للحركة الشيوعية الوطنية م. الشريف، يمكن أن يكون نجاتي صدقي، المعروف بالاسم المستعار مصطفى سعدي، لاحقاً أحد قادة الحزب الشيوعي الفلسطيني ومراسل الكومنترن في الشرق الأوسط، أو هاشم الرمادي، أحد قدامى المحاربين في الحركة الشيوعية الفلسطينية // الشريف م. الأمم المتحدة الشيوعية وفلسطين ١٩١٩-١٩٤٨ بيروت إصدار عام ١٩٨١، ص ٢١٣.

الحديث كذلك عن عملية موازية - "إشراك العمال العرب في الصراع الطبقي وإشراكهم في الحركة النقابية"^(١). ولكن "القسم القومي اليهودي"، كان موجودا في الحزب الشيوعي الفلسطيني. وكان يضم في صفوفه "كل عناصر SWPP - بوغالي تسيون"^(٢)، وهو ما تم إبلاغ اللجنة التنفيذية للأمم المتحدة الشيعية به. وبالفعل نشأ موقف غامض حقا. حزب SWPP، ورغم دعمه ماديا من جانب الكومنترين (على الرغم من أن هذه الموارد المالية كانت بالطبع قليلة، وبالتالي فإن مؤتمره الثاني الذي طرح مهام نشر المطبوعات، وكذلك إنشاء "اتحاد" للمنظمات الشيوعية في الشرق الأوسط، ألمح بشكل غير مباشر إلى الرغبة في زيادة حجم هذه المساعدات)، لم يصبح منظمة "إقليمية"، بل استمر في الحفاظ على العلاقات مع بوغالي تسيون. كيف من الممكن بخلاف ذلك، تقييم أحكام "نظامه التنظيمي" بشأن المهام البروليتارية القومية المتميزة" أو "الاتحاد مع الأقسام القومية لبلدان أخرى في اتحاد أقاليم" على أساس "نفس البرنامج"؟

ولكن على الرغم من ذلك، قامت اللجنة التنفيذية بتقييم التغيرات التي شهدتها حزب SWPP، بشكل إيجابي. في ٢ أبريل ١٩٢١، تم تبني قرارا "مؤقتا، حتى انعقاد المؤتمر الثالث، بقبول الحزب الشيوعي الفلسطيني في الكومنترين بصفة المتعاطف"^(٣).

ولكن لم يكن موقف الكومنترين، المؤثر الوحيد على تطور التغيرات الداخلية (سيتم توضيح في المستقبل أننا نتحدث عن زيادة في الميول الطاردة المركزية). لقد كمنت كذلك في أسبابها التغيرات في الأحداث الفلسطينية. لقد أجبرت هذه التغيرات، الحزب ليس فقط

(1) RTSKHIDNI, f. 495, op. 81, unit ridge 9, l. 1-2.

(٢) المرجع نفسه.

(٣) المرجع نفسه. (f. 495, op. 81, unit ridge 7, l. one).

على الحفاظ على علاقاته مع اليسوف وطبعا مع بوعالي تسيون، بل وإعلان أنه سيبني هيكله التنظيمي على أساس أقسام قومية مستقلة.

في ١٠ أبريل عام ١٩٢٠، شهدت القدس، اندلاع اشتباكات جديدة بين العرب واليهود، تزامنت مع احتفال المسلمين بعيد النبي موسى. وألقى الاشتراكيون الفلسطينيون باللوم في وقوع هذه الأحداث في القدس على سلطات دولة الانتداب، وعلى قادة اليسوف، الذين أعاقوا تطور عملية التقارب بين العمال اليهود و "زملائهم في الصف" العرب، وعلى "شيوخ الإقطاع" وسياستهم في مغازلة الاحتلال البريطاني.

واعتقد الاشتراكيون الفلسطينيون أن هذه الأحداث في القدس تعتبر حجة قوية لصالح بناء "فلسطين الاشتراكية" على أساس "العمل المشترك والتفاهم بين العمال اليهود والعرب"^(١). ومجددا لم تتضمن صياغة السؤال بهذا الشكل أي تناقض مع طروحات "الصهيونية البروليتارية". عشية الأول من أيار عام ١٩٢١، أطلق الاشتراكيون الفلسطينيون حملة واسعة للتحضير للاحتفال بيوم العمال العالمي. لقد حاولوا استغلال هذه المناسبة وتحويل الذكرى السنوية لهذا العيد إلى دليل على قدرة العمال من كلا المجموعتين الوطنيتين في البلاد على إظهار "التضامن الطبقي"، التي تستبعد الصراع بين الأعراق والعداوة. وزع أعضاء الحزب مئات المنشورات باللغات اليديشية والعبرية والعربية تدعو "البروليتاريين" للتعبير عن تضامنهم مع الطبقة العاملة العالمية ومع روسيا السوفياتية.

ورد في المنشورات الموجهة إلى العمال اليهود والموقعة من قبل "الحزب الشيوعي

(١) الشريف م. الشيوعية والمسألة القومية العربية في فلسطين. ١٩١٩-١٩٤٨ (الشيوعيون والمسألة القومية العربية في فلسطين ١٩١٩-١٩٤٨). بيروت، ١٩٨١، ص ٢١.

اليهودي - بوغالي تسيون^(١): "لقد دخلت الرجعية اليهودية في تحالف مع زعيمة الرجعية العالمية ... مع العدو الرئيسي لروسيا السوفياتية والبروليتاريا الدولية.

يعتمد الحكام الانكليز على دعم الرجعية اليهودية، لكنهم تمكنوا أيضاً من استخدام الأفنديين لتحقيق أهدافهم. ... لقد تمكن المستغلون اليهود واللصوص الإمبراليون البريطانيون "في أعمالهم الصالحة" من الحصول على المساعدة من عملائهم ومن الخونة والمرتدين في صفوف الحركة العمالية اليهودية، مثل اهدوت هافودا وهبوعيل حاتصير والهستدروت".

ثم دعا الحزب الجماهير العاملة اليهودية إلى تكثيف النضال من أجل تنفيذ "المبادئ الشيوعية لبوغالي تسيون، والانحياز إلى جانب الحزب الشيوعي اليهودي - بوغالي تسيون" في النضال الذي يخوضه "مع البروليتاريا العالمية وكذلك الجماهير العربية المضطهدة والمستغلة". وكان نص المنشورات الموقعة من قبل اللجنة التنفيذية للحزب الشيوعي الفلسطيني والموجهة إلى العمال العرب مختلفاً: "يعيش معكم هنا العمال اليهود الذين تم نقلهم إلى هنا لكي يضطهدوكم، وهاهم على استعداد للبدء معكم في الجهاد المقدس ضد الأعداء المشتركين - أباطرة المال اليهود والعرب والإنجليز. أن العامل اليهودي - جندي الثورة، يمد يده إليكم كحليف لكم في الكفاح ضد الممولين البريطانيين واليهود والعرب. مصيره ومصيركم واحد، سواء في أيام القهر أو في أيام الحرية. لن ينتهي عذاب العمال والفلاحين إلا عندما يتم تحريركم جميعاً من العبودية التي تسود عليكم. في هذا اليوم التاريخي - عيد العمال، ندعوكم للانضمام إلى الشيوعيين الروس والبدء معهم في

(١) هنا ولاحقاً، نصوص منشورات المرجع السابق. بقلم // الشريف م. الأمية الشيوعية وفلسطين ص ١٤٤-١٤٦.

حرب مقدسة ضد القتلة من باريس ولندن الذين يقررون مصيركم وكأنكم غير موجودين أو كما لو لم يكن لديكم القوة لكي تقوموا بتقرير مصيركم بانفسكم. ندعوكم إلى الجهاد المقدس ضد الأغنياء الذين يبيعون البلاد وسكانها للأجانب. اتحدوا مع الشعب الروسي وهو سيساعدكم على نيل الحرية والاستقلال الوطني".

في ١ مايو ١٩٢١، واصلت مظاهرة نظمها الاشتراكيون في تل أبيب تحت شعار "أخوة العمال اليهود والعرب"، طريقها إلى يافا العربية. لكن الذين نشروا الشائعات الاستفزازية عشية تنفيذ المظاهرة حول "الهجوم الوشيك من قبل البلاشفة" على العرب^(١) لم تكن بحاجة إلا لشرارة يمكن أن تسبب اندلاعا جديداً للنزاعات العرقية. وتمثلت هذه الشرارة في صدام بين المشاركين في مظاهرة اشتراكية ومظاهرة مضادة للهستدروت في شوارع يافا. اجتاحت الاضطرابات التي بدأت في هذه المدينة البلد كله.

وفي وصفه للوضع الحالي، كتب أفغدور (ك. فايس): "تعرض المشاركون في المظاهرة لهجوم من جانب السكان العرب، الذين يشجعهم البريطانيون في التوجه إلى تنظيم المذابح. وشاركهم في ذلك المحرضون وقادتهم القوميون، الذين لم يدركوا أهمية

(١) الدعاية العربية في فلسطين في ذلك الوقت وفي الثلاثينيات، استخدمت بنشاط الأطروحة القائلة بأن "الهجرة اليهودية هي خزان للبلشفية للشرق بأسره". تميز ممثلو النخبة العربية الفلسطينية بتصريحات مفادها بأن "اليهود يشكلون خطراً على المجتمع بأسره، ويخربون المواقف الهادئة للجماهير العربية، وينشرون الشيوعية ليس فقط فيما بينهم، ولكن أيضاً بين العمال العرب والفلاحين". وتعرضت لهجمات قوية الكيوتسات: "القرى اليهودية تشكل خطراً دائماً على الفلاحين العرب، لأنها نسخ حقيقية لقرى المشاعية الروسية" // خين ل. محاضرة موسى كاظم باشا (رسالة من فلسطين) // "الفكر البروليتاري اليهودي"، ١٩٢٦، الرقم ٤٠-٤٢، ص ٤٨-٤٩ // اقتباس ونقل عن: فرينكيل إي. ص ٢٢-٢٣.

التظاهرة، وتم تنظيم مذبحة يهودية^(١). وانضم إلى كلمات المشرف على عمل الشيوعيين المصريين، الاشتراكيون الفلسطينيون، الذين أبلغوا اللجنة التنفيذية بوقوع مذابح ضد اليهود في كل فلسطين، التي جاءت كنتيجة لنشاط الانتداب البريطاني الذي ييث بذور التفرقة والفتنة والانعزال الشوفيني واستخدام هذه التربة الخصبة للترويج للمذابح من جانب اصحاب الأراضي العرب^(٢).

لكن السلطات اعتبرت تصرفات الاشتراكيين الفلسطينيين ذريعة مباشرة لتجدد اندلاع العنف. وطبعا اعتبرتهم الإدارة البريطانية، "عملاء لموسكو"، وكان قادة اليسوف متضامين معهم في هذا، سعيا منهم للتخلص من المجموعة السياسية التي أزعجتهم. أبلغ الاشتراكيون الفلسطينيون، اللجنة التنفيذية للأمية الشيوعية أن حزبهم "لم يعد مشروعا"، وأصبح موقف الغالبية العظمى من اليهود الفلسطينيين تجاهه "مشابها للموقف تجاه البلاشفة في روسيا بعد ٥ يوليو ١٩١٧"^(٣). كان ذلك اعترافا صريحا وبليغا وخاصة وأن الحزب كان قد حصل المساعدة في اللحظة الحرجة فقط من "الاتحاد الشيوعي اليهودي العالمي (بوعالي - تسيون)"^(٤).

توقع الكومنترن المزيد من التطورات في الوضع. لكن الحزب، الذي أطلق على نفسه الآن اسم الحزب الشيوعي اليهودي - بوعالي تسيون، في مؤتمريه الثالث والرابع اللذين

(1) Avigdor. The worker's movement in Palestine // "International Press Correspondence", 1923, N 15, P. 284.

(٢) رسالة من الحزب الشيوعي الفلسطيني إلى اللجنة التنفيذية للكومنترن بتاريخ ٢٤ أغسطس ١٩٢١ // RTSKHIDNI, f. 495, op. 81, unit ridge 9, l. 13-15.

(٣) المرجع نفسه.

(٤) المرجع نفسه.. f. 495, op. 81, unit ridge 10, l. 23.

عقدوا في نهاية عام ١٩٢١ وفي يناير ١٩٢٢ استمر في التأكيد على تمسكه بفكرة "الصهيونية البروليتارية"^(١). وبات واضحا في نهاية المطاف ، أن التحول في موقف (SWPP)، سيحدث فقط بعد الاتصالات بين الكومنترن و بوعالي تسيون.

عشية افتتاح المؤتمر الثالث للكومنترن، وجهت قيادة بوعالي تسيون، التي طالب الجناح اليساري في صفوفها استمرار الاتصالات مع الأمية الشيوعية، رسالة إلى اللجنة التنفيذية تقترح فيها بدء مفاوضات بين المنظمين بشأن دخول بوعالي تسيون إلى الكومنترن.

ووفقا لاعتقاد قيادة بوعالي تسيون، فإن الطريقة الأسهل لحل هذه المشكلة هي دخول أقسامها القومية في صفوف الأحزاب الشيوعية في البلدان المعنية، شريطة أن تتحمل هذه الأقسام المسؤولية الكاملة عن حل المشاكل المتعلقة "تلبية الاحتياجات الخاصة للجماهير اليهودية، وبالذات، انتقالهم إلى العمل المنتج وتنظيم الهجرة، في المقام الأول إلى فلسطين، وكذلك احتياجات الثقافة اليهودية"^(٢).

من جانبها وافقت اللجنة التنفيذية على إجراء المفاوضات. وتمت دعوة وفد بوعالي تسيون للمشاركة مع حق الصوت الاستشاري في اجتماعات المؤتمر الثالث للكومنترن. وأشار تقرير لجنة أوراق الاعتماد في المؤتمر في ٢٥ يونيو ١٩٢١ إلى أن منح ممثلي بوعالي تسيون الفرصة للمشاركة في المؤتمر "لا يعني بأي حال قبول" هذه المنظمة في الأمية"^(٣).

(١) بيرغر غ. نفس المصدر ص ٣٠.

(2) Offenberger M., op. cit., S. 121-12.

(٣) المؤتمر العالمي الثالث للأمية الشيوعية ص ٧١.

في ١٣ يوليو ١٩٢١، في اجتماع اللجنة التنفيذية، تم إنشاء لجنة، عُهد إليها بإجراء مزيد من المفاوضات مع بوعالي تسيون. وقامت هذه اللجنة بصياغة ووضع الشروط الابتدائية الأولية، التي يجب أن تشكل الأساس للاتصالات المستقبلية. وشمل ذلك ما يلي: حل بوعالي تسيون ودخول أعضائها في صفوف الأقسام القومية للأمية الشيوعية، وكذلك الانفصال التام عن "الميل والنظريات الصهيونية"^(١).

بالطبع، لم توافق قيادة بوعالي تسيون على شروط دخول هذه الحركة إلى الكومنترن، والتي أملتها اللجنة التنفيذية. وسرعان ما توقفت المفاوضات بين المنظمتين بعد دخولها في طريق مسدود. بعد فشلها، بعثت اللجنة التنفيذية للكومنترن برسالة إلى قيادة بوعالي تسيون اقترحت فيها عقد مؤتمر لممثلي جميع أقسامها في غضون فترة لا تزيد عن خمسة أشهر، ودعوة جميع أعضائها للانضمام إلى صفوف أقسام الكومنترن خلال فترة لا تزيد عن شهرين بعد انتهاء المؤتمر.

وطالبت اللجنة التنفيذية، بوعالي تسيون بقبول قرارات في المؤتمرين الثاني والثالث للكومنترن، وكذلك إدانة "نزعات الاستعمار اليهودي في فلسطين، والتي تخدم في المقام الأول مصالح الإمبريالية البريطانية"^(٢). وكان هذا ابتزازا صريحا.

في يونيو ١٩٢٢ في دانزيغ (غدانسك) عُقد مؤتمر استثنائي لبوعالي تسيون، حيث تم رفض إملاء اللجنة التنفيذية حتى من قبل ممثلي الجناح اليساري بحركة بوعالي تسيون. أشارت قرارات المؤتمر إلى أن بوعالي تسيون لن ينضم تنظيمياً إلى الكومنترن إلا إذا اعترف "بظروف الحياة الخاصة ... للجماهير العاملة اليهودية"^(٣). وكان الحديث يدور هنا،

(1) "Correspondances Internationales", 1921, N 2, P. 17-18.

(2) "Correspondances Internationales", 1921, N 18, P. 4652.

(3) Offenber M, op. cit., S. 158-159.

بالطبع ، حول فلسطين.

بدورها ، وجهت اللجنة في ٢٥ يوليو ١٩٢٢ ، النداء إلى عمال جميع البلدان والبروليتاريا اليهودية وذلك تحت عنوان "بوعالي تسيون والأمية". وكانت هذه الوثيقة قاسية للغاية من حيث اللهجة والمحتوى. وقالت : "منذ لحظة المؤتمر الثالث ، استخدمت العناصر القومية والبرجوازية الصغيرة ، التي تشكل الأغلبية في بوعالي تسيون ، كل الوسائل لمعارضة العناصر البروليتارية والشيوعية فيما يتعلق بالانضمام إلى الأممية الشيوعية".

بعد ذلك دار الحديث في هذه الوثيقة ، عن فلسطين. وشددت اللجنة التنفيذية على أن : "الفكرة الفلسطينية - الهادفة إلى تشتيت انتباه العمال اليهود عن الصراع الطبقي ، ليست أكثر من طوباوية برجوازية صغيرة ومعادية للثورة".

أخيرا ، أشارت الوثيقة إلى أن رفض بوعالي تسيون قبول شروط الكومنترن يعني الوقف الكامل للمفاوضات مع هذه المنظمة وقطع جميع الاتصالات معها.

كان من المفترض أن تقوم الأحزاب الشيوعية في جميع البلدان "في كل مكان بدعم الأقلية في بوعالي تسيون في نضالها ضد الأغلبية ومساعدتها على الوفاء بشروط القبول التي وضعتها الأممية الشيوعية"^(١).

(1) Correspondances Internationales, 1922, N 57, P. 441-442.

آخر مرة نوقشت فيها مشكلة الاتصالات مع بوعالي تسيون كانت في المؤتمر الرابع للكومنترن. في ٣٠ نوفمبر ١٩٢٢ ، قدم مارخليفسكي يو. تقريرا عن هذه القضية. وذكر أن المفاوضات مع بوعالي تسيون باءت بالفشل "بسبب وجود التيارات القومية في هذه المنظمة". وباقتراح منه ، تمت إحالة قضية "تصفية القضايا المتعلقة ببوعالي تسيون" إلى اللجنة التنفيذية للأممية الشيوعية في الملف رقم ٢٧ بتاريخ ٦ ديسمبر ١٩٢٢ للمؤتمر الرابع للأممية الشيوعية. م ، ١٩٢٢ ، ص ٦.

وبهذا الشكل، تم الإعلان عن رأي الكومنترن بشكل نهائي. تبين أن "الفكرة الفلسطينية"، وبالطبع الممارسة المتعلقة بها، كانت "طوباوية برجوازية صغيرة ومعادية للثورة".

كان هذا الحكم قاسيا، ومنه جاء أن عملية بناء اليسوف، كانت أيضًا "طوباوية" وكذلك الأشخاص الذين يقيمون في فلسطين وكانوا يبنون مؤسساتهم القومية هناك. كذلك كانت "طوباوية" أحلامهم وآمالهم وتطلعاتهم. كان بإمكانهم الخروج من هذه الحالة، لكن من أجل ذلك كان عليهم التخلص من الطبيعة "البرجوازية الصغيرة" و "المعادية للثورة"، ليصبحوا "عناصر بروليتارية" حقا.

في ٢٣ سبتمبر عام ١٩٢٢، أثناء المؤتمر الخامس للحزب الشيوعي اليهودي - بوعالي تسيون، حدث انقسام في صفوفه. وفي رسالة تلقتها موسكو، تم ربط هذا الانشقاق بـ "النداء من جانب اللجنة التنفيذية للأمية الشيوعية والمفاوضات مع بوعالي تسيون"^(١). وطالبت الأقلية من المندوبين في المؤتمر، "بالعمل في أوساط العرب والعلاقات مع البلدان المجاورة وكذلك الإقرار الفوري بانتهازية بوعالي تسيون وبالانضمام إلى الأمية الشيوعية".

وفي إعلان "المندوبين الشيوعيين" تمت الإشارة إلى: أنه واعتمادا على:

- ١ - الخطاب التوجيهي للكومنترن.
- ٢ - على حقيقة أن غالبية المندوبين إلى المؤتمر الخامس يعارضون قرارات الأقلية الشيوعية، وهو ما يتعارض مع الرسالة التوجيهية من الأمية الشيوعية.

(١) انظر هنا وفيما يلي: مذكرة حول تنظيم الحزب الشيوعي الفلسطيني. يافا، ١ أكتوبر ١٩٢٢.

٣ - ولأننا من الشيوعيين الملتزمين فيجب علينا تنفيذ توجيهات الأمانة الشيوعية :
أ - نعتبر أنفسنا مضطرين للإعلان عن خروجنا من الحزب الشيوعي اليهودي
وأخذ زمام المبادرة لتنظيم الحزب الشيوعي المحلي على الفور كقسم من
الأمانة الثالثة.

ب - ندعو جميع الشيوعيين الشرفاء للانضمام إليه والمساعدة في تنظيمه".
بعد ذلك تركت الأقلية المؤتمر، وانتخبت لجنتها المركزية المؤقتة. وتم التأكيد في النداء
الذي تبنته: "أيها الرفاق الشيوعيون! تم تنظيم الحزب الشيوعي الفلسطيني. كل
الشيوعيين الشرفاء في البلاد ... معنا. نحن نناضل بثبات وإصرار من أجل دكتاتورية
البروليتاريا في عملنا الثوري اليومي. سنقضي على كل عنصر ... انتهازي؛ معسكرنا يتسم
بالشيوعية بشكل محت. عاش الكومنترن. عاش الحزب الشيوعي الفلسطيني! يعيش
الكومنترن الثالث!".

وأعلنت المنظمة الجديدة أنها تعتبر مهمتها "تنظيم الجماهير العربية العريضة" في
فلسطين، وهي التي تعد حاليا "مستعمرة إمبريالية أنجلو-صهيونية"^(١). في تسمية الحزب
الجديدة لم يعد هناك أي ذكر لـ "بوعالي تسيون" بعد أن غادر صفوفها بشكل نهائي. بلغة
الإيدش، أصبح اسم الحزب - "الحزب الشيوعي الفلسطيني" وباللغة العربية "حزب توزيع
الثروة الفلسطيني"^(٢). وبعد مرور بعض الوقت، غادرت صفوف الحزب الاشتراكي
الفلسطيني، المجموعة الشيوعية الثانية - الحزب الشيوعي الفلسطيني^(٣).

(١) المنشور الصادر عن الحزب الشيوعي الفلسطيني بتاريخ ٧ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٢٢ // المرجع
نفسه، ص.٣.

(٢) نفس المرجع : 3 و 2 و 1، ridge unit 81، op. 495.

(3) Avigdor, op. Cit.

عملت كلتا المنظمين كمؤيدين مطلقين للصراع الطبقي، وبعبارة أخرى، فصل "البروليتاريا اليهودية عن الأيديولوجية الاشتراكية الصهيونية".

وفي نوفمبر ١٩٢٢، شكل الحزب الشيوعي الفلسطيني، الفصيل العمالي في صفوف الهستدروت.

بدوره وجه الحزب الشيوعي الفلسطيني، وأكبر فروعه في القدس (٥٠-٦٠ ناشطا)، جهوده لخلق "كتل بروليتارية" مستقلة عن المركز النقابي الموحد ليشوف في كل من النقابات المنضمة له^(١)، معتبرا أنه من الضروري إبلاغ اللجنة التنفيذية للأمية الشيوعية، بأنه "يكافح ضد الهستدروت بنشاط ومع التضحية بالذات"^(٢). ولكن مع ذلك لا يمكن، بطبيعة الحال، اعتبار الاختلافات بين المجموعتين على أنها متعكسة تماما. في نهاية المطاف، كانت أنشطة الفصيل العمالي في الهستدروت تهدف إلى تخريب الأسس التنظيمية والأيديولوجية لنشاطها من الداخل. لقد تضمن برنامج الفصائل العمالية مطالبات باستقلال النقابات العمالية عن الأحزاب السياسية، وفصلها عن المنظمات التعاونية، وبناء نقابات عمالية على أساس اممي وطبقي، مما يعني استبعاد الحرفيين وأصحاب المشاريع الصغيرة من صفوفهم^(٣).

(1) Vilner M., op. Prod., C. 32; and also // "International Press Correspondence", 1923, N 29, P. 518-519.

(2) Communiqué der K.P.P. 9 Januar 1923 // RTSKHIDNI, f. 495, on. 81, unit xp. 15, l. 2-4.

(3) L'Internationale syndicale rouge, 1924, N 37-38, P. 182.

أشار زعيم الحزب الشيوعي الفلسطيني ف. أربوخ (أبوزيام) في كلمته نيابة عن الكتلة العمالية في المؤتمر الثاني للهستدروت، إلى أنه تم في الوضع الخاص لفلسطين في أوائل العشرينات، إنشاء الهستدروت ليس "لمحاربة رأس المال، ولكن لإنشاء متاجر تعاونية"، على أساس أيديولوجية "المنافسة والاستحواذ"، أي شعارات "العمل اليهودي" و "الاستيلاء على الأرض".

=/=

في ٩ يوليو ١٩٢٣ ، تم عقد اجتماع مشترك مع ممثلين عن المجموعتين الشيوعية الفلسطينية. وجاء في "الاتفاق" الذي تبناه اللقاء: "بعد مناقشة تفصيلية ومعمقة حول القضايا البرنامجية والتنظيمية، قرر اجتماع لممثلي الحزب الشيوعي الفلسطيني وحزب فلسطين الشيوعي، وضع حد للانقسام بين العناصر الشيوعية في فلسطين".

كان أساس برنامج المنظمة الشيوعية الموحدة في البلاد هو "قرارات الأهمية الشيوعية" و"١) الموقف من الحركة القومية العربية، ٢) الأدوار والمهام في الحركة النقابية الفلسطينية وتكتيكات الحزب، ٣) النضال ضد الصهيونية".

من جانب الحزب الشيوعي الفلسطيني، وقع الاتفاقية وفد من الممثلين بقيادة زعيمه ف. أفربوخ (أبو زيام)، ومن جانب حزب فلسطين الشيوعي وقّعها وفد من الممثلين بقيادة زعيمه إ. بيرغر. (برزيلاي)^(١).

في صحافة الكومنترن تم نشر هذه الاتفاقية في شكل مختلف. عن ذلك الحدث كتبت صحيفة "انترناسيونالي بريس-كروسنندنس"، أن أهم مهمة للشيوعيين الفلسطينيين، الذين يسعون للانضمام إلى الأهمية الشيوعية وإرسال وفد إلى موسكو لإجراء مفاوضات مناسبة مع اللجنة التنفيذية، هو صياغة موقف بشأن الحركة القومية العربية الفلسطينية والبحث عن أشكال ملموسة للنضال ضد الصهيونية "حليف الإمبريالية البريطانية".

وأكد ف. أفربوخ أن "الدم الأزرق وليس الأحمر" يتدفق "في قلب" حركة الطبقة العاملة اليهودية الفلسطينية. وأضاف أن الكتلة العمالية حدت مهمتها في مكافحة "وهم الاشتراكية الذي خلقه الصهاينة الاشتراكيون على أساس النشاط القومي"، لأن "البناء القومي غير موجود، وهناك البناء الطبقي، وكل طبقة تقوم به على حدة" بشكل مستقل // م. فيلنر، المرجع السابق. ص ٣٢-٣٣.

(1) Agreement between the Representatives of P.K..P. and of K.P.P., reached on July 9th 1923.

RTSKHIDNI, f. 495, on. 81, unit xp. 17, l. eleven.

وأشار الخبر إلى أنه تم خلال الاجتماع بحث القضايا السياسية والتنظيمية العامة، وانتخاب اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الموحد، والتي من المقرر أن يوافق المؤتمر القادم على صلاحياتها.

وخلال الاجتماع، تم توجيه اللجنة المركزية المنتخبة للحزب الشيوعي الفلسطيني لعقد مؤتمر للحزب خلال فترة لا تتجاوز ثلاثة أشهر، لكي يتم فيه تبني برنامج الحزب وانتخاب ممثله للمشاركة في المؤتمر القادم للكومنترن^(١).

في يناير ١٩٢٤، وصل إلى موسكو. أفربوخ، الذي تلقى تعليمات من اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الفلسطيني لإجراء مفاوضات مع اللجنة التنفيذية بشأن الانضمام إلى الكومنترن. كان واضحاً هذه المرة عدم وجود شيء يمكن أن يمنع دخول منظمة هذه المجموعة الصغيرة من الفلسطينيين إلى الكومنترن. لقد استوفوا بالفعل شروط الانضمام التي طرحتها اللجنة التنفيذية في وقت سابق امام يعقوب ميرزون - لقد تم تغيير اسم الحزب، وهو ما يعني مغادرته لصفوف بوعالي تسيون.

كانت مغادرة الحزب هذه، تعني أنه أدان دون قيد أو شرط كل أشكال الصهيونية، بما في ذلك فرعها "البروليتاري". تمثل النجاح الأول لمهمة أفربوخ في موسكو في المفاوضات مع المكتب التنفيذي لـ "بروف اينترين" (النقابات المهنية الأمية) والتي تتوجت في الانضمام إلى صفوف هذه الكتلة العمالية^(٢).

(1) Internationale Press Correspondent, 1923, H 136, pp. 1187-1188.

(٢) كانت قيادة البروف اينترن على علم طبعاً وعلى دراية ببنود برنامج عمل وتكتيكات الكتلة العمالية. في أغسطس ١٩٢٣، تحدثت صحافة البروف اينترن عن "... ظهور التأثير الشيوعي في صفوف العمال اليهود. وفي النقابات اليهودية نشأ اتجاه ثوري في النقابات اليهودية، على الرغم من أنه أصبح الآن ضعيفاً" //

في ٧ فبراير ١٩٢٤ قدم ف. أفربوخ إلى قيادة الكومنترن تقريراً عن الحزب. تحدث فيه قبل كل شيء عن صعوبات عمل الشيوعيين في فلسطين. وأكد هذا الممثل الفلسطيني أن "العمال العرب مبعثرون ومتناثرون في جميع أنحاء المستعمرات (المستوطنات اليهودية التي استخدمت عمالة الفلاحين العرب)، وهم في الغالبية العظمى من الأميين. وهم يخضعون بشكل كبير لتأثير شيوخ الدين المسلمين الذي يزرعون في نفوسهم الإيمان بالقضاء والقدر (Fatalism) والخضوع لوضعهم الصعب والقبول به"^(١).

بدوره، في تقييمه للعمال اليهود، أشار أفربوخ إلى أن: "العمال اليهود تحت تأثير قوي للشوفيين القوميين ويتميزون بجمودهم وسلوكهم المحافظ". واشتكى أفربوخ من أن حزبه الذي "يعتمد فقط على قواه الخاصة" يواجه منظمة "أهدوت" "الصفراء القوية الكبيرة

Le Internationale syndicale rouge، ١٩٢٣، رقم العدد ٣١، ص ٥٨.

في فبراير ١٩٢٤، وجه المكتب للتنفيذي للبروف اينترن النداء التالي - "إلى العمال العرب في فلسطين"، والذي جاء فيه على وجه الخصوص: "البروف اينترن، الذي يضم في صفوفه خمسة عشر مليون عامل ثوري من جميع الجنسيات وجميع البلدان، الذي يشن النضال الحازم في جميع أنحاء العالم ضد الهيمنة الرأسمالية، ويدعم أي حركة ثورية ضد الاضطهاد القومي، يناشدكم ... أن تنهضوا في النضال من أجل التحرر. ... ويملك البروف اينترن، الأنصار في بلادكم - فلسطين. المتمثلين في حال كتلة العمالية في الهستدروت. منذ فترة طويلة، بات أعضاؤها يدافعون ليس عن المصالح القومية اليهودية، بل من أجل مصالح العمال. من أجل مصالح العمال اليهود والعمال العرب على حد سواء. ...

تسعى الكتلة العمالية إلى إقامة تحالف نضالي بينكم وبين العمال الثوريين اليهود لتتوحدوا في النضال ضد الرأسماليين والمستعمرين الأثرياء كجبهة موحدة. //

Le Internationale syndicale rouge، ١٩٢٤، رقم العدد ٣٧-٣٨، ص ٢١٧.

(١) هنا وأدناه، انظر: تقرير ممثل الحزب الشيوعي الفلسطيني، ٧ فبراير ١٩٢٤ //

RTSKHIDNI، 1-6، 20، unit ridge، 81، op. 495، f.

العدد، التي "تدعمها البرجوازية الصهيونية ماليا". لقد عمل الحزب الشيوعي الفلسطيني "في بيئة برجوازية صغيرة، وتتواجد حوله تجمعات هدفها الوحيد هو تشويه الوعي الطبقي للبروليتاريا اليهودية". وأشار إلى أنه تم في ذات الوقت زرع "بذور العداء والكرهية القومية السامة" في "روح ووعي" العمال العرب. ويشار إلى أن العضوية في الحزب الشيوعي الفلسطيني كانت تعني استبعاد أنصاره من الهستدروت، مما أدى بدوره إلى فقدان امتيازات نقابية كبيرة وتدهور الوضع المادي. ووصف الشيوعيون الفلسطينيون هذا الوضع بأنه "مقاطعة اقتصادية".

وبالطبع، تلخص القصد الرئيسي من هذه الكلمات - في طلب ف. أفربوخ المساعدة المالية من الكومنترن. ولتحقيق ذلك حاول أفربوخ تصوير حزبه كمجموعة من المقاتلين الأبطال: "المطوقة بالمقاطعة والكرهية الغاضبة من جانب المجتمع البرجوازي بأكمله، ... حاول الحزب بناء نقابات عمالية أممية، وشن حملة في النقابات الصفراء القائمة من أجل تثويرها. ... الآن يوجد لدينا حزب شيوعي مترابط عقائدياً". وخلال ذلك ظهرت مجددا طلبات تقديم المساعدة الفورية: "نأمل أن تمد اللجنة التنفيذية ... يد العون لمنظمتنا وتقويها أخيراً من خلال ضمها إلى صفوف الكومنترن. وهذا سيعطيها مزيداً من القوة لمواصلة النضال من أجل النصر النهائي للطبقة العاملة". كان ذلك ضرورياً فعلاً. في وقت انضمامه إلى الكومنترن، كان الحزب الشيوعي الفلسطيني، في الواقع، عبارة عن تكتل من عدد صغير من "الرفاق المجربين من ١٠ إلى ١٢ شخصاً" الذين تجمعوا للاستماع إلى محاضرات حول الوضع في الاتحاد السوفيتي ونضال "الطبقة العاملة العالمية".

بالطبع كان للحزب "منظمات غير حزبية" - الفصيل العمالي في الهستدروت، ونوادي العمال، و"نادي الناهخين الفقراء". لكنها كانت أيضاً قليلة العدد وغير مهمة. في الوقت نفسه، على الرغم من توحيد المنظمين الشيوعية، بقي التنافس والتصارع

الداخلي مستمرا بينهما.

كان على أفربوخ أن يضمن الانضمام إلى الكومنترن. بالنسبة له وأنصاره، بدا الأمر وكأنه الدواء السحري الحقيقي. ولكن لتحقيق ذلك كان بحاجة إلى إعادة التأكيد على الأهمية الإستراتيجية لحزبه، وأهميته الإقليمية.

وفي مذكرة أرسلها إلى اللجنة التنفيذية للأمية الشيوعية، تم التأكيد في هذا الصدد على هشاشة نظام العلاقات الدولية في الشرق الأوسط، القائم على أساس تفويضات الانتداب التي سلمتها عصبة الأمم إلى بريطانيا وفرنسا. والحديث جرى عن "الشرذمة المصطنعة" للشرق الأوسط - رغم أن "المنطقة موحدة من الناحية الاثنية والثقافية ومرتبطة فيما بينها اقتصاديا"، تم في هذه المنطقة تشكيل "سوريا، وما يسمى بالجمهورية اللبنانية الكبرى (دولة لبنان الكبير)، أي منطقة الاحتلال الفرنسي، وكذلك فلسطين - منطقة الاحتلال الانكليزي؛ وبلاد ما بين النهرين، والحجاز، وشرق الأردن، التي سميت بالدول العربية المستقلة، التي كانت في الواقع عبارة عن دمي بيد الانكليز". وذكر أفربوخ أن هذا "التشرذم المصطنع" "بات مصدرا للصراع المستمر، والاستياء، وكذلك الانتفاضات" التي تهدد "وجود البريطانيين".

وأضاف أفربوخ: "تحتل فلسطين، على الرغم من فقرها الاقتصادي وقلة عدد سكانها، في هذه الحركة التمردية مكانا هاما". وهنا كان الأمر يتعلق بأن "الشكل الخارجي للحكم البريطاني في فلسطين، كان مفهوما أكثر حتى بالنسبة للفلاح العديم الوعي" **ويجب القول إن** "الانتداب البريطاني على فلسطين، ووعده بلفور الشهير، أثار الرأي العام العربي بأكمله ويمكن التشديد بدون مبالغة على أن ما يسمى بالمشكلة الفلسطينية باتت الآن المحور الذي تدور حوله الحركة العربية برمتها".

ولكن يشوف، بات موجودا فعلا في فلسطين، ووفقا لزعيم الشيوعيين

الفلسطينيين ، بات "يلفت انتباه الحركة القومية العربية ، لكونه ... يمثل مصالح المحتلين البريطانيين" ، ولتحوله إلى سبب تأجيج العلاقات بين العرب واليهود "إلى أقصى الحدود"^(١).

من كلمات ف. أفربوخ ، ظهر أنه يجب على الكومنترن أن يستغل صعوبات عملية تشكيل نظام العلاقات الدولية الشرق الأوسط ، لتحقيق مصالحه الخاصة. كان هذا يعني أنه كان هو وقطاعه الفلسطيني مضطرين لدعم الحركة القومية العربية المحلية دون قيد أو شرط ، معتبرين أن السكان اليهود في فلسطين ليسوا أكثر من أداة لقوى القمع الخارجية.

وبالإضافة لذلك ، كان يجب على الحزب الذي يمثله أفربوخ والذي يحظى بدعم الكومنترن ، أن يتزعم القوميين العرب ، ويقوم بتحويلهم إلى قوة ثابتة من المقاومة المعادية لبريطانيا وفرنسا في جميع أنحاء المنطقة ، ليصبح الشرق الأوسط بعد ذلك في المستقبل ، المنطقة التي يتم فيها تطبيق النهج الجيوسياسي السوفيتي في أنسب أشكاله. وطبعاً خلال ذلك مرت الحركة الاشتراكية الفلسطينية ، بدون شك ، بتطور جدي فعلا. وأما الحزب الشيوعي الذي خرج من صفوفها فلم يعد يشارك في عملية النهضة الوطنية لشعبه ، معتبرا إياه هذه المرة بمثابة الهدف الذي يتم التلاعب به من قبل القوى الخارجية. بالطبع ، تم تبرير كل ذلك باعتباريات عليا - مصالح "الثورة الاشتراكية العالمية". لكن في النهاية كان الأمر مفهوما وقابلا للشرح والتفسير. لقد بدأت مجموعة سياسية غير مهمة ، تعتمد بشكل كلي وتام على المساعدة الخارجية وبعد استبعادها من قائمة المشاركين في عملية "الشؤون القومية" ، بتوجيه طاقاتها نحو حل المشاكل الخارجية عنها. ولكن الملفت والمثير لاهتمام هنا ، هو شيء آخر. لقد حددت هذه المجموعة السياسية غير المهمة وعلى مدى سنوات

(١) مذكرة رئيس الحزب الشيوعي الفلسطيني. ب/د نفس المرجع ص ١٦-٢٩.

عديدة مقبلة مسالك راعيها ومولها السوفيتي تجاه مشاكل الشرق الأوسط. لقد تم الترويج لأفكار أفربوخ بشكل مطرد في أعمال الباحثين الوطنيين لهذه المنطقة، وفي الوثائق السياسية المعتمدة في الاتحاد السوفيتي، وكذلك خلال تحديد المسار السياسي الإقليمي للدولة السوفيتية بالاعتماد عليها، والذي لم يؤد إلى أي وجود جاد لها في الشرق الأوسط والعالم العربي.

علاوة على ذلك، وبعد مرور عدة عقود، قام قادة ما كان يطلق عليه في الاتحاد السوفيتي اسم "حركة التحرر الوطني العربي" (جمال ناصر، والبعثيون السوريون والعراقيون، وقادة منظمة التحرير الفلسطينية وغيرهم) بتكرار حرفيا الحجج التي قدمها أفربوخ ولاقى كل ذلك التفهم الكامل في موسكو.

لكن على ما يبدو، خلال مفاوضات الانضمام إلى الكومنترن، واجه ممثل الشيوعيين الفلسطينيين، بعض الصعوبات. وتشهد على ذلك مذكرة أخرى من جانبه موجهة إلى اللجنة التنفيذية تحت عنوان "لماذا من الضروري الاعتراف فوراً بالحزب الشيوعي الفلسطيني؟". وفيها قام أفربوخ بتلخيص الآراء التي عبر عنها موظفو الكومنترن حول المسألة التي كانت تثير قلقه^(١).

لقد لاحظ معارضو الاعتراف بالحزب الشيوعي الفلسطيني، أن هذا الحزب في حالته الحالية يتكون فقط من "العمال اليهود" وأن دخوله إلى الكومنترن "سيعطي ذريعة" لتفسير هذه الخطوة من جانب اللجنة التنفيذية "كاعتراف بالانتداب الأنكلو-صهيوني". ونوه هؤلاء كذلك بأن "إقليمية" الحزب تفترض إمكانية انضمام العمال العرب إلى صفوفه.

(١) هنا وأدناه: لماذا يجب الاعتراف فوراً بالحزب الشيوعي الفلسطيني؟ ب / د // المرجع نفسه، ص ٣٢-

وهؤلاء العمال بالذات ، يجب أن يصبحوا الهيكل الداعم للحزب ، لأن "العمال اليهود ، مع مشكلة نزوحهم (الهجرة اليهودية من فلسطين في تلك السنوات كانت كبيرة) يمكن أن يكونوا فقط وسيلة وأداة لتشكيل الحزب وليس أساسه".

في الوقت نفسه ، أكد معارضو الاعتراف بهذا الحزب أن سبب ضعف علاقات الحزب مع العرب يكمن في "عدم تناسي التقاليد القومية نتيجة لماضي الحزب الأيديولوجي". وبعد ذلك أضافوا: "يجب أن نضع أمام هذا الحزب كشرط الاعتراف به ، قبول انضمام الشغيلة العرب في صفوفه من أجل التغلب على الجمود" (الماضي المتعلق بحركة بوعالي تسيون)". لكن أفربوخ اعترض على ذلك في مذكرته ، مشيراً إلى أن "التكوين اليهودي للحزب على خلفية الاعتراف بالانتداب من قبل جميع الجماعات اليهودية سيؤكد معارضته الثورية المناهضة للصهيونية". وبالنسبة للسكان العرب ، سيعني ذلك أن الكومنترن يدعم "الحزب الذي يقاتل ضد أعدائهم وضد الإمبريالية".

لم يقبل ممثل الشيوعيين الفلسطينيين القول الغامض حول "نزوحية" اليهود الفلسطينيين ، وقال إن "العمال اليهود ليسوا" أجنب "في البلاد" ، لأن بينهم وكذلك بين "أعضاء الحزب ... نسبة كبيرة من اليمنيين السفارديم (الذين قدموا من إسبانيا ، ثم استقروا على أراضي دول مختلفة من شرق البحر الأبيض المتوسط وشمال إفريقيا) ، أي بلاد الشام ، وهذا يعني أنهم من السكان الأصليين".

لكن الجانب الطبقي كان يثير اهتمام أفربوخ أكثر: "المهاجرون الواصلون حديثاً يتأقلمون في البلاد ، ويتأصلون في الإنتاج الحضري المحلي". وشدد على أن "العمال اليهود حصرياً يعملون حالياً في الصناعات بالمدن ، وبالتالي يجب أن يكون الحزب الشيوعي ، ولو في البداية على الأقل ، طليعة البروليتاريا الحضرية ، أي العمال اليهود".

لكن للخيار الشيوعي رغم كل ذلك كانت حدوده المعينة ، وتمكنت المشاعر القومية

من شق طريقها. وبدأت في كلمات أفربوخ، تظهر علامات الاستياء المرير: "لا شك في أن تقسيم العمال إلى عمال من الدرجة الأولى والدرجة الثانية هو انتهاك للأمية... تجاهل هذه الفئة أو تلك من العمال يحرم الحزب من إقليميته" (كان قطع كل العلاقات مع اليسوف بمثابة الانتحار بالنسبة له).

لقد تمكن أفربوخ، تقريبا من توقع المستقبل: "التجاهل... يحرم الحزب من طابعه الأممي ويهدد بتحويله إلى منظمة قومية، إلى تابع مشكوك فيه إلى حد ما للكومنترن". ثم تابع أفربوخ القول: "أعتقد أن النظر إلى هذا الحزب فقط كأداة لتشكيل الحزب الشيوعي العربي، يمكن أن يلحق الكثير من الضرر بعملنا المستقبلي".

وتحدث أفربوخ عن نفسه، مستخدما المصطلحات الشيوعية، عن نفسه ومحاولا تبرير وجوده (وكذلك وجود رفاقه بالطبع) في فلسطين. لا شك في أن منطق مطالب موظفي الكومنترن وضعه في موقف غامض على الأقل. لقد وصل هو ورفاقه^(١) إلى هذا

(١) يكفي أن نشير هنا إلى مثالين فقط. أحدهما هو إ. بيرغر (برزيلاي)، الذي كتب في سيرته الذاتية التي جمعت في أكتوبر ١٩٣٢ أنه ولد عام ١٩٠٤ في "عائلة برجوازية" في كراكوف النمساوية آنذاك. أعطاه والديه "تربية دينية برجوازية". في المدرسة الثانوية، انضم إلى منظمة الشباب التابعة لحزب هبوعيل حتساير. وفي عام ١٩٢٠، بعد أن أن معجبا بالأفكار الاشتراكية في نسختها القومية، وصل مع مجموعة من أعضاء المنظمة الصهيونية - الاشتراكية إلى فلسطين، حيث عمل في البداية كعامل في بناء طريق سريع للسيارات، ثم أصبح موظف في "المؤسسة". فقط في عام ١٩٢٢ أصبح من مؤيدي فكرة الانسحاب من بوغالي تسيون وتشكيل الحزب الشيوعي // هناك أيضاً

f. 495, op. 212, unit ridge 59, l. 1-3

المثال الثاني هو ليشينسكي (ناداب)، أحد أعضاء قيادة الحزب الشيوعي الفلسطيني، الذي أصبح لاحقا موظفاً في القسم الشرقي التابع للجنة التنفيذية للأمية الشيوعية. في رسالة كتبها في ١٥ سبتمبر ١٩٢٩، يطلب فيها استعادة الجنسية السوفيتية، ورد أنه ولد عام ١٩٠٢ في كريفوي روغ، وكان والده حتى عام
=/=

البلد، انطلاقاً من دوافع قومية. كان التخلي عن ذلك يتطلب اعتراف الشيوعيين بأحقية مطالب اللجنة التنفيذية وبالتالي قطع العلاقة مع هذه الدوافع والتحول إلى خصومها الحاسمين. في ذات الوقت كان تحويل الحزب إلى أداة لإحداث ثورة في الحركة القومية العربية وتحويلها إلى منظمة شيوعية عربية، سي طرح حتماً التساؤل حول هل هناك حاجة إلى الشيوعيين اليهود في فلسطين، وهل يجب أن يهاجروا إلى البلدان التي كانوا من مواطنيها؟ هذا الأمر كان فعلاً في غاية الجدلية، وفي المستقبل تسبب الخط الذي اتبعه الكومنترن في تأجيج مشاعر الهجرة أكثر من مرة في صفوف الحزب الشيوعي الفلسطيني.

ولكن اللجنة التنفيذية فقط في مارس ١٩٢٤ اتخذت قرارها بخصوص اعترافها الكامل بالحزب الشيوعي الفلسطيني، والذي تمت صياغته رسمياً تحت عنوان "قرار حول الحزب الفلسطيني"، وصدر في ١٤ مارس من العام نفسه. وفيه تم الإشارة إلى أن: "اللجنة التنفيذية تقر بارتياح بأن الحزب الشيوعي الفلسطيني قبل ونفذ جميع الشروط المسبقة للأمية الشيوعية"^(١). لقد جرى الحديث في المقام الأول عن قطع الحزب الشيوعي الفلسطيني بالكامل لعلاقاته مع بوعالي تسيون ومع "بقاياها القومية المتخلفة"، والتي تم تلخيصها في "الاعتراف بالظروف المعيشية المحددة للعمال اليهود

١٩١٢ موظف في مستودع للأخشاب في هذه المدينة، ثم أصبح تاجراً للأخشاب. تخرج ن. ليشينسكي بنفسه من مدرسة كريفوي روج التجارية، وفي عام ١٩٢٢ "ترك الاتحاد السوفياتي" مع مجموعة من أعضاء المنظمة الصهيونية اليسارية هاحالوتس (الرائد)، والتي ظل عضواً فيها حتى عام ١٩٢٣. في فلسطين عمل كعامل عادي، وبعد عام ١٩٢٣ بات "من النشطاء الحزبيين" في الحزب الشيوعي اليهودي - بوعالي تسيون // نفس المرجع..

f. 495, op. 81, unit ridge 90, l. eight.

(١) فيما يلي، الوثيقة المستخدمة // المرجع نفسه.. 1-3, l. 19, unit ridge 19, f. 495..

وتطورهم" وفي ضرورة "عزلتهم". لكن مع ذلك ، قيل للشيوعيين الفلسطينيين أنه "يوجد خطر محاطر من أن الحزب الشيوعي الفلسطيني هو منظمة تتكون من العمال اليهود في الغالب ... وتقف على طريق العزلة عن غالبية العمال والفلاحين العرب"، وبالتالي فهي مطالبة "بالتخلي عن الحصرية القومية ، فضلاً عن النضال الصريح والمتواصل ضد المستعمرين الصهاينة الذين ينتهجون سياسة الإمبريالية البريطانية".

وأشار القرار إلى أن "الكومنترن تتوقع من الحزب الشيوعي الفلسطيني التحول السريع إلى حزب شيوعي إقليمي ، أي لحزب العمال الثوريين من القوميات العربية واليهودية وغيرها من القوميات القاطنة في فلسطين". وكان يفترض بالحزب أن يكون موحداً دون أي "أقسام قومية" في صفوفه.

وشدد القرار على أنه "بالرغم من صحة المبادئ النظرية للحزب الشيوعي الفلسطيني وصحة مواقفه فيما يتعلق بالحركة القومية العربية... ترى اللجنة التنفيذية أنه من الضروري التأكيد على أن الحزب في الواقع لم ينجح بعد في فعل أي شيء ملموس ومحدد في هذا المجال".

وتابع القرار: "ترى اللجنة التنفيذية أن الحركة القومية العربية التي تنادي بتحرير فلسطين من الإمبريالية البريطانية وعملائها الصهاينة يجب أن تجد في الواقع الدعم الكامل من الحزب الشيوعي الفلسطيني" الذي يجب أن يأخذ على عاتقه مهمة تشكيل جبهة موحدة لهذا النضال. لكن تمت الإشارة إلى أن شرط "تعزيز الحزب" يكمن في "جذب العمال العرب إلى صفوفه وتأثيره على الحركة القومية العربية".

وأما المسار اللاحق للحزب ، فقد تحدد بضرورة توجيه الجهود لتوفير تلك الشروط. ولكن أكثر ما يثير الأسف هنا ، هو أن اللجنة التنفيذية استخدمت كلمات أفربوخ نفسه ، للخروج بهذا الاستنتاج.

في ٥ مارس ١٩٢٤ ، تم عقد جلسة غير عادية للجنة المركزية للحزب الشيوعي الفلسطيني ، وتمت خلالها مناقشة نتائج زيارة أفربوخ إلى موسكو^(١).

وخلالها تم كذلك اعتماد " الملخص البراجمي " (Programmreferat) الذي أقرته اللجنة التنفيذية. لقد اتسمت هذه الوثيقة بالطابع النظري قبل كل شيء ، وتم فيها النظر في العملية العامة للتوسع الاستعماري الأوروبي في بلدان الشرق بشكل عام ومنطقة الشرق الأوسط بشكل خاص. بالطبع دار الحديث فيها عن الروابط الوثيقة بين "إمبريالية بريطانيا" و "البرجوازية الساعية نحو التحالف مع الهيمنة الأوروبية و ... الإقطاعيين الكبار".

أكد مؤلفو "الملخص البراجمي" انجذاب "العناصر البرجوازية الصغيرة" نحو الحركة القومية "عريستان" وهيمنة أيديولوجيتها بين العمال العرب. لكن مع ذلك ، خلصوا إلى أن "الجماهير غير راضية عن الموقف التوفقي للبرجوازية فيما يتعلق بالإمبريالية الأوروبية ، لأن هذا يضر بنضالها ضد الإمبريالية".

ونوه الشيوعيون الفلسطينيون بأن صفوف الحركة القومية العربية تشهد عملية "انفصال طبقي" ، مما يسمح للحزب الشيوعي الفلسطيني بـ "جذب مجموعات كبيرة من العمال العرب إلى جانبه ، مع عدم ترك العمل في صفوف البروليتاريا اليهودية". وباتت المهمة تنحصر في "تنظيم حزب أممي من الطبقة العاملة الفلسطينية" يكون قادرا على "إيقاظ الجماهير المضطهدة" في منطقة الشرق الأوسط بأكملها^(٢). لكن اللجنة التنفيذية طالبت

(1) 85 Resolution des ausserordentlichen Plénums des Zentralkomitees der Palästina Kommunistischen Partei (März 5, 1924)// There, f. 495, op. 81, unit ridge 22, 1.3-1 .

(٢) تضمن ملخص برنامج الحزب الشيوعي الفلسطيني في الكلمة التي ألقاها بيرغر في الجلسة المكتملة للحزب. انظر :

Die 1 Landeskonferenz der K.P. von Palästina (Auszug aus dem Protokoll).

نفس المكان الصفحة ٣-٤.

بصرامة ، بوضع مسالك أكثر جدية.

في ١٤ مارس ١٩٢٤ ، تمت إحالة إلى اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الفلسطيني ، شروط تشكيل "جبهة موحدة" مع القوميين العرب ، التي قامت بصياغتها الدائرة الشرقية في اللجنة التنفيذية للأمية الشيوعية. وكانت هذه "الجبهة" ضرورية "لنمو نفوذ" الحزب الشيوعي الفلسطيني ، أو بعبارة أخرى لتوسيع دائرة أنصار الاتحاد السوفيتي في المنطقة. بالطبع ، كان يفترض أن تتم بمساعدتها عملية "تسريع عملية التمايز الطبقي" في صفوف "المشاركين في الحركة الوطنية" الذين كانوا بحاجة إلى التحرر من "تأثير الابوية الإقطاعية للأفنديين والبرجوازية" ، التي كانت بمثابة المرادف لتقوية الميول المركزية المتنافرة في صفوفها. بعبارة أخرى ، فيما يتعلق بهذه الحركة ، استخدم الكومنترن نفس التكتيكات المتبعة في بوعالي تسيون.

لكن بهذا الشكل أو ذاك ، تضمنت شروط تشكيل هذه "الجبهة" الأحكام التالية:

- ١ - النضال ضد نظام الانتداب للإمبريالية ، وضد الانتداب البريطاني ووعده بلفور.
- ٢ - النضال بدون تهاود من أجل استقلال فلسطين.
- ٣ - النضال من أجل تحرير أجزاء عربستان المتجانسة من الناحية الاثنية وإنشاء جمهورية ديمقراطية هناك".

بالإضافة إلى ذلك ، استندت شروط تشكيل التحالف المستقبلي إلى متطلبات ديمقراطية عامة (حرية التعبير والصحافة ، والتعليم المجاني ، ومساواة المرأة) ، وبرنامج زراعي موحد (على وجه الخصوص ، تقسيم أراضي الدولة وتوزيعها على الفلاحين الفقراء ، وإلغاء ديون المراكمة على الفلاحين) وتشريعات العمل (بما في ذلك يوم عمل لمدة ثماني ساعات ، وحماية النساء والأطفال ، والمساواة في الحقوق للعمال العرب واليهود ، والاعتراف بالنقابات العمالية القائم ، ومساعدة العاطلين عن العمل). وكان

مطلوبا من الحزب الشيوعي الفلسطيني النضال من أجل إضفاء الشرعية عليه وضد "مغادرة أعضاء الحزب من فلسطين دون إذن من قيادته"^(١).

ومن الواضح، أن الكومنترين كان يحتاج للشيوعيين اليهود من أجل اجتذاب العرب إلى الحزب ومن أجل تحويله إلى أداة للنشاط في الوسط العربي.

وهكذا تم إنجاز العملية، واعتقد الكومنترين طبعا أن نتائجها كانت ناجحة. فلقد ظهر في فلسطين القسم التابع له - حتى لو كان في صفوفه ١٠٠ عضو فقط، وعلى الرغم من مغادرة يعقوب ميرزون ومعظم مؤسسي SWPP مع التحول إلى بوغالي تسيون يساري.

انضمت كتلة العمال التي يقوده الشيوعيون، إلى بروف إينترن، على الرغم من أن وضعها في ذلك الوقت بدا حرجا للغاية^(٢). وأخيرا في عام ١٩٢٤، ظهر اتحاد الشبيبة

(١) في تقرير اللجنة المركزية الحزب الشيوعي الفلسطيني // المرجع نفسه، ص. ٤٩٥.

f. 495, op. 81, unit ridge 19, l. 17-21.

(٢) في نهاية عام ١٩٢٤، انعقد المؤتمر الأول للكتلة العمالية بشكل سري. وسبب هذه السرية يعود إلى حقيقة أنه في أبريل من العام نفسه، بقرار من مجلس الهستدروت، تم طرد الكتلة العمالية من تكوينه، وأعلن أن أنشطته "تعارض مع مصالح اليهود والطبقة العاملة في أرض إسرائيل" // نفس المرجع، ف. ٥٣٤. أوب ٧. وحدة الحفظ رقم ٤١٥ الصفحة ٦٨.

وحضر المؤتمر ٢٣ مندوبا من حيفا والقدس ويافا وعدد من المستوطنات الزراعية ونقابة عمال السكك الحديدية وبعض المصانع الكبرى. وكان هناك رفيق عربي بين المندوبين المشاركين في المؤتمر. وكل الـ ١٧ مندوبا في المؤتمر بما في ذلك العربي، كانوا أعضاء في الحزب الشيوعي الفلسطيني. وخلال في وصفها حالة الكتلة العمالية، أشارت وثائق المؤتمر إلى أنها "مجموعة ضئيلة من العمال الواعين طبقا بين العمال اليهود الشوفينيين والعمال العرب غير الواعين تماما" // نفس المصدر. ف. ٥٣٤. أوب ٧. وحدة الحفظ رقم ٤١٥. الورقة رقم ١.

=/=

الشيوعية الفلسطينية (KSMP) في فلسطين، الذي تم قبوله في يونيو ١٩٢٦ في صفوف اتحاد الشباب الشيوعي الأممي (KIM)^(١). وخلال ذلك بدا أنه تم بوضوح تحديد كل

في ذلك الوقت كان العدد الإجمالي لأعضاء الكتلة العمالية ١٥٠٠ شخص. // المرجع نفسه، الورقة المضافة رقم ٢. ولكن لاحقا في المستقبل، تذبذب عدد أعضاء الكتلة العمالية في نفس الحدود. وبحسب معطيات إيركل، أحد أعضاء قيادة البروف اينترين، الذي زار فلسطين عام ١٩٢٥، كان عدد مؤيديها بالكاد يصل في ذلك الوقت إلى ٢٠٠٠ شخص. في نفس العام، تراوح عدد أعضاء الهستدروت من ٢٠ إلى ٢٥ ألف شخص. // المرجع نفسه، ف. ٥٣٤، اوب. ٣. وحدة الحفظ رقم ١٣٥، صفحة رقم ١١٤. (١) عقد المؤتمر التأسيسي لاتحاد الشبيبة الشيوعي الثوري الفلسطيني في أبريل ١٩٢٤. //

“Information Bulletin of the Communist Party of Israël”, Tel-Aviv, 1974, N 12, P. 33-34.

في ذلك الوقت كانت هذه المنظمة الخاصة بالشباب اليهود، تنوي عقد مؤتمرها الأول في أكتوبر من نفس العام لمناقشة مسألة دخولها إلى اتحاد الشباب الأممي //

RTSKHIDNI، ف. ٥٣٣. اوب. ١٠. وحدة الحفظ رقم ٢٢٤٦ الصفحة رقم ٩. لكن مع ذلك، لم يعقد هذا المؤتمر حتى يونيو من العام التالي. وشارك فيه ٩ من المندوبين يمثلون ٤٠ عضوا من حركة الكومسومول الفلسطينية، الذي كانت منظمته في ذلك الوقت موجودة في يافا وحيفا (التي كانت في ذلك الوقت بالواقع من المدن العربية) والقدس. كان نصف أعضاء KSMP ممثلين من قبل العرب. تألفت منظمته في يافا من ١٢ شخصا، وفي حيفا - ١١ شخصا / المرجع نفسه، ف. ٥٣٣، اوب. ١٠ وحدة الحفظ رقم ٢٢٤٨، الصفحة رقم ١.

وأكدت وثائق المؤتمر الأول للكومسومول الفلسطيني أن هدف أعضائه هو "مساعدة الحزب الشيوعي في نضاله ضد النظام الرأسمالي القديم من أجل بناء مجتمع اشتراكي جديد".

تم تعريف مهام لاتحاد الشبيبة الشيوعي الثوري الفلسطيني على النحو التالي: النضال ضد الإمبريالية البريطانية، وفضح أمام الجماهير اليهودية الطابع البرجوازي الإمبريالي للصهيونية، وفضح الطابع "الخائن للحركة القومية العربية ذات الطابع الديني حاليا والمالية لملاك الأرض الإقطاعيين والأفنديين والرأسماليين"، وممارسة الدعاية الشفهية والمكتوبة للأمية البروليتارية ولأفكار الشيوعية ولشعارات الكومنترن // نفس المرجع، ف. ٥٣٣، اوب. ١٠ وحدة الحفظ ٢٢٤٧، صفحة رقم ٦.

=/=

اتجاهات نشاطات الحزب الشيوعي الفلسطيني والمنظمات التي يقودها.

هل كان ذلك كافيا؟ هل كان بمقدور الشيوعيين أن يصبخوا القوة التي من شأنها أن تغير اتجاه الحركة القومية العربية في فلسطين، وكذلك في الشرق الأوسط كله؟ وإلى أي مدى كانت توجد هناك هذه الحركة الموحدة على الصعيد الإقليمي؟ في عام ١٩٢٤، بالطبع كان هذا السؤال لا يزال مفتوحا.

لكن بقيت هناك أسئلة أخرى مفتوحة، من أهمها السؤال - هل يستطيع العرب أن يروا في الشيوعيين اليهود الذين وصلوا إلى فلسطين في إطار تدفق الهجرة المصبوغة بصبغة صهيونية واحدة بالنسبة لهم، الحلفاء والأصدقاء لهم؟ بالطبع، قدم الحزب نفسه

في أوائل أغسطس ١٩٢٦، أرسلت اللجنة التنفيذية لاتحاد الشباب الشيوعي الأممي رسالة إلى اللجنة المركزية للاتحاد الشيبي الشيوعي الثوري الفلسطيني تبلغها فيه أنه تم قبول الكمسومول الفلسطيني في الشباب الشيوعي الأممي بقرار من اللجنة التنفيذية لهذا الاتحاد الأممي في ١١ يونيو ١٩٢٦. وفي نفس الرسالة تم تحديد مهام اتحاد الشيبي الشيوعي الثوري الفلسطيني. ومن بينها: زيادة عدد أعضاء هذا الاتحاد على حساب الشباب العربي العامل، والدعاية المناهضة للإمبريالية بين الشباب العربي، وإقامة علاقات وثيقة مع حركة التحرر الوطني العربي، والانضمام إلى جميع المنظمات الوطنية للشباب العربي، والانتقال إلى الدعاية الشيوعية المباشرة فقط عندما "تكون هناك ثقة في أن عددا كبيرا من الشباب الوطني الثوري العربي يمكن أن يتحد حولها. وشددت الرسالة على أنه لكي يصبح اتحاد الشيبي الشيوعي الثوري الفلسطيني، منظمة جماهيرية، يجب عليه "الاعتماد على مجموعة واسعة من الشباب، وغالبيتهم في فلسطين تتكون من العرب". بالطبع، تم العرض على اتحاد الشيبي الشيوعي الثوري الفلسطيني، العمل بين الشباب اليهودي، وخاصة في منظمة الشباب في الهستدروت - هانوار شوفيد (الشباب العامل). وكان العمل هناك يهدف إلى محاربة "الشوفينية الصهيونية، ومكافحة البطالة بين الشباب، والعمل ضد سياسة تشجيع الهجرة اليهودية إلى فلسطين، وضد الاستعمار الإنجليزي، ومن أجل الأممية"، والمطالبة بقبول العمال العرب الشباب في صفوف منظمة الشباب العامل // نفس المرجع، ف. ٥٣٣، اوب. ٤. وحدة الحفظ رقم ٨٤، ص. ١٨٠-١٨٢.

لشركائه المحتملين.

في إحدى المنشورات الموجهة إليهم في ذلك الوقت ، قال الحزب الشيوعي الفلسطيني أن "الصهيونية والإمبريالية اندمجتا مع بعضهما البعض وهما الآن (شركة واحدة متحدة) تقود الحملات الهجومية والقتالية ضد الجماهير العربية المنتفضة"^(١).. لكن كل هذا لا يلغي يلغي السؤال عن الكيفية التي كان من المفترض أن تتطور فيها العلاقات بين الأعضاء اليهود والعرب في الحزب الشيوعي الموحد؟

لم يرد الكومنترن على أي من هذه الأسئلة. وطبعاً لم يستطع الرد عليها كذلك أنصاره الفلسطينيون ، الذين استسلموا لإملاءات الصيغ الجافة للتكتيكات والاستراتيجيات الشيوعية التي تمت صياغتها في موسكو. لكن كان لا يزال يتعين عليهم معرفة أن الكومنترن سيغير هذه الصيغ ، وسيتعين على أنصاره الفلسطينيين فقط الموافقة بطاعة على التغييرات المقترحة والاستماع إلى اتهاماته بأنهم أساءوا فهم محتوى تعليماته.

(١) منشورات الحزب الشيوعي الفلسطيني ، فبراير ١٩٢٤ // المرجع نفسه ، ف. ٤٩٥ ، اوب. ٨١ ، وحدة الحفظ رقم ٢٧ ، الصفحة رقم ١.

(٤) الشيوعيون الفلسطينيون

في النصف الثاني من العشرينات: محاولة خلق جبهة عمالية يهودية عربية دولية في فلسطين

وهكذا، بدأ قسم الكومنترن الذي تم إنشاؤه مجددا في فلسطين بمعالجة المهام التي حددتها أمامه اللجنة التنفيذية. كان من المفترض أن يضمن هذا القسم قبل كل شيء انتقال العمال والفلاحين العرب إلى النشاط الثوري بقيادة الشيوعيين، واعتماداً على إنجازاته في البيئة العربية الفلسطينية، أن يضع حدا لسواد المشاعر الصهيونية.

وكان يجب على الحزب الشيوعي الفلسطيني، تشكيل جبهة أممية موحدة تعمل تحت قيادته وتضم في صفوفها الشغيلة العرب واليهود، الذين يكافحون ليس من أجل تحقيق تطلعاتهم الخاصة بهم، بل من أجل تحقيق تحول جذري في العلاقات الاجتماعية والاقتصادية والنظام السياسي لفلسطين ومنطقة الشرق الأوسط بأكملها.

لقد كانت هذه مهمة شاقة وضخمة جدا تهدف لتقديس المثل والقيم "الاشتراكية العالمية". لكن على الفور، ظهرت أسئلة بسيطة. إلى أي مدى كانت طريقة إنجاز هذه المهمة التي اقترحها الكومنترن - إنشاء جبهة عمالية دولية في فلسطين - تلبي شروط ذلك البلد بالذات؟ هل كانت هذه الطريقة حقا أداة لتحقيق هدف اشتراكي عظيم، أم أنها كانت تستند إلى دوافع أكثر دنيوية؟ بالإضافة لذلك، قامت اللجنة التنفيذية وبشكل سريع بتغيير موقفها، وقامت بدلا عن فكرة "جبهة موحدة" بين الحزب الشيوعي الفلسطيني و "الحركة القومية العربية"، بطرح فكرة "جبهة عمالية دولية".

وفي خريف عام ١٩٢٤، طالبت اللجنة التنفيذية للكومنترن والمكتب التنفيذي لـ "بروف إينترن" في بيانهما المشترك الموجه إلى الشيوعيين والنقائيين الثوريين في جميع

البلدان ، بإقامة اتصالات مباشرة مع النقابات العمالية الأعمية الإصلاحية في أمستردام. كان الغرض من هذه الاتصالات هو إنشاء مركز نقابي موحد للعمال في جميع أنحاء العالم. وقد مر الطريق إلى إنشائها ، كما ورد في هذا البيان ، من خلال تكثيف العمل لصالح الوحدة على نطاق كل بلد. وفي البلدان حيث انقسمت الحركة العمالية المهنية ، طُلب من الشيوعيين والنقابيين الثوريين الشروع في إنشاء مراكز نقابية قومية متحدة مع الإصلاحيين ، التي ووفقا للبيان ، كان يجب أن يمر تشكيلها من خلال عقد "مؤتمر وحدة لعموم البلاد" ، والذي يشارك فيه ممثلو جميع الاتحادات النقابية النشطة في هذا البلد وفقا للأهمية والوزن الحقيقيين لهذه المنظمة المهنية أو تلك^(١).

وأنطلق البيان المذكور ، من أهمية وحدة عمل الكادحين في العالم بأسره كضمان لحل تطلعاتهم ومشاكلهم الملحة. لكن ، بالطبع ، لا يمكن إلا أن ينظر الكومنترن و بروف إينترن إلى تحقيق هذه الوحدة تحت قيادته على أنه عتبة الثورة المستقبلية لـ "البروليتاريا العالمية".

ومع ذلك ، كان سبب ظهور هذه الوثيقة هو مبادرة ممثلي عدد من النقابات العمالية البريطانية ، والتي تم التعبير عنها في عام ١٩٢٤ في إنشاء اللجنة الأنكلو- روسية كأداة حقيقية لتنسيق أعمال المنظمات النقابية الدولية التي تعتنق مفاهيم عقائدية مختلفة. ولكن في العاصمة السوفيتية ، تم تقييم إنشاء هذه اللجنة بطريقة أكثر براغماتية. وخلال ذلك تم النظر إلى وجودها على أنه شرط أساسي حقيقي لتحسين العلاقات بين

(١) من أجل وحدة الحركة النقابية العالمية. نداء من اللجنة التنفيذية للكومنترن والمكتب التنفيذي للبروف إينترن إلى الأحزاب الشيوعية والنقابات العمالية الثورية في العالم //

L'Internationale syndicale rouge, 1924, N 44- 45, P. 751-752.

الاتحاد السوفيتي وبريطانيا. وطبعا اعتقدوا في موسكو، أن الطريقة الأكثر ملاءمة لحل هذه المشكلة ذات الأهمية الأساسية لموسكو، كانت من خلال تشجيع المبادرة التي جاءت من صفوف المنظمات النقاوية الجماهيرية الحقيقية في بريطانيا.

كان يجب أن يتم دعم هذه المبادرات على مستوى العالم أيضاً. يمكن أن يصبح الكومنترن وبروف إينترن، بمثابة الأداة الفعالة لأنهما كانا مؤيدين في بلدان مختلفة من العالم ويمكنهما حشدهما لحل هذه المشكلة.

بالفعل في عام ١٩٢٤، كتب الأمين العام للجنة المركزية للشيوعيين الفلسطينيين ف. أفربوخ (أبوزيام) في "إنترناسيونالي سينديغالي روجيه": "إذا كانت الحركة النقاوية في البلدان الرأسمالية، ذات طابع اقتصادي في الأساس، فهي في البلدان المستعمرة وشبه المستعمرة تعمل كحركة ذات طبيعة وطنية - سياسية".

وبهذا الشكل، حسب اعتقاده، تبقى المهمة الرئيسية للنقابيين الثوريين العاملين في الشرق تكمن في تحويل المنظمات المهنية الموجودة هناك إلى منظمات من النوع الطبقي، وهو أمر لا يمكن تصوره دون طرد "العناصر الغربية عن الطبقة العاملة" من صفوفها.

وبعد ذلك شدد أفربوخ على أن الشغيلة في الشرق، "المفعمين بالأفكار السياسية - القومية"، ليس فقط لن يقبلوا "بالنقابات العمالية غير الكبيرة عددياً التي تتكون فقط من العمال الثوريين"، بل وبوجود النقابات العمالية نفسها، الذي لا يمكن تصوره دون انقسام المنظمات القائمة بالفعل على المستوى الوطني والسياسي الذي سيضر فقط بالحركة العمالية المحلية.

من هذا، يتم التوصل إلى استنتاج عقلائي - "يجب على العناصر الثورية أن تناضل في إطار المنظمات القومية الموجودة بالفعل وأن تسعى جاهدة من أجل الاستيلاء التدريجي على المناصب القيادية داخلها". كان هذا هو تكتيك الكتلة العمالية، الذي كان أفربوخ

نفسه في الأصل ينتمي لها.

بعد ذلك، قال كاتب المقال أنه يجب على النقابيين الثوريين في بلدان الشرق حيث يوجد عمال مهاجرون من أصل أوروبي، النضال من أجل إنشاء نقابات عمالية مختلطة. بالطبع، كان يعتقد أن العمال "الأوروبيين" في وضع متميز مقارنة بالعمال المحليين.

وانطلاقاً من ذلك، كانت مهمة النقابيين الثوريين هي النضال من أجل تحقيق المساواة في الأجور وظروف العمل الموحدة لممثلي كلا المجموعتين من السكان. في الحالة نفسها، إذا كانت العلاقات بين القوميات - وكان هذا هو الحال في فلسطين - تتميز بدرجة عالية من العداء المتبادل وتشكل عقبات طبيعية أمام إنشاء نقابات عمالية مختلطة، فمن الممكن تشكيل منظمات نقابية للعمال المحليين، للعمل بشكل مستقل عن النقابات المهنية "للعمال الأوروبيين". وإذا أصبحت النقابات العمالية لهؤلاء الآخرين منظمات طبقية حقاً، فإن خطر انخراط نقابات العمال المحليين في فلك الأنشطة القومية سيكون ضئيلاً للغاية: ستصبح نقابات العمال "الأوروبيين" مراكز جذب قوية للبروليتاريا القومية وستوقظ مستوى عالٍ من الوعي الطبقي فيها. وفي نهاية المطاف سيتم في بلدان الشرق "تشكيل حركة نقابية ثورية بحق تسود فيها روح الصراع الطبقي". وستحل محل النقابات المهنية "النخبوية" للعمال الأوروبيين التي تعمل تحت رعاية القوميين البرجوازيين⁽¹⁾.

في المقالة التي كتبها أفربوخ، كان من السهل قراءة ليس فقط التعليمات المحددة من جانب الكومنترن، والتي على أساسها كان ينوي بناء تكتيكات "جبهة العمل الأومية"، بل ومحاولة نقل هذه التعليمات إلى التربة الفلسطينية.

لقد شاهد قادة الحزب الشيوعي الفلسطيني والكتلة العمالية، على سبيل المثال،

(1) L'Internationale syndicale rouge, 1924, N 40, P. 359-362.

بيرغر (بارزيلاي)، في الهستدروت - المنظمة "القومية السياسية" الموجهة، والتي ليس فقط كانت تنفذ الوظائف النقابية، بل عملت، كمُدافع عن "المصالح السياسية للعامل اليهودي". بعبارة أخرى، "اضطلعت الهستدروت بدور منظمة نقابية من أجل منع ظهور نقابات طبقية حقيقية مبنية على أسس أممية في فلسطين"^(١).

ولكن الأهم، رغم ذلك كان يكمن في أمر آخر مغاير. في صفوفها كان هناك بالفعل أعضاء في الحركة العمالية "البروليتارية"، التي وبعد يوليو ١٩٢٤ باتت في غاية السرية^(٢) - الكتلة العمالية. لقد اعتبر هؤلاء أن مهمتهم تكمن في "إعادة تنظيم" (to bulit up) الهستدروت في "الاتحاد العام للنقابات العمالية الأممية الواعية طبقيا" (Class-conscious International Trade Unions).

ولاحقا في المستقبل، بات هدف أعضائها يكمن في "تنمية الوعي الطبقي في صفوف الطبقة العاملة الفلسطينية" و"الدعاية للتضامن العمالي الأممي" على أساس "التنوير الثقافي". وأعلنت الكتلة العمالية، بالتوافق التام مع برنامج بروف إينترن، عن نفسها "كمنظمة غير حزبية" - يمكن لأي عضو في الهستدروت "بغض النظر عن انتمائه الحزبي" أن يدخل إلى صفوفها. لكن كان عليه أن يعترف بمبادئها، والتي تتمثل في حقيقة أن "الصراع الطبقي هو شكل من أشكال الحركة النقابية الثورية العالمية"، وأن النقابات العمالية في أي بلد يجب أن تُبنى على أساس "الإقليمية"^(٣). حتى حلول سبتمبر عام

(١) بيرغر، غ، المرجع المذكور سابقا. ص ١٧-١٨.

(٢) رسالة إلى اللجنة التنفيذية للأممية الشيوعية من حيفا بتاريخ ١١ يوليو ١٩٢٤، ورد فيها أنه اعتبارا من ٤ يوليو من نفس العام بدأت الكتلة العملية بممارسة نشاطاتها بشكل سري // RTSKhIDNI، ف. ٤٩٥. اوب ٨١. وحدة الحفظ رقم ٢٨، ص ٣٤.

(3) Regulation of the "Worker's Fraction" (in the General Labor Association) // Ibid., I.3 .

١٩٢٣ ، قاطعت الكتلة العمالية ، الهستدروت وقامت بتشكيل منظمات عمالية مستقلة كان يجب عليها العمل تحت قيادتها ، لكنها لاحقاً اتخذت قرار حل وسط. وكان بمقدور أعضاء الحزب الشيوعي الفلسطيني ، الانضمام إلى الاتحاد العام والمنظمات التابعة له على أساس فردي^(١).

تحرك الشيوعيون الفلسطينيون للعمل بعد عام ١٩٢٤ ، معتقدين أن الهستدروت المتحولة فقط يمكن أن تصبح في نهاية المطاف مركز جذب للنقابات العربية الخارجة من دائرة نفوذ "الأفنديين".

بالطبع ، اعتمد تحول الهستدروت نفسه على مدى نجاح عمل الحزب الشيوعي الفلسطيني ، الهادف إلى خلق نقابات مهنية للعمال العرب موازية له ، وبالطبع تحت سيطرة الشيوعيين أنفسهم. لكن على ما يبدو ، لم يكن الشيوعيون يخشون هذا العمل ، وافترضوا مسبقاً أن هؤلاء العمال الذين يعانون من الجهل السياسي ومن التخلّف ويتعرضون للاضطهاد والاستغلال بوحشية ، سيقفون بسرعة تحت راية الأُمّية.

ومع ذلك ، كان يجب على الطبقة العاملة العربية الفلسطينية دخول الهستدروت ، ولو حتى بعد تحولها. ونتج عن ذلك أن أعضاء الحزب الشيوعي الفلسطيني ، كانوا يرون أنفسهم القوة "البروليتارية" التي ستجمع تحت قيادتها ، جماهير العمال والفلاحين من الشعب "غير المتطور" إيديولوجياً. من جانبه ، لم يقيم ف. أفربوخ بتحليل الحالة الخاصة لفلسطين ، بل حاول فهم المشاكل الأوسع للشرق ولم يكن من قبيل الصدفة بتاتا استخدامه لمصطلح "العمال الأوروبيين" في مقالته. ولكنه حتى هنا أيضاً ، اتبع بدقة وصرامة خط الكومنترن في تلك السنوات ، الذي كان يلبي المعتقدات الداخلية العميقة له

(١) نفس المصدر الصفحة رقم ١٠.

وللشيوعيين اليهود الآخرين في فلسطين، والذي افترض أن الثورة الاجتماعية في الشرق، بما في ذلك العرب الفلسطينيين، ستكون كنتيجة للعاصفة الثورية في الغرب. بالنسبة لفلسطين، كان اليسوف المتقدم اقتصاديا وعقائديا يمثل هذا الغرب. بدوره، أصبح الحزب الشيوعي الفلسطيني بمثابة "ذروة" تطور الحضارة الغربية. لكن مع ذلك، لك تكن الحقيقة تتلخص في ذلك فقط.

ويجب القول إن "غربية" الكومنترن هذه جلبت المعنى ليس فقط لوجود الحزب الشيوعي الفلسطيني، بل ولليسوف بشكل اجمالي. مما لا شك فيه أنه كان يجب على السكان اليهود التخلي عن "البناء القومي الصهيوني". لكن المؤسسات التي أنشأها بالفعل يمكن أن تلعب دورا تبشيريا في التحول الاشتراكي المستقبلي لفلسطين.

كان هذا كافيا لكي يتمكن الشيوعيون من العمل في الوسط اليهودي، خاصة وأن الحزب الشيوعي الفلسطيني، كان ملزما أن يستعرض دائما وبدون شروط رفضه التام للعقيدة والممارسات الصهيونية. وقد أدى هذا الرفض، الذي استخدمه خصومها السياسيون بنشاط، إلى خلق فجوة بينه وبين السكان اليهود في البلاد.

نشرت اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الفلسطيني في منتصف أبريل ١٩٢٥، في سياق زيارة اللورد بلفور لفلسطين، واحدة من أهم الوثائق الحزبية في تلك الحقبة. وكان ذلك ندائه للعمال الفلسطينيين "ضد الاحتلال الأنجلو-صهيوني لفلسطين"^(١).

وقال النداء، أن تحرير البلاد من نير البريطانيين، فقط وحده يلبي المصالح الأساسية لكل من العرب واليهود في فلسطين، أن بقاء الحكم الاستعماري يحمل في طياته خطر استنزاف القوى الديمقراطية لكلا المجتمعين الوطنيين، عندما "يتم تحريض جزء من السكان

(١) هنا ولاحقا اقتباس من: (International Press Correspondence, 1925, N 33, P 438-439).

ضد الآخر، وتنظم أعمال شغب واشتباكات مسلحة، ويتم إشعال المذابح والتدمير". لكن حرية فلسطين لا يمكن كسبها إلا نتيجة وحدة عمل الشغيلة من القوميتين. وأكد الشيوعيون أن "الحفنة البورجوازية الصهيونية المزرية"، التي ترتبط مصالحها ارتباطا وثيقا بالإمبريالية البريطانية، لا تعبر بأي حال من الأحوال عن آراء العمال اليهود، ورفضوا أي محاولات لرسم علامة المساواة بين "العمال اليهود الواعين طبقيا" (والحديث هنا يدور طبعاً عن الحزب الشيوعي الفلسطيني) و"عصابة من اللصوص الإمبرياليين المتعطشين للدماء". وكتب الشيوعيون الفلسطينيون: "يدرك الشعب اليهودي بشكل كامل أن خلاصه لا يمكن أن يتحقق باستعباد الآخرين، أيا كانوا، وهو بالتأكيد ليس على أساس الاحتلال الأنجلو-صهيوني لفلسطين".

قال الشيوعيون الفلسطينيون للعمال العرب أن مسار "التحريض الأعمى والتعصب لشعب ضد آخر" و"تنظيم المذابح اليهودية" لن يؤدي بأي حال من الأحوال إلى تحقيق التحرر الوطني، بل على العكس من ذلك، سيؤدي فقط إلى تعزيز الوجود الاستعماري. لا شك في أن تحرير العمال العرب ممكن، ولكن بشرط انتصار "ثورة كل المضطهدين على حكامهم".

وأضاف النداء: "يجب أن يتعاون العمال اليهود والعرب ويسيروا معا، وليس مع البرجوازية الصهيونية وليس مع الإقطاعيين المتعصبين ضد الفقراء. يجب أن يسيروا يدا بيد، على طريق التحالف الأخوي، وعلى طريق النضال المشترك ضد أعداء طبقتهم، تحت راية الحزب الشيوعي".

ولتحقيق ذلك، كما بدا للشيوعيين، تشكلت المقدمات الموضوعية في فلسطين، لأن الأزمة الاقتصادية العالمية في ذلك الوقت شملت هذا البلد كذلك، حيث وصلت البطالة إلى مستوى غير مسبوق نتيجة الهجرة من الخارج وعمليات الهجرة داخل البلاد وسط

التطور القبيح للعلاقات الرأسمالية في القطاع العربي من الاقتصاد وانخفاض قدرات الاستيعاب للمدن والبلدات اليهودية^(١). في ذات الوقت استغل رجال الأعمال اليهود الوضع الحالي، لشن الهجومات القوي ضد الهستدروت، وطرحوا كطرف معاكس له، القوى العاملة العربية غير المنظمة. واعتقد الحزب الشيوعي الفلسطيني أن هذا الظرف بالذات، يجب أن يساهم في تعاطف العمال اليهود مع دخول العرب إلى مركزهم النقابي^(٢).

في عام ١٩٢٤، قررت أكبر منظمة منتسبة للهستدروت، نقابة عمال السكك الحديدية، السماح للزملاء العرب بالانضمام إلى صفوفها. في الوقت نفسه، استمرت هذه

(١) حول ذلك انظر // غوجانسكي ت. المصدر نفسه الصفحة ١٩٥-٢٠٢.

(٢) تميز النصف الأول من العشرينيات في القرن العشرين بزيادة حادة في حركة الإضراب. على سبيل المثال كان هناك في عام ١٩١٩ إضراب واحد فقط في البلاد، شارك فيه ٤٠ عاملاً فقط، في حين تم تسجيل ٣٠ إضراباً خلال الأشهر الخمسة الأخيرة من عام ١٩٢٥، شارك فيها ١٣٣٤ عاملاً، وبلغ عدد أيام العمل الضائعة ١٨٨٩٣ يوماً // ابوزيام. مرحلة جديدة من الحركة النقابية في فلسطين // الحركة العمالية الدولية، إصدار عام ١٩٢٧، العدد ٤، ص ٧-٩. وبعد تعرضها للضغوط المتزايدة من جانب أعضائها اضطرت قيادة الهستدروت إلى فرض الإضرابات. وكتب بيرغر غ: "اضطرت قيادة الهستدروت للبدء في النضال الاقتصادي، بسبب هجومات الرأسماليين، وهو بدوره تحول تدريجياً... إلى صراع سياسي بين الحكومة والبروليتاريا" // غ. بيرغر نفس المصدر الصفحة ٢٦-٢٧.

في يوليو ١٩٢٧، في المؤتمر الثالث للهستدروت، قدم بن تسفي إلى مندوبيه مشروعاً لإنشاء اتحاد دولي للعمال في فلسطين على أساس قسمين قوميين، حيث يلعب الهستدروت دور اليهودي. وتم اعتماد المشروع من قبل المؤتمر // "الشرق والمستعمرات"، إصدار عام ١٩٢٧، العدد رقم ٢١-٢٢. الصفحة رقم ٢٤.

النقابة في تابعيتها للهستدروت^(١).

سيكون من المبالغة بالطبع الاعتقاد بأن هذا حدث بفضل جهود الشيوعيين. ولا شك أن هذا الوضع برز وتشكل من واقع الوضع الاقتصادي لفلسطين في ذلك الوقت. علاوة على ذلك، ظهور ووجود النقابة العمالية المختلطة، قد يكون مؤقّتا، وحددت وجوده ظروف الأزمة فقط. ولكن، حتى لو أصبحت أنشطته ظاهرة دائمة، فإن هذا لا يعني على الإطلاق رفض أعضائه اليهود تحقيق أهداف "البناء القومي".

طبعاً كان الشيوعيون الفلسطينيون، يرون الآماني بمثابة الواقع، ولكن خلف ذلك كانت توجد أسباب حقيقية، ومن بينها مشاركة أعضاء الحزب الشيوعي في تنظيم نقابات عمالية عربية مستقلة في يافا وحيفا، فضلاً عن نقابة عمال الإسمنت العربية الفلسطينية بالكامل^(٢).

في عام ١٩٢٦، وفقاً لأفربوخ، بلغ عدد العمال العرب في الهستدروت - ٤٠٠ عامل، وانضم أكثر من ١٥٠٠ إلى صفوف النقابات العربية المستقلة^(٣).

(١) في بداية يناير ١٩٢٤، عقدت هذه النقابة مؤتمرها، وجاء في قراراته أن "نقابة عمال السكك الحديدية لن تكون قادرة على تجاوز الصعوبات التي تواجهها إذا لم تحقق تنظيم جميع العاملين في هذه المهنة، بغض النظر عن جنسيتهم، وإذا لم تنشئ فروعها الخاصة بها في جميع أنحاء البلاد". في رسالته إلى قيادة الهستدروت، أشار المؤتمر إلى أن: "مؤتمر نقابة عمال السكك الحديدية يطالب من المؤتمر العام القادم للهستدروت بالانتقال إلى الأنشطة القائمة على مبادئ التنظيم الأممي. لأنه فقط على أساس هذه المبادئ يصبح من الممكن تكوين وإقامة مركز نقابي أممي حقيقي //

L'Internationale syndicale rouge, 1926, N71, P- 1113-1115.

(٢) الشريف.م. الشيوعية في المسألة القومية العربية في فلسطين. ص ١١٨.

(٣) أبوزيام اقتباس من نفس المصدر ص ٨.

وبحلول بداية عام ١٩٢٨ ، مارس أعضاء الكتلة العمالية نشاطاتهم في الغالبية العظمى من النقابات العمالية العربية ، حيث كان عدد أعضائها وأنصارها حوالي ٣٠٠ شخص^(١). وسمح الوضع المترتب مجددا للحزب بالتصدي للنزعة التي ظهرت في صفوفه سابقا والمتعلقة بمقاطعة الهستدروت (رغم أن الحديث دار في الواقع عن مقاطعة الهستدروت للشيوعيين ، ولم يكن موقفهم فيما يتعلق بالمركز النقابي اليهودي الفلسطيني سوى رد على تصرفاته)^(٢).

يجب القول إن إدانة الشيوعيين لمقاطعة الهستدروت ، والتي انعكست على وجه الخصوص في عدم انتخاب مؤيدي هذه الأعمال في يوليو ١٩٢٤ في قوام اللجنة المركزية الجديدة للحزب الشيوعي الفلسطيني^(٣) ، غيرت وضعهم إلى حد ما.

لقد نما الحزب ، ولو بشكل ضئيل ، من حيث العدد - وبحلول ١ فبراير ١٩٢٥ ، كان هناك ١٦٠ شخصا في صفوفه. ومارس هؤلاء نشاطهم في ثلاث عشرة خلية إحداها - في يافا (سبعة أشخاص) كانت للعرب. وأخيرا عمل ناد عمالي حزبي بشكل قانوني في حيفا. في انتخابات ديسمبر ١٩٢٥ لمجلس نواب اليشوف ، نال الحزب الشيوعي الفلسطيني ألف صوت من أصل ٣٣ ألفا شاركوا فيها. وأبلغ الشيوعيون اللجنة التنفيذية للأمم المتحدة ، عن "الانطباع الهائل" الذي أحدثه هذا الحدث على الرأي العام اليهودي

(١) الشرق والمستعمرات" ، إصدار عام ١٩٢٨ ، العدد رقم. ٥٥ الصفحة رقم. ٢٦.

(٢) في يوليو ١٩٢٤ ، في المؤتمر الدوري للحزب الشيوعي الفلسطيني ، تمت إدانة النزعات والميول إلى مقاطعة الهستدروت. وتم تأييد هذا القرار خلال المؤتمر الأول للكتلة العمالية //

RTSKHIDNI, f. 534, op. 7, item 415, l. 59 and l. 2 plug-in.

(٣) هنا ولاحقا: تقرير اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الفلسطيني (من وقت المؤتمر الأخير في يوليو ١٩٢٤ إلى ١ فبراير ١٩٢٥) // نفس المكان. ف. ٤٩٥. اب. ٨١. وحدة الحفظ ٣٣. ص ١٠-١.

الفلسطيني^(١).

في ٢١ أكتوبر ١٩٢٤ ، نشرت الصحيفة الأسبوعية "حيفا" الناطقة بالعربية والمقربة من الشيوعي الفلسطيني ، مقالة بعنوان "الشعور القومي ومعاداة القومية"^(٢) ، خصص لأحداث نقابة عمال السكك الحديدية. وأشارت المقالة إلى أن انضمام عمال السكك الحديدية العرب إلى النقابة التابعة للهستدروت أثار معارضة شديدة من من جانب القوميين العرب^(٣) ، الذين اعتبروا مثل هذا النوع من الأعمال "جريمة لا تُغتفر" ، وكذلك من جانب "القوميين الصهاينة" الذين اعتبروا موافقة العمال اليهود على تنظيم نقابة واحدة مع العرب "خيانة وتحدياً للأهداف القومية".

وهكذا ، "خرج الصهاينة والقوميين العرب كجبهة موحدة في النضال ضد الاتحاد والتضامن بين العمال ، وضد الدليل الحي على رغبتهم في إنشاء منظمة واحدة". بدورها أكدت المقالة ، أن الاتحاد الأممي لعمال السكك الحديدية كان "الخطوة الأولى"

(١) رسالة إلى اللجنة التنفيذية للأمية الشيوعية من فلسطين بتاريخ ١٥ يناير عام ١٩٢٦ // نفس المكان. ف. ٤٩٥. اوب ٨١. وحدة الحفظ ٤٦. الصفحة رقم ٣.

(٢) تمت إعادة طباعة هذا العدد من جريدة "حيفا" في // البديري م. (تطور الحركة العمالية العربية في فلسطين. مقدمة تاريخية ومجموعة الوثائق. ١٩١٩-١٩٤٨). بيروت ، ١٩٨١ ، ص. ٨١-٩٥.

(٣) أعربت الصحافة القومية العربية الفلسطينية في ذلك الوقت عن معارضتها المطلقة ورفضها التام لتصرفات الشيوعيين الهادفة إلى جذب العمال العرب إلى النقابات العمالية العاملة تحت قيادة الهستدروت. على سبيل المثال كتبت جريدة (الأردن) الصادرة في حيفا في أيار ١٩٢٥ في مقال تحت عنوان "أول أيار" : "يدعو بعض الذين تربوا في كنف الغرب إلى إنشاء نقابات عمالية مختلطة. يقوم بعض الحساد والغيورين بأموال مجهولة المصادر ، بدعوة العمال العرب للانضمام إلى النقابات العمالية الصهيونية. للعمال العرب مهمتهم الخاصة - إنشاء نقابات عمالية مستقلة ". // جريدة (الأردن) الصادرة في حيفا في ٦ أيار ١٩٢٥ .

على طريق المزيد من النجاح للطبقة العاملة الفلسطينية لأنه بفضل إنشائه "تحقق انتصار على أهم ... مبدأ للصهيونية وهو عزل العامل اليهودي عن باقي العمال. لقد تمكن العمال البسطاء من تدمير أسس هذا المبدأ. ولم تتحول النقابات إلى منظمات صهيونية، بل أصبحت اتحادا قويا للطبقة العاملة. لقد خلق وجودها الظروف لانتزاع الأفكار القومية من عقول جميع العمال والطبقة العاملة ككل". وكانت خاتمة كاتب المقالة بليغة للغاية: "الراية التي ستبهر للعمال طريق الحرية ليست راية الصهاينة الزرقاء والبيضاء وليست راية النبلاء العرب الخضراء - الحمراء، بل راية العمال الأمية الحمراء"^(١).

وظهرت لدى الشيوعيين كذلك آمال معينة فيما يتعلق بتطور الأحداث داخل الهستدروت، حيث نشأت حركة "المعارضة اليسارية" ممثلة بشكل أساسي من قبل أنصار بوغالي تسيون اليساري. وبات شعار "الهستدروت للجميع، للعمال اليهود والعرب، ولأعضاء جميع الأحزاب السياسية وممثلي جميع التيارات والأطياف السياسية" - شعار "المعارضة اليسارية" وتجسيدا لمزاج تلك الحقبة.

بالنسبة للشيوعيين، كان هذا الشعار مهما بشكل أساسي ومبدئي لأن وجهة نظر بوغالي تسيون اليساريين في الهستدروت اعتبرت هذه المنظمة كميدان للتعاون لجميع القوى السياسية في اليسوف دون أي تمييز، وافترضت استعادة عضوية الكتلة العمالية في صفوفه^(٢). لكن الحديث لم يكن يدور عن ذلك فقط.

(١) أبوزيام اقتباس من نفس المصدر ص ٨.

(٢) في سبتمبر ١٩٢٦، تم إرسال عريضة موقعة من ٢٥٠٠ شخص إلى اللجنة التنفيذية للهستدروت، تطالب بإعادة العضوية في المركز النقابي لأنصار الكتلة العمالية. وغني عن القول أن الموقعين على هذه الوثيقة كانوا قبل كل شيء غير شيوعيين // الشريف.م. الشيوعية في المسألة القومية العربية في فلسطين. ص ٢١٥.

لم يكن من الممكن اعتبار اليساريين من بوعالي تسيون كمجموعة حزبية غير كبيرة داخل صفوف الهستدروت. في المؤتمر الثالث للمركز النقابي الفلسطيني (عام ١٩٢٦)، تم تمثيل كتلة بوعالي تسيون بـ ١٣ مندوبا من أصل ٢٠١ مندوب^(١). وتحت قيادتهم كانت تقع النقابات المهنية لعمال البناء وعمال سكك حديدية وعمال المقالع الحجرية التابعة للهستدروت. وكان لهم نفوذ قوي في منظمة الشباب التابعة للهستدروت - الشباب العامل (Histadrut HaNoar HaOved). وتضمن البرنامج الحزبي لليسار في بوعالي تسيون، المطالبة بحرية الهجرة اليهودية إلى فلسطين، فضلا عن استثمار واسع في اقتصادها برأس المال اليهودي.

واعتبر بوعالي تسيون اليساريون أنه من الضروري إنشاء البروليتاريا اليهودية، لكنهم في الوقت نفسه رفضوا التعاون مع الصهاينة "البرجوازيين" والمشاركة في مؤسسات المنظمة الصهيونية العالمية. لقد رأوا أن هدفهم الأساسي هو إنشاء منظمة عمالية قوية في فلسطين، ذات طابع أممي خالية من تنفيذ الوظائف التعاونية وقادرة على وضع حد لتأثير "الأفندي الرجعي" على العمال العرب^(٢).

أعرب بوعالي تسيون اليساريون في فلسطين مرات كثيرة عن رغبتهم في الانضمام إلى الكومنترن، على الرغم من عدم موافقتهم على خطه السياسي في دعم الحركة القومية العربية الفلسطينية.

في منتصف العشرينات، وقف بوعالي تسيون اليساريون مع مواقف اللجنة الأنكلو-روسية وأعربوا عن تأييدهم للبروف إينترن في فلسطين^(٣).

(١) الشرق والمستعمرات"، إصدار عام ١٩٢٧، العدد رقم ٢١-٢٢ الصفحة رقم ٢٠.

(2) RTSKHIDNI, f. 534, op. 7, units ridge 415, l. 126-129.

(3) There, f. 534, op. 3, units ridge 60, l. 114.

كانت حقيقية وصادقة ولا جدال فيها ، مساعي الشيوعيين لرؤية في الحقائق الجديدة للحياة الفلسطينية كبداية لتغيرات عميقة مستقبلية ، لكن قدرتهم على التقييم الواقعي لما كان يحدث من حولهم كانت موضع شك.

في عام ١٩٢٥ ، انعقد المؤتمر السادس للحزب الشيوعي الفلسطيني ، الذي وضع أمام أعضائه ، مهمة تمت صياغتها في وثائقه كمهمة "نزع ورقة التين الديمقراطية من على جميع الجماعات الصهيونية وشرح للجماهير اليهودية والعربية أن :

أ) النظام الديمقراطي في البلد ممكن فقط من خلال رحيل السلطة الإمبريالية.

ب) لا يمكن تحقيق ذلك إلا من خلال النضال الثوري الحاسم لجميع طبقات السكان دون استثناء وبغض النظر عن الدين والجنسية ، الذين يهمهم إرساء الديمقراطية في البلاد

ج) يمكن للبلديات أن تخدم أغراض ديمقراطية البلاد فقط بقدر ما تحدد لنفسها مهمة تشكيل نقطة لتجميع كل العناصر الديمقراطية الثورية في البلاد". وتبلورت هذه المهمة من الاستنتاج الذي توصل إليه المندوبون في المؤتمر والمتلخص في أن حزب الشيوعي الفلسطيني بات "عاملا سياسيا يحسب له حساب من قبل كل الأوساط الاجتماعية والحكومة الإمبريالية"^(١). وطبعاً اتسم هذا البيان بطابع

تعتبر اللجنة التنفيذية للأمية الشيوعية أن موقف اليسار في بوعالي تسيون مهما للغاية ، وأشارت في عام ١٩٢٥ ، إلى أنه ظهرت " في منظمات الهستدروت حركة نحو التوحد. وهي تقف على منصة وحدة الحركة النقابية على النطاق الفلسطيني والدولي " // الأمية الشيوعية قبيل المؤتمر العالمي السادس. مراجعة لأنشطة اللجنة التنفيذية للأمية الشيوعية وأقسام الكومنترن بين المؤتمرين الخامس والسادس. إصدار عام ١٩٢٨ الصفحة رقم ٣٤٣.

(١) هنا ولاحقاً وثائق المؤتمر السادس للحزب الشيوعي الفلسطيني //

الجرأة الواضح.

لكن الشيوعيين ذهبوا أبعد من ذلك. وزعموا أن الصهيونية دخلت مرحلة "الإفلاس النهائي". وهذا، حسب رأيهم، يعني أن "تطور الأقلية اليهودية البالغة ١٦٪ في البلاد معرض للخطر إذا لم تحرر نفسها من نير الصهيونية والوصاية الإمبريالية". الصهيونية، كما تم التأكيد عليه في قرار خاص للمؤتمر، تتمتع بدعم "دائرة صغيرة فقط من المصرفيين وكبار التجار والمضاربين وشركات المساهمة الرأسمالية الكبيرة" التي يهتمها وجود "الحكومة الإمبريالية". وبدورها، "تعاني الجماهير العاملة، وسكان المستعمرات الصغار، والحرفيون، والتجار من نير الإمبريالية بنفس القدر الذي تعاني منه الطبقات المقابلة من السكان العرب".

وهذه طبقات من اليسوف بدأت "تدرك أن وجودها الحقيقي يعتمد على نجاح النضال الذي تخوضه القوى الديمقراطية الثورية، العربية واليهودية، ضد عدوها المشترك - الإمبريالية"، التي تستلهم من المثال السوفيتي الطرق لحل "المشكلة القومية"، بما في ذلك "مسألة جماهير اليهود".

وهكذا ظهرت في البلاد "قوى ثورية - ديمقراطية" عربية ويهودية. إذا كانت هذه القوة في البيئة اليهودية في فلسطين هي الحزب الشيوعي الفلسطيني، فمن كان يمثل الديمقراطية في الجزء العربي من السكان؟ كانت الاستنتاجات التي توصل إليها المؤتمر السادس في هذا الصدد مثيرة للفضول.

وأشارت وثائقه إلى أن "الحركة القومية العربية المحلية لم تنجح بعد في بلورة أيديولوجية ثورية سليمة وتحقيق الاندماج الداخلي وإنشاء تنظيمات ثورية وطنية قادرة

على القتال". لكن رغم ذلك تطلب الوضع في فلسطين وفي الدول العربية المجاورة (وخاصة في سوريا، حيث كانت تتطور حركة قوية مناهضة لفرنسا في ذلك الوقت) بأن تصبح الحركة القومية العربية "ديمقراطية - راديكالية"، يمكنها تلبية "متطلبات الجماهير العريضة من الفلاحين، والنشاط المتزايد للعمال و... المثقفين الراديكاليين".

من هذا المنطلق تم التوصل إلى استنتاج لا يترك مجالاً للشك: "أما أن تكون الحركة القومية العربية ديمقراطية، أو لن تكون موجودة أصلاً". بعبارة أخرى، أثبت الحزب الشيوعي الفلسطيني مرة أخرى أنه "القوة الديمقراطية الثورية" العربية. وهنا ليس من المهم على الإطلاق أن يشكل أفرادها من أصل يهودي وعربي أقلية ضئيلة داخل اليسوف، فما بالك عند الحديث عن المجتمع العربي في البلاد. ومن الواضح أن الحزب أن واثقا من أنه مع "غالبية اليهود" التي تقف خلفه سيكونون قادرين على إيجاد أشكال من "التعاون مع الحركة القومية العربية". وهذه الأشكال من التعاون كان معروفة مسبقا بالنسبة للحزب: "أ) مواصلة الاتصال بقيادة اليسار بهدف التأثير السياسي عليهم ؛ ب) تنظيم خلايا من الرفاق العرب في المنظمات الثورية الوطنية. ج) المطبوعات المشاركة والصحف الدورية ؛ د) الفعاليات العامة (الخطب والمناسبات)".

ولكن الحزب الشيوعي الفلسطيني قام كذلك بتحديد "العمل المشترك"، والذي وفقا له يتمثل في "الحفاظ على الملامح الذاتية وإمكانية النقد الحر". بعبارة أخرى، كان يجب على القوميين اليساريين أن يخضعوا لقيادة الشيوعيين.

في عام ١٩٢٥، زار فلسطين عضو المكتب التنفيذي الاتحاد النقابي الأممي الأحمر "بروف اينترين"، الشيوعي الفرنسي أوغست هيركول. كانت مهمته تكمن في تنظيم معارضة يسارية واسعة في الهستدروت، بما في ذلك الكتلة العمالية، على أساس برنامج اللجنة الأنكلو-روسية.

في فلسطين، بالتنسيق مع الحزب الشيوعي الفلسطيني والكتلة العمالية، أجرى هذا الشيوعي الفرنسي اتصالات مع قادة اليسار في بوغالي تسيون، وتحت قيادته، عقدت مفاوضات بين وفود الكتلة العمالية واليسار في بوغالي تسيون، بهدف إنشاء قسم فلسطين في "بروف اينترن"، يشمل كلا الجانبين.

بالطبع، استندت هذه المفاوضات إلى مسودة الاتفاقية، التي تمت صياغتها مسبقاً من قبل ممثل بروف اينترن، وكذلك كما أفاد ف. افريوخ وي. بيرغر تشكل الانطباع بأن هاتين المجموعتين الحزبيتين استمرتتا في التنافس^(١).

كان الأمر يتعلق بشروط العضوية في القسم المشترك المستقبلي الذي يفترض دخول أي عامل - عضو في النقابة، بغض النظر عن انتمائه القومي أو الحزبي أو الديني. كل ما كان مطلوباً منه هو الاعتراف بضرورة خوض الصراع الطبقي، وكذلك النضال ضد الرأسمالية والإمبريالية وفقاً لتكتيكات بروف اينترن.

وكان يجب على العضو في القسم المقبل أن يكشف عن الاتجاهات الإصلاحية في صفوف الطبقة العاملة، ويخضع للانضباط المحدد من جانب بروف اينترن، وقرارات مؤتمراته. كان من المفترض أن يتحول جميع النشطاء النقابيين - والحديث هنا يدور عن أعضاء الكتلة العمالية، تلقائياً إلى أعضاء في القسم، بغض النظر عن نجاح النضال من أجل العودة إلى صفوف الهستدروت.

وكان يجب على القسم الموحد في بروف اينترن، أن يكافح من أجل تحويل الهستدروت إلى "منظمة طبقية مهنية".

وقد افترض ذلك تحول المنظمات الأعضاء فيها إلى هياكل أممية، وكذلك إلغاء

(١) نفس المصدر. ف. ٥٣٤، اوب. ٣، وحدة الحفظ رقم ١٣٥ الصفحة رقم ١١٥.

الوظائف التعاونية الموكلة إلى الهستدروت. نص مشروع الاتفاقية على منح قدر كبير من الذاتية للنقابات العمالية المنتمية إلى الهستدروت، بما في ذلك تسجيل أعضائها، وإعداد الميزانيات وانتخاب القيادة، وإنشاء صناديق الإضراب الخاصة بهم. ونصت مسودة الاتفاق بين الكتلة العمالية اليسار في بوغالي تسيون، على أن القسم المستقبلي في بروف اينترن، في فلسطين سيعارض أي محاولات لاستخدام أعضاء النقابات كأداة لـ "السياسة والدعاية الصهيونية". وتم تسليط الضوء على أهمية إنشاء النقابات العربية ودخولها إلى الهستدروت، والذي كان يجب أن يغير اسمه ويصبح "الاتحاد العام لعمال فلسطين".

وكان من المفترض أن ينسحب الهستدروت، الذي تحول إلى ساحة تفاعل لجميع التيارات السياسية في البلاد، من أي "مؤسسات قومية صهيونية". وتم التشديد على أن تعاونه مع "البرجوازية الصهيونية" غير مقبول.

وفي مسودة الاتفاق الاتفاقية التي أعدها أوغست هيركول بمشاركة قيادة الحزب الشيوعي الفلسطيني والكتلة العمالية، تم إعطاء مكان خاص لموضوع الهجرة إلى فلسطين. وتضمنت الفقرة المخصصة لذلك ما يلي: سوف يدعم القسم المستقبلي من بروف اينترن، فكرة الحرية الكاملة للهجرة، ويعارض طرد سلطات البلاد للعمال الذين لديهم آراء سياسية غير مرغوب فيها، وسيساعد المهاجرين خلال اصطدامهم مع البيروقراطية البريطانية واليهودية والعربية، سيطلب بتقديم المساعدة لهم من جانب مجالس البلديات والهيئات الحكومية.

وفي الوقت نفسه، تضمنت الفقرة نفسها أحكاماً بشأن ضرورة إطلاع الراغبين في الهجرة إلى فلسطين على حالة سوق العمل في هذا البلد، ونشر بينهم مبادئ النضال الطبقي والمشاركة في الحركة العمالية في دول إقامتهم. وهنا تم التأكيد على الرفض القاطع لما سيعتبره البعض أن المهمة الرئيسية للقسم المستقبلي - هي تشجيع الهجرة إلى فلسطين

أو الهجرة منها.

اعتقد مؤلفو المشروع أن أي طرح مغاير لهذا الموضوع، من شأنه أن يخلق الوهم بأنه بمساعدة عمليات الهجرة سيكون من الممكن حل مشاكل الطبقة العاملة بشكل أساسي، أو أن هذه العمليات مماثلة للصراع الطبقي من جانب البروليتاريا^(١).

في المفاوضات قدم اليساريون في بوعالي تسيون برنامجهم الخاص للعمل المشترك المستقبلي. وهذا البرنامج في العديد من معايير، كان مختلفا بشكل كبير عن مشروع أوغست هيركول والشيوعيين. وانطلقت هذه المنصة من افتراض أن القسم المستقبلي سوف يلتزم بمبادئ بروف اينترن، ومن خلاله سيتم تنفيذ أنشطة الاتحاد الأممي الأحمر للنقابات في فلسطين. سينظر القسم إلى الهستدروت على أنه مكان تتركز فيه الحركة النقابية بأكملها في البلاد، وهو سيضم العمال العرب واليهود. وسيصبح الهستدروت أداة لمعارضة السلطات "البرجوازية الإمبريالية" لدولة الانتداب، وكذلك للعمل ضد كل مجموعات الملاك والبرجوازيين العرب واليهود.

يهدف عمل القسم في الهستدروت إلى تحويل المركز النقابي والمنظمات التابعة له إلى منظمات طبقية ثورية للبروليتاريا، تعارض بحزم الانتهازية في الحركة العمالية، وتعارض سياسة الاضطهاد والإقصاء لأسباب سياسية، ومن أجل وحدة الحركة النقابية العالمية.

كان على الهستدروت والنقابات المنتسبة إليه أن تصبح منظمات احمية تناضل من أجل المصالح الاقتصادية للبروليتاريا، ومن خلال هذا النضال، تقودها إلى فكرة التحرر الاجتماعي. لهذا أن من المفترض أن يتحرر الهستدروت من الوظائف التعاونية التي تؤديها. وبعد إنشاء القسم الموحد، كما هو مذكور في المنصة، لم يعد من الممكن اعتبار

(١) نفس المصدر. ف. ٥٣٤، اوب. ٧، وحدة الحفظ رقم ٤١٥ الصفحة رقم ٦٩-٧١.

الكتلة العمالية كجزء من بروف اينترن، في فلسطين.

تضمنت النقطة المتعلقة بالهجرة إلى فلسطين في برنامج بوعالي تسيون، بعض البنود التي تنص على أن القسم المستقبلي من بروف اينترن، كان معنيا بتقوية وتنامي الحركة العمالية والطبقة العاملة، التي من بين شروطها المهمة كان هجرة العمال اليهود. ولتشجيعها، كما هو مذكور في الوثيقة، سيقم القسم روابط مع منظمات العمال اليهود الأجانب التي تعمل في اتجاه تسهيل إعادة توطين اليهود ونقلهم إلى فلسطين، وكذلك الدعوة بقوة إلى تنفيذ مبدأ حرية الهجرة اليهودية.

وفي المنصة تمت الإشارة إلى أن نطاق القسم المستقبلي هو النقابات العمالية والنشاطات النقابية. وهنا يعمل كلا الجانبين - اليسار في بوعالي تسيون والكتلة العمالية - كجبهة موحدة.

لكن كان على كل من أعضاء القسم، كما افترض أنصار بوعالي تسيون اليساريين، التحدث بشكل مستقل في مؤتمرات الهستدروت وهيئاتها الأخرى، التي لم تكن مرتبطة بأنشطة نقابية بحتة^(١).

هذان البندان الأخيران لمنصة بوعالي تسيون اليسارية، اللذان تم تقديمهما للنظر لم يكن لهما إلا أن يثيرا امتعاض واعتراض الحزب الشيوعي الفلسطيني والكتلة العمالية. كان هدف أوغست هيركول ورفاقه الفلسطينيين، هو حل موضوع تعزيز قوة وتأثير الشيوعيين في الحركة العمالية في هذا البلد. في الوقت نفسه، تم اختيار طريقة متميزة تماما لتحقيق هذا الهدف.

في الواقع، كان الحديث يدور من حيث الجوهر عن كيفية تفتيت المنظمة السياسية

(١) نفس المصدر. ف. ٥٣٤، اوب. ٧، وحدة الحفظ رقم ٤١٧ الصفحة رقم ٨٠ - ٨١.

التي تعمل فعليا في البلاد ، وإجبار المشاركين فيها على أن يصبحوا أعضاء في قسم بروف اينترن ، بقيادة الشيوعيين. وطبعا شعر اليساريون في بوغالي تسيون بخخطر مثل هذا التحول في الأحداث ، لذلك أصروا على حدود محددة للتعاون مع الكتلة العمالية ورفضوا قيادة بروف اينترن بشكل غير المشروط ، واعتبار هذه المجموعة الصغيرة قسما خاصا بها ، إذا تكللت المفاوضات التي أجراها أوغست هيركول بالنجاح.

وكان من الصعب تصور نجاح المهمة الهادفة إلى تحقيق وحدة النقابات العمالية الفلسطينية والحركة العمالية مع الحفاظ على وجهات النظر السلبية من جانب الشيوعيين تجاه العمليات التي تتطور في فلسطين.

في وقت لاحق ، أشار اليسار في بوغالي تسيون في مذكرة أرسلت إلى اللجنة التنفيذية وهيئة رئاسة المؤتمر الخامس للكونغرس إلى أن الكتلة العمالية كانت تناضل من أجل انسحاب بعض النقابات العمالية (التي تعمل على أساس اممي) من الهستدروت. وفي المذكرة تم التأكيد على أنها كانت تنفذ خط "جبهة موحدة مع حركة المائة السوداء" للعرب الفلسطينيين ، وتميزت بـ "اليديشية المتشددة".

وتابعت المذكرة القول إن كل هذا سد الطريق أمامها - بمعنى آخر للشيوعيين - لفرض تأثير واسع على العمال اليهود^(١). وطبعا تكلم بهذا الشكل كذلك المنافس السياسي للحزب الشيوعي الفلسطيني والكتلة العمالية ، الذي سعى لنيل عضوية الكونغرسين والبروف اينترن ، ولإبعاد الحزب الشيوعي الفلسطيني جانبا.

وخلال ذلك اعتقد اليسار في بوغالي تسيون ، أن الوضع الفلسطيني منذ المؤتمر الثاني للأمية الشيوعية قد مر بتحول كبير ، وهو ما كان ينبغي أن تأخذه اللجنة التنفيذية

(١) نفس المصدر. ف. ٥٣٤، اوب. ٧، وحدة الحفظ رقم ٤١٥ الصفحة رقم ١٢٥ - ١٢٦.

للأمية الشيوعية في الاعتبار. ومع ذلك، كان هناك الكثير من الحقيقة في كلماتهم. انتهج الحزب الشيوعي الفلسطيني والكتلة العمالية سياسة مباشرة، غير مفهومة من قبل السكان اليهود في فلسطين، حيث تم تقييم الحركة القومية العربية الفلسطينية على أنها "تقدمية". وهما لم يقبلا بشكل قاطع اللغة العبرية، التي وبغض النظر عن أشكال تطبيقها، أصبحت لغة اليشوف، وبالطبع العمال اليهود.

بالطبع، تم استبدال شعار الحفاظ على وحدة الحركة العمالية الفلسطينية بممارسة إنشاء نقابات عمالية موازية للهستدروت. ربما كان مسار الشيوعيين في إنشاء نقابات عمالية عربية، أفضل تأكيد على ذلك.

أنشأ الشيوعيون الأكثر نشاطاً نقابات عمالية عربية في أكبر مدينة وميناء فلسطيني حيث يقيم عدد كبير من السكان العرب - حيفا. وعادة كان يتم التعاون بين الحزب الشيوعي الفلسطيني وهذه النقابات العمالية على أساس الشروط السياسية: النضال من أجل حرية فلسطين وضد الانتداب البريطاني، والنضال من أجل إلغاء وعد بلفور وضد السياسة المعادية للعرب من جانب السلطات الاستعمارية والصهاينة.

وغني عن القول، أنه حتى مع راديكالية الشيوعيين، مثلت مثل هذه الشروط تنازلاً بالغ الجدية من جانبهم. على ما يبدو، تم وإلى حد كبير فرض هذه الشروط عليهم من جانب حلفائهم - العمال العرب^(١). وكما بدا لهم من أجل توسيع نفوذهم في البيئة العربية الفلسطينية، كان عليهم الاتفاق معهم.

ولكن اليساريين في بوعالي تسيون، الذين كان يُنظر إليهم على أنهم حلفاء محتملون للشيوعيين، لم يكونوا راضين بأي حال من الأحوال عن شروط التعاون مع النقابات

(١) بيرغر. غ. اقتباس من المصدر السابق الصفحة رقم ١٩.

العمالية العربية.

تحدد النمو العددي الحقيقي لأعضاء الكتلة العمالية من خلال انضمام العاطلين عن العمل إلى صفوفها، الذين كانت قيادتها تنوي "تفعلهم وإحداث ثورة ضمنهم". في الوقت نفسه، خلال انتخابات الهيئات الإدارية لل نقابات العمالية التي انضمت إلى الهستدروت كانت متواضعة جدا النجاحات التي حققتها الكتلة العمالية، التي لم يكن بإمكان مرشحها سوى العمل "كمستقلين". وقد اظهرت ذلك نتائج الحملات الانتخابية في ١٩٢٥-١٩٢٧ في القدس ويافا وحيفا والمستعمرات الزراعية اليهودية^(١).

وكذلك لا داعي للتذكير بأن مسألة الهجرة اليهودية إلى فلسطين كانت تطرح بطريقة مختلفة اختلافا جذريا من قبل ممثلي البروف اينترن والكتلة العمالية من جهة، واليسار في بوعالي تسيون من جهة أخرى. وتبين في الواقع أن مرونة موقف الطرف الأول، التي نبعت من فقرة مسودة الاتفاقية المكرسة لهذه القضية، قد بدت ظاهرة - فالصيغ الأخيرة لهذه الفقرة شطبت بدايتها تماماً.

في المقابل، لم يكن من الممكن أن يقبل البروف اينترن وجهة نظر اليسار في بوعالي تسيون بشأن الهجرة اليهودية إلى فلسطين، لأن موقف البروف اينترن بشأن هذه القضية كان بالطبع، مماثلا لموقف الكومنترن.

لذلك، في بداية عملية إقامة علاقات مع القوة في فلسطين، التي كان يمكن أن تصبح شريكا حقيقيا للكتلة العمالية في إطار الشبيه المحلي للجنة الأنجلو روسية، نشأت بينهما تناقضات لا يمكن التغلب عليها.

وخلال ذلك كان السبب الجذري لهذه التناقضات يكمن، بلا شك، في المبادئ التي

(1) 110 RTSKHIDNI, f. 534, op. 7, units ridge 417, l. 74-78 .

حددها الكومنترن لمؤيده ، وليس في تكتيكات الحزب الشيوعي أو الكتلة العمالية اللذين أنشأهما. ولكن لقد ساهم كلاهما في خلق التناقضات بينهما وبين اليساريين في بوعالي تسيون.

ومن المعروف أن هيركول كان يتواجد في فلسطين بشكل غير قانوني. خلال الأسبوعين اللذين أمضاهما هناك ، بالطبع ، لم يتمكن من التعرف بالتفصيل على الوضع في الحركة النقاوية الفلسطينية ، وبطبيعة الحال ، حكم على تأثير الكتلة العمالية وحزب الشيوعي الفلسطيني ، والوضع في الهستدروت والنقابات العربية على أساس اراء الفلسطينيين الذين يشاركونه في وجهات النظر ، وهم طبعاً لم يكونوا محايدين. عند دخولهم المفاوضات ، قال الشيوعيون ، الذين دخلوا المفاوضات ، لهيركول أن اليسار في بوعالي تسيون كان يسعى فقط "للحصول على موافقة البروف اينترن على الصهيونية وفي نفس الوقت تخريب جهود ونشاطات هذه المنظمة قدر الإمكان". وكانوا فعلاً على حق - لأن اليسار في بوعالي تسيون لم يكن بتاتا بمثابة المنفذ الصامت لتوجيهات المكتب التنفيذي للبروف اينترن وكان يسترشد في نشاط في المقام الأول ، بموضوع محدد وهو - حل المشاكل القومية لشعبه. والشيوعيون فقط اعتقدوا أن البرنامج الذي طرحوه في خلال المفاوضات كان "مجرداً"^(١).

كان اليسار في عالي تسيون منظمة تعمل فعليا ضمن اليسوف. لقد تم طرد الحزب الشيوعي والكتلة العمالية من هناك ، لذلك حاولا منع فقدان دعم قيادتهما "العليا" ، لفكرة "الأمية البروليتارية" المجردة المعنى.

لكن رد فعل هيركول على وجهة نظر اليسار في بوعالي تسيون لم يكن أقل تحيزاً.

(١) نفس المكان. ف.٥٣٤. اوب.٧ ، وحدة الحفظ ٤١٧ ، ص ٨٧.

وبعد عودته إلى موسكو، قال في التقرير الذي قدمه، أن "بوعالي تسيون اليساري" يسعى لإجراء اتصالات مع البروف اينترن ويدعو إلى وحدة الحركة العمالية الفلسطينية من أجل "خداع الطبقة العاملة".

لقد رفض هيركول بشكل قاطع إمكانية التوصل إلى حل وسط للقضايا التي أثارها بوعالي تسيون (وكان هذا مستحيلا حقا). وشدد هيركول على أن مسودة الاتفاقية التي اقترحها بين الكتبة العمالية اليساريين في بوعالي تسيون هي "المنصة الوحيدة لبروف اينترن في فلسطين".

في نفس التقرير، أفاد هيركول بأنه قال لشركائه أثناء المفاوضات: "لقد تجنبتم بكل طريقة ممكنة أن تصبحوا من أعضاء بروف اينترن، أثبتتم بوضوح أنكم ... تسعون فقط للحصول على اسم لبروف اينترن، وليس لتنفيذ توجيهاته. أنتم تسعون لاستخدام اسم بروف اينترن لمحاربة أتباعه الحقيقيين - الكتلة العمالية؛ وتهدف إلى ذلك دعوتكم بشأن قوائم المرشحين المنفصلة لانتخابات مؤسسات الهستدروت؛ وإلى ذلك يهدف اقتراحكم حول تحويل المعارضة الموالية لبروف اينترن إلى مكتب لتجنيد العمال لصالح الرأسماليين اليهود. ... يبدو واضحا أن اليساريين في بوعالي تسيون، ليسوا أفضل من الإصلاحيين الآخرين من جميع الفئات"^(١).

لقد رجع هيركول من فلسطين مقتنعا أن الهستدروت والحركة العمالية اليهودية لا يمثلان الساحة الحقيقية لنشاط أنصار الكتلة العمالية. وكان يعتقد أن الآفاق الواسعة لمؤيدي بروف اينترن موجودة فقط بين العمال العرب الذين عملوا كـ "معارضين للإصلاحيين الاشتراكيين الصهيونيين". وهكذا أصبح تنظيم العمال العرب والنضال من

(١) نفس المكان. ف. ٥٣٤. اوب. ٧، وحدة الحفظ ٤١٧، ص ٨٨.

أجل ضمهم إلى الهستدروت عنصرا من عناصر "التثوير"^(١).

كان ذلك بمثابة الحكم القاسي الذي لا هوادة فيه! وفي النداء الذي صدر عن بروف اينترن والكتلة العمالية - "نداء لجميع عمال فلسطين. إلى أعضاء حزب بوعالي تسيون"، تم التأكيد على أن الكتلة العمالية هي الممثل الوحيد للنقابات الأمية الحمراء في فلسطين^(٢). لكنها بقيت قليلة العدد، وكمجموعة ضعيفة للغاية من النقايبين المناهضين للصهيونية^(٣).

ووفقا لهيركول، بعد وقف المفاوضات حول إنشاء كتلة موحدة من البروف اينترن في فلسطين "لاستحالة وجود الأفضل"، جرت محاولة لإنشاء "لجنة الوحدة"، تضم ممثلين عن اليسار في بوعالي تسيون والكتلة العمالية. كان القصد من إنشاء "لجنة الوحدة"، التي تحولت وقت إنشائها، في مايو ١٩٢٦، إلى حركة للتوحيد "إيهود"، أن تصبح أداة لتحقيق وحدة الحركة النقابية الفلسطينية على أساس برنامج منصة اللجنة الأنكلو-روسية^(٤).

لكن هل كان بمقدور هذه الحركة أن تصبح قادرة على الحياة؟

لقد شاركت في حركة إيهود النقابات المنضمة لليسار في بوعالي تسيون، وكذلك النوادي العمالية التي أنشأتها الكتلة العمالية في يافا وحيفا والعفولة وبيتاح تكفا، والتي وُحِّدَتْ، أولا وقبل كل شيء، اليهود والعرب العاطلين عن العمل.

(١) نفس المكان. ف.٥٣٤. اوب.٧، وحدة الحفظ ٤١٧، ص ١١٤-١١٧.

(٢) نفس المكان. ف.٥٣٤. اوب.٧، وحدة الحفظ ١٣٥، ص ١١٦.

(٣) في المؤتمر الثالث للهستدروت (١٩٢٧)، تم تمثيل الكتلة العمالية كفصيل يساري، بثمانية مندوبين. في الوقت نفسه، كان عدد مندوبي اهدوت هافود ٩٧ شخصا وعدد مندوبي هبوعيل هتسير - ٥٣، وعدد مندوبي بوعالي تسيون - ١٣، وحركة الكيبوتسات ٨ اشخاص // "الشرق والمستعمرات"، إصدار عام ١٩٢٧ العدد رقم ٢١ الصفحة ٢٠.

(4) Correspondances Internationales, 1926, N 107, P. 1184 .

بالطبع لم ينظر اليسار في بوعالي تسيون، إلى حركة إيهود كمنظمة موازية للهستدروت، لكن النزعة إلى وضع المنظمين في حالة التضاد، كان واضحاً بشكل متزايد في موقف حزب الشيوعي الفلسطيني.

في عام ١٩٢٦، تم عقد مؤتمرين إقليميين في يافا وحيفا في البداية، ثم في حيفا، في الفترة من ١٧ إلى ١٩ ديسمبر من العام نفسه، انعقد المؤتمر الفلسطيني لحركة إيهود. وكان المشاركون فيه وعددهم ٩٣ مندوباً (من بينهم ٢٠ عربياً) يمثلون ما يقرب من ١٦٠٠ عامل فلسطيني^(١).

وهناك جرى حديث هام للغاية. وجرى الحديث عن مشاكل توسيع نشاط الحركة في الوسط العربي، بين الشباب العمالي، واجتذاب النساء العاملات إلى الحركة النقابية. وكان أهم موضوع على جدول أعمال المؤتمر هو موضوع توحيد جميع المنظمات المهنية العاملة في البلاد في إطار مركز نقابي اممي واحد.

تم شطب الشيوعيين وحزب الشيوعي الفلسطيني من صفوف الهستدروت، ولكن

(١) نفس المصدر. ف. ٥٣٤. أوب ٧. وحدة الحفظ ٤١٦، ص ١٠٠.

تم الاستشهاد بنفس الأرقام من جانب ف. افيريوخ // ابوزيام مقتبس من نفس المصدر ص رقم ٩. في نفس الوقت، ورد في مراسلات مجهولة المصدر من فلسطين، "المؤتمر الأول لحركة الوحدة"، أن ٨٠ مندوباً حضروا المؤتمر // "الحركة العمالية الدولية" إصدار عام ١٩٢٧ رقم ١٠ الصفحة رقم ١٨. وكتبت أكبر صحيفة عربية في فلسطين واسمها "فلسطين"، عن المؤتمر: "حضر المؤتمر ٨٥ مندوباً، عشرين منهم من العرب، والباقي من اليهود. ووصل المندوبون من القدس واللد وحيفا، وقلقيلية ويافا وتل أبيب. وكان بينهم من يمثل العمال العرب غير البالغين. كان هناك ما بين ٥٠٠ إلى ٦٠٠ متفرج في قاعة المؤتمرات طوال الوقت، ولم تستطع القاعة استيعاب المزيد. كان هناك حوالي ٢٠٠ شخص بالخارج في جميع الأوقات. ولوحظ وجود نحو ٢٠٠ من العاملات في القاعة بعضهن من مندوبي المؤتمر. // البديري م، المرجع السابق. الصفحة ١٣٤-١٣٥.

تحت قيادتهما عملت بعض النقابات العربية، وبفضل اليساريين في بوعالي تسيون، تمكنوا من العمل في الاتحادات العمالية المختلطة. وأكدت قرارات المؤتمر أن حركة إيهود تهدف إلى تحقيق إعادة تنظيم الهستدروت وتحويله إلى "اتحاد نقابي قومي مشترك" و"استعادة" إلى صفوفه لجميع النقيبين الذين سبق استبعادهم منه "لقناعات سياسية". وكان يجب أن تطرح هذين الموضوعين كتلة يسار بوعالي تسيون في صيف عام ١٩٢٧ لمناقشته في المؤتمر الثالث للهستدروت.

وردا على برقية ترحيب من المكتب التنفيذي للبروف اينترن إلى المؤتمر، أعرب المشاركون فيه عن ثقتهم في أن المؤتمر الشامل لحركة إيهود الفلسطيني "أول مؤتمر موحد للحركة النقابية في فلسطين" سيشكل خطوة نحو خلق "حركة نقابية قوية وموحدة" في البلاد^(١).

خلال مؤتمر حركة إيهود تم اعتماد نداء "إلى جميع عمال فلسطين"^(٢). وأشار إلى أنه لأول مرة في تاريخ الحركة العمالية الفلسطينية، تم عقد مؤتمر شارك فيه ممثلون عن العمال

(١) أول مؤتمر لحركة الوحدة، الصفحة ١٧-١٩.

شدت البرقية المرسلة إلى المشاركين في المؤتمر من المكتب التنفيذي للبروف اينترن على أهمية فضح "السياسة المناقطة لقادة الهستدروت، الذين دعوا بالكلمات فقط إلى إنشاء مركز نقابي اممي"، وكذلك ضرورة فضح موقف القادة القوميين العرب "الذين عارضوا التضامن الطبقي للعمال العرب واليهود". واعتقد المكتب التنفيذي أن المؤتمر الأول لحركة إيهود سيصبح "أساس حركة نقابية ثورية جماهيرية، وهو سيعقد تحت شعار وحدة الحركة النقابية العالمية وكذلك وحدة حركة النقابات العمالية في فلسطين".

// RTSKHIDNI, f. 534, op. 6, units ridge 113, l. 29-30.

(٢) اقتباس من عمل الشريف م. الأمية الشيوعية في فلسطين. ص ٢٠٦.

العرب واليهود. ومن هذا المنطلق، تم الاستنتاج أن "واجب الطبقة العاملة ليس فقط الدفاع عن المطالب التي حققتها بالفعل، بل والمضي قدما لتحقيق المطالب الجديدة للعمال".

بعد ذلك تضمن النداء تحليلا لظروف عمل العمال الفلسطينيين وخلص إلى أنه لا يمكن تحسينها إلا من خلال إنشاء "منظمة قوية للطبقة العاملة" التي يجب أن تشمل "جميع العمال المضطهدين في فلسطين، بغض النظر عن المبادئ التي تبني عليها المعتقدات". وتم اعتبار موضوع تشكيل مثل هذه المنظمة مهمة ذات أولوية للحركة.

يرى المشاركون أن ذلك ممكن فعلا، لأن المؤتمر الذي عقد بالفعل وجه "ضربة ملموسة للرأي المنتشر بين العمال اليهود حول أن الوقت لم يحن بعد لتنظيم الحركة الطبقيّة للعمال العرب". وفي ذات الوقت، تم تدمير "الأفكار الخاطئة الكاذبة" المتداولة بين العمال العرب بأن "العامل اليهودي غير مخلص في تصرفاته وأنه لا يريد أن تكون له منظمة نقابية موحدة مع نظيره العربي".

لذلك ولأول مرة بعد انضمامهم إلى الكومنترن، حصل الشيوعيون الفلسطينيون على فرصة حقيقية للعمل في صفوف اليسوف، حيث نشأت الشروط المسبقة لتشكيل علاقات ائتلافية بينهم وبين يسار بوعالي تسيون، مع الاعتماد على النقابات العربية وكذلك اليهودية العربية المشكلة المختلطة والتي تشكلت بالفعل. إلى أي مدى استفاد الحزب الشيوعي الفلسطيني من الآفاق التي ظهرت امامه؟ لكن ها يجب التحقق..

هل كانت هذه الآفاق حقيقة واقعة؟

في ٣٠ ابريل ١٩٢٥، نشرت الصحيفة الأسبوعية "حيفا"، رسالة من "عامل عربي في مديرية السكك الحديدية". وكانت بعنوان "الأسباب التي دفعت العمال العرب إلى إنشاء

نقابتهم المستقلة في حيفا"^(١). وقالت: "تأسست النقابة القديمة (والحديث هنا عن نقابة عمال السكك الحديدية المختلطة بين اليهود والعرب) تحت راية الصهيونية، وهي من فروع الهستدروت في فلسطين.

لقد حاول العمال العرب مرات عديدة تحقيق وحدة العمل والتفاهم المتبادل مع هذه النقابة. قبل فترة من الزمن قاموا بالانضمام إليها وكان عدد المنضمين لها كبيرا جدا. لكنهم خرجوا منها بعد ذلك، لاقتناعهم بوجود التسويف والخداع من جانب قادتها، الذين عملوا خلال حل القضايا المتعلقة بعمل النقابة، على أساس السياسة الصهيونية.

ولكن قادة النقابات الصهيونية، لم يكونوا من جانبهم موافقين مع العمال العرب على ضرورة التخلي عن سياساتهم، لأن ذلك يضر بمصالح جميع العمال بغض النظر عن معتقداتهم أو جنسيتهم".

وعلاوة على ذلك، لاحظت الرسالة: "عند رؤية هذه التسويف والخداع، شعر العمال حقا أن مبادئ نشاط هذه النقابة العمالية لم تكن مبنية على مصالحهم، بل كانت تمليها الرغبة في نشر الأفكار الصهيونية بين العمال. وعندما يقترح العمال على النقابة أية توصيات تتعلق بتعزيز التفاهم والتضامن المتبادل، لم تكامل تقابل من الصهاينة سوى الرفض والمعارضة".

لقد دفعت هذه الأسباب، العمال العرب إلى ترك نقابة عمال السكك الحديدية وإنشاء نقابتهم "القومية" الخاصة بهم، والتي كانت إحدى مهامها "محاربة" نقابة عمال السكك الحديدية اليهودية" من أجل "تدمير الفكرة القومية الصهيونية".

(١) ١١٠ العدد الكامل للجريدة الأسبوعية ليوم ٣٠ أبريل ١٩٢٥ والمعاد نشره في // البديري م. اقتباس ص ٩٥-١١٤.

وبهذا الشكل تفككت النقابة الأممية لعمال السكك الحديدية، التي كانت ضمن الهستدروت. وكان سبب انهيارها، كما ورد في نص الرسالة المذكورة اعلاه، يكمن في أن قيادة النقابة عملت بالدرجة الأولى من أجل تحقيق "الهدف القومي الأعلى للصهيونية". كان ذلك من الظروف المهمة فعلا.

طبعاً تضمنت كلمات الناشط النقابي العربي، الكثير من الحقيقة. ولقد تلخّصت هذه الحقيقة في أن اليسار في بوعالي تسيون، الذي قاد هذه النقابة المهنية، قام وكما، قادة الهستدروت نفسه، بتقديم المساعدة طوعاً أو وافق قسراً على تشكيل نقابات عمالية أممية، وجميعهم تصرفوا طبعاً لصالح اليسوف. لقد تطلب أمن مجموعة اليسوف، وضرورة تجذيرها في فلسطين، وإمكانية تحولها في النهاية إلى دولة مستقبلية - لقد تطلب كل ذلك، أجواء الاحتكاك مع الوسط العربي المحيط باليهود الفلسطينيين. علاوة على ذلك، لم يشك اليسار في بوعالي تسيون، الذي استمر في الدعوة إلى الماركسية وفي دمج ذلك مع الفكرة القومية، لم يشك بأي حال من الأحوال في الوحدة الإقليمية المستقبلية للبلاد، التي افترضت بالطبع أن التحول القادم لليشوف سيحافظ على التواجد العربي فيه. لكن السؤال كان يكمن فقط كيف يجب على هاتين المجموعتين القوميتين التفاعل والتعامل فيما بينهما وأي من وظائف هذا التفاعل يجب أن تنتقل إلى المستقبل.

وطبعاً كان من الممكن طرح نفس هذا السؤال بشكل أكثر تحديداً. إذا كانت الوظيفة الأساسية للحركة النقابية الموحدة (وفي المستقبل اللاحق بات الحديث يجري طبعاً عن الإمكانات الحزبية للتفاعل بين ممثلي المجموعتين القوميتين) هي ضمان الحفاظ على اليسوف الفلسطيني، فهل يمكن أن يظهر لدى الأعضاء غير اليهود في هذه الحركة الأمل بأن يتقدموا في السلم الوظيفي أو الحزبي؟

بالطبع، مثل هذا الخيار البعيد المدى للتعاون بين اليهود والعرب في صفوفه سيبقى

على الأغلب بعيد المنال بالنسبة لأبناء المجموعة العربية - الفلسطينية. وبالطبع ، سيتم نقل وظيفة التفاعل هذه إلى المستقبل ، عندما تكتسب أشكال وجود اليشوف معالم جديدة بشكل مبدئي.

بعبارة أخرى ، يمكن للعرب - وقد تم تشجيعهم بنشاط على - المشاركة في تطوير الوجود القومي اليهودي الفلسطيني. لكن مشاركتهم كانت منذ البداية موضوعة في إطار صارم وشديد ، يغلق امامهم الطريق إلى إبداعهم الوطني ، الذي من أجله انضم نشطاء العمال العرب إلى نقابة العمال الأمية.

كان انسحاب العمال العرب من النقابات العمالية الأمية ، وقبل كل شيء من الرابطة المهنية لعمال السكك الحديدية ، مرتبطا بشكل مباشر بحركة إيهود. هذه الرابطة وهي الأكبر بين النقابات العمالية اليهودية العربية ، كانت وباستخدام مصطلحات الشيوعيين ، فعلا منظمة "ثورية - ديمقراطية" ، وكان يمكنها أن تكون الهيكل المشكل لها. لكن إذا لم تتمكن العناصر "الديمقراطية الثورية" من كلا المجموعتين القوميتين في البلاد من الوصول إلى تفاهم متبادل ، فكيف كان يجب أن تتطور حركة إيهود؟ وفي هذا الصدد ، هل يمكن أن تتطور لاحقا العلاقات بين الشيوعيين واليساريين من بوغالي تسيون؟

لم يكن هذا بالطبع سؤالا فارغا المعنى ، لأن الخط السياسي للحزب الشيوعي الفلسطيني اعتمد على الإجابة عليه ، وكان ينبع من مطالب الكومنترن ، بتكوين "جبهة عمالية أمية" في فلسطين. . هل يبقى هذا الخط أنيا حتى الآن؟ هل مازال بالإمكان الحفاظ على الاتصالات مع يسار بوغالي تسيون إذا ابتعد عنه العمال العرب؟ وقد أعرب المكتب التنفيذي للبروف اينترن عن وجهة نظره ، عندما أوصى أنصاره

الفلسطينيين بالعمل على إنشاء نقابات عمالية عربية تعمل تحت قيادتهم^(١). وبالطبع نالت وجهة النظر هذه تأييد اللجنة التنفيذية للأمية الشيوعية. نشأ وضع دفع في بعض الأحيان الشيوعيين الفلسطينيين إلى اليأس.

كان من المفترض أن يعملوا في الوسط العربي، لكن هذه البيئة أرعبتهم بجهلها المطلق للعناصر الابتدائية للسياسة. لقد اشتكى أفريوخ (أبوزيام)، الأمين العام للحزب الشيوعي الفلسطيني، صراحة من أن "العمال العرب يعتبرون الأول من مايو عيداً للقوميين اليهود"، لكنه ألقى باللوم في ذلك على "الاشتراكيين الصهاينة" الذين "نجحوا حقاً في

(١) في ١٧ يناير ١٩٢٨، قام المكتب التنفيذي للبروف اينترين بإرسال خطاب إلى قيادة الكتلة العمالية. وجاء فيها أن إنشاء النقابات العمالية العربية بقيادة الكتلة العمالية هو الاتجاه الرئيسي لنشاطها حتى تتهياً الظروف في فلسطين لإنشاء منظمات مهنية اممية للعمال، وكان رد فعل المكتب التنفيذي سلباً على وجهة النظر التي حاولت اثبات امكانية اجتذاب القوميين الفلسطينيين العرب اليساريين للمشاركة في هذه العملية. وأشارت الرسالة إلى أن الكتلة العمالية في هذه الحالة لن تكون قادرة على كسب العمال العرب إلى جانبها، لانه ستهيمن عليهم العقيدة القومية.

وأشارت الرسالة إلى أنه من الأفضل تشجيع دخول العرب إلى الهستدروت، حيث لن يخضعوا على الاغلب لتأثير الإصلاحيين اليهود، بل سيلعبون الدور الثوري //

//RTSKHIDNI, f. 534, op. 6, units ridge 113, l. 35-37.

من جانبه قال ل. غيلير عضو المكتب التنفيذي للبروف اينترين، أحد قادة القسم الشرقي فيه، خلال تقديمه تقريراً عن "الحركة النقابية في البلدان المستعمرة وشبه المستعمرة" في المؤتمر الرابع للبروف اينترين، أنه يجب على النقابيين الثوريين الفلسطينيين "مع ذلك" أن يروا مهمتهم الرئيسية في "تنظيم البروليتاريا العربية وإنشاء منظمة دولية توحد العمال العرب واليهود. وفقط من خلال الاعتماد على مثل هذه المنظمة، على منظمة طبقية متعددة الأعراق سيتمكن العمال في فلسطين من محاربة الإمبريالية البريطانية والتعصب القومي العربي. // المؤتمر الرابع للبروف اينترين في ١٧ مارس - ٣ أبريل ١٩٢٨ محضر حربي لقرارات وتوصيات المؤتمر إصدار عام ١٩٢٨، ص ٤٥٨.

حرمان هذا اليوم من أهميته البروليتارية والثورية. وتحويله إلى عيد للبرجوازية القومية الصغيرة^(١).

لم يكن الشغيلة العرب، من العمال والفلاحين، يرغبون بتاتا الاستماع والاستجابة لدعوات الشيوعيين، الذين غالبا ما كانوا يجهلون طبيعة الناس الذين سعوا لقيادتهم. في نهاية نوفمبر ١٩٢٤، باع أحد أكبر ملاك الأراضي في فلسطين سرسق أفندي لمثلي يشوف، أرضه في منطقة قرية العفولة العربية^(٢). ولكن من أجل أن تصبح هذه الصفقة ذات الطابع الرسمي حقيقة واقعة، كان لا بد من إخراج الفلاحين والمزارعين العرب من هذه الأراضي، التي كانت تمثل وسيلة العيش الوحيدة بالنسبة لهم. في ٢٨ نوفمبر من نفس العام، وصل عمال زراعيون يهود بقيادة ممثلين عن الهستدروت إلى العفولة. وأدت هذه العملية إلى اشتباك دامي بينهم وبين الفلاحين^(٣). وفي اليوم التالي، وزع فرع الحزب

(1) Abouziem. Le Premier Mai en Palestine // "Correspondances Internationales", 1926, N 63, P. 682 .

(٢) لكنهم في الوقت نفسه، لم يعرفوا سوى القليل جدا عن القرية العربية الفلسطينية، واعتقدوا بصدق أن تضامنهم مع الفلاح سيؤدي على الفور إلى اندلاع العداء الطبقي بينه وبين "الأفندي". لقد بدا للشيوعيين أن "غالبية الفلاحين الفلسطينيين أقنان"، وأن هناك هوة كبيرة من سوء التفاهم والعداوة بين هؤلاء "الأقنان" وملاك الأراضي، الذين وكما اعتقد الشيوعيون يملكون ليس فقط الأرض التي يزرعها الفلاحون، بل وممتلكاتهم الشخصية وحتى حياتهم // (حادثة العفولة ونضال الشيوعيين ضد طرد الفلاحين من أراضيهم) // "الدرب"، حيفا، ١٩٧٤، رقم ١، ص ٥٣. الحديث هنا يجري عن ذكريات المخضرم في الحركة الشيوعية الفلسطينية والإسرائيلية بني يافين هاوس.

وهذا النوع من النزعات كان موجودا كذلك في الاستنتاجات الاجتماعية والسياسية التي وردت في أعمال أفيروخ. انظر // المسألة الزراعية في سوريا وفلسطين. تقارير أبوزيام وعلي طارق // المشاكل الزراعية. كتاب المعهد الزراعي الدولي. إصدار عام ١٩٢٧، ص ١٩٣-١٩٥.

(٣) هنا ولاحقا انظر // بني يافين هاوس ص ٥٣-٥٥.

الشيوعي الفلسطيني منشورات على العمال اليهود. جاء فيها: أيها الرفاق! لقد حدث ما توقعناه. لقد أدت الرغبة في شراء الأرض "سلمياً" في العفولة إلى مذبح دموية. ... لقد لطخت البرجوازية اليهودية أيديها مرة أخرى بدماء العمال اليهود والعرب. هذه ليست المرة الأولى التي تستخدم فيها النقابة الصهيونية، العمال اليهود كوسيلة لتحقيق أهدافها الخاصة. لكن شراء الأرض لا يعني على الإطلاق انتقالها إلى أيدي الملاك الجدد؛ يجب الاستيلاء على الأرض، بمعنى آخر، يجب طرد الفلاحين العرب منها. والاتحاد النقابي الصهيوني يقوم بتنفيذ هذا العمل القذر بواسطةكم وبايديكم".

وبعد ذلك جاءت الدعوات والمناشدات: "يجب ألا يشارك أي عامل يهودي في هذا الأمر. ليس من مصلحة العمال اليهود العيش في جو من الكراهية والحروب المتبادلة مع الفلاحين العرب. لا تكمن قوتنا في الكراهية القومية، بل في التضامن الأممي".

لكن لم يتم سمع هذه الكلمات الصحيحة والمبدئية لا من جانب العمال اليهود ولا من جانب الفلاحين العرب. ووجد الحزب نفسه في الفراغ. وكانت النتيجة الوحيدة لأحداث العفولة هي حملة واسعة النطاق من القمع والإرهاب ضد الحزب الشيوعي الفلسطيني نفسه^(١). عند تذكرها لتلك الأحداث كتبت عضوه اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الفلسطيني بنينا فاينهاوس التي شاركت فيها: "في اليوم التالي لتوزيعنا تلك الشرة، تسلم عمال محطة توليد الكهرباء في روتنبرغ (مكان عمل بنينا فاينهاوس في ذلك

(١) كتب مؤلف كتيب "الحركة النقابية في فلسطين" في هذا الصدد: "وصلت حملة عزل الكتلة العمالية ذروتها في شتاء ١٩٢٤-١٩٢٥ بعد أحداث العفولة. تحولت هذه الحملة ... بقيادة الهستدروت إلى اضطهاد حقيقي. وتعرض عناصر من الكتلة العمالية للاعتداء والضرب في الشوارع. وقام أنصار اهدوت هافود بتسليم أنصار الكتلة العمالية في أيدي الشرطة، ووصفوهم بالشيوعيين. وبدأت الاعتقالات في جميع المدن" // بيرغرغ. نفس المصدر. ص ٣٢.

الوقت) الايعاز بإنجاز العمل قبل ساعة واحدة من مواعده المحدد. بعد ذلك تم نقل العمال بشكل منظم إلى يافا وتجمعوا في المطعم. ... هناك، بدأ العمال بضرب أعضاء الحزب، ثم ألقوا بهم إلى الخارج، حيث كانت الشرطة البريطانية في انتظارهم، التي قام باستدعائها أعضاء مجلس العمال ...^(١).

لقد وقعت حركة إيهود، بعد مؤتمرها الأول، في أزمة عميقة. وبحلول عام ١٩٢٧ اختفت هذه الحركة بشكل تام من الوجود. بالطبع، قام الشيوعيين بتحميل مسؤولية ذلك لزعماء الهستدروت و "الإقطاعيين الأفنديين" للمجتمع العربي وسياسة دولة الانتداب^(٢). وبالطبع كان لهذا الاتهام بعض الأساس، ولكن كانت هناك أسباب أخرى لتطور الوضع بهذا الشكل. وفي أساس هذه الأسباب كانت مبادئ العلاقات بين الحزب الشيوعي الفلسطيني نفسه والقوى اليسارية داخل اليسوف، والتي حددها إلى حد كبير خط الكومنترن. ولكن الاتصالات مع اليسار في بوعالي تسيون لم تكن الحلقة الوحيدة في التاريخ المعقد للعلاقات بين الحزب الشيوعي الفلسطيني والقوى السياسية في اليسوف في

(١) بنيني فاين هاوس، ص ٥٣.

(٢) في النصف الثاني من العشرينات تعرضت سياسة بريطانيا العظمى في فلسطين للتغيير، وبدأت في دعم قادة اليسوف إلى حد أكبر من ذي قبل. وكان سبب ذلك يكمن في تزعزع الاستقرار في مصر وسوريا. وتسبب تغيير نهج دولة الانتداب في تأجيج التوتر بين العرب واليهود في فلسطين. ومع ملاحظة ذلك، أكدت وثائق الكومنترن أنه: "على أساس التصدي للإمبريالية البريطانية ووكيلها - الصهيونية، قامت الحركة القومية العربية بعمل مهم في توحيد العناصر المتباينة من السكان العرب - من مجموعات ملاك الأرض والإقطاعيين والبرجوازية الحضرية إلى جماهير الفلاحين والعمال العريضة". بدورها، تسعى منظمة الهستدروت "جاهدة" باسم المصالح القومية "لتسوية سلمية لكل نزاع طبقي ومنع النضال ضد الإمبريالية البريطانية" // الشيوعية الدولية قبل المؤتمر العالمي السادس، ص ٣٤٢.

النصف الثاني من عشرينيات القرن الماضي. في ذلك الوقت، زار موسكو وفد من حركة الكيوتسات Gdud HaAvoda (كتيبة العمال) وخلال وجوده هناك قدم رسالة إلى اللجنة التنفيذية للأمية الشيوعية. وجاء فيها أن خلايا هذا التنظيم موجودة في فلسطين منذ خمس سنوات، وأن هناك ٥٠٠ عضو في صفوفه يسترشدون بفكر "الحركة العمالية التي تقوم على هدف خلق مجتمع شيوعي في فلسطين، وفي الوقت نفسه، بحل المهمة القومية-تشجيع إنشاء مركز عمل يهودي" في هذا البلد^(١).

وأشارت الرسالة إلى أن Gdud HaAvoda "يأخذ في الحسبان إعادة توطين العناصر اليهودية العاملة (الذين أصبحوا عمالا) في فلسطين كعامل تقدمي يساهم في تصنيع البلاد وخلق الشروط المسبقة للثورة الاجتماعية". وخلال ذلك نظر التنظيم إلى الهجرة اليهودية إلى فلسطين باعتبارها شكلا من أشكال "الصراع الطبقي" الذي وفي إطاره سعى التنظيم لتنفيذ بعض "المهام الرائدة" من خلال توفير "التسرب إلى أصعب عمل بدني لليهود". وذكّرت الرسالة بصراحة أن أنصار كتيبة العمال "يختلفون" مع الحزب الشيوعي الفلسطيني "حول القضية القومية والتكتيك في فلسطين"، لكنهم يناضلون من أجل "ثورة اشتراكية وإسقاط حكم الإمبريالية بشكل عام والإمبريالية البريطانية في فلسطين". وذكر التنظيم أنه "يسترشد بالكومنترن، لكنه يعتبر من السابق لأوانه ... النظر في مسألة دخوله" إلى صفوفها.

لكن مع ذلك، بالنسبة لكتيبة العمال كان تحقيق "تنسيق معين في التصرفات التي

(١) من هنا وأدناه: إلى اللجنة التنفيذية للأمية الشيوعية في الدائرة الشرقية من وفد كومونة جدود أفودا الفلسطينية. مذكرة إبلاغ في ١٥ مايو ١٩٢٦ //

RTSKHIDNI, f. 495, op. 81, unit ridge 46, l. 42-49.

تهدف إلى تحقيق أهداف مشتركة" مع الكومنترن"، مناسباً ومطلوباً. علاوة على ذلك، أبلغ ممثلوها اللجنة التنفيذية أنهم مستعدون للمشاركة "في إنشاء جبهة يهودية عربية موحدة ضد الإمبريالية البريطانية".

في الصفحة الأولى من هذه الوثيقة توجد ملاحظة لأحد موظفي الدائرة الشرقية في اللجنة التنفيذية للأمية الشيوعية، وهو المستشرق المعروف في فترة عشرينيات وثلاثينيات القرن الماضي - ب. كيتاغورودسكي وفيها كتب: "أن منظمة Gdud HaAvoda متعاطفة مع الاتحاد السوفيتي، ولا سيما جناحها اليساري. ويجب الاتصال بها، يمكن استخدامها لأغراض إعلامية على الأقل".

بالطبع، اصطدم الكومنترن مرة أخرى بمنظمة كانت تسترشد بأفكار كانت مشابهة من نواح كثيرة لتلك التي قامت عليها منصة بوعالي تسيون.

ولكن إلى أي مدى تتوافق نغمة ومحتوى هذه الملاحظة (ومن المعروف فعل "استخدام" كان تقريباً الفعل الرئيسي في وثائق الكومنترن) مع روح ذلك الوقت المفعم بالطابع الرومانسي - الوقح.

في ١٣ سبتمبر ١٩٢٧، تلقى القسم الشرقي من اللجنة التنفيذية للأمية الشيوعية طلباً ثانياً (هذه المرة من فلسطين) من Gdud HaAvoda. وشهد نص الطلب على أن قيادة هذه المنظمة تدرك وتفهم أن الكومنترن يتحمل مسؤوليات جدية فيما يتعلق بقسمه الفلسطيني.

علاوة على ذلك، لم يتظاهر مقدمو الطلب بأي حال من الأحوال بأنهم أصبحوا بديلاً للحزب الشيوعي الفلسطيني. ولكن Gdud HaAvoda اعتبرت في ذات الوقت، أنه يجب القول إن "التقليل من شأن العمال اليهود" من جانب الشيوعيين الفلسطينيين و"توجههم الأحادي الجانب تجاه الحركة القومية العربية لن يسمح أبداً للحزب الشيوعي

الفلسطيني بأن يصبح الحزب الجماهيري للعمال اليهود في فلسطين".
على العكس من ذلك ، سيتم النظر دائماً إلى هذا الحزب من قبل الغالبية العظمى من
العمال اليهود على أنه حزب معاد. ومن الواضح أن الاتصالات والعلاقات مع هذا
الحزب ، سيجلب لحركة Gdud HaAvoda العزلة أيضاً. لكن الطلب شدد رغم ذلك على
أن "التعاون ممكن" مع حزب الشيوعي الفلسطيني في مجال "كل الأعمال النقاوية ، وضمن
إيهود ، وفي مجال نشاط MOPR".

-(MOPR) المنظمة الدولية لمساعدة مناضلي الثورة ، وهي منظمة خيرية شيوعية تم
إنشاؤها بقرار من الكومنترن كنظير شيوعي للصليب الأحمر الدولي).
وخلال ذلك ، لاحظت قيادة Gdud-Avoda : "مع الحفاظ على خطوط ترسيم محددة
تماما بيننا وبين حزب الشيوعي الفلسطيني ، نعتبر أنه من الضروري الاعتراف بنا من قبل
الكومنترن كمجموعة عمل سياسية ودية"^(١).
بالنسبة لمنظمة ذات تفكير عالمي وواقعي - والكومنترن تعتبر نفسها كذلك - لم يكن
هناك أي شيء غير عادي أو غير مألوف في مثل هذا الطلب.

في ٢٩ سبتمبر ١٩٢٧ ، بعثت اللجنة المركزية للأمية الشيوعية برسالة إلى الشيوعيين
الفلسطينيين حول احتمالات اتصالاتهم مع غدود أفودا.

وفيها أشارت إلى أن هذه الحركة الكيبوتسية تحتوي من الناحية الإيديولوجية على
"العديد من الآثار القومية والانتهازية" (المسماة "الاشتراكية البناءة") ، ومن بينها أنها لم
تولي سوى القليل من الاهتمام للنضال السياسي للطبقة العاملة تحت قيادة الحزب
الشيوعي". ولكن تبين أن مزاعم الكومنترن وادعاءاتها بالواقعية والشمولية في التفكير لا

(١) نفس المرجع : 6-3 ، l. 1 ، unit ridge 64 ، op. 81 ، f. 495.

أساس لها على الإطلاق. وتداعت هذه المزارع وانهارت أكثر عندما أشارت رسالة من اللجنة التنفيذية للأمية الشيوعية إلى أنه على الرغم من أن Gdud-Avoda تقيم "بشكل صحيح" الحركة القومية العربية على أنها "ثورية ومعادية للإمبريالية"، إلا أن هذه الحركة "تخلط بينها وبين بعض القادة الرجعيين، وتقدمها على أنها رجعية". ولكن لا يوجد في كل الوثائق التي أرسلتها حركة غدود أفودا إلى اللجنة التنفيذية للأمية الشيوعية، لا توجد ولا حتى كلمة واحدة من هذا القبيل!

لكن وعلى الرغم من أن غدود أفودا "لا تستطيع الدفاع عن مصالح العمال اليهود"، فقد اقترحت اللجنة التنفيذية للأمية الشيوعية، أن يقوم الشيوعيون الفلسطينيون "بتكثيف العمل بينهم لتوضيح تطابق مصالح العمال اليهود والعرب، والطبيعة الطوباوية والرجعية للاشتراكية البناء وضرورة النضال ضد الإمبريالية البريطانية والصهيونية، وتحالف الحركة العمالية مع الحركة القومية الثورية العربية".

وتم الاقتراح على أنصار الكومنترن في فلسطين "العمل بشكل أساسي بين الاعضاء العاديين في الحركة الكيوتسية، وجذبهم للتعاون مع حركة إيهود" وتقريبهم من الفلاحين العرب ومن العاملين في مجال الزراعة من أجل النضال الموحد ضد الإدارة البريطانية وملاك الأراضي"^(١). ومن حيث الجوهر لقد عُرض على الشيوعيين تفكيك غدود أفودا، واجتذاب بعض مؤيديه إلى صفوف الحزب الشيوعي الفلسطيني.

وبالفعل بدأ الشيوعيين في العمل في هذا الاتجاه. ولدى الاتصال بهذه المجموعة، طالب الشيوعيون بـ "عدم تسييسها" و"تحويلها فقط إلى منظمة اقتصادية بدون قاعدة أيديولوجية ومهام اجتماعية". كان على غدود أفودا، أن "ترفض جذب مهاجرين جدد إلى

(١) نفس المرجع ص ١-٢.

صفوفها" وأن تعمل فقط في مجال الترتيب المادي لأعضائها الحاليين". انضم بعض أعضاء الكتلة العمالية إلى صفوف غدود أفودا، وكانت مهمتهم الترويج "ضد الاستعمار اليهودي في فلسطين"^(١). وكانت نتيجة هذا الخط وقوع القطيعة الكاملة في الاتصالات بين غدود أفودا، والكومنترن.

بعبارة أخرى، دار الحديث في نهاية المطاف ليس عن كيف كان يجب على الحزب الشيوعي التعاون مع اليسوف وإلى أي مدى، بل عن مجال نشاطه الرئيسي - وسط العمل العربي - الفلسطيني. وطبعا جلب هذا النشاط ثماره. وبفضله نشأت في البلاد طبقة جديدة (وإن كانت رقيقة وضعيفة للغاية) من العرب المتعلمين، الذين يتبعون، من وجهة نظر انتمائهم، إلى الطبقات الدنيا من المجتمع. وضمت هذه الطبقة النشطاء النقابيين والحزبيين العرب، الذين رعاهم الشيوعيون، وبفضل دراستهم في جامعة شغيلة الشرق الشيوعية بموسكو (KUTV) في موسكو. بالنسبة للمجتمع الشرقي التقليدي، كانت هذه ظاهرة جديدة تماما وغير مسبقة.

في ١٧-١٨ يونيو ١٩٢٦ انعقد في يافا أول "مجلس لرفاقنا العرب"، وشارك فيه ممثلو الشيوعيين العرب في يافا وحيفا والقدس. وبطبيعة الحال، كان يرعاه ممثلو اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الفلسطيني^(٢). لقد نظر قادة الحزب الشيوعي الفلسطيني إلى أعضاء

(١) رسالة إلى رئاسة الأمانة الشيوعية بتاريخ ١١ يناير ١٩٢٧ من اللجنة المركزية لحزب العمال الشيوعي اليهودي في فلسطين (بوعالي تسيون) //

f. 495, op. 81, unit ridge 69, 1- 1-2.

(٢) هنا وأدناه: بروتوكول مكتوب بخط اليد للمجلس: مجلس رفاقنا العرب // المرجع نفسه، ف ٤٩٥. اوب ٨١. وحدة الحفظ رقم ٤٥ الصفحة ٩-١.

"المجلس" على أنهم مجموعة من "المُرشدِين"^(١) الذين يقومون بالدعاية بين السكان العرب في فلسطين، أما المشاركون أنفسهم فاعتبروا الاجتماع الذي عقده بمثابة "المؤتمر الشيوعي العربي الأول".

وخلال ذلك طرح أعضاء "المجلس" قبل كل شيء مأخذهم وشكاويهم. على سبيل المثال، وكما قال عارف الذي مثل القدس، لا يوجد في منظمته "ولا حتى رفيق يهودي واحد يتحدث العربية بشكل جيد". وطالب الحزب بإصدار "صحيفة تتحدث باسم (بلسان) الفلاح والعامل العربي".

وبحسب عارف، فإن الشيوعيين العرب فقط هم من يستطيعون القيام "بالدعاية بين الفلاحين" لأنهم يعرفون لغة وخصوصيات حياة الفلاحين. وبعد ذلك، نمت اللحظة الحاسمة، التي تبلورت مع تقديم المقترحات. وفي خطابه تطرق يوسف، الذي يمثل حيفا، إلى انهيار النقابة المحلية لعمال السكك الحديدية. وبدا له أن أحد الأسباب الرئيسية للوضع الذي نشأ في هذا الصدد هو "ضعف الحزب الذي عمل بشكل غير قانوني". وأضاف: "أعتقد أن الحزب ضعيف لأن عدد الرفاق العرب العاملين فيه أقل بكثير من عدد الرفاق اليهود. لو كان عدد الرفاق العرب في الحزب مثل عدد اليهود، لكان بإمكاننا أن نفعل أكثر من ذلك بكثير". ومع استمراره بالكلام قام بتطوير هذه الفكرة أكثر: "نعم، في الواقع، لا يزال عدد العمال العرب المتورين قليلا حتى الآن، لكن الحزب تمكن من تنويرنا،

(١) رسالة من فلسطين إلى الدائرة الشرقية في اللجنة التنفيذية للأمية الشيوعية // المرجع نفسه، ف ٤٩٥.

أوب ٨١. وحدة الحفظ رقم ٤٥ الصفحة ٥٦-٥٧.

وجاء في الرسالة، أنه في ١٧-١٨ يوليو ١٩٢٦، "تم عقد اجتماع للمدربين العرب" شارك فيه، مع ممثلين عن المنظمات الشيوعية الفلسطينية، وكذلك شارك فيه "مدرب" من الكرك (شرق الأردن).

وسنكون قادرين على تنوير بقية العمال والفلاحين العرب". وأخيرا طرح المذكور، شكواه الهادفة: "لا يوجد ناد للعمال العرب في حيفا، وهناك نادي عمالي يهودي. إذا جاء عامل عربي إلى هناك، فلن يجد هناك صحيفة عربية يقرأها، أو شخص يعرف اللغة العربية ليحدثه. نحن بحاجة إلى نادي يخص العمال العرب".

وعند تحدّثه باسم العمال العرب في يافا، قال صابر بشكل حاد للغاية: "من هم الرفاق العرب ومن هم الرفاق اليهود؟ هنا من بين معارفي، الرفاق العرب (كلمة رفيق كانت مرادفة لكلمة "شيوعي") أحدهم خباز والآخر عامل في ورشة. وقادة خلاياهم الحزبية هم من الرفاق اليهود. هذا رغم أننا بحاجة إلى استقطاب الرفاق العرب للحزب! يبدو لي أن حزبنا غير معني بما يكفي بقضايا الرفاق العرب. كيف يمكن للرفاق اليهود القيام بالدعاية بين العمال العرب إذا كانوا لا يستطيعون التحدث بالعربية؟".

ولكن ربما كان الجانب الذي لا يقل أهمية في كلمات أعضاء "المجلس" هو تطلّعهم للعمل على نطاق إقليمي. لقد اعتبروا أنفسهم جاهزين سياسيا بما يكفي للقيام بالنشاط الشيوعي ليس فقط في الوسط العربي الفلسطيني، بل وفي "سوريا والحجاز والعراق وشرق الأردن". ولقد تحدّد ذلك ليس فقط من خلال القرب الإقليمي لهذه الدول من فلسطين، بل وقبل كل شيء، من خلال وكما قال أحد أعضاء "المجلس": "الحركة القومية العربية واحدة". وشدد (الممثل الثاني لمدينة يافا، واسمه المستعار عاصم): "لا يمكننا أن نجعل الحركة الوطنية أكثر قوة ... حتى نترسخ هنا".

وكما يشهد مضمون خطابه، لم يكن الأمر يتعلق بتقوية الحزب الشيوعي الفلسطيني وإنما بـ "تقوية" مواقف أعضائه العرب في صفوفه.

وأخيرا، اتخذ "مجلس رفاقنا العرب" عدة قرارات. وفيها تم التشديد على ضرورة بذل المزيد من الجهود من قبل اللجنة المركزية من أجل تحويل الحزب الشيوعي الفلسطيني إلى

"حزب وطني وحزب إقليمي (محلي)". وحملت المرادفات العربية لكلمتي في داخلها الفكرة المؤكدة بشكل قاطع عن القومية والإقليمية العربية الفلسطينية.

في هذه القرارات، تم بشكل صارم طرح فكرة الحاجة إلى "أن تقوم اللجنة المركزية للحزب في أقرب وقت ممكن بتشكيل هيئة عليا لتوجيه العمل بين العمال والفلاحين العرب". بطبيعة الحال، كان يجب أن يلعب الشيوعيون العرب الأدوار القيادية في هذه الهيئة. وكان يجب على هذه الهيئة أن تقوم بإعداد وعقد "مجلس واسع" من العمال والفلاحين العرب، المستعدين للنضال (للمحاربة) من أجل تحرير بلادنا وحل مشاكل الطبقة العاملة". وتجدر الإشارة إلى أن الكلمة العربية المستخدمة للتعبير عن مفهوم "بلادنا" يمكن ترجمتها كذلك إلى "بلادنا".

في هذه الحالة، اكتسبت الفكرة القومية العربية، التي كانت حاضرة بشكل كاف في خطابات وقرارات "المجلس"، نغمة إضافية. لم يعد الشيوعيون العرب يريدون أن يكونوا عناصر تتم قيادتها وطالبوا بتغيير جذري في الوضع الحالي.

وكما قال لاحقا محمود الأطرش، أحد المخضرمين العرب في الحركة الشيوعية الفلسطينية: "في البلدان العربية، وبالذات في فلسطين... عمل عدد غير قليل من الشيوعيين الذين أتوا من... صفوف الأقليات اليهودية. جاء العديد من هؤلاء الرفاق إلى الحركة الشيوعية من مختلف الأحزاب الاشتراكية الديمقراطية، ومنظمات البوند والصهيونية. في البداية وثق بهم رفاقهم العرب تماما. لكن الشيوعيين اليهود لم يتمكنوا من فهم المعنى الحقيقي لمبادئ الماركسية اللينينية فيما يتعلق بالمشاكل القومية... في ذلك الوقت".

ثم تابع هذا الرجل القول: "أن الجماهير العربية العاملة في تلك المرحلة من النضال لم تكن تثق في الناس الذين كانت أسماؤهم حاييم وإبراهيم واسحق، ولم يكن بمقدورها

المضي قدما تحت قيادتهم، حتى لو كان هؤلاء هم أفضل المناضلين من أجل الاستقلال الوطني. بالنسبة لهذه الجماهير، كان هؤلاء ينتمون إلى ... أقلية قومية منحتها الإمبريالية امتيازات هائلة على حساب الشعوب العربية وتحولت إلى أداة للعنف والقمع، وأداة لمعارضة تطلعات الجماهير العاملة والشعوب العربية وحركتها لنيل الاستقلال الوطني ... الجمهور العربي في ذلك الوقت كان يمكنه الوثوق فقط بأشخاص اسمائهم زيد وعلي وبكر، يخرجون من صفوفهم، ... ويرتبطون بالمجتمع القومي العربي، وبلغه العرب وعاداتهم ودينهم، ويشاركونهم الفقر والقهر"^(١).

الشخص الذي نطق بهذه الكلمات كان ضابطا في الجيش التركي إبان الحرب العالمية الأولى، وانضم إلى القوميين السوريين من أنصار الأمير فيصل. تم طرد هذا الضابط من دمشق إلى الحجاز، ومنها انتقل إلى فلسطين، حيث انضم عام ١٩٢٥ إلى الحزب الشيوعي الفلسطيني في القدس.

في نهاية عام ١٩٢٥، أرسل الحزب الشيوعي محمد الأطرش إلى جامعة KUTV. وهناك درس حتى عام ١٩٢٨، وبعد عودته من موسكو تم اختياره في اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الفلسطيني، وظل عضوا فيها في ثلاثينيات القرن الماضي، وأصبح أحد المراسلين الرئيسيين لصحف الكومنترن، وفيها كتب بالاسم المستعار "م. السعدي". ولكن في وقت انضمامه إلى الحزب، عمل محمد الأطرش كساعي بريد وكان واحدا من "العمال العرب" الكثيرين^(٢).

(١) م. الأطرش. دور الأممية الشيوعية الثالثة في تنمية الوعي القومي والاجتماعي لدى الطبقة العاملة والشعوب العربية // السعيد.ر. هكذا تكلم الشيوعيون. القاهرة ١٩٨٩ ص ١٦-١٧ والصفحة ٢٠.

(٢) بيانات عن: تكوين اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الفلسطيني (بدون تاريخ، ولكن في موعد لا =/ =

كانت الكلمات التي قالها بعد سنوات عديدة صريحة للغاية وحملت في طياتها شحنة قوية من الغضب والاستياء بحيث لا يمكن للمرء إلا أن يرى فيها تعبيراً مركزاً للمشاعر التي سادت بالفعل في الفئة الجديدة من المثقفين العرب المسييسة وذات الاتجاه القومي، وطبعاً محمد الأطرش لم يكن المعبر الوحيد عن وجهات نظرهم.

من جانبه أشار رضوان الحلو، الذي شغل منصب الأمين العام للحزب (الفترة ١٩٣٤-١٩٤٣)، إلى أن الحافز المباشر لاهتمامه بالفكر الشيوعي كان معاداة الصهيونية والرغبة في الاستقلال الوطني. لكن لا في وقت انضمامه إلى كومسومول الفلسطيني، ولا لاحقاً، بعد انضمامه إلى الحزب الشيوعي الفلسطيني، لم يشعر أبداً باهتمام رفاقه اليهود بما كان مبدئياً بالنسبة له ولغيره من الشيوعيين من أصل عربي. وفي النصف الثاني من العشرينات، قام المذكور مع رفاقه في الفكر بطرح مسألة ترشيح الشيوعيين العرب لقيادة الحزب الشيوعي الفلسطيني^(١). ولم يتمكن الحزب الشيوعي الفلسطيني، المنقطع عن التراب الوطني الطبيعي، من العثور على التوازن الداخلي الضروري لنشاطه الحياتي.

علاوة على ذلك، كان الشيوعيون العرب بالنسبة للكومنترن، يتمتعون بميزة لا يمكن إنكارها. ... لقد جاءوا من بيئة كان يعتبرها الكومنترن دائماً شرطاً مادياً أساسياً لثورة مستقبلية في فلسطين.

// يتجاوز عام ١٩٣٢ //

RTSKHIDNI, f. 495, op. 81, unit ridge 145, l. one.

(١) عشر سنوات على موت المناضل الشيوعي رضوان الحلو // "النهج" إصدار عام ١٩٨٥ رقم ١٠ الصفحة ٢٧١-٢٧٢.

ومن هذا المنطلق شددت اللجنة التنفيذية للأمية الشيوعية دائما في كل وثائقها في نهاية العشرينيات وبداية الثلاثينات ، على أن من اهم نواقص الحزب الشيوعي الفلسطيني ، يمكن ذكر "الانتشار الضعيف للحزب بين الجماهير العربية" ، وأن هذا "الانتشار" يجب أن يتم على أساس "المشاركة الفعالة في النضال التحرري الوطني وعلى اتصال وثيق بالحركة القومية الثورية العربية". وطالبت اللجنة التنفيذية للأمية الشيوعية ، الحزب الشيوعي الفلسطيني ، "بتشكيل منظمات جماهيرية واسعة بين الفلاحين والمثقفين والعمال العرب والتي يجب أن تتضمن كل منها على كتلة شيوعية " تهدف إلى "دفع الحركة القومية إلى اليسار". وهذا يعني أن "البروليتاريا العربية هي المستند الرئيسي للتأثير العقائدي والتنظيمي للحزب الشيوعي الفلسطيني"^(١). ومع حلول عام ١٩٢٨ دخل الحزب الشيوعي الفلسطيني في مرحلة أزمة حادة. في صفوفه ، ازداد انتشار فكرة هجرة اليهود الفلسطينيين إلى الاتحاد السوفيتي ، إلى بيروبيدجان والقرم ، حيث تم إنشاء مستعمرات زراعية يهودية. وظهرت في صفوف الحزب كتلة سمت نفسها "لجنة العمال اليهود" وقام أعضاؤها بإرسال نداء إلى المشاركين في المؤتمر العربي الفلسطيني السابع الذي عقد في صيف عام ١٩٢٨ ، جاء فيه : "الوحيد الذي يملك الحق في هذا البلد هو الكادح العربي". وشددت هذه الكتلة على أن "وطن اليهود ، يكون حيث ولدوا. وفلسطين للعرب كما سوريا للسوريين". ويجب أن يدرك اليهود الراغبين في البقاء في فلسطين ، أنهم يملكون "نفس الحقوق التي يتمتع بها باقي السكان ، ومن واجبهم القتال يدا بيد مع القوميين العرب". ومع ذلك ، كما تم التأكيد في النداء ، فإن غالبية اليهود الفلسطينيين

(١) قرارات حول المهام الفورية للحزب الشيوعي الفلسطيني ، ٢ فبراير ١٩٢٧ //

RTSKHIDNI, f. 495, op. 81, unit ridge 53, l. 1-3.

"مجبرون على البحث عن الخلاص من خلال الهجرة".

وأشار النداء إلى أن الدولة الوحيدة في العالم التي يتساوى فيها اليهود تماما مع باقي السكان، هي الاتحاد السوفيتي، "الذي تعتني حكومته باليهود ... فلقد منحتهم الأرض، وأنشأت لهم جمهورية يهودية وتم توظيف اليهود في المصانع والمكاتب والمؤسسات الحكومية"^(١).

وفي صفوف الكتلة العمالية، تزايد الحديث أكثر فأكثر عن أن الهستدروت ليس أكثر من "منظمة فاشية"، وأن العمل فيه يعني دعم "الصهاينة الفاشيين" اليهود^(٢).

من الآن فصاعدا عكان يعرض على الذين انضموا إلى صفوف الكتلة العمالية أن يناضلوا بلا هوادة ضد السلطات الإمبريالية - البرجوازية ومؤسسات الدولة والبلديات. وقيل لهم أنه يجب على العامل اليهودي أن يعتبر الهجرة من فلسطين "كأحد التعبيرات الساطعة للصراع الطبقي"، وتم التشديد على أن: "هذا ليس علاجاً لجميع القرحات الرأسمالية، ولكنه علاج لقرحة معينة لمجموعة معينة من الناس"^(٣). كانت هذه هي النتيجة المنطقية لتطور عملية الابتعاد المتزايد عن اليسوف، والتي أخذت تقوى وتتعاظم. ويات يبدو أن العودة إلى الوراء أصبحت مستحيلة تماما. واضطر الشيوعيون الفلسطينيون على الخضوع لمطالب الكومنترن. في يوليو عام ١٩٢٧ انعقدت الجلسة المكتملة للجنة المركزية للحزب الشيوعي الفلسطيني وعنها صدرت "قرارات بشأن الحركة القومية العربية" وفيها

(١) "الشرق والمستعمرات"، إصدار ١٩٢٨، رقم ٦٥، ص ٢١-٢٢.

(٢) RTSKHIDNI, f. 534, op. 6, units ridge 113, l. 38.

(٣) نموذج الاستمارة التي كان يجب تعبئتها من قبل العضو الجديد في الكتلة العمالية..

Ibid., f. 534, op. 7, units ridge 417, l. 105 (back side) -106.

جرت الإشارة إلى أنه "على خلفية الأزمة الصهيونية" هناك "ازدهار للاقتصاد المحلي (العربي)" وتزايد "دور المدينة في الحياة الاقتصادية".

ويرى مؤيدو اللجنة التنفيذية للأمية الشيوعية في فلسطين أن أبرز مظاهر ذلك، هو "النزاع بين عائلتي النشاشيبي والحسيني (من العشائر الرائدة في المجتمع العربي الفلسطيني في ذلك الوقت بين الحريين العالميتين)"، عندما كانت المجموعة الأولى تمثل مصالح سكان الحضر، والثانية - "الأرستقراطية الريفية". وفي هذا الصدد، اعتبر الحزب أن من واجبه "تعزيز حركة عربية واحدة موحدة، والنضال من أجل برنامجها الديمقراطي، وتوحيد صفوفها، وتعزيز بلورة عناصر ديمقراطية نزيهة في هذه الحركة".

وجاء في الكلمات الأخيرة: "يمكن أن يصبح (الحزب الشيوعي الفلسطيني) جزءاً عضويًا من الحركة الوطنية إذا أصبح تكوينها عربياً"^(١). كان لهذا القرار سياق معين، حدده اليأس والارتباك. بالطبع، حاولوا في موسكو تخفيف الوضع الناشئ وجعله أكثر ليونة. هناك من المحتمل أنهم قالوا لأنصارهم الفلسطينيين أن "الهستدروت ليس أسوأ ولا أفضل من النقابات العمالية الإصلاحية الأخرى، ويجب على أنصار بروف اينترن التسلل إلى جميع المنظمات العمالية، حتى في المنظمات الفاشية، إذا كان لديهم هناك جماهير تقف وراءهم، فيجب أن يناضلوا داخل هذه المنظمات من أجل شعارات بروف اينترن". وهناك من المحتمل أنهم شددوا على أن مقاطعة العمل في الهستدروت تعني "وضع العمال اليهود بالكامل في أيدي الصهاينة والاشتراكيين الديمقراطيين وحرمان الجزء الثوري من الحركة العمالية من فرصة الاتصال بالجماهير العاملة".

لقد تم التأكيد في موسكو، أن الدعوة إلى هجرة الشغيلة اليهود من فلسطين هي

(١) هناك كذلك، ف ٤٩٥ أوب ٨١ وحدة الحفظ رقم ٥٨ الصفحة رقم ١٦-١٩.

"تكرار خطأ بوعالي تسيون الذين أكدوا أن هجرة البروليتاريين اليهود إلى فلسطين يشكل عملاً من أعمال النضال الطبقي"^(١).

ولكن أيضاً كان هناك إحساس بأن هذه الكلمات تعبر عن موافقة داخلية مع ما قاله الأنصار المعارضين! ولطالما قالوا في موسكو كلاماً مغايراً كذلك: "النقابات اليهودية تعارض نهائياً قبول العرب". وهذا حدد أهم مهمة للحزب: "لمصلحة النضال ضد الرأسمالية، يجب إنشاء نقابات للعمال العرب في أسرع وقت ممكن. الحزب هو المبادر هنا ولكن يجب أن يتعلم كيفية استخدام اليساريين من القوميين العرب"^(٢)، ولكن لا ينبغي بأي حال من الأحوال (وهذا خطأ جوهري) تشكيلها "مع القوميين العرب"^(٣).

بعبارة ثانية، فيما يتعلق لمخالفاتهم العرب، كان على الشيوعيين أن يتبعوا نفس المسار كما في علاقتهم مع اليسار في بوعالي تسيون أو غدود أفودا. ولم تكن تتوفر لدى الكومنترين أية وصفات أخرى. لقد دخل حقبة أصبح فيها أكثر وضوحاً، التركيز على فكرة المواجهة المباشرة بين البروليتاريا والبرجوازية - تكتيكات "الطبقة ضد الطبقة".

(١) نداء من المكتب التنفيذي للبروف ايتيرين "إلى جميع أعضاء الكتلة العمالية وأنصار البروف ايتيرين في فلسطين".

RTSKHIDNI, f. 534, op. 6, units ridge 113, l. 38.

(٢) من الأمانة السياسية للجنة التنفيذية للأمية الشيوعية إلى الحزب الشيوعي الفلسطيني بتاريخ ٢٤ ديسمبر عام ١٩٢٧.

Ibid., f. 495, op. 81, unit ridge 53, l. 13-14.

(٣) إلى اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الفلسطيني من الأمانة السياسية للجنة التنفيذية للأمية الشيوعية ١٠ فبراير عام ١٩٢٨.

Ibid., f. 495, op. 81, unit ridge 70, l. 21-22.

وأخذوا يعتبرون كل الذين وجدوا أنفسهم بين القوتين المتعارضتين بمثابة "الفاشييين-الاجتماعيين" إذا حاولوا اتباع مسار يختلف قليلا على الأقل عن مسار "طليلة البروليتاريا" - الحزب الشيوعي.

(٥) الشيوعيون الفلسطينيون في الثلاثينيات: القضايا العربية واليهودية في فلسطين

كانت فترة نهاية العشرينات ، عمليا بمثابة إعادة توجيه شبه كاملة للشيوعيين للعمل في البيئة العربية الفلسطينية. ولم يكن الحزب الشيوعي الفلسطيني أي خيار بديل آخر. لقد قام الكومنترين بتنفيذ عملية تحويل صارمة للجذور اليسارية الراديكالية في حزب العمال الاشتراكي الفلسطيني وكذلك للجذور القومية فيه وجعله يتحول إلى حزب شيوعي ، وساهم كذلك في طرد الحزب الشيوعي من صفوف المشاركين في عملية "بناء الأمة" اليهودية. كان الحزب يتغير ، وتحددت هذه التغييرات من خلال تحولات أكثر أهمية تطورت خارجه ، على مستوى "قيادته العليا" - على مستوى اللجنة التنفيذية للأمية الشيوعية.

في عام ١٩٢٨ تم في "Correspondances Internationales" طباعة نشر مقالة بقلم ف. أربوخ ، الذي ظل كزعيم للشيوعيين الفلسطينيين (ولكن باسم مستعار جديد وهو - حيدر^(١)) ، تحت عنوان "الحركة الشيوعية في شرق الجزيرة العربية"^(٢). وفي المقالة ، اقترح مؤلفها رؤية لتطور الحركة القومية في دول المنطقة العربية مستوحاة من النزعات الجديدة في تطور الكومنترين.

وفي المقالة ، أكد أربوخ أن تجربة العشر سنوات لتطور الشرق العربي ، بما في ذلك بالطبع فلسطين ، يمكن تقسيمها إلى ثلاث فترات.

(1) RTSKHIDNI, f. 495, op. 81, unit ridge 90, l. 15 .

(٢) هنا ولاحقا : Correspondances Internationales, 1928, N 80, P. 94 ..

الفترة الأولى - من عام ١٩١٨ إلى عام ١٩٢٢ ، كانت فترة "النضال الثوري القوي الذي هدد بالقضاء على قواعد الإمبريالية وجميع مواقعها بشكل عام في بلدان الشرق الأوسط". لقد قام "المثقفون في المدن والعمال والفلاحون" المنتفضون في مصر وسوريا وشرق الأردن وبلاد ما بين النهرين وفلسطين "بمحاولات يائسة للدفاع عن استقلالهم عن الجنرالات الفرنسيين والبريطانيين". في تلك السنوات ، ضحى أفضل ممثلي الحركة الوطنية بأرواحهم من أجل استقلال بلادهم.

خلال الفترة الثانية ، التي استمرت حتى نهاية العشرينيات من القرن الماضي على الأقل ، أدى التطور السريع للعلاقات الرأسمالية في الدول العربية في الشرق الأوسط التي أصبحت مستعمرات أوروبية إلى "تفكك حاد لأشكال الاقتصاد الإقطاعية القديمة" و "نمو أشكال الإنتاج الرأسمالية الجديدة". وتمكنت البرجوازية الشابة في البلدان العربية الاستيلاء بفعالية ونشاط على المواقع الاقتصادية والسياسية. وهكذا ، تم دفع "القضايا القومية ، ومسألة الإمبريالية الأجنبية إلى الموقع الخلفي. ظهرت في المقدمة الخلافات داخل الطبقة الواحدة والنزاعات الطبقة".

وأشار كاتب المقالة ، إلى أن الرأس المالية الأوروبية تمكنت من التمرکز في "مستعمرات الشرق الأوسط" ، وقامت باستخدام أشكال وأساليب جديدة لاستغلال السكان الأصليين. وبدأت فترة "تغلغل المتبادل لرأس المال الأجنبي والصناعات المحلية الفتية" ، عندما "تصرف رأس المال الأجنبي بشكل غريزي كراع للسياسة الوطنية المحلية ، المبادرة بالمطالب الأساسية للبرجوازية الأصلية".

وكان رأس المال هذا المبادر لتنفيذ الدول العربية لسياسة الحماية الجمركية ، وأنشأ البنوك الوطنية والشركات الصناعية. وبدأت الحركة الوطنية تفقد "أشكالها الثورية السابقة ، ومحتواها الثوري ، وتنادي بحزم بالتسويات والحلول الوسط ... مع الإمبرياليين".

لقد اعتقدت البرجوازية الوطنية التي كانت تقود هذه الحركة أن المهمة الحالية لهذه الحركة "لا تتمثل في النضال ضد الإمبريالية، بل على العكس من ذلك، تهدف إلى إنشاء جبهة موحدة مع الإمبريالية ضد خطر نمو الحركة العمالية".

وأخيرا الفترة أو المرحلة الثالثة، التي تزامنت في الوقت مع بداية استقرار الرأسمالية في أوروبا. كانت هذه هي مرحلة "الأزمة الحادة" للحركة الوطنية في الدول العربية وانهارها. وبدلاً من القوميين حلت الحركة العمالية التي أنشأها الشيوعيون. وبسبب هذا، أكد أفربوخ أن الحركة العمالية في الشرق الأوسط تعمل كحركة "شيوعية". وشدد على أن مهمتها تكمن في محاربة كل من الإمبريالية الأوروبية وبرجوازية في بلدانها. بالطبع اضطر الشيوعيون الفلسطينيون إلى اعتبار الحركة القومية العربية، بمثابة القوة الثورية القوية، قبل ظهور هذا المقال.

في الوقت نفسه، وعلى الرغم من الضغط القوي من جانب الكومنترن، استمرت في صفوف الشيوعيين الفلسطينيين في ذلك الوقت، المناقشات حول موضوع الموقف من القوميين العرب^(١). ولكن على الرغم من ذلك كان ظهور مقالة أفربوخ يعني أنه لم يعد

(١) في عام ١٩٢٧، عقد المؤتمر الأول للقسم الفلسطيني في المنظمة الدولية لمساعدة الثورات. وخلال عمل المؤتمر، أصبح موضوع تقديم المساعدة للمشاركين في الحركة القومية العربية وتنظيم حملات التضامن معهم موضوع نقاش ساخن تم خلاله التعبير عن وجهات نظر متناقضة بشكل مباشر. إحداها، وعبرت عنها تسيورا (هنا ولاحق، يجري الحديث عن أسماء حزبية مستعارة)، كانت تتلخص فيما يلي: الحركة القومية العربية الفلسطينية، هي برجوازية في جوهرها. وهي بهذا المعنى لا تختلف عن الصهيونية. أما البروليتاريا فلا يجوز أن تتخلى عن قواها من أجل مساعدة البرجوازية. وكان هناك رأي آخر عبر عنه لام الألف: "يجب حتما التمييز بين القومية والنضال التحريري للشعوب المظلومة. تضم الحركة القومية في صفوفها فصائل مهمة من الشغيلة، وبالتالي تصبح حركة عمالية. ترتبط البرجوازية الوطنية ارتباطاً وثيقاً
=/=

من الممكن بعد مناقشة فكرة الدور القيادي للحزب الشيوعي الفلسطيني في علاقاته مع القوميين العرب. الآن بات يجب تحويل هذه الحركة، التي يوجد في صفوفها بالفعل مجموعة من العمال "الشيوعيين"، لتصبح بدورها شيوعية.

في مايو ١٩٢٨، كتب كيتاغوردوسكي للشيوعيين الفلسطينيين أنه "لا يجوز لهم بأي حال" السماح "بتشكيل هيئة قيادية مركزية مشتركة ذات توجه يساري" لقيادة الحركة الوطنية. والحديث هنا جرى عن أنه لو قام القوميون اليساريون بتشكيل هذه الهيئة فيجب تحويلهم "إلى الشيوعية"، وضمهم إلى صفوف الحزب الشيوعي وفي نهاية المطاف الوقوف في مقدمة قيادة "حركة العمال والفلاحين والمثقفين المناهضة للإمبريالية"^(١). ولكن مقالة أفربوخ تستحق الاهتمام ليس فقط بسبب هذه النقطة. هو لم يتحدث عن فلسطين، بل تحدث عن "شرق شبه الجزيرة العربية"، التي كانت فلسطين جزء منها فقط، إلى جانب مصر وشرق الأردن ولبنان وبلاد الرافدين (العراق).

كانت هذه صياغة مهمة بشكل أساسي للسؤال. لقد أحييت كلماته (طبعاً، مصر عنصر جديد هنا) فكرة "سوريا التاريخية" - موطن عقيدة وممارسة "النهضة العربية"، التي

بالإمبريالية؛ لذلك فإن الحركة الوطنية العمالية، في ضربها للإمبريالية، تضرب في نفس الوقت البرجوازية الوطنية.

من جانبه، قال المدعو محمد أنه في سياق النضال الوطني، يجب على البرجوازية ذات التوجه الوطني أن تتماشى مع الحركة العمالية. وطور زاخاريا فكرته، ووفقاً له بهذه الطريقة يتم تحديد كل من حدود الطبيعة الثورية للبرجوازية الوطنية وحدود مساعدة وتحالف البروليتاريا والمشاركين الآخرين في النضال الوطني // RTSKHIDNI, f. 539, op. 3, d. 887, l. 4-11.

(١) إلى اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الفلسطيني بتاريخ ١٠ مايو ١٩٢٨ // نفس المكان. ف ٤٩٥ اوب ٨١ وحدة الحفظ ٧٠ الصفحة ٥.

لم تموت في أذهان المثقفين العرب من هذا الجزء من المنطقة العربية. لقد سعى المثقفون العرب، في المقام الأول تقريبا، إلى استعادة وحدة أراضي "سوريا التاريخية". والبلشفية اختارت في فترة سابقة نفس أداة العمل التي أثبتت فعاليتها بنجاح في الحفاظ على وحدة أراضي الدولة التي حدثت فيها الثورة الاشتراكية الأولى. ولكن هذه الوحدة باتت ذلك هدفا للشيوخيين الفلسطينيين العرب وهو ما يعني أنه لم يعد هناك مكان "للوطن التاريخي لليهود" في حدود "سوريا التاريخية" فما بالك بالدولة العبرية.

وبدا الآن للشيوخيين العرب أن النضال ضد "الصهيونية"، وكما ضد الاضطهاد "الإمبريالي" الأجنبي، وكذلك البرجوازية القومية الخائنة، ككتلة معادية واحدة، أصبح مشروعاً لأنه تمت مباركة ذلك بواسطة "الأمية البروليتارية"، وحصل هذا النضال على دعم من قوة خارجية، بدأت ترى قوة التقدم ليس في اليهودية، بل في العرب المتحالفين معها. لقد ظهر العمال اليهود في فلسطين بفضل الحركة الصهيونية، وظلوا جزءاً من اليسوف، وبذلك لم يقيم أفربوخ بالإشارة إليهم كقوة ثورية. لقد قام كاتب المقالة بإعادة النظر بشكل نهائي في الوقائع التي سبق أن اعترف بها. لم تعد الحركة القومية العربية، بما في ذلك مكوناتها الفلسطينية، "متسببة بالمذابح" أو "مائة سوداء" أو تستلهم "إقطاعية أفندي"، بل حصلت هذه الحركة على ملامح النضال البطولي الذي يخوضه ويستشهد فيه أفضل أبناء شعبهم. لكن تمت الإساءة للأهداف العظيمة التي ناضلوا من أجلها وقامت البرجوازية الوطنية بخيانتها. إلا أن الوضع لم يكن ميؤوساً منه. وبدلاً من الجمود والاضطراب وهدر قيمة القيم الوطنية، حلت مجدداً حقبة من النضال المتفاني من أجل سعادة الناس واستقلالهم الحقيقي. في طليعة هذا النضال سارت طبقة اجتماعية جديدة بشكل مبدئي. وتشكلت هذه الطليعة من العمال الذين نظمهم الشيوعيون وقاموا بتربيتهم، وهم استعداد للانضمام بلا خوف إلى الكفاح ضد الظالمين الأجانب وأتباعهم

العرب. لم يكن موت الأبطال في سنوات ما بعد الحرب عبثاً، فقلد التقط الأبناء هذه المرة الراية التي سقطت من أيدي الأباء، بعد أن تعرفوا على الحقيقة العليا وأصبحوا مقاتلين عالميين وجيش البروليتاريا الذي لا يقهر. لقد تغير الحزب الشيوعي الفلسطيني وبدت هذه التغيرات الجارية فيه لا رجوع فيها. ولعل المؤشر الأبرز لهذه التغيرات هو تكوين اللجنة المركزية للحزب التي عملت في الفترة ١٩٢٨-١٩٣٢. لقد بقي في قيادة الحزب أفربوخ وإي. بيرغر ون. ليشينسكي، ولكن من بين أعضاء القيادة الثمانية المتبقين، كان هناك أربعة من العرب، ومن أبرزهم كان محمد الأطرش. بالطبع، تم إشراك جميع الأعضاء العرب في أعلى هيئة قيادية للحزب فيها بعد عودتهم من الدراسة الجامعية في موسكو (ولهذا السبب بالذات، تم إرسالهم إلى هناك).

في نفس الوقت أدت عملية "تجذير" الحزب الشيوعي الفلسطيني، إلى ظهور في قوام لجنته المركزية، شخص كان ينتمي إلى من كان أفربوخ يسميهم أبناء بلاد الشام- شخص من صفد الواقعة في الجليل، أهم مركز للدراسات اليهودية في فلسطين. والحديث هنا يدور عن المدعو م. سيغال الذي أقرن العربية، لأنه "عمل باستمرار في البيئة العربية"^(١). بالطبع، هذا لا يعني أن الحزب الشيوعي الفلسطيني أصبح بالفعل، منظمة عربية بحتة.

في أوائل عام ١٩٣٠، ذكر م. سعدي (م. الأطرش) أن للحزب أربع خلايا تعمل في القدس وحيفا ويافا وتل أبيب. وكان تنظيم الحزب في القدس يضم ٣٠ عضواً، خمسة منهم من العرب. وكان الوضع في حيفا ماثلاً (٢٥ شيوخاً بينهم خمسة عرب). وضمت خلية الحزب في تل أبيب ٢٥ شخصاً، جميعهم من اليهود. كان هذا مفهوماً لأن تل أبيب

(١) تكوين اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الفلسطيني، بدون تاريخ. // نفس المكان. ف ٤٩٥ اوب ٨١

وحدة الحفظ ١٤٥ الصفحة ١-٧.

كانت مدينة يهودية. ونفس الأمر كان في يافا حيث نشط ١٨-٢٠ شيوعيا عربيا. وصدرت جريدة الحزب اليهودية (بلغة الايديش) تحت اسم "فورفيس" (إلى الأمام) مرتين شهريا بمقدار ١٣٠٠ نسخة، وباللغة العربية صدرت عن الحزب صحيفة "إلى الأمام" مرة واحدة فقط شهريا بمقدار ٥٠٠ نسخة^(١). ومع انضمامهم إلى الحزب الشيوعي الفلسطيني، كرر أعضاءه العرب الجدد من نواح عديدة مصير أسلافهم اليهود الشيوعيين. لقد أصبحوا منبوذين في محيطهم القومي. لكن هذا دفعهم فقط إلى أن يفرضوا بشكل حاسم على الحزب أفكارهم الخاصة حول دوره ومكانه في إطار الحركة القومية. ولقد تلقوا في ذلك الدعم من جانب الكومنترن.

في مارس ١٩٢٩، صدر العدد الأول من صحيفة "إلى الأمام" باللغة العربية، وحدث ذلك قبل أن يبدأ الحزب في إصدار صحيفته باللغة العبرية. وفي ذلك العدد تم نشر مقالة ذات أهمية مبدئية للمسار الجديد للشيوعيين الفلسطينيين وجاءت تحت عنوان - "ماذا يريد الحزب الشيوعي؟"^(٢).

بالإشارة إلى مثال الاتحاد السوفيتي، شددت المقالة على أن الهدف الرئيسي للشيوعيين هو إنشاء حكومة عمال وفلاحين لتقوم "بإنهاء النظام الرأسمالي الاستغلالي وتحويل المصانع والآلات والأراضي والقصور إلى ملكية عامة" ولتثبت من خلال ذلك أن بناء المجتمع الاشتراكي، ممكن وقابل للتحقيق. وشددت المقالة على أنه، إذا بدأ الشغيلة

(١) تقرير م. سعدي حول الوضع داخل الحزب الشيوعي الفلسطيني عام ١٩٣٠ // نفس المكان. ف ٤٩٥
اوب ٨١ وحدة الحفظ ١١٢ الصفحة ٥٤-٥٧.

(٢) تم نسخ هذا العدد من جريدة "إلى الأمام" مجددا في // البديري م. ص ١٤٢-١٤٨.
نص المقالة // اقتباس من الصفحة ١٤٣-١٤٦.

العرب في فلسطين، وعلى غرار البلاشفة الروس، بالنضال من أجل تحقيق التحرر الحقيقي، فعندئذ في النهاية سوف "يكتسبون الحرية والعالم بأسره"، بعد أن يأخذوا ذلك من "الأغنياء والمشايخ". الملفت للنظر في المقالة ليس أسلوب الرنان في كتابتها - يبرر هذا الأسلوب الوضع في تلك السنوات والالتزام بالمبادئ التوجيهية العامة للكومنترن حول التحريض الفوري على المواجهة الطبقية مع مضطهديها والأجانب. تثير الفضول لغتها مثيرة عندما قام مؤلف المقال، بسبب عدم تطوير المفردات الاجتماعية والسياسية للغة العربية في تلك الحقبة، وانخفاض مستوى القراء الذين تستهدفهم هذه الجريدة، بتبسيط أهم أحكام العقيدة الشيوعية، وتخلي عن التنظير وسرد ممارسات محددة، والتي تحولت إلى استخدام اللغة الدفاعية لتبرير السطو والعنف.

لكن هذا المقال لم يذكر كلمة واحدة، عن كيفية دفع العمال العرب لإظهار قدراتهم وإمكانياتهم "الشيوعية". بعبارة أخرى، على الأغلب كان الشيوعيون الفلسطينيون في أواخر العشرينيات، مقتنعين بأن ظهور هذه الفرص سيحدث بشكل عفوي، لأن العمال العرب ينجذبون "بشكل غريزي" إلى المثل الأعلى الشيوعي.

وهذا يعني، بدوره أنه كان يجب على الشيوعيين فقط دعم هذا العمل الاحتجاجي أو ذاك من جانب العمال والفلاحين، وتعزيز توسعه، وفي النهاية، أخذ زمام المبادرة في هذا العمل. إذا اندلع هذا الاحتجاج في أي وقت، فإن المواطنين اليهود في فلسطين سيصبحون أيضاً هدفاً لـ "الكراهية الطبقية". وكان ذلك مبرراً، لأن اليسوف بات فعلاً جزءاً من نظام القمع الرأسمالي - الاستعماري. وفقط يجب أن تندلع انتفاضة العمال والفلاحين العرب ولتكن "طبقية" في طبيعتها. وباشر الحزب الشيوعي الفلسطيني والكتلة

العمالية بالاستعداد لـ "الحملات والإضرابات العربية المقبلة"^(١). وكان هناك ظرف واحد فقط يعوق تطور العملية التي يجب عليها التسبب بانفجار الروح الثورية "الغريزية" للعمال العرب. تلخص هذا الظرف في أن العرب كانوا "قوميين". ولكن الشيوعيون اعتقدوا أنه يمكن تخطي ذلك بسهولة.

في صيف عام ١٩٢٦، طرح الحزب الشيوعي الفلسطيني، تلبية لرغبات الكومنترن الملحة، مهمة إنشاء "منظمة ثورية وطنية" في صفوف الحركة القومية العربية الفلسطينية تكون قادرة على "عزل القيادة الأبوية - الرجعية لهذه الحركة" وقيادة نضال الجماهير العربية من أجل تحرير بلدانها من نير استعمار بريطانيا^(٢).

ولحل هذه المهمة، أقام الشيوعيون اتصالات مباشرة مع مجموعة من القوميين العرب بقيادة حمدي الحسيني، الذي كان في تلك السنوات على ما يبدو الممثل الأبرز للتيار الديمقراطي اليساري في أوساط القوميين العرب الفلسطينيين.

وخلال وصفه لهذا الرجل، قال ي. تبيير وهو من قادة الحزب الشيوعي الفلسطيني: "يلبي حمدي الحسيني تماما كل التصورات عن القائد القومي التقدمي. لقد كان معاديا للإمبريالية، ووضع الحدود والفارق بين المواطنين اليهود في البلاد والصهاينة، واعترف بالحاجة إلى التعاون مع العمال اليهود في النضال من أجل تحسين الوضع المادي للجماهير العربية العاملة. ووافق الحسيني على وجهة نظر الحزب الشيوعي فيما يتعلق بضرورة إقامة تعاون بين الحركة القومية والحركة العمالية التي يقودها الاتحاد السوفيتي"^(٣).

(١) قرار الجلسة المكتملة للمجلس المركزي للكتلة العمالية بشأن العمل بين العمال العرب (١٩٢٩) //

RTSKHIDNI, f. 534, op. 7, units ridge 418, l. 57.

(2) International Press Correspondent, 1926, N 68, P. 1184-1185.

(3) Offenber M., op. cit., S. 356-357.

وبعد إنشاء الرابطة المناهضة للإمبريالية عام ١٩٢٧ ، أصبح الحسيني أحد قادتها. وجرى الحديث عن النسخة العربية للجنة الأنكلو- روسية ، والتي كانت النسخة اليهودية منها هي إقامة علاقات بين الحزب الشيوعي الفلسطيني وبين يسار بوعالي سيون ، الذي أخذ يتبلور في إطار حركة إيهود.

وعملت مجموعة الحسيني كمنظمة متكونة في الساحة السياسية لفلسطين خلال أعمال المؤتمر العربي الفلسطيني السابع^(١) ، الذي بات ساحة لصراع شرس بين القادة التقليديين للحركة الوطنية و "المعارضة" ، والتي تمثل ، كما لاحظ الشيوعيون ، مصالح "المثقفين العرب والبرجوازية الصغيرة"^(٢).

لقد اعتبر الشيوعيون أن مجموعة الحسيني فقط دعمت الخط المعارض للإمبريالية الصهيونية ، خلال الوضع عندما تمكن الجناح اليميني للحركة العربية الفلسطينية من فرض القرار بالتخلي عن مقاطعة سلطات دولة الانتداب واقتصار نشاطات القوميين فقط على التصرفات المعادية للصهيونية. واعتبروا أنه من الممكن مساعدتها في التخلص من

(١) المؤتمر العربي الفلسطيني كان يعتبر الهيئة الإدارية العليا للمجتمع القومي العربي الفلسطيني في فلسطين خلال الانتداب البريطاني. وكان المندوبون المشاركون فيه يعتبرون كممثلين عن المدن والبلدات الكبيرة والأحزاب والمنظمات السياسية والجماعات والجمعيات الدينية في الوسط العربي. انعقد المؤتمر العربي الفلسطيني الأول في القدس في الفترة من ٢٧ يناير إلى ٤ فبراير ١٩١٩. كما انعقد المؤتمر العربي الفلسطيني الثامن في القدس في ٢٠-٢٧ يونيو ١٩٢٨. انتخبت المؤتمرات العربية الفلسطينية للجنة التنفيذية للمؤتمر العربي الفلسطيني التي قادت الحياة الوطنية للعرب الفلسطينيين بين دورات المؤتمر. حول المؤتمر العربي الفلسطيني السابع // القادة السياسيون والمؤسسات الفلسطينية. ١٩١٧-١٩٤٨. بيروت عام ١٩٨١ الصفحة ١٩٥-١٩٨.

(٢) سعدي م. القوميون اليساريون العرب على طريق التمايز // الشيوعية الدولية ، ١٩٣٠ ، رقم ٢٩-٣٠ ، ص ٨١.

"الفكر الإصلاحي الوطني"^(١).

وطبعا كان لوجهة النظر هذه، دلالات. لم يفكر الشيوعيون بأي طريقة أخرى لطرح مسألة الاتصالات مع حسين الحسيني، إلا فيما في إطار "منظمة تضم" مؤيدي آرائه ومساعدة هؤلاء الأنصار على التخلص من المذهب العقائدي الأقل عظمة وقوة.

لقد سعى الشيوعيون إلى فرض وجهات نظرهم على الذين يمكن أن يصبحوا حلفاءهم المحتملين باسم ومن أجل تحقيق الانطلاق المتوقع من جانبهم للمواجهات الطبقية بين "الزعماء الإقطاعيين" للحركة الوطنية العربية الفلسطينية، من جهة و"العمال والفلاحين" من جهة أخرى.

في الوقت نفسه، اعتقد الشيوعيون بصدق أنه إذا اندلع صدام طبقي في فلسطين في المستقبل المنظور، فإن "الإصلاحيين الوطنيين"، الذين يحتلون موقعا وسيطا بين البروليتاريا وخصومها "البرجوازيين الإقطاعيين"، سيندثرون. لأن عناصر المجموعات مثل المجموعة التي يقودها الحسيني، أما أن سينضموا إلى البروليتاريا أو ينزلقوا إلى تحالف مفتوح مع

(١) شامي. النضال الطبقي والقومي في فلسطين // الشيوعية الدولية، ١٩٢٧، عدد ٨، ص ٣٤-٤٠. في بيان اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الفلسطيني، في ختام أعمال المؤتمر العربي الفلسطيني السابع، أشار الشيوعيون إلى أن جميع القادة والمجموعات السياسية الممثلة فيه، "باستثناء عدد ضئيل للغاية من المشاركين فيه، كانوا من المعتدلين، ودعوا إلى التفاهم المتبادل مع البريطانيين. وهذا الموقف يمثل خيانة للأمة". علاوة على ذلك، تم التأكيد في نفس البيان على أن المؤتمر لا يمكن أن يعتبر نفسه "ممثلاً للشعب العربي"، حيث لم يكن بين مندوبيه ممثلين للعمال والفلاحين. في النضال من أجل استقلال فلسطين، ومن أجل إلغاء وعد بلفور والنضال ضد الإمبريالية البريطانية والصهيونية و"الخونة الوطنيين"، كان الشيوعيون، "على استعداد لمساعدة أي تجمع ثوري وطني في صفوف الحركة القومية" تكافح ضد الإمبرياليين، ألد أعداء الشعب ولتحريره من العقيدة القومية الإصلاحية. نص البيان // الحوت. ب. ن. اقتباس من النص ص ١٩٧.

الرجعية. وكانت مهمة الحزب الشيوعي الفلسطيني ، تكمن هي فقط تسريع هذه العملية. **لقد عرف الشيوعيون تفاصيل حياة الحسيني.** واتبع الكثيرون منهم طريقا مماثلا ، كانت بداياته في العقيدة القومية. ولهذا السبب بالذات لم بتاتا يستطيعوا فهم لماذا لا يزال "الوحي الإلهي" - التجربة البلشفية - التي اطلعوا عليها ، لا تزال بعيدة عن تناول الآخرين... الحسيني من مواليد غزة. ولم يكن ينتمي إلى العشائر الفلسطينية ذات النفوذ التقليدي. وعندما اندلعت الحرب العالمية الأولى كان موجودا في دمشق ، حيث كان عضوا في أندية قومية عربية سرية دعت إلى استقلال "سوريا التاريخية" عن الإمبراطورية العثمانية. في أغسطس ١٩١٨ التحق بالجيش العربي للأمير فيصل (كما فعل م. الأطرش). وأدى انهيار "المملكة السورية الهاشمية" إلى عودة الحسيني إلى فلسطين.

هناك أصبح أحد منظمي الجمعيات السياسية الأولى في البيئة الفلسطينية - "النوادي الإسلامية المسيحية" ، التي كانت تعمل بشكل أساسي في يافا. كانت فكرة الوحدة القومية الطاغية بالنسبة له. ولكن الحسيني أدرك كذلك الأهمية المبدئية لتطور نشاط الأحزاب السياسية القومية ، لأنه فقط بمساعدتها ، كما كان يعتقد ، "ستعلن الأمة بصوت عال أنها تمتلك الكلمة الحاسمة في حل المهام التي تواجهها".

وكانت المجموعة التي شكلها و"المعارضة" للقيادة التقليدية للحركة القومية تهدف إلى توسيع الإطار "الضيق" لـ "العمل القومي". لقد بدا للحسيني أن هذا التصرف كان يشمل كذلك فكرة الوحدة العربية ، لذلك طالب بعدم الاقتصر فقط على "النضال من أجل القضاء على وعد بلفور" ، معتقدا أن النضال من أجل "إلغاء الانتداب وتشكيل حكومة وطنية سيصبح خدمة حقيقية لمبدأ الاستقلال الكامل فلسطين في إطار وحدة قومية عربية شاملة".

كان من المفترض أن يكون استقلال فلسطين مساهمة للحركة الوطنية العربية

الفلسطينية في استعادة وحدة "سوريا التاريخية". وهذا بالذات ، وليس "صراع البروليتاريا الطبقي" ، الذي كان يشكل مصدر اهتمامه في المقام الأول^(١).

لم يكن بمقدور الحسيني أن يصبح شيوعيا وداعما للثورة الاشتراكية. لقد حدد لنفسه فقط "الهدف القومي الأسمى" ، ولكن في ذلك الوقت ، كان يقف في فلسطين على رأس مجموعة راديكالية وديمقراطية إلى حد ما ، سعت إلى خلق قاعدة اجتماعية قوية لنفسها. وبفضل وجود هذه المجموعة والتحالف معها والمساواة في العلاقات مع زعيمها وقائدها ، كان يمكن للشيوعيين أن يدخلوا الوسط العربي الفلسطيني وأن يشاركوا في الأحداث التي تجري هناك. ولكن الواقع الذي انتظرهم كان مغايرا ومختلفا ، لأن حتى الأصل العربي للعديد من الشيوعيين الفلسطينيين لم يكن بأي حال ضمانا للاعتراف التلقائي بهم من قبل الجمهور الذي سعوا لإيقاظ إمكاناته الثورية.

وقد ثبت ذلك من خلال "الانفجار العفوي" الجديد للمظاهرات الجماهيرية للسكان العرب في فلسطين ، والتي كان الشيوعيون ينتظرونها بفارغ الصبر.

في أغسطس ١٩٢٩ ، اجتاحت الاضطرابات فلسطين مرة أخرى. اندلعت في البداية كنزاع طائفي عند حائط المبكى في القدس ومن ثم انتشرت في كل البلاد على الفور ، وخلالها حدثت مواجهات مرعبة في قسوتها^(٢).

(١) الحوت. ب.ن. اقتباس من النص الصفحات ٥٦ ، ١٨٦ ، ٢٣٤-٢٣٥.

(٢) السبب المباشر للاشتباكات الدينية عند حائط المبكى ، الذي هو بقايا مزار يهودي قديم - معبد سليمان ، كان محاولة اليهود المؤمنين لترتيب شاشات تفصل بين الرجال والنساء المصلين. لكن السكان المسلمين اعتبروا حائط المبكى أحد عناصر مجمع الأضرحة الإسلامية في القدس ، بما في ذلك مسجدي عمر والأقصى ، لذلك احتج المجلس الإسلامي الأعلى في فلسطين على الأعمال "غير القانونية" لليهود الذين ، تحت حكم ذريعة تركيب شاشات ، حاولوا تشييد أبنية دائمة على أراضي الوقف الإسلامي. =/=

لكن أثناء تلك الانتفاضة، تمت ملاحظة حقائق أخرى: تحت تأثير دعاية القوميين اليساريين، عارض المشاركون في أحداث عام ١٩٢٩ في بعض الأماكن "الأفنديين" الذين باعوا الأرض لصناديق الاستعمار اليهودية. وفي بعض المدن وجه المتمردون هجماتهم ضد مؤسسات دولة الانتداب، بما في ذلك المنشآت العسكرية البريطانية^(١).

لكن هذه الحالات كانت عرضية ولم تغير الصورة العامة للمذابح والعنف. وتبين أن "الانفجار الثوري العفوي" كان بعيدا كل البعد عن الآمال التي كان الشيوعيون يعلقونها عليه. وظهرت في تقييماتهم للانتفاضة التعابير التي بدت منسية منذ زمن بعيد.

قال قادة الحزب الشيوعي الفلسطيني أن أحداث أغسطس عام ١٩٢٩ كانت نتيجة لسياسة "الحكومة الإمبريالية والصهيانية الفاشيين والمجلس الإسلامي الأعلى والتي حولت قضية حائط المبكى إلى مشكلة سياسية كبرى، إلى رمز للهيمنة في البلاد". الأرض المقدسة^(٢).

وفي ١٤ و ١٥ أغسطس ١٩٢٩، نظمت مجموعات من اليهود المتعصبين مظاهرات حاشدة مناهضة للمسلمين في تل أبيب والقدس، هتف المشاركون فيها: "ملكية حائط المبكى" "البراق" تعود لنا فقط!". وللتصدي لهم، بدعوة من المجلس الأعلى الإسلامي، خرجت مظاهرات إسلامية مضادة. في ١٧ آب، اندلعت أول اشتباكات دينية في القدس وانتشرت في جميع أنحاء البلاد. ووقعت أعنف الاشتباكات العرقية في الخليل وصفد، حيث تم تدمير سكان الأحياء اليهودية المحلية // الشريف م. الحزب الشيوعي الفلسطيني وانتفاضة ١٩٢٩. // شؤون فلسطينية. بيروت عام ١٩٧٦ الرقم ٦١ الصفحة ٢١٦-٢٤٥. (١) شامي. الانتفاضة الفلسطينية والشرق العربي // "الشرق الثوري" إصدار عام ١٩٣٠ الرقم ٨ الصفحة ٤٧-٥٠.

(2) J.B. (Jérusalem). Le massacre en Terre Sainte// "Correspondances Internationales", 1929, N 84, P. 1155-1156; C.C. of the Palestine. The Revolt in Palestine// "International Press Correspondence", 1929, N 54, P. 1161-1163.

رسالة من فلسطين // الأمية الشيوعية. عام ١٩٢٩ الرقم ٣٦-٣٧ الصفحة ٥٥-٥٧.

وكما أكد إي. بيرغر، جاءت هذه الأحداث كنتيجة أفعال "مجموعات الفلاحين البدو المتعصبين، التي وجهتها البرجوازية والاقطاع ورجال الدين المسلمين لإضرار النار والانتقام من سكان المستوطنات اليهودية الفقراء والعزل"^(١).

من جانبه، أشار ف. أفربوخ إلى أن "البرجوازية الصهيونية" تسعى جاهدة لتوسيع "الفجوة التي تفصل العمال اليهود عن العمال والفلاحين العرب".

وكتب المذكور أن كل ضحية جديدة للكراهية القومية تقيم جدار الاغتراب بين العمال اليهود والعرب، مما يعوق تطور الحركة الثورية في البلاد^(٢).

وأخيرا، صرح ناحوم ليشينسكي (ناداب) بأن القوميين العرب بحاجة إلى مثل هذا التطور للأحداث من أجل وضع حد لـ "التوسع الاقتصادي للصهاينة" وصرف انتباه الفلاح الذي يستغل من قبل ملاك الأراضي العرب عن عدوه الطبقي الحقيقي وتوجيه كراهيته ضد اليهود. وأضاف ليشينسكي أن الانتفاضة كانت ضرورية "للإقطاعيين العرب" الذين رغبوا باستخدام "المذبحة اليهودية العربية" من أجل توجيه ضربة إلى "الوعي الطبقي المتنامي للبروليتاريا العربية"^(٣).

في الوقت نفسه، اعترف منظرو الحزب البارزون بأن "الحزب الشيوعي الفلسطيني بدا ضعيفا للغاية وقت الانتفاضة، بسبب التركيبة القومية له ولأنه كان معزولا عن الجماهير العربية وغير مستعد تماما للانتفاضة"^(٤).

(1) J.B (Jérusalem), op. cit., P. 1155 .

(٢) أبو زيام. الانتفاضة في فلسطين. إصدار عام ١٩٣٠ الصفحة ٦٣-٦٤.

(٣) ناداب. الانتفاضة في فلسطين والحركة القومية العربية (رسالة من فلسطين) // "الشرق الثوري"، ١٩٣٠، رقم ٨، ص ٢٢٧.

(٤) ناداب. المؤتمر العمالي العربي الأول في فلسطين والنضال ضد الإمبريالية في الدول العربية // الأمية =/ =

لقد دعا الحزب الشيوعي الفلسطيني إلى اندلاع "المواجهات الطبقية" والمساعدة على تفجيرها، وكان ذلك موجهاً في المقام الأول إلى الرفاق اليهود في الحزب، الذين صدمتهم قسوة الأحداث عندما، وكما كتب أحد قادة الحزب، "تم تقسيم مدن ومناطق البلاد إلى" مناطق "قومية، حيث تعرضت للخطر المميت حياة كل يهودي يتجرأ على دخول" المنطقة العربية"، وكذلك حياة كل عربي حاول دخول "الأراضي اليهودية"، وأصبح لقاء بسيط للعمال اليهود والعرب عملاً محفوفاً بالمخاطر للغاية"^(١).

وبرز في صفوف الحزب الشيوعي الفلسطيني، "الميل الصحيح"، نفى أنصاره مرة أخرى بشكل قاطع الإمكانيات الثورية للحركة الوطنية العربية الفلسطينية، وأطلق على أعضائها لقب "مدبري المذبحة". لكن هؤلاء كانوا من الشيوعيين اليهود وليس العرب. ووقف إلى جانب "الميل الصحيح" أحد فروع الحزب الرئيسية للحزب، فرعه في حيفا^(٢). وعلى الفور قام الحزب الشيوعي الفلسطيني، بتوجيه سهام الانتقاد المرير إلى وجهة النظر هذه ووصفها "بالضلال الفظ والخطر" الذي ظهر على أساس "النزعة البرجوازية الصغيرة والانتهازية لدى بوعالي تسيون"^(٣).

الشيوعية، ١٩٣٠، رقم ٨، ص ٥٠.

(1) Bob (Jaffa). Le P.C. de Palestine et l'insurrection arabe// "Correspondances Internationales", 1929, N 105, P. 1460.

(2) ibid تم تحديد وجهة نظر أنصار "الميل الصحيح" في //

Alini. Les événements de Palestine// Correspondances Internationales, 1929, N 80, P. 1090-1091.

(3) في ١٣ أغسطس ١٩٢٩، بعثت الأمانة التنظيمية للجنة التنفيذية للأمية الشيوعية برسالة إلى اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الفلسطيني، تم التأكيد فيها على أن وجهة نظر "الميل الصحيح" كانت "وهما جسماً وخطيراً" نشأ في تربة انتهازية بوعالي تسيون البرجوازية الصغيرة والدفاع عن مواقفه "تعارض مع البقاء في صفوف الحزب". // Bob (Jaffa), op. cit.

وبالفعل نشأ موقف غريب حقاً. لقد بذل قادة الحزب الكبار، الذين عملوا فيه منذ نشأته، جهوداً بطولية حقيقية للدفاع عن الخط الذي تم اختياره عشية أحداث أغسطس عام ١٩٢٩، والذي أصبح حقيقة بفضل الضغط عليهم من قبل رفاقهم العرب الذين وجدوا الدعم في الكومنترن. ولكن خلال ذلك كانت هناك خيبة أمل واضحة في كلماتهم وكذلك هر فيها الخوف الصريح من احتمال تكرار ما حدث، وأصبح من الواضح أن دعمهم لمسار الكومنترن مسبب للعذاب. لقد جرى الحديث عن مأساة إنسانية ضخمة، تفاقمت بفعل إدراك أن موقف اللجنة التنفيذية للأمية الشيوعية لم يكن غير متحيزاً، وأن ظهوره مرتبط بمكائد حزبية داخلية.

دخل الحزب الشيوعي الفلسطيني مرة أخرى فترة أزمة داخلية حادة. وأضطر قاداته السابقون لإعلان التوبة علناً، وتجريم بعضهم البعض بارتكاب أخطاء "أيديولوجية"، والنأي بأنفسهم عن ماضي "بوعالي تسيون"، لإثبات "تفانيهم اللامحدود" للمثل العالمية للشيوعية. وتمت تسمية كل ذلك - بالمناقشات حول "المسألة العربية والموقف من الحركة القومية العربية الفلسطينية"، والتي استمرت حتى عام ١٩٣١ على الأقل^(١).

(١) تم نشر مواد هذه "المناقشة" في جريدة الجامعة الشيوعية لشغيلة الشرق // الشامي أ. الثورة الفلسطينية والشرق العربي // الشرق الثوري، ١٩٣٠، العدد ٨، ص ٢٥-٥٢؛ الشامي أ. مرة أخرى لمسألة الانتفاضة الفلسطينية // "الشرق الثوري".

عام ١٩٣٠، العدد ٩-١٠، ص ١٣٩-١٥٩؛ ناداب. حول الأساليب النقدية للرفيق. الشامي // "الشرق الثوري"، ١٩٣٠، العدد ٩-١٠، ص ١٣٠-١٣٨؛ ناداب. ضد اليمين - الارتباك "اليساري" في المسألة الاستعمارية // الشرق الثوري، ١٩٣٠، العدد ٩-١٠، ص ١٣٠-١٣٨؛ ناداب. ضد اليمين - الارتباك "اليساري" في المسألة الاستعمارية // الشرق الثوري. ١٩٣٠، العدد ١١-١٢، ص ١١٧-١٣٦. في تلخيص المناقشة، أشار محررو المجلة إلى أن وجهة نظر ناداب (ن. ليشينسكي) اتسمت بـ "أخطاء" =/ =

في فبراير عام ١٩٣١، كتب أحد المشاركين في هذه المناقشات وهو ن. ليشينسكي رسالة من موسكو إلى اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الفلسطيني (وتم إرسال نسخة من الرسالة إلى القسم الشرقي في اللجنة التنفيذية للأمية الشيوعية) وقال فيها أنه كعضو في "اللجنة المركزية القديمة، يتحمل المسؤولية المباشرة" عن توجيهاتها، والتي كانت "خاطئة بشكل أساسي وكانت تعبيراً عن التأثير الصهيوني علينا". وتابع كاتب الرسالة القول: "أن خط اللجنة المركزية (القديمة)، الذي دافعت عنه وقمت بتطبيقه بفاعلية، حال دون تعريب الحزب، ولم يمنح الحزب فرصة للخروج من حالة الطائفة العاجزة المتباعدة عن الجماهير"^(١).

لكن بدا أن الكثير من الأمور باتت محسومة. في ١٦ أكتوبر ١٩٢٩، تبنت السكرتارية السياسية في اللجنة التنفيذية للأمية الشيوعية قراراً بعنوان "حول حركة التمرد في عربستان"^(٢). تم فيه وضع كل شيء في مكانه.

لقد شددت اللجنة التنفيذية على أن انتفاضة أغسطس عام ١٩٢٩ كانت دليلاً حياً على اشتداد الصراع بين الإمبريالية والجماهير العاملة في البلدان المستعمرة، وظهور حركة التحرر الوطني في المستعمرات وأشباه المستعمرات. ونوه القرار بأن أسباب الانتفاضة

انتهازية يمينية جسيمة فيما يتعلق بالانتفاضة الفلسطينية". بدوره، لم يكن الشامي (ج. تيبير) خالياً منهم، وقبل كل شيء، لأنه في أعماله "أنكر النظام الاستعماري في أنصاف المستعمرات" و "قلل من الحركة القومية العربية في فترة ما قبل الحرب. حصرياً للمكائد الإمبريالية" // "الشرق الثوري"، ١٩٣١، رقم ١١-١٢، ص ١٣٧.

(١) رسالة من ناداب إلى اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الفلسطيني، ١٤ فبراير ١٩٣١.
// RTSKHIDNI, f. 495, op. 81, unit ridge 124, l. 1-lob 273.
(2) Correspondances Internationales, 1930, N 11, p. 116 and "Correspondances Internationales", 1930, N 12, p. 126.

تكمّن، تجاهل التطلعات القومية للعرب، وغياب أي حقوق سياسية لدى الجماهير في عربستان، في ظل الاستعمار الصهيوني العنيف لفلسطين.

وأكدت اللجنة التنفيذية للأمة الشيوعية أن فلسطين والشرق الأوسط ككل يدخلان مرحلة ثورة مناهضة للإمبريالية بقيادة جماهير العمال والفلاحين، والتي تتمثل مهمتها في النضال ضد الاضطهاد الأجنبي من أجل حل المشكلة القومية الشاملة - مشكلة الوحدة العربية وانجاز الثورة الزراعية.

بعبارة أخرى، كما جاء في القرار، يجري الحديث عن "ثورة برجوازية ديمقراطية في الفهم اللينيني لهذا المصطلح". بالطبع، تمت الإشارة أكثر إلى أن "هذه الثورة البرجوازية الديمقراطية ستتطور إلى ثورة اشتراكية. لكن المقولة عن الطابع البروليتاري للثورة في الظروف الفلسطينية، والتي أعلن عنها بالفعل بعض الرفاق، تتعارض تماما مع الواقع التاريخي ... وفي الظروف الخاصة لفلسطين لا يمكن إلا أن تعني ديكتاتورية حفنة من العمال اليهود على غالبية السكان العرب".

كانت هذه ضربة قاسية! وقامت اللجنة التنفيذية للأمة الشيوعية كذلك بتحليل مسار انتفاضة عام ١٩٢٩. وكان تحليلها مثيرا للفضول. وذكرت الوثيقة أنه في الأيام الأولى للانتفاضة تمكن "رجال الدين والإقطاعيين العرب من توجيه الانتفاضة إلى التيار الرئيسي للنضال بين الأعراق، لكن لاحقا عارضت الجماهير بشكل تلقائي المستعمرين البريطانيين والزعماء القوميين المحليين". بالطبع، تبنت "البروليتاريا" خلال الانتفاضة، موقفا "خاملا" إلى حد كبير. لكن "حركة التمرد، على الرغم من أنها اندلعت نتيجة الاستفزاز الأنكلو-صهيوني، الذي حاول الرجعيون العرب ... الرد عليه بمذبحة، إلا أنها كانت مع ذلك، حركة من أجل التحرر الوطني، وحركة مناهضة للإمبريالية. ... ومن حيث التكوين الاجتماعي، ساد فيها الفلاحون".

وتطرقت وثيقة اللجنة التنفيذية للأمية الشيوعية كذلك إلى تكتيكات القوى السياسية المختلفة في فلسطين خلال الانتفاضة. وفي هذا الصدد، قيل أن "البرجوازية الاستعمارية الصهيونية" لعبت دور "الوكيل المباشر للإمبريالية البريطانية".

نفس السمة نُسبت إلى يسار بوغالي صهيون، الذي "انحاز بالكامل إلى جانب الإمبريالية البريطانية والبرجوازية الصهيونية خلال الانتفاضة". وبدورهم، لعب الإقطاعيون العرب و"كبار رجال الدين المسلمين" في أغسطس ١٩٢٩ دور "الخونة والمحرضين والمعادين للثورة". لقد ضعفت الإمكانيات الثورية للفلاحين العرب بشكل كبير بسبب طبيعتها المشتتة وغير المنظمة، فضلا عن نقص الدعم من الطبقة العاملة. بعد ذلك جرى الحديث عن نشاطات الشيوعيين الفلسطينيين.

وذكر القرار أن الحزب الشيوعي الفلسطيني لم يكن مستعدا لانتفاضة. وحدث هذا لأنه ظل "حزب البروليتاريين اليهود" وكانت علاقاته ضعيفة مع السكان العرب عامة والفلاحين العرب خاصة. ولم يبدل الحزب جهوده لتنفيذ توصيات الكومنترن بـ "تعريب" صفوفه. وكانت تلك هي الكلمة الأساسية في الوثيقة! لقد فهم الشيوعيون الفلسطينيون "التعريب" على أنه "استمالة ميكانيكية في اللجنة المركزية لبعض الرفاق العرب".

ومن هنا ظهر "المسلك الروتيني" للحزب الشيوعي الفلسطيني تجاه "جماعة الحسيني القومية"، و"التناقض وعدم الاطراد" في فضح تصرفات سلطات دولة الانتداب و"عدم وجود التفاصيل" في انتقاد تصرفات القوى والأحزاب السياسية العربية واليهودية، وعلى وجه الخصوص اليسار في بوغالي - تسيون.

لاحقا وبعد ذلك بقليل، في نوفمبر ١٩٢٩، تم على صفحات "corrosponadaces internacional" نشر مقالة في لعضو في قيادة الكومنترن، الشيوعي التشيكوسلوفاكي ب. شميرال، الذي كان وقت انتفاضة عام ١٩٢٩ في فلسطين، وكانت تحت عنوان "المزيد

من الاهتمام بالأحداث في فلسطين وفي البلدان العربية⁽¹⁾. وفيها تم التطرق بالتفصيل إلى الأحكام الرئيسية في قرار اللجنة التنفيذية للأمة الشيوعية.

وأشار شميرال في مقالته إلى أن الانتفاضة الفلسطينية عام ١٩٢٩ كانت "أول انفجار للقوى الثورية الكبرى والمناهضة للإمبريالية المتراكمة بين الفلاحين البدو"، والتي لن يتمكن الإمبرياليون البريطانيون من تخويفهم. ووفقا له، كانت مهمة الكومنترن وأقسامها، قبل كل شيء، تكمن في استخدام طاقة المشاركين في "حركة التحرير الكبرى" للشعب العربي إلى أقصى حد ممكن وتوجيهها على طريق "النضال الثوري بحق ضد الإمبريالية ولصالح ثورة الفلاحين". واعتقد شميرال أنه يجب على العمال العرب المشاركة بشكل واسع في نضال الجماهير العربية العريضة، ضد الإمبريالية، لأن مصالح هؤلاء العمال "لا يتعارض بأي حال من الأحوال مع مصالح الفلاحين العرب". وخلال ذلك، يجب على الشيوعيين دعم حركة التحرير العربية بحزم، لأن المشاركين فيها هم "جماهير المناضلين البسطاء الذين تجمعهم مهام النضال ضد الإمبريالية والصهيونية".

واعتقد شميرال، في هذا الصدد أنه لا بد من دعم الجناح اليساري للقوميين العرب وعلى وجه الخصوص جماعة حمدي الحسيني. في فبراير ١٩٢٩، جاء الحسيني، الذي كان قد شارك قبل ذلك في مؤتمر الرابطة المناهضة للإمبريالية في كولونيا، إلى موسكو. وقبل الدخول في مفاوضات معه، طلبت اللجنة التنفيذية للأمة الشيوعية من بيرغر ممثل الحزب الشيوعي الفلسطيني في موسكو، تقديم وصف لهذا الشخص. وجاء في التقييم الذي قدمه بيرغر: بشكل موضوعي يعتبر حمدي الحسيني، من ممثلي البرجوازية الصغيرة (التجار والحرفيين والمتقنين من العائلات الإقطاعية الذين أصابهم الفقر)، التي تبحث

(1) Snteral B. Plus d'attention aux événements de Palestine et dans les pays arabes // "Correspondances Internationales", 1929, N 112, P. 1512.

عن دعم في الحركة العمالية الصاعدة وترغب في استخدامها. وبسبب الطابع شبه الزراعي للمدن، ترتبط هذه البرجوازية الصغيرة إلى حد ما بالريف، لكن لا يمكن اعتبارها ممثلة لمصالحه^(١). بعبارة أخرى، كانت تشكل عنصرا وسيطا. لكن السؤال كان يكمن وقبل كل شيء، في أن الشيوعيين الفلسطينيين بذلوا قصارى جهدهم لمنع الاتصالات المباشرة بين اللجنة التنفيذية للأمية الشيوعية والقوى الإقليمية الأخرى في البلاد والمنطقة. وإذا كان لهذه الاتصالات أن تحدث، ففقط من خلال وساطتهم وتحت رقابتهم.

في ٨ فبراير ١٩٢٩، سلم الحسيني "مذكرة" كان قد أعدها إلى اللجنة التنفيذية للأمية الشيوعية. وفيها حدد رؤيته للوضع في فلسطين والشرق الأوسط. وذكر أن "سكان البلدان العربية يتعرضون لضغط مزدوج: من الإمبريالية والتحالف الثلاثي لرجال الدين والرأسماليين وملاك الأراضي". ونوه بأن ممثلي "التحالف الثلاثي" كانوا في نفس الوقت "ممثلين للحركة الوطنية". وبعضهم - "الرأسماليون ورجال الدين" - هم "حلفاء للإمبرياليين". وشدد على أن، "الطبقات المضطهدة - الفلاحون العرب والعمال والمتقشفون - لا تلعب بدورها - في الحركة الوطنية الدور الذي يخصها". وضع الحسيني في المذكرة، تقييمه الذاتي للحزب الشيوعي ولقدراته. من نواح عديدة، كانت تشبه تلك التي قدمها ممثلو الحزب الشيوعي الفلسطيني إلى غدود أفودا. وكتب الحسيني أن الحزب الشيوعي الفلسطيني "ثابت في نضاله لكنه صغير ومعزول ولا يتمتع بنفوذ كبير في الدول العربية". وتوقع أن الشيوعيين لن يتمكنوا من توسيع نفوذهم في المستقبل: "١) غالبية الأعضاء من اليهود، والجماهير مقتنعة بأن اليهود والصهاينة أمر واحد. ٢) لا توجد عناصر مرتبطة

(1) RTSKHIDNI, f. 495, op. 81, unit ridge 91, l. 5-7.

مباشرة بالعرب. ٣) في الدول العربية، يعتبرون أن الشيوعية تعني النضال ضد الدين والأسرة والأسس الأخلاقي للمجتمع. ٤) هذا الحزب محلي وفلسطيني وليس عربيا بالكامل".

ويرى حسين الحسيني، أن العناصر الثورية في فلسطين هي:

١. جيل الشباب.

٢. العمال مع الفلاحين والشغيلة بشكل عام.

٣. الشباب الطلابي.

وكان يعتقد أن مهمته تكمن في هي تحقيق "تعاقد هذه الفئات". ولتنفيذ ذلك يجب إقامة "حزب قومي -متطرف" يناضل من أجل "إلغاء الانتداب ووحدة واستقلال الدول العربية". واعتقد الحسيني أن هذا الحزب سيكون "عربيا بحتا"، ولا يحافظ رسميا على الاتصالات مع الشيوعيين، "لكنه لن يناضل ضدهم أيضاً". لكن بشكل غير رسمي، سيرتبط الحزبان ببعضهما البعض بشكل وثيق - "ممثلو اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الفلسطيني يعملون في اللجنة المركزية للمتطرفين، و "أعضاؤها العرب جزء من الحزب المتطرف". وخلال ذلك يقوم الكومنترن بدوره "من خلال الحزب الشيوعي الفلسطيني بدعم هذا الحزب بشكل مباشر". وخلال ذلك، سعى حزب الحسيني إلى إنشاء شبكة من منظماته في جميع أنحاء فلسطين، ونشر صحيفة ومطبوعات مناهضة للإمبريالية، ونشر الدعاية الحزبية في الريف. كما تضمنت "مذكرة" الحسيني عدة "مقترحات سرية". وفيها تحدث عن ضرورة إرسال "عناصر ثورية قومية وعمال وفلاحين من الدول العربية إلى مراكز الدعاية والترويج والمدارس العسكرية" في الاتحاد السوفيتي للحصول على التدريب الفني "ليكونوا على استعداد في حالة حدوث انتفاضة". واقترح ايضاً مدربين عسكريين من

الاتحاد السوفيتي "لمساعدة الحزب في إجراء تدريبات عسكرية على أرض الواقع"^(١).
في ١٢ فبراير ١٩٢٩، تم عقد اجتماع لهيئة رئاسة الأمانة الشرقية باللجنة التنفيذية
للأمية الشيوعية لمناقشة موضوع العلاقات مع جماع الحسيني^(٢).

كما شارك في عملها، بيرغر الذي قال إن الحسيني "يبحث عن الدعم والسند في
الحزب الشيوعي من أجل الوصول إلى الطبقة العاملة والفلاحين بمساعدته. وإذا نجح،
فسينفصل عن الحزب الشيوعي ويدخل في معركة معه. أن قيامه بتأسيس حزب جديد هو
إنشاء أساس للمثقفين الراديكاليين البورجوازيين الصغار".

وتابع بيرغر القول: "ليمارس العمل في فروع الرابطة، لأنه إذا ظهر لديه حزب،
فسيتقلص اعتماده على الرابطة. تتضمن مقترحات الحسيني اليسارية على نواة قومية
متعصبة، وكما هو معروف يقف الحزب الشيوعي الفلسطيني ضد الشوفينية". وأخيرا،
اقترح بيرغر أن يعمل الحسيني "في اتصال وثيق ومباشر مع الحزب الشيوعي". وخلال
ذلك، إذا قام بتكوين فروع للرابطة المناهضة للإمبريالية في البلاد، فسوف تضم
"مجموعات ثورية وطنية" تعمل ضمن هذه الفروع، تحت "سيطرة وقيادة الحزب الشيوعي".
أما إذا ظهر "حزب قومي متطرف وتشكل بنفسه"، فإن الحزب الشيوعي "سيعامله
بإيجابية، لكن تأسيس مثل هذا الحزب بالتعاون معنا غير مقبول"^(٣).

وتحدثت الغالبية العظمى من أعضاء هيئة الرئاسة لصالح تطوير الاتصالات مع

(١) مقتطفات من مذكرة ح. الحسيني إلى اللجنة التنفيذية للكونغرس، موسكو، ٨ فبراير ١٩٢٩ // المرجع
نفسه، ص ٢١-٢٣.

(٢) حول مسألة إنشاء حزب قومي - ثوري في فلسطين، ١٨ فبراير ١٩٢٩ // المرجع نفسه، ص ١٦-
١٨.

(٣) نفس المرجع الصفحة ١٢-١٣.

الحسيني، لكنهم رفضوا اقتراحه بتشكيل حزب يعمل تحت قيادته. من حيث الواقع، وافقت هيئة رئاسة السكرتارية الشرقية على وجهة نظر بيرغر (لم يحضر الاجتماع كوسينين) وعرضت على الحسيني ممارسة "العمل المشترك" مع الشيوعيين من خلال إنشاء فروع للرابطة المناهضة للإمبريالية في فلسطين.

وحول ذلك جاء في القرار الذي تم اتخاذه في الاجتماع، أن الحسيني يعتبر "مثلا نموذجيا للفئات الراديكالية للبرجوازية الصغيرة، ولا يزال تأثيره ضئيلا، وهو يرغب بتحرير نفسه من نفوذ الحزب الشيوعي الفلسطيني، لكي يلعب دورا مستقلا في الحركة القومية العربية". وخلال ذلك، لاحظت هيئة رئاسة السكرتارية الشرقية أن "الحزب الشيوعي الفلسطيني، لا يزال ضعيفا جدا: عدد أعضائه قرابة ١٢٥ عضوا (بما في ذلك عرب - ٢٥) وسيجد اليهود الشيوعيون صعوبة في العمل مع حزب الحسيني لأنه بنفسه ضدهم". وتابعت الهيئة: "وهو يحاول الاستفادة من الهيئة السياسية للأمية الشيوعية ويحاول احتكار العمل بين العرب وسيحاول إبعاد العمال والفلاحين العرب عن الحزب الشيوعي". ستكون نتيجة أفعال وتصرفات الحسيني "فرض انقسام الحركة العمالية في فلسطين وفقا للخط القومي"^(١). طبعا تتضمن الوثيقة التي تم الاقتباس منها الكثير من الأمور الغريبة. بدون شك كان الحسيني شخصا متعصبا قوميا، وكان هدفه المتمثل في إنشاء "حزب قومي متطرف" يبدو مخيفا. ولكن والحق يقال، كانوا في كل من الكومنترن وفي الحزب الشيوعي الفلسطيني لا يعرفون اللغة العربية بشكل جيد (في ذلك الوقت كانت في بداياتها عملية تكوين المفردات الاجتماعية السياسية الحديثة في هذه اللغة). استخدام هذا المتعصب القومي الفلسطيني لكلمة "متطرف" في تسمية حزبه "يمكن تعني

(١) حول مسألة إنشاء حزب وطني ثوري في فلسطين، ١٨ فبراير ١٩٢٩ // المرجع نفسه، ص ١٦-١٨.

كذلك الراديكالي وهو ما يجعلها مقبولة أكثر وحينها سينحل السؤال من تلقاء نفسه. ولكن مع ذلك ، لم يكن الأمر يتعلق بذلك فقط. كان منطق أي بيرغر واضحا. لم تخف قناعاته الشيوعية المشاعر القومية. لكن ألم يكن أعضاء هيئة رئاسة السكرتارية الشرقية على علم بأن القسم الفلسطيني من الكومنترن لم يكن له أي تأثير ملموس في البيئة العربية؟ لذلك كيف يمكن أن يكون حسين الحسيني تحت تأثيره؟ لقد حاول بالطبع رفع أسعار أسهمه من خلال الاتصال بالكومنترن والعمل في صفوف الرابطة المناهضة للإمبريالية. كانت هذه ممارسة شائعة واجهتها اللجنة التنفيذية للأمية الشيوعية في عدة مناسبات ، ليس فقط في فلسطين وليس فقط في الشرق الأوسط. ولكن ، ألم يكن من الضروري ، عند حل مسائل النفوذ الجيوسياسي لدولة ضخمة ، الانطلاق من الحاجة إلى توسيع نطاق الاتصالات الإقليمية ، لتشمل فيها أكبر عدد ممكن من الأطراف المقابلة؟ ومع ذلك ، فقد استبعدت الإيديولوجيا الدولة والكومنترن ، إمكانية العمل في هذا الاتجاه. لكن لكي نكون منصفين ، تجدر الإشارة إلى أن رئيس الأمانة الشرقية كوسينين حاول تصحيح الوضع إلى حد ما.

في ١٤ فبراير ١٩٢٩ ، طرح المذكور مقترحاته بشأن موضوع الحسيني. ووفقا لرؤيته للمشكلة ، جرى الحديث عن ضرورة الاعتراف بـ "نشاط الحسيني المناهض للإمبريالية كنضال قومي ثوري وتنسيق العمل معه لمحاربة الإمبريالية والإصلاحية القومية".

وحسب اعتقاد كوسينين كان من الممكن أن تدعم اللجنة التنفيذية للأمية الشيوعية "الحزب القومي الثوري" الذي يقوم بتنظيمه ، ولكن حسب عدة شروط. تم الطلب من الحسيني "أن يقوم بشكل واضح وقاطع بفصم علاقاته مع الإصلاح القومي" (أي مع قيادة الحركة الوطنية العربية الفلسطينية) ، والبدء في "العمل الدؤوب" لفضحها. وكان يجب على الحسيني أن يطرح "برنامجا ثوريا حقا للنضال ضد الإمبريالية ،

والدفاع عن مطالب العمال والفلاحين"، وهو ما يعني، أنه سيتعين عليه "منح الشيوعيين الحرية الكاملة للتحريض والترويج في صفوف حزبه". بالإضافة إلى ذلك، كان يجب أن يقوم حسين الحسيني "بضمّن للشيوعيين إمكانية التأثير في الأجهزة الصحفية للحزب وفي قيادته المركزية"، والمحافظة على "التواصل الإعلامي المستمر مع قيادة كومنترن" واللجنة المركزية لحزب الشيوعيين الفلسطينيين. وطلب منه تقديم الدعم الكامل لبرنامج المتطلبات الديمقراطية العامة للحزب الشيوعي الفلسطيني. لكن الشيء الأكثر أهمية كان أنه يجب على الحسيني، ووفقاً لما اقترح كوسينين، الالتزام بتحديد هدف حزبه على أنه "إنشاء جمهورية عربية مستقلة واحدة"، على أن يتم تشكيلها على أساس "إلغاء جميع الامتيازات والتنازلات والانتدابات والمحميات في البلدان العربية"^(١).

وكان هذا هو المسار المعتاد للكومنترن، مسار استيعاب الحلفاء المحتملين، وتحويلهم إلى الشيوعية، والذي أدى بالفعل، في حالة إنشاء القسم الفلسطيني من الكومنترن، إلى ظهور الهاوية بين أعضائه من جهة وشعبهم من جهة أخرى.

والآن يتم عرض نفس المصير على ممثل الشعب الثاني في فلسطين. ومن الواضح أنه من خلال هذه المطالب ظهرت الرغبة الواضحة في توسيع منطقة النفوذ السوفيتي، والتي كان من المفترض أن يصبح الحسيني أداة لها. كان من الواضح أن هذه الرحلة إلى موسكو لم تكن ناجحة بالنسبة له. وبعد عودته من هناك، بدأ بنفس السهولة في طلب المساعدة في تشكيل حزبه "من القوميين المصريين ومن ابن سعود (مؤسس الدولة السعودية الحديثة)"^(٢). ولكن اللجنة التنفيذية للأمية الشيوعية استقت العديد من الدروس العملية النافعة

(١) مقترحات الرفيق كوسينين، ١٤ فبراير ١٩٢٩ // السابق، ص. ١٠-١١.

(٢) مذكرة الرفيق ويليامز إلى الرفيق كوسينين، ٥ مارس ١٩٢٩ // المصدر السابق، ص ٢٦.

جدا من هذه الزيارة.

في بداية مارس ١٩٢٩ ، تم تقديم مذكرة إلى كوسينين. وفيها تم سرد أفكار الإستراتيجية الجديدة للكومنترن في الشرق الأوسط والعالم العربي ، والتي حددتها بلا شك نتائج زيارة الحسيني إلى موسكو. وكان موضوع المذكرة إنشاء "الحزب الشيوعي للشرق العربي على أساس الحزب الشيوعي السوري". كان من المفترض أنه سيشمل في المستقبل الحزب الشيوعي الفلسطيني. لحل هذه المهمة ، كان لابد من إنشاء حركة نقابية قوية بقيادة الشيوعية في كلا البلدين. ولكن لم يكن من الممكن تكليف الحسيني بتنفيذ هذه المهمة - ذكرت الوثيقة أنه "لا أحد يعرف إلى أين سيتوجه وينمو المذكور" ، لكن كان من الممكن أن يقوم الشيوعيون بهذه المهمة^(١).

من الآن فصاعدا ، أصبحت فكرة إنشاء حزب شيوعي عربي بالكامل بالنسبة إلى اللجنة التنفيذية للأمية الشيوعية فكرة **idee fixe** (فكرة مهووسة) بشكل حقيقي. لقد تم تفصيلها وصقلها وتطويرها. علاوة على ذلك ، تلقت دعما غير مشروط من الشيوعيين المحليين. ولهذا ، على ما يبدو ، نشأت وتوفرت جميع الظروف اللازمة والضرورية. في ذلك الوقت كانت تجري أحداث مهمة في الحركة العمالية العربية في فلسطين. في يناير ١٩٣٠ ، استضافت حيفا المؤتمر الأول للعمال العرب. واعتبر الشيوعيون الفلسطينيون أن ذلك يشهد على سعي الطبقة العاملة العربية الفلسطينية للعمل كقوة مستقلة تحررت من وصاية القوميين عليها^(٢).

(١) نفس المصدر الصفحة رقم ٢٤-٢٧.

(٢) أ-م. حركة الإضراب في فلسطين في المرحلة الحديثة (رسالة من فلسطين) // الشرق الثوري ، ١٩٣٠ ، رقم ٩-١٠ ، ص ٣١٣.

وجاءت المبادرة لعقد المؤتمر من نقابة عمال السكك الحديدية العرب^(١).

أثبتت أعمال المؤتمر والقرارات التي اتخذها، أن وجهة نظر الشيوعيين لم تكن عادلة. سعى المشاركون في المؤتمر إلى إنشاء مركز نقابي للعمال العرب - اتحاد عموم الفلسطينيين لنقابات العمال العرب (WFUAU)، وكان من المفترض أن تنضم له النقابات المهنية من مختلف القطاعات. وكان يجب أن تعترف سلطات الدولة المتتدبة بوضعها القانوني. وهذا من شأنه أن يجعل من الممكن تحسين ظروف عمل البروليتاريا العرب، ورفع مستوى معيشتهم، وتعزيز انخراطهم في الحياة العامة والثقافة^(٢). وجرى الحديث عن تشكيل منظمة نقابية قوية تعمل كموازية للهستدروت وتصبح منافسة لها. كانت هذه صياغة للسؤال ملونة بالنغمات القومية المتعصبة المعتادة. علاوة على ذلك، شهد إنشاء WFUAU على أن القوميين الفلسطينيين سعوا إلى استخدام تجربة اليشوف، على وجه الخصوص، في اتجاه البناء في البيئة العربية الفلسطينية كأداة قوية لتعبئة الجماهير لحل المشاكل القومية وليس الطبقية.

تضمنت قرارات المؤتمر، بالطبع، مطالب بتحسين ظروف العمل والمعيشة للعمال العرب (اعتماد تشريعات خاصة بالعمل، وإنشاء مراكز طبية مجانية في الشركات، وفتح مدارس التعليم العام المسائية، وتشكيل صناديق المساعدة المشتركة، وتخفيض ساعات يوم العمل، وزيادة في الأجور وغيرها). بالإضافة إلى ذلك، جرى كذلك الحديث عن

(١) حضر أعمال المؤتمر ٦١ مندوبا يمثلون أكثر من ثلاثة آلاف عامل. وقد مثلت فيه المنظمات النقابية العاملة في حيفا والقدس ويافا وشفاعمر والناصره وكذلك مندوب عن العمال السوريين // البديري م.

المرجع السابق. ص ١٥٩.

(٢) نفس المرجع. ص ١٧٢-١٧٤.

"المصالح القومية المشتركة للشعب الفلسطيني". وكان يجب أن تحصل فلسطين على الاستقلال السياسي كجزء من كيان الدولة العربية الواحدة. وطالب المؤتمر بفرض حظر فوري على هجرة اليهود إلى أراضي فلسطين لأنها تسببت "بالضرر للعمال العرب". وشجب المؤتمر منح الأفضلية للعمال اليهود خلال التوظيف، وشدد على أن الشركات الخاصة والعامة يجب أن تستند في توظيفها على النسبة المئوية للسكان اليهود والعرب في البلاد.

وأعلن المشاركون في المؤتمر، عدم جواز الرقابة على الصحافة العربية ومنح الصحف والمجلات العربية نفس شروط النشر بالنسبة "للصحافة الصهيونية". كما عبروا عن تضامنهم الكامل مع المطالب الهامة للحركة الوطنية في تلك الحقبة والمتعلقة بمنح امتياز تطوير أملاح البحر الميت لـ "الوطنيين العرب"^(١).

تم تحضير المؤتمر الأول للعمال العرب في فلسطين وعقده كمتدى لدعم "البناء القومي" الفلسطيني. أثناء عمله، لم يُسمح لممثلي اليسار في بوعالي تسيون بالدخول إلى القاعة^(٢).

وعلى الرغم من حضور شيوعيين من أصل عربي للمؤتمر - م. الاطرش المشارك في المؤتمر كمندوب عن نابلس، وكذلك ر. الحلو عضو اللجنة المركزية لاتحاد عموم الفلسطينيين لنقابات العمال العرب (WFUAU)، إلا أنهما شاركا فيه ممثلين لعمال مدينة يافا وليس كممثلين للحزب الشيوعي الفلسطيني والكتلة العمالية.

رفضت هيئة رئاسة المؤتمر تلاوة برقية تحية أرسلها إليه الحزب الشيوعي

(١) نفس المرجع الصفحة رقم ١٧٢.

(٢) أ- م. اقتباس من المرجع ص ١١٣.

الفلسطيني^(١). وسيطر القوميون اليساريون على المؤتمر بالكامل ، ممثلين بمجموعة الحسيني.

علاوة على ذلك ، أشار منظمو المؤتمر إلى أن الغرض من إنشاء WFUAU ليس بأي حال من الأحوال "إثارة الخلاف بين الرأسمالي العربي والعامل العربي" لأن هذه "الخلافات" ستساعد "الصهاينة على صرف انتباه سكان البلد عن مشكلتهم الرئيسية وسيساعد العامل اليهودي على منافسة العربي بشكل أكثر نجاعة".

وقالت لجنة مبادرة عقد المؤتمر أن العمال العرب لا يريدون أن يكونوا "أداة للصهاينة أو للشيوخين". وشددت على أن "العمال العرب الذين دافعوا عن مصالح البلاد ، من أجل قضيتها الرئيسية ، ومن أجل العامل العربي وضد اليهود" فقط ، يمكنهم المشاركة في المؤتمر. وأعلن WFUAU ، أن أنشطته ستكون "مستقلة" عن أي أحزاب سياسية ، كما أنه موجه ضد "توحيد العمال العرب والصهاينة ، لأن يسعى الصهاينة إلى استعمار فلسطين وينخرطون فوراً في الصراع مع العامل العربي"^(٢).

نظر الشيوعيون إلى عملية التحضير للمؤتمر ومسار عمله بطريقة مختلفة بشكل تام. أعلن الحزب الشيوعي الفلسطيني أنه شارك في تنظيم وعقد منتدى للعمال العرب من أجل "خوض معركة" ضد "التيار الوطني الشوفيني" الممثل فيه ، والذي سعى إلى قيادة "البروليتاريا العربية" إلى "مستنقع" الجبهة القومية المتحدة"^(٣).

(١) البديري م. اقتباس من نفس المرجع ص ١٧٥-١٧٧.

(2) RTSKHIDNI, f. 534, op. 7, units ridge 118, l. 66 .

(٣) المؤتمر العمالي العربي الأول في فلسطين / "الشرق الثوري" ، ١٩٣٠ ، العدد ٩-١٠ ، ص ٣٠٩. في برقية ترحيب للمشاركين في المؤتمر ، كتب الحزب الشيوعي الفلسطيني أن حل مشاكل العمال العرب في فلسطين ممكن فقط من خلال "النضال الاقتصادي والسياسي الذي لا هوادة فيه ضد الاضطهاد الرأسمالي". ودعا الحزب المشاركين في المؤتمر للنضال من أجل إنشاء نقابات عمالية أممية ، من أجل إقامة

وبدا للشيوعيين أن المؤتمر، الذي جاء نتيجة "تنشيط وتثوير الجماهير العمالية العربية من خلال انتفاضة أغسطس... التي كشفت عن تباين كبير في المصالح بين العمال الثوريين والفلاحين والبرجوازيين الصغار.. وبين الجماهير من جهة والإصلاحيين القوميين المهيمنين على الحركة الوطنية من جهة ثانية"⁽¹⁾، سيلتقط شعارات الحزب الشيوعي الفلسطيني فور إعلانها من قبل أعضاء الحزب الذين شاركوا في عمله. ولكن، تبين أن الواقع مختلف تماما عن ذلك.

حاول الشيوعيون الفلسطينيون يائسين أن يثبتوا لأعضاء WFUAU، أن شعار نقل الامتياز لاستغلال أملاح البحر الميت إلى رجال الأعمال العرب ليس في مصلحة العمال لأن ثروة أي دولة يمكن أن تكون ملكا فقط للطبقة العاملة فيها. وشددوا على أنه توجد فجوة عميقة بين "مصالح الوطن" و "مصالح العمال"، وأن "القضية القومية" تتعارض مع "قضية البروليتاريا". أعلن الحزب الشيوعي الفلسطيني أن شعار الاستقلال السياسي لفلسطين، الذي طرحه المؤتمر بات قديما، وأعرب عن اعتقاده بأن الاحتلال طويل الأمد للبلاد أثبت أن الطبقة العاملة والفلاحين فقط هم الذين يناضلون من أجل تحريرها الوطني.

وشددوا على أنه من الضروري في فلسطين النضال من أجل إقامة "حكومة العمال والفلاحين". فيما يتعلق بقرار المؤتمر بشأن التوزيع النسبي الوطني للوظائف في الشركات، قال الشيوعيون أن "جميع العمال الحق في العمل، بغض النظر عن قوميتهم وبدون أي

حكومة العمال والفلاحين، لإتباع "المسار النضالي الأقصر" الذي يسير فيه "عمال روسيا والهند وألمانيا والصين" // المرجع نفسه، ص ٣١١.

(1) RTSKHIDNI, f. 534, op. 7, units ridge 118, l. 66-66 reversible .

نسبة^(١).

ولمواجهة الأمر الواقع المتمثل في الموقف المهيمن للقوميين اليساريين في المؤتمر، أعلن الحزب الشيوعي الفلسطيني أن هدفه هو "طرد أصحاب الاملاك بشكل نهائي من النقابات (النقابات القطاعية المنتمية إلى WFUPS)، ومحاربة نفوذ الإصلاحيين - القوميين وخاصة القوميين "اليساريين"^(٢).

وتم إعلان حرب لا هوادة فيها ضد مجموعة الحسيني وتصرف الشيوعيون هنا على أساس نفس المواقف العقائدية التي كانت في قاعدة مواجهاتهم لحركة بوعالي تسيون التي انبثقت منها ومن جديد حاربوا ضد "البناء القومي".

إذا كان الشيوعيون يعتبرون جماعة الحسيني قبل أحداث أغسطس عام ١٩٢٩ بمثابة "الاحتياطي" للحزب الشيوعي الفلسطيني في الحركة القومية العربية الفلسطينية، فبعد المؤتمر الأول وتأسيس WFUPS، أصبحت هذه الجماعة خصمهم الرئيسي. وفي عام ١٩٣٠، أعلن أحد القادة العرب الجدد في الحزب الشيوعي، محمد الأطرش، أن الحسيني أصبح "مستسلما للإمبريالية والإصلاحية القومية، وخائنا للمصالح الحيوية للأغلبية الساحقة من السكان العرب"^(٣).

ووفقا للأطرش ظهرت دلائل إثبات "انزلاق" الحسيني إلى "وضعية التذلل" فيما يلي: في يناير ١٩٣٠، أرسل الحسيني، الذي كان في ذلك الوقت في السجن لمشاركته في

(١) مؤتمر العمل العربي الأول في فلسطين، ص ٣٢٠ - ٣٢١.

(٢) ناداب. المؤتمر العمالي العربي الأول في فلسطين والنضال ضد الإمبريالية في الدول العربية // الأمية الشيوعية، إصدار عام ١٩٣٠، رقم ٨، ص ٥١.

(٣) هنا وفيما يلي // سعدي م. القوميون اليساريون العرب على طريق التمايز // الشيوعية الدولية، العدد ٢٩-٣٠، ص ٨١-٨٣.

انتفاضة ١٩٢٩ ، برقية إلى المؤتمر الأول للعمال العرب ، كتب فيها أنه لا يجوز أن تتدخل "العناصر الغربية عن العمال" في شؤون العمال ، لأن العمال فقط "يجب أن يدافعوا عن مصالحهم الطبقية".

بالإضافة إلى ذلك ، كتب في نفس البرقة أن العمال فقط هم "أساس استقلال البلاد"^(١). وتعليقا على نص البرقية ، كتب محمد الأطرش^(٢) : "أصبح حمدي على الفور من البروليتاريا... وهو يريد أن يميز خطه عن خط الخونة القوميين العرب ... وبدأ يناضل من أجل الجماهير ، من أجل مكاسب العمال والفلاحين العرب ... ومن أجل التخلص من نفوذ وقيادة الشيوعيين". وشدد الاطرش على أن الحسيني ، في مطالبه الزراعية يقتصر على إلغاء دفع مختلف الضرائب العينية من قبل الفلاحين ، معتبرا أن شعار الثورة الزراعية "سابق لأوانه". ونتيجة لذلك أصبح مدافعا عن حرمة مبدأ ملكية المالك للأرض. ويرى الأطرش أن "تعرية" الحسيني أصبحت بمثابة "كشف غدر واستسلام الإصلاح القومي للإمبريالية". بهذه الطريقة فقط تمكن الشيوعيون من "تقوية موافقهم بين الجماهير العربية من أجل نضال حاسم ضد الإمبريالية البريطانية ، وضد الصهيونية والإقطاعيين العرب والكومبرادور".

(١) ولكن م. البديري يورد نصا آخر مغاير للبرقية التي وجهها الحسيني إلى المؤتمر. جاء في تلك البرقية : "الإمبرياليون من خلال حرماننا من حريتي ، جعلوا مشاركتي العملية في مؤتمر العمال العرب مستحيلة. أحيي المشاركين في المؤتمر وأهنتهم على النهضة الجديدة لحركتهم. أدعوكم إلى السير جنبا إلى جنب مع الحركة العمالية العالمية ، والتضامن والاتحاد معها. أنا سعيد لأن المسار السياسي للعمال العرب واضح وكذلك قراراتهم الطبقية. وإنني على يقين من أن الحرية والاستقلال والوحدة ستتحقق بمشاركة الطبقة العاملة" // البديري م. ، المرجع السابق. ص ١٥٧ .

(٢) هنا ولاحقا // سعدي م ، المرجع السابق.

لقد كان ذلك تطبيقاً "مبدعاً" في ظروف فلسطين لخط الكومنترن "طبقة ضد طبقة"! لكن كلام الأطرش لم يشر بأي حال من الأحوال إلى أي ندم داخلي أو شك أو التباس. نعم لقد كان، بالطبع، من المبتدئين الشيوعيين، وبالتالي حاول إثبات صحة النشاط "البلاشفي" للكومنترن بأقصى قدر ممكن. وحاول أيضاً "بناء" مصير شعبه في مخطط مجرد وغير مريح للغاية. لكن ربما، في إصراره على ترسيخ نفسه كواحد من القادة الجدد للحزب، كان لديه دوافه أخرى آخر أيضاً؟

بالطبع، لم يكن الحسيني من مؤيدي إنشاء النقابات الطبقية. لقد اعتبرها مجرد أداة لتحسين أوضاع الكادحين - كانت تجربة الهستدروت أمام عينيه - وهي أداة لا تقل أهمية لتعبئة الجماهير من أجل نيل الاستقلال ومقاومة "الصهيانية" الذين، بفضل تنظيمهم وكفاءتهم العالية في البناء القومي تمكنوا من حرمان العمال العرب من حق العمل، والتسبب موضوعياً بانحطاطهم الأخلاقي والمادي.

بالفعل كان الحسيني بعيداً عن التفكير في الثورة الزراعية. واعتقد أن مهمته لا تكمن في تدمير العلاقة بين صاحب الأرض والفلاح، بل في محاربة شراء الأراضي من قبل اتحادات الاستعمار اليهودي، والتي رأى فيها الفلاحون العرب في ذلك الوقت عدوهم الرئيسي. في أوائل الثلاثينيات طالب القوميون اليساريون ليس فقط بإلغاء الضرائب العينية، بل وبإدخال نظام الحمائية فيما يتعلق بالإنتاج الزراعي العربي الفلسطيني، وإنشاء بنك زراعي، وشق طرق في المناطق الريفية، بهدف ضمان البيع المنتظم لمنتجات الفلاحين في أسواق المدن.

وهذه الإجراءات كانت تذكر في نواح كثيرة ومماثلة لتلك التي تم تنفيذها في إطار الإشوف. وبفضل جهود مجموعة الحسيني، تم إنشاء تعاونية فلاحية في منطقة يافا عام ١٩٢٩، توحد فيها سكان ٢٢ قرية صغيرة، بهدف تقديم المساعدة الزراعية لأعضائها،

وتنظيم الاتصالات البريدية بين القرى ، ومساعدة الفلاحين في شراء الأسمدة والآلات الزراعية^(١). كان هذا أيضاً مثالا للسير على طريق تجربة اليسوف.

لكن الشيوعيين الفلسطينيين اعتبروا هذه الخطوات من قبل القوميين اليساريين كمحاولة لنيل الدعم والمساندة من "الكولاك" لأنفسهم في القرى العربية. وبدا لهم أن القوميين في فلسطين الواقعة تحت الانتداب كانوا يكررون "تجربة ستوليين في حل قضية الفلاحين في روسيا" ويحاولون منع الفلاحين من الانخراط في النضال ضد الإمبريالية. وفي هذا الصدد، قالوا إن القوميين لن يكونوا قادرين على "إخفاء الاحتياجات الحقيقية لجماهير الفلاحين"، لأن الحزب الشيوعي "يسعى إلى دق إسفين في الصدع الذي نشأ بين... الأفندي والفلاحين".

اعتبر الشيوعيون أنهم سيتمكنون بهذه الطريقة من زيادة تأثير حزبهم في القرى العربية، ولإثبات ذلك تكفي الإشارة إلى ما كتبه ناداب (ن. ليشينسكي): "أراد الكولاك أن يسلموا للشرطة اثنين من الشيوعيين العرب - من عمال المدينة اللذين جاءوا لتحريض الفلاحين، وهددوهما بالقتل".

وكانت النتيجة الوحيدة لسياستهم كانت الفصل المتسق بشكل متزايد بين الحزب الشيوعي الفلسطيني والمجتمع العربي الفلسطيني. ومع ذلك، شدد الشيوعيون على أنه، كما قال م. الأطرش (م. السعدي) في المؤتمر الخامس للبروف اينتيرن: "... البرجوازية العربية الخائنة ترتجف أمام البروليتاريا العربية الصاعدة، وتسعى إلى السيطرة على حركتها، وتحويل هذه الحركة من طريق الأمية الطبقة إلى الطريق القومي الشوفيني".

(١) هنا ولاحقا// ناداب. الحركة الفلاحية والقوميون في فلسطين // "الشرق الثوري"، ١٩٣٠، العدد ٩-

وفيما يتعلق بجماعة الحسيني، قال إنها "ضعيفة" و "ليس لها تنظيمات"^(١).

لكن مسار الشيوعيين أدى إلى عواقب أخرى، أقل شمولية وضخامة، لكنها مخزنة أيضاً. سعى الحزب الشيوعي الفلسطيني إلى تفجير WFUPS التي يسيطر عليها الحسيني. تم إعلان هذه المهمة من قبل فروع أقسامها ونالت الدعم من جانب البروف اينتين^(٢). ووجد الحسيني نفسه بين المطرقة والسندان.

واتهمه أعوانه "اليمنيون" في الحركة الوطنية بأنه "عميل لموسكو" وقاموا بتخريب جميع ما باشرت به المجموعة^(٣).

من ناحية أخرى، سعى الشيوعيون إلى تحويله إلى "عقيدتهم" ودعموا بكل قوتهم عملية تفكك مجموعة أنصاره. وأعلن الأطرش عن انبثاق "جناح يساري" من المجموعة، وعن انتقاله إلى موقف دعم شعار الحزب الشيوعي الفلسطيني "الأرض للفلاحين". وحسب قوله، "يخوض هذا الجناح الكفاح الفعال ضد الإمبريالية وقد ابتعد تماماً عن الإصلاح القومي". علاوة على ذلك، "أدرك هذا الجناح معنى شعار دكتاتورية البروليتاريا". وكان ذلك نجاحاً كبيراً! وحصل التفكك في WFUPS. تم التقاط مبادرة الحسيني من قبل الأحزاب والمنظمات اليهودية. في مايو ١٩٣٠، أنشأ اليسار في بوعالي

(١) المؤتمر الخامس للبروف اينتين ١٥-٣٠ أغسطس ١٩٣٠ المحضر الحرفي. القرارات، إصدار عام ١٩٣٠، ص ١٤٣ و ٤٨١.

(٢) طالبت قيادة بروف اينتين بأن يعزز أعضاء الكتلة العمالية عملهم في إطار الاتحاد من أجل "كسب جماهيره" // قرار المكتب التنفيذي للبروفينترن بشأن تقرير المجلس المركزي للكتلة العمالية حول مؤتمر العمل العربي الفلسطيني في ٢٠ مارس ١٩٣٠ //

RTSKHIDNI, f. 534, op. 6, units ridge 113, l. 43-44.

(٣) هنا ولاحقاً // م. السعدي. اقتباس من نفس المصدر ص ٨١-٨٢.

تسيون لجنة مبادرة لإنشاء رابطة المنظمة الدولية للعمال الفلسطينيين. إلى جانب ذلك، أنشأ اليساريون في بوعالي تسيون، رابطة "أكفات بوعاليم (المساعدة المتبادلة للعمال)"^(١). وفي نفس الوقت، تزايدت بين العمال العرب، نشاطات أنصار اهدوت هافودة (وحدة العمل)، مع تشكيل نقابات عمال عربية مرتبطة بالهستدروت. لكن، على ما يبدو، لم يكن الأمر الرئيسي يكمن في ذلك. وفي نشرة موجهة إلى العمال العرب في مصنع "نيشر" للمويليا والأثاث في حيفا، كتبت لجنة قسم الحزب الشيوعي الفلسطيني في تلك المدينة: "الهستدروت الصهيوني لا يستطيع أن يساعد في نضال العمال العرب لأنه عبارة عن منظمة ترى مهمتها فقط في حرمان العامل العربي من حقه في العمل".

من ناحية أخرى، أشار المنشور إلى أن "الاتحاد العام الفلسطيني وقيادته السيئة ... لن يكونا قادرين على مساعدة العمال. لن يتمكن الاتحاد من قيادة نضالكم لأن قاداته ليسوا ممثلين للطبقة العاملة. لقد خانوا مصالح الطبقة العاملة، وأصبحوا أداة في أيدي الحكومة الإمبريالية والأغنياء"^(٢). ولكن كيف يمكن فعلا مساعدة فلاح الأمس الأمي، الذي جاء

(١) تم تسجيل جمعية اهفات بوعاليم في يافا. وترأسها جورج نصار المؤيد العربي ليسار بوعالي تسيون. في النداء المنشور للجمعية، والموقع من قبل مجموعة من النقابيين اليهود والعرب، قيل أنها مفتوحة لجميع العمال دون تمييز في الانتماء القومي والجنس والآراء السياسية. وشدد مؤسسو الجمعية على أنها ستدافع عن مبادئ التضامن الأممي ووحدة الشغيلة اليهود والعرب. تضمن برنامج الجمعية، إنشاء منظمة عمالية مشتركة، وتعزيز التقارب الأعضاء في المجالات الاجتماعية والثقافية، ودراسة حياة العمال، وتعزيز فكرة الحقوق المتساوية للعمال من كلا الشعبين والدفاع عنها. // "الشرق والمستعمرات"، ١٩٣٠، رقم ١٧-١٨، ص ٢٩.

(٢) منشورات صادرة عن لجنة حيفا للحزب الشيوعي الفلسطيني باللغة العربية "إلى جميع عمال حيفا وياغور" بتاريخ ٩ أكتوبر ١٩٣٢ //

RTSHIDNI، ف. ٥٣٤، اوب. ٧. وحدة الحفظ رقم ٤١٨، ص ١٥٩-١٥٩.

إلى المصنع اليوم، لإطعام أطفاله الذين جاء من أجلهم من القرية إلى المدينة؟ كيف يمكن منحه الفرصة للحصول على فكرة أولية عن النظافة الشخصية، وتعليمه، على الأقل كيف يضع توقعه على كشف الرواتب؟

قال الشيوعيون، في تعليقاتهم على قرارات المؤتمر الأول للعمال العرب في فلسطين، أن المطالب التي طرحت فيه من أجل إنشاء مراكز طبية مجانية في المؤسسات وصناديق المساعدة المشتركة واعتماد تشريعات العمل ليست إلا تكراراً للمطالب التي تم طرحها في مرحلة النضال الاقتصادي التي قطعتها الطبقة العاملة، وليست إلا محاولة لزرع الأفكار الإصلاحية في الحركة العمالية الفلسطينية^(١)، ولقد تم عرض نفس الشيء على العمال العرب من جانب اليسار في بوعالي تسيون والهستدروت، ولو كان ذلك من أجل توفير الأمن للشيوف ومنع تكرار أحداث أغسطس عام ١٩٢٩. إذن، ما هي قيمة الفكرة الشيوعية "العظمى" إذا كانت، في لحظة توغلها في الأراضي الفلسطينية، ترفض ما يحتاجه العمال العرب الفلسطينيون قبل كل شيء؟ لقد احتاج الشيوعيون للجماهير التي سعوا إلى "إحداث ثورة" فيها، للجماهير الأميين من الريف، الذين يكرهون المدينة، المصابين برهاب الأجانب والتعصب الديني، والمستعدين للقتل والسرقة. لقد كان مثالا ممتازا لتطبيق عقيدة الأحمية! وليس فقط من قبل الشيوعيين الفلسطينيين، بل من قبل الكومنترن أيضاً.

من أجل هذه "الجماهير العربية" المستعدة "للانفجار الثوري" للشعب العامل، تم تخريب الحزب. لقد فشل الحزب الشيوعي الفلسطيني في جذب العمال العرب إلى جانبه مرة أخرى "وأكد" ذلك صحة خط قاده العرب الجدد، الذين طالبوا بصرامة مستنديين إلى

(١) ناداب. مؤتمر العمل العربي الأول في فلسطين، ص ٥١.

رأي اللجنة التنفيذية للأمية الشيوعية ، بـ "تعريب" قيادته.

قبل فترة وجيزة من افتتاح المؤتمر السابع للحزب الشيوعي الفلسطيني ، (يناير ١٩٣١) ، أرسلت اللجنة التنفيذية للأمية الشيوعية رسالة إلى اللجنة المركزية للحزب ، أكدت فيها أن "الخطر الرئيسي" بالنسبة للحزب "هو الخطر من اليمين" ثم تم تطوير هذا الفكرة: "ولقد وجد ذلك تعبيره على وجه التحديد ، في أن العديد من الرفاق اليهود ، بعد نشر قرار السكريتارية السياسية (حول حركة التمرد في عربستان) ، أرادوا الهجرة ، ولم يفهموا دور "المساعدين".

ووفقا للرسالة تمكن الحزب من تجاوز «الميل الصحيح» ، فقط محل «أهم مهمة له» والتي «تبقى» التعريب والتعريب ومرة أخرى. ولكن كيف تم اقتراح حلها؟

ورد الجواب على هذا السؤال في أحد أقسام الرسالة - "عمل اللجنة المركزية وتشكيل اللجنة المركزية" ، التي عرضت صفات القادة الثلاثة للشيوعيين الفلسطينيين.

"الرفيق غيدار (حيدر ، وهو ف. أفربوخ) ، - يبقى العقل الموجه للحزب ، فهو رفيق مقتدر ، صاحب فكر وموهوب تماما. في اللجنة المركزية الحالية ، يلعب دوراً مهيمناً. وهو زعيم الحزب". ولكن لاحقا ووفقا للتقييم اتضح أنه "داخليا ، لم يتخلص بعد من جميع مواقفه الصهيونية" ، وهو ما ظهر في أن ف. أفربوخ "يعتبر العمال العرب عنصراً أدنى قيمة". ومن ثم سرد التقييم بقية صفاته السلبية - "يسعة للشهرة ويميل إلى المؤامرة ، ... لا يزال مرتبطاً ببوعالي تسيون وعبر الرسائل يناقش قضايا الحزب معهم". وتابع التقييم بصراحة أكثر: "لدينا انطباع أنه في أوساط الرفاق العرب النشطين ليس فقط لا يحظى بالحب ، بل ومكروها أيضاً. يرجى إبلاغنا بموقف الرفاق العرب في فلسطين من غيدار ، لأن هذا الموضوع سيحدد موقفنا. يمكن تفسير كل سوء التفاهم الذي يحدث بيننا وبين اللجنة المركزية بأن غيدار يعلم أننا نريد تعريب اللجنة المركزية أيضاً ، ويخشى أن يضعف

ذلك نفوذ".

وبعد أفربوخ ، جاء دور بيرغر وليشينسكي. تمت تسمية بيرغر في هذه الرسالة "بالرقم الثاني في اللجنة المركزية". وتم وصفه بـ "الصحفي القدير والموهوب والصالح" ، وبأنه يعرف البلد. وقالت الرسالة: "إذا تم استدعاء غيدار فيجب بقاء بيرغر ، رغم ارتباطه الوثيق بغيدار ، ولا يمتلك مواهبه السياسية". أما ن. ليشينسكي "فكان رفيقا جيدا مع إعداد ماركسي جيد ، لكنه سياسيا أضعف من غيدار وبيرغر وتحت تأثيرهما ، ولكنه في نفس الوقت لا يتميز بصفاتها السيئة". وشددت الرسالة على ضرورة "تحريره من نفوذ غيدار". واعترفت الرسالة بأن "الرفاق العرب أضعف وأقل خبرة وأقل استعدادا من الرفاق اليهود ، لكن مع ذلك ، من الضروري ، أن أمكن ، إشراك العرب في جميع هيئات الحزب". وأخيرا: "يجب أن يكون هناك أيضاً العديد من الرفاق العرب في اللجنة المركزية"^(١). كان ذلك ضرورة مباشرة لـ "محرابة العدو الداخلي" ، ولتأجيج العواطف ومطاردة الأشباح. لقد قامت اللجنة التنفيذية للأمية الشيوعية وبكل بساطة برمي المواد البشرية المستهلكة جانبا ، على الرغم من أنهم سموا ذلك بالنقد "البشفي" بالطريقة "اللينينية". في يناير ١٩٣١ ، انعقد المؤتمر السابع للحزب الشيوعي الفلسطيني ، وشارك فيه ٤٠ مندوبا. ولأول مرة في تاريخ حزب المؤتمر الشعبي ، حضره عدد متساو من المندوبين العرب واليهود^(٢).

تركز عمل المؤتمر ، أولا وقبل كل شيء ، على إلغاء والتخلص مما تمت تسميته في

(1) RTSKHIDNI, f. 495, op. 81, unit ridge 101, l. 26-29 .

(٢) هنا ولاحقا //

Bob (Jaffa). Le 7-ièrae congrès de P.C. de la Palestine H "Correspondances Internationales", 1931, N 5, P. 82.

رسالة اللجنة التنفيذية للأمية الشيوعية بـ "الانحراف الصحيح" على أساس "تعريب" الحزب (في الواقع، كانت مهمة موحدة).

كانت وثائق المؤتمر بليغة وممنقة. "بسبب حشر الحركة الشيوعية الفلسطينية في الغيتو اليهودي، لم تتمكن من رؤية (بسبب قصر النظر) الأحداث والحقائق التي تجري خارج هذا الغيتو، أو بالطبع كانت تشاهدها متأخرة ومن خلال المنظور اليهودي (Hashava) التي أعطت صورة مشوهة لهذه الأحداث والوقائع بشكل لا يتوافق مع الحقيقة، واتبعت في سياستها الداخلية والخارجية المسار الأعوج"^(١).

وفقط "التدخل بإصرار أشد وأكثر فعالية وجدية من ذي قبل من جانب الأمية الشيوعية في شؤون الحزب"، التي طالبت بتعريبه الكامل، سمح وجعل من الممكن إخراج الحزب الشيوعي الفلسطيني من "حالة العزلة" وضمن تحوله إلى حزب يرتبط بشكا وثيق بمجماهير العمال والفلاحين العرب والعمال اليهود.

بعد هذا "التدخل"، أصبح الحزب الشيوعي الفلسطيني أخيرا "زعيم هذه الجماهير، ليس فقط من الناحية النظرية، بل ومن الناحية العملية". علاوة على ذلك، أصبح حزبا "يقود الجماهير العاملة من الشعب ليس فقط في مرحلة (طريق) النضال من أجل الاستقلال القومي الكامل والتام، بل وفي مرحلة إنشاء سلطة سوفيتية شيوعية." ومن الآن فصاعدا، لم يعد الحديث يدور فقط عن "قيادة الجماهير خلال الكفاح ضد الإمبريالية البريطانية والبرجوازية اليهودية وأمراء الإقطاع العرب في فلسطين"، بل وعن تحقيق "اتحاد

(١) هنا وأدناه، اقتباس من النص العربي لوثائق المؤتمر السابع للحزب الشيوعي الفلسطيني // (المؤتمر

السابع للحزب الشيوعي الفلسطيني، يناير ١٩٣١) //

RTSKhID-NI, f. 495, op. 81, unit ridge 108, l. 51-75.

قوي للأحزاب الشيوعية في المنطقة (مصر وفلسطين وسوريا) بهدف النضال المشترك من أجل إنشاء اتحاد لجمهوريات العمال والفلاحين في الدول العربية (مصر وفلسطين وسوريا).

اعتمد المؤتمر وثيقته الرئيسية - "قرار بشأن المسألة القومية والوضع السياسي الحالي". وكان يتألف من قسمين - "الأقلية القومية اليهودية" و "الحركة القومية العربية". يستحق كلا القسمين من القرار قراءة متأنية وباهتمام.

أشارت الوثيقة إلى أن "البرجوازية اليهودية والأقلية القومية اليهودية الواقعة تحت نفوذها في فلسطين هي أداة القمع الرئيسية التي تستخدمها الإمبريالية البريطانية ضد السكان العرب الأصليين".

وبعد ذلك تم شرح هذه الفكرة: "استخدمت البرجوازية الصهيونية الوضع المضطهد للجماهير اليهودية العاملة في أوروبا الشرقية، وحولتها إلى أداة للقمع والهيمنة على الجماهير العربية العاملة، وإلى جيش إضافي للإمبريالية البريطانية العاملة في فلسطين والدول العربية المحيطة بها. "... لقد تم تحذير اليشوف. وقيل له أن "ثورات الشعوب المضطهدة في المستعمرات ضد المستعمرين تصاحبها دائما غارات مدمرة ضد الأقليات القومية، إذا كانت هذه الأقليات تعمل كمساعدة) للحكومة الإمبريالية". وقيل له كذلك أن "الثورة المناهضة للإمبريالية للجماهير العربية في فلسطين كانت وستصاحبها في المستقبل حرب ساحقة طاحنة ضد الأقلية اليهودية طالما أن هذه الأقلية تقف إلى جانب الإمبرياليين البريطانيين".

وأعلن الحزب الشيوعي الفلسطيني، في هذا الصدد، أن مسؤوليته المباشرة هي مواجهة الهستدروت والتصدي له على أساس "خلق معارضة نقابية طبقية ثورية" داخل هذه المنظمة. وتم الإعلان أن الهدف هو "النضال ضد مجموعة بوعالي - تسيون، التي

تؤدي دور العميل للبرجوازية اليهودية داخل الطبقة العاملة اليهودية ، وبالتالي تساعد الصهاينة على خداع العمال".

تم إعلان جميع المؤسسات والأحزاب والمنظمات السياسية لليشوف "فاشية قومية" ، يكمن "هدفها الوحيد" في "محاربة العمال والفلاحين العرب ، ومحاربة العمال اليهود الثوريين لتحقيق مصالح البرجوازية اليهودية والإمبريالية البريطانية".

وكان ينبغي على "الجماهير العاملة اليهودية" أن تعرف أن "تحررها من الخضوع للإمبريالية البريطانية والاستغلال اليهودي البرجوازي مستحيل إذا لم تترك وتبتعد عن برجوازياتها وتتحد مع الجماهير العاملة العربية". كانت الوحدة مع العمال العرب مشروطة بحقيقة أن هؤلاء العمال "بمساعدة حركة التحرر القومي لديهم يسعون جاهدين لتحرير العمال اليهود من العبودية الإمبريالية".

وبهذه الطريقة فقط ، "على أساس التطور غير الرأسمالي ، وعلى الأساس السوفيتي" سيتم حل "قضية الأقلية القومية اليهودية في فلسطين".

وكان موقف الحزب الشيوعي الفلسطيني فيما يتعلق باليشوف يفترض بالطبع أن الشيوعيين الفلسطينيين سيعيدون من الآن فصاعدا النظر في موقفهم من أحداث أغسطس ١٩٢٩ في فلسطين.

لقد أصبح هذا التعديل حقيقة واقعة ، وقال هؤلاء أنه: "يجب على الحزب أن يستخدم بنشاط الجوانب الإيجابية التي نشأت بفضل ثورة الفلاحين البدو في أغسطس".

لكن ما هي هذه "الجوانب الإيجابية"؟ ومن بينها ، قبل كل شيء تم ذكر ما يسمى بـ "الأزمة الاقتصادية والزراعية ، الذي جعل من الممكن إعطاء نضال حركة التحرر الوطني ضد الإمبريالية والصهيونية والإقطاعية العربية المزيد من الطابع الحاد".

وقد حدث ذلك لأن "الأزمة" سرّعت "التمايز (الانفصال) الحاصل في الحركة القومية

العربية" بين "كتلة الإصلاح القومي" و "الكتلة القومية الثورية".

تم إعلان الأولى، ممثلة باللجنة التنفيذية العربية كمنظمة سياسية من "رجال الدين والإقطاعيين وطبقة من التجار البرجوازيين"، كعدو غير مشروط للشيوعيين.

لقد شكلت هذه الكتلة وكانت بمثابة "السند الإضافي للإمبريالية، والتي وبمساعدها تستعبد الإدارة البريطانية الجماهير العاملة". ولقاء "خيانتها" كانت اللجنة التنفيذية العربية فقط على "مساعدهات تافهة" من البريطانيين، ومن بينها "المجلس التشريعي وامتيازات اقتصادية مختلفة".

بدورها، كان من المفترض أن تصبح الثانية - "الكتلة القومية الثورية - المتطرفون القوميون العرب (جماعة الحسيني)" - بمثابة الميدان لنشاط الحزب الفعال". ولكن هنا أيضاً، كان الحزب الشيوعي الفلسطيني يعتمز تكثيف ويزيد "التمايز الذي يجري فيه"، ويضع الحد والنهاية لموقفه السابق "المرن والمطاط فيما يتعلق بمجموعة الحسيني".

وهذا يعني أنه كان على الشيوعيين أن يخوضوا "نضالاً ضد جناحه اليميني الذي يميل إلى دعم الإصلاح القومي واللجنة التنفيذية العربية الخائنة".

في نفس الوقت، "كان الحزب يحتاج لإقامة مع مجموعة الحسيني أوسع جبهة موحدة ممكنة، يتم في إطارها استخدام كل تذبذباتها (ولا سيما فيما يتعلق بالمسألة الزراعية)"، وكذلك "فضح خيانتها بلا رحمة في صفوف النقابات العمالية العربية التي تم تشكيلها".

واعتبر الشيوعيون أن سياسة "الجبهة الموحدة" مع الحسيني، افترضت الترويج لشعارين رئيسيين - "حكومة العمال والفلاحين في فلسطين!" و "اتحاد جمهوريات العمال والفلاحين في الدول العربية"

وسار طريق تنفيذها، كما ورد في "قرار العمل في القرى العربية" من خلال "انتفاضة فلاحية مسلحة بقيادة الطبقة العاملة العربية". وكان يجب على هذه الانتفاضة أن تكتسح

"البرجوازية العربية والأباطرة الإقطاعيين"، وتحل في نفس الوقت المشاكل الملحة للفلاحين.

وكما جاء في "قرار محاربة الحركة الصهيونية"، سيقوم "الفلاحون العرب بشكل فطري وبالغريزة في لحظة اندلاع الثورة الزراعية بطرد العمال اليهود الذين استولوا على أراضيهم مؤخراً، وأما الذين استقروا في الأراضي المهجورة فسيتم طردهم إذا قاوموا بنشاط حركة التحرر القومي الثورية للفلاحين ضد الإمبريالية البريطانية والصهيونية". ولن ينقذهم إلا "الانفصال التام عن البرجوازية اليهودية".

ومن الآن تم إعلان العمال والفلاحون العرب بمثابة "القوى الدافعة الرئيسية للثورة". وهذا يعني أن الحزب "يسير بثبات على طريق تعريبه". وتم ربط نجاحاته المستقبلية في فلسطين بشكل مباشر "بمدى قدرته على التعريب"، وهذا بدوره يعني "مدى درجة تمثيل الشيوعيين العرب في هيئاته القيادية".

وقد مر الطريق إلى ذلك من خلال "القضاء على كل انحرافات اليمين واليسار" في صفوفها، وكذلك من خلال تطوير "النقد الذاتي البلشفي". وقد أظهر الكومنترن بالفعل لأنصاره الفلسطينيين كيف يتم ذلك.

لقد تميزت الوثائق التي تم الاقتباس منها بالوقاحة المطلقة، ولم تنقذ الشعارات الثورية هذه الوقاحة ولم تتمكن من تغطيتها. لقد دار الحديث عن الاستغلال المخزي لمحنة الناس العاديين الذين عاشوا في تلك السنوات في فلسطين، وعن التحريض المكشوف لمجموعة قومية ضد أخرى، وعن الابتزاز المفتوح وعدم الأوهام غير المبررة والعديمة الأساس تجاه الآفاق المستقبلية للحزب.

في الوقت نفسه، تم اعتبار أهم سمة في الوضع الفلسطيني في تلك السنوات - "بناء الأمة"، الذي تم تنفيذه، وإن كان بشكل غير متساو للغاية من قبل كلا الشعبين في

البلاد - كموضوع عديم الأهمية. كان لا بد من التضحية بها من أجل "الأمية". علاوة على ذلك، تم إعلان قيادة كل من الجماعات القومية الفلسطينية "كشوفينية" و "فاشية" و "إصلاحية قومية" و "خائنة". لكن هذا نابع فقط من أن هذه القيادة تسترشد موجهة بتطوير العلاقات مع "الإمبريالية البريطانية".

كانت وثائق المؤتمر السابع للحزب الشيوعي الفلسطيني، مع ذلك، أوضح دليل على أن خطاب الشيوعيين، في النهاية، لم يختلف جوهريا عن شعارات بوعالي تسيون أو الخطب النارية في المساجد التي ألقاها القوميون العرب. لكنها كانت "أمية" لأنهم تسترشد بالاتحاد السوفيتي. ومع ذلك، لم تكن هذه الوثائق تستحق التعليق، لولا نقطة واحدة مهمة. كان هذا هو موقف الكومنترن.

في ديسمبر عام ١٩٣٠، بعثت اللجنة التنفيذية للأمية الشيوعية برسالة سرية "إلى جميع أعضاء الحزب الشيوعي الفلسطيني" تم فيها الحديث بوضوح عن "ضرورة انتفاضة أغسطس ١٩٢٩". وشددت كذلك على أن "الإمبريالية البريطانية ... حولت الأقلية القومية اليهودية الأجنبية إلى أداة لاضطهاد السكان العرب الأصليين". وتم إعلان اليسار في بوعالي تسيون وكذلك الهستدروت "كممثلين ... للإمبريالية الاجتماعية والفاشية الاجتماعية اليهودية".

نصت الرسالة بشكل لا لبس فيه على ما يلي: "يعلما تاريخ النضال التحرري - الاستعماري أنه عندما تعمل الأقليات القومية، بشمل متكامل كوكيل للإمبريالية ... يمكن أن يؤدي انفجار سخط الجماهير المستعبدة إلى حرب إبادة ضد الأقليات القومية.. لقد حدث هذا الأمر في تركيا". ووصفت اللجنة التنفيذية للأمية الشيوعية واعتبرتها "بلاد عربية للعمال اليهود والعرب".

في ذات الوقت تم اعتبار اللجنة التنفيذية العربية كـ "تيار إصلاحي قومي" كان لا بد

من خوض نضال لا يرحم ضده. وبالطبع لوحظ في هذه الرسالة أنه يمكن إبرام "اتفاقات مؤقتة" مع جماعة الحسيني، لكن بشكل عام كان على الشيوعيين أن يتصرفوا معها بشكل يسمح "بتعزيز خط التمايز في صفوفها"^(١).

لم يكن الأمر يتعلق فقط بالتطابق في النصوص بين قرارات المؤتمر السابع للحزب الشيوعي الفلسطيني وهذه الرسالة، بل وعن أن جميع هذه القرارات تم إعدادها من قبل موظفي الدائرة الشرقية بعثت اللجنة التنفيذية للأمية الشيوعية، وتم نشرها لاحقاً باللغة الروسية، أي بلغتها الأصلية، نُشرت في موسكو عام ١٩٣٤ في مجموعة "وثائق برنامج الأحزاب الشيوعية في الشرق".

ويمكن القول إن القيادة الجديدة للحزب الشيوعي الفلسطيني أتقنت الدرس بشكل جيد. فبعد وقت قصير، قامت بتعزيز لهجة الكومنترن تجاه حليفها المحتمل. لقد تلقت اللجنة التنفيذية للأمية الشيوعية رسالة تفيد بأن أنصارها الفلسطينيين ليس لديهم "أي ضمانات بأن هذا الحزب القومي الثوري (مجموعة الحسيني) لن يذهب بنفس طريق الكوميتانغ (الحزب السياسي المحافظ بجمهورية الصين) أي طريق التحول إلى حزب قومي -إصلاحي.

وبهذا الشكل، باتت مهمة الشيوعيين تكمن في "منع تشكيل يسار جماهيري من الكوميتانغ" في فلسطين^(٢). وبعبارة أخرى، اقترحوا العمل من خلال تفكيك هذه

(١) رسالة من الحزب الشيوعي بفلسطين، إلى جميع أعضاء الحزب الشيوعي الفلسطيني // نفس المصدر. ف ٤٩٥. اوب ٨١. وحدة الحفظ ٨٦ الصفحة ٢٢-٣١.

(٢) موقف الحزب الشيوعي الفلسطيني من الحركة القومية العربية، بدون تاريخ // نفس المصدر ف ٤٩٥. اوب ٨١. وحدة الحفظ ١١٧ الصفحة ١٤-١٥.

المجموعة داخليا. ولم تجد اللجنة التنفيذية للأمية الشيوعية ضرورة للتجادل معهم. وتخلص الحزب من زعمائه القدامى. وتألقت التشكيلة الجديدة للجنة المركزية للحزب، المنتخبة في المؤتمر، في أغليبتها من شيوعيين من أصل عربي.

تم استدعاء القادة السابقين للحزب الشيوعي الفلسطيني - اليهود إلى موسكو، حيث أصبحوا موظفين في القسم الشرقي باللجنة التنفيذية للأمية الشيوعية، وعملوا في الجامعة الشيوعية لشعوب الشرق^(١). لم تكن صفتهم الجديدة، بالطبع، سينكورية الطابع (عمل مريح بدون تعب أو مسؤولية)، بل كانت حالة منفي "فخرية" مع الخضوع لرقابة صارمة. ودار الحديث كذلك عن التنصل من الآراء والمعتقدات التي كانوا يؤمنون بها. كانت عملية تعريب الحزب الشيوعي الفلسطيني تشبه الاندفاع المتسرع، عندما تم استبدال الكوادر الحزبية اليهودية بشكل عاجل ودون تفكير بأفراد من العرب الذين بالكاد انضموا إلى الحزب، وغالبًا ما كانوا على قدر ضعيف من الأعداد النظرية ولم يملوا بمدرسة النضال السياسي الطويل. **ويجب القول إن التسرع في هذه الحملة وطبيعتها الميكانيكية البحتة، شطب حياة الناس الذين مستهم وطرحوا التساؤل عن المثل العليا التي ناضل هؤلاء الأشخاص من أجلها. وترك الشيوعيون اليهود الحزب، لأنهم اعتبروا المسار الجديد يحد**

(١) من بينهم ف. أفربوخ (أبوزيام، حيدر)، وك. فايس (أفيغدور)، ون. ليشينسكي (ناداب)، وج. تيبير (شامي)، وإ. بيرغر (برزيلاي). في نهاية الثلاثينيات. تم اعتقالهم جميعا بتهمة القيام بـ "أنشطة صهيونية" أو "الترويج لتروتسكي" وماتوا في معسكرات الاعتقال. بقي على قيد الحياة فقط بيرغر الذي الاتحاد السوفيتي إلى إسرائيل عام ١٩٥٧. حيث شجب علنا ماضيه الشيوعي. وقام المذكور بنشر العديد من الأعمال باللغتين العبرية والإنجليزية، كرست حياته في الاتحاد السوفيتي ومأساة الشيوعيين الفلسطينيين من أصل يهودي. ومن بين هذه الكتب يمكن ذكر: (النور عند منتصف الليل). تل أبيب، ١٩٦٢، و (مأساة الثورة السوفيتية). تل أبيب، ١٩٦٤.

من إمكانية عملهم ونشاطهم في المنظمات العمالية القومية، وكتخلي عن أي نشاط حزبي على الإطلاق. واعتبر هؤلاء أنه لم يعد هناك أي معنى من النشاط الحزبي، لأن استمرار العمل في الهستدروت الآن بات تعبيراً عن ضيق الأفق الطائفي وبمثابة التعبير عن "الشوفينية اليهودية الصهيونية"، بينما العمل بين العمال العرب مستحيل بسبب جهل اللغة والظروف الناشئة عن الانتماء القومي. ومن جديد عاد الحديث عن الهجرة التي أصبحت من الأمور الواقعية^(١). لأن العديد من الشيوعيين اليهود استمروا في تقييم الحركة القومية العربية الفلسطينية من منظور توجهها المعادي لليهود^(٢).

لكن الشيء الرئيسي الآن بالنسبة للكومنترن، بات إنشاء "حزب شيوعي عربي". وكانت الحركة في هذا الاتجاه سريعة وهادفة. وفي عام ١٩٣١، أفادت صحافة اللجنة التنفيذية للأمية الشيوعية^(٣)، بأنه تم عقد مؤتمر للحزبين الشيوعيين في سوريا وفلسطين، حيث تم اعتماد قرار "حول مهام الشيوعيين في الحركة القومية العربية"^(٤).

واليوم لا يوجد سبب للاعتقاد بأن هذا المؤتمر قد عقد بالفعل وأنه تم تحضير هذه

(١) في ١٩ يونيو ١٩٣٢ أرسل س.م. ديمانشتاين رسالة إلى اللجنة التنفيذية للأمية الشيوعية (تم إرسال نسخة من الرسالة إلى ل. كوغنوفيتش) تفيد بأنه في منتصف مارس من نفس العام، أرسلت مفوضية الشعب للشؤون الخارجية ٦٤ تأشيرة دخول إلى اسطنبول للمهاجرين الشيوعيين من فلسطين الذين كانوا متجهين إلى يبرويديجان. وذكر أيضاً أن "مفوضية الشعب للشؤون الخارجية سترسل قريباً مائة تأشيرة أخرى إلى هناك" لمجموعة جديدة من المهاجرين الفلسطينيين.

RTSKHIDNI, f. 495, op. 81, unit ridge 132, l. 26.

(٢) نفس المصدر. ف ٥٣٤. اوب ٧. وحدة الحفظ رقم ٤١٨ الصفحة رقم ١٠٩.

(3) Correspondances Internationales, 1933, N 1 .

(٤) نص الوثيقة. اقتباس // وثائق برنامج الأحزاب الشيوعية في الشرق. بإشراف ل. ماديان وب. ميف وم. اورخاشفيلي وغ. سافاروف. إصدار عام ١٩٣٤ الصفحة رقم ١٦٠-١٦٩.

الوثيقة من قبل أعضاء من هذين الحزبين. على الأغلب تم إعداد هذا القرار من قبل موظفي الدائرة الشرقية للجنة التنفيذية للأمم المتحدة الشيوعية^(١).

وقالت الوثيقة، أن دول الشرق العربي تتواجد في مرحلة النضال ضد الهيمنة السياسية والاقتصادية لإمبريالية دول أوروبا الغربية. ودار الحديث هنا عن منطقة جيوسياسية ضخمة امتدت حدودها من العراق إلى المغرب. لقد وضعت الحركات القومية التي تطورت في كل بلدان هذه المنطقة، مهمات أساسية تتلخص في سحق هيمنة الظالمين الأجانب، الذين ليس فقط حرّموا الشعوب العربية من الاستقلال السياسي، بل أوستولوا أيضاً على مناصب عالية في الحياة الاقتصادية للدول العربية. لقد استخدمت الإمبريالية الوضع القائم في العالم العربي "لاستغلال الجماهير العربية بلا رحمة". لكن خلال نضالها من أجل التحرر الوطني، واجهت جماهير الشرق العربي واصطدمت كذلك بعملاء الإمبريالية الداخليين، الذين تمثلهم "الزمر الرجعية الملكية، وملاك الأراضي والشيوخ الإقطاعيين وشبه الإقطاعيين، والبرجوازية الكومبرادور الأصلية، وكبار رجال الدين". ولهذا السبب، بات النضال من أجل الاستقلال الوطني للدول العربية "يقترن حتما بالنضال من أجل ثورة فلاحية زراعية موجهة ضد الغزاة الإمبرياليين وعملائهم ... وفي الوقت نفسه ضد ملاك الأراضي الإقطاعيين المحليين. وبالنسبة لفلسطين، كانت "الصهيونية" طبعاً أحد هؤلاء "العملاء". في الوقت نفسه، كان النضال القومي للشعوب

(١) في العهد السوفيتي لم تكن هناك إمكانية للاطلاع على وثائق الكومنترن والأحزاب الشيوعية في الدول العربية، وهو ما جعل المؤلف يعتقد خطأً أن هذه الوثيقة كانت ثمرة إبداع الشيوعيين العرب أنفسهم. انظر على سبيل المثال: كوساتش غ. الكومنترن والأحزاب الشيوعية في البلدان العربية في العشرينات والثلاثينيات // الكومنترن والشرق. انتقاد النقد. إصدار عام ١٩٧٨.

العربية موجها أيضاً ضد "البرجوازية الإصلاحية"، التي "غير قادرة على النضال الثوري ضد الإمبريالية، والتي تميل أكثر فأكثر نحو الدخول في صفقة والتعامل مع الثورة المضادة في إطار التنازلات الدستورية الزائفة التي تغطي فقط الهيمنة الإمبريالية".

في فلسطين سلكت اللجنة التنفيذية للمؤتمر العربي الفلسطيني "طريق التنافس الغادر مع الصهيونية في المساومة على تنازلات من الإمبريالية البريطانية مقابل ضمان" الهدوء والسكينة من جانب "الجماهير العربية". ومن أجل تحويل النضال القومي للشعوب العربية إلى طريق الإطاحة الثورية بهيمنة المضطهدين الطبقيين الأجانب والمحليين، لم يكن هناك سوى طريق واحد - "جبهة تقوم على تطور الحركة العمالية والفلاحية وتستقي قوتها منها". والقوة الرئيسية في هذه الجبهة كان يجب أن تصبح "الطبقة العاملة العربية الفتية"، التي "سلكت طريق النضال من أجل دورها التاريخي في الثورة الزراعية المناهضة للإمبريالية". وكان لدى هذه الطبقة، طليعتها - الأحزاب الشيوعية. وكانت حليف الطبقة العاملة في هذا النضال، جماهير الفلاحين الذين وصلت حركتهم، وخاصة في فلسطين، إلى "مستويات عالية من النضج". وبعد الاستيلاء على الموقع المهيمن في الثورة المناهضة للإمبريالية والاقطاعية وبعد أن جذبت إلى جانبها الجماهير العريضة من الفلاحين والبرجوازية الصغيرة الحضرية، يجب على البروليتاريا العربية تحت قيادة الأحزاب الشيوعية في بلدانها، أن تقود الجماهير إلى "تحقيق الاستقلال الوطني للدولة"، وتحقيق "الثورة الفلاحية الزراعية" و"إقامة حكومة العمال والفلاحين"، والكفاح ضد "الغزاة الإمبرياليين، وضد أصحاب الأراضي والمرايين" وضد "البرجوازية". ونتيجة هذه العملية كان يجب أن تصبح إعلان وحدة الدولة القومية لـ "جمهوريات العمال والفلاحين العرب الاشتراكيين" داخل حدود المنطقة العربية بأكملها.

هذه لقد كانت مهمة طموحة جداً. لم تعد اللجنة التنفيذية للأمية الشيوعية تقتصر في

نشاطها على الحدود الضيقة لـ "سوريا التاريخية" كما بدا لها، بل سعت إلى العمل في جميع أنحاء العالم العربي. لقد اعتقدوا في تلك اللجنة أن وحدة الدولة القومية للشعوب العربية، ستكون الأداة الأكثر فاعلية لمواجهة الأجانب والمستغلين المحليين. ولتحقيق ذلك، كان من الضروري إنشاء "حزب شيوعي قومي عربي" موحد.

طبعاً هذه الوثيقة كان يمكن أن تظهر، فقط بمبادرة من اللجنة التنفيذية للأمم المتحدة الشيوعية وتم طرحها فقط عندما تولى قادة جدد من أصل عربي على وجه الخصوص قيادة الحزب الشيوعي الفلسطيني. لقد شعروا في الكومينترن بمزاج هؤلاء القادة، وحاولوا تشجيعهم. وهنا يجب القيام بملاحظة واحدة ضرورية.

بعد أقل من عشرين عاماً، سيتكرر هذا المخطط لتطور العالم العربي - الوحدة والحرية والاشتراكية - بنفس التفاصيل تقريباً من قبل القوة السياسية لسوريا الحديثة - حزب البعث. وستظهر في البلدان العربية الأخرى، مثل هذه الأشكال للتطور وفقط سيتغير مكان الكلمات في الشعارات.

علاوة على ذلك، سيصبح هذا المخطط هدفاً للتنفيذ العملي، وسينال الدعم من جانب الاتحاد السوفيتي، الذي اعتقد أنه وبمساعده سيكون من الممكن توسيع تأثير الدولة السوفيتية على الأحداث في العالم العربي والشرق الأوسط.

لقد مر عامان فقط منذ اللحظة التي تم فيها تبني قرار "مهام الشيوعيين في الحركة القومية العربية"، وفي أكتوبر ١٩٣٣، اندلعت الاضطرابات مرة أخرى في فلسطين. وشاهد الشيوعيون فيها تأكيداً لصحة بنود هذه الوثيقة.

ومع السير على طريق تكتيكات الانتشار الفوري لحركة ثورية جماهيرية في البلاد بقيادة البروليتاريا، ناشد الحزب الشيوعي المشاركين في الأحداث "إنشاء لجان العمال والفلاحين" التي يجب عليها توجيه العمال إلى النضال "من أجل إسقاط الانتداب

البريطاني، وإلغاء وعد بلفور، وإنهاء الهجرة الصهيونية". وطالب الحزب، جماهير الفلاحين بالاستيلاء على "أراضي الحكومة والصهاينة وكبار الملاك العرب وتوزيعها على الفلاحين والبدو الفقراء"^(١). لكن التكتيكات الثورية تعثرت مرة أخرى.

كتبت مجلة "العرب"، التي يصدرها القوميون العرب اليساريون في القدس: "الاشتباكات والمظاهرات الدامية المستمرة، موجهة ضد السلطات البريطانية. ولأول مرة، سألت دماء العرب في وقت كان العرب مقتنعين تماما بأن عدوهم الأول والأخير بالطبع هم البريطانيون. في القدس ويافا وحيفا، حيث اندلعت اشتباكات بين العرب والسلطات، وقف اليهود بعيدا يتابعون ما يجري بواسطة المناظير المكبرة. سابقا، عندما كانت تندلع الاشتباكات بين العرب واليهود، كان البريطانيون ويراقبون ذلك عن بعد بواسطة المناظير. يبدو لنا - أن استئناف الاشتباكات مع اليهود، حتى لو كان طغيانهم قاسيا، يبقى مستحيلا، لأن البريطانيين هم من يقتلون العرب هذا البلد. وفي ذلك بالذات يكمن معنى المعادي للانكليز في نضال العرب". واتباع السكان العرب في فلسطين تعليمات قادتهم.

وطالبت اللجنة التنفيذية للمؤتمر العربي الفلسطيني، سلطات دولة الانتداب بوقف الهجرة اليهودية التي كانت تتصاعد على خلفية الأحداث في ألمانيا، حيث وصلت التجاوزات المعادية للسامية ذروتها بعد وصول النازيين إلى السلطة. وأجبر ذلك قادة الحركة القومية العربية الفلسطينية على إجراء تعديلات على تكتيكات نشاطاتهم^(٢).

ولكن في كل الأحوال، لم يرغب العمال الذين تطلع الشيوعيون إلى قيادتهم، في

(1) P.K. La lutte des Arabes en Palestine // "Correspondances Internationales", 1933, N 91-92, P. 1124.

(٢) اقتباس من عمل الحوت ب.ن. الصفحة ٢٩٢-٢٩٣.

العمل ضد قاداتهم أو ضد اليسوف. وطبعاً أي ظهور لما سماه الحزب الشيوعي الفلسطيني بـ "معادة الصهيونية" كان سيتسبب بظهور عواقب غير مرغوب فيها بالنسبة لهم. طبعاً سيكون من الخطأ القول، أن جوهر خط السلوك الجديد للنخبة العربية الفلسطينية لم تتم ملاحظته من جانب اليسوعيين. لكنهم استمروا في تفسير أحداث عام ١٩٣٣ على أنها تحول في مزاج "الجماهير العربية"، التي "بدأت تفهم معنى القضية الفلسطينية"، المتلخص في أن "الهجرة الصهيونية ليست أكثر من أداة في أيدي الإمبريالية البريطانية". ولإثبات صحة كلامهم، قال اليسوعيون هذه المرة أنه "لا يستطيع أحد أن يقول، كيف حدث ذلك في أغسطس ١٩٢٩، لقد كانت مذبحة نظمها رجال الدين والأفنديين"^(١).

وأعلنوا أيضاً أن المستوى العالي من "الوعي الطبقي والانضباط الثوري"، الذي استبعد "التجاوزات المعادية للسامية"، أثبت أن "البروليتاريا العربية تتقدم ببطء، ولكن بثبات نحو الهيمنة على الحركة القومية- الثورية والثورة المناهضة للإمبريالية"^(٢). وتم حفظ المخطط المجرد، وأصبح أقوى وأكثر تأثيراً من الحياة الواقعية.

لكن رغم ذلك، في أوائل الثلاثينيات كان وقت بداية التمايز الحقيقي في صفوف الحركة العربية الفلسطينية ودخول الأحزاب القومية الأولى إلى ساحتها، وانتهت عملية إدخال العلاقات البنفس في البيئة العربية لفلسطين.

وأصبح حزب الاستقلال بزعامة عوني عبد الهادي الجناح اليساري للحركة

(1) B.R. Événements sanglants en Palestine // "Correspondances Internationales", 1933, N89-90, P. 1087-108.

(2) W.R. Le début de la crise révolutionnaire en Palestine // "Correspondances Internationales", 1933, N 93-94, P. 1142-1143.

الوطنية^(١). ودخل الحسيني في صفوف هذا الحزب.

في مارس ١٩٣٣ ، وافقت اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الفلسطيني على مقولات تحت عنوان "موقفنا من الاستقلال"^(٢). وفيها جرى الحديث عن موقف الشيوعيين من هذا الحزب. كانت بنود الوثيقة الرئيسية على النحو التالي.

"أجبرت الخيانة الواضحة من جانب اللجنة التنفيذية وانتشار التطرف بين جماهير الفلاحين والبرجوازية الصغيرة الحضرية والبروليتاريا ، الطبقة البرجوازية على إنشاء حزب الاستقلال الجديد لكي تبقى تحت السيطرة الجماهير التي أخذت تبتعد عن تأثير اللجنة التنفيذية لمؤتمر الجماهير العربية".

تم وصف "الاستقلال" على أنه تجمع من "العناصر المتنوعة القوام" - "كبار الرأسماليين ، والمحامين الأثرياء ، وملاك الأراضي المتوسطة والصغيرة ، ... وممثلي طبقات المثقفين البرجوازيين الصغار". وكما أكد الشيوعيون ، فإن "سياسة الاستقلال تتلخص في إجبار الإمبريالية البريطانية على حل وسط ضد الصهيونية ، لذا فهم مستعدون لتوجيه

(١) وصف الباحث والسياسي الإسرائيلي من أصل عربي إميل توما حزب "الاستقلال" بأنه حزب "دعا إلى استقلال فلسطين ... وخلصها من نير الاستعمار والصهيونية ، وتوجيه الضربة الرئيسية ضد الاستعمار البريطاني الذي عمل كسند رئيسي للصهيانية ، كما انتقد الحزب بشدة أولئك الذين كانوا يميلون إلى التعاون مع السلطات الاستعمارية. كان حزب "الاستقلال" يمثل البرجوازية القومية "وسعى إلى الاعتماد على الجماهير ، معتبرا إياهم أساس الحركة الوطنية" // إميل توما ، مرجع سابق الصفحة رقم ١٠٠.

(٢) هنا وأدناه: موقفنا من الاستقلال (مسودة أطروحات أقرتها اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الفلسطيني في ١٢ آذار ١٩٣٣)..

// RTSKHIDNI, f. 495, op. 81, unit ridge 143, l. 16-24.

الضربة الرئيسية ضد الإمبريالية البريطانية ، وليس ، كما هو الحال بالنسبة للجنة التنفيذية للمؤتمر العربي ، ضد الصهيونية فقط (بالكلمات)".

ومن هنا تم الخروج باستنتاج يفيد بأنه "من الخطأ أن يكون هذا الحزب الموالي للإمبريالية ، وهذا الحزب البرجوازي اليساري الصغير ، يمكن أن يصبح يساريا معارضا قادرا على يتحول إلى ثوري وأن يصبح حليفا لحزب البروليتاريا".

بعد ذلك حددت مقولات اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الفلسطيني تكتيكها تجاه الاستقلاليين وأكدت أنه يمكن أن يكون فقط السير على "خط على التعرية الحاسمة لسياسة هذا الحزب ، ووجهه الاجتماعي ، وعدائه للثورة الزراعية". وهذه التعرية تتطابق مع النهج المعتاد لكل من الشيوعيين واللجنة التنفيذية للأمية الشيوعية فيما يتعلق بالحلفاء المحتملين: "استغلال كل أنواع الاحتكاك ، والصدمات ... بينها وبين الإمبريالية والصهيونية. وإقامة علاقات وثيقة مع العناصر البرجوازية الصغيرة في الاستقلال ، ودفعهم إلى العمل الحازم مع برنامج زراعي ثوري ، بغض النظر عن الزمرة البرجوازية المالكة". ويبقى كل هذا عبارة انتهاج خط التقسيم نفسه. وع انتقادهم للاستقلاليين ، ولم يحاول الشيوعيون حتى رؤية أنهم شنوا حملة واسعة ضد بيع الأراضي لصناديق الاستعمار اليهودية ، مع اجتذاب للمشاركة في هذه الحملة زعماء دينيين مسلمين ، وساهموا في تعزيز الصناعة الوطنية^(١).

كان الشيء الرئيسي بالنسبة لهم ، أن الاستقلاليين ، لأسباب براغماتية خاصة بهم ، كانوا مستعدين للتخلي عن تقليد المواجهة مع اليسوف والتخلي عما سماه الحزب الشيوعي الفلسطيني "معادة الصهيونية". ولكن مع ذلك ظهرت في حياة البلاد في ذلك

(١) الشريف م. الشيوعية والمسألة القومية العربية في فلسطين. ص ٧٩.

الوقت ولو بشكل محدود للغاية امكانية، إمكانية وفرصة لتهدة الاحتكاك والتوتر بين القوميات، وحل القضايا التي كانت تقلق الجاليات القوميتين. في بعض الأحيان، كانت تقوم علاقات بين العرب واليهود تؤدي بشكل عفوي إلى القضاء على العقبات التي أقامها زعماء الطائفتين بين هذا الطرف وذاك.

في بداية سبتمبر ١٩٣١، شهدت مدينة حيفا أحد الاضطرابات المشتركة النادرة في فلسطين في تلك السنوات. الحديث هنا عن إضراب السائقين العرب واليهود وبلغ عدد المشاركين فيه ٣٥٠٠ شخص. أصبح هذا الحدث ممكنا بفضل تنسيق الإجراءات بين أعضاء قيادة الفرع المحلي اتحاد عموم الفلسطينيين لنقابات العمال العرب (WFUAU)، ونقابة السائقين اليهودية برئاسة بوغالي تسيون اليساريين.

واعتبر قادة الهستدروت والمفتي العام لفلسطين، الطبيعة الأمية للإضراب خيانة لـ "المصالح القومية" للجاليات. وانطلاقا من نهجهم في فضح القيادة "البرجوازية" للحركة العمالية، لم يشارك الشيوعيون في هذا الإضراب، و فقط ناشدوا المشاركين فيه أن لا يثقوا بقادتهم و "أن يأخذوا مسألة النضال بأيديهم".^(١)

في ربيع عام ١٩٣٢، خلال انتخابات لجنة العمل لفرع الهستدروت في نيس تسيونا، حصلت القائمة المشتركة لـ "المستقلين"، التي تمثل كتلة العمال وبوغالي تسيون اليساريين، على ٢٥٪ من أصوات أعضاء قيادة المركز المهني النقابي.^(٢)

وكانت نتيجة هذه الفعالية ظهور عريضة احتجاجية وقعها ٢٠٠ من ٤٠٠ عضو في فرع الهستدروت في نيس تسيون ضد سياسة شراء الأراضي في القرى العربية المجاورة. وفي

(١) RTSKHIDNI, f. 534, op. 7, units ridge 418, l. 115 .

(٢) نفس المكان. ف٥٣٤. اوب٣. وحدة الحفظ رقم ٨٠٨، ص ٢٧.

تلك البلدة تم انتخاب لجنة لمكافحة تهجير العمال العرب من المؤسسات والمزارع الزراعية العاملة هناك^(١).

ولكن الحزب الشيوعي الفلسطيني ظل يطالب بأكثر من ذلك. وصرح ممثلوه في اللجنة بأنها يجب أن تصبح الأساس لإنشاء منظمة نقابية ثورية تعمل في اتجاه انتقال فوري لتنظيم انتفاضة للعمال العرب. لكن رد فعل الهستدروت كان فورياً. تم في نيس تسيون تشكيل محكمة لمحاكمة اليساريين في بوعالي تسيون وحلفائهم من بعض الشيوعيين بتهمة "خيانة المصالح القومية". وكان المدعي العام في المحاكمة هو بن غوريون^(٢).

في بداية الثلاثينيات كان الحزب الشيوعي الفلسطيني لا يزال حزباً صغيراً^(٣)، يتعرض للضربات المستمرة من خصومه السياسيين. وكان الحزب، بحسب أفينغور،

(١) نفس المكان. ف٥٣٤. اوب ٧. وحدة الحفظ رقم ٤١٨، ص ١١٤.

(٢) فيلنرم، المرجع السابق. ص ٣٥-٣٧.

(٣) ليس لدينا بيانات دقيقة عن عدد أعضاء الحزب الشيوعي الفلسطيني في ذلك الوقت. ومع ذلك، يمكن الحصول على تصور معين عن ذلك من خلال البيانات المتعلقة بعدد أعضاء الكتلة العمالية التي يقودها. اعتباراً من أبريل ١٩٣٠، انضم إليها ٦٠٠ شخص، منهم ٦٠ من العرب. // حالة وأنشطة الكتلة العمالية في تقرير مارس - أبريل ١٩٣٠ إميك. ومع حلول ١ أغسطس ١٩٣٢، كان الكتلة تضم ٥٠٠ عضو، منهم ٧٠ من العرب. وكان ٣٢٠ شخصاً من عناصرها، من بينهم ٦٠ عربياً، يعيشون في مدن، والباقي في مستوطنات زراعية يهودية وقرى عربية. لم يمثل العمال اليهود الذين عاشوا في فلسطين لفترة طويلة سوى جزء ضئيل من أعضاء الكتلة العمالية اليهود. وأشارت الوثيقة نفسها إلى أن "الحدود بين كتائب الحزب والكتلة العمالية اختفت بالكامل". // وضع العامل في فلسطين، وضع ومهام التنظيمات النقابية الثورية (تقرير القسم الفلسطيني من البروف ايتربن، المسماة الكتلة العمالية، الموجه إلى الأمانة العامة في ٢٥ أغسطس ١٩٣٢). // نفس المكان. ف٥٣٤. اوب ٧. وحدة الحفظ رقم ٤١٨ صفحة رقم ١٠٨.

بتاريخ أبريل ١٩٣٦ ، يضم ١٥٠ عضوا فقط^(١).

(١) تقرير افيغدور عن عمل الحزب بتاريخ ١٩٣٦/١١/٤ // نفس المكان. ف٤٩٥. اوب ١٤. وحدة الحفظ
رقم ٣٦٤ صفحة رقم ٤٨.

(٦) عصر "الجبهة الشعبية المناهضة للإمبريالية" والحزب الشيوعي الفلسطيني

عشية افتتاح المؤتمر السابع للكونغرس، قالت اللجنة التنفيذية للأمية الشيوعية أن الحزب الشيوعي الفلسطيني "يمثل طائفة معزولة إلى حد كبير عن الجماهير العربية ولا يتمتع بأي تأثير جاد حتى بين العمال اليهود"^(١). ووفقا للمكتب التنفيذي للبروف اينترن، كانت القاعدة الاجتماعية للكتلة العمالية تتكون بشكل رئيسي من "العمال العاديين غير المؤهلين وربات البيوت". وهي "لم تتمكن من التسلل إلى صفوف الطبقة العاملة العربية وليس لها صلات بالعمال اليهود العاملين في المؤسسات الصناعية"^(٢). ولكن لم ترد حتى ولو كلمة واحدة عن أن المسؤولية المباشرة عن ذلك يتحملها، في المقام الاول، "قادة البروليتاريا العالمية". ولقد تلخص السؤال فقط في أنه تم التعبير عن هذا الانتقاد الذي بدا حادا في طبيعته لحالة الحزب الشيوعي الفلسطيني فقط لأن الكونغرس كان يدخل فترة الإعداد لمؤتمره السابع (عام ١٩٣٥). كان يحتاج إلى أقسام فعالة وقادرة على تنفيذ تكتيكاته الجديدة - جبهة واسعة مناهضة للإمبريالية في المستعمرات والبلدان التابعة والمرتبطة.

من حيث الجوهر وفي الواقع، لم يكن النقد الموجه للشيوعيين الفلسطينيين أكثر من الاعتراف بحقيقة عجزهم فيما يتعلق بـ "المهام التي حددتها لهم في تلك المرة اللجنة التنفيذية للأمية الشيوعية"، لكن كان عليهم حل هذه المهام. وشارك ممثلان عن الحزب

(١) الأمية الشيوعية قبل المؤتمر العالمي السابع (المواد). إصدار عام ١٩٣٥، ص ٤٩٧.

(2) RTSKHIDNI, f. 534, op. 7, units ridge 418, l. 110.

الشيوعي الفلسطيني في أعمال المؤتمر السابع للكونغرس - يوسف (رضوان الحلو، منذ عام ١٩٣٤ أمين عام لجنة الحزب المركزية) وحجار (على ما يبدو م. الأطرش). تحدث كلاهما في جلسات المؤتمر، وتركزت كلمتهما على مشكلة إنشاء جبهة مناهضة للإمبريالية في فلسطين، وتقييم الفترة السابقة لنشاط الحزب الشيوعي الفلسطيني والآفاق المستقبلية للحزب. ولأول مرة خلال أعمال المؤتمر، تحدث يوسف وحجار خلال المناقشة عن التقرير الذي قدمه ف. بيك حول نشاط اللجنة التنفيذية للأمة الشيوعية. وأكد يوسف في كلمته على أهمية فلسطين بالنسبة لسياسة بريطانيا الشرق أوسطية. وهذا الطرف، حسب رأيه، حدد سلفاً توجه الإمبرياليين البريطانيين لطلب مساعدة البرجوازية الصهيونية، "التي طردت الفلاحين العرب من الأرض، ودمرت البرجوازية العربية الصغيرة وحتى الكبيرة".

وشدد يوسف على أن الحزب الشيوعي بقي ينطلق على مدى عدة سنوات من "الأساليب الخاطئة المتمثلة في عدم الاعتراف بال جماهير العربية كقوة دافعة للنضال من أجل التحرر الوطني والثورة الزراعية". لكن بعد السير على طريق التعريب، تمكن الشيوعيون من تحقيق النجاح في "نضالهم الاقتصادي والمناهض للإمبريالية". وأشار يوسف إلى أن تعريب الحزب وسياسته الداعمة للحركة القومية العربية لا يعني أن الحزب الشيوعي الفلسطيني كان يتجاهل العمل بين "الجماهير الشعبية اليهودية، التي يعد تحريرها من النفوذ الصهيوني كما في السابق أحد المهام الرئيسية للحزب الشيوعي الفلسطيني"^(١). في كلمته، تحدث حجار بشكل محدد ومفصل عن فكرة "الأساليب الخاطئة في عدم الاعتراف" بدور العمال العرب من جانب الشيوعيين الفلسطينيين. وأشار إلى أن الحزب

(1) Correspondances Internationales, 1935, N 65-66, P. 947-948.

الشيوعي الفلسطيني "مصاب بعدوى النفوذ الصهيوني"، الأمر الذي لم يسمح له بالدعوة إلى إنشاء "جبهة موحدة مناهضة للإمبريالية" في البلاد.

وتابع حجار القول إن الحزب الشيوعي، "لم يعتمد بشكل كاف على الكادحين وعلى العمال والفلاحين العرب، في وقت كان الإصلاحيون فيه يعززون نفوذهم ضمن الجماهير العربية". ووفقا له، في ظل الظروف الجديدة، كانت مهمة الشيوعيين هي "ربط النضال في المدينة بالنضال في الريف وإنشاء جبهة شعبية مناهضة للإمبريالية والصهيونية". وأشار حجار إلى "ضرورة أن يأخذ الحزب في الحسبان، وجود العناصر القومية - الثورية ودعم مطالبهم الموجهة ضد الإمبريالية"⁽¹⁾.

وحسب اعتقاده تحددت الخطوط العامة للأنشطة المستقبلية للشيوعيين الفلسطينيين، على النحو التالي: الخصم الرئيسي لحركة العرب الفلسطينيين وخاصة العمال منهم، هي الإمبريالية وسندها المتمثل في الصهيونية. يجب على الحزب أن ينشئ جبهة شعبية مستقبلية معادية للإمبريالية والصهيونية، على أساس النضال من أجل تحقيق شعارات الاستقلال، وعودة الأرض للفلاحين العرب، وحرية العمل لمنظمات العمال والفلاحين والصحافة.

وتحدث يوسف مرة ثانية، خلال المناقشات التي دارت حول تقرير بيك. وخلال ذلك قام يوسف وإلى حد كبير، بتطوير الأفكار الواردة في خطابه الأول، وكذلك في خطاب حجار، لكن كلمته الثانية كانت تضمن كذلك بعض الانعطافات الجديدة.

فعلى سبيل المثال، أشار إلى أن "الأقلية القومية اليهودية في فلسطين، ككل هي أمة استعمارية ومهيمنة تدعمها الإمبريالية البريطانية". ونوه بأن الفكرة القومية اليهودية، بقيت على مدى سنوات عديدة العامل المحدد لنشاط الحزب الشيوعي الفلسطيني، لأن زعامة

(1) Correspondances Internationales, 1935, N 67-68, P. 995 .

الحزب كانت تتألف بشكل أساسي من "رفاق جاءوا من الحزب الصهيوني"، وقد أعاق ذلك "التطور السياسي والتنظيمي للحزب، وأعاق حركة التحرير الثورية للجماهير العربية".

ووفقا لكلمة يوسف الثانية، كانت الحركة القومية العربية في فلسطين القوة الثورية الوحيدة في البلاد. في هذا الصدد، كان الهدف من عملية تعريب الحزب الشيوعي الفلسطيني، تقوية روابطه مع "الجماهير العربية". وأعرب يوسف عن اعتقاده، بأن الشيوعيين تمكنوا من تحقيق نجاحات مهمة في مجال إقامة العلاقات مع قاعدتهم الثورية: كسب مناصب في عدد من النقابات العمالية العربية، و "إحياء العمل النقابي بين العمال العرب"، وإنشاء خلايا في عدد من "المشاريع المهمة"، وتنظيم إضرابات العمال العرب. وقال يوسف، أن الاكتساب النهائي للجماهير الشعبية العربية ونقلها إلى جانب الحزب، سيحدث على أساس إنشائه لـ "جبهة موحدة مع الجماعات والتنظيمات الثورية الوطنية والإصلاحية الوطنية من أجل محاربة الإمبريالية". لكن الشيوعيين سيستمرون لاحقا كذلك في العمل "بين العمال والفلاحين اليهود"⁽¹⁾.

وتحدث حجار للمرة الثانية في المؤتمر، أثناء مناقشة تقرير غ. ديميتروف. وخلال ذلك استمر تحديد مواقف الحزب الشيوعي الفلسطيني من مسألة سياسة الجبهة المناهضة للإمبريالية. وقال حجار أن حركة التحرير العربية "متطورة جدا" في فلسطين "سواء من حيث مشاركة الجماهير فيها أو من حيث قوتها المناهضة للإمبريالية ومعارضة المغتصبين الصهاينة". وفي هذه الحركة، "أخذ نشاط الطبقة العاملة يزداد ويتعاضم". ووفقا له، يرى قادة الحزب الجدد، وعلى عكس القيادة القديمة، أن مهمتهم تتمثل في تحقيق "هيمنة

(1) Correspondances Internationales, 1935, N 103, P. 1502-1503 .

الطبقة العاملة" في حركة التحرير العربية.

وحدد حجار الطريق لتحقيق ذلك، على الشكل التالي: يملك زعماء الإصلاح القومي التأثير الكبير على الحركة القومية في فلسطين. وتعتبر كبيرة وجماهيرية، الأحزاب والمنظمات الموجودة تحت قيادتهم. ومن خلال التسلل إلى هذه المنظمات، يمكننا كسب هذه الجماهير إلى جانب الحزب، وانتزاع هذه الجماهير من تحت نفوذ القادة الإصلاحيين، وجذبها إلى صراع حاسم ضد الإمبريالية". وحسب اعتقاده، الاتجاه المهم في نضال الحزب لاجتذاب الجماهير يجب أن يصبح في المواجهة مع الصهيونية والبرجوازية الصهيونية، التي "تشعر الجماهير العربية تجاهها بكرهية عميقة"، والتي "تلعب دور الدركي الذي يضطهدا ويذلها". وشدد حجار على أن النضال ضد الصهيونية، كان "واضحا بالنسبة لجميع الشرائح الاجتماعية المضطهدة من الشعب العامل"، لأنه "نضال يومي بشكل أساسي مناهض للإمبريالية".

ووفقا له يجب على الشيوعيين أن يقودوا هذا النضال، وأن يعملوا على توسيعه و"توجيهه إلى الطريق الصحيح".

وتابع حجار القول، أن الحزب الشيوعي الفلسطيني وبدعوته وبتأييده لإنشاء "جبهة عربية وطنية شعبية ضد الإمبريالية والصهيونية"، مد يده الأخوية إلى العمال اليهود من أجل النضال المشترك معا ضد الإمبريالية والصهيونية، اللتين تعتبران بمثابة العدو اللدود للشعبين العربي واليهودي في فلسطين". ونوه حجار بأن "الأقلية القومية اليهودية تقف أمام آفاق انتصار حركة التحرر الوطني بقيادة البروليتاريا".

وأضاف حجار: "يجب أن نظهر للعمال اليهود، ونقنعهم بأن مصالحهم الطبقية والقومية، مرتبطة بالنتيجة الناجحة لحركة التحرر الوطني للجماهير العربية، وبالتحول الديمقراطي للنظام الاجتماعي في فلسطين". ومن ثم تابع: "ومع الاستمرار في النضال

بحزم من أجل استكمال تعريب الحزب، والاحتفاظ في صفوفه بالرفاق اليهود النزيهين والذين تم اختبارهم، نواصل بشدة التصدي للتحيز القومي اليهودي ومظاهر التعصب القومي العربية⁽¹⁾.

وغني عن القول، أن كلا ممثلي الحزب الشيوعي الفلسطيني في المؤتمر السابع للكونغرس لم يكونا صادقين بما يكفي عند الحديث عن نجاحات حزبهما. وهما في الواقع حاولا تشويه صورة، قادة الحزب السابقين، لكنهما في الوقت نفسه، كررا في كثير من الأحيان حججهم. وبعد ذلك بعام واحد، تم اعتقال جميع قادة الحزب الشيوعي الفلسطيني السابقين ووجهت إليهم تهمة "الدعاية للفكر الصهيوني". لكن كلام قادة الحزب الجدد حول التعاطف "الصهيوني" من جانب أسلافهم وحول انتقال هؤلاء الأشخاص إلى الحزب الشيوعي من صفوف "الحزب الصهيوني"، أثبت أن التناقضات الداخلية استمرت في تمزيق الحزب الشيوعي الفلسطيني، وظهرت خلال ذلك بوضوح معالم المواجهات القومية في صفوفه. وإلا لماذا كان يجب على كل من يوسف وحجار أن يبرهنوا باستمرار أمام مندوبي المؤتمر السابع للكونغرس، الطبيعة "الثورية" للحركة القومية العربية والطبيعة "الرجعية" للأيديولوجية والممارسات الصهيونية؟

ومع عرضها على أقسام الكونغرس المسار الجديد، واصلت اللجنة التنفيذية للأمية الشيوعية، النظر إلى الحزب الشيوعي الفلسطيني، عبر صيغ ومعادلات نظرية "طبقة ضد طبقة". ومع ذلك، لم يكن الأمر متعلقا بالشعارات - وبقيت امكانية تحقيقها ظاهرة ثانوية - بل تتعلق بظروف ذات طبيعة مختلفة، تتعلق بالانتماء القومي للذين قادوا الحزب. ولعل أبرز دليل على ذلك، بقي موقف القيادة الشيوعية الفلسطينية فيما يتعلق بـ "اليشوف"،

(1) Correspondances Internationales, 1935, N 115, P. 1721-172.

الذي كان موقفه بحلول منتصف الثلاثينيات قد خضع لتغيرات عميقة. في ذلك الوقت، بات اليهود يشكلون بالفعل ٣٠٪ من سكان فلسطين. وأخذت يظهر في البلاد بشكل أوضح وأعمق، قطاعان قوميان متباعدان بشكل متزايد في الاقتصاد. وبغض النظر عن الأسباب التي تسببت في نمو الهجرة اليهودية، فقد تحول اليشوف بشكل متزايد إلى مجتمع قومي، اختلف أفراده اختلافا كبيرا عن يهود البلدان التي جاء منها كمهاجرين.

أهم لحظة وحدث السكان اليهود في فلسطين، والتي ساهمت في تكوين شعور "بالوحدة القومية" بينهم، كانت الأحداث الجارية في أوروبا، حيث ظهرت أنظمة فاشية في عدد من البلدان بعد ألمانيا، وكذلك تصرفات قادة الحركة القومية العربية الفلسطينية التي تم استغلالها من جانب قادة اليشوف. لقد فلسطين في منتصف الثلاثينيات، على نحو متزايد دولة ثنائية القومية. وأصبح كلا الشعبين فيها على قدم المساواة أصحاب الحق في تقرير المصير. لكن المصالح القومية لكل من الشعبين العربي واليهودي في فلسطين تزامنت وتطابقت في الأمر الرئيسي: الحاجة إلى القضاء على نظام الانتداب، وتعزيز السلام في المنطقة، تحقيق الاستقلال الوطني للبلاد وضمان تقدمها الاجتماعي. في الوقت نفسه، تحولت عملية الحفاظ على وحدة الدولة في البلاد، إلى مهمة صعبة للغاية. لم يتطلب حلها اعترافا غير مشروط بالطبيعة "الثورية" للحركة الوطنية العربية الفلسطينية.

لقد أثبتت الكثير من الأدلة عكس ذلك - مسلك القادة القوميين الذين بدأوا في تلك السنوات في السعي إلى التقارب مع ألمانيا النازية، وشعاراتهم المعادية لليهود، التي أعلنها الشيوعيون لتلبية مصالح الجماهير، وعدم الاهتمام المطلق بتشجيع الإنتاج الوطني، وعلى هذا الأساس، رفع مستوى شروط الرفاهية لأفراد الجالية القومية.

لقد قدم الدعم غير المشروط من قبل الشيوعيين لفكرة "الثورة ضد الإمبريالية ومعاداة الصهيونية" للحركة العربية الفلسطينية مساهمة (وإن لم تكن كبيرة) في إمكانية

تطور الأحداث في اتجاه انهيار البلاد. وكان ذلك مهما فعلا لأن المبادئ التوجيهية التكتيكية للحزب الشيوعي الفلسطيني تضمنت رفض تطوير علاقات تحالفية متساوية مع الشركاء في البيئة العربية، الذين أطلق عليهم قادة الحزب في عام ١٩٣٥ "الانتهازيين الوطنيين"^(١). لكن هذه المرة، امتد هذا الوصف المهين أيضاً إلى "اللجنة التنفيذية وحزب الاستقلال". لقد تم اعتبارهما بمثابة الرفقاء أو الخصوم المؤقتين، والائتلاف الذي كان من المفترض أن يزيد من قوة الحزب على الفور ومرات عديدة. في المقابل، تلبت الظروف إقامة اتصالات بين الشيوعيين وبعض القوى السياسية لليشوف (الذي بالطبع لم تكن موحدا ومتعاضدا كما قال الشيوعيون) من أجل الحفاظ على وحدة أراضي فلسطين وإقامة دولة ديمقراطية هناك. ولكن مع ذلك، في عام ١٩٣٥، تحدث الحزب الشيوعي الفلسطيني بقسوة شديدة تجاه السكان اليهود في البلاد: "جيش الإمبريالية المحتل والمتطوع، يقود أوهام وتطلعات برجوازية صغيرة قوية حتى بين أكثر الطبقات بروليتارية"^(٢).

لكن رغم ذلك، تمكن الشيوعيون بشكل جيد من إدراك المنطق الداخلي للخط التكتيكي الجديد للكومنترن، والذي كان، مثل أشكاله السابقة، يهدف في النهاية إلى تحويل الاتحاد السوفيتي إلى "مركز قوة" عالمي. ومن هذا توصلوا إلى الاستنتاج الصحيح -

(١) في عام ١٩٣٥، تلقت اللجنة التنفيذية للأمية الشيوعية الوثائق العربية للجلسة الكاملة لشهر نوفمبر (١٩٣٥) للجنة المركزية للحزب الشيوعي الفلسطيني، المسجلة باللغة الألمانية..

Resolutionen des Novnber Plénum des Z.K. des P.K. P.

وكان اسمها العربي قصيرا - (القرارات). //

RTSKHIDNI, f. 495, op. 81, unit ridge 151, l. 14-16.

(٢) أطروحات للحزب الشيوعي الفلسطيني حول القضية القومية، ١٥ فبراير ١٩٣٥ // نفس المكان. ف٤٩٥. أوب ٨١. وحدة الحفظ رقم ١٥٠ صفحة رقم ٧.

إذا كان الحزب الشيوعي الفلسطيني غير كبير، فهذا يعني أنه بحاجة إلى تحقيق النمو في صفوفه، وتفجير المنظمات المنافسة له والقريبة منه من الداخل.

بعد المؤتمر السابع، تخلى الكومنترن عن موقفه السابق بشأن مشكلة تشكيل "حزب شيوعي عربي". في ٢٨ فبراير ١٩٣٦، تبنت الأمانة العامة للجنة التنفيذية اللاممية الشيوعية قرارا بعنوان "الاتصالات والعلاقات بين الأحزاب الشيوعية في الدول العربية". كان محتواه واضحا تماما ولا لبس فيه بتاتا. وجاء في القرار، أن هناك قواسم تاريخية مشتركة وقرابة اللغة وتضامن الشعوب العربية في النضال ضد الإمبريالية. لكن كل هذا لا يعني، كما أكد غ. ديميتروف، أن الوقت قد حان لطرح شعار إنشاء فيدرالية واحدة للجمهوريات العربية، وأن النزعة نحو تعزيز التضامن بين الشعوب العربية باتت بمثابة الأمر الواقع لتوحيد العرب في دولة قومية. ويأتي كل ذلك في الوقت الذي رفضت فيه اللجنة التنفيذية الأهمية الشيوعية رفضا قاطعا أية فكرة عن تشكيل حزب شيوعي عربي موحد. وبدلا من التحرك نحو إنشائه، كان يجب على الأحزاب الشيوعية في الدول العربية أن تنظم اتصالات فيما بينها من أجل تبادل الخبرات والمعلومات، وتقديم المساعدة المتبادلة، وتنظيم الحملات المشتركة، ونشر المؤلفات السياسية والدوريات. وقالت اللجنة التنفيذية للأهمية الشيوعية، أن عملية تطور كل دولة عربية، تتميز بطابعها المحددة، ويجب على الشيوعيين أن يأخذوا هذا الظرف بالكامل في الحسبان^(١).

وطبعا لم يكن هذا الطرح الذي ظهر في موسكو الآن، مرتبطا بوجود واقعية في تفسير مشاكل المنطقة العربية. لقد تحدد ظهور الوثيقة الجديدة، التي طرحت تساؤلات حول وحدة الدولة القومية العربية بطريقة مختلفة اختلافا جذريا، وارتبط بالتغيرات التي

(١) ريزنيكوف أ.م. اقتباس من نفس المصدر الصفحة ٢٧٨-٢٧٩.

حدثت في مجال العلاقات الدولية. أدى وصول النازيين إلى السلطة في ألمانيا إلى إجراء تعديلات على السياسة الخارجية السوفيتية، وخلق فرص للتقارب بين الاتحاد السوفيتي وأعدائه التقليديين - بريطانيا وفرنسا. بطبيعة الحال، لم يكن لهذا الظرف إلا أن يعدل ويغير مسار سلوك الكومنترن فيما يتعلق بالمنطقة، التي ظلت منطقة سيطرة هاتين الدولتين. وكانت نتيجة هذه التغييرات وثيقة جديدة من اللجنة التنفيذية لامية الشيوعية. ولكن، هل يمكن للمسالك الجديدة للكومنترن أن تخلص الشيوعيين الفلسطينيين - بقيادة الرفاق العرب هذه المرة - من التطلعات القومية؟ لقد أثبت تطور الأحداث في فلسطين في أواخر الثلاثينيات، وكذلك بنتيجته تطور الأمور صفوف الحزب الشيوعي الفلسطيني، أن هذه الأساليب غير فعالة.

في أكتوبر ١٩٣٥، تبنت اللجنة المركزية في الحزب الشيوعي الفلسطيني نداء "من أجل تحالف كل العرب وأصدقائهم ضد الإمبريالية". وفيه، أعلن الحزب عن رغبته في إنشاء "جبهة شعبية مناهضة للإمبريالية والصهيونية" في البلاد. وكان هذا يعني أن الحزب "مع المشاركين في حركة التحرير العربية" دخلوا في النضال "ضد الاستعمار الأنكلو-صهيوني" من أجل "تصفية الصهيونية ووقف الهجرة اليهودية ونزع سلاح كل الصهاينة". طبعاً تم في هذا النداء التشديد على أن النضال ضد الصهيونية، ليس موجهاً ضد الشعب اليهودي. لكن الحزب بقي يعتقد أن دخول عدد كبير من المهاجرين إلى البلاد كان "مؤامرة إمبريالية تهدد استقلال فلسطين والدول العربية الأخرى في المنطقة وتهدف إلى خلق جبهة رجعية مناهضة للسوفييت في هذه المنطقة ذات الأهمية الإستراتيجية من العالم". وزعم الشيوعيون، بأن الأقلية اليهودية في فلسطين، وبسبب "الروابط القوية بينها وبين الصهيونية" لعبت "الدور الفاشي" في البلاد، وتحول الشعب اليهودي العامل إلى "أرستقراطية عاملة". بدورها، كان يجب على الجماهير الشعبية العربية تشكيل "لجان

وروابط لمحاربة الامتيازات الممنوحة للصهاينة". وأشار النداء إلى أن أي عربي "تاجر أو حرفي، أو صاحب متجر، أو صاحب مشروع صغير أو مثقف أو صناعي" يجب أن يصبح عضواً في "الجبهة الموحدة ضد الإمبريالية الأنكلو-صهيونية".

ووفقاً للشيوعيين، كانت هذه هي الطريقة الوحيدة، "للتخلص من التناقضات" التي كانت تمزق المجتمع العربي الفلسطيني، "لأننا لا نستطيع الكفاح بشكل فعال من أجل الوطن من خلال الاستمرار في توجيه الضربات المستمرة لبعضنا البعض"^(١). في ذلك الوقت، أقام الحزب الشيوعي الفلسطيني اتصالاته الأولى مع مفتي فلسطين، أمين الحسيني.

في هذا النداء، لا يوجد سوى شيء واحد مثير للفضول. لأول مرة في وثائق الحزب الشيوعي الفلسطيني، ظهرت إشارة إلى أن الهجرة اليهودية إلى فلسطين كانت تخلق "جبهة مناهضة للسوفييت" في ذلك البلد. كان الشيوعيون، بالطبع، يدركون جيداً لما كان يحدث في الاتحاد السوفيتي في ذلك الوقت، واستخدموا الوضع داخل الاتحاد السوفيتي لتبرير تصرفاتهم. لقد كان ذلك عملاً غير لائق، لكنها كانت مسألة تتعلق بسياسة الصمود والبقاء، التي كانت تتطلب دعماً خارجياً قوياً. الشيوعيون كانوا ليس فقط عبارة عن العميل السوفيتي المقابل في العالم المحيط بالاتحاد السوفيتي، بل وأجبروا أيضاً قيادتهم "العليا" على النظر إلى هذا العالم من خلال وجهات نظرهم الخاصة.

لقد دعم الحزب الشيوعي الفلسطيني، القيادة القومية العربية الفلسطينية دون قيد أو شرط خلال انتفاضة ١٩٣٦-١٩٣٩، وهو أمر غير مسبوق في تاريخ فلسطين، عندما اختار القادة القوميون الفلسطينيون طريق المعارضة المسلحة المفتوحة للهجرة اليهودية، مع

(١) الشريف م. الشيوعية والمسألة القومية العربية في فلسطين ص ١٨٧.

الاعتماد خلال ذلك على مساعدة دول "المحور".

في أبريل ١٩٣٦ ، تم تشكيل اللجنة العربية العليا ، التي ضمت ممثلين عن جميع الأحزاب السياسية ومنظمات المجتمع العربي الفلسطيني. وذكرت اللجنة في نداء نُشر في ٢٥ أبريل من العام نفسه ، أن مهمتها كانت "قيادة الإضراب العام حتى المراجعة الجذرية لسياسة الحكومة في فلسطين"^(١).

لقد جرى الحديث عن فرض حظر كامل على هجرة اليهود ، ووقف بيع الأراضي لليهود ، وإنشاء "حكومة قومية" عربية في فلسطين ، تكون مسؤولة أمام البرلمان. وفي مايو ١٩٣٦ ، أصبح المفتي الأعلى لفلسطين أمين الحسيني ، الزعيم الفعلي للهيئة العربية العليا^(٢).

ومباشرة بعد إنشاء اللجنة العربية العليا ، وصفها الحزب الشيوعي الفلسطيني ، بأنها "جبهة موحدة تضم جميع فئات السكان المحليين وجميع الأحزاب وجميع الأديان ، من أجل النضال ضد خصمين أقوياء - الإمبريالية والصهيونية".

(١) في كانون الأول (ديسمبر) ١٩٣٥ ، تم في ميناء يافا اكتشاف وسيلة نقل بالأسلحة معدة للتشكيلات المسلحة للجالية اليهودية. ومباشرة بعد هذا الحدث تم بمبادرة من الشيوعيين ، تنظيم مسيرة حاشدة في هذه المدينة تخليداً للذكرى زعيم المتمردين العرب المسلحين في شمال فلسطين ، عز الدين القسام ، الذي قتلته القوات البريطانية. وأشار رضوان الحلو في هذا الصدد إلى أن قادة الأحزاب السياسية العربية القيادية والمفتي الأعلى لفلسطين شاركوا في المسيرة. عشر سنوات على رحيل المناضل الشيوعي. الصفحة ٢٧٨.

(٢) حول تطورات الأحداث في فلسطين خلال الأعوام ١٩٣٦-١٩٣٩. // الحوت ب. ن. ص ٣٣١-٤٠٩ ؛ فيتول ر. الوضع في فلسطين // الشرق الثوري ، ١٩٣٦ ، العدد ٤ ، ص ٨٥-٩٧ ؛ كولتون أ. الحركة الثورية للشعب العربي والصهيونية في فلسطين // "الاقتصاد العالمي والسياسة العالمية" ، إصدار عام ١٩٧٧ ، ص ٢١٤-٢١٧.

وتوصل الحزب إلى نتيجة مفادها أن أمين الحسيني يمثل الجناح الأكثر تطرفاً في الحركة القومية، وأعلن عن "دعمه غير المشروط له". وبرر الحزب الميول الذي ظهر لدى المفتي نحو التقارب مع سلطات "المحور"، بأن سياسة السلطات البريطانية هي التي دفعته نحو ذلك^(١). بالنسبة للشيوعيين، كان ما قالته قيادة الانتفاضة أكثر أهمية ومبدئية. ودعا الحزب في مناشداته: "هيا إلى السلاح لإنقاذ.. فلسطين من العبودية والاحتلال الصهيوني والمطامع البريطانية. هيا إلى السلاح، من أجل حماية القبلية الأولى وثاني الحرمين، ومن أجل حماية مهد السيد المسيح، هيا لحمل السلاح، لنقول إن الوطن العربي - وطن واحد، وإن فلسطين جزء لا يتجزأ من هذا الوطن المقدس! ليس للبريطانيين ولا لأي حكومة أخرى أي حق في ذلك! فقط حقوق صاحب البلاد الشرعي هي سيادية مطلقة"^(٢).

في يونيو ١٩٣٧، ظهر على صفحات "Corgesropbapses Interpatiales" التقرير التحليلي الأول للحزب الشيوعي الفلسطيني، عن الانتفاضة تحت عنوان، "الأحداث في فلسطين (رسالة من يافا)" وجاء فيه: "الأحداث الجارية هي حلقة في سلسلة الانتفاضات العفوية التي حدثت خلال الثمانية عشر عاماً الماضية منذ بداية سياسة الاحتلال الصهيوني، وتعكس معارضة غير مسبوقة من الجماهير الشعبية العربية لهذه السياسة"^(٣). في ١٠ يونيو ١٩٣٦، وجه الشيوعيون الفلسطينيون نداء إلى المجتمع الدولي تحت عنوان "التمرد في فلسطين". وذكروا فيه أن السكان العرب الفلسطينيين "لا يريدون أن

(1) Correspondances Internationales, 1936, N 27, P. 716-717.

(2) (النداء العام لقيادة الثورة العربية الشاملة في جنوب سوريا - فلسطين) // RTSKHIDNI, f. 495, op. 14, units ridge 362, l. one.

(3) Correspondances Internationales", 1936, N 27, P. 716-717.

يتحملوا العبودية إلى الأبد ويتحملون بصبر ما يقرره الدكتور وايزمان (رئيس منظمة الصهيونية العالمية آنذاك) والمكتب الاستعماري البريطاني بشأن مصيره".

وأعلنوا أن "النضال ضد الصهيونية هو المهمة الأكثر إلحاحا للحركة القومية العربية". وجاء في النداء أن "الاحتلال الإمبريالي الصهيوني لفلسطين ... يتطلب التصدي الفوري والفعال، وإلا ستضيع فلسطين ... إلى الأبد من الشعب العربي. لهذا السبب كان أول المطالب التي طرحتها حركة العربية - منع الهجرة اليهودية، لأن هذه الهجرة كانت صهيونية الطابع"^(١). وطبعا دعا الشيوعيون، جماهير العمل اليهود إلى الانضمام إلى نضال السكان العرب. وأعلنوا أن النضال المشترك للعمال "سيمنح الجماهير اليهودية حقوق الأقلية القومية اليهودية في فلسطين المحررة من الإمبريالية". وجاء في المناشير التي وزعها الشيوعيون من قسم تل أبيب، أنه يجب على العمال اليهود أن يسلكوا طريق "التآخي بين الجماهير العربية واليهودية من أجل النضال المشترك ضد الإمبريالية"^(٢). وطبعا لم يصدق هذه الكلمات ولا وجود فعاليات لها، حتى الذين نشروها.

في أوائل عام ١٩٣٧، تلقت اللجنة التنفيذية للأمية الشيوعية، تقريراً عن أنشطة الحزب الشيوعي الفلسطيني^(٣). وتضمن العديد من الاستنتاجات الرئيسية فيما يتعلق

(1) La révolte en Palestine. Appel du P.C. de Palestine // "Correspondances Internationales", 1936, N 30, P. 822-823.

(2) Zimmering M. La Palestine en révolte // "Correspondances Internationales", 1936, N 32, P. 880-882.

(٣) لم يتم تحديد مؤلف نص هذه الوثيقة المكتوبة باللغة العربية. ومع ذلك، يوجد في الصفحة الأولى نص باللغة الفرنسية:

"Rapport reçu du P.C. de Palestine".

Here and below, cit. after // RTSKHIDNI, f. 495, op. 14, units ridge 366, l. 3-23.

بتقييم الحزب للوضع الفلسطيني في ذلك الوقت، بما في ذلك، بطبيعة الحال، الانتفاضة المستمرة، وكذلك الوضع في داخل الشوف. لقد دار الحديث هناك، قبل كل شيء، عن أن قيادة الشيوعيين الفلسطينيين اعتقدت أن "الثورة الحالية، التي بدأها الشعب الفلسطيني، دفاعاً عن قطعة خبزه وحقوقه الديمقراطية، تُظهر المستوى العالي من تطور حركة التحرر الوطني على أساس الفكرة العربية، باستخدام الأشكال الثورية في النضال ضد الإمبريالية"^(١). وجرى الحديث كذلك عن أن انتفاضة ١٩٣٦-١٩٣٩، أصبح شكلاً حددته الظروف المحلية لوجود "جبهة وطنية موحدة تقاتل ضد الإمبريالية البريطانية والصهيونية". وتم وصف الوضع الفلسطيني بأنه مواجهة بين معسكرين، حيث "من جهة، احتشدت الإمبريالية والصهيونية الأجنبية"، و"من جهة أخرى، الجماهير الفلسطينية التي نهضت للنضال لأنها أضطرت على ذلك بسبب البطالة والجوع".

وأشار الشيوعيون الفلسطينيون إلى أنه: "بفضل الثورة، تحولت المشكلة الفلسطينية من مشكلة إقليمية إلى مشكلة عربية بالكامل". وساهمت الانتفاضة في أن "كل الشعوب العربية أصبحت أكثر يقظة من الخطر الصهيوني الذي يهدد كل الدول العربية".

ويعتقد الحزب الشيوعي الفلسطيني أنه الآن "تم إحياء الفكرة العربية، والتي على أساسها يتم بشكل سريع إنشاء جبهة عربية موحدة مناهضة للإمبريالية ومعادية للصهيونية"، وأن الشعوب العربية "لن تلقي أسلحتها بعد الآن، وستستمر في اعتبار

(١) من أجل تحديد جوهر الحركة العربية الفلسطينية في ذلك الوقت، استخدمت الوثيقة الكلمة العربية المتعددة المعاني "الاستعمار" (المستخدمة على نطاق واسع في المفردات السياسية الفلسطينية والسورية اليوم)، وهي تترجم على أنها "إمبريالية" وكذلك "الاستعمار". في معناها الثاني، يمكن أن تشير إلى الشوف، وليس فقط إلى سلطات الانتداب البريطاني.

فلسطين مشكلتها القومية الشاملة".

هذه الكلمات لم تفقد أهميتها وأنيتها حتى اليوم. لكن هذا ليس بسبب استمرار الصراع العربي الإسرائيلي، بل بسبب حقيقة تبدو أقل ملاحظة. الحزب الشيوعي الفلسطيني (هذا أمر ينطبق أيضاً على المنظمات الشيوعية الأخرى في العالم العربي في ذلك الوقت واليوم)، كان في الواقع، مجموعة صغيرة من الناس، تمكنت من أن يكون لها تأثير كبير على العالم من حولها لأنها استطاعت أن تركز في أحد أكثر الأشكال صلابة مزاج الجماهير وتعطي ذلك الطابع الحتمي المطلق.

تم التقاط أفكار هذا الحزب على الفور من قبل التشكيلات الحزبية الأكثر أهمية في العالم العربي، وبالتالي تحولت إلى الهدف القومي الحقيقي المنشود. ربما كان هذا هو الجانب الأكثر مأساوية في عمل هذا الحزب - طاقة التدمير غير المشروط والسلبية، والتي مع ذلك، تم تقديمها على أنها بناء عالم جديد مليء بالنور!

وذكر مؤلف التقرير بكل فخر واعتزاز، أن الطاقة المتراكمة لدى الناس الذين وجدوا أنفسهم على هامش الحياة، والذين في لحظات مثل انتفاضة ١٩٣٦-١٩٣٩، انضموا إلى صفوفها، سمحت "بتزايد تعداد الحزب بنسبة ١٥٠٪". وكانت قرية بالنسبة لهؤلاء الناس طبعاً، شعارات الحزب الشيوعي الفلسطيني - "التحرير الكامل لفلسطين من الاستعمار البريطاني الصهيوني"، و"وقف الهجرة اليهودية ووقف بيع الأراضي للصهيانية". وطبعاً تم ضخ في مثل هذه الشعارات، معاني ومحتويات أكثر راديكالية. وهذا طبعاً والحق يقال، كان موقفاً في غاية الغرابة. لقد سعى الشيوعيون، في الواقع، إلى تحريض جزء من الشعب الفلسطيني ضد الآخر، دون حتى الالتزام، على عكس السنوات الماضية، بأي إطار "طبقي" مناسب لذلك. وطبعاً كانت الكلمات التي صدرت عنهم في النصف الثاني من الثلاثينيات، ليس فقط غير متوقعة، بل حددت أيضاً إلى حد كبير الاتجاهات المستقبلية

للدعاية القومية العربية الموجهة ضد "الإمبريالية الدولية" و"الشرطي الإقليمي لها - إسرائيل".

ولكن في الوقت نفسه، في الوثائق التي نشرها الحزب الشيوعي الفلسطيني، لم يتم ذكر كلمة واحدة حول أن بيع الأراضي لصناديق الاستعمار اليهودي تم تحديده ليس فقط من خلال سياسة دولة الانتداب، بل وإلى حد كبير وبشكل رئيسي من قبل أولئك الذين وجدوا أنفسهم على رأس الحركة الوطنية العربية الفلسطينية.

ولم يتم بتاتا في كل جميع هذه الوثائق الإشارة إلى فكرة أن المؤسسات القومية التي قام اليسوف بتشكيلها، بما في ذلك السلطات التنفيذية والتشريعية، كان بمقدورها أن تصبح نموذجا لقادة العرب الفلسطينيين.

لكن ربما كان أهم جانب في دعم الحزب الشيوعي الفلسطيني، غير المشروط تقريبا لخط أمين الحسيني، التزام الصمت المطبق والتام فيما يتعلق باتصالات الأخير مع مبعوثي ألمانيا الفاشية، طبعاً في الظروف التي كانت فيها قوى "المحور" تقف ضد بريطانيا وفرنسا اللتين كانتا تضطهدان الشعوب العربية، وهو ما سمح للدعاية النازية والفاشية أن تستغل بلا خجل رغبة العرب في تحقيق الاستقلال، وهو ما جعل من الصعب على قادة الحركات القومية في الدول العربية تحديد موقفهم من النازية والفاشية. وكان هذا الأمر صعباً كذلك، لأن الدبلوماسية النازية والفاشية أفتعتهم بإصرار بأن التحالف مع ألمانيا وإيطاليا سيساعد العرب، بما في ذلك الفلسطينيين على التخلص من لاستعمار الأنكلو-فرنسي، والقضاء على اليسوف الفلسطيني، والمساعدة في استعادة العظمة السابقة وتوحيد العالم العربي.

ولكن توجهات من هذا النوع، هددت بجلب عواقب أكثر خطورة على الحركة القومية العربية الفلسطينية نفسها. هذه النزعات ساهمت في حشد السكان اليهود وتعزيز

تحالفهم مع سلطات الانتداب ، وإلى جانب ذلك عززت هذه الاتجاهات ظهور وانتشار العنصرية وكره الأجانب في البيئة العربية الفلسطينية. وطبعاً كان على الشيوعيين في فلسطين أن يأخذوا ذلك في الحسبان.

بالطبع ، لفتت اللجنة التنفيذية للأمية الشيوعية ، انتباه قسمها الفلسطيني إلى حقيقة أنه يسير على نهج سياسة قيادة الحركة العربية الفلسطينية ، على الرغم من وجود بين "القادة التقليديين للحركة الوطنية العربية" بعض الذين أقاموا علاقات وثيقة مع الفاشيين الألمان والإيطاليين^(١). ولكن تم القيام بذلك بشكل نادر للغاية ومتقطع ، ويعود السبب في ذلك ، إلى أن المشاورات الأنكلو- فرنسية مع الاتحاد السوفيتي حول التصدي لدول المحور تطورت بشكل بطيء وبشكل غير مطرد. وتغير الوضع بشكل حاد في عام ١٩٣٩ بعد إبرام اتفاق مولوتوف-رينتروب.

منذ ذلك الحين ، لم تعد المواد الفلسطينية في منشورات الكومنترن تذكر كلمة واحدة عن نشاطات مبعوثي إيطاليا الفاشية وألمانيا النازية في فلسطين. ولكن حتى بعد هزيمة الانتفاضة ، واصل الحزب الشيوعي الفلسطيني التقليل من خطر تأثير الدعاية الفاشية على القادة القوميين. لكن كانت هناك نتيجة عملية أخرى ، لتكتيكات اللجنة العربية العليا. لقد أدت أحداث ١٩٣٦-١٩٣٩ ، إلى الانفصال النهائي بين القطاعين اليهودي والعربي في الاقتصاد الفلسطيني وتقوية مهمة لمكانة اليهود.

ويجب القول إن التعاون الوثيق بين السكان اليهود في فلسطين وسلطات دولة الانتداب والذي تضمن تنسيق الإجراءات بين القوات البريطانية والقوات شبه العسكرية اليهودية في محاربة المتمردين العرب ، سمح لليشوف بالحصول على تراخيص من سلطات

(١) دافوس. أحداث فلسطين // "الأمية الشيوعية" عام ١٩٣٨ الرقم إي. الصفحة ٥٩-٦٠.

الدولة المنتدبة بخصوص تنفيذ مشاريع مهمة في مجالات الصناعة والزراعة والبنية التحتية. ولكن مع ذلك، رسمت الانتفاضة خطا فاصلا نهائيا بين الأراضي التي يسكنها اليهود والعرب، وأرست الأسس لتقسيم فلسطين في المستقبل. تم طرح وإثارة مسألة تقسيم البلاد بالفعل في عام ١٩٣٧، عندما قدمت الحكومة البريطانية، على أساس نتائج لجنة اللورد بيل، بتقديم اقتراح للتخلي عن الانتداب وإنشاء دولتين يهودية وعربية داخل فلسطين، مع الحفاظ على السيطرة البريطانية على "الأماكن المقدسة". للديانات الثلاث.

وكان يجب أن ترتبط كلتا الدولتين بدولة الانتداب من خلال علاقات اتفاقية^(١). وفي بداية عام ١٩٣٧، تبين أن العمل المشترك بين أعضاء الحزب من اليهود والعرب بات مستحيلا. لقد انتهى بهم المطاف للوقوف في معسكرات قومية مختلفة، وحدث الانقسام عمليا في البلاد خلال أحداث ١٩٣٦-١٩٣٩. ولكن كان الأمر يتعلق أيضاً بأن النهج العربي الذي سلكته اللجنة المركزية أدى بشكل صريح إلى تفكك المنظمات الحزبية في البيئة اليهودية. لقد ترك أعضاؤها صفوف الحزب، وأنضموا كأعضاء في "الألوية الأمية" التي قاتلت إلى جانب الجمهوريين في إسبانيا. وقام فرع تل أبيب في الحزب، بحل نفسه بالكامل، احتجاجا على تكتيكات قيادته. وأضطر الحزب الشيوعي الفلسطيني على البحث عن طرق أخرى للتعاون مع اليسوف^(٢).

(1) Renap. La lutte actuelle en Palestine et l'offensive du fascisme // "Correspondances Internationales", 1939, N 18, P. 373-375.

(2) From the Report of the Palestine Royal Commission (Peel Commission) - 1937 // Laqueur W. (ed.) The Israel-Arab Reader, N.-Y., 1968, P. 56-58.

قررت اللجنة المركزية للحزب إنشاء قسم يهودي من الحزب الشيوعي الفلسطيني، برئاسة حانوخ بجوزا. ودخل اليسوف ضمن نطاق نشاط هذا القسم. وطبعا إنشاء القسم اليهودي، لم يكن يعني أن قيادة الحزب قررت تغيير مبادئ هيكلها التنظيمي. كان هذا التدبير مؤقتا. بالإضافة إلى ذلك، كان من المفترض أن يسترشد هذا القسم في نشاطاته، بالخط العام للحزب. لكن في الواقع، كان مسار الأحداث مختلفا. وتبين أن القشرة "الأممية" للحزب هشة للغاية. ظهرت التناقضات العرقية في صفوفه مرة أخرى على السطح ودفعته نحو الانقسام^(١).

في نفس الوقت، تبين أن البيئة القومية المتجانسة هي الأساس الطبيعي لأنشطة كل من المجموعتين المشاركتين في الحركة الشيوعية الفلسطينية. بشكل رسمي، عملت كلتا المجموعتين القوميتين في الحزب الشيوعي الفلسطيني بالتوازي وعلى أساس المبادئ التوجيهية للحزب لكليهما. وكان من الصعب رؤية التناقضات التي نشأت بينهم، لأن المهم هنا كان سياق نشاط كل منهما، وكذلك المصطلحات المستخدمة في وثائق المجموعتين، وكذلك تفسير الشعارات الحزبية المشتركة. لقد اعتبر الشيوعيون العرب فلسطين، بمثابة "جنوب سوريا" لا أكثر^(٢). لقد أكدوا باستمرار على وحدة أراضي "سوريا

(1) Greilsammer A. Les communistes israéliens. P., 1978, P. 115;

وكذلك سمارة س. النشاط الشيوعي في فلسطين. الشعب والطبقات في مواجهة الاستعمار. بيروت إصدار عام ١٩٧٩ الصفحة رقم ٢١٥. انظر كذلك

“Rapport reçu du P.C. de Palestine”.

(٢) والدليل الواضح في هذا الصدد هو منشور الحزب الشيوعي الفلسطيني "لتحيا سوريا المناضلة"، والذي تم توقيته ليتزامن مع الإضراب السوري العام ضد فرنسا في فبراير ١٩٣٦، وفيه تم التشديد على ضرورة دعم نضال السوريين "من قبل سكان جنوب سوريا ودعم نضالهم ضد الإمبريالية البريطانية والاحتلال الإجرامي الصهيونية". وأعلن الحزب الشيوعي الفلسطيني عن ضرورة إنشاء "جبهة شعبية وطنية سورية =/=

التاريخية" والأهمية الأساسية للإلغاء الفوري للحدود "المصطنعة" التي رسمتها القوى الخارجية بين مناطقها.

واعتقد الشيوعيون العرب ، أن تحقيق توحيد الأراضي السورية الفلسطينية سيؤدي ، إلى تخلي اليسوف بشكل نهائي "عن فكرة الوطن القومي" ، وإلى فرض حظر كامل على الهجرة اليهودية ، وإلى أن "شعب فلسطين سيحصل على حقوقه واستقلاله". في الوقت نفسه ، أكدوا أنه في هذه الحالة ، سيحصل اليهود الفلسطينيون على وضع "أقلية ، سيعيشون بيننا ، كما عاش اليهود قبل ذلك" ^(١) ... "وسيتمتعون بالحرية التي لا تتعارض مع مصالح الشعب" ^(٢). وغني عن القول هنا ، أن الشيوعيين العرب استخدموا مصطلح "الشعب" ، للإشارة إلى السكان العرب في البلاد. بعبارة ثانية ، دار الحديث عن حل

موحدة" ضد الإمبريالية والصهيونية // المرجع نفسه ، ف. ٤٩٥ ، اوب ١٤. وحدة الحفظ ٣٦١ ، صفحة رقم ١.

(١) حتى في عام ١٩٣٧ ، عندما أصبحت مشكلة التوصل إلى تفاهم مع المعارضين لفكرة تقسيم البلاد في صفوف اليسوف ملحة للغاية ، استمرت القيادة العربية للحزب الشيوعي الفلسطيني في الحفاظ على مواقف عفا عليها الزمن. على سبيل المثال يدل على ذلك "التوجيه الداخلي" للحزب الشيوعي الفلسطيني ، بتاريخ ٢٨ فبراير ١٩٣٧ ، والذي أرسل إلى المنظمات الحزبية العربية. وأشارت هذه الوثيقة إلى أن التوصل إلى تفاهم مع المعارضين اليهود لفكرة تقسيم البلاد يجب أن يقوم على "إلغاء وعد بلفور ، ومنح الحقوق الديمقراطية لسكان فلسطين ، وإعادة الأراضي التي أصبحت ممتلكات ائتمانات الاستعمار الصهيوني للفلاحين العرب" // النشرة الداخلية. ف. ٤٩٥. اوب ١٤. وحدة الحفظ ٣٦٧ صفحة رقم ٤٩.

(٢) المقال الرئيسي تحت عنوان (ادعاءات الصهاينة) في الصحيفة الناطقة بالعربية باسم اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الفلسطيني "الجبهة الشعبية" بتاريخ ٤ سبتمبر ، ١٩٣٦ // RTSKHIDNI ، ف. ٤٩٥ ، اوب. ١٤ وحدة الحفظ ٣٦٥ ، ص ٧.

للمشكلة، من شأنه في الواقع، أن يشير إلى تصفية اليشوف كوحدة اجتماعية - سياسية واقتصادية مستقلة وعودة يهود فلسطين إلى زمن المجموعات الصغيرة في البيئة العربية، التي اعترفت بها كمجتمع ديني، لكن ليس كمجموعة قومية. وطبعا كانت عملية تفكيك اليشوف ستترافق حتما بطرد كل أنصار المحافظة على الوضع الذي تم تحقيقه من جانب اليهود في فلسطين.

لقد طرح الشيوعيون العرب الفلسطينيون إلى حد كبير، ما أصبح شائعا فيما بعد بين القوميين العرب، بما في ذلك منظمة التحرير الفلسطينية، حول مشكلة إسرائيل وسكانها. ويمكن القول إن الشعار الذي بقي مطروحا على مدى سنوات عديدة (في الواقع، حتى أوائل التسعينيات) والمتمثل في إقامة "دولة ديمقراطية علمانية فلسطينية للمسلمين والمسيحيين واليهود"، لم يكن أكثر من مجرد تغيير لموقف الحزب الشيوعي الفلسطيني في النصف الثاني من الثلاثينيات.

في ذات الوقت، حدد القسم اليهودي لهجة عمله بشكل مختلف. ولعل أبرز مثال على ذلك كان إحدى وثائقه لعام ١٩٣٧ - "مذكرة قُدمت إلى لجنة تقسيم فلسطين من جانب القسم اليهودي في الحزب الشيوعي لفلسطين (قسم الكومنترن)"^(١).

بالطبع، كان ينبغي أن تكون استنتاجات لجنة اللورد بيل محط اهتمام القسم اليهودي في الحزب الشيوعي. وكان ذلك مهما كذلك لأن المؤتمر العشرين للمنظمة الصهيونية العالمية، الذي عقد في زيورخ في أغسطس ١٩٣٧، وافق على هذه الاستنتاجات من

(١) هنا ولاحقا:

// Mémorandum submitted to the Palestinian Partition Commission by the Jewish Section of the Palestine Communist Party (Section of the Comintem) // RTSKhidNI, f. 495, op. 14, units ridge 367, l. 14-20.

حيث المبدأ، ولم يوافق فقط على مخطط تقسيم فلسطين الذي اقترحتة اللجنة. ومن جانبها رفضت الهيئة العربية العليا بشكل قاطع هذه الاستنتاجات.

أشار القسم اليهودي من الحزب الشيوعي الفلسطيني في "مذكرته" إلى أن الانتفاضة العربية الفلسطينية المقبلة لن تكون إلا "أقوى ... وستقوى الانفجارات الدورية ضد استعباد فلسطين من قبل الإمبريالية البريطانية وشركائها الصهاينة". وطبعا تابعت المذكرة القول: "في فلسطين تم تنفيذ وعد بلفور بالكامل، وليس رغبة السكان الأصليين للبلاد في أن يصبحوا أمة مستقلة" ورفضت المذكرة بشكل قاطع فكرة تقسيم البلاد. وتم تأطير هذه الكلمات المعتادة للشيوعيين، من خلال أحكام جديدة تماما للحزب. وتبين أن الإشوف لم يكن كتلة واحدة - "في المعسكر الصهيوني"، كما أكدت الوثيقة، "هناك قوى مهمة تعترض على خطة التقسيم". وتابع أعضاء القسم اليهودي في الحزب القول: لو "أصبحت فلسطين جزءا من اتحاد الدول العربية الحرة، فستكون هناك سوقا واسعة لمنتجات الصناعة اليهودية". في هذه الحالة، سيصبح من الممكن تطبيع العلاقات بين العرب واليهود على أساس تكامل كلتا المجموعتين القوميتين في دولة - "يشكل اليهود فيها غالبية سكان الحضر، ويشكل العرب غالبية سكان المناطق الزراعية النائية". وبهذا الشكل، سيتم ضمان "التوزيع الطبيعي لسكان فلسطين حسب توزيع العمل والوظائف".

علاوة على ذلك، تم التأكيد في نفس "المذكرة" على أن "الجماهير اليهودية في جميع أنحاء فلسطين وفي جميع أنحاء العالم ... يهتمها حل مشاكلها القومية والاجتماعية والاقتصادية، وهي على استعداد لقبول أي حل يضمن لها الحقوق القومية والاجتماعية والاقتصادية في فلسطين، كما هو الحال في أي دولة أخرى في العالم".

وأخيرا، أعلن القسم اليهودي أن "لجميع السكان اليهود في فلسطين الحق في الاستقلال الذاتي القومي والثقافي والديني"، ولكن دون شك، مع "إلغاء وعد بلفور".

وكانت هذه بلا شك خطوات خجولة للغاية نحو استعادة الاتصالات مع اليسوف. وهي لم تتسم بالطابع المطرد والمتسق بأي حال من الأحوال ، وكانت مقيدة بالمخطط الأيديولوجي لقرارات الحزب وبالانضباط الحزبي. في تصريحات القسم اليهودي ، يمكن للمرء أن يسمع بوضوح أصداء النظريات التي ولدت داخل المجتمع الذي ظهر على أساس الممارسة الاستعمارية لإعادة التوطين. لكن كان من المستحيل رغم ذلك القول الآن بأن الشيوعيين اليهود استمروا في اتباع مسار العدمية القومية بشكل كامل. لقد توصلت سكرتارية القسم اليهودي في الحزب الشيوعي الفلسطيني إلى استنتاج مفاده بأنه من الأهمية بمكان أن ينضم أعضاؤه إلى صفوف الأحزاب والمنظمات السياسية في اليسوف. من الناحية الرسمية ، كان الأمر يتعلق بتنفيذ قرارات المؤتمر السابع للكونغرس ، المتعلقة بمهمة إنشاء جبهة مناهضة للإمبريالية.

كما كتبت إحدى الصحف الصادرة في القسم اليهودي : "يجب على كل من يسعى للعب دور فعال حقا في هذه البيئة الجماهيرية أو تلك ، أن ينضم إلى الأحزاب المهيمنة في هذه البيئة".

ثم تم تطوير هذه الفكرة باستمرار : "أن مجرد الانضمام إلى أحد هذه الأحزاب يساهم في أداء العمل الإيجابي ، لأن التواجد في صفوف المنظمات الجماهيرية يسمح بالتواصل والاحتكاك مع الناس"^(١).

وطبعا تم طرح هذا الموضوع ، كمقدمة ضرورية لاجتذاب والتقاط الذين ساروا تحت راية التشكيلات السياسية الأخرى ، وضمهم لاحقا إلى الحزب الشيوعي. إلا أن هذا النوع من التفكير في سياق الأنشطة السابقة للشيوعيين الفلسطينيين وخاصة في فترة

(١) سمارة س. المصدر السابق ص ٢٠-١٦.

الثلاثينيات ، كان يبدو على أقل تقدير بمثابة الهرطقة.

ولكن القسم اليهودي من الحزب الشيوعي الفلسطيني ، ذهب إلى أبعد من ذلك بكثير. وأكدت قيادته أنه توجد الكثير من "الدمى العربية واليهودية في ايدي الإمبريالية البريطانية" في فلسطين^(١). ولم تعد الحركة القومية العربية الفلسطينية تقدم كقوة "ثورية" مطلقة قادرة على تحقيق الازدهار لممثلي الجماعتين القوميتين في البلاد. وأكدت وثائق القسم اليهودي أن اليسوف الفلسطيني "يسعى لأن يصبح جزءا من معسكر الديمقراطية والحرية والعدالة لأنه يرى عدوه الرئيسي ممثلا في الفاشية التي تتزايد قوتها".

في سياق أحداث ١٩٣٦-١٩٣٩ ، عندما "امتلأت البلاد بعملاء الألمان والإيطاليين"^(٢) ، ولم تعد مشاعر المفتي المؤيدة لألمانيا خفية على أحد ، اتخذت هذه الفكرة معنى خاصا. أخيراً ، بدأ بعض أعضاء القسم اليهودي في الحزب الشيوعي الفلسطيني يعتبرون أنه بات من الممكن مشاركتهم في إنشاء مستوطنات يهودية جديدة وفي الدفاع المسلح عن اليسوف^(٣). في ندائها الموجه إلى "اليسوف اليهودي" في نهاية عام ١٩٣٩ ، قالت قيادة الفرع اليهودي للحزب الشيوعي الفلسطيني: "أيها الرفاق من الماباي"^(٤) ، ومن هاشومير هاتزايير ، ومن بوغالي تسيون ، وأيها الرفاق من الهستدروت ، ... ناضلوا من أجل تنفيذ برنامج تفاهم مشترك مع الشعب العربي ، ضد الكراهية والعداء المتبادلين ، من

(١) هنا ولاحقا مذكرة الفرع اليهودي من الحزب الشيوعي الفلسطيني..

The Political Conséquences of Partition", August 1938.

(2) Renap, op. Cit.

(3) Greilsammer A., op. cit., P. 116.

(٤) تأسس حزب عمال أرض إسرائيل في عام ١٩٣٠ نتيجة لتوحيد أهדות هافودا وهبوعيل حتساير القريبين منه. وترأس الحزب بن غوريون. لعب الحزب دور القوة القيادية لليشوف ثم بات الحزب الحاكم في إسرائيل.

أجل استقلال فلسطين ، حيث يتم احترام حقوق شعبيها"^(١). وكان ذلك يعني شيئا واحدا فقط - كما في حالة رفاقهم العرب في الحزب ، اعتبر القسم اليهودي من الحزب الشيوعي الفلسطيني أن اليسوف بأكمله يشكل الأساس الذي يمكن في وسطه خلق جبهة مناهضة للإمبريالية. في اليسوف ذاته ، شاهد القسم قوى ملموسة يمكن أن تصبح الهيكل الداعم الحقيقي لهذه الجبهة. وقالت النشرة الداخلية الناطقة باسم القسم : "وايزمان وبن غوريون ومعظم قادة اليسوف ، وافقوا على فكرة تقسيم البلاد ، لكن هناك قادة آخرون ... يختلفون معها بشدة. على الجانب الأيمن من الساحة السياسية ، هناك "تحريفيون" يرفضون هذه الفكرة (حزب ف. جابوتينسكي) ، وعلى الجانب الأيسر لا يوافق عليها هشومير حتصير وقادة بریت هشالوم (كتلة السلام - منظمة صهيونية يسارية صغيرة). وإذا كانت هناك قوى تقدمية في الساحة السياسية الصهيونية تعارض التقسيم ، فلماذا ، حتى لو كانت دوافعنا تختلف عن دوافعهم ، لا ننشئ معها جبهة شعبية حقيقية ضد تقسيم البلاد". في ذات الوقت ، تم اعلان اليسار في بوعالي تسيون كحزب "الجزء الثوري من العمال والشباب"^(٢). كان هذا الموقف مطابقا تماما لخط الشيوعيين العرب. وتم اعتبار اليسوف بمثابة الشكل المماثل للجنة العربية العليا. حيث يوجد في صفوفها وكما في صفوف الحركة الوطنية العربية الفلسطينية ، "الثوار-القوميين". وأصبحت البيئة القومية والحاجة إلى التصرف فيها بمثابة النقطة الحاسمة لكل من الشيوعيين العرب واليهود. واستمرت الخلافات بينهما في التعمق.

لكن في عام ١٩٣٩ ، قامت قادة الحزب الشيوعي الفلسطيني بإدانة خط أعضاء

(١) فيرنكيل إي. نفس المرجع ، ص ١٣٨.

(٢) سمارة س. المصدر السابق ، ص ٢١٦-٢١٧.

القسم اليهودي، وتم حل القسم نفسه. كان السبب الرسمي للإدانة هو النهج العام لأحزاب اليسوف، التي أدانت لأسباب مختلفة، مقترحات الكتاب الأبيض الذي نشرته الحكومة البريطانية في نفس العام، والذي أعلن رفض دولة الانتداب لفكرة تقسيم البلاد وفرض قيود كبيرة على دخول المهاجرين اليهود.

واعتبرت اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الفلسطيني أنه تم بذلك الحصول على دليل إضافي يثبت ضرورة شن النضال ضد الصهيونية في فلسطين في المقام الأول. وأصبحت إمكانية إنشاء شكل من أشكال الجبهة المناهضة للإمبريالية داخل اليسوف ممكنة فقط على أساس معاداة الصهيونية^(١).

استمر تطبيق تكتيكات إقامة علاقات الكتلات كأساس لخلق جبهة واسعة مناهضة للإمبريالية في البلاد فقط فيما يتعلق بأحزاب ومجموعات المجتمع القومي العربي الفلسطيني.

وطبعا لا ضرورة للقول، أن هذا القرار حظي بتأييد الكومنترن، الأمر الذي عزز موقف القيادة العربية للحزب الشيوعي الفلسطيني. من جانبه قال رئيس القسم اليهودي حانوخ بجوزا، أن قرار اللجنة المركزية "خلق حالة من القطيعة الكاملة بين الشيوعيين واليسوف اليهودي، وأثار المشاعر المعادية للسوفييت والشيوعية فيه، وأدى إلى ظهور الميول التروتسكية. بين الشيوعيين اليهود"^(٢).

وبعد مرور عام، تم إنشاء الجماعة اليهودية الشيوعية "Emet" ("برافدا - الحقيقة")، المستقلة عن الحزب. كانت هذه أول علامة على اقتراب الانقسام. في فلسطين، بدأت

(1) Correspondances Internationales, 1939, N 27, P. 717.

(٢) سمارة س. المصدر السابق، ص ٢١٩.

الحركة في اتجاه إنشاء منظمات شيوعية يهودية وعربية مستقلة عن بعضها البعض. لقد فشلت محاولة الاعتماد على القوى الخارجية ، واستخدام نموذجها لحل القضية القومية في فلسطين بأساليب "الأممية البلشفية".

الفصل الثالث

الفكرة الوطنية والرغبة الثورية:

الشيوعيون في سوريا ولبنان

مدخل:

لم تكن الظروف الخارجية التي احاطت بظهور الحركة الشيوعية في سوريا ولبنان، تشبه أو تذكر بالجو الذي بدأ فيه تشكيل التنظيمين الشيوعيين المصري والفلسطيني^(١). كانت هذه الظروف مختلفة من نواح عديدة، تماماً كما كانت مختلفة أيضاً عملية ظهور المجموعات الأولى للحركة الشيوعية المحلية، التي حددتها. افتقرت سوريا ولبنان إلى حركة عمالية متطورة مماثلة لحركة اليسوف الفلسطينية. حتى في أوائل الثلاثينيات أظهرت تقديرات عدد العاملين المأجورين في كلا البلدين أن عددهم لا يزيد عن ٩٪ من إجمالي عدد السكان^(٢).

ولكن مع ذلك، كانت واقعة ظهورهم خلال سنوات الحرب مثيرة للخوف. لقد بشر ظهور هؤلاء العمال بقدوم عصر "الصعاليك" (المنبوذين)^(٣). ومن بينهم لم يكن فقط أبناء

(١) في الفترة ما بين الحربين العالميتين وحتى عام ١٩٤٤، باستثناء فترة وجيزة - ١٩٣٩، عمل شيوعيو البلدين في صفوف منظمة شيوعية واحدة في سوريا ولبنان. في عام ١٩٤٤، قرر المؤتمر الثاني للحزب الشيوعي تقسيمه إلى الحزب الشيوعي السوري واللبناني. في عام ١٩٤٨، اتحدا مرة أخرى في حزب شيوعي واحد لسوريا ولبنان. وفقط في نوفمبر ١٩٥٨ حدث التقسيم التنظيمي النهائي لكلا الحزبين.

(٢) حريبي Haribi. سوريا // مواد حول المشاكل الوطنية - الاستعمارية. إصدار عام ١٩٣٢، رقم ٣، ص ١٦.

فيما يتعلق بلبنان انظر:

Syndical au Liban. Couland J. Le mouvement Coltanaps1. 1919-1946. R 1970. R١٣٥ -136.

(٣) تم الإشارة إلى هذا المفهوم في ذلك الوقت من خلال الكلمة العربية "صعلوك - saaluk"، المستعارة من اللغة العربية الشعبية لكلا البلدين، حيث تشير هذه الكلمة إلى المنبوذين. في كثير من الأحيان، في الترجمات العربية للأدب الماركسي في ذلك الوقت، تم استخدام هذه الكلمة أيضاً للتعبير عن فكرة =/=

المجتمعات الإسلامية والمسيحية التقليدية ، بل وكذلك حشود من الجياع والعراة تقريبا ، من اللاجئين القادمين من الولايات الأرمنية من الإمبراطورية العثمانية البائدة.

طبعاً لم تكن هناك أية نقابات عمالية في ذلك الوقت. وفي أوائل العشرينات بدأت تظهر في لبنان - بخلاف سوريا التي كان تطور اقتصادها ينمو بوتيرة أقل نشاطاً - فقط المنظمات الأولى غير الثابتة وغير المستقرة للغاية التي ركزت على فكرة الوطنية اللبنانية - المسيحية وتقديم المساعدة الخيرية للمحرومين.

وأحدها كان حزب العمل العام في لبنان الكبير ، المحصور في الطائفة المارونية^(١). وهذا

"البروليتاريا" و "الشغيلة" ، على سبيل المثال ، في الشعار "ياصعاليك العالم اتحدوا".

(١) في الأول من مايو عام ١٩٢١ ، أعلن عن إنشاء حزب العمل العام في لبنان الكبير في بيروت. عمل الحزب تحت شعار "الرب والإنسانية". وتم الإعلام في برنامج الحزب عن رغبته في "الدفاع عن العلم اللبناني الذي كررت ألوانه ألوان العلم الوطني الفرنسي مع شجرة أرز لبناني في وسط اللوحة ، وحماية الانتداب الفرنسي في سوريا ، وإقامة علاقات تجارية واقتصادية ودية بين دولة لبنان الكبير ودول أخرى في سوريا وفرنسا ؛ وتطوير الصناعة وتقديم الدعم والمساعدة للعمال ... ؛ والتعاون مع الحكومة ... ؛ وتعزيز تطوير اللغتين الرسميتين للحزب - الفرنسية والعربية ". يمكن لأي رجل أعمال وعامل لبناني أو فرنسي أن يكون عضواً في الحزب. انتُخبت اللجنة التنفيذية للحزب في بداية عام ١٩٢٥ وضمت كبار ملاك الأراضي وكبار رجال الأعمال وناشري الصحف والمحامين والأطباء وأصحاب محلات النجارة والمعامل. شجع حزب العمل العام في لبنان الكبير على إنشاء اثنتي عشرة نقابة ، يصبح أعضاؤها أعضاء في الحزب تلقائياً. وتحت تأثير هذا الحزب كان جزء من عمال البناء وعمال السكك الحديدية وعمال الترام الذين عملوا في العاصمة اللبنانية. ونشر الحزب صحيفة "العامل". وينتمي أعضاء الحزب إلى الطائفة المارونية :

Ibis. وضع العمال في سوريا // "النقابات الحمراء الأعمى" عام ١٩٢٥ ، Xa 4 ، ص ١٠٢-١٠٣.

لكن حتى في وقت لاحق ، عملت النقابات العمالية التي تم إنشاؤها في سوريا ولبنان كمنظمات سعت إلى الحفاظ على الروابط الأبوية بين العمال وأرباب العمل. على سبيل المثال ، في ميثاق النقابة العمالية

=/=

الوضع كان سائدا ليس فقط على السكان العرب في كلا البلدين ، بل كان ينطبق بنفس القدر على الجالية الأرمنية في أراضي البلدين ، حيث بعد كارثة عام ١٩١٥ ، بدأت تنهض وتتبعث فيها الحركة الوطنية.

لكن الحركة الوطنية لم تكن مشابهة للحركة المصرية ، من حيث الحجم ومن حيث استخدام أساليب العنف الثوري ، كل ذلك لم يكن حقيقة في سوريا (وكان غائبا في لبنان) خلال السنوات الأولى بعد نهاية الحرب العالمية الأولى. لقد نشأت هذه الحركة في وقت لاحق ، فقط في منتصف العشرينيات من القرن الماضي ، عندما ظهرت المقاومة ضد السلطات الفرنسية.

فقط في أواخر العشرينات ، بدأت تظهر في سوريا ، "الغرف التجارية" ، والتي كانت إيذانا ببداية تشكيل مطالب اقتصادية ووجهات نظر سياسية لطبقة رجال الأعمال الجديدة ، التي تحدثت عن الوحدة الوطنية ليس ضمن حدود "سوريا التاريخية" ، بل ضمن حدود الدولة السورية الحقيقية التي خلقتها القوى الخارجية^(١).

لعمال المطابع التي تأسست في لبنان عام ١٩٢٥ ، لوحظ أن الغرض من النقابة هو "تحقيق الإجماع بين عمال المطابع ، وتزويدهم بالمساعدة المعنوية والمادية ، لتحقيق التفاهم المتبادل الدائم بينهم وبين أرباب العمل ، لنشر روح الأخوة والتعاون بين العمال من خلال إنشاء النوادي وإلقاء المحاضرات المصممة لتعزيز تطوير أسسهم الاجتماعية والأخلاقية".

// البافاري ي. تاريخ الحركة العمالية والنقابية في لبنان. المجلد الأول. ١٩٠٨-١٩٤٦ (تاريخ الحركة العمالية والنقابية في لبنان. المجلد ١. ١٩٠٨-١٩٤٦). بيروت ، ١٩٧٩ ، ص ٣٠٥-٣١١.

(١) في عام ١٩٢٢ ، تحدث أحد البرجوازيين السوريين البارزين ، لطفي الحفار ، عن "الغرف التجارية" كمراكز "للوحدة والتضامن وإدارة الخدمة والعقل" والتي من خلالها سيتم تهديد الطريق لإنشاء شركات مساهمة. على أساس رأس المال الوطني. وقال : "سنكون فقراء إذا انفصلنا ، وسنصبح أغنياء إذا اتحدنا. ... إذا تمت إدارة الشركات المساهمة بشكل جيد ونفذت نوايا من أنشأها ، فإنها ستتحول إلى قوة تضمن =/=

وكان الطريق إلى هذه الوحدة، وفقاً لممثلي هذه الفئة، يمر من خلال تطوير الصناعة الوطنية التي يخدمها خريجو المدارس الفنية المحلية.

ووفقاً لهذه الفئة، كان يمكن لهياكل ومؤسسات الدولة التي أنشأتها السلطات المنتدبة، أن تصبح بمثابة الهيئات التي تشجع تنمية الاقتصاد السوري وتشارك بشكل مباشر في تكوين الاتحادات الصناعية والمالية الوطنية.

لقد تحدث الذين كانوا ينتمون إلى هذه الفئة عن "أمة" ملزمة بـ "دعم الشركات الوطنية واستخدام المنتجات الوطنية فقط"^(١)، وكان المقصود هنا المجتمع السوري بحدوده الحالية وليس مجتمع "سوريا التاريخية". نفس العملية جرت وتطورت في لبنان.

لكن الأصوات التي تحدثت عن الوحدة الوطنية السورية كانت ضعيفة وبالكاد يمكن سماعها في ذلك الوقت. وحدث ذلك لأن عملية إنشاء هذه الوحدة كانت بطيئة للغاية وغير متسقة. وزاد من تعقيد وصعوبة العملية، التجربة التي قامت بها السلطات الفرنسية، والتي كان جوهرها يكمن في تشكيل حقيقة واقعة داخل حدود سوريا، عن طريق إنشاء دويلات هناك على أساس المبادئ الإقليمية والطائفية. وهذه الدويلات كانت تضم دولة الدروز (المتاخمة للحدود السورية الفلسطينية والسورية الأردنية) والدولة العلوية (بالقرب من ميناء اللاذقية)، ودولة دمشق ودولة حلب والجزيرة (شمال شرق سوريا)، وكذلك سنجق أو لواء إسكندرون. واعتقد الوطنيون السوريون، أن من بينها كانت دولة لبنان

تراكم رأس المال اللازم لتنفيذ خطط التنمية الاقتصادية".

وأشار إلى أن الطريق المؤدي إلى إنشاء هذه الشركات يمر عبر مدخرات الأفراد، وبمساعدهتها يمكن للشخص "الحصول على سهم أو سهمين في شركة لا تخدم مصالحه فحسب، بل أيضاً مصالح بلاده". البلد "// حنا. أ. ١٩٤٥ الحركة العمالية في سوريا ولبنان. ١٩٠٠-١٩٤٥. دمشق، ١٩٧٣، ص ١٧٢.

(١) نفس المرجع، ص ١٨٣ - ١٨٤.

الكبير التي أنشئت عام ١٩٢٠.

بالطبع ، سبق كل ذلك اندلاع "الثورة السورية الكبرى" - الانتفاضة التي اجتاحت مساحة كبيرة من جنوب البلاد وبدأت في منطقة جبل الدروز بقيادة زعيم إحدى العشائر البارزة في المجتمع الدرزي - سلطان الأطرش^(١). ولكن ذلك الحدث كان عبارة عن ظاهرة من الماضي ، حاول خلالها النبلاء التقليديون عكس وتحويل مجرى تطور المساحة الإقليمية الناشئة حديثاً.

كان المشاركون في الانتفاضة وأعضاء قيادتها من المؤيدين للتجربة الفاشلة لإقامة دولة عربية واحدة بزعامة الأمير فيصل ، بما في ذلك أراضي "سوريا التاريخية". وهم لم يطرحوا بأي شكل من الأشكال أفكار الوحدة الوطنية - السورية - كما كان الحال في مصر عام ١٩١٩. وحتى لم تطرح فكرة هذه الوحدة. كان هدفهم تحقيق الدولة العربية ، وقد تم تفسير فشل جهود الهاشميين الهادفة إلى تحقيقها بوجود المكائد والمؤامرات من قبل الأجانب. لكن نطاق نشاط المتمردين والمنتفضين لم يشمل شمال سوريا أو تلك المناطق في لبنان حيث كانت التجمعات المسيحية كبيرة. ومع ذلك ، ظل شعار العروبة سائداً بعض الشيء ، ووحد تحت لوائه الوطنيين السوريين (الذين كان في صفوفهم أيضاً بعض المهاجرين من الأراضي اللبنانية) الذين عارضوا إدارة الانتداب الفرنسي. ولكن هدفهم العظيم لم يصمد أمام اختبار الزمن.

لقد أصبحت "الثورة السورية الكبرى" ، في الواقع ، آخر أحداث الدراما التي بدأت عشية الحرب العالمية الأولى. لقد باشرت بالانهيار فكرة الدولة - الوحدة القومية العربية

(١) يوجد في الأدب الوطني الروسي ، عمل ف. لوتسكي "حرب التحرير الوطنية في سوريا (١٩٢٥-١٩٢٧)" ، إصدار عام ١٩٦٤.

ضمن حدود "سوريا التاريخية". لقد تم دفنها من قبل إدارة الانتداب الأنكلو-فرنسية، وعملية إنشاء "وطن قومي يهودي" في فلسطين، وأخيرا، التطور الذي حل في دول الشرق الأوسط الناشئة حديثا بعد الحرب، حيث تشكلت ببطء السوق الداخلية وحيث ظهر وترعرع أنصارها السياسيين بشكل مطرد.

نبح الانجذاب إلى تجربة البلشفية الروسية في البيئتين العربية والأرمنية في كلا البلدين من العقليات الفكرية للسنوات الأولى بعد نهاية الحرب العالمية الأولى، والتي تم تحديدها بالرغبة في خلق "إنسان جديد" تكمن مهمته في إعادة فرض العدالة التي داسها الأجانب. كان لا بد من إقامة كيان دولة قومية عربية (وليس لبنانية هزيلة أو طائفية - إقليمية سورية) وأرمنية. تم فهم هذا الكيان على أنه ضمان لمزيد من عدم انتشار الورم الشرير المتمثل في النبذ والحرمان. كان هذا هو الوضع السائد في روسيا السوفيتية. وكان يجب أن يكون هو نفسه هنا في سوريا ولبنان.

ولكن لكي يحدث ذلك، كان لا بد من ظهور مناخ اجتماعي جديد يمكن أن يغير تماما وجهة نظر الذين لعبوا دور "المنبوذين". يجب أن يختفي الخوف منهم ويصبح من الماضي. كان يجب أن يتم النظر إليهم كبناة "للعالم الجديد"، وكحملة "الرسالة العظيمة" وكالذين سيخلصون الأمة. لكن كان من الصعب للغاية القيام بذلك.

من جانبه، سعى الكومنترن بنشاط إلى إقامة اتصالات مع القوى الوطنية السورية - اللبنانية. كانت مستعمرات فرنسا في الشرق الأوسط متاخمة لحدود تركيا الكمالية الجديدة، والتي، كما بدا آنذاك، أصبحت مؤيدا واضحا لروسيا السوفيتية. وطبعاً بدا أن تصاعد الحركة المناهضة للفرنسيين على هذه الأراضي سيؤدي على الفور إلى توسيع منطقة عدم الاستقرار الجيوسياسي "الثوري" وتقريب ساعة نهاية معارضي البلشفية على نطاق عالمي.

لكن الوضع في سوريا وفي لبنان لم يكن مشابها للوضع السائد في المستعمرات الأجنبية الأخرى ومن بينها مصر. في سوريا وفي لبنان يوجد سكان أرثوذكس كانت الإمبراطورية الروسية تعتبر وجودهم الإقليمي بمثابة نطاق مصالحها الخاصة. لكن دولة "العمال الفلاحين" الجديدة قلبت جذريا النموذج القديم لتطور روسيا. وكان يبدو عقيما تماما البحث عن عملاء بلشفيين محليين في البيئة الأرمنية في كلا البلدين في أوائل عشرينيات القرن الماضي، وكان ذلك في البداية عديم الجدوى - لأن الكارثة القومية التي وقعت هناك همشت النشاط الحزبي، بعد ظهور مسألة البقاء والصمود المادي والوجودي للشعب الأرمني^(١).

بالطبع، اعتمد الكومنترن، الساعي إلى إقامة اتصالات مع القوميين السوريين اللبنانيين، على بوعالي تسيون الفلسطينيين. لكنهم أبلغوا اللجنة التنفيذية للأمية الشيوعية بشكل دوري أن بلدان الشرق العربي (تسمية تخص قبل كل شيء، سوريا وبلاد ما بين النهرين وشبه الجزيرة العربية)، "والتي في الوضع السياسي الحالي لها أهمية كبيرة لنجاح الثورة في الشرق، لا تتضمن وجود ليس فقط حركة شيوعية حتى في شكلها البدائي، بل ولا أي حركة ثورية بروليتارية أو فلاحية على الإطلاق".

هذا لا يعني، في رأيهم، أنه "في جميع بلدان الشرق العربي" لم يكن هناك "حماس كبير وموقف متعاطف تجاه البلشفية". على العكس بات ذلك ملحوظا وعلى أساسه "من الممكن إنشاء وتطوير حركة ثورية وشيوعية جادة في هذه البلدان". ولاحقا بعد أن تحولوا إلى شيوعيين فعلا، قدم أنصار الكومنترن الفلسطينيين مساهمتهم في حل هذه المهمة.

(١) مذكرة تقرير من العضو يا. سارا. إلى المكتب الصغير للكومنترن // RTSKhIDNI ف٤٩٥، اوب ٨١،

وحدة الحفظ ١٠ الصفحة رقم ١٢.

لكن القوميين السوريين اللبنانيين أنفسهم أقاموا اتصالات مع اللجنة التنفيذية للأمم المتحدة^(١). وكانت هذه الاتصالات متعددة الجوانب ومتنوعة، تماماً كما كانت متعددة ومتنوعة المسارات التي سلكها المثقفون القوميون الأوائل في كلا البلدين نحو التحالف مع موسكو البلشفية.

(١) حول ذلك أنظر على وجه الخصوص، خيفتس أ. الدبلوماسية السوفيتية وشعوب الشرق. ١٩٢١-١٩٢٧ إصدار عام ١٩٦٨. ص ٣٠٨-٣٠٩.

(١) القوميون العرب في سوريا ولبنان:

التجربة الروسية البلشفية

كنموذج لحركة محتملة على طريق النهضة الوطنية

في فبراير ١٩٢٣ ، تلقت اللجنة التنفيذية للأمية الشيوعية رسالة من فيينا ، موقعة من "الدكتور عارف" ، تفيد بأنه "سكرتير حزب الشباب المسلمين في سوريا" (Parti de jeunes musulmans) وبأنه انتهز فرصة إقامته في العاصمة النمساوية "لماشدة اللجنة المركزية للأمية الثالثة". وفي حديثه عن حزبه ، وأفاد بأن "هدفه هو تحرير البلاد من الاحتلال الإمبريالي وتحقيق التطور الفكري للأمة على أسس أحدث المذاهب والأنظمة العلمية والاقتصادية". ووفقا له ، "اختار الحزب المسار الثوري لتحقيق هدفه المنشود ، وتابع الحزب ودرس المسألة الشيوعية (la question communiste) باهتمام كبير من خلال الصحف والمنشورات الدعائية ، ولا سيما من خلال تصريحات أصحاب الكفاءة والمختصين (la question communiste) للأمية الثالثة".

وذكر "الدكتور عارف" أن حزبه شعر بالإلهام والسعادة لأن الحركة الشيوعية تبدي الاهتمام بالجان الثورية في الشرق (le communisme s interesse des comites revolutionnaires de l Orient)». لقد دفع هذا الظرف الحزب لكي "يعتبر أنه من واجبه الدخول في علاقات مع الأمية الثالثة"^(١). لقد نظرت اللجنة التنفيذية للأمية الشيوعية إلى هذه الرسالة باهتمام. وخطط قسمها الشرقي لتوجيه نداء إلى "الشباب المسلمين" السوريين ، يتم فيه تقديم تقييم للنهج السياسي

(1) La lettre du docteur Arif de Vienne, 6 fevrier 1923.

لفرنسا في منطقة الشرق الأوسط ، بالإضافة إلى موقف "البروليتاريا العالمية" فيما يتعلق بـ "نضال الشعوب الشرقية (خاصة سوريا) من أجل الاستقلال". وبالطبع ، كان يجب أن يتضمن النداء "الوعد بتقديم الدعم" لهذا الحزب من جانب الكومنترن. واعتقد القسم الشرقي أنه لا ضرورة للغوص في تفاصيل هذه القضايا - كان ينبغي وصف "كل شيء" "بعبارات عامة"^(١). كان هذا مفهوما ، لأن توثيق العلاقات ، ونتيجة لذلك ، الاتصالات الثنائية الأكثر تفصيلا هي مسألة مستقبلية.

في مارس ١٩٢٣ ، أرسل رئيس الدائرة الشرقية في اللجنة التنفيذية للأمم المتحدة الشيوعية ردا إلى "الدكتور عارف". وأعلن عن استلام الرسالة وقال أن الكومنترن "مسرور بالاتصال به" لأن أعضاء حزبه "يريدون تحقيق هدفهم بالطرق الثورية والاعتماد على الجماهير العاملة".

وحددت الرسالة أساسيات العقيدة الشيوعية ، لكن اللجنة التنفيذية للأمم المتحدة الشيوعية كانت أكثر اهتماما بالمعلومات حول :

١. المنظمات الوطنية والثورية الأخرى وبرامجها.
٢. قضية الفلاحين في سوريا.
٣. ما إذا كان "حزب الشباب المسلمين" على ارتباط بالجماهير العاملة.
٤. معلومات عن الوضع الاقتصادي والسياسي في سوريا وأساليب المحتل الفرنسي هناك"^(٢).

وفي أبريل من نفس العام ، تلقى موظفو الدائرة الشرقية في اللجنة التنفيذية للأمم

(١) ملاحظة من قبل رئيس القسم الشرقي آنذاك بريكس ، على رسالة من د. عارف // المصدر السابق.

(٢) رسالة بريكس بتاريخ ١٩ مارس ١٩٢٣ إلى د. عارف // نفس المرجع ، ص ٣.

الشيوعية رسالة ثانية من "الدكتور عارف". وفيها ذكر أنه توجد ثلاث منظمات تعمل في سوريا:

■ (الاتحاد السوري) العربي التوجه الموالي للانكليز، وعلى رأسه "الأثرياء والمتقنون" الذين شغلوا مناصب قيادية في إدارة الأمير فيصل. وأشار صاحب الرسالة إلى أن حزب "الشباب المسلمين" لا يملك اتصالات بهذا الاتحاد "لأنه لا يرغب باستبدال السيد الفرنسي ببديل بريطاني" ولأن "سلطة وقوة هذا الاتحاد تقوم على اضطهاد الفلاحين".

■ وفي المقام الثاني، ذكر الدكتور عارف "محبى الفرنسيين"، ويمثلهم "السريان الكاثوليك الأغنياء" (أضاف الدكتور عارف، في هذا الصدد، أن الحديث يدور عن "أحفاد الفاتحين القدامى من الإسكندر الأكبر إلى الفينيقيين).

■ وأخيرا ثالثا، تستمر منظمة "محبى الأتراك" في العمل في سوريا، لكنها فقدت أهميتها بعد هزيمة الإمبراطورية العثمانية.

وتحدث "الدكتور عارف" بشكل مقتضب عن منظمته، حيث ذكر فقط أن أعضاء حزب "الشباب المسلمين" كانوا "من معلمي المدارس والضباط". لكنه كان أكثر بلاغة في الحديث عن الفلاحين والعمال السوريين. وبحسب قوله، فإن ٩٥٪ من الفلاحين - وهم يشكلون "غالبية السكان" - كانوا أميين. ونوه الدكتور عارف بأن حزبه كان يقيم اتصالات مع الفلاحين بالاعتماد على زعمائهم، الذين تم اجتذابهم بفضّل استخدام "الدعاية المتوافقة مع سيكولوجيتهم". بدورهم، كان العمال يشكلون "قسما صغيرا جدا من السكان"، لأن سوريا "ليست متطورة صناعيا". وقال إنه لا توجد نقابات عمالية في البلاد. وردا على سؤال حول "أساليب المحتلين الفرنسيين"، أفاد الدكتور عارف بأن سلطات الدولة المنتدبة "تعتمد على القوة المسلحة"، وتتبع أسلوب "فرق تسد". لكن "الشباب

المسلمين" يأمل في تعزيز قوته من خلال التحالف مع الأُمّية الثالثة". كما كان لديه قدراته الخاصة - "من ٣٠ إلى ٨٠ ألف مقاتل مسلح، والمقصود هنا -القبائل البدوية"، وأشار حزب "دكتور عارف" إلى سعيه لجذب "المنظمات العربية السرية في بلاد الرافدين وشمال إفريقيا" إلى جانبه^(١).

وفي يونيو ١٩٢٣، أرسل "الدكتور عارف" مرة أخرى من فيينا رسالة جديدة إلى اللجنة التنفيذية للأُمّية الشيوعية، والتي تضمنت معلومات إضافية عن سوريا.

ودار الحديث فيها عن ذلك الجزء من الشعب السوري الذي أثار اهتمام حزبه في المقام الأول. ووفقاً له، اعتمد الحزب، على "أ" القبائل البدوية المسلحة، ب) القبائل المستقرة. في الوقت نفسه، تناولت هذه الرسالة أيضاً حزب "الشباب المسلمين"^(٢).

أشار الدكتور عارف إلى أن منظمته "أنشئت من أجل تحقيق هدف سياسي"، وهي بدورها "ترك مسائل العمل الطبقي والشؤون الطبقية للمستقبل القادم". وبدأت صياغة الموضوع بهذا الشكل منطقية بالنسبة له.

ووفقاً له، في حال تم شن حرب طبقية ضد الدولة الأكثر عسكرية في العالم (فرنسا)، ستصبح البروليتاريا ضحية "لقوتين" متحدثين فيما بينهما - المال ... والمعدات العسكرية الحديثة".

ولكن لاحقاً لم تتطور العلاقات بين "الشباب المسلمين" واللجنة التنفيذية للأُمّية الشيوعية، ولم تصبح حقيقة واقعة. ويبدو أن المبادرة في هذه الحالة لم تأت من الكومنترن، بل جانب من "الدكتور عارف". على ما يبدو أن مجموعته في حال كانت

(1) La lettre du docteur Arif de Vienne, 16 avril 1923.

(2) La lettre du docteur Arif de Vienne, 7 juin 1923.

موجودة بالفعل ، كانت تبحث هادفة عن قوة خارجية قوية ، يمكن أن تعتمد على مساعدتها ودعمها.

كانت دعوة "الشباب المسلمين" إلى البلاشفة على الأرجح محاولة من هذا الحزب لمعرفة موقف المنظمة التي أنشأتها الحكومة الروسية الجديدة ، وذلك خلال بحثه عن حلفاء محتملين بين مجموعة واسعة من الدول والمنظمات والحركات. لكن هذا النداء كان مثيرا للاهتمام لعدة أسباب.

كان "الدكتور عارف" بالطبع قوميا. في هذا الصدد ، كان يعتبر الكومنترن وكذلك الدولة التي تقف خلفه ، ليس كمنظمة تسترشد بأيديولوجية معينة ، بل كأحد "مراكز الجذب" في العالم التي نشأت بعد الحرب العالمية الأولى ، والراغبة في التصدي للهيمنة الأنكلو- فرنسية في الشرق الأوسط. بالطبع كانت كلمات الدكتور عارف عن اهتمام "الشباب المسلمين" بـ "المسألة الشيوعية" ليست إلا نوعا من التهذيب المعتاد.

في الواقع ، لم يكن هذا اهتماما بالمبادئ الأساسية للعقيدة الشيوعية (كان الدكتور عارف بعيدا تماما حتى عن محاولة التعرف عليها) ، ولكنه حاول أن يستدل ويعرف المدى الذي يمكن أن تساعده فيه المبادئ التي أعلنها الكومنترن ، في حل مهامه البراغماتية. لقد حاول اختبار مدى تجاوب الكومنترن ، مقترحا على قيادته عمليا تنفيذ في بلاده ما تحدثت عنه قيادة الأهمية الدولية علنا أكثر من مرة. لقد تم استخدام عبارات كانت شائعة في فترة العشرينات ، والتي تجاوزت عصرها من نواح كثيرة لتصبح كليشيهات من ممارسات الحقبة السوفيتية - "كان لأكتوبر العظيم تأثير حاسم على مصير شعوب الشرق". لكن في الحقيقة كان الدكتور عارف يساوم بصراحة للحصول على أكبر قدر من المنفعة. لكن الكومنترن ساوم أيضاً. لقد تصرف كل من الطرفين مثل المشتري والبائع في أن واحد. في الوقت نفسه ، كان موقع ممثل "الشباب المسلمين" أفضل بكثير من موقف الطرف الآخر. كان

بإمكانه الاختيار أما اللجنة التنفيذية للأمية الشيوعية فلم تتمكن من ذلك. في الواقع، كان هذا أول اتصال بين قيادة الكومنترن وأحد القوميين السوريين. كان "الدكتور عارف" أقل ارتباطا بالقيود العقائدية (في حالته، كان الأمر يتعلق فقط بـ "تحرير" البلاد و "التطور الفكري للأمة")، وكانت هذه شعارات بسيطة جدا ومفهومة بالنسبة للكثيرين. وهو ببساطة لم يرغب في تحمل التزامات أكثر جدية، على سبيل المثال، كالمساعدة في تنظيم أو رفع "الروح الثورية للبروليتاريا". وقد تجلّى ذلك من خلال تصريحه، أو بالأحرى اعتذاره، عن عدم الرغبة في "التضحية بالبروليتاريا" في المواجهة مع الجيش الفرنسي المجهز جيدا. بالتأكيد لم يكن الدكتور عارف يجهل أنه سيتم كذلك القضاء البدو المسلحين (بالسيوف والبنادق البدائية) في المعركة الجادة الأولى وسيتم "التضحية بهم".

من خلال تطور علاقاته مع الكومنترن، بدأ "الدكتور عارف" يدرك أن الجانب المفاوض الثاني كان يحاول استدراجه إلى الفخ "الطبقي". كانت شروط الصفقة التي طرحتها قيادة الكومنترن تفترض انتقال حزبه، في نهاية المطاف إلى تحت راية الشيوعية - وهو ما سيكون عبئا كبيرا عليه. وواصلت اللجنة التنفيذية للأمية الشيوعية، إبلاغه بسياسة "البروليتاريا العالمية" بـ "عبارات عامة". ولكن اللجنة التنفيذية للأمية الشيوعية، كانت تفتقد لروح المناورة، ودفعت بمطالبها بشكل مباشر مكشوف، وكان الدليل على بداية ذلك أسئلتها الموجهة للدكتور عارف عن الفلاحين والعمال. وأما هو فلقد أراد الحصول على إجابة محددة لسؤال بسيط للغاية: "في حالة حدوث عمل مناهض للفرنسيين ينظمه في سوريا، هل سيوفر له الكومنترن الأسلحة والمال؟". بكلمات أخرى، لم تتمكن اللجنة التنفيذية للأمية الشيوعية، عند محاولتها تقصي الوضع الداخلي السوري، من تحمل الاختبار الذي رتبته لها. بالنسبة للقومي الذي يسعى إلى تحقيق أهدافه "بالطرق الثورية"، كان رد اللجنة التنفيذية للأمية الشيوعية، يدل على التردد. لقد بدا له أن التعاون

المعروض عليه كان سلعة باهظة الثمن للغاية ، ومن غير اللائق بتاتا المساومة عليها ومحاولة فرض شروطه الخاصة لشرائها.

لكن رغم ذلك كان استعراض موضوع "دكتور عارف" شيقا من نواح أخرى أيضاً. الكومنترن الذي رغب في تنظيم "انفجار ثوري" في الشرق ، كان يجهل الشرق ولم يفهمه. لم يسع موظفو القسم الشرقي في اللجنة التنفيذية للأمية الشيوعية ، بأي شكل من الأشكال إلى الخوض في التفاصيل والإشارات العديدة الواردة في رسائل "د.عارف". كان يهمهم فقط مصير "العمال والفلاحين" ، وهو ما كان يعتبر بمثابة الدليل الآخر للدكتور عارف على أنهم يعملون بشكل مشكوف وفظ معه. وكانت هذه التفاصيل مثيرة للفضول للغاية من وجهة نظر مدى إمكانية نشر ممارسة "الثورة العالمية" في المنطقة التي تصوروها ، وماذا سيحدث إذا بدأ تطبيق هذه الممارسة هناك. لقد سمي "الدكتور عارف" نفسه بممثل "الشباب المسلمين" ، وكتب أن حزبه يعتمد في تنظيمه على "معلمي المدارس والضباط" ، وأفاد بوجود صلات بينه وبين "زعماء" الفلاحين ، الذين بلا شك لم يكونوا من كبار ملاك الأراضي السوريين. وأخيرا ، أعلن أن حزب "محبي فرنسا" في سوريا كان مدعوما من قبل "الكاثوليك" المحليين - أحفاد الفينيقيين وجيش الإسكندر الأكبر. وإلى جانب ذلك ، لم يكن راضيا للغاية عن سياسة "محبي الانكليز" الذين استمروا في العمل في بلاده - أنصار الملك الهاشمي فيصل ، وتحدث عن وجود بديل لنشاطاتهم - الاعتماد على القبائل البدوية "المقاتلة". كل هذه التفاصيل كانت تتطلب الفهم والتقييم. على ما يبدو ، تم هذه المرة النقاط فكرة وحدة "سوريا التاريخية" من قبل أشخاص من البيئة السنية - الغالبية العظمى من السكان المحليين. لقد سعوا إلى إقامة اتصالات مع أولئك الذين ، في ظل ظروف الانتداب الفرنسي ، تم دفعهم بموضوعة إلى هامش الحياة الاجتماعية والسياسية السورية ، وسعوا إلى إيجاد الدعم لأنفسهم ، في المقام الأول بين زملائهم

المؤمنين - البدو "المسلحين" و "زعماء" الفلاحين ، الذين كانوا بالطبع من المسلمين السنة. سعت أساليب الإدارة الفرنسية التي تهدف إلى إحداث تحول جذري في الاقتصاد السوري (بما في ذلك إجراء مسح للأراضي ، وتوسيع مساحة الأراضي الزراعية من أجل تحويل سوريا إلى مثل مصر - بلد مخصص لزراعة القطن فقط) ، ووجهت بذلك ضربة ملموسة لأسلوب حياة السكان المحليين ، القائم على تقاليد العلاقات بين البدو والفلاحين المستقرين ، والمساهمة في تقدم ممثلي الأقليات المسيحية إلى الواجهة ، وتغيير منظومة الأولويات الدينية داخل المجتمع القائم. وعند تشديده على أصولهم الغربية كان الدكتور عارف ، قد توقع طبيعة التركيبة الإثنية - المذهبية للدولة اللبنانية التي سيشكلها حكم الانتداب الفرنسي. وهو علاوة على ذلك ، ألقى بهم ، وعلى الأرجح مع جميع الطوائف المسيحية في البلاد خارج حدود "الأمة" التي سعى إلى رفع مستواها الفكري.

كان هذا مهماً ، لأن الحركة الشيوعية التي نشأت لاحقاً على أراضي المستعمرات الفرنسية في الشرق قامت ، أولاً وقبل كل شيء ، على أنشطة المسيحيين المحليين ورغم وجود في صفوفها أشخاص من الجماعات الدينية المسلمة ، ولكنهم لم يكونوا من المسلمين السنة أو كانوا من الأقليات القومية السنية وليس العربية. أقام الكومنترن اتصالات معه ودعمه وسعى إلى تحويله إلى قوة سياسية قابلة للحياة. لكن مصير هذه الحركة كان محسوماً مسبقاً وكان محتوماً عليها البقاء على الهامش.

على الأرجح ، كان "الدكتور عارف" من بين أولئك الذين دعموا قبل فترة وجيزة وصول الأمير فيصل الحجازي الهاشمي إلى السلطة في دمشق. وهو لم يستطع إلا أن ينهر بالفكرة القومية العربية التي نشأت في "سوريا التاريخية" قبل وقت طويل من اندلاع الحرب العالمية الأولى. إلا أنه كان وأنصاره "معلمو المدارس والضباط" بعيدين عن الدائرة المقربة من "الملك العربي". بالإضافة لذلك لم تكن هذه الدائرة المقربة أيضاً تضم أي تمثيل

للأشخاص الذين قدمهم الدكتور عارف على أنهم أنصاره في التفكير.

وهو مع عدم محبته للقادمين الجدد، لم يكن أي حب تجاه الذين اعتمد عليهم فيصّل داخل سوريا - النبلاء أصحاب الأراضي. ومن بين أسباب عدم التعاطف معهم كان كذلك استناد الهاشميين على دعم بريطانيا والتي عملت لإرضاء المطالب الإقليمية لحليفها فرنسا. كان حزب "الشباب المسلمين" يعلم طبعاً بانتهازية فيصّل وعدم وجود أية مبدئية لديه، خاصة بعد موافقته دون أي ندم على تولي العرش في بغداد.

لقد اعتبر "الشباب المسلمين" الاستمرار في دعم فيصّل أمراً غير أخلاقي، ومن المعروف أن فيصّل كان يحظى بدعم أنصار حزب "محبّي بريطانيا" في سوريا. وخلال ذلك أعرب حزب "الشباب المسلمين" مساندته لخصم الهاشميين - ابن سعود الذي اعتمد على البدو "المتشددين" الرحل، والذي تصرف، كما بدا لهم، بشكل مستقل عن بريطانيا العظمى وكان مشحوناً بشحنة قوية من التطرف الإسلامي. وعلى الرغم من أن العاهل السعودي المستقبلي كان موضع اهتمام موسكو في ذلك الوقت، إلا أن التركيز كان أكثر على الحفاظ على العلاقات مع الحجاز الهاشمي، وكان الكومنترن لا يزال في خضم أوهام حول قدرات الأمير فيصّل.

طبعاً لم تتمكن اللجنة التنفيذية للأمية الشيوعية، من فهم هذا التلميح من جانب الدكتور عارف، الذي كان التلوين الديني لمنظّمته بالنسبة له مجرد "راية رمزية" عادية، وليس محاولة للجمع بين الدين والسياسة، وعلى الأرجح لم تكن ترغب في ذلك. لقد سعت لإيجاد وكلاء وعملاء "طبيين"، ورفضت بشكل فعال دعم أولئك الذين تحدثوا باستخدام خطاب سياسي مختلف بشكل مبدئي. ولكن هل كان هؤلاء العملاء موجودين فعلاً؟ نعم، لقد كانوا موجودين بالفعل. الحديث يدور قبل كل شيء عن النقابي والشيوعي المصري من أصل لبناني فؤاد شمالي.

في بداية أغسطس ١٩٢٢ ، وصلت رسالة من الإسكندرية إلى موسكو من حزب العمال اللبنانيين الذي قام المذكور أعلاه بتأسيسه في مصر.

ووفقا لنص الرسالة ، قامت قيادة هذا الحزب بمراسلة العاصمة السوفيتية مرتين على الأقل وفي ١٨ يوليو ١٩٢٢ تلقت الجواب من اللجنة التنفيذية للأمية الشيوعية ، وخلال ردهم عليه قال أنصار الحزب أن هدفهم يتلخص في "محاربة الإمبريالية في وطنهم لبنان ، حيث تم اغتصاب حقوق العمال". ووفقا لهم ، على الرغم من ظهور "حزب عمالي" ، في بيروت إلا أنه لا يزال تحت قيادة محامين يتحدثون باسم "الرأسماليين اللبنانيين" (كان الأمر يتعلق بحزب العمل العام في لبنان الكبير). وجاء في الرسالة أن وطنهم لبنان حصل بالفعل على "حدوده الطبيعية" ، ولكن كان يجب إنشاء "نظام جمهوري حر" بداخله يقوم أساسا على "فصل الكنيسة عن الدولة".

وأعلن كاتبوا الرسالة أنهم يتحدثون باسم "البروليتاريا اللبنانية في وطنهم" ، حيث "يتم خنق صوت العمال من قبل الإمبريالية الفرنسية التي حلت محل السادة الأتراك السابقين". وفي الإسكندرية ، كما أكدوا ، اقترن نضالهم بنضال "إخوانهم المصريين"^(١).

في ذلك الوقت ، كان فؤاد شمالي لا يزال عضوا في الحزب الاشتراكي المصري وكان عضوا في لجنته المركزية. بعد أربعة أشهر ، في ديسمبر ١٩٢٢ ، اتهم بـ "التأمر" وطُرد من صفوف الحزب الشيوعي المصري. وجددير بالذكر أن هذا النقابي من أصل لبناني عمل منذ فترة طويلة ونشط في صفوف الجالية اللبنانية في الإسكندرية ، ووسع دائرة نفوذ الحركة

(١) الرسالة التي يتم الاقتباس منها مكتوبة باللغة الألمانية. لا يتعلق الأمر بالأصل ، بل يتعلق بنسخة من الرسالة ، والتي ، على وجه الخصوص ، لم يتم ملء الأماكن التي كان يجب ملء توقيعات السكرتير وأمين الصندوق RTSKHIDNI // ، ف ٤٩٥ ، أوب ٨٥ ، وحدة الحفظ ١٠ الصفحة رقم ٢٨-٢٩.

النقابية المصرية، وبالتالي دائرة المؤيدين المحليين للبلشفية. وقام المذكور بتركز جهوده على رابطة "لبنان الفتى" التي نشأت في أواخر عام ١٩٢١ في الإسكندرية^(١). وبقي شمالي محافظا على علاقات وثيقة مع أنصار "لبنان الفتى"، ودفعهم بإصرار إلى طرح مطالب من أجل "استقلال لبنان"، والإلغاء الفوري وغير المشروط للانتداب الفرنسي، ووقف "تدخل الكنيسة في السياسة، وفصل الدين من السياسة"، وأخيرا تحول الرابطة المذكورة إلى حزب للعمال اللبنانيين.

في فبراير ١٩٢٢، تم إنشاء هذا الحزب وانتخب فؤاد شمالي سكرتيرا له. والحديث كان يدور على الأرجح عن تشكيل جمعية نقابية لعمال التبغ من أصل لبناني، تركز نشاطها في الإسكندرية. ولكن الأهم من ذلك، كان إعلان هذا الحزب أنه "يعبر عن مصالح العمال والمستخدمين اللبنانيين في الإسكندرية"، وكذلك "يتحدث باسم عمال وفلاحى لبنان"، الذين لم يُسمع صوتهم، لأنه "تم سحقهم من جانب القوة الاستعمارية الحاكمة". وطالب الحزب "باستقلال لبنان واستعادة حقوقه المشروعة.. دون وصاية أو تفويض"، بالطبع سيتم ذلك فقط بواسطة "العمال والفلاحين" لأنهم فقط يمكن أن يصبحوا القوة الأكثر ثباتا في النضال ضد النير الأجنبي.

كرر الخطاب المرسل إلى اللجنة التنفيذية للأمية الشيوعية، المبادئ الواردة في برنامج الحزب. وجدير بالذكر أن فؤاد شمالي كان من أبناء الطائفة المارونية^(٢)، ولكن لم تتمكن

(١) يستشهد الباحث اللبناني م. دكروب بالعديد من الوثائق الأرشيفية الهامة في هذا الصدد. وانظر هنا ولاحقا: جذور البلوط الأحمر. قصة تشكيل الحزب الشيوعي اللبناني. ١٩٢٤-١٩٣١. بيروت، ١٩٨٤، ص ٩٥ و ٢٠١-٢٠٥.

(٢) في الانتخابات النيابية اللبنانية في أيار (مايو) ١٩٢٩، رشحه الشيوعيون السوريون- اللبنانيون على لائحة "العمال والفلاحين". ومع ذلك، فإن نظام الانتخابات البرلمانية المحلية يعني بالضرورة مراعاة =/=

عقائده النفاية ولا تمسكه الراديكالي بالفكرة الشيوعية ، ولا عضويته في صفوف القسم المصري في الكومنترن من محو وإلغاء المعتقدات والتفضيلات الأنطولوجية المتعمقة فيه بشكل أكبر. وكان أكبر دليل على ذلك الخطوط العريضة لبرنامج حزب العمال اللبناني الذي شكله. لقد كان قويا لبنانيا لأنه قبل كل شيء كان ينتمي إلى الطائفة المارونية التي لعبت الدور الهيكلي الرئيسي في الدولة اللبنانية.

بدوره ، كان تأكيد فؤاد شمالي على ضرورة إنشاء حزب "لعمال" مؤشرا مشتركا على ظهور مجموعات أكثر راديكالية داخل الحركة القومية. وكان المؤشر الثاني لبداية هذه العملية هو إعلان هذه الجماعات (بأشد أشكالها) رفضها المشاركة في "بناء الأمة" تحت قيادة ممثلي الطبقات المالكة. كان أهم ميزة في خصوصية النسخة اللبنانية من "بناء الأمة" هو الارتباط الوثيق بينها وبين التركيبة المذهبية للمجتمع المحلي.

لقد قام رجال الدين الموارنة بإضفاء الشرعية على البدايات القومية. ووجه القوميون المتطرفون ضربة إلى مواقف رجال الدين المذكورين ، عند مطالبتهم بفصل غير مشروط بين الدولة الناشئة حديثا والكنيسة. أخيرا ، كان المؤشر الثالث لتشكيل الجناح الراديكالي للحركة الوطنية هو انجذاب مؤيديها إلى موسكو البلشفية. كانت الفترة المصرية لتطور زعيم حزب العمال اللبناني ، مؤقتة وأدرك لاحقا أن الكومنترن هو القناة اللازمة للحفاظ على الاتصالات مع موسكو.

ومع ذلك ، لم تعتبر اللجنة التنفيذية للأمية الشيوعية ، أنه من الضروري الدخول في

الانتماء الديني للمرشحين من أجل الحفاظ على التمثيل النسبي للطوائف في أعلى هيئة تشريعية. وأبلغ فؤاد شمالي ناخبيه أنه ماروني // RTSKHIDNI ، 495 f. ، مرجع سابق. ٨٤ وحدة الحفظ ٢٣ ، ص ٢٨.

مراسلات معه على الفور (ظلت رسالته الأولى إلى موسكو دون إجابة ، ولاحقا ما كادت المراسلات تبدأ بين الطرفين ، حتى أخذت تخبو وتتلاشى على الفور تقريبا). علاوة على ذلك ، تمت إدانة فؤاد شمالي وطرده من الحزب ، وهو ما كان مستحيلا بدون موافقة الكومنترن على ذلك. وعلى الأرجح ، حدث هذا فقط لأنه بالنسبة إلى اللجنة التنفيذية للأمية الشيوعية ، كان موضوع حشد كل الجماعات الشيوعية في مصر في إطار منظمة حزبية واحدة ، أمرا أساسيا وفي غاية الأهمية. أما فؤاد شمالي ، الذي أنشأ جماعة قومية مستقلة في صفوف القسم المحلي من الكومنترن ، أصبح بمثابة "المأمر" بالنسبة لقيادة الحزب الشيوعي المصري ، فوجهت له ضربة. في كل الأحوال قامت اللجنة التنفيذية للأمية الشيوعية بمد العلاقات مع فؤاد شمالي فقط بعد عودته إلى بيروت. ولكن ، لكي تظهر هذه العلاقات مرة أخرى ، كان على الشيوعي المطرود من الإسكندرية أن يثبت أنه لم يغير قناعاته السابقة.

وصل شمالي إلى العاصمة اللبنانية في أغسطس عام ١٩٢٣^(١). وعلى الفور تقريبا توجه إلى قرية بكفيا الصغيرة في جبل لبنان ، حيث ساعد في صيف عام ١٩٢٤ في تأسيس النقابة العامة لعمال التبغ اللبنانيين. وخلال ذلك كان فقط ينتقل في المجال المذكور مع البقاء منتميا إلى البيئة التي كان فيها بمصر^(٢).

(١) أشار ف. شمالي في أحد أعماله إلى أنه وصل لبنان بقرار من اللجنة المركزية للحزب الشيوعي المصري من أجل "العمل على إنشاء حزب شيوعي" في هذا البلد. وكتب بعد ذلك: "كعضو في الحزب الشيوعي ، كنت جنديا ، أي أنني كنت اخضع للانضباط وأطيع الأوامر وأنفذ المهام التي كلفني بها الحزب" // شمالي ف. أسس الحركة الشيوعية في سوريا ولبنان. بيروت ، ١٩٣٥ ، ص ١٠.

(٢) ولد فؤاد شمالي عام ١٨٩٤ في قرية صغيرة بالقرب من بلدة كسروان في لبنان. بعد ذلك ، انتقل والده ، الذي عمل مترجماً في شركة للسكك الحديدية ، مع أسرته إلى فلسطين ، ومن هناك ، بعد وفاة زوجها ،
=/=

هناك كان أحد أفراد الجالية اللبنانية، التي عمل أبناؤها في صناعة السجائر، ولذلك عمل شمالي على الأقل حتى اندلاع الحرب العالمية الأولى في مصنع للتبغ. في وصف حياته كتب لاحقاً: "لقد عملت منذ نعومة أظفاري. وانضمت إلى الحركة النقابية عام ١٩١٦"^(١).

لقد قام المذكور بتشكيل نقابة عمالية لبنانية، لكن هذا لا يعني، مع ذلك، أن النقابة العمالية التي شكلها كانت قومية (عربية) أو طائفية (مارونية). وتمكنت نقابة فؤاد شمالي (الصغيرة العدد في البداية - كانت تتألف من حوالي اثني عشر عضواً)^(٢) بسرعة نسبية من نشر نفوذها إلى مراكز أخرى لإنتاج التبغ في جبل لبنان، وأصبحت أممية. وكان من بين اعضائها العديد من العمال الأرمن^(٣).

وضمن ممتلكات فرنسا في الشرق الأوسط، أصبح لبنان بمثابة الاستثناء - في سوريا في ذلك الوقت لم تكن هناك علامات جدية على بدء النشاط النقابي^(٤). كانت نقطة البداية لوجهات نظر فؤاد شمالي هي فكرة توحيد مجموعات متباينة من العمال لصالح تصدي أكثر فاعلية للظالمين، والتي حددها في عمله تحت عنوان "نقابات العمال"^(٥).

ذهبت والدته ف. شمالي إلى مصر، حيث تخرج ابنها فؤاد من المدرسة وبدأ العمل.

Couland J. Op cit p ,111.

(١) فؤاد شمالي. نقابات العمال، ص ٣.

(2) Couland J. Op cit p ,100.

(٣) ماديان.أ. اقتباس من المؤلفات ص. ٥١.

(٤) أول نقابات عمالية في سوريا - ظهرت نقابة عمال صناعة الحياكة - نقابة عمال المطابع على التوالي في

عام ١٩٢٥ و عام ١٩٢٨ / حنا.أ. المرجع السابق. ص ٣٣٠.

(٥) من الآن فصاعداً // شمالي ف. نقابات العمال. بيروت، ١٩٢٩، ص ٣-٣١.

وكتب شمالي في ذلك العمل : "لا يستطيع العامل ، وضع حدا للعبودية دون الاتحاد مع أشخاص مثله تنتهك حقوقهم أيضاً من قبل الظالمين. أن الاتحاد الذي يشكله العمال لا يمكن أن يحقق نتائج حقيقية إلا إذا تم تنظيمه على أساس المبادئ الصحيحة والثابتة". ووفقاً له ، كان الغرض من إنشاء النقابات العمالية ، هو حماية مصالح مختلف المجموعات المهنية من الشغيلة : "لا يستطيع العامل وحيداً حماية حقوقه". بدورها ، أصبحت النقابة "ركيزة اجتماعية واقتصادية مهمة للعمال ، وسلاحاً في أيديهم يتم استخدامه في النضال ضد استبداد واضطهاد الرأسماليين".

في الوقت نفسه ، عملت النقابة أيضاً "كمدرسة للعمال" ، حيث تلقوا في صفوفها تصورات عن "حقوقهم المغتصبة" والخبرة في "النضال الاقتصادي والاجتماعي والسياسي". لم يكن فؤاد شمالي مؤيداً لإنشاء نقابات عمالية قطاعية فقط ، بل دعا في سياق نشاطه النقابي أيضاً إلى تشكيل اتحاد عام يوحد النقابات العمالية القطاعية. وحسب اعتقاده تحدت الحاجة إلى إنشائها ، من خلال وحدة مضطهدي العمال في جميع أنحاء البلاد - "يمكن للرأسماليين المستبدين أن يضربوا مقاومة نقابة واحدة ويدمرونها ، لكنهم لا يستطيعون هزيمة نقابات عمالية قوية وموحدة".

لا بد من الاعتراف أن فؤاد شمالي تعلم في مصر على يد روزيتال وحصل هناك على تجربة وخبرة عقائدية جيدة. في واقع الأمر ، فإن السؤال التالي الذي طرحه حول العلاقة بين مجالات نشاط النقابات و "حزب العمال" تم حله من قبله بنفس الطريقة التي تحدث عنها النقابي المصري الرائد : "النقابات العمالية هي القوة السياسية التي تستمد فيها الأحزاب العمالية قوتها الأخلاقية ، وهي تخوض عملية النضال السياسي لصالح الطبقة العاملة". وأضاف لاحقاً : "لا يمكن لأحزاب الطبقة العاملة أن تنجح في نضالها السياسي والاجتماعي والاقتصادي دون الاعتماد على قوة العمال المنتظمين في نقابات".

في تلك السنوات ، كان هذا هو النشاط المعتاد لأولئك الثوريين القوميين الذين سعوا إلى إقامة اتصالات مع الكومنترن.

في هذا الصدد ، يصبح سرد قصة فؤاد شمالي ليس أكثر من توضيح للهوية الأساسية للوضع في لبنان من جهة والدول الأخرى في العالم العربي ومنطقة الشرق الأوسط من جهة ثانية. لقد كتب شمالي في أحد مؤلفاته : "بعد إنشاء النقابة ، وجهت جهودي نحو تشكيل حزب سياسي للطبقة العاملة"^(١).

ووصف هذا التوجه لنشاطه على النحو التالي : «تم تأسيس حزب الشعب اللبناني وانتخب له أميناً عاماً. وبسرعة نسبية ، أنشأ هذا الحزب فروعاً له في مناطق مختلفة من لبنان».

وتقريباً بالطريقة نفسها قام بوصف هذه العملية في عمله المذكور سابقاً - "نقابات العمال" : "في عام ١٩٢٤ ، قامت مجموعة من المفكرين من بين العمال والفلاحين بإنشاء حزب جديد ، أطلقوا عليه اسم حزب الشعب اللبناني". ووفقاً له ، كانت النقطة الرئيسية في برنامجه ، في القسم الذي ينص على أن "مهمة الحزب هي تنظيم العمال والفلاحين في نقابات ، وحماية مصالحهم المشتركة ومساعدتهم حتى يتمكنوا من تحقيق حقهم في الحياة"^(٢).

ومع ذلك ، إذا اتبعنا وصف عملية تشكيل حزب الشعب اللبناني الذي عرضه فؤاد شمالي ، فإنها لم تنته عند هذا الحد. في عمل آخر من أعماله - "أسس الحركة الشيوعية في سوريا ولبنان" - أفاد بأنه اتخذ خطوات ليختار من بين العمال الذين انضموا إلى التنظيم

(١) فيما بعد // شمالي ف. أساس الحركات الشيوعية ، ص ١٢ .

(٢) شمالي ف. نقابة الأمل ، ص ٤٥ .

الجديد أولئك الذين كانوا "الأكثر ثورية وتعلّما وحماسة لكي يتم تشكيل" الحزب الشيوعي "من بين صفوفهم"^(١).

وأشار شمالي إلى أنه في ٢ سبتمبر ١٩٢٤، تم عقد "مجلس تأسيسي" تحت قيادته، شارك فيه عشرة "عمال" يعيشون في بكفائي، وتم الإعلان عن إنشاء "حزب شيوعي". وخلال الاجتماع تم انتخابه سكرتيرا للحزب. وشكل مؤسسو الحزب العشرة "لجنته الإدارية التأسيسية"، والتي كان من المفترض أن تؤدي وظائف الهيئة القيادية للحزب إلى حين إنشاء فروع الحزب في مناطق أخرى من البلاد، وعقد مؤتمر الحزب وانتخاب أعضاء اللجنة المركزية للحزب.

وأشار فؤاد شمالي إلى أن أهم واجب لأعضاء الحزب الذي تم إنشاؤه حديثا، كان "فرض الرقابة على قيادة حزب الشعب اللبناني وقيادة الاتحاد العام لعمال التبغ". ومباشرة بعد إنشاء "الحزب الشيوعي" اتخذ فؤاد شمالي خطوات لإقامة اتصالات مع الشيوعيين في مصر وفلسطين، لكن تصرفاته في هذا الاتجاه لم تكن ناجحة.

كان هذا وضعاً مثيراً للاهتمام. النقابي اللبناني الرائد، وفي الواقع، الشيوعي الأول في هذا البلد (إذا أخذنا في الاعتبار ماضيه المصري)، الرجل الذي واصل في لبنان نفس النشاط الذي كان يعمل فيه في الإسكندرية، خلق بنية متعددة المراحل. في قاعدتها كانت النقابة العامة لعمال التبغ، التي أنشأها في بكفائي والتي وسعت نطاق نفوذها، كنقابة عامة لعمال التبغ والتي باتت من حيث الواقع منظمة نقابية وطنية، وفوقها يقف حزب "العمال" للشعب اللبناني، أخيراً على قمة هذا الهيكل وقف ما كان يسميه فؤاد شمالي بـ "الحزب الشيوعي".

(١) فؤاد شمالي. أسس الحركات الشيوعية، ص ١٢-١٣.

عند تحليل هذا الهيكل ، توصل الباحثون اللبنانيون عادة إلى استنتاج يفيد بأن حزب الشعب اللبناني كان مجرد شكل قانوني لوجود أول منظمة شيوعية في البلاد^(١). وكان ذلك صحيحا وبهذه الطريقة بالذات كانت اللجنة التنفيذية للأمية الشيوعية تقيم هذه المنظمة^(٢). وهذا ما قاله الشيوعيون الفلسطينيون ، المراسلون الرئيسيون لصحافة الكومنترن ، الذين كتبوا فيها عن مشاكل منطقة الشرق الأوسط.

ويكفي أن نشير في هذا الصدد إلى مثال واحد فقط. في عام ١٩٢٦ ، تم في "Corgesropbapses Interpatiales" نشر مقالة بقلم ف. أربوخ (أبوزيام) كتب فيها أن "حركة الطبقة العاملة تتقدم في مدن سوريا". وفضلاً عن ذلك ، أكد زعيم الشيوعيين الفلسطينيين : "على عكس الحركة العمالية في دول أوروبا وأمريكا ، كان للحركة العمالية السورية منذ لحظة تشكيلها قيادة جيدة وموثوقة. ... الحركة العمالية في سوريا ظهرت كحركة شيوعية"^(٣).

ومع ذلك ، لا يمكن تفسير تصرفات فؤاد شمالي فقط بالإشارة إلى الارتباط الوثيق (الذي لا يزال إشكالياً) بين الحركة العمالية والعقيدة الشيوعية. لقد كان زعيم الاتحاد العام لعمال التبغ وزعيم حزب الشعب اللبناني. في الوقت نفسه ، اعتبر فؤاد شمالي مع ذلك أنه من الضروري "فرض سيطرة" "الحزب الشيوعي" الذي أنشأه على هاتين المنظميتين.

هل كان يخشى أن يفقد نفوذه عليهما؟ يبدو أنه تعلم الكثير من ماضيه المصري ،

(١) انظر ، على سبيل المثال : دكروب م ، اقتباس من المؤلفات ، ص ٢٠١.

(2) Rapport du camarade Ichtyar au Secretariat d' Orient.

(3) Abouziyam (Syrie). Les forces de la revolution en Syrie// Correspondances Internationales.

عندما أُجبر وكثير من مؤيديه على ترك صفوف النقابات العمالية المحلية والحركة الشيوعية. أن زيادة عدد المشاركين في الحركة النقابية والانخراط في صفوفها من مناطق أخرى في لبنان من شأنه أن يثير حتما مسألة إمكانية الحفاظ على المناصب القيادية التي حققها شمالي بالفعل. وبتشكيله لما أسماه "الحزب الشيوعي" اللبناني، تمكن هذا النقابي من خلق مجموعة من الموالين له وغير قادرين على التذبذب إذا دعت الحاجة إلى حمايته من الأنصار الآخرين.

ومع ذلك، كان بالفعل على دراية جيدة بخطاب الشيوعيين. ولهذا السبب وحده كان عليه أن يطلق على عملائه صفة "العمال الأكثر ثورية وتعلّما وحماسة". وأظهرت التطورات الأخرى اللاحقة، أن عملاء الكومترن الفلسطينيين، العاملين في سوريا ولبنان، أجروا اتصالات مع فؤاد شمالي، مما ساعد على تحويل "حزبه الشيوعي" إلى أحد العناصر الرئيسية للحركة الشيوعية السورية اللبنانية التي أنشأوها. لكن بناء هذه الحركة نشأ أيضاً من عناصر أخرى، بالكاد مرتبطة بفؤاد شمالي، ولكنها أصبحت حقيقة بفضل المشاعر الفكرية للمثقفين اللبنانيين (الذين ينتمون إلى الطوائف المسيحية). ولكن مع ذلك، تم بناء هذا المبنى فقط لأنه كان هناك تبلور للشروط والمقدمات اللازمة داخل هذه الطبقة الاجتماعية، مما خلق إمكانية لأنشطة عملاء الكومترن الفلسطينيين في سوريا ولبنان.

في ٢٨ أيلول ١٩٢٢ صدر العدد الأول من جريدة "الصحفي التائه" التي كان يملكها إسكندر الرياشي في زحلة - البلدة الصغيرة في جبل لبنان. وأعلنت الصحيفة نفسها "بمثابة الناطق باسم المحرومين والعمال". وتم التعبير عن شعار وعقيدة صاحبها في مقال رئيسي في نفس العدد: "الصحيفة للجميع". وهي تعتبر القوانين الدينية كمبادئ قريبة من الاشتراكية. ولهذا تصبح الصحيفة صديقة العامل والمزارع والضعيف. وستقوم الصحيفة بالدفاع عن

مصالحهم في المقام الأول. تقر الصحيفة بأن مبادئ الاشتراكية المعتدلة واردة في الكتب النبيلة لعيسى ومحمد. وتحارب الصحيفة الشركات الاحتكارية، وترى أنها تجلب الموت للفقراء والعاملين. وتعتقد الصحيفة أن الاحتكارات تستغل عمالها مثل العبيد الحقيقيين". ولفتت الصحيفة إلى أنها "تعترف بالأخوة بين الطبقات كحق صريح (الحق المين) وتناضل من أجلها. وهي تحترم الفقراء والمضطهدين أكثر من الأغنياء والسعداء"^(١).

وكان صدور هذه الصحيفة الجديدة حدثا حقيقيا فعلا. ناشرها، ربما لأول مرة منذ الحرب، قال الحقيقة للأشخاص الذين كانت ذكرياتهم ما زالت حية عن الوضع المأساوي للماضي العسكري الأخير، عندما زرع حصار الجيش التركي لجبل لبنان الموت بين سكانه المسيحيين^(٢)، واستفاد بلا خجل من حزنهم ومعاناتهم حفنة من المضارين - إخوانهم في الدين.

لقد تلخصت هذه الحقيقة في أنها، وإن لم يكن دائما بشكل مباشر، أشارت إلى أن وحدة المسيحيين اللبنانيين لم تكن أكثر من واحدة من أساطير وأوهام عديدة، وأن

(١) دكروب م، اقتباس من المؤلفات ص. ٧٨-٧٩.

(٢) تسبب احتلال القوات التركية لأراضي جبل لبنان خلال الحرب العالمية الأولى وعزلها الفعلي عن العالم الخارجي بحجة منع الاتصالات بين سكانها المسيحيين والمعارضين الأوروبيين للإمبراطورية العثمانية، في إلحاق أضرار اقتصادية كبيرة بهذه المنطقة. وصلت البطالة إلى نسب غير مسبوقة، كان هناك نقص مزمن في الغذاء، وأدى الجوع والمرض إلى وفاة ما يقرب من ثلث سكان جبل لبنان، بطبيعة الحال، في المقام الأول من الطبقات منخفضة الدخل. وخلال سنوات الحرب، ازدهرت المضاربات والاستغلال بشكل رهيب الرهيبة هناك، عندما جمع النبلاء التقليديون ثروات كبيرة، مما سمح لممثلهم، بعد إنشاء إدارة الانتداب الفرنسي، أن يصبحوا وسطاء بين السلطات الجديدة و"سوريا الداخلية" // انظر حول هذا:

Coulard J. Op cit p ,73-75.

الانقسام حل في المجتمع المسيحي في كيان الدولة الناشئة حديثا ، وأن أنصار السلطات الجديدة هم بالذات الذين رفضوا على سنوات المعاناة العسكرية مساعدة إخوانهم الذين يعانون. بعبارة أخرى ، **يمكن القول إن** الأغنياء لعبوا كذلك دورهم الكبير في ظهور العمال "المنبوذين" بعد انتهاء الحرب والذي جاء كنتيجة للحصار التركي. وبهذا الشكل بالذات بات رجال الدين الموارنة وقادة المجتمع العلمانيون - القوة المهيمنة في دولة لبنان الكبير. وشكك الرياشي ، في شرعية سلطتهم لأنهم (على أي حال ، نظر القراء إلى مقالته بهذه الطريقة بالذات) داسوا على الأعراف الإنجيلية العظيمة للتربية والأخلاق. ونوه بأنه وردت أعراف مماثلة في كتاب الإسلام المقدس - القرآن.

إذن ، ربما يكون الضعفاء الموجودين بالتساوي بين المسيحيين والمسلمين والذين يعيشون في نفس البلد ، أقرب إلى بعضهم البعض من أولئك الذين يعتبرونهم اليوم زعمائهم العلمانيين والدينيين؟

لكن كان هناك جانب آخر للمقالة المنشورة في جريدة "الصحفي التائه". لقد تحدث صاحب المقالة عن الاحتكارات التي تؤدي إلى الفقر وانعدام الحقوق والإذلال. ومن المعروف أن شركة احتكارية كبيرة وحيدة كانت تعمل في لبنان وسوريا في تلك السنوات. لقد تركزت في كلا البلدين عمليات إنتاج وتسويق أصناف عالية الجودة من التبغ مملوكة لرأس المال الفرنسي "ريجيس دي تاباكس" التي جلب نشاطها الكوارث للمزارعين المحليين. وقامت سلطات الانتداب الفرنسي في عام ١٩١٩ بتأسيس "بنك سوريا ولبنان" الذي احتكر موضوع اصدار الليرة السورية ، وملاً كلا البلدين بالنقود الورقية العديمة القيمة ، مع مصادرة العملات الذهبية المتداولة هناك قبل الحرب. لقد جاء الفقر إلى لبنان نتيجة تصرفات أولئك الذين ظهروا أمام سكانه المسيحيين على أنهم "المنقذ المنتظر" من "ظلم المغتصبين المسلمين". هذه المرة كان الأمر يتعلق بنظام الانتداب الفرنسي. لكنه لم يكن

قادرا على التصرف والعمل لولا التحالف الوثيق بين الأجانب وبين الذين بتكليف منهم جلسوا في "المجالس الإدارية" وفي الهيئات الاستشارية التابعة للإدارة الفرنسية في لبنان الكبير وفي الدويلات الطائفية السورية.

وتحولت جريدة "الصحفي الناثه" إلى مركز جذب بالنسبة للذين اهتموا بمسائل العدالة الاجتماعية والذين اعتقدوا أن كلا البلدين يتعرضان للذل بسبب وجود الأجانب. كان عددهم قليلا لكنهم كتبوا إلى الصحيفة التي كانت تنشر رسائلهم بانتظام. وأحد مراسليها الدائمين كان يوسف إبراهيم يزبك، الذي كتب عن نفسه ذات مرة وقال: "أنا اشتراكي حقيقي صميم. لقد ولدت ... في عائلة نبيلة، حيث ساد الرخاء. لكن من هذه العائلة، أخذت معي فقط تربيتها الجيدة، وتركت لأحبائي ممتلكاتهم، ومهنتهم وأفكارهم الاجتماعية والدينية. تركت عائلتي وبدأت أكسب رزقي، باتباع مبادئ يفترض أن تكون إنسانية، على الرغم من أنها إلهية في الأصل. نظرت إلى العالم بعين محايدة ورأيت أن العالم مكان يتقاتل فيه الأغنياء والفقراء، الأقوياء والضعفاء، وحيث يهزم الأول دائما الثاني. لكن بين الناس هناك دائما من يتبع المشاعر النبيلة والدوافع والأخلاق الرفيعة. وبدأت أيضاً في اتباعها، دون أن أنتبه لضربات القدر ومصائب الحياة. أرجو ألا يتهمني القارئ بالدفاع عن الاشتراكية لأنني كنت متأثراً ببيئتي أو فقري أو معاناتي. أوه لا! أنا أدافع عن هذا المبدأ الأخلاقي لأن ضميري طاهر، وقلبي حر، لأنني أعتبر من الخطيئة أن أبغض الفقير والمحتاج. لقد قلت بالفعل إنني اشتراكي حقيقي. نعم، هذا بالضبط ما أنا عليه الآن! أنا متمرد ومتطرف لكنني متمرد واتصدي للعنف وضد انعدام القانون وضد المعتقدات الواهية. وقلبي، الذي أشعر بنبضاته في صدري، سيشعر دائما بالتعاطف والرحمة والحنان، وسيظل يرتجف دائما من أجل قضية العدالة ويخدم هذه القضية"^(١).

(١) يزبك يو. الاشتراكية في لبنان // الصحفي الناثه، ٥ مايو ١٩٢٣. المرجع السابق. بقلم // دكروب م. =/=

كان هذا هو موقف الرجل الذي كان بعيدا جدا عن الشيوعية. تم نشر هذه الرسالة في عام ١٩٢٣ وكان يوسف يزبك آنذاك في الثانية والعشرين من عمره. لكنه شهد بالفعل الأحداث التي وقعت في وطنه. وظهر أمامه السؤال عن كيفية العمل لاحقا؟ لقد كتب في مذكراته: "عملت جريدة الصحفي التائه كصحيفة ذات اتجاه معين، وكانت الصوت الأول في لبنان الذي أثار في أذهان الشباب الاهتمام بالاتجاه الجديد في السياسة والحياة الاجتماعية. لقد أصبح الحالمون الشباب من أنصار الصحفي التائه".

بعد ذلك أفاد يزبك بأنه رد على مقال إبراهيم الريشي برسالة موقعة "الشبح الباكي". ووفقا له تسببت هذه الرسالة "غير المهمة إيديولوجيا" في "ظهور الحركة بين بعض الشباب. لقد كانت اشتراكية علانية وأعلنت التطلعات الاشتراكية لمؤلفها"^(١). لقد استخدم يزبك في مذكراته كلمة "الشباب" مرات كثيرة، لذلك لا بد من التوقف عن هذه النقطة. الحديث دار ليس فقط عن الشباب ولم يكن ذلك المقصود فقط، على الرغم من أن يزبك وكافة الذين تراسلوا مع "الصحفي التائه" كانوا فعلا من الشباب. ربما كانت كلمة "شباب" تعني في العربية أكثر من ذلك - مجموعة من الأشخاص تجمعهم رموز مشتركة، يرتدون الزي نفسه، ولديهم قاداتهم ويحمون مصالح المجتمعات المحلية التي قدموا من صفوفها. من حيث الواقع كلمة "الشباب" أو "الفتيان" المشابهة لها، تعتبر بمثابة الامتداد "لسوريا التاريخية" التي ابعثت من جديد في الظروف الحديثة"^(٢).

اقتباس من المؤلفات، ص ٧١-٧٢.

(١) يزبك يو. حكايات عن الأول من أيار في العالم وفي لبنان. مذكرات وتاريخ ونصوص. بيروت، ١٩٧٤، ص ٥٥-٥٦.

(٢) يعرب المؤلف عن شكره العميق للباحثة الروسية المعروفة عن المشاكل السورية اللبنانية، أي إم سميليانسكايا، على ملاحظتها في هذا الصدد.

لكن يزيك أطلق على نفسه اسم "متمرد" و "متطرف" وذكر أنه ترك حياته السابقة ووجه التحدي ضدها. لقد قام يزيك وأنصاره الجدد بالتحول إلى "منبوذين" عن سابق تصميم وبشكل متعمد. ولا شك في أن إدراكهم لهذه الصفة الجديدة من سماتهم جعلتهم أقرب إلى ضحايا الاحتكارات وضحايا قادة المجتمع التقليديين، الذين طردوا بالقوة من نفس الحياة المعتدلة والمكفولة (كل شيء يعتمد على ما يفهمه الشخص في كلمة حياة مكفولة) أي من العمال. هم - "الشباب" المتعلم - يمكن أن يصبحوا مساعدين وقادة لهؤلاء العمال، لأن هؤلاء "الشباب" عرفوا السبيل لاستعادة العدالة التي تم اغتصابها ذات مرة.

في رسالته إلى هيئة تحرير "الصحفي التائه"^(١)، قال يزيك: "هل تريدون التبشير بالأخوة بين الطبقات والنضال من أجلها مع احترام الضعيف والفقير؟، إذن أنتم لا تخافون من ثروة ومكر من يزعمون أنهم قادة؟ لكن هل القيل والقال هذا مهم؟ الشيء الرئيسي والمهم هو أن هذه البذرة السليمة ستنبث إذا أحاطها المزارعون برعاية جديرة". وتابع "الشبح الباكي" وكتب تذييلاً: "من الكوخ الأحمر في مدينة الأثرياء"^(٢) في ٧ أكتوبر، السنة السادسة للأمية الثالثة". أصبح تأسيس الكومنترن، مثل الثورة الفرنسية الكبرى في وقتها، تاريخ لبداية تسلسل زمني جديد. وفي يوم ١٤ أكتوبر عام ١٩٢٢ تم نشر هذه الرسالة في جريدة "الصحفي التائه".

وفي العدد التالي من الصحيفة، الذي صدر في ١٨ أكتوبر ١٩٢٢، تم نشر رسالة يزيك الثانية. وكرسها لذكريات المجاعة التي سادت لبنان خلال سنوات الحرب، وفيها تم

(١) المرجع نفسه، ص ٥٤.

(٢) المقصود هنا مدينة بيروت، حيث كان يزيك يعمل في دائرة الجمارك بالميناء.

تصوير صورة أم فقيرة وطفلها يموتان بينما كان الأغنياء يستمتعون بالحياة. وعند مخاطبتها ليسوع المسيح، صاحت المرأة: "يا رب، لماذا لا تساويهم على الأرض، تماماً كما تساوي حقوقهم في السماء؟ أين المساواة أيتها السماء؟". لقد استخدم يربك هذه الاستعارة الفنية لمعاناة الأم مع طفل بين ذراعيها، من أجل دعوة "رفيقه وأخيه" إلى نبذ "الجبن و... واللامبالاة" و"ترتيب محاكمة الذين ملأوا الأرض بجثث البشر من أمثالهم والذين يواصلون الفرح والمرح مع تحضير الآخرين لمأساة جديدة"^(١).

وطبعا لم تبق رسالة يوسف يربك بدون جواب. لقد تلقت الصحيفة العديد من الرسائل من شباب يافعين مثله، الذين عبروا فيها عن أفكار تتفق مع كلماته. وهم كذلك لم يكونوا شيوعيين قط تماماً كما يربك، واقتبسوا العبارات من الإنجيل ومن كتابات ج. روسو، واستشهدوا بمثل الثورة الفرنسية العظمى. لقد استاءوا من الانتهاك الصارخ للعدالة الاجتماعية، التي أصبحت مرادفة للتطلعات الوطنية. ومن أجل استعادة هذه العدالة، أصر المثقفون الشباب على إنشاء "حزب عمالي" يسترشد بـ "الآراء الاشتراكية"^(٢).

وفي ١٢ و ١٤ ديسمبر عام ١٩٢٢ نشر يربك على صفحات "الصحفي التائه" مقالته تحت عنوان "دروس في الاشتراكية". وجاء فيها: "أيها الرفيق، أخطبك بهذه الكلمات اللطيفة الشبيهة بالمياه الصافية في جدول نقي. وهي ليست ثورة ولا وليدة الكفر. وأب هذه الكلمات المساواة، وأمها- الأخوة. ستكون هذه الكلمات دروساً عن الحق في الأجور وحرية الحياة. يجب أن يفهمها كل شخص مضطهد. وعليها يجب أن يقسم. يجب أن يدعمها كل عاقل يسيل دم آدم وحواء في عروقه". لاحقاً أكد يربك بإصرار على فكرة أن

(١) دكروب م، المرجع السابق. ص ٨٧.

(٢) نصوص هذه الرسائل في: المرجع السابق، ص ٩٢-٩٤.

"الاشتراكية هي أعلى مثال للسلام والأخوة".

طبعاً لم يصّر يزبك على دعوة العمال إلى "الثورة"، بل على العكس من ذلك، كان يعتقد أن مهمة الاشتراكيين هي تعزيز ديمقراطية الحياة العامة، ومحاربة الأمية والجهل، والترويج السلمي للأفكار الاشتراكية، ومن حيث المبدأ رفض "الفوضى والتمردات التي يقودها أولئك الذين ينتمون إلى التيارات الثورية".

وشدد على أنه ليس من خلال "قوة السيف"، بل على أساس تناغم العلاقات بين الناس، سيكون من الممكن تحقيق الهدف الأسمى للاشتراكية - "الكمال البشري". وشدد يزبك في "دروس في الاشتراكية" على أن الاشتراكية تعتبر "مفهوماً عبقرياً" يهدف إلى "نشر الهدوء والسلام من خلال توزيع الدخل حسب نصيب العمل، وزرع المساواة دون الإضرار بالفرد وعدم التعدي على حقوقه". لكن الاشتراكية هي مجتمع "مناهض بشكل مباشر للعالم يسود فيه قانون الاحتكار وسلطة الرأسماليين".

لكن الطرح الدعائي ليوسف يزبك يبدو متواضعاً إذا قمنا بتقييمه من وجهة نظر البلشفية، التي أعلن نفسه كمؤيد لها، رغم إشارته بشكل غير صحيح إلى تاريخ تأسيس الأممية الثالثة. وتبدو هذه البداية ليوسف يزبك متواضعة كذلك، في سياق البلدان الأخرى في المنطقة العربية.

في لبنان، بعد الحرب العالمية الأولى، بالكاد بدأ الناس يتحدثون عما كان يعتبر بالنسبة لمصر مرحلة من التطور الفكري مرت منذ فترة طويلة. ومع ذلك كان يزبك لا يزال بعيداً جداً عن استكمال تطوره الروحي. في مايو ١٩٢٣، قام يوسف يزبك بنشر دراسته الجديدة - "الاشتراكية في لبنان"^(١) واستحق محتواها القراءة المتأنية للغاية.

(١) هنا وأدناه، مرجع سابق. بقلم // دكروب م. ص ١٠٧-١١٥.

بالنسبة ليوستف يزبك ، كانت الاشتراكية "مستوى أعلى من التطور الاجتماعي" ، وأصبحت الحاجة إلى تحقيقها ، حادة وضرورية بشكل خاص بعد نهاية الحرب العالمية المدمرة. وكان يزبك يعتقد أن الاشتراكية يجب أن "تحل محل المجتمع الرأسمالي" ، وأن تؤدي إلى "المساواة في حصص نتائج العمل التي يتلقاها الأشخاص المشاركون في الإنتاج ، اعتمادا على درجة مساهمة ومشاركة كل منهم في العمل والإنتاج".

ويرى يزبك أن مشاركة رأس المال في العملية الإنتاجية لا يشكل بتاتا قيمة ثابتة كما هو حال الإنسان أو الطبيعة. بالنسبة له لم يكن المال يدخل ضمن مجموعة العوامل الإنتاجية ، بل هو عبارة عن ناتج إنتاجي وليس أكثر". وقاده منطق تفكيره ، بالتالي ، إلى استنتاج مفاده أن أي محاولة "من جانب الناتج لحرمان سبب وجوده الجذري ، الشخص العامل ، نتائج عمله" ، تفقد معناها. ولهذا السبب ، فإن محاولات تبرير استغلال العمال المهيمنين في المجتمع وإرساء أسس اقتصادية معقولة فقدت معناها. ومعها ، فقد كل معناه كذلك "احتكار العالم من قبل مجموعة صغيرة من الناس الذين يكتفون سياسات الحكومات والدول مع مصالحهم الخاصة".

وهكذا ظهر استبدال المجتمع الرأسمالي بمجتمع اشتراكي ، كشكل من أشكال استعادة العدالة الطبيعية ، وكرفض للأفكار الخاطئة حول معنى عملية الإنتاج والعلاقات الاجتماعية السياسية القائمة عليها^(١).

الاشتراكية ليست "فوضى" وليست "عنفا" ضد "أصحاب المال" ، ولكنها خطوة نحو تدمير "الاحتكار الزائف للمال والممتلكات غير المنقولة" ، وهي خطوة نحو تحويل الجميع "إلى أغنياء ، لأن الثروة هي نتيجة الطبيعة التي هي بدورها أم الجميع". في إطار نضالهم ،

(١) هنا وأدناه // المصدر السابق ، ص ١٠٥.

يسعى الاشتراكيون أيضاً إلى تنفيذ إجراءات مرحلية تجعل العالم أقرب إلى الاشتراكية. وتشمل هذه الإجراءات "حصول العمال على الأجور التي يستحقونها بحيث يرفعون رؤوسهم دائماً، وكذلك إدخال ممثلين عن العمال إلى الحكومة، لكي يقوموا في سياق نشاطهم التشريعي، بالدفاع عن حقوق العمال ودعم مطالبهم".

ودار الحديث كذلك عن تطوير نظام التعليم المجاني الشامل، و"تصفية جميع الشركات الاحتكارية"، وتسليم المواقع والمنشآت الاقتصادية المفيدة اجتماعياً إلى الحكومة لكي تتمكن من إنفاق الدخل الذي تحصل عله من هناك على توفير "الخير للأمة التي تشكل الحكومة".

بعد مرور سنوات طويلة على ما قاله س. موسى في مصر، باشر يزبك بالقول إن مؤسسات القطاع العام تعتبر "اشتراكية". وكتب هذا الاشتراكي اللبناني: "في زحلة، من المخطط إنشاء قطاعات اقتصادية مفيدة اجتماعياً، بما في ذلك شركة لتزويد المدينة بالكهرباء، وكذلك ... تمديدات شبكة هاتفية وشركة لتزويد المدينة بالمياه، وشركة ترام. ... لماذا لا تكون هذه الشركات مملوكة بشكل مشترك لكل أبناء زحلة؟ أليس هم من يصنعونها ومن يزودونها بالعمال لتشيدوها؟ هل من الممكن أن نتحمل مثل هذا الوضع عندما يشارك جميع العمال، بغض النظر عن تخصصهم، في مد خطوط الترام وفي بناء الجسور ومحطات السكك الحديدية، وكل هذا يتم استغلاله من قبل عشرة أو عشرين شخصاً لم يستثمروا في إنشائها حتى جزء من الألف مما قدمه العمال من جهد وعمل؟".

الحديث هنا جرى عن "الاشتراكية" وعن "التعاون". في بداية عام ١٩٢٣، أصبحت زحلة المركز الذي بُذلت فيه محاولات لإنشاء نقابات عمالية غير مرتبطة بحزب العمال العام في لبنان الكبير الذي تركز في بيروت.

وفي مارس من نفس العام نشرت "الصحفي التائه" خبر تشكيل نقابة لعمال هذه الجريدة برئاسة الريشي.

في ٢ مايو ١٩٢٣ ، أبلغ إبراهيم الريشي قراء جريدته أنه عشية الأول من مايو ، احتفل موظفوها بـ "عيد العمال العالمي" ، وأعرب عن أمله في أن يصبح هذا اليوم "منارة للعمال السوريين واللبنانيين الداخلين في حياة جديدة والساعين لأخذ مكانهم اللائق في المجتمع ، المكان الذي كسبوه من عملهم".

في مارس عام ١٩٢٣ عاد إلى زحلة ابن هذه المدينة رشيد سويد ، قادما من أمريكا ، بمساعدة مالك ورئيس تحرير صحيفة محلية أخرى ، وهي "زحلة الفتاة" إبراهيم الراعي. وحاول سويد بعد عودته إنشاء النقابة العامة لعمال زحلة. ولدى ترويجها لهذه الفكرة كتبت الصحيفة : " يجب على العمال الانضمام إلى هذه النقابة لكي يدافعوا عن مصالحهم كما يفعل عمال العالم ، الذين باتوا العمود الفقري للحياة"^(١).

وحددت النقابة العامة لعمال زحلة ولنفسها مهمة تقديم المساعدة الطبية للعاملين ، وتزويدهم بالأدوية والخدمات الطبية ، وكذلك مساعدتهم بجهود المحامين في حالة الخلافات في مجال العمل. لكن الحديث دار عن أمور أكبر من ذلك. لقد أشار سويد في حديثه مع جريدة "الصحفي التائه" إلى أن هدفه هو تكوين "حزب عمالي". وكانت وجهة النظر هذه تحظى بدعم يوسف يزبك الذي قال إنه على هذا الأساس "ستنشأ قوة في الدولة قادرة على حماية حقوق العامل الفقير الضعيف"^(٢). بعد ذلك بوقت طويل ، أشار هذا

(١) هنا ولاحقا : Couland J. Op cit p 92-93

(٢) دكروب م. المرجع السابق ، ص ١١٦ .

الاشتراكي اللبناني إلى أن شاركته في الأنشطة النقابية ووجهت بشكل متزايد "أحلامه نحو المدينة الحمراء، نحو بركان... الثورة العالمية، نحو موسكو"^(١). ولكن مع ذلك، كان سير الأحداث بعيدا عن التطور بشكل تصاعدي وبخط متوجه نحو الصراع الطبقي. كان الاتحاد العام للعمال، الذي تم إنشاؤه في زحلة، في الأساس جمعية وطنية نشأت في سياق عربي محدد بوضوح.

في ١٠ يونيو ١٩٢٣، أقيمت في المدينة أمسية أدبية برعاية "زحلة الفتاة" كان دخلها مخصص لتمويل أنشطة النقابة العامة للعمال. وحضرها الكتاب المحليون والمدعوون من الشعراء والصحفيين ومن بينهم الكاتب والفيلسوف اللبناني الكبير أمين الريحاني والشاعر العراقي البارز معروف الرصافي.

وقدمت الفرقة المسرحية المحلية للجمهور مسرحية عن القائد العربي صلاح الدين الأيوبي الذي اشتهر في معاركه ضد الصليبيين. تبع ذلك خطابات الضيوف الذين تحدثوا عن الروح العربية، وعن الثقافة العربية ومساهمة العرب في الحضارة العالمية، وعن الأخوة بين العرب من الديانتين المسيحية والإسلامية، وعن تنشئة شخصية عربية حرة التفكير^(٢). كانت هذه أمسية إظهار روح الوحدة الوطنية وليس التطلعات الطبقيّة. وبفضلها تم بعث إحدى مهام عصر "النهضة العربية" - تجاوز الخلافات الطائفية، وتأكيد الانتماء القومي العربي للمسيحيين اللبنانيين. وهناك نقطة مهمة يجب ذكرها فيما يتعلق بالحركة العمالية اللبنانية، ثم الحركة الشيوعية لاحقا. يجب ذكر أن زحلة كانت مركزا لجماعات كبيرة من الروم الكاثوليك والأرثوذكس. في فترة ما بعد الحرب، كان

(١) يزبك يو، المرجع السابق. ص ٥٩.

(2) Couland J. Op cit p , 93-96.

يوجد في صفوفهم الكثير من دعاة لفكرة وحدة "سوريا التاريخية". بعد ذلك أصبح الاتحاد العام لعمال زحلة بمثابة الخصم لحزب العمل العام في بيروت في لبنان الكبير (الذي يعتبر نفسه لبنانيا ومارونيا)، والأول اعتبر نفسه ليس كمنظمة طبقية، بل أولاً وقبل كل شيء، عربياً وسورياً. لكن الاتحاد العام لعمال زحلة لم يكن ولا يمكن أن يكون حزباً سياسياً، ورغم سعيه الحثيث للخروج خارج حدود مدينة زحلة وتشكيل نقابة وطنية عامة، إلا أنه وكما خصمه البيروتية، بقي يخصص منطقة واحدة فقط. وأعاد ممثلو المهن المختلفة إحياء تقليد المساعدة المتبادلة الذي يعود إلى قرون داخل حدود مجموعة دينية معينة، أو مدينة أو حي أو حرفة معينة، خاصة وأن مفهوم "العامل" تم تفسيره من قبل منظمي هذه النقابة بشكل عريض. لقد دار الحديث ليس فقط عن العمال الأجورين، بل وعن الحرفيين، وعن "العاملين" بشكل عام، الذين يعملون في كل من العمل اليدوي والعقلي. وهنا مرة أخرى تم محو الخط الفاصل بين النقابة العامة لعمال زحلة وحزب العمل العام في لبنان الكبير. واتسمت بالأهمية فقط التطلعات والمسااعي الذهنية لمؤسسي هاتين النقابتين وكذلك التطور الذي أصاب هذه المسااعي.

لقد سعى يزبك (وعلى ما يبدو، إلى حد كبير بسبب انتمائه إلى طائفة الروم الكاثوليك) إلى تنفيذ البدايات التي انطلقت في مدينة زحلة. لكنه يقول بعد مرور سنوات عديدة أن فؤاد شمالي أصبح بالنسبة له مثلاً على "النقابية العمالية والمقاتل الماركسي"^(١)، وأنه سيذهب إلى معسكر أنصاره. هل تم تمازج النزعات السورية والمارونية بين المؤيدين (وإن كانت مختلفة من حيث التصور للعالم ومستوى النضج الطبقي) لموسكو البلشفية، وبالتالي التغلب على الاحتكاك بين الطوائف والمواقف المنحازة؟ لكن هذه الاحتكاكات

(١) يزبك يو. اقتباس من المرجع السابق، ص ٦٥.

في السياق الجديد ما بعد الحرب كان لها أيضاً استمرار سياسي، تمثل في حقيقة أن كل طرف قدم نفسه بطريقة مختلفة على الخريطة السياسية للشرق الأوسط. ولكن رغم ذلك سادت في المحصلة الاعتبارات البراغماتية التي أجبرت يوسف يزبك وفؤاد شمال للبحث عن تحالف. لقد دل محتوى منشورات الأمانة الشيوعية في منتصف النصف الثاني من العشرينات على أن اللجنة التنفيذية للأمانة الشيوعية (التي لم تهتم بتاتا بالانتماء الطائفي لأنصارها المستقبلين)، واصلت رسم خط الفصل، حتى بعد ظهور الحزب الشيوعي السوري، بين المجموعة التي قامت بتكوينه في الأصل أي مجموعة فؤاد شمالي، والأنصار المقربين من يوسف يزبك.

بالنسبة للمجموعة الأولى (ف. شمالي) قالت اللجنة التنفيذية للأمانة الشيوعية أنها "مجموعة من العمال الثوريين" التي تم نتيجة نشاطاتها تشكيل "حزب الشعب اللبناني"، الذي حدد مهمته الرئيسية في إنشاء نقابات عمالية وعمل "بشكل رئيسي بين عمال التبغ". ووفقاً للجنة التنفيذية للأمانة الشيوعية سعى هذا الحزب إلى "تشويه سمعة وإحراق الهزيمة العقائدية بحزب العمل العام في لبنان الكبير"^(١).

في المقابل، اعتبر منظرو الكومنترن أن يوسف يزبك، وكذلك شركاؤه من ذوي التفكير الاشتراكي، ليسوا أكثر من جزء من مجموعة أوسع من الثوار الوطنيين - "من المفكرين السوريين" الذين كان يقلقهم "موقف اللامبالاة أو العدائي من جانب الرأي العام الأوروبي تجاه القضية السورية".

وهذا الظرف على وجه التحديد هو الذي سمح للجنة التنفيذية للأمانة الشيوعية بأن

(١) الأمانة الشيوعية قبل المؤتمر العالمي السادس. مراجعة لأنشطة اللجنة التنفيذية للأمانة الشيوعية وأقسام الكومنترن بين المؤتمرات الخامس والسادس. 1928، M.-L، S. 340.

تأمل في أن تكون "بذور الأفكار الشيوعية" التي "زرعت في سوريا، وخاصة في أوساط المثقفين، الذين تلقوا تعليمهم في فرنسا واتصلوا بالحزب الشيوعي هناك" قد نمت وضربت جذورها^(١). طبعاً كان هناك اختلاف واضح بين فؤاد شمالي والاشتراكيين اللبنانيين من جهة، والذين ينتمون إلى دائرة الرئيسي ويزبك. كانت تفصل بينهم حدود من الانتماء الطائفي. وأجبرهم هذا الظرف على النظر إلى الدولة اللبنانية ومشاكل العلاقات بينها وبين جارتها سوريا من نواح عديدة مختلفة. وكانت تفصلهما كذلك درجة نضج النظرة "الطبقيّة" للعالم وتجربة العمل النقابي، مما أدى إلى ظهور خلافات اتضح فيما بعد أنه لا يمكن التغلب عليها من جانب الطرفين. لقد أنشأ فؤاد شمالي نقابته الخاصة ولم يسع إلى الانضمام إلى أولئك الذين عملوا في زحلة.

وكما كان الحال في مصر، دعا شمالي هنا في لبنان أيضاً إلى فكرة منع المثقفين بشكل قاطع من العمل في الوسط العمالي، فما بالك بإنشاء منظمات مهنية للعمال بمساعدتهم. والدليل على ذلك كان هناك الكثير من المقاطع في عمله "نقابات العمال"، ومن بينها المقاطع التالية التي ربما كانت الأكثر لفتاً للانتباه.

قال شمالي: "عندما أكتب وأعمل من أجل إنشاء نقابات وأحزاب عمالية، لا أعترم على الإطلاق أن أصبح شبيهاً بالعديد من المحتالين والمدعين من بين المحامين والصحفيين والأطباء والأثرياء عموماً الذين يتدخلون في شؤوننا، فقط لكي يستخدموا قوى الحزب والنقابات لصالحهم ولأربهم الجشعة". ويرى شمالي أن ممارسة النشاط في الوسط العمالي يجب أن يكون حصراً على الثوريين المشابهين له الذي "تلهب في صدورهم كما في

(١) Ibis. الأحزاب السياسية في سوريا // الشيوعية الدولية، ١٩٢٥، عدد ٢، ص ١٦٩.

صدره، نيران الثورة ضد الاستغلال والقهر"^(١).

بالطبع جرى الحديث ليس فقط عن حزب العمل العام في لبنان الكبير. لقد طرح شمالي السؤال بشكل أكثر حدة وصرامة: "أنه خطأ جدي جسيم ... إنشاء نقابة تتألف من العمال وأرباب العمل"، وشدد قبل كل شيء، على أن مثل هذه المنظمات "لا تستطيع حماية حقوق العمال، ولكن على العكس من ذلك، فإن الرأسماليين ... يستخدمون نفوذهم في النقابات لتضليل العمال "من أجل" إبقاء العمال معدمين بدون حقوق".

ولكن بهذا الشكل كذلك كانت النقابة التي أنشأها الريشي، وكذلك النقابة العامة لعمال زحلة. ولم تتمكن الأولى ولا الثانية من تلبية المطالب التي قدمها ف. شمالي لتكوين النقابات العمالية بأي شكل من الأشكال. كان يعتقد أن النقابات العمالية لا ينبغي أن تنشأ على أساس طائفي أو إقليمي. ووفقاً له كان أهم مبدأ في تكوينها هو توحيد ممثلي مهنة واحدة فقط في صفوف كل نقابة. وكان يجب أن تغطي أنشطة النقابة القطاعية جميع مناطق البلاد التي توجد فيها مؤسسات وشركات تعمل في نفس المجال وذلك بغض النظر عن الانتماء القومي أو الديني للعمال العاملين فيها، والذين وفق مفهوم شمالي يجب أن يمارسوا العمل البدني فقط^(٢). لكن في زحلة كانوا يعيدون عن مراعاة هذه المبادئ. إلا أن الأمر الأساسي كان يكمن في أمر آخر. فالطابع فوق الإقليمي وفوق الطائفي في النقابات العمالية و "الحزب العمالي" الذي شكلها شمالي لا يعني بأي حال رفضه لفكرة وممارسة كل ما هو لبناني الذي يكمن في أساسه التمسك بالمارونية. لقد تصرف فقط في اتجاه تقويتها، عندما كان من المفترض أن يشارك كل اللبنانيين في عملية إقامة الدولة الوطنية.

(١) شمالي ف. نقابة العمال، ص ٣-٤.

(٢) المرجع نفسه، ص ١٢.

وبهذه الطريقة فقط يمكن التغلب على دونية الدولة المارونية الحقيقية للبنان الكبير، دولة دينية وقائمة بفضل التحالف مع القوة الخارجية - الانتداب الفرنسي. في لحظة إنشاء أول جماعة شيوعية في البيئة اللبنانية - العربية، بات فؤاد شمالي منافساً محتملاً ليوسف يزبك ودائرة الاشتراكيين المحيطة به. بالطبع، وقف شمالي بالقرب من الذين يمكنهم الاستفادة من تجربة أنشطته في الإسكندرية سواء في إطار الاتحاد العام للعمل في مصر أو بين المهاجرين السوريين اللبنانيين. لكن هذا لم يكن يعني ذلك على الإطلاق، أن البيئة التي كانت تسعى لحل وتحقيق نفس المهمات والأهداف، كانت مستعدة لقبوله بأذرع مفتوحة، علاوة على ذلك، لرؤيته كقائد لها. وطبعاً تبدو التصريحات اللاحقة التي أدلى بها يوسف يزبك وفؤاد شمالي نفسه حول لقاءهما على أراضي مرفأ بيروت وحول اتصالات أخرى مثمرة وصداقة بينهما، اليوم مجرد جزء من أسطورة كبيرة^(١).

تمكن بيرغر. الشيوعي الفلسطيني في نهاية المطاف من إقامة الاتصال مع يزبك الذي

(١) أفاد فؤاد شمالي في هذا الصدد: "عندما وصلت إلى بيروت، صعد السيد يوسف يزبك، الذي كان في ذلك الوقت موظفاً في إدارة الجوازات في الميناء، إلى السفينة. لفت اسمي انتباهه، لكنه سألني بعض الأسئلة الرسمية حول مهنتي. ثم اقترح أن أغادر السفينة وبدأ لي أنه يريد أن نكون بعيدين عن السلطات. في الطريق بالفعل إلى الغرفة التي يوجد بها قسمه، أخبرني أنه قرأ الكثير عني في الصحف المصرية، ويتعاطف مع المبادئ الشيوعية ويود أن أصبح صديقه المخلص ورفيقه الوفي" // شمالي ف. أسس الحركات الشيوعية ... ص ١١.

من جانبه تحدث يوسف يزبك عن نفس اللقاء، مع تركيز اللهجة بشكل مختلف: "أعطيته عنوان منزلي ودعوته للحضور إلى منزلي وعدم مقابلتي في الخدمة. وبدأنا بعقد اللقاءات. أدرك فؤاد أنني شخص نزيه (ابن حلال) وكان يأتي إلي كل يوم. وعدة مرات بقي للمبيت عندي. نمت صداقتنا أقوى. بنينا قلاعاً جميلة معاً، لأننا اعتقدنا أن نيران الثورة الحمراء ستندلع في بلدنا قريباً. ... تحدثنا عن كيفية عملنا معاً، والكتابة، وإلقاء الخطب - أوه، كيف حلمنا معاً". // يوسف يزبك، المرجع السابق. ص ٦٣-٦٤.

بات في ذلك الوقت صحفيا معروفا يحظى بشعبية كبيرة ومع فؤاد شمالي. وعلى الأغلب تم لقائه مع يزبك قبل ذلك ومن ثم التقى مع شمالي.

وفقا لوصف شمالي تم الأمر كالتالي: "في نهاية عام ١٩٢٤ ، تلقيت رسالة من السيد يوسف يزبك ، الذي دعاني إلى لقاء في فندق أوروبا في بيروت بخصوص أمر مهم. استجبت لدعوته ووصلت إلى الفندق في الوقت المحدد. قادني السيد يزبك إلى غرفة في الطابق العلوي ، حيث كان أمامي رجلا في أوائل الثلاثينيات من عمره. كان يرتدي نظارات سوداء ، وله لحية كبيرة ، ويرتدي بدلة تظهر أنه ينتمي إلى الطبقة الوسطى. عرفني يوسف عليه : هذا رفيق فلان الفلاني. بعد ذلك خاطبني بالقول : أريد أن أعرفك بهذا الرفيق. تم إرساله إلى هنا لتأسيس حزب شيوعي في لبنان. لقد طلب مني أن أكتب إليك وأن أحضرك إليه لرؤيتك والتحدث معك قبل الاجتماع الذي اتفقنا عليه بالفعل الليلة"^(١). لقد تم وضع فؤاد شمالي أمام الأمر الواقع.

لقد أصر على عقد اجتماع لمؤيدي تأسيس الحزب الشيوعي في بكفاي ، حيث هناك المجال لنشاطه وأنصاره ، الذين يمكنه الاعتماد على دعمهم غير المشروط. لكن الاجتماع عقد في بيروت في أواخر أكتوبر ١٩٢٤.

في ٣١ أكتوبر عام ١٩٢٤ ، تلقت اللجنة التنفيذية للأمية الشيوعية رسالة من بيروت جاء فيها أنه تم في ٢٨ أكتوبر من نفس العام في العاصمة اللبنانية ، خلال الاجتماع الأول للجنة التنفيذية ، إنشاء الحزب الشيوعي السوري (SKP)^(٢). وبعبارة أخرى ، تم اعتبار جميع المشاركين في هذا الاجتماع أعضاء في أعلى هيئة إدارية له. وكان بيرغر واحدا منهم.

(١) فؤاد شمالي. أسس الحركات الشيوعية ... ص ١٤.

(2) Parti Communiste Syrien, Comité Exécutif, Beyroute, 31 octobre 1924, au Comité Exécutif de l'Internationale Communiste.

قررت اللجنة التنفيذية للحزب الشيوعي السوري إرسال خطاب إلى اللجنة التنفيذية للأمية الشيوعية لإبلاغها بدخول الحزب إلى الكومنترن. ولاحقاً جاء في الوثيقة: "يسعى حزبنا المشكل مجدداً إلى العمل تحت مراقبتكم ونأمل في تحقيق النجاح في المجال الاشتراكي". وربط المؤيدون الجدد للكومنترن نجاحاتهم المستقبلية بأن "بلادنا باتت ناضجة للحركة البروليتارية". وترافقت الرسالة الموجهة إلى اللجنة التنفيذية للأمية الشيوعية بعدة ملحقات. من بينها كان مقتطفاً من محضر الاجتماع الذي أطلق عليه "اجتماع اللجنة التنفيذية في ٢٨ أكتوبر ١٩٢٤". وفيه شارك ٥ أشخاص: بيرغر وأناطول والذي يخمن فيه المرء يوسف يزبك، وكذلك فليك وأدام وشاتوريف. افتتح الاجتماع ممثل الحزب الشيوعي الفلسطيني الذي تحدث عن "الحاجة إلى تنظيم حزب قادر على تنوير الطبقة البروليتارية فيما يتعلق بمهامها في النضال ضد الرأسماليين". وبعد تخطيه للكثير من تفاصيل العقيدة الشيوعية، أكد بيرغر فقط أن "هذا النضال يجب أن يأتي بالحزب إلى السلطة بعد تحول جذري في النظام السياسي القائم". ولتحقيق ذلك يجب على الحزب تنفيذ عدة شروط: "يجب على الحزب أن يصبح حزب جماهير العمال والفلاحين وأن يستولي على السلطة بالطرق الثورية وفرض ديكتاتورية البروليتاريا كوسيلة لتحرير الطبقة العاملة واستبدال النظام الرأسمالي بالاشتراكية". لقد بدت هذه المهام، بالطبع، بسيطة بالنسبة لأنصار الكومنترن "السوريين" الجدد الذين استمعوا إليه، نظراً لحقيقة أن حزبهم، كما يعتقدون، قد أكمل بالفعل أو يمكنه بسرعة إكمال "مهامه الأولى" التي تحدث عنها مبعوث اللجنة التنفيذية للأمية الشيوعية.

ودار الحديث عن:

- ١ - تنظيم حركة عمالية واسعة وعريضة بقيادة الحزب الشيوعي السوري بهدف تعجيل تحطيم النظام الرأسمالي.

- ٢ - تنظيم نقابات عمالية لتقود النضال الاقتصادي اليومي ضد استغلال العامل.
- ٣ - تنوير الطبقة العاملة من خلال الصحف والنشرات والمظاهرات والإعلانات المختلفة.

وطبعا أضاف بيرغر إلى هذه المهام، "تنظيم حركة سياسية واسعة ... ضد سلطات الانتداب في سبيل استبدالها بحكومة عمال وفلاحين من أهل البلاد". في هذه الحالة، دار الحديث عن إيقاظ الشعور القومي في دوائر جماهيرية أوسع من نطاق العمال في كلا البلدين. وعلى الأغلب بدت هذه المهمة للمستمعين ممكنة بشكل سهل.

وقد تحدث مبعوث اللجنة التنفيذية للأمية الشيوعية عن ذلك في السياق الضروري، وأكد أن الحزب لن يكون وحده قادرا على تنفيذ هذا البرنامج. ولتحقيق ذلك يحتاج هذا الحزب إلى المساعدة الضرورية من جانب الأحزاب الشيوعية في البلدان الأخرى، ومن جانب الأممية الشيوعية ومن جانب الحزبين الشيوعيين الفلسطينيين والفرنسي. وقد فهم المشاركون في الاجتماع كلماته اللاحقة حرفيا: "الحزب يضع نفسه تحت تصرف الأممية الشيوعية ليقوم بدور نشط في النضال البروليتاري العالمي من أجل الثورة الاجتماعية".

وانتهت "المناقشة القصيرة" بين هؤلاء المجتمعين بقبول "بالإجماع" لاقتراح بيرغر المتعلق بانضمام الحزب إلى "الكومنترن"، و"طاعة قرارات مؤتمرات الخمسة". بعد ذلك انتقل المشاركون في الاجتماع إلى حل المشكلات التنظيمية. كان عليهم أن ينتخبوا رئيس الحزب، واتفقوا على أن كل واحد منهم سيشغل هذا المنصب بالتناوب. وأصبح فليك سكرتير الحزب، وأصبح شاتوريف أمين الصندوق. واستلم أناتول مسؤوليات "الممثل السياسي"، وأدام (وهو في الواقع فؤاد شمالي) مسؤوليات "الممثل النقابي". وأخيرا تقرر "عقد اجتماع عمل في أسرع وقت ممكن من أجل تسجيل أسماء أعضاء الحزب الشيوعي السوري المقيمين في بيروت والدخول في اتصالات مع عمال المدن الأخرى من أجل إنشاء

فروع للحزب الشيوعي السوري". وعشية السابع من نوفمبر، كان من المفترض أن ينشر الحزب الشيوعي السوري كتيباً باللغة العربية بمناسبة حلول "الذكرى السنوية لثورة أكتوبر". وبالطبع، اعتزم المشاركون في الاجتماع نشر "بيان سياسي" في الصحافة المحلية يتعلق بتأسيس الحزب، وكذلك تنظيم "مكتبة ماركسية للعمال" تحتوي على نشرات دوريات باللغتين العربية والفرنسية. واهتم المشاركون كذلك بمسألة كيفية قيام اللجنة التنفيذية للأمية الشيوعية بتزويد مؤيديها "السوريين" بما يسمى "بالمساعدة المادية" في وثائق هذا الاجتماع. وردا على ذلك قال بيرغر أنه سيشرف شخصياً على تنظيم هذا الموضوع. وجدير بالذكر أن الاجتماع الذي عقد في بيروت في ٢٨ أكتوبر ١٩٢٤ بث الحياة في المنظمة التي حملت اسم "الحزب الشيوعي السوري". بالطبع، كان ذلك حدثاً مهماً. لكنه أثار الكثير من الأسئلة، ومن الواضح أنه من الصعب إعطاء إجابات شاملة تماماً.

لقد وحد الحزب الشيوعي السوري في صفوفه مجموعتين كانتا تناضلان من أجل العمل الشيوعي. والحديث هنا يجري عن حزب الشعب اللبناني، ممثلاً بفؤاد شمالي من جهة، وأنصار يوسف يزبك من جهة أخرى. على الأرجح، سيطر ممثلو المجموعة الثانية عددياً على اللجنة التنفيذية للمنظمة الجديدة، على الرغم من أن تخصيص وظائف "الممثلين" لقادة كل من المجموعتين بدا وكأنه محاولة لضمان التوازن داخل الحزب.

في الوقت نفسه، تم إرضاء رغبات الزعيمين المذكورين أعلاه بشكل تام - احتكر كل منهما مجال النشاط الذي يتوافق مع تطلعاته. لكن رغم ذلك، كان من الواضح وجود تضارب في مصالحهما، والأهم من ذلك، كان واضحاً أن الاحتياطي الذي يسيطر عليه كل منهما قد يلعب في المستقبل دور السبب الكافي لقطع العلاقات بينهما. كان لدى فؤاد شمالي هيكل تنظيمي متطور بما فيه الكفاية، يمثل حزب الشعب اللبناني، أما يوسف يزبك فكان بمقدوره الاعتماد فقط على دعم المثقفين ذوي التوجهات الوطنية، لكن كان

من الصعب الاعتماد على مساعدتهم في النضال من أجل التعزيز اللاحق للمواقف. بعد مرور فترة من الزمن قدم بيرغر كممثل للحزب الشيوعي الفلسطيني، إلى الدائرة الشرقية في اللجنة التنفيذية للأمة الشيوعية تقريرا عن نشاط حزبه، تضمن قسما عن الشيوعيين السوريين. في هذا القسم تمت الإشارة إلى أنه "في أكتوبر ١٩٢٤، أرسلت اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الفلسطيني رفيقا منها لتنظيم الحزب الشيوعي في سوريا"^(١). وفي تقريره الآخر المخصص لشرح ظروف تشكيل الحزب الشيوعي السوري، ذكر بيرغر أن مهمة هذا الرفيق تلخصت "ليس في توحيد القوى الناضجة بما فيه الكفاية والقادرة على الانضمام إلى الحركة الشيوعية، بل أخذ زمام المبادرة في إنشاء هذه الحركة"^(٢). علاوة على ذلك، أشار بيرغر إلى أن هذه المبادرة أصبحت ممكنة فقط لأن "بعض الصحف السورية لديها بعض الطابع الاشتراكي المعبر عنه في النضال ضد الأرستقراطية والرأسماليين الكبار ولصالح الحركة العمالية". وبالطبع، تحدث بيرغر عن حزب فؤاد شمالي، ونوه بأنه "يوجد داخل هذا الحزب عدد معين من العمال الذين يناضلون من أجل إطلاق العنان للصراع الطبقي"، لكن بالنسبة له، فإن السؤال يتلخص قبل كل شيء في أن "أعضاء الحزب انتقلوا إلى الشيوعية من القومية". وحتى لو كان بعضهم "قد عمل في الحركة العمالية"، فهم يقعون قبل كل شيء "مفكرين أحرار"، وهو كما أضاف بيرغر، "يعني الكثير بالنسبة لسوريا"، على الرغم من أن الحزب الشيوعي السوري الذي أنشأه كان بعيدا جدا عن كونه حزبا "سوريا". لكن حتى في لبنان، الذي يعتبر متطورا أكثر من سوريا من الناحية الاقتصادية، لم تدخل المتطلبات الأساسية لظهور الحركة الشيوعية بأي حال من الأحوال المرحلة النهائية من تشكيلها. على العكس من

(1) Rapport du camarade Ichtyar au Secretariat de l'Orient.

(2) Au C. E. de l'I.C., Moscou. La foundation du Parti Communiste de Syrie.

ذلك ، كان "التدريب النظري" للشيوعيين السوريين الأوائل ، وفقا لاعتقاد بيرغر ، "ضعيفا" ، رغم أنهم "أعلنوا التزامهم بالمبادئ الأساسية للشيوعية". لكنه كان متقدما على الأحداث ، وفي بلا شك بمتطلبات الكومنترن. بدورها ، سعت الجهة التي وجهت أنشطة حزبه إلى توسيع دائرة حلفاء موسكو البلشفية في أسرع وقت ممكن. على ما يبدو كان بيرغر يقدر عاليا فؤاد شمالي ، وأفاد في التقرير المذكور أن "حزب الشعب اللبناني ... الذي يقوده عضو سابق في الحزب الشيوعي المصري يعمل على إنشاء نقابات عمالية في الجبال (في جبل لبنان). وينفذ دعاية شيوعية بين العمال المتعلمين". فيما يتعلق بالباقي ، كان بيرغر ، بالطبع ، متفائلا - "هؤلاء الرفاق سوف يتطورون بسرعة ويصبحون قادة للحركة الشيوعية السورية". في وقت إنشاء الحزب ، لم يكن لديهم سوى "أفضل النوايا" ، ولقد شرعوا بقوة في العمل ، لكن "بطبيعة الحال ، لم يفهموا سوى القليل عن المبادئ التنظيمية للحزب ، والعمل الدعائي ، وما إلى ذلك". وكان لابد من تعليمهم "بتوجيه من أعضاء الحزب ذوي الخبرة ، وتحت إشراف مستمر من اللجنة التنفيذية للأمية الشيوعية". حسنا ، كان هذا الشيوعي الفلسطيني يردد فقط ما قيل لهم من قبل - كان يتصرف حسب توقعاته للأحداث. كان مطلوبا من حزبه إنشاء منظمة شيوعية سورية - لبنانية. في الوقت نفسه ، لم يطرح حتى موضوع دخولها المستقل إلى الكومنترن. من الناحية التنظيمية بات الحزب الشيوعي السوري بمثابة الخلية التابعة لفرع حيفا في الحزب الشيوعي الفلسطيني وعبره دخل في الاممية الشيوعية. وفقط في عام ١٩٢٨ ، باتت هناك اتصالات مباشرة بين الشيوعيين في سوريا ولبنان واللجنة التنفيذية للأمية الشيوعية^(١).

كانت الوثائق الأولى للحزب الشيوعي السوري ، تعبر عن السعي للنشاط العلني

(١) ماديان.أ. اقتباس من المؤلفات. ص ٥٤.

وممارسة العمل في القضايا العمالية وحل المهام الوطنية العامة. لقد أكدت بشكل غير مباشر فقط إمكانية تطوره إلى منظمة شيوعية حقيقية. ومرة أخرى ، بشكل غير مباشر فقط ، أكدت هذه الوثائق أن صراعا شرسا بين الكتل كان يجري داخل الحزب. في ٣٠ أبريل ١٩٢٥ ناشد يوسف يزبك وسبعة من أعضاء حزب الشعب اللبناني (لم يكن بينهم ف. شمالي) المندوب السامي الفرنسي ل. كايل بطلب للسماح بالنشاط العلني للحزب بشكل مشروع.

وفي الطلب تم سرد "مبادئ الحزب" ومنها "استخدام كافة الوسائل المتاحة لأعضائه لتعزيز تنمية الصناعة والزراعة والتجارة" و "نشر روح الأخوة في صفوف الأمة اللبنانية" والتصدي لمحاولات رجال الدين لاستخدام نفوذهم على حساب الصالح العام " ، ودعم المدارس الوطنية " ، وتحويل ملكية الوقف إلى ملكية وطنية تحت سيطرة الحكومة " ، والنضال من أجل " تحرير المرأة " . كما تضمنت مبادئ الحزب "تشجيع النقابات العمالية والفلاحية" واستخدام "نفوذها في فرض ضريبة على رأس المال والميراث"^(١). ونشأت حالة غير متوقعة. لقد سعى المثقفون ، الذين عمد فؤاد شمالي على تقليص أهميتهم في تطوير الحركة العمالية والشيوعية ، إلى فرض سيطرتهم الخاصة على الهيكل ، الذي اعتبره مؤسس الحزب بمثابة أحد إقطاعته.

وعلاوة على ذلك ، سعى غالبية أعضاء اللجنة التنفيذية للحزب الشيوعي السوري الموحد شكليا إلى تقديمه كمنظمة لا تركز في عملها على حل المهام الاشتراكية بشكل أساسي ، بل على المهام ذات الطبيعة الوطنية العامة والديمقراطية. وطبعا لاحظ فؤاد شمالي في ذلك تأكيدا آخر لمحاولة انتهاك حرمة مواقفه والنيل منه.

(١) جاء نص الرسالة بين الملاحق الوثائقية الخاصة ب: يوسف يزبك. المرجع السابق.

تم عرض هذا باستمرار - في ٢٥ أبريل و ٣٠ أبريل ١٩٢٥ - من خلال تصريحات مؤيدي يوسف يزبك الذين تحدثوا باسم حزب الشعب اللبناني التي تم نشرها على صفحات "الصحفي التائه" و"رحلة الفتاة"^(١).

وجرت تسمية كلا البيانين بنفس العنوان - "نداء لجميع العمال والفلاحين". ودعا كلاهما العمال والفلاحين اللبنانيين إلى رفض العمل في الأول من مايو والانضمام إلى أعضاء حزب الشعب اللبناني، الذين، كما تم التأكيد في هذه الوثائق، سينظمون مظاهرة في ذلك اليوم تكريماً ليوم العمال العالمي. وذكر "النداء" الأول، أن العمال المتظاهرين سيؤكدون من خلال الفعالية "للرأسماليين والإقطاعيين أن لهم أيضاً الحق في حياة حرة".

وأما النداء الثاني فكان أكثر شمولاً وبدأ بالكلمات التالية: "نريد ثماني ساعات عمل وثمان ساعات راحة وثمان ساعات نوم". واستطردت في وصف الحياة المترفة التي يعيشها أصحاب رؤوس الأموال وزوجاتهم وأفراد أسرهم، في تناقض تام مع وجود نصف جائع للعمال. وتابع النداء: "فلنثبت أيها الإخوة أننا لسنا حيوانات تخدم الرأسماليين! فلنحترم أنفسنا ونساءنا وأطفالنا! لنترك عملنا في الأول من مايو لنلتحد ونحتج على اضطهاد الرأسماليين الرجعيين! دعونا نطالب معا بالحق في حياة حرة! ... أيها الإخوة! نحن لا نستحق المعاناة والفقر، لأننا أساس ازدهار وقوة العالم. إلى متى سنبقى معدمين؟ نحن أشرف من أولئك الذين يأكلون ثمار عملنا". من كل ذلك يتضح أن مجموعة يزبك سعت إلى النشاط العلني المشروع، والأهم من ذلك إلى حل المهمات الديمقراطية. وتم في البيانين تكرار ما سبق ذكره في الصحف الصادرة في رحلة. علاوة على ذلك، كانت هذه

(١) نص الملاحق الخاصة ب: يوسف يزبك. المرجع السابق. ص ٧٨-٧٩. وكذلك // دكروب م. اقتباس من المؤلفات ص ٣٩٩-٤٠٢.

النصوص نفسها متنافرة بشدة مع ما قاله بيرغر خلال الاجتماع التأسيسي الذي شكل رسمياً الحزب الشيوعي السوري. أصبح من الواضح أنه لكي يتطور الحزب الشيوعي السوري إلى جماعة شيوعية حقيقية، فإنه يحتاج إلى اتصالات ليس فقط مع الشيوعيين في فلسطين، بل ومع الكومنترن. كان ينبغي لعملية هذا التطور أن تشمل أولئك الذين عملوا على أراضي لبنان وسوريا، والذين وعلى عكس رفاقهم العرب في المستقبل، كانوا قد تحركوا أكثر على طريق استيعاب الأسس الأولية للعقيدة الماركسية. المقصود هنا الشيوعيين الأرمن. وعند وصفه لظروف إنشاء الحزب الشيوعي السوري، تحدث بيرغر أيضاً عن العمال الأرمن، الذين لا يزالون يعملون خارج هيكله التنظيمي وذكر أنهم كانوا ينشطون في تنظيم معين في بلادهم (حلب، ولواء إسكندرون)^(١). كان يثير الاستغراب عدم معرفة بيرغر لسبب ظهور اللاجئين الأرمن في الأراضي الواقعة تحت الانتداب الفرنسي. على الأرجح، باستخدامه عبارة "بلادهم"، كان بيرغر يقصد دولة حلب "المستقلة" ولواء إسكندرون وهو بذلك يكون قد وافق بشكل غير حكيم على الفكرة الفرنسية في تلك السنوات حول إنشاء "وطن قومي أرمني" على أراضي تلك المنطقة.

لكنه كان محقاً في شيء واحد - اتخذ السكان الأرمن في كلا البلدين الخطوات الأولى نحو استعادة الحياة القومية في تلك السنوات.

(١) RTSKHIDNI 495 f، اوب ٨٤، وحدة الحفظ ٨ صفحة رقم ٧.

(٢) الأرمن في سوريا ولبنان:

ظروف نشوء وتطور التيار الشيوعي في الحركة القومية

في نهاية عام ١٩٢١ ، تم على أساس اتفاق مع تركيا الكمالية ، سحب القوات الفرنسية من أراضي كيليكيا ومعها غادر تلك المنطقة كل الأرمن المقيمين هناك. وكما كتب أ. ماديان الذي تزعم لاحقا المجموعة الشيوعية الأرمنية اللبنانية : " خلال الاحتلال الفرنسي لمنطقة كيليكيا ، بلغ العداء الأرمني - التركي ذروته. وتميز ذلك العداء بالطابع الشوفيني والعنصري. وطبعا جعل نطاق هذه العداوة من المستحيل على الأرمن البقاء تحت رعاية السلطات التركية العائدة. وغادر الأرمن منطقة كيليكيا ، لخشيتهم من احتمال اندلاع مذبحة عرقية"^(١). وتم نقل نشاط حزب الهنشاك الاشتراكي الديمقراطي الأرمني إلى بيروت حيث انتقل للعيش المشاركون فيه.

في يوليو ١٩٢٢ انتخب أ. ماديان سكرتيرا لهذا الحزب. بحلول ذلك الوقت ، بعد عامين من الدراسة في اسطنبول ، حيث ضمت دائرة معارفه الأتباع الهنشاكيين اليساريين وكذلك الشيوعيين الأرمن والأتراك ، اعتبر المذكور نفسه بالفعل من أنصار المعتقدات البلشفية. ووفقا له ، فقد روج لـ "أفكار ثورة أكتوبر في روسيا والأمية الشيوعية الثالثة ... مع عدم الاستناد إلى مواقف قومية ضيقة ، بل على نظرية الصراع الطبقي". بالطبع بدت كلمات أ. ماديان ، التي نطق بها بعد سنوات عديدة عندما علمه الانضباط الحزبي تشذيب تصريحاته بعناية والذي تطلب منه رفض العديد من النقاط الدقيقة المهمة حقا لتأثير الأحداث التي جرت بيئته القومية ، بدت وكأنها أسطورة راسخة بالفعل ولا جدال فيها.

(١) ماديان أ ، المرجع السابق. ص ٤١ .

ومع ذلك ، في هذه الكلمات لا يمكن إلا أن يكون هناك مؤشر على أهم ظرف في سعيه إلى الشيوعية والذي تلخص في فرض الطابع السوفييتي على أرمينيا. أصبح ٢٩ نوفمبر ١٩٢٠ التاريخ الرسمي لتغيير وضعها.

وفي هذا الصدد ، كتب أ. ماديان في مذكراته : "أنقذت المساعدة الأخوية والمهمة التحريرية من جانب روسيا السوفيتية ، أرمينيا من الموت المحتوم وساهمت في ولادة الجمهورية الأرمنية السوفيتية"^(١). وأشار إلى أن هذا الحدث "ركز مشاعر وأفكار شعبنا في اتجاه استيعاب مبادئ ثورة أكتوبر الاشتراكية". وبدوره ، "وجد تعزيز ونشر هذه المبادئ وتطريفها بين الأرمن اللبنانيين تعبيره في الحركة الشيوعية". ومن هذا المنطلق تم التوصل إلى استنتاج منطقي يحدده مفهوم "النفعية الطبقية" : "أن حقيقة ظهور أرمينيا السوفياتية يشهد على أن الضمان الوحيد للمصالح القومية للشعب الأرمني في سوريا ولبنان يمكن أن يكون وحدة الأرمن مع أشقائهم العرب في سياق نضالهم المشترك ضد الإمبريالية ، من أجل تحقيق الاستقلال الوطني".

خلال كل فترة حياته الطويلة ، اضطر أ. ماديان ، (الذي ظل عضواً في قيادة الحزب الشيوعي اللبناني حتى نهاية أيامه) - وكتاب مذكراته خير تأكيد على ذلك - لدحض الاتهامات الموجهة إليه. ورفاقه بـ "الخيانة القومية" والعمل في الوقت نفسه ، لتغيير الأجواء التي سادت البيئة الأرمنية في سوريا ولبنان ، والمساهمة في إقامة روابط بينها وبين أرمينيا السوفيتية. من نواح كثيرة ، كانت مهمة مستحيلة. والأمر هنا لم يكن يتعلق فقط بسيطرة الهنشاك وداشناكتسوتيون (طاشناق) في هذه البيئة.

في نهاية المطاف ، ارتبط التغيير في ميزان القوى السياسية داخل الجالية الأرمنية في

(١) هنا ولاحقاً// المرجع نفسه ، ص ٦٨ - ٦٩ .

كلا البلدين ، ونتيجة لذلك علاقاتها مع يريفان ، بالظروف الخارجية ، وقبل كل شيء ، بنظرة الدولة التي كانت أرمينيا جزءا صغيرا فيها تجاه الأرمن في الشتات. وبالطبع لم يكن أ. ماديان ، في وضع يسمح له بالتأثير على هذا الموقف. ومع ذلك ، فإن الخيار السياسي الذي اتخذته في شبابه أجبره على الدفاع عن هذا الموقف دون قيد أو شرط.

ولا بد من القول إن أرمينيا التي تم على أراضيها تطبيق نموذج "الأمية الاشتراكية" القائم على ما أسماه أ. ماديان "المساعدة الأخوية لروسيا السوفياتية" ، لم تكن أكثر من مجرد قطعة بائسة من الأرض التي اعتبرها الأرمن وطنهم.

علاوة على ذلك ، كانت خسارة معظم أراضي هذا الوطن (أرمينيا) نتيجة للعديد من الأمور من بينها حل المهام الجيوسياسية التي طرحها البلاشفة فورا تقريبا بعد الانتصار في الحرب الأهلية ، حتى لو برروا ذلك بمهام الحفاظ على "سلطة البروليتاريا". لقد أجبرتهم "الضرورات الطبقية" على إقامة تحالف مع تركيا ، التي أنكرت بشكل قاطع أي شكل من أشكال الدولة الأرمنية داخل حدود الإمبراطورية العثمانية السابقة ، وبالتالي تم انتهاك الحق غير المشروط لأرمينيا الغربية في تقرير المصير الذي أعلنه القادة السوفييت سابقا. لكن تبين أن التصريحات السابقة لا قيمة لها ، لأنه تم تبنيها في وقت كانت تركيا السلطانية لا تزال قائمة. لقد دخلت تركيا الجديدة بقيادة كمال أتاتورك في معركة مع دول الوفاق - أعداء روسيا السوفيتية ، وبسبب ذلك ، أصبحت جزءا من "الجبهة العالمية المناهضة للإمبريالية". وتصدت قواتها المسلحة بأسلحة روسية للجمهورية الأرمنية ، التي تم تقاسم أراضيها في النهاية وبين الحليفين البلاشفة وتركيا كمال أتاتورك. بالطبع ، يمكن تفسير مشكلة تشكيل تيار شيوعي في البيئة الأرمنية السورية اللبنانية على أنها شكل جديد من أشكال التوجه الموالي لروسيا للأرمن. وتنطوي صياغة السؤال بهذه الشكل ، على قدر كبير من المعقولة. في النهاية ، نشأ التيار الشيوعي ، الذي جسده أ. ماديان ، كرد فعل على

تصرفات الداشناكتسوتيون والأغلبية في حزب هنشاك، الذين كانوا القوة الرئيسية في كل من الجمهورية الأرمنية وفي كيليكيا التي احتلتها القوات الفرنسية.

تم تقديم هذا التوجه، الذي توقف مؤقتاً بعد وصول البلاشفة إلى السلطة في روسيا واستبداله بالتعاون النشط بين الهياكل السياسية الأرمنية الرائدة مع القوى الغربية، كعلاج ناجع لعدم تكرار مأساة عام ١٩١٥. لقد تم إحياء نفوذ الحليف التقليدي للأرمن، وكان على مؤيدي هذا الإحياء أن يدعموا فكرة تغيير صورة روسيا، التي أصبحت - وكما جاء في الواقع في كلمات أ. ماديان - قوة قادرة على ضمان الأمن الوجودي للأرمن وازدهار ثقافتهم القومية في المستقبل. وبالعودة إلى عام ١٩١٦، قام البلشفي الروسي البارز ستيان شوميان، متحدثاً عن الكارثة القومية لشعبه، "بتحميل مسؤولية ذلك لكل من الداشناكتسوتيون وهنشاك وكذلك لكل من السلطان العثماني وللقيصري نيكولاي رومانوف ولكن بشكل أقل"^(١).

لكن روسيا بعد أكتوبر ١٩١٧ بدت مختلفة اختلافاً جوهرياً بالنسبة للشيوعيين الأرمن في سوريا ولبنان لدرجة أنهم كانوا على استعداد لتضييق الصيغة التي اقترحها سلفهم والتي حددت مركبي المأساة القومية، واستبعدت منها ولو تلميحا لتلك القوة الخارجية، والتي كان أحد العوامل الرئيسية لظهور "المسألة الأرمنية" وتطورها المأساوي خلال الماضي وبداية هذا القرن.

لقد بدا لهم أن روسيا البلشفية الجديدة لا يمكن أن تكون مسؤولة عن سياسات روسيا القيصرية القديمة. وإذا لم تحقق "مساعدها الأخوية" هدفها دائماً، فإن النتائج

(١) شوميان س.غ. المسألة الوطنية والديمقراطية الاشتراكية الثورية // أعمال مختارة. م، ١٩٧٨، ص ٢٨-

المساوية للقضية القومية الأرمنية، لم تظهر إلا عندما رفضت الأحزاب الرئيسية للأرمن، التحالف مع روسيا السوفيتية، وتجاهلت الدعم الذي قدمه قادتها، ولم ترغب في التحالف معها. وبالطبع ليس روسيا السوفيتية، بل داشناكتسوتيون وأغلبية الهنشاك كانوا مسؤولين عن عدوان تركيا الكمالية على الجمهورية الأرمنية وعن الخسارة النهائية لكيليكيا - هل يمكن أن تكون "فرنسا الإمبريالية" داعما صادقا لحرية واستقلال الشعوب؟ لقد أنقذت روسيا السوفيتية، حتى ولو بواسطة العدوان وضم أرمنيا الشرقية، الدولة الأرمنية، وحولتها وفقا لاحتياجات عصر "العالم الجديد"، التي كانت تعني انتصار قيم الأخوة الشاملة والتخلي عن التعصب القومي الضيق والشرير. وأصبح الشيوعيون الأرمن أنفسهم رواد هذا العصر^(١).

لقد أبعد الشيوعيون الأرمن أنفسهم بحزم عن ماضيهم، واعتبروه بمثابة الغلط تقريبا. من جانبه، اعتبر أ. ماديان، بعد انتقاله إلى الشيوعية، اعتبر دخوله ونشاطه في صفوف منظمة شباب الهنشاك في كيليكيا كنتيجة لتحركه نحو "الانعزالية القومية".

وفي هذا الصدد، كتب: "كانت الانعزالية هي السمة الغالبة للفكر الأرمني في ذلك الوقت (ربيع عام ١٩٢٠) في كيليكيا وخارج حدودها. كان الحب للوطن الأم مضللا وجعل من المستحيل رؤية الوضع الحقيقي للأمور. وبدا أن أذهاننا صدمت بالعمى، وأننا

(١) ويكفي أن نتذكر في هذا الصدد، ونشير فقط إلى المصادر الأولية الماركسية، وبالذات إلى الصيغة شبه الكلاسيكية عند ف. إنجلز عندما كتب متطرقا إلى موضوع "المسألة الأرمنية" في نهاية القرن التاسع عشر وقال لكي تصل "سفينة الحرية الأرمنية" إلى هدفها المنشود، يجب عليه أن تمر بحذر كبير "بين سيلا التركية وشربيدس الروسي" // إنجلز ف. لندن، ٢٣ نوفمبر ١٨٩٤ // ماركس ك.، إنجلز ف. ت ٣٩، ص ٢٧١.

أصينا بالتعصب القومي. كنا بعيدين عن استشعار الاتجاه الحقيقي للريح السياسية. لقد بدأ يهب في اتجاه مختلف تماما عما كنا نعتقد"^(١). والحديث هنا عن القيم الاشتراكية المتجسدة في روسيا والتي باتت من علامات العصر.

لكن رغم كل ذلك، تطلب التوجه الموالي لروسيا تقديم توضيحات. وتم إخبار الشيوعيين الأرمن علانية بهذا الأمر من جانب روسيا السوفيتية ومن جانب أرمنيا السوفيتية. وكتب أ. كتب مياسنيكيان (مياسنيكوف)، وهو بلشفي روسي من أصل أرمني كان في السنوات الأخيرة من حياته عضواً في هيئة رئاسة اللجنة التنفيذية المركزية لاتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية ومن أعضاء اللجنة المركزية للحزب الشيوعي البلشفي الروسي، في عام ١٩٢٤: "يعيش أكثر من مليون أرمني في الخارج غالبيتهم من العمال والفلاحين وصغار الحرفيين. هؤلاء اللاجئين الأرمن، استقروا جزئياً بالفعل، وبعضهم ما زال بحاجة إلى الأرض والعمل والخبز. هناك لاجئون أرمن بلا مأوى، يقضون أياماً بائسة. لقد تراكت آلام الماضي الحزين في صدورهم، وخيبة الأمل من السياسة السخيفة للقوميين، ومرارة مذبة آسوية لا مثيل لها. ماضيهم حزين، وحاضرهم بائس".

ثم تابع مياسنيكيان: "ولكن يوجد يوم الغد، مستقبلهم الذي يجب أن يكون جيداً وبهيجاً ومفعماً بالسعادة. كيف يتحقق ذلك؟ - هذا هو السؤال الذي يبحثون عن إجابة له. بالتخلي عن الماضي، نقول. ومن أجل القيام بذلك، من الضروري تصحيح الخط السياسي والابتعاد عن مرتكبي الخطأ من داشناكتسوتيون وعن التعصب القومي الأرمني". وقام مياسنيكيان (مياسنيكوف) بتحديد بشكل صارم مسار تصحيح الأخطاء: "يجب أن يقطع اللاجئ الأرمني علاقاته مع القوميين، وإلا فلا جدوى من التفكير في تحسين

(١) ماديان أ، المرجع السابق. ص ٢٩.

وضعه. ولن تتحقق الحرية، حتى يعانق هذا اللاجئ العمال من الجنسيات الأخرى ويعارض الإمبريالية"^(١). بالطبع يمكن اعتبار كلمات مياسنيكيان بمثابة الدعوة لانخراط المبعدين الأرمن ودخولهم إلى بيئة تلك البلدان التي أصبحوا فيها مستوطنين جددًا. وبطبيعة الحال، هذه هي الطريقة التي يمكن بها تفسير ظهور الاتجاه الشيوعي في الحياة الروحية للأرمن السوريين - اللبنانيين، الذي تطابق إلى حد كبير مع المسلك المطروح في المجموعات المسيحية المحلية، الذي وفر لها إمكانية الاندماج في الحياة الوطنية لعرب "سوريا التاريخية". ولكن كانت هناك أيضاً نقطة مهمة ميزت موقف المسيحيين العرب عن مواطنيهم الأرمن الجدد.

الغالبية العظمى من السكان الأرمن في كلا البلدين اعتبروا أنفسهم من شظايا الشعب الذي تعرض للذبح واعتبروا أن مهمتهم الأساسية استعادة العدالة التي انتهكت عام ١٩١٥، وذلك على أساس العودة إلى ديارهم وحرية تقرير المصير في أراضي أرمنيا الغربية وكيليكيّا وإقامة دولة قومية هناك. لقد سعوا إلى إحياء الحياة القومية والمحافظة عليها وبت الروح في المؤسسات التي رافقتها، بما في ذلك الكنيسة القومية والمدارس والتعليم العالي، وبواسطة الجهود الذاتية الخاصة خلق حالة من الاستقلال الذاتي القومي والثقافي الواسع، الذي يعتبره الأرمن بمثابة العامل الرئيسي في الاستعادة المحتملة لتشكيل دولة قومية في الوطن التاريخي للأرمن.

في المقابل، لم يكن من الممكن تفسير الموقف "الطبقي" للشيوعيين من قبل أرمن سوريا ولبنان إلا على أنه دعوة للابتعاد عن التمسك بالطابع القومي، وهو ما عزز من

(١) مياسنيكيان (مياسنيكوف) أ. الأحزاب السياسية الأرمنية في الخارج // أعمال مختارة. يريفان، ١٩٦٥،

تأثير ونفوذ الدشناكتسوتيون والهنشاك في البيئة الأرمنية السورية اللبنانية ، الذين دافعوا بحزم عن النزعة القديمة لـ "العزلة" ، مما يعني الحفاظ على الهوية القومية ، ولاحقا على هذا الأساس توفير الفكرة اللازمة لطريقة حل المسألة القومية لغالبية أبناء الجالية الأرمنية.

بالطبع كان يجب أن يتحدث ماديان عن "تعزيز ونشر" المبادئ الشيوعية في البيئة الأرمنية في كل مستعمرات فرنسا في الشرق الأوسط ، إلا أن كان الواقع مختلفا بالطبع. وكتب ماديان في مذكراته ، أنه في بداية عام ١٩٢٣ ، تم إنشاء "خلية شيوعية" في إطار منظمة الشباب لحزب الهنشاك. كانت تتألف من أربعة أعضاء فقط ، من بينهم أ. ماديان^(١). وأقامت الخلية اتصالات مع محري صحيفة لومانيتي ، وبفضل ذلك بدأ أعضاؤها في تلقي الصحافة المركزية للشيوعيين الفرنسيين ، وكذلك صحف الأحزاب الشيوعية في بلغاريا والولايات المتحدة الصادرة باللغة الأرمنية.. كما أعطاهم الشيوعيون الفرنسيون بعض الأعمال الكلاسيكية للماركسية المترجمة إلى الفرنسية.

في بداية عام ١٩٢٤ ، بمبادرة من "ماديان" ، تم على أساس "الخلية الشيوعية" إنشاء المجموعة الشيوعية "سبارتاك" ، والتي ضمت العديد من الأعضاء السابقين في منظمة شباب الهنشاك. واعتمدت المجموعة "برنامجها السياسي" وقام أعضاؤها بتوزيع نصه داخل الجالية الأرمنية في لبنان. أعلنت الوثيقة التي تم تبنيها حديثا أن أعضائها حددوا لأنفسهم مهمة زيادة عدد أعضاء مجموعة "سبارتاك" ، وإشراك ممثلي المثقفين والشباب العامل في عملها السياسي والأيدولوجي^(٢).

(١) وهؤلاء كانوا أ. ماديان وأرام يرتسيان وفاهان يريزيان وباتريك كينديان // ماديان أ ، المرجع السابق.

(٢) هنا ولاحقا // المرجع نفسه ، ص ٤٤-٤٦ .

لم تقتصر نشاطات المجموعة على بيروت. في وقت إنشائها، تم تنظيم أقسام في زحلة وحلب وجبل موسى وكذلك الموصل في العراق. وبلغ مجموع أعضاء كل هذه الأقسام ثمانية وعشرون شخصا. في الوقت نفسه ضم قسم بيروت من مجموعة "سبارتاك"، الذي كان بمثابة النواة الرئيسية للمنظمة، ٣٠ مشاركا. وكان يرأسها أ. ماديان وأ. يرتسيان. وطبعا لم يكن من الممكن الحديث عن وجود عدد كبير من الأعضاء في هذه المنظمة. بالنسبة للجالية الأرمنية السورية اللبنانية، كانت ظاهرة هامشية، وقدراتها في ذلك الوقت لم تستطع تغيير موازين القوى السياسية في صفوف الأرمن السوريين- اللبنانيين. ومع ذلك، كانت هناك بعض الظروف التي يمكن أن تحول الاتجاه الشيوعي الذي لا يزال ضعيفا للغاية إلى واقع ملموس في الحياة السياسية للسكان الأرمن في كلا البلدين.

وطبعا لم يكن الشكل الجديد لموالاتة الأرمن لروسيا السوفيتية، والذي تم تقديمه هذه المرة في شكل الشيوعية، يحمل بالطبع حتى التلميح لبديل حقيقي وقابل للتطبيق، والذي بفضل ستلقى القضية القومية الأرمنية زخما نحو حلها. وقد حدث هذا، أولاً وقبل كل شيء، لأن هذا الخيار لا يعني استقلالية العمل لمصلحة هذا القرار، ولكن الحفاظ على التقليد القديم للتوجه شبه الكامل تجاه إحدى القوى الخارجية المهمة باستخدام نتائج الناشئة حديثا في وضع الشعب الأرمني.

بالطبع، كانت توجد أرمينيا السوفيتية، التي بدا أنه من الممكن حولها حشد السكان الأرمن في سوريا ولبنان. رسميا، تصرف الشيوعيون الأرمن في سوريا ولبنان في هذا الاتجاه منذ بداية تشكيل حركتهم. ومع ذلك، كان هذا النشاط، في الواقع، وهما لأن الوضع السوفيتي لأرمينيا استثنى أية إمكانية يمكن أن تجعلها تلعب دور العامل المستقل في الحياة السياسية للأرمن المنتشرين في جميع أنحاء العالم^(١). وحدد هذا الظرف، في المقام

(١) بالطبع، كان تغيير الوضع هنا ممكنا لو تم تحديد ذلك من خلال مصالح السياسة الخارجية للاتحاد
=/=

الأول، استحالة زيادة كبيرة في تأثير الشيوعيين الأرمن بين شعبهم.

ويجب القول إنه كان يوجد تشابه في تمسك الأحزاب السياسية العاملة في الوسط الأرمني، بمواقف لا تعترف بوجود بديل آخر. على سبيل المثال شدد الشيوعيون من أنصار أ. ماديان على ضرورة التفاف الأرمن السوريين واللبنانيين حول روسيا السوفيتية (حتى لو كان الأمر يتعلق بالدولة السوفيتية الأرمنية)، فيما سعى الحزبين "القوميين" للتعاقد حول فرنسا. في المقابل، طرح الشيوعيون الأرمن فكرة اتحاد فوق قومي للعمال الأرمن والعرب للنضال المشترك ضد الهيمنة الأجنبية في كلا البلدين ومن أجل تحقيق الاستقلال، وهي فكرة قريبة نوعاً ما مع الفكرة التي روج لها زعماء الدشناكتسيون حول أهمية التعاون بين الأرمن اللبنانيين والطائفة المارونية. لكن تم تفسير هذا التعاون من جانب البعض، على أنه عنصر من عناصر تحالف مسيحي مشترك، يهدف إلى ضمان أسس وجود مستقل للبنان في البيئة الإسلامية "المعادية".

بعبارة أخرى، كانت وجهات نظر كلا الحزبين التي بدت متناقضة تماماً مع بعضها

السوفيتي. في خريف عام ١٩٤٥، طرحت الحكومة السوفيتية، التي كانت تعزم تغيير حدودها الجنوبية من خلال تضمين جزء من أراضي تركيا (منطقتي كارس وأردغان، اللتين كانتا تابعتين لروسيا قبل إبرام سلام بريست)، فكرة إعادة الأرمن الأجانب إلى أرمينيا السوفيتية. وكان عليهم لاحقاً الاستقرار داخل هاتين الولايتين الأرمينيتين تاريخياً. يصف أ. ماديان، في هذا الصدد، حركة للهجرة إلى الاتحاد السوفيتي، وهي حركة غير مسبقة حقاً لأرمن سوريا ولبنان، والتي احتضنت أوسع دوائر مستعمرات كلا البلدين، بما في ذلك أولئك الذين تعاطفوا مع الدشناق والغنتشاك. ومما يثير الفضول هنا هو تقاريره التي تفيد بأن من بين أوائل العائدين إلى أرمينيا أعضاء أرمن في الحزب الشيوعي في سوريا ولبنان، مما أدى إلى تقليص عدد المنظمات القاعدية للحزب الشيوعي وتصفيتهما في بعض الأحيان، وكان ذلك لاحقاً أحد أسباب تصفية القسم الأرمني من الحزب الشيوعي // المرجع نفسه، ص ٢٨٨-٣٠٢.

البعض ، في الواقع مرتبطة بشكل صارم بعوامل خارجية فيما يتعلق بالجالية الأرمنية في كلا البلدين وتعتمد عليها بالكامل تقريبا. لهذا السبب ، لم يكن بمقدور الحزبين إلا أن يكون عرضة للتآكل ، وكان التعبير الأكثر لفتًا عن ذلك هو ابتعاد أنصار الحزبين عن طرق حل القضية القومية التي تم اقتراحها من جانبهما.

ويجب القول إن صياغة المسألة الأرمنية من قبل كل من الشيوعيين والأحزاب "القومية" كانت متناقضة تماما في طبيعتها ، وقامت على أساس تعاكس تام بين "الخير" و "الشر" و "النور" و "الظلام" ، وكانت بعيدة جدا عن الواقعية السياسية. ولكن لم يكن الخط "الطبقي" لمجموعة "سبارتاك" متطابقا تماما مع مسار الدشناكتسوتيون والهنشاك. في النهاية ، حددت التناقضات بينهما إمكانية تشكيل الحركة الشيوعية الأرمنية السورية اللبنانية وكذلك دخولها ، وإن كان محدودا ، إلى الوسط الأرمني في كلا البلدين.

يكفي الإشارة ، في هذا الصدد ، إلى أهم وثيقة لمجموعة "سبارتاك" ، والتي ظهرت في ديسمبر ١٩٢٥ . كانت رسالة أرسلها أعضاؤها إلى اللجنة المركزية للحزب الشيوعي في أرمينيا^(١).

وجاء في الرسالة أن مجموعة "سبارتاك" تأسست على أساس "منظمة شبابية تابعة للحزب الاشتراكي الديمقراطي الهنشاك" ، بالإضافة إلى العمال الشباب والمثقفين الذين لم يكونوا من قبل أعضاء في أي منظمة سياسية. ولوحظ أن "نقابتنا هي مجموعة من العناصر البروليتارية ، تضم العمال والطلاب والموظفين". وهدفها أن تصبح "قوة تناضل من أجل الأمية البروليتارية في الشرق تحت راية الكومنترن ، وتساهم في توحيد الشباب وتنظيمهم وتعليمهم على أساس طبقي ، على أساس أيديولوجيا وتكتيكات الكومنترن".

(١) هنا ولاحقا // نفس المرجع السابق ، ص ٤٤ .

وتجدر الإشارة إلى أن التركيز في رسالة "سبارتاك" على أن مجموعتها تتكون من "الشباب العامل" وتعمل بينهم، ليس مجرد أداة بلاغية. كان لدى المجموعة فعلا نسبة عالية من العمال، وكان ذلك بسبب بروليتارية غالبية اللاجئين الأرمن وبسبب سواد نسبة الشباب في الوضع الديموغرافي في البيئة الأرمنية في كلا البلدين، والتي أصبحت نتيجة للإبادة الجماعية والترحيل.

كان معظم أعضاء مجموعة "سبارتاك" أشخاصا نشأوا في ملاجئ للأطفال من غرب أرمينيا وكيليكيا أنشأتها المنظمات الخيرية الأرمنية والأوروبية. إلى حد ما، كان ذلك وإلى حد كبير الواقع الذي تم تحت تأثيره تحديد ظروف تشكيل المجموعة الشيوعية العربية - اللبنانية الأولى. ولكن تأثير العوامل نفسها على الأرمن في سوريا ولبنان كان أعمق بكثير مما كان عليه في حالة نظرائهم العرب.

في رسالة مجموعة "سبارتاك" إلى اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الأرميني، تمت الإشارة إلى أن "الرجعية" في كل من لبنان وسوريا تحاول استغلال الاختلافات القومية والدينية بين العمال العرب والأرمن من أجل منع التفاهم المتبادل بينهما. علاوة على ذلك، شددت على أن اختيار المجموعة اسم "سبارتاكوس" كتسمية لها، بدلا من عبارة "منظمة شيوعية"، مرتبط بوضع الأرمن في سوريا ولبنان. وقالت الرسالة: "نحن لاجئون هنا، ولهذا اخترنا هذا الاسم حتى لا تضرب القوى الرجعية جدا حركتنا في بداية تشكيلها، وحتى لا تتمكن من محاربتنا على أساس قومي وديني، وحتى لا تعرض ضدنا العمال المحليين".

وأخيراً، ذكرت الرسالة أنه لا يوجد "حزب شيوعي محلي" في سوريا ولبنان، لكن "سبارتاك" أقامت بالفعل علاقات مع الشيوعيين الفرنسيين. ووقع على الرسالة رئيس مجموعة "سبارتاك" أ. يرتيسيان و "سكرتيرها" أ. ماديان.

وبهذا الشكل ، طرح الشيوعيون الأرمن الأوائل مسألة الحلفاء المحتملين للأرمن السوريين اللبنانيين على نطاق أوسع بكثير من ممثلي الأحزاب "القومية". لقد افترض موقفهم "الطبقي" توجهها ليس إلى التحالف مع إحدى الجماعات الطائفية في لبنان ، بل مع جميع سكان كلا البلدين ، والذي تم فيه عمدا تجاهل تقسيم الناس إلى أي مجموعات ومجتمعات دينية أو عرقية أو إقليمية.

وكان يتم خلال ذلك النظر إلى البلدين ككيان واحد ، وليس على أنه مؤلف من مسيحيين ، أو مسلمين ، أو سكان جبل لبنان أو دمشق أو حلب. وفيما يتعلق بتقسيم السكان إلى الفئات كان يمكن الحديث فقط عن "العمال" أو "الرجعية". وبطبيعة الحال ، كانت هاتان الفئتان فوق قومية وفوق الطائفية وفوق الإقليمية.

وظهرت أهم مقدمات لاحتمال توحيد في المستقبل جهود أعضاء مجموعة سبارتاك والشيوعيين العرب (الذين لا يزالون مجهولين بالنسبة لتنظيم سبارتاك). وطبعا هذه المقدمة لم تلخص في الإعلان المتبادل لـ "الأمية البروليتارية" كأساس لتجميع الجهود. كان الأمر يتعلق بشيء آخر ، ربما أكثر جوهرية.

لقد تشتت السكان الأرمن وتوزعوا في جميع أنحاء أراضي سوريا ولبنان والدول المجاورة (ظهر فرع من مجموعة "سبارتاك" في كل من الموصل العراقية وفي لواء الإسكندرون الذي كان لا يزال تحت سيادة فرنسا) ونتيجة لذلك ، فإن الرغبة الطبيعية للشعوب المشتتة في الحفاظ على الاتصالات بين أعضائه جعلت أرمن الشرق الأوسط ربما أكثر المؤيدين ثباتا لوحدة المساحة الجغرافية التي أصبحوا الآن جزءا منها.

وهكذا أصبح الشيوعيون الأرمن ، رغم مفارقة ذلك وغرابته ، حاملين حقيقيين لفكرة عدم تجزئة "سوريا التاريخية" ، والتي أصبحت المثل الأعلى الذي كان كل من الثوار الوطنيين العرب وبعض الشيوعيين العرب الأوائل يطمحون إلى تحقيقه..

اكتسب الموقف "الطبقي" فجأة جانباً "قومياً عربياً" وأصبح أساساً مهماً بشكل أساسي لإضفاء الشرعية على الوجود الأرمني في سوريا ولبنان. بالطبع، لا يمكن لهذا الجانب بأي حال من الأحوال أن يساهم في حل القضية الأرمنية على أساس قومي حقيقي، لكنه مع ذلك ساهم في حل قضايا الحياة الشخصية، وخاصة الوجود الآمن للأشخاص الذين، كما تم التأكيد في رسالة مجموعة سبارتاك^(١)، شعروا وكأنهم "لاجئين" في أرض أجنبية. وطبعاً من غير المنطقي بتاتا استبعاد أهمية هذا الظرف.

ومع ذلك، كان هناك جانب آخر للموقف "الطبقي" لـ "سبارتاك". عند الحديث عن "الرجعية"، التي سعت إلى استغلال الاختلافات القومية والدينية بين العرب والأرمن في لمصلحتها الخاصة، قام أنصار "سبارتاك" بشكل واقعي بتقييم الوضع الذي تطور في تلك السنوات. بطبيعة الحال، تحول العمال الأرمن بسبب العديد من الظروف - الوجود كأقلية وغياب الحد الأدنى من الرفاهية في بعض الأحيان وبسبب ذلك قبولهم لتولي أي عمل، حتى لو كان رخيص الأجر، إلى منافسين "لإخوانهم العرب الطبقيين". وساعدتهم المنافسة كذلك أنهم كانوا ممثلين لشعب انخرط في عملية الإنتاج وريادة الأعمال الحديثة قبل السكان العرب، وبفضل ذلك، كانت لديهم خبرة ومعرفة مهنية كبيرة^(٢). وطبعاً لم تساهم دعوات الشيوعيين الموجهة إلى العمال الأرمن للتضامن مع العمال العرب، في حل القضية القومية الأرمنية. ولكن هذه الدعوات كانت متناقضة بشكل حاد مع مسار

(١) حتى في عام ١٩٣٧، عندما كانت سوريا ولبنان قد اجتازتا بالفعل مساراً هاماً من التطور في ظل ظروف التحديث النشط التي نتجت عن سياسة دولة الانتداب، كان الأرمن يمثلون ١٩٪ من جميع العاملين في المؤسسات الحديثة للصناعة والنقل والخدمات / / زاخاروف أ. التركيبة الاجتماعية للمجتمع والطبقة العاملة في سوريا المستقلة. أطروحة لدرجة المرشح للعلوم التاريخية. م، ١٩٧٣، ص ٩. (وكانت نسبة الأرمن أكثر أهمية بين العمال المهرة في المنطقة).

الأحزاب "القومية"، التي كان لها تأثير أقوى بكثير على البروليتاريين الأرمن من تأثير "سبارتاك". لقد افترض مسار هذه الأحزاب "القومية"، توجهها مؤيدا للفرنسيين، وهو ما أدى إلى الحفاظ على التوتر والاغتراب في العلاقة بين المجموعتين الوطنيتين، بما في ذلك بالطبع بين أنصارهما من الطبقات الاجتماعية الدنيا، وكل ذلك حمل في طياته مخاطر اندلاع مواجهات دموية بين الأعراق. وطبعا لم يتمكن التضامن الطبقي الذي روج له الشيوعيون، من القضاء على هذا الاحتمال. لكن هذا التضامن، كان موجها على الأقل، إلى حل مشاكل الحياة الشخصية للناس، بما في ذلك إمكانية العيش بشكل آمن ولو إلى حد ما. وكان هناك أيضاً جانب ثالث لنشاطات مجموعة "سبارتاك"، والذي لا يمكن اعتباره أيضاً متطابقاً تماماً مع مسار الدشناكتسوتيون والهنشاك. لقد أصبح الاتجاه الشيوعي الذي نشأ داخل الجالية الأرمنية في سوريا ولبنان، في الواقع، شكلاً من أشكال التعبير عن الاحتجاج على الهياكل التقليدية للأحزاب "القومية". لقد سعت للظهور والترسخ وإثبات وجودها في البيئة الأرمنية في كلا البلدين، مجموعة جديدة من النخبة السياسية، غير مرتبطة بالبيروقراطية الحزبية القديمة، وهي كانت من حيث المبدأ معارضة للكنيسة الأرمنية الغريغورية باعتبارها جوهر المجتمع الوطني، وانبثقت هذه المجموعة عن أوساط الأرمن السوريين اللبنانيين، وهي سابقاً لم تكن تلعب الدور الحقيقي الفعال في الحياة القومية - في أرمينيا الغربية وكيليكيا ولم تكن تعتبر من القوى الرئيسية للشعب. ولكن التهجير ووضع الشتات فتح آفاقاً جديدة لهذه النخبة. استطاعت الجماعة الشيوعية تبني هذه النخبة ووفرت لها الفرص اللازمة للتعبير عن الذات وتحديد الهوية الذاتية. ولكن، في نفس الوقت، فإن ارتباطها الجيني بالمجتمع الذي ولّدها، والحاجة إلى اعتبار هذا المجتمع مجاًلاً طبيعياً لنشاطها، أجبر "سبارتاك" على الانصياع لقواعد اللعبة السياسية التي تم وضعها بالفعل فيه وخلال ذلك لم يتم الاستناد على البحث عن بدائل، بل عن

النفعية الانتهازية. ونحو ذلك دفع أعضاء المجموعة الرد الذي تلقوه من اللجنة المركزية لاتحاد الشباب الشيوعي الأرمني، والتي طالبتهم بالعمل بنشاط بين الجماهير وفضح "العناصر اليمينية في صفوف الأحزاب الاشتراكية"^(١). - وبالذات الهنشاك وداشناكسوتيون. هل كان من الممكن تجاوز هذا الطرح الذي فرضه واقع المجتمع بصرامة؟ وهنا نشأ الاختلاف الأهم بين خط مجموعة "سبارتاك" ومسار الأحزاب "القومية".

في واحدة من أولى منشورات مجموعة "سبارتاك" في عام ١٩٢٥، تم التأكيد على الحاجة إلى تحالف بين الأرمن السوريين واللبنانيين مع المشاركين في "الحركة الوطنية السورية ضد الاستعمار الفرنسي"^(٢).

في يونيو عام ١٩٢٥ صدر العدد الأول من جريدة الشيوعيين الأرمن "نور باروس" (المنارة الجديدة) وكتبوا فيه: "الطريقة الوحيدة لإنقاذ أرمن سوريا ولبنان وجميع البلدان العربية هي من خلال نضالهم إلى جانب الشعوب العربية التي تقاتل ضد الإمبريالية، من أجل حريتهم واستقلالهم"^(٣). وجرى الحديث هنا عن الثورة السورية الكبرى بقيادة سلطان الأطرش.

السؤال، بالطبع لم يكن يكمن في مدى نجاح فكرة دعم الحركة المناهضة للفرنسيين، التي روج لها الشيوعيون بين الأرمن لأن الإجابة عليها لا يمكن حتماً أن تكون إيجابية. رأى السكان الأرمن في كلا البلدين في هذه "الثورة" حدثاً يهدد وضعهم الذي لم يستقر بعد في المناطق التي تسيطر عليها سلطات الفرنسية، والتي كانوا ينظرون إليها كدولة من

(١) ماديان أ، المرجع السابق. ص ٤٥.

(٢) ضاهر. م، المرجع السابق. ص ٢٩٤.

(٣) دابلاكيان.ك.ل. من تاريخ الصحافة الديمقراطية الأرمنية في لبنان. يريفان، ١٩٦٤، ص ٩.

دينهم تلعب دور حاميتهم وحليفهم في الشرق الأوسط.

لقيت دعوات داشناكتسوتيون لتنظيم قوات الدفاع عن النفس "معادية للمسلمين" وانضمام الشباب الأرمن إلى صفوف الجيش الفرنسي المتمركز في سوريا ولبنان، تفهما ودعما أكبر بما لا يقاس في البيئة الأرمنية، خاصة وسط الإشاعات المنتشرة باستمرار عن المذابح التي تعرض لها الأرمن وكذلك المسيحيين بشكل عام^(١). وجدير بالذكر أن الشيوعيين الأرمن، الذين قدموا أنفسهم في رسالة إلى اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الأرمني كأنصار لفكرة "الأمية البروليتارية في الشرق"، وكأنصار "لعقيدة وتكتيكات الكومنترن"، كانوا على دراية بالهيكل التنظيمي الأساسي للحزب البلشفي. وكانوا حتما يعرفون كذلك أن هذا الحزب رفض بشكل قاطع مبادئ إنشاء هياكل حزبية خاصة به على أساس قومي، وكما يتضح من تجربة أحد تشكيلاته، الحزب الشيوعي الأرمني، الذي طرح فكرة الأمية على أنها أساس بنيت التنظيمية. ومن خلال إقامة العلاقات مع الشيوعيين الأرمن السوفييت، كانت على "سبارتاك" قبول هذه المبادئ وجعلها قاعدة لعملها. ويتبين من نص رسالتها أنها لو علمت بوجود منظمة شيوعية محلية في سوريا أو لبنان، كانت حتما ستواصل مع قيادتها. بعبارة أخرى، بالنسبة لمجموعة "سبارتاك"، لم تكن الاتصالات مع الشيوعيين العرب المحتملين وحتى إنشاء هيكل حزبي واحد لممثلي الشعبين أمرا مستحيلا.

بالفعل في بداية طريقهم لم يقيم أنصار "سبارتاك" برفض مثل هذا التطور للأحداث وأعربوا عن تأييدهم له. ودل تطور الأحداث لاحقا على أن هذا الافتراض ممكن

(١) انظر حول هذا // الشامي أ. من تجربة الانتفاضة السورية // "الشرق الثوري"، ١٩٢٨، العدد ٣، ص

الحدوث. في الأول من مايو عام ١٩٢٥، انضم أعضاء من مجموعة "سبارتاك"، الذين علموا من تقرير في صحيفة "تازول" الناطقة بالفرنسية عن تجمع عمالي نظمته الشيوعيون العرب في ذلك اليوم في سينما كريستال في بيروت، وشاركوا في الفعالية، ولاحقاً كانوا المبادرين للتوحيد التنظيمي لكلا المجموعتين الشيوعية^(١). لكن من المنطقي أن نفترض كذلك أن كل مجموعة احتفظت في نفس الوقت بنصيب كبير من استقلاليتها، التي حددتها ليس فقط الاختلافات في ظروف نشاط الشيوعيين العرب والأرمن، بل والصعوبات الفنية الكبيرة للاتصالات بينهم (جهل لغة الرفاق الجدد، واستحالة تنظيم أعمال وفعاليات مشتركة، بما في ذلك لأن أعضاء كل مجموعة يعيشون في أحيائهم القومية الخاصة بهم). ومن المنطقي أيضاً الافتراض أن عملية التوحيد التنظيمي التي بدأت لم تكن تلقائية، فقد استغرقت ما يقرب من عام. وطبعاً تأثر تطورها باعتبارات الشخصية القومية التي كانت موجودة لدى الجانبين العربي والأرمني. لكن الكومنترن أصر رغم ذلك على التوحيد.

(١) طبقاً لما قاله أ. ماديان، دفع نبأ "لاسيريا" أعضاء مجموعة "سبارتاك" إلى اتخاذ قرار بالمشاركة في المسيرة في سينما "كريستال". في ١ مايو ١٩٢٤ انضم نحو خمسين عضواً من الجماعة والمتعاطفين معها في التظاهرة العمالية متوجهة إلى مبنى السينما ثم التجمع. بعد نهاية المسيرة، تعرف أعضاء المجموعة على يوسف يزيك وفؤاد شمالي. وفي اليوم التالي، عُقد أول اجتماع رسمي بين ممثلي المجموعتين، توصل خلاله المشاركون إلى اتفاق من حيث المبدأ على قيام اتحاد تنظيمي. // ماديان. أ. اقتباس من نفس المرجع، ص ٥٦-٥٧.

وأفاد شمالي، الذي كانت أعماله أقرب إلى الأحداث الموصوفة، بأن الاجتماع الأول عقد في شقة سرية للشيوعيين الأرمن وشارك فيه حوالي أربعين عضواً من مجموعة سبارتاك. ووافق خمسة وعشرون منهم على فكرة التوحيد التنظيمي للجماعتين // شمالي ف. أساس الحركات الشيوعية ... ص ٢٨.

وعقدت مفاوضات أولية حول التوحيد بمشاركة مباشرة من ف. شمالي. وبُثت وصفه لهذه المفاوضات أنه لم يشارك فيها في البداية أي من أعضاء مجموعة يوسف يزبك. قد يكون هذا صحيحاً لعدة أسباب. أولها وأهمها كان أن طموح يزبك بخصوص حل المشاكل ذات الطبيعة الوطنية العامة لم يدفع أنصاره للاهتمام بشكل جدي بالاتصالات مع الشيوعيين الأرمن^(١).

علاوة على ذلك، فإن مضمون المهام الوطنية نفسها وأساليب حلها القائمة على استعادة وحدة "سوريا التاريخية" لم يتطابق بأي حال من الأحوال مع المهام التي وضعها الأرمن السوريون اللبنانيون لأنفسهم. كانت "أحزابهم القومية" تتجه نحو التحالف مع فرنسا، في حين كان الحل الجذري لـ "المسألة العربية" يتطلب مقاومة سلطات الانتداب. وطبعاً لم يستطع يزبك إلا أن ينقل مشاعره إلى أعضاء مجموعة سبارتاك^(٢). في المقابل كانت الاتصالات مع الشيوعيين الأرمن، وفي نهاية المطاف، تعزيز اندماجهم التنظيمي مع المجموعة الشيوعية العربية تلبي مصالح فؤاد شمالي لأنه في صفوف منظمة شيوعية واحدة، كانت ستتمو "فئة عاملة" قادرة على مقاومة التطلعات القومية للمثقفين الذين أنكروها.

علاوة على ذلك، كان فؤاد شمالي إلى حد أكبر بكثير من يوسف يزبك على استعداد لتلبية احتياجات جماعة "سبارتاك" بسبب جذوره المارونية. أدى توحيد الجانبين في

(١) فؤاد شمالي. المرجع نفسه.

(٢) من حيث الجوهر، لم يقيم يوسف يزبك عبر كتاب مذكراته "قصة الأول من مايو في العالم وفي لبنان. مذكرات وتاريخ ونصوص، ولا مرة بذكر الاتصالات مع الشيوعيين الأرمن أو التحدث عن الاتحاد معهم وإنشاء منظمة شيوعية أممية. على العكس من ذلك، قام في هذا الكتاب بمدح للروح العربية وللشخصية العربية للحزب الشيوعي، وأخيراً للأصل العربي لمؤلفه.

منظمة شيوعية واحدة (عملت بشكل أساسي داخل حدود لبنان) إلى تعزيز الدولة اللبنانية.

إلى جانب ذلك تم توجيه ضربة، وإن لم تكن ذات أهمية، إلى مسار "الأحزاب القومية" الأرمنية، وكذلك لمواقف القادة التقليديين للطائفة المارونية، مما يثبت بشكل موضوعي أن هذه الدولة يمكن أن تكون من العوامل الحقيقية في الشرق الأوسط ليس فقط بدون التحالف مع السلطات الفرنسية، بل وبالتناقض معها. بعبارة أخرى، الدولة اللبنانية يمكن تظهر وتشكل ليس فقط كنتيجة لأنشطة رجال الدين الموارنة وأصحاب الأرض ورجال الأعمال، بل يمكن أن تكتسب أيضاً طابع "عمالي - فلاحى" حقيقي.

ووفقاً لبلاغ من "ماديان"، تم في ٣ مايو ١٩٢٥، انعقاد الاجتماع الثاني للشيوعيين العرب والأرمن، وشارك فيه يوسف يزبك وفؤاد شمالي، وكذلك أ. ماديان مع أ. بويادزيان وبمشاركة ي. تيبير (شامي) ممثل الحزب الشيوعي الفلسطيني، الذي واصل الإشراف على تشكيل المنظمة الشيوعية السورية - اللبنانية. على ما يبدو لقد أصرت اللجنة التنفيذية للأمية الشيوعية على الحفاظ على دائرة أوسع من المشاركين في الحركة الشيوعية المحلية.

في الاجتماع، تقرر إنشاء حزب شيوعي مستقل لسوريا ولبنان^(١) (على الرغم من استمرار الكومنترن في تسميته بالحزب الشيوعي السوري)، والذي ضم مجموعات يوسف

(١) قام ي. تيبير بإبلاغ اللجنة التنفيذية للأمية الشيوعية بذلك، واستخدم خلال ذلك هذه المرة الاسم المستعار "نعم". انظر: تقرير نعم عن أنشطة الحزب الشيوعي في سوريا ولبنان خلال الفترة من مايو إلى يونيو ١٩٢٥، في ٣٠ يونيو ١٩٢٥ RTSKHIDNI //، ص. ٤٩٥، المرجع السابق. أوب ٨٤ وحدة الحفظ ٩، الصفحة رقم ١.

يزبك وفؤاد شمالي ، وكذلك أقسام من جماعة سبارتاك التي كانت موجودة في ذلك الوقت في بيروت وزحلة وحلب وجبل موسى. تم إنشاء اللجنة المركزية للحزب ، بعضوية يزبك وفؤاد شمالي ، وأ. ماديان ، وأ. بويادزيان وي تير وأصبح يوسف يزبك سكرتيراً لهذه اللجنة المركزية^(١). وطبعاً كان بمقدور الهيكل السياسي الحديث الظهور ، وبدون مبالغة أن يسمى نفسه هذه المرة ، الحزب الشيوعي السوري. لقد أصبح هذا ممكناً بسبب وجود مجموعة سبارتاك في صفوفه. وهذا الحزب كان الأكبر عدداً بين المجموعة الشيوعية العربية الأولى وامتلك أيضاً صفة أخرى ، بلا شك جوهرية ، كانت غائبة عن باقي الشيوعيين العرب. لقد انتشرت فروعه فعلاً وبشكل حقيقي في مناطق مختلفة من "سوريا التاريخية". وبالتالي ، يمكن اعتبار "الحزب الشيوعي اللبناني والسوري" الموحد حقاً حزباً لكلا البلدين ، وليس كتجمع إقليمي ضئيل.

في المقابل ، منح الاتحاد مع المجموعة الشيوعية العربية ، الشيوعيين الأرمن حقاً حقيقياً في اعتبار أنفسهم - كأحد عناصر النظام السياسي المحلي وطبعاً لأنهم اعتبروا أنفسهم ممثلين لكل الشغيلة بين الجالية الأرمنية في البلدين. وبالنسبة لهم ، أصبح هذا الظرف ، بدوره سبباً كافياً لاعتبار الجالية الأرمنية في كلا البلدين جزءاً لا يتجزأ من سكانهما. وغني عن القول ، في النهاية ، أن كلا الحزبين "القوميين" الأرمنيين لم يطرحا القضية بهذه الطريقة. بالنسبة لهم ، كانت إقامة الأرمن في أراضي سوريا ولبنان مؤقتة ،

(١) ماديان أ ، المرجع السابق. ص ٥٧.

في الوقت نفسه ، أشار أ. ماديان إلى أنه تم انتخاب ف. طعمه أيضاً في اللجنة المركزية للحزب ، وهو ما لم يؤكد ف. شمالي. ووفقاً له ، في يونيو ١٩٢٥ ، غادر يوسف يزبك إلى فرنسا ، وتم اختيار ف. طعمه مكانه في اللجنة المركزية // فؤاد شمالي. اقتباس من نفس المصدر. ص ٢٩.

وظل كلا البلدين محطة وسيطة على طريق عودة الناس إلى ديارهم في غرب أرمينيا وكيليكيا.

احتوى توحيد المجموعتين في منظمة شيوعية واحدة على جانب آخر من المشكلة. تم استخدام مبدأ التكافؤ في تشكيل اللجنة المركزية للحزب الذي تم إنشاؤه حديثاً (ضمت اثنين للشيوخيين العرب وممثلين عن مجموعة سبارتاك)، وهذا بالطبع، لم يدفع بالشيوخيين الأرمن إلى المقدمة والصدارة. شغل يوسف يزبك، ممثل الأغلبية القومية للسكان في كلا البلدين -العرب-، منصب سكرتير الحزب، وبعده شغل المنصب فؤاد شمالي. ورغم أن أسباب احتفاظ الشيوخيين العرب بهذا المنصب مفهومة، إلا أن الشيوخيين الأرمن لعبوا دور قيادي في الهيكل الحزبي الذي تم إنشاؤه حديثاً وذلك لأنهم كانوا الأكثر عدداً في صفوفه ولأن المنظمات الحزبية التي كانت موجودة في مناطق مختلفة من سوريا ولبنان كانت في الغالب أرمنية فقط. ويمكن للشيوخيين الأرمن، على عكس رفاقهم العرب، أن يؤكدوا أن الشيوخيين الذين جاءوا من صفوف شعبهم هم فعلاً من "البروليتاريا".

أخيراً، كان مستوى التحضير النظري للشيوخيين الأرمن أعلى بما لا يقاس من مستوى شركائهم العرب. حتى في وقت ظهور حزب هنشاك، تمت ترجمة الأعمال الماركسية الأساسية إلى اللغة الأرمنية، ولاحقاً تمت ترجمة أعمال لينين إلى هذه اللغة^(١).

(١) وحسب كلمات ماديان، كان لدى مجموعة سبارتاك ترجمات أرمنية لأعمال ماركسية كلاسيكية مثل "البيان الشيوعي"، و"ضد دوهرينغ"، والمجلد الأول من رأس المال. كما حصل أعضاؤها على ترجمات لأعمال ف. لينين، ومن بينها "ما العمل؟"، و"مرض الطفولية اليسارية في الشيوعية"، و"الإمبريالية أعلى مراحل الرأسمالية"، و"الدولة والثورة" // فرانسيس ت. أرتين ماديان، يوسف خطار الحلو وغيرهم. كيف جاءوا إلى ماركس والماركسية؟ // الطريق، بيروت، ١٩٨٤، رقم ٣/٢، ص ١٦٩.

في ذات الوقت فقط يوسف يزبك كان يتحدث بالفرنسية بين الشيوعيين العرب. واللغة التي كان يمكن للشيوعيين العرب الآخرين قراءة الأعمال الماركسية بها كانت، اللغة العربية، ولكن لم تظهر الترجمات العربية الأولى لهذه الأعمال إلا في الثلاثينيات^(١).

حملت الطبيعة الثنائية القومية للحزب الشيوعي، كما في حالة الحزب الشيوعي الفلسطيني، العديد من المقدمات الأساسية لظهور تناقضات خطيرة وخلافات شرسة في صفوفه في المستقبل. بطبيعة الحال، فإن عدم تطلع الأحزاب "القومية" الأرمنية إلى تحقيق الأهداف التي وضعت في صدارة أنشطة الهياكل الحزبية الاجتماعية لدى جماعات بوعالي تسيون الفلسطينية (على الرغم من ظهور مثل هذه الاتجاهات إلى حد ما)، عززت الوحدة التنظيمية الأمية للشيوعيين السوريين - اللبنانيين. ومع ذلك، لم تكن الاختلافات العرقية في صفوفهم أقل مأساوية.

(١) المرجع نفسه، ص ١٧٠.

(٣) الحزب الشيوعي السوري: بداية نشاط سياسي حقيقي

بدا أن ربيع عام ١٩٢٥ يشهد على ظهور إمكانية حقيقية لحركة متسقة للبنية الشيوعية الناشئة حديثاً لكي تتمكن من تعزيز مواقعها في كلا البلدين. اندماج الجماعات الشيوعية العربية والأرمنية في كيان تنظيمي واحد، واستعادة السيطرة الشيوعيين الفلسطينيين على تطور الحزب الشيوعي السوري، وأخيراً دخوله إلى الساحة السياسية بشكل علني مشروع - كل هذا، على ما يبدو، أصبح دليلاً على قابليته للحياة.

ربما كان الظرف الأخير هو الأكثر أهمية هنا. في النهاية، كان له تأثير إيجابي على الحالة النفسية لأعضائه، الذين رأوا حقاً أن منظماتهم أصبحت معترفاً بها من قبل المجتمع وبدأت في العمل في الوسط الوطني. من هذا المنطلق يمكن لأعضاء الحزب الشيوعي السوري، أن يتوصلوا إلى نتيجة طبيعية - سينمو الحزب وستتعزيز مواقفه. كل ما حدث في ١ مايو ١٩٢٥ كان يشير التفاؤل.

عشية الأول من أيار سنة ١٩٢٥، أقام حزب الشعب اللبناني في مناطق توزع أقسامه لقاءات ومظاهرات عمالية تحت شعار "عاش العمال والفلاحون! يحيا ١ مايو!". وأثناء التجمع الاحتفالي في بكفائي، حيث حمل المشاركون فيه لافتات حمراء، تحدث فؤاد شمالي عن الأهمية الكبرى لعيد تضامن العمال في جميع أنحاء العالم^(١). ثم توجه المشاركون إلى بيروت. وخرجت مظاهرة في شوارع العاصمة اللبنانية شارك

(١) للحصول على وصف لهذه الأحداث في ١ مايو ١٩٢٥ انظر في // شمالي ف. أساس الحركات الشيوعية...، ص ١٩-٢٠؛ وكذلك // شمالي ف. نقابات العمال، ص ٤٥-٤٧.

فيها ما لا يقل عن مائة شخص. وفي قاعة سينما كريستال، حيث تم تنظيم الاحتفال بعيد العمال، كان هناك بالفعل ما يقرب من خمسمائة شخص^(١). وجلس في منصة الاحتفال أعضاء قيادة الحزب الشيوعي السوري وقيادة حزب الشعب اللبناني وكذلك مجموعة من ممثلي النخبة الثقافية الليبرالية في بيروت: ومن ضمنهم فؤاد شمالي ويوسف يزبك وبعض الشعراء وكتاب والصحفيين ورجال أعمال. وكان من بين المتحدثين ف. شمالي.

وأعلن شمالي في خطابه، أن العمال هم "القوة الوحيدة في العالم" القادرة على "الإطاحة بالعروش وتدمير التيجان". بعبارة أخرى، كما قال ف. شمالي، "نحن كل شيء في هذا العالم، وكل شيء فيه يجب أن يكون ملكا لنا". لكن هذا لا يمكن أن يتم إلا إذا اتحد العمال في نقابات عمالية مبنية على المبدأ الطبقي وعلى أساس التخصص القطاعي. بعد ذلك ستنشئ هذه النقابات العمالية اتحادا عاما للنقابات العمالية، وبذلك "سيتم وضع حجر الأساس في بناء حياتنا المستقبلية، حياة الحرية الحقيقية"^(٢).

وقال شمالي أن هذه الحياة ستصبح حقيقة ليس فقط في لبنان، بل في جميع أنحاء العالم، لأن "بروليتاريا العالم كله توحد جهودها اليوم من أجل حل المهام المشتركة لها". وختم شمالي حديثه: "نحتفل بهذا العيد لأول مرة. ويجب أن يكون ذلك بالنسبة لنا كبداية أعمالنا المستقبلية التي سنقوم بها بفضل اتحادنا. دعونا نتحد، أيها الإخوة، ونهتف جميعاً: "عاش العمال! عاش الفلاحون! يعيش عيد العمال! يسقط الظالمون!". وبدا هذا الخطاب، الذي ألقاه الزعيم النقابي والعمالي المعروف، منسوجا في نسيج واحد مع

(١) قام ج. كولان بتقديم هذا الرقم في عمله معتمدا على الصور التي تم التقاطها أثناء التجمع //

Couland J. Op cit p , 107.

(٢) كلمة فؤاد شمالي مقتبسة من // شمالي ف. نقابات العمال ص ٤٦-٤٨.

خطابات المشاركين الآخرين في الاجتماع، في نسيج أكثر تعقيدا من المسائل المتعلقة بالتطلعات والمطالب الوطنية. لقد ظهر تصادم غير متوقع. كان جوهره يتلخص في أن تحرير العمال اللبنانيين وكذلك عمال سوريا، بالطبع، يجب أن يصبح المهمة الأولى. لكن هؤلاء العمال في وطنهم كانوا قادرين على حل فقط جزء من المهمة العالمية للبروليتاريا. ومن هناك ظهر أنه يجب على الطبقة العاملة اللبنانية الانضمام إلى جيش الثورة العالمية، التي كانت الطبقة العاملة في دولة الانتداب تشكل جزءا منها. بسبب هذا الظرف، تحولت التطلعات الوطنية إلى مهمة خاصة للشيوعيين الذين دخلوا الساحة السياسية لبلادهم - سيصبح تحقيقها أحد نتائج الثورة الاشتراكية العالمية. ولكن الكثيرين من أعضاء الحزب ومن الحاضرين في احتفال بسينما كريستال، كانوا يرون الموضوع بشكل مختلف. كانوا يعطون الأولوية لحل المتطلبات الوطنية أولا، إيمانا منهم بأن محنة الطبقات الدنيا من المجتمع تنبع من الوضع المضطهد لسوريا ولبنان. وهكذا سعى المجتمع الذي بدأ فيه الحزب العمل فيه إلى معارضة الدولة المنتدبة، بما في ذلك بالطبع الطبقة العاملة الفرنسية. كان على الشيوعيين السوريين - اللبنانيين، ومع إتباع روح مطالب الكومنترن، ليس فقط الحفاظ على استقلالهم التنظيمي والأيدولوجي، والبقاء حزب الطبقة العاملة، ولكن أيضاً أن يصبحوا جزءا من الحركة الوطنية العامة. في الوقت نفسه، كان من المفترض أن تتم صياغة مطالبهم الوطنية بشكل أكثر راديكالية من طريقة طرحها من جانب الثوار الوطنيين. لكن هل كان الحزب الشيوعي في سوريا ولبنان مستعدا لإيجاد توازن بين، المواقف غير المتوافقة للأهمية الشيوعية كما بدا لأعضاء هذا الحزب؟ وفي مايو ١٩٢٥، بدأ الحزب في نشر أول مطبوعة عربية علنية مشروعة له تحت عنوان "الإنسانية"^(١). ولا شك

(١) عدد مجلة "الإنسانية" الذي صدر تم استنساخ عبارة: "صوت الشعب أقوى. صفحة من صفحات =/=

أن هذه التسمية كانت تكرار لاسم صحيفة الشيوعيين الفرنسيين ، وبالتالي كانت تسمية طبقية الطابع. ولكن التسمية كانت أيضاً تشير إلى المعنى الرئيسي للكلمة - "الإنسانية" وأثار ذلك مجددا مسألة أصول الحركة الشيوعية في ممتلكات فرنسا في الشرق الأوسط.

حصلت الصحيفة على تصريح رسمي من السلطات الفرنسية كنانقة باسم حزب الشعب اللبناني. كان مؤسس الصحيفة ورئيس تحريرها ، يوسف يزبك. وأشارت الصفحة الأولى من كل من أعدادها الخمسة المنشورة إلى توجهها السياسي والاجتماعي : فقد أعلنت الصحيفة أنها "مخصصة للعمال" ، وتنشر لمصلحة "الفقراء ضد الأغنياء ، ولمصلحة العامل ضد الرأسمالي".

وقدمت الصحيفة الأسبوعية المكونة من ثماني صفحات نفسها على أنها مطبوعة "أنشئت لخدمة العمال والفلاحين والدفاع عن حقوقهم وتوحيد صفوفهم". وفوق اسمها وضعت شعار: "يا عمّال ، اتحدوا!". وكانت مشكلة العمل ، في الواقع ، الموضوع الرئيسي والوحيد لجريدة "الإنسانية". وأكدت الصحيفة رسمياً أنها ترى مهمتها في الترويج لـ "مطالب عمال البلاد" ، التي تم تبنيها وفقاً لاقتراح فؤاد شمالي من قبل المشاركين في التجمع في سينما "كريستال". وتم نشر هذه المطالب في عددها الأول. وكانت تتلق بفرض يوم عمل مدته ثماني ساعات ، ووضع حد أدنى مضمون للأجور ، ووضع مشروع لقانون للعمل ، وفرض قانون بشأن التعليم الشامل لأطفال العمال ، ومعاشات التقاعد للعمال عند بلوغهم السن المحدد للشيخوخة أو نتيجة الحوادث خلال العمل ، ومنع العمل في الورديات الليلية ، إنشاء مرافق إنتاج جديدة ، إلخ. وذكرت الصحيفة أن الطريق لحل هذه القضايا و"السبيل الوحيد لتحقيق تطلعات العمال" يمر عبر تطوير الحركة النقابية وتحويلها

إلى قوة قادرة على حماية مصالح العمال. ولم تتم في "مطالب العمل" الإشارة ولا حتى بكلمة واحدة إلى المشاكل الوطنية التي تقلق الوسط الاجتماعي في البلدين^(١).

كان الوضع مع الطبعة الأولى من جريدة الشيوعيين السوريين اللبنانيين مثيراً للفضول من نواح عديدة. وكان جوهر المشكلة هو أن "المؤسس" الرسمي للجريدة ورئيس تحريرها يوسف يزبك، كان يفهم القضايا الحقيقية لعملية تنظيم العمال المحليين بطريقة مختلفة تماماً عن تلك المتعمدة من جانب

الكاتب الرئيسي في جريدة "الإنسانية". لقد اعتبر النقابي اللبناني الرائد هذه القضايا غاية في حد ذاتها، بينما وضعها زعيم الجناح الثاني في الحزب الشيوعي السوري في سياق "وطني" أكبر. وكانت التناقضات بينهما، من نواح كثيرة، شبيهة بالوضع الذي نشأ في صفوف الحزب الاشتراكي المصري في وقت تحركه نحو الانضمام إلى الكومنترن. وكما هو الحال في الحالة المصرية، فإن اختلاف وجهات النظر داخل هذه المجموعة حول القضية الأساسية للنظرية الشيوعية لا يمكن إلا أن يميل إلى التعمق أكثر. وكان حدوث ذلك يحتاج فقط لظهور السبب. وفي ١٧ يونيو ١٩٢٥، تم حظر صدور "الإنسانية" بقرار من المندوب السامي الفرنسي^(٢). والسبب الرسمي لذلك، كان ظهور مقال عن مصر على صفحاتها، والذي قيمته سلطات الانتداب الفرنسي بأنه "تحريض غير مباشر يدعو إلى الاغتيالات السياسية". في الواقع، كان الأمر يتعلق بتغييرات جذرية في الوضع في سوريا، حيث اندلعت "الثورة السورية الكبرى". وبسبب ذلك، بدأت أنشطة هذه "الجريدة الشيوعية" خطيرة.

(١) نُشرت هذه الأعداد الخمسة مجلة "الإنسانية" في ١٥ و ٢٤ و ٣١ مايو / أيار وفي ٧ و ١٥ يونيو / حزيران ١٩٢٥.

(٢) نص القرار ضمن أحد الملاحق الوثائقية لـ // يوسف يزبك. المرجع السابق.

وأدى الحظر المفروض على الصحيفة إلى تفجير الحزب على الفور. كانت هذه أول أزمة داخلية خطيرة تضربه ، وبدت عواقبها بالنسبة للمشرفين الفلسطينيين على نشاط الحزب الشيوعي السوري ، صعبة التصحيح من نواحٍ عديدة. وقام هؤلاء بإبلاغ اللجنة التنفيذية للأمية الشيوعية بأن "اللجنة المركزية الأولى للحزب الشيوعي السوري ، لم تكن على القدر اللازم من المسؤولية للتعامل مع الوضع" ، وأوضحوا أن سبب ذلك هو أنه "من بين تسعة رفاق ، هناك واحد فقط ينتمي إلى الطبقة العاملة" (والمقصود طبعاً كان فؤاد شمالي). وذكروا أنه هو الوحيد الذي ظل مخلصاً للخيار الشيوعي ، أما الباقين - "وهم من المفكرين والمحامين والصحفيين فسرعان ما أصيب بخيبة أمل وانتقلوا إلى معسكر العدو".

ووفقاً للتقرير ، باتت "خيانة البعض علانية ، والبعض الآخر بدافع الخوف"^(١).

لاحقاً علق ي. تيبير (الذي استخدم الاسم المستعار - نعم) على ما حدث على النحو التالي : "لقد غادر الحزب المثقفون أو نصف أعضاء الحزب". ووفقاً له كان "رحيل أناطول الذي غادر البلاد بعد إغلاق الصحيفة كان بمثابة الضربة القوية". ثم كتب : "برحيله فقدنا آخر مثقف عربي وفقدنا الكثير من الصلات في بيروت ومدن أخرى"^(٢). بعد ذلك تحدث ي. تيبير عن الوضع في الحزب الشيوعي السوري ، وكتب يقول أنه بقي في الحزب فقط ١٥ شخصاً ، وجميعهم من "العمال". ووفقاً له تشكل "نواة الحزب" ، "من مجموعة

(1) Rapport du camarade Ichtyar au Secretariat de l'Orient.

(٢) هنا ولاحقاً : في اللجنة التنفيذية للكونغرس. تقرير أيار - تموز ١٩٢٥. للجنة المركزية للحزب الشيوعي السوري ولبنان. نعم. ٣٠ يوليو ١٩٢٥ // المرجع نفسه ، ص. ٤٩٥ ، اب ٨٤ وحدة الحفظ ٩ الصفحات ١-٥.

من المهاجرين من مصر الذين عملوا في الحزب المصري". في الوقت نفسه ، على حد قوله ، "يسكن جميع أعضاء الحزب في قرى جبل لبنان". وهناك يعمل كذلك حزب الشعب اللبناني بشكل مشروع ويبلغ عدد أعضائه ٧٠ شخصا. ولا توجد خلال ذلك خلايا حزبية عربية في عاصمتي المنطقتين الخاضعتين للسلطات الفرنسية - في بيروت ودمشق. تم تصحيح الوضع إلى حد ما من قبل مجموعة سبارتاك - "حتى وقت قريب ، تطورت الاتصالات فقط بين الأرمن الذين أقاموا علاقات مع الحزب الشيوعي في فرنسا والولايات المتحدة وأرمينيا".

كانت المجموعات الإقليمية للشيوعيين الأرمن أكثر أهمية من المجموعات العربية - ٤٠ عضوا في بيروت ، و ١٥ - في حلب ، و ٢٠ - في زحلة (أو ٧٥ شخصا في التركية الإجمالية للحزب الشيوعي السوري). علاوة على ذلك ، قال أي تيسير: "الرفاق الأرمن سيصبحون لاحقا عنصرا قيما للحزب بسبب مهاراتهم التنظيمية وتدريبهم الأفضل". لكن في المستقبل ، أفاد الشيوعيون الفلسطينيون من سوريا أن تطوير الحزب يتم فقط على حساب الأرمن. في الوقت نفسه ، افترضوا أنه بمساعدة الرفاق الأرمن ، سيتمكن الحزب من إنشاء خلايا في القوات المسلحة لجيش الانتداب ، وكذلك في تنظيم الحزب الشيوعي السوري في دمشق"^(١). وفي أكتوبر عام ١٩٢٥ وردت رسالة من دمشق إلى موسكو ذكرت أن نقابة عمال التبغ في بكفيا توسعت وبات عدد أعضائها ٢٠ عضوا ، من بينهم ثلاث نساء"^(٢). وبدأ أن الحزب أخذ يستعيد قوته تدريجيا. في خريف عام ١٩٢٥ ، أنشأ فؤاد

(١) تقرير عن عمل الحزب الشيوعي السوري لشهر آب - أيلول ١٩٢٥ ، ٧ تشرين الأول ١٩٢٥ // المرجع نفسه ، ص ٤-٥٩١.

(٢) تقرير عن عمل الحزب الشيوعي السوري لشهر تشرين الأول ١٩٣٥ ، نعوم بتاريخ ١٢ تشرين الثاني =/=

شمالي لجنة لتنظيم النقابات العمالية^(١)، والتي حظيت أنشطتها بتقدير كبير من قبل اللجنة التنفيذية للأمية الشيوعية^(٢). وأقام البروف اينترن اتصالات مع لجنة تنظيم نقابات العمال. في الواقع، كانت هذه أولى الاتصالات المباشرة بين الحزب الشيوعي في سوريا ولبنان مع المركز النقابي الدولي بقيادة الكومنترن^(٣).

في المقابل، بذل الشيوعيون الفلسطينيون كل جهد ممكن لاستعادة وحدة التنظيم الشيوعي السوري اللبناني. وقام ي. تبيير بإبلاغ اللجنة التنفيذية للأمية الشيوعية أنه تم في ديسمبر ١٩٢٥ عقد "مؤتمر" لمؤيدي الكومنترن في كلا البلدين، والذي أسماه "في الواقع... المؤتمر الأول للحزب". وحضر هذا الاجتماع ١٦ شخصا. (ستة عرب، ثمانية أرمن ويهودي واحد وتركبي واحد)، يمثلون مجموعات كانت متفرقة سابقا وعملت في بيروت وحلب ودمشق وزحلة وطرابلس وبكفاي و"منطقة العلويين"، وكذلك في بغداد والموصل. كان من بينهم فؤاد شمالي الذي أعاده أفيريوخ من فرنسا^(٤). ويوسف يزبك،

١٩٢٥ // المرجع نفسه، ص ٦-٧.

(١) فؤاد شمالي. أساس الحركات الشيوعية... ص ٣٢.

(٢) الأمية الشيوعية قبل المؤتمر العالمي السادس. مراجعة لأنشطة اللجنة التنفيذية للأمية الشيوعية وأقسام الكومنترن بين المؤتمرات الخامس والسادس، ص ٣٤٠.

(٣) في يناير ١٩٢٦، بتكليف من س. لوزوفسكي، نقل الشيوعيون الفرنسيون إلى ف. شمالي دعوة للمشاركة في اجتماع موسع للمكتب التنفيذي والمجلس المركزي للبروف اينترن. وأكدت الدعوة على أهمية مشاركة ف. شمالي في هذا اللقاء من منظور الآفاق المستقبلية للحركة النقابية في سوريا. كان من المفترض أن يتم تنظيم رحلة ف. شمالي إلى موسكو من قبل الشيوعيين الفلسطينيين. وأدى اعتقال ف. شمالي إلى إعاقة تحقيق فكرة مجيئه إلى الاتحاد السوفيتي عام ١٩٢٦. // RTSKHIDNI، f. 534، اوب ٦ وحدة الحفظ ١٢٩، صفحة رقم ١.

(٤) أشارت الوثيقة المذكورة إلى أن "أبوزيام عشر عليه في فرنسا وأعاده إلى سوريا" // نعوم إلى الدائرة =/=

وأ. أماديان وعلي نصر الدين^(١). ويجب الإشارة إلى هذا الأخير كان أحد أعضاء الوفد المرافق لقائد "الثورة السورية الكبرى" سلطان الأطرش، وأصبح وسيطا بين قيادته والحزب الشيوعي. أظهر التطور اللاحق للأحداث أن علي نصر الدين كان بعيدا كل البعد عن تأييد القيم البلشفية. ومع ذلك، أصبحت الانتفاضة الدرزية التي بدأت في سوريا محور اهتمام اللجنة التنفيذية للأمية الشيوعية وقسمها الفلسطيني^(٢).

خلال هذا الاجتماع، كما أفاد فؤاد شمالي و أ. ماديان، أعلن المشاركون أن هدفهم هو خلق "دولة عمالية" على أراضي سوريا ولبنان. وكمهمتهم الأساسية، طرحوا فكرة التوزيع الفوري الأراضي على الذين يزرعونها ويعملون فيها. لقد اعتقدوا أنه كان من

الشرقية للكونغرس، ١٤ أغسطس / آب ١٩٢٦ RTSKHIDNI //، ف. ٤٩٥، اوب. ٨٤ وحدة الحفظ ١١، الصفحة ٧.

(١) نفس المرجع ص ١-٧.

(٢) حتى قبل بدء الانتفاضة التي قادها الأمير سلطان الأطرش، في ١٦ مايو / أيار ١٩٢٤، نشرت اللجنة التنفيذية للأمية الشيوعية نداءً بعنوان "دفاعاً عن الشعب السوري". وأشار إلى أن "الأمية الشيوعية لا تقتصر على إدانة أعمال الإمبريالية الفرنسية باعتبارها انتهاكاً لحق الشعوب في تقرير المصير، بل وتدعو البروليتاريا الفرنسية إلى النضال بقوة ضد الإمبريالية المذبة في هذه الحرب.

وأشارت الوثيقة كذلك إلى أن: "الأمية الشيوعية وفرعها الفرنسي يقفان إلى جانب السوريين الذين يقاتلون من أجل حريتهم الوطنية ضد غزو الرأسمالية الفرنسية.. ويتحد نضال المتمردين السوريين مع النضال الذي يخوضه حالياً عمال المعادن وعمال المناجم وعمال النسيج في فرنسا مقابل ست فرنكات لمدة ثماني ساعات في اليوم ومن أجل حكومة عمالية. قام الفلاحون السوريون والعمال الفرنسيون، ربما دون أن يدركوا ذلك بأنفسهم، بتكوين جبهة موحدة في الوقت الحاضر. تتمثل مهمة الأمية الشيوعية وفرعها الفرنسي في إيصال أهمية هذه الجبهة الموحدة للوعي العام. المرجع السابق. اقتباس من // ف لوتسكي، المرجع السابق. ص ١٣٩-١٤٠.

الضروري البدء في العمل في هذا الاتجاه بمصادرة أراضي هؤلاء الإقطاعيين الذين وقفوا إلى جانب سلطات الدولة المنتدبة أثناء الانتفاضة في سوريا^(١).

في أكتوبر عام ١٩٢٥ ، وصل أفربوخ (أبوزيام) إلى بيروت ، وكان من المفترض أن يساعد في تنظيم الاتصالات بين المتمردين السوريين والحزب الشيوعي في سوريا ولبنان^(٢). وقبل ذلك بإصرار من تيسير تم تبني النداء المشترك للشيوعيين الفلسطينيين والسوريين اللبنانيين "احتجاجا على الإرهاب الإمبريالي الفرنسي في سوريا". في أغسطس عام ١٩٢٦ تم في الصحف التابعة للكونغرسين نشر تعليق^(٣) جاء فيه: "أيها البروليتاريا الأوروبية تقومون بأيديكم بصنع القذائف والقنابل اليدوية والطائرات التي تنشر الموت والدمار بيننا وتحول حقولنا وحدائقنا وقرانا ومدننا إلى مقابر. بعملكم وبعرقكم ، تستمر في الحياة هذه العصابة الحقيرة من اللصوص والجلادين. مئات الآلاف من الأرامل والأيتام في سوريا يناشدونكم: ضعوا حدا لجرائم برجوازيتمكم.. عليكم تكوين تحالف قتالي مع سوريا الثورية. نحن ملايين الشعوب المضطهدة في المستعمرات وأنتم عمال أوروبا ، لدينا عدو واحد - الإمبريالية الأوروبية".

لكن الحديث دار ليس فقط عن نشر النداء المذكور. في ١٤ نوفمبر ١٩٢٥ ، تلقى القسم الشرقي في اللجنة التنفيذية للأمية الشيوعية مذكرة من أفربوخ ، والتي أثارت قضايا الانتفاضة في سوريا بشكل حاد لا لبس فيه. لقد كتب زعيم الشيوعيين الفلسطينيين: "أن

(١) فؤاد شمالي ف. أساس الحركات الشيوعية ، ص ٣٦ ؛ وكذلك ماديان أ. نفس المرجع ص ٧٦-٧٧.

(٢) شمالي ف. أساس الحركات الشيوعية ، ص ٣٢.

(٣) هنا لاحقا// المراسلون الدوليون Correspondances Internationales. عام ، ١٩٢٦ ، رقم ٩٨ ، ص

الشرق كله ينظر إلينا، نحن البلاشفة، كحلفاء حقيقيين. ستكون سلبيتنا بمثابة مصدر لخبية أمل أعمق من خيبة الأمل التي أثارها المحبوبين السابقين من أمثال فؤاد وفيصل وعبدالله وغيرهم". كان واضحا أن كاتب المذكرة يشعر بالازدراء تجاه الملك المصري فؤاد والأمير فيصل، الذي أصبح مؤخرا العاهل العراقي، وشقيقه حاكم شرق الأردن الأمير عبد الله.

ثم تابع كاتب المذكرة: "خبية الأمل فينا، المرساة الأخيرة للشرق المقهور، ستؤدي إلى لامبالاة الجماهير وخيانة القادة". لقد سمحت الطبيعة السرية لهذه المذكرة لأفربوخ، بأن يكون صريحا للغاية ويؤكد أن "كل شيء يعتمد على نتيجة هذه الحركة" (الثورة السورية الكبرى). كان الأمر يتعلق بمراهنة عالية للغاية: "يمكن أن نحصل على الهيمنة في الحركة الوطنية في سوريا وفلسطين، إذا تمكنا من تحقيق السمو في موقفنا، إذا كنا قادرين على تقديم الدعم الفعال، ولا نكتفي بمجرد الكلام". بعد ذلك قام المذكور بكشف الأوراق: "لا يتعلق الأمر بهيبة الحزب الشيوعي الفلسطيني الصغير، بل يتعلق بهيبة الكومنترن بأسره في الشرق. القوميون العرب يقولون حاليا أن البلاشفة سيخافون من الخلاف مع فرنسا، وبالتالي سيتخلون عنا. وانتهت المذكرة بتحذير: "أنا أعتبر الوضع في غاية الجدية، وأي تأخير أو محاطلة في حل هذه القضية قد يكون له عواقب وخيمة على عملنا في الشرق"^(١).

وعلى ما يبدو، تركت هذه الكلمات انطبعا عميقا على اللجنة التنفيذية للأمية الشيوعية. في مطلع ديسمبر ١٩٢٥، تم إعداد وثيقة تحدد مهام المشاركين في المنظمة الشيوعية السورية اللبنانية. كان محتواها مثيرا للغاية. دار الحديث في المقام الأول عن أنه

(١) مذكرة أبو زيام، ١٤ نوفمبر ١٩٢٥ // RTSHIDNI، ف. ٤٩٥، اوب. ٨٤ وحدة الحفظ ١٠، ص

يجب على الشيوعيين في كلا البلدين أن "يراجعوا بشكل جذري برنامج عملهم من زاوية شطب كل اللحظات الشيوعية على وجه التحديد منه". علاوة على ذلك، تم شرح هذا "التوجيه": "رسميا يجب أن يقود الحزب الجمهوري الثوري - الشعبي، الحركة السياسية، وأن يكون العمل موجها نحو العمال وكذلك الفلاحين والبدو وأن يضم في صفوفه المثقفين من أبناء البلد الأصليين والبرجوازية الصغيرة والمتوسطة". لقد كان ذلك تحولا جذريا في الإعدادات التكتيكية. وبدا واضحا أن الاتصالات بين اللجنة التنفيذية للأمية الشيوعية و "الدكتور عارف" لم تمر مرور الكرام.

لكن المهمة التي طرحتها اللجنة التنفيذية للأمية الشيوعية تم تجسيدها وشحذها بمنعطفات جديدة بالنسبة للموضوع الرئيسي. كان يجب على التنظيم الشيوعي السوري اللبناني، في ظروف الانتفاضة، أن "يتطور وفق نموذج حزب الشعب اللبناني الحالي (حزب شعب لبنان) الذي كان يجب أن يوسع مجال نشاطاته وعمله.

وشددت اللجنة التنفيذية للأمية الشيوعية على ضرورة أن تقوم المنظمة التي يرأسها فؤاد شمالي، بترتيب "اتصالات عمل مع الكونغرس العربي ومع مصر (على ما يبدو، كان الأمر يتعلق بالمؤتمر السوري الفلسطيني الذي كان يعمل في مصر في أوائل عشرينيات القرن الماضي، وتنظيم القوميين العرب، وأنصار وحدة "سوريا التاريخية") ومن خلال الأخيرة مع تركيا وأوروبا. بعبارة أخرى، طالب الكومنترن مؤيديه السوريين اللبنانيين بإقامة أكبر قدر ممكن من العلاقات والتعاون مع القوميين من أجل استغلال فرصهم في تعميق زعزعة الاستقرار الإقليمي.

وفي المادة التالية من الوثيقة المذكورة تم تأكيد ذلك مجددا: "ويظهر من تلقاء نفسه السؤال عن مسألة إنشاء مركز مشترك لتوجيه كل حركات التحرير في مستعمرات حوض البحر الأبيض المتوسط. لا ينبغي أن يكون هذا المركز شيوعيا، بل يجب أن يستخدم المؤتمر

العربي على نطاق واسع".

لكن كيف كان يجب بناء العلاقات بين هذا "المركز" والكومنترن؟ احتوت الوثيقة المذكورة على إجابة واضحة على هذا السؤال: "يجب أن يرتبط هذا المركز بشكل سري ووثيق بالكومنترن وبالحزب الفرنسي (الحزب الشيوعي الفرنسي)". وطلب من الشيوعيين السوريين اللبنانيين "تعزيز علاقاتهم" مع الحزب الشيوعي الفرنسي واستخدام "في عملهم السياسي ... تضارب المصالح بين فرنسا وإنكلترا".

ولكن بعد ذلك بدأ الحديث يدور عن أشياء جادة حقاً. نصت وثيقة اللجنة التنفيذية للأمية الشيوعية التي تم الاقتباس منها على أن "المساعدة العسكرية للمتمردين السوريين وغيرهم من المتمردين ضرورية للغاية، لكن لا يجب أن يكون للكومنترن والاتحاد السوفيتي أي علاقة على الإطلاق بهذا الأمر، بما في ذلك لا يجوز تحت أي ظرف من الظروف استخدام العاملين الروس في هذا الاتجاه".

أخيراً، أكملت الوثيقة مطالبة الشيوعيين الفرنسيين بتقديم "مساعدة نشطة في نشر الأدب الثوري باللغة العربية لحوض البحر الأبيض المتوسط بأكمله"^(١).

فيما يتعلق بالوثيقة المذكورة، يبدو من الضروري أن نأخذ حالتين بالاعتبار. قبل كل شيء يجب الحديث عن وجود دليل واضح لمحاولة تنظيم "تدخل خجول" سوفياتي^(٢) في إحدى دول الشرق. في النهاية، يجب تسمية الأشياء بأسمائها الصحيحة، خاصة وأن هذه

(١) هذه الوثيقة بدون عنوان مؤرخة في ٨ ديسمبر ١٩٢٥ // المرجع نفسه، ص. ٤١-٤٣.

(٢) هذه العبارة تعود للباحث الروسي المعروف عن الكومنترن والحركة الشيوعية في الشرق م. بيرستس.

انظر: Persits M.A. التدخل الخجول. حول الغزو السوفيتي لإيران وبخارى في ١٩٢٠-١٩٢١م،

الوثيقة ، وكذلك مذكرة ف. أفربوخ ، تثبت ببلاغة ما كان مخفيا بالفعل وراء ما تسميه موسكو "دعم حركات التحرر الوطني في البلدان المستعمرة والتابعة" ، وكيف نظر الكومنترن إلى الأحزاب والمنظمات الشيوعية التي نشأت في هذه البلدان.

لقد أخفى الخطاب البلشفي في تلك السنوات الادعاءات الجيوسياسية المعتادة لدولة "العمال والفلاحين" التي كانت تسعى للحصول على مكانة الدولة العظمى. لكن رغم ذلك لم تكن المشكلة تنحصر في هذا الموضوع فقط. وبالطبع ، كان القوميون العرب في سوريا ودول أخرى في المنطقة بحاجة إلى مساعدة حليف خارجي ، وهذا الحليف أصبحت روسيا السوفيتية ، ثم الاتحاد السوفيتي فيما بعد.

كان هناك بالفعل "تعاطف مع الشيوعية" في العالم العربي والشرق الأوسط ، وكان ينظر إلى موسكو من قبل "القادة الوطنيين" المحليين ، وذلك وفقا لتأكيدات عملاء اللجنة التنفيذية للأمم الشيوعية ، على أنها "المقاتل المخلص الوحيد من أجل استقلال الأمم المضطهدة"⁽¹⁾. والمقطع المتعلق بـ"الدكتور عارف" يدل على ذلك. بمعنى آخر ، أجرى هؤلاء القادة اتصالات مع موسكو من أجل حل مشاكل التحرر الوطني التي كانت تقلقهم. في الوقت نفسه ، توقعوا أنهم في العاصمة السوفيتية سيحصلون على الفور على مساعدة شاملة ، بما في ذلك المساعدة العسكرية. لقد اعتقدوا أن هذه المساعدة ستكون نزيهة وبدون مآرب ، وأن شعارات موسكو صادقة حقاً. والوثيقة التي تم الاقتباس منها تبدو ملفتة للانتباه ، حيث طالب الكومنترن (والدولة التي تقف وراءه) القوميون المحليين بتطوير الاتصالات مع أولئك الذين كانوا بالفعل حلفاء إقليميين له. لقد سعى الكومنترن إلى إخضاعهم للشيوعيين ، وفي النهاية ، تحويلهم إلى العقيدة البلشفية.

(1) Au C. E. de l'I.C., Moscou. La foundation du Parti Communiste de Syrie.

ما هي قيمة الفرق الذي أكدته باستمرار هذه المنظمة (وبالطبع الاتحاد السوفيتي) بينها وبين "اللصوص والمغتصبين الإمبرياليين"؟ خاصة وأن العملاء المحليين لهؤلاء "اللصوص" تمتعوا بالدعم الكامل تقريباً من كل من بريطانيا وفرنسا. في حالة الكومنترن، دار الحديث قبل كل شيء عن تخريب المنظمات القومية التي نشأت بالفعل وبدأت أنشطتها، فقط لأن اللجنة التنفيذية للأمية الشيوعية، شاهدت في هذه الطريقة الحل لمشكلة توسيع التأثير الجيوسياسي السوفيتي. ولكن الاتحاد السوفيتي تصرف "بخجل" في هذا المجال لأن العلاقات مع "الدول الإمبريالية"، كانت تشكل الأولويات بالنسبة له. هذه الروابط مع "الدول الإمبريالية"، كان يمكنها أن توفر لدولة "العمال والفلاحين" التكنولوجيات الضرورية والمتخصصين والموارد المالية. نتيجة هذه المواقف "الخجولة" كانت على شكل شعارات وبيانات ونداءات، لكن القوميين العرب كانوا بحاجة إلى أسلحة ومعدات عسكرية، وكذلك مساعدات مالية. وطبعاً لم يتم الحصول على هذه المساعدات المرجوة ولهذا السبب انهار الاتحاد والتحالف المرغوب من الطرفين قبل أن ينشأ. وحدث ما توقعه ف. أفربوخ في مذكرته. ومع ذلك فسرت نوايا اللجنة التنفيذية للأمية الشيوعية، تجاه "الثورة السورية الكبرى"، وأوضحت إلى حد كبير النشاط المتزايد للشيوعيين الفلسطينيين لترتيب وتكوين تنظيم محلي للشيوعيين في سوريا ولبنان. وكان لا بد من إقامة اتصالات مع المشاركين في الانتفاضة بمساعدة الشيوعيين السوريين. وكان يجب أن يكونوا فقط من العرب، بينما من الواضح أن أعضاء مجموعة الحزب الأرمني لم يكونوا مناسبين لهذا الغرض. بالمناسبة، نفس هذه النوايا من جانب قيادة الكومنترن تفسر سبب حضور القومي الدرزي علي نصر الدين في اجتماع ديسمبر ١٩٢٥ لممثلي الجماعات الشيوعية في كلا البلدين. في هذا الاجتماع، قام الحزب "بمراجعة جذرية لبرنامج عمله". لكن هل كانت جموع الشيوعيين السوريين واللبنانيين جاهزة لحل المهام التي تقف في وجهها؟ يا

للأسف ، لا يمكن الإجابة على هذا السؤال إلا بالنفي.

عند إشارته إلى ذلك قال تيبير ، في التقرير الذي قدمه إلى اللجنة التنفيذية للأمية الشيوعية ، عن هذا الاجتماع : "في اليوم الثاني بعد انعقاده ، اعتقلت السلطات جميع المشاركين فيه تقريبا. سبب الاعتقالات كان خيانة أحد أعضاء الخلية الشيوعية في بيروت ووشايته للشرطة"^(١). وبعد ذلك بقي الحزب على مدى أكثر من عامين بقليل بدون قيادات^(٢). وشكل ذلك ضربة قوية ، ليس فقط للحزب ، بل ولنوايا الكومنترن في سوريا. ومع ذلك ، فإن القضية لم تكن فقط قضية الاعتقالات. لم يكن بمقدور الشيوعيين القيام بالمهمة الموكلة إليهم لأسباب أكثر جدية. لقد تبين أن الزعيمين العربيين في المنظمة السورية اللبنانية - يوسف يزبك وفؤاد شمالي - غير قادرين على العمل في اتجاه إقامة اتصالات مع الثوار. الأول لم يعد يحظى بثقة ممثل الكومنترن في سوريا - تيبير. ويتبين من الرسائل التي بعثها هذا الأخير أرسلها إلى موسكو ، أنه لم يستطع أن يغفر ليوسف يزبك هروبه إلى فرنسا بعد إغلاق "الإنسانية".

وقام تيبير بإبلاغ اللجنة التنفيذية للأمية الشيوعية ، بأن يوسف يزبك يحظى بمعاملة حسنة في السجن (لم يوضع في زنزانة مشتركة) ، وأنه كان ثاراً وكانت لديه رغبة في فرض سلطته في الحزب. ولهذا السبب طلب تيبير من اللجنة التنفيذية للأمية الشيوعية رأيها وسئل ، هل حان الوقت لإبعاد يزبك من الحزب^(٣) أما فيما يتعلق بالزعيم الثاني فؤاد شمالي ، فكان الوضع أكثر تعقيدا. و فقط في تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٢٥ ، بدأ

(١) المرجع نفسه ، ف. ٤٩٥ ، اوب. ٨٤ وحدة الحفظ ١١ ، ص ٦-٧.

(2) Rapport du camarade Saddek delegate du Parti Communiste Syrie au 6-ieme Congres de l'I.C. a la Commission de controle.

(٣) المرجع نفسه ، ف. ٤٩٥ ، اوب. ٨٤ وحدة الحفظ ١١ ، ص ٧.

الشيوعيون السوريون اللبنانيون ، بعد التدخل الشخصي من جانب أفربوخ ، بفرض الاتصالات الأولى مع المشاركين في "الثورة السورية الكبرى". ووفقا لفؤاد شمالي لعب علي نصر الدين ، دور "حلقة الوصل بين الحزب والمتمردين"^(١).

وخلال الاجتماع الأول معه ، الذي شارك فيه شمالي وأفربوخ وتيبر ، تم إبلاغ نصر الدين بأن الشيوعيين في سوريا ولبنان سيستفيدون من إمكانيات الحزب الشيوعي الفرنسي ، وبمساعده سيقوم الكومنترن بنشر الأنباء عن تطور الانتفاضة وتنظيم حملة تضامن دولي مع القوميين السوريين. وتم إبلاغه كذلك بأنه سيتم نقل الأسلحة والذخيرة إلى مناطق الانتفاضة بمساعدة الشيوعيين ، وسيصل هناك أشخاص على خبرة أساسيات الفن العسكري. كان الشيوعيون يعتزمون تزويد المتمردين بالمساعدة المالية.

وبالإضافة لذلك تم إبلاغ علي نصر الدين أنه تم بدء حملة دعائية بين العسكريين الفرنسيين وخاصة من أبناء شمال إفريقيا الناطقين بالعربية وكذلك بين الأرمن والموارنة الذين يخدمون في الجيش الفرنسي ، ودعوتهم للتآخي مع "المشاركين في الثورة". ولكن فؤاد شمالي لم يكن علنا يثق بنصر الدين. علاوة على ذلك ، فإن موقفه تجاه ممثل المتمردين كان الازدراء المطلق. وكان فؤاد شمالي يسخر من نصر الدين ويسميه "الوطني والبطل الخلفي" ، و"صاحب السعادة" ، و"المقاتل-الوطني الثوري" ، مظهرا صراحة عدم إيمانه بواقع المواقف الوطنية للوسيط بين الطرفين ، الحزب الشيوعي وقيادة "الثورة السورية الكبرى". على الأرجح ، كان فؤاد شمالي يعتبر أفعال شركائه الفلسطينيين عبارة عن حركة بهلوانية دورية من جانب "المثقفين" ، لا تليق بالشيوعي الحقيقي. شمالي كان متحمسا بصدق لتنظيم العمال ، حيث رأى فيهم فقط القوة القادرة على تغيير العالم ، بما

(١) هنا ولاحقا: شمالي ف. أساس الحركات الشيوعية ... ص ٣٣-٣٥.

في ذلك ، بالطبع في لبنان وسوريا. لم يستطع ببساطة اعتبار أشكال النشاط الأخرى مثمرة. بالطبع ، قلل موقفه بشكل كبير من فعالية الاتصالات مع الثوار السوريين ، وكذلك إيمانهم ، بصدق نوايا الشيوعيين.

وقد حدث ذلك على خلفية الخط الذي روج له الكومنترن (بالطبع ، من قبل الشيوعيين الفلسطينيين الذين كانوا على اتصال مع فؤاد شمالي) حول تطوير "التمايز الطبقي" في صفوف الثوار والمتمردين^(١).

(١) العديد من الدراسات التحليلية ، التي كان مؤلفوها شيوعيون فلسطينيون وعلماء سوفيات ، والتي نُشرت خلال سنوات "الثورة السورية" في صفحات مطبعة الكومنترن ، تسمح لنا باستنتاج أن هذه كانت فترة اهتمام مكثف من قبل اللجنة التنفيذية للأمة الشيوعية تجاه سوريا. وأشارت هذه الدراسات إلى أن الشيوعيين اللبنانيين السوريين يجب أن يبنوا تكتيكاتهم على أساس العمل المشترك مع الوطنيين من أجل تصعيد النضال ضد الاستعمار. وأكد مؤلفوها على أن شعارات الاستقلال الوطني ، وانسحاب قوات الاحتلال ، وانعقاد جمعية تأسيسية ، وإنشاء جمهورية ديمقراطية تضمن توزيع الأراضي للفلاحين ، والحماية التشريعية لحقوق العمال وحماية السيادة السورية في مصلحة جميع الطبقات والشرائح الاجتماعية المشاركة في الحركة المناهضة للفرنسيين // مجلة "الشيوعية الدولية" ، عام ١٩٢٥ ، رقم ١١ ، ص ١٢٠.

وكان يُنظر إلى الحركة الوطنية السورية على أنها بعيدة كل البعد عن التجانس من حيث أهداف وغايات أعضائها. على الرغم من "وحدتها الظاهرية" ، فإنها "تحمل في حد ذاتها بالفعل جنين تلك التناقضات الموجودة بين مختلف طبقات السكان المحليين ، والتي يمكن من خلالها رسم خط واضح بين كبار الإقطاعيين ، والبرجوازية الحضرية ، والفلاحين والبروليتاريا الصناعية" // "الأمة الشيوعية" ، ١٩٢٥ ، العدد ١٢ ، ص ٣٤-٣٥. وكما لوحظ في هذه المنشورات ، فإن التناقضات بين مصالح الإمبريالية الفرنسية والبرجوازية الوطنية في سوريا ولبنان التي قامت في أوائل العشرينات باتخاذ الخطوات الأولى نحو "أخذ قيادة الحركة الوطنية بأيديها" ، يمكن ويجب ، في ظروف مشاركة الطبقة العاملة والفلاحين في الحركة الوطنية ، أن تؤدي إلى صدام مفتوح بينها وبين السلطات الاستعمارية. تحت ضغط النضال

كان هذا تنميق أو تزويق للكلام كان يعني أنه سيظهر في صفوف الثوار معارضين أكثر ثباتاً ضد النير الفرنسي، وهم بالذات سيقعون في المستقبل تحت راية الشيوعية. وطبعاً شاهد فؤاد شمالي فيهم واعتبرهم كمنافسين له في المستقبل. ومع ذلك، فإن الفترة التي تطورت خلالها الاتصالات بين أ. نصر الدين والشيوعيين كانت قصيرة للغاية.

لكن الفترة التي دامت خلالها الاتصالات بين علي نصر الدين والشيوعيين كانت قصيرة جداً. في الواقع خلال كل فترة ١٩٢٦-١٩٢٧، قبع قادة التنظيم الشيوعي السوري - اللبناني في السجن ثم كانوا في المنفى بعد ذلك. ومن هناك كان بمقدورهم فقط مراقبة التطور اللاحق لـ "الثورة السورية الكبرى" بدون التأثير عليها. وهذه المراقبة عززت فقط تحيزهم ضد القوميين. وبدا لفؤاد شمالي ولأنصاره أن هذا التطور يبرر تنصلهم من النقاط الرئيسية من "التوجهات" الكومنترن التي اضطروا للائتمثال لها. لقد أقام المؤتمر السوري - الفلسطيني علاقات وثيقة مع قيادة حركة التمرد في سوريا، لكن قادتها، بالاعتماد على هذه العلاقات، قاموا بحل مهامهم الخاصة، وأهمها توحيد الأراضي

الثوري للشعب، ستخضع الأحزاب القومية الإصلاحية إلى تفكك داخلي، وستفصل عنها التيارات اليسارية، القادرة على التطور نحو موقف ثوري قومي. ويجدر الذكر أن ألغوات والأفندية لعبوا دور العماد الرئيسي للإمبريالية في كلا البلدين، ولم يحاول هؤلاء بتاتا المشاركة في تحرير الجماهير، وكانوا يميلون دائماً إلى التواطؤ... مع فرنسا من أجل الحفاظ على مصالحهم الطبقية" // مجلة "الشيوعية الدولية"، عام ١٩٢٤، رقم ٢٩، ص ٣٣٣. وأشارت المنشورات نفسها إلى أن الشيوعيين في كلا البلدين يجب أن ينتهجوا سياسة التحالف مع "العناصر الثورية الوطنية" في قيادة الانتفاضة. في الوقت نفسه، تم التأكيد على الفكرة القائلة بأن أي محاولات للتقليل من دور البرجوازية الوطنية، "كل أنواع التجاوزات اليسارية (إعادة تقييم دور البروليتاريا، وشعار السوفييتات، إلخ) ستؤدي بلا شك إلى عزل الشيوعيين السوريين عن التيار الرئيسي للحركة الوطنية" // "الأمية الشيوعية"، ١٩٢٥، العدد ١٢، ص ٣٤.

السورية ، والتخلص من الطابع "الطائفي" للدويلات القائمة هناك ، وبالطبع المشاركة في إدارة البلاد.

في عام ١٩٢٦ ، دعا أكبر ملاك الأراضي السوريين ، ميشال لطف الله ، الذي ترأس فرع القاهرة من المؤتمر السوري الفلسطيني ، بصراحة إلى البحث عن أسس جديدة للتفاهم على أساس المفاوضات ، وليس على أساس المواجهة العسكرية ، مع سلطات دولة الانتداب^(١). وكان يجب تقييم هذه الدعوة من جانب الشيوعيين السوريين اللبنانيين على أنها "خيانة" علنية لقضية "الثورة". وبالطبع هم لم يحاولوا الإجابة على السؤال عن سبب سماع هذه الأصوات في معسكر المشاركين الحقيقيين في النضال ضد فرنسا ، وما الذي كانوا يعنون بـ "التفاهم المتبادل" مع الإدارة الفرنسية. وكان هذا هو الشيء الرئيسي. في مايو ١٩٢٦ وافقت السلطات الفرنسية على تشكيل "حكومة وطنية سورية" ، التي تضم ممثلين عن القوميين. ورفض المفوض السامي لفرنسا دي جوفينيل إجراء أي مفاوضات حول مصير الانتداب ، ولكن ذلك لم يكن يعني أن الانتداب الفرنسي استمر في الإصرار على تقطيع أوصال البلاد ورفضت الفكرة التي طرحها القوميون بإحداث الجمعية التأسيسية واعتماد أول دستور سوري.

علاوة على ذلك ، تم في عام ١٩٢٦ اعتماد دستور في لبنان وإعلان الجمهورية هناك ، وتم إنشاء مجلس النواب الذي وافق على أول حكومة وطنية في البلاد. وفي عام

(١) أشارت صحافة الكومنترن ، اعتمادا على معلومات من الشيوعيين الفلسطينيين ، في هذا الصدد : "... يمكن أن تؤدي مشاركة عدد من "المانحين" المالين الأثرياء في الحركة الوطنية ، في اللحظة الصعبة للانتفاضة ، إلى انتقالهم إلى معسكر الإمبريالية وخيانتهم لقضية التحرر الوطني " / " المراسلون الدوليون " ، ١٩٢٨ ، رقم ٣ ، ص ٣٨.

١٩٢٨ ، وافق المفوض السامي الفرنسي الجديد بونسو ، على إجراء انتخابات برلمانية في سوريا أيضاً. وفي ٢٤ أبريل من نفس العام ، أجريت هذه الانتخابات. وفاز بالغالبية العظمى من مقاعد الجمعية التأسيسية المشكلة حديثاً ممثلو الكتلة الوطنية ، وهي تشكيل سياسي جماهيري من القوميين السوريين ، مماثلة في كثير من النواحي لحزب الوفد المصري. أعلن الدستور السوري ، الذي اعتمدته الجمعية التأسيسية في أغسطس ١٩٢٨ ، البلاد جمهورية برلمانية مستقلة. ولم يرد ذكر لإدارة الانتداب في نصوص الدستور. وأدى الخلاف الذي نشأ في هذا الصدد بين الكتلة الوطنية والسلطات الفرنسية إلى حل البرلمان السوري الأول.

وبات الدستور السوري الجديد ساري المفعول فقط في عام ١٩٣٠ ، وفقط بعد إضافة مادة إلى نصه تتعلق بالحفاظ على إدارة الانتداب في البلاد. لقد حققت الحركة الوطنية في كلا البلدين نجاحاً باهراً.

لكن الشيوعيين لم يروا فيها أكثر من تأكيد لـ "خيانة" قادة هذه الحركة ، الذين لم يسمحوا بنتيجة مختلفة لأحداث ١٩٢٥-١٩٢٧.

في عام ١٩٢٦ ، أخبر ف. أفربوخ رفاقه اللبنانيين السوريين أن دعمهم لـ "الثورة السورية الكبرى" لن يغير الوضع الداخلي في كلا البلدين فحسب ، بل سيوصلهم إلى السلطة أيضاً. وذكر أن الضمان في ذلك هو التطور الموضوعي للأحداث - قاتل في بداية الانتفاضة ضد القمع الفرنسي "فقط الدروز المعزولون ، ثم انضم إليهم الفلاحين والبدو من الريف ، وأما الآن فبات يشارك في النضال سكان المدن بقيادة البروليتاريا"^(١). وبالطبع كانت هذه البروليتاريا الثورية ، بقيادة الشيوعيين. وتوقع ف. أفربوخ بأن هذه البروليتاريا

(١) هنا ولاحقاً أبو زيام. قوى الثورة السورية. "المراسلون الدوليون". عام ١٩٢٦ ، رقم ١٠٠ ، ص ١١٠٧.

الثورية ، ستكون القوة التي سيعتبرها المسلمون والدروز والموارنة بمثابة "المناصر الأكثر ثباتا للعمل الموحد المناهض للإمبريالية". ولكن ذلك لم يحدث. وأدى الدعم الشيوعيين لانتفاضة سلطان الأطرش ، فقط إلى هزيمة تنظيمهم. وانقطعت الاتصالات بين الأعضاء العرب في الحزب وفروعه الأرمينية مرة أخرى.

وتسبب القمع الذي جرى في ١٩٢٦-١٩٢٧ "بالتدمير الكامل" للمنظمات النقابية التي أنشأها الشيوعيون سابقا في بيروت وبكفائي وحلب. وأما إضرابات عمال مختلف المهن التي جرت في حمص ودمشق وحلب وبيروت عام ١٩٢٧ فلم يكن لها علاقة بأنشطة الشيوعيين الذين ظلوا طلقاء. واعترفوا بذلك بأنفسهم ، قائلين إن هذه الإضرابات "لا يمكن اعتبارها مظهرا من مظاهر الحركة المنظمة" للعمال. لم يتم إعادة تأسيس نقابة بكفائي للتبغ إلا في عام ١٩٢٧ ، وفي ذلك الوقت لم يكن عدد أعضاء النقابة يبلغ سوى عشرة أعضاء. في بداية الصيف من العام التالي ، زاد عدد أعضائها إلى ٦٠ شخصا. ولكن كما لاحظ الشيوعيون أنفسهم ، كان هناك في ذلك الوقت "ألفي بروليتاري على الأقل" في جبل لبنان. و فقط في يناير ١٩٢٨ ، انعقدت الجلسة الكاملة الأولى للجنة المركزية للهيكل الحزبي المعاد تشكيله مجددا في بيروت^(١).

ولكن السياق الذي بدأت فيه العمل مرة أخرى أصبح مختلفا اختلافا جوهريا. في عام ١٩٢٨ ، اعترف الكومنترن رسميا بالتنظيم الحزبي الموحد لشيوعي سوريا ولبنان - الحزب الشيوعي السوري (SKP) وتم ضمه إلى صفوفه. وحضر المؤتمر السادس للأمية الشيوعية فؤاد شمالي (صادق) ، الذي مثل رسميا "القسم السوري". كانت البنود الرئيسية في التقرير المقدم من قبله إلى لجنة المراقبة في المؤتمر مثيرة للفضول. وفي ذلك التقرير أشار ، أولا وقبل

(١) RTSHIDNI ، ف. ٥٣٤ ، اوب. ٧ وحدة الحفظ ٤٥٦ ، ص ٢٨.

كل شيء ، إلى أن حزبه تأسس "كقسم من الحزب الشيوعي الفلسطيني" ، عام ١٩٢٥ (وكان يقصد طبعاً ديسمبر ١٩٢٥ ، وتنصل ، في الواقع ، من جميع الأنشطة السابقة التي قام بها بيرغير). ووفقاً له أهمل الفلسطينيون الذين أشرفوا على نشاطات الشيوعيين السوريين - اللبنانيين واجباتهم باستمرار. وفسر فؤاد شمالي اعتقال قيادتهم في ديسمبر ١٩٢٥ ، فقط بعدم اليقظة من جانب تبيير.

وذكر أن الحزب الشيوعي الفلسطيني لم يفعل شيئاً ، طوال فترة سجن ونفي الشيوعيين السوريين اللبنانيين ، وخاصة فيما يقيم "بدعم عائلات المعتقلين". وبسبب تأخيرات وتلكؤ قيادة هذا الحزب تأخر فؤاد شمالي نفسه عن حضور المؤتمر. وأكد شمالي على أن "حيدر (ف. أفربوخ) حاول في المؤتمر الحضور كممثل لثلاثة أحزاب (مصر وفلسطين وسوريا)". ووفقاً لفؤاد شمالي ، كل ذلك شرح وفسر "خط" الحزب الشيوعي السوري وسعيه - "لتحقيق الاستقلال ، وإقامة علاقات مباشرة مع الأهمية الشيوعية"^(١).

بالطبع ارتبط هذا "الاستياء" ضد الحزب الشيوعي الفلسطيني ، قبل كل شيء ، بنتائج "الثورة السورية الكبرى". حاول الشيوعيون السوريون - اللبنانيون الخروج من تحت وصية الحزب الشيوعي الفلسطيني ، وبدأ لهم أن الاتصالات المباشرة مع الكومنترن ستمكنهم من فهم المهام الموضوعة أمامهم بشكل أفضل. وحتماً كان الجانب المالي كذلك يحظى باهتمامهم. ولقد أعدت اللجنة المركزية للأهمية الشيوعية بالفعل مشروع قرار بشأن الوضع في سوريا ، حدد مهام الحزب الشيوعي السوري. لم يعد بمقدور اللجنة التنفيذية إلا الإعجاب "باستقلالية" هؤلاء الزعماء الآن. وأشارت هذه الوثيقة ، قبل كل شيء ، إلى أن "الانهيار الكامل للثورة الوطنية" كان سببه "استسلام مختلف التجمعات السياسية

(1) Rapport du camarade Saddek delegue du Parti Communiste Syrie au 6-ieme Congres de l'I.C. a la Commission de controle.

البرجوازية القومية"^(١).

وقيل هناك أيضاً أن جميع التغييرات الداخلية التي بدأت في سوريا لم تكن سوى نتيجة "تسوية بين الإمبريالية الفرنسية وأغلبية الإقطاعيين والبرجوازية المحلية". وضمن هذه "التسوية"، وافقت السلطات الفرنسية فقط على "تخفيف سياسة الانتداب" و "الوعد بإصلاحات وهمية"، و "ساعدتها القوميون في ذلك".

ماذا كان يجب على الحزب الشيوعي السوري أن يفعل في هذه الظروف؟ أشارت الوثيقة إلى ضرورة تخلصه من أوجه القصور في نشاطاته. ومن بينها تم ذكر أن "٦٠٪ من أعضاء الحزب كانوا من الأرمن و ٤٠٪ فقط من العرب"، وأن عمل الحزب بين العمال كان ضعيفا، ولا يوجد فلاحون في صفوفه، "رغم أن المشكلة الزراعية هي المشكلة الأساسية" في البلاد.

وكان على الحزب أن يتخطى "تششت التنظيمات" الموجودة في صفوفه، وأن ينشئ هياكله الخاصة ليس "في لبنان" فحسب، بل "في جميع أنحاء سوريا".

وتم اقتراح استقطاب "أبناء البلد" إلى صفوف الحزب، وبالتالي تغيير النسبة بين ممثلي المجموعات القومية الأرمنية والعربية. بالطبع، كان لا بد من ترقية "العمال" إلى المناصب القيادية للحزب. وكان يجب أن يصبح أساس هيكلها التنظيمي "الخلايا في المصانع واللجان الفلاحية"، وبلا شك "الخلايا في الجيش". وتمت مطالبة الحزب "بتحديد وضعه المستقل تجاه الأحزاب القومية"، وعدم تقديم "أي تنازلات لها" وتحقيق "هيمنة البروليتاريا في الحركة الوطنية". ولهذه الغاية، اقترحت اللجنة التنفيذية للأمية الشيوعية "برنامج عمل" على

(١) هذا ولاحقا:

الحزب الشيوعي السوري. وكان على الحزب أن يبدأ على الفور "بالترويج السياسي" من أجل "انسحاب الإمبريالية الفرنسية واستعادة الوحدة الإقليمية للبلاد، دون أي تمييز بين الخطوط الجغرافية التي تم ابتداعها بالمعاهدات والاتفاقيات الإمبريالية المصطنعة، أو التي أنشأتها الإمبريالية الفرنسية مباشرة، من ناحية أخرى".

بمعنى آخر، لم يكن الأمر يتعلق بالحدود السورية الداخلية فحسب، بل أيضاً بالحدود بين دول الشرق الأوسط والعالم العربي. في الواقع، كان الحزب الشيوعي السوري يهدف نحو إنشاء "حزب شيوعي عربي" وتجاهل الوضع القانوني للبنان. وتعهد الشيوعيون السوريون -البنانيون بالإعلان عن دعمهم لفكرة "ضمان حقوق الأقليات العرقية"، ولكن فقط لأن "الإمبريالية تجتذب هذه الأقليات إلى جانبها". كان من المفترض أن يقوموا بـ "التحريض السياسي" من أجل إقامة "الجمهورية وضد عودة النظام الملكي"، رغم أن هذه القضية لم تظهر بسبب خصوصية العلاقات بين السلطات الفرنسية والهاشميين.

ومن الملفت للنظر أن هذا المطلب من جانب اللجنة المركزية للأمية الشيوعية كان يهدف إلى المساعدة في تعزيز موقف فرنسا في سوريا على حساب النفوذ البريطاني. على ما يبدو، استمر الكومنترن في "استخدام التناقضات" بين هاتين الدولتين. افترضت الدعاية لفكرة الجمهورية السورية أن الحزب الشيوعي السوري سيستفيد من فرص النشاط القانوني (المشاركة في الحملات الانتخابية للبرلمان)، لكن الشيء الرئيسي في هذه الحالة كان "التحريض على إنشاء المجالس - السوفيات". بالطبع، كان على الشيوعيين السوريين اللبنانيين طرح برنامجهم في المسألة الزراعية. وطالب الكومنترن بأن يشمل ذلك، قبل كل شيء، شعارات الإصلاح الزراعي ومصادرة أراضي الإقطاعيين ورجال الدين الذين "خانوا الثورة" وتوزيعها بين الفلاحين. بالطبع، كان ينبغي تزويد هذا البرنامج بالتفاصيل،

بما في ذلك الأحكام المتعلقة بإلغاء الضرائب (العشار) على الفلاحين ، وتقديم القروض والبذور ، وما إلى ذلك لهم. ولكن كان يجب طرح كل هذه المبادئ التوجيهية الديمقراطية العامة فقط في سياق عالمي يهدف إلى تحفيز "الثورة الزراعية" في كلا البلدين. في البلدان التي كان التدين العميق للسكان فيها واضحا ، تم الطلب من الحزب الشيوعي السوري ليعمل على "فضح خيانة جميع الطوائف ، وفضح اتصالاتها بالإمبريالية ، ولكن مع عدم الخلط بين رجال الدين والإيمان بالله لأسباب تكتيكية". كان من المفترض أن يصبح الحزب نصيرا لتحرير المرأة. وكانت مهمته تكمن في تنظيم الحركة النقابية في هذا المجال.

وأخيرا ، تناول "برنامج العمل" أيضاً والدعاية المناهضة للعسكرة في الجيش ، مع مراعاة "التكوين القومي" للقوات المسلحة التابعة لسلطة الانتداب المتمركزة في لبنان وسوريا.

وأثناء إقامته في موسكو ، تمكن فؤاد شمالي من التعرف على "القرار الخاص بالحركة النقابية السورية" الذي اتخذته المؤتمر الرابع للبروف اينترن عام ١٩٢٧^(١). ولم يكن لهذه الوثيقة إلا أن تنال إعجابه. لقد دار الحديث فيها عن "تعاقد كل قوى" البروليتاريا ، وهو ما كان يفترض "إعادة بناء النقابات العمالية المدمرة" وكذلك "التسلل إلى أهم المراكز (الموانئ والسكك الحديدية والمصانع والبناء) من أجل إنشاء نقابات عمالية ثورية هناك".

كان على هذه النقابات العمالية أن تكون أممية الطابع. وأخيرا على أساس هذه النقابات العمالية في سوريا ولبنان ، كان يجب إنشاء "فيدرالية" ، وكان من المفترض أن يبدأ على الفور الترويج لتشكيلها بمساعدة الكتيبات و"الجريدة العمالية". وداخل الحركة

(١) هنا ولاحقا: قرار حول الحركة النقابية السورية (١٩٢٧) ، المؤتمر الرابع للبروف اينترن // المرجع نفسه ،

ف. ٤٩٥ ، اوب. ٨٤ وحدة الحفظ ١٨ ، ص ٦-٧.

العمالية، تم حث الشيوعيين على رفض أي شكل من أشكال التعاون مع القوميين. وكان لا بد من طردهم من هناك. لقد دخل الكومنترن في حقبة من التركيز الشديد على الحاجة إلى تنظيم مواجهة "طبقة" مباشرة بين البروليتاريا والبرجوازية. وكان يجب أن تتبعه جميع أقسام الأعضاء. لم يكن الحزب الشيوعي السوري، بالطبع، استثناء في هذا الصدد. وكانت التعليمات التي أعطيت له خير دليل على ذلك. ولكن قبل الشروع في تنفيذها، كان عليه أن يقف على قدميه بشكل نهائي.

لم تكن إعادة بناء هيكله التنظيمي تعني بعد أنها تمكن من التعافي تماما من الضربة التي تعرض لها في نهاية عام ١٩٢٥. بالطبع، عزز اعتراف الكومنترن بالوضع المستقل للحزب الشيوعي السوري من موقفه. لكن هذا التعزيز كان مرتبطا فقط بقوة خارجية - الاتحاد السوفيتي، ولم يعني بأي حال من الأحوال أن هيئته تزداد تلقائيا في كلا البلدين. ومع ذلك، فإن الشيء الأكثر أهمية بالنسبة له كان على الأرجح حقيقة أن الاستعادة النهائية للتنظيم الشيوعي السوري اللبناني حدثت في بيئة أعلن فيها المشرف المباشر عليه صراحة أنه كان ينفذ تكتيكات "الطبقة ضد الطبقة". واتضح على الفور أن هذا الحزب يمكن أن يجد العديد من المؤيدين له في سوريا ولبنان.

(٤) الحزب الشيوعي السوري في نهاية العشرينات

وبداية الثلاثينيات من القرن العشرين:

تكتيك "الطبقة ضد الطبقة"

وبعد عودته من موسكو، شرع فؤاد شمالي في تنفيذ تلك المتطلبات، والتي وفقا لرأي اللجنة التنفيذية للأمية الشيوعية والمكتب التنفيذي للبروف اينترين، كان ينبغي أن تكون في مركز اهتمام أنصاره. وأصبحت إعادة تنظيم الحزب، والتي شملت توسيع دائرة نفوذه، الاتجاه الرئيسي لنشاطه. وهنا كان الشيء الرئيسي بالنسبة له بالطبع، ممارسة النشاط في بيئة العمال. ودار الحديث من بين أمور أخرى، عن لجنة تنظيم النقابات العمالية وإصدار صحيفة. ولم ذلك يكن لوحده. لم يكن الوضع المستقل للحزب يعني بأي حال من الأحوال أن الكومنترن قد تخلص بشكل نهائي عن فكرة وممارسة السيطرة على الشيوعيين السوريين اللبنانيين بواسطة نظرائهم الفلسطينيين. في تلك الفترة كان ن. ليشينسكي (ناداب) موجودا في بيروت، حيث لعب دور المستشار لدى فؤاد شمالي وكان بمثابة المخبر الرئيسي للجنة التنفيذية للأمية الشيوعية (وكان يعمل تحت الاسم المستعار- إميل) حول الوضع في سوريا ولبنان. وواصل شمالي عمله في جبل لبنان. هناك، في بكفيا كانت هناك النقابة العامة لعمال التبغ التي أنشأها فؤاد شمالي. وهناك قام رفاهه ف. طعمة، وي كاشامي في النصف الثاني من العشرينيات بتنظيم نقابة عمال المطابع (بلغ عدد أعضائها ٤٠٠ شخص) وحاولا تشكيل نقابة لعمال أرصفة الموانئ وعمال السكك الحديدية في بيروت ورياق^(١).

(١) تقرير نعوم بتاريخ ٢٧ تموز (يوليو) ١٩٢٦ // نفس المرجع، ف. ٤٩٥، اوب. ٨٤ وحدة الحفظ ١٢،

علاوة على ذلك ، قام زعيم الشيوعيين السوريين اللبنانيين في الواقع ، بالتقيد بشكل حرفي بأحكام تلك الوثائق الخاصة بالكومنترن والبروف اينترن ، معتقدا (وهذا على ما يبدو تزامن مع قناعاته الداخلية) أن تطبيق هذه الأحكام من شأنه أن يساعد في إعادة إنشاء الحزب وتوسع نفوذه. كان الأمر يتعلق أولا بتفعيل النشاط النقابي ، ولكن في نفس الوقت يتعلق بتوصية اللجنة التنفيذية للأمية الشيوعية بشأن المشاركة في الحملات الانتخابية النيابية والدعاية لفكرة السوفيات المصاحبة لهذه الحملات..

في عام ١٩٢٩ ، وقف لبنان على أعتاب انتخابات جديدة للمجلس التأسيسي. واعتبر فؤاد شمالي المشاركة فيها من الأمور الضرورية. وكانت هذه الانتخابات ضرورية له ، لأن اللجنة التنفيذية للأمية الشيوعية أخبرته أن أي فرص للنشاط القانوني ستسهم في خروج المنظمات العمالية من العمل السري.

وطبعا قام فؤاد شمالي بتطوير هذه الفكرة ، ونشرها - ويمكن التحقق من ذلك من كلمات المشرفين عليه في موسكو - والمشرفين على الحزب التي وضعها نصب عينيه ، دون التخلي عن آرائه القديمة حولها وبالذات عن نوعية القيادات النقابية. لم تعترف الحكومة اللبنانية بلجنة تنظيم النقابات العمالية ، وشدد أمينها بشكل قاطع على أن الحكومة اللبنانية في "الجمهورية والديمقراطية والشعبية" لا يمكنها أن تتصرف "في تحد للدستور والقانون"^(١).

في مايو ١٩٢٩ ، وجه فؤاد شمالي وأنصاره النقاويون ، عدة نداءات للناخبين اللبنانيين. ذكروا فيها أنهم بصدد إنشاء "اللجنة الشعبية للانتخابات" ، والتي أصبحت فيما

(١) بيان احتجاج من لجنة تنظيم النقابات العمالية إلى الرأي العام ، موقعة من سكرتيرها ف. شمالي // المرجع نفسه ، ف ٤٩٥ ، اوب ٨٤ ، وحدة الحفظ ١٨ ، ص ١٦ .

بعد تحمل اسم "قائمة الشعب"، وكان الغرض منها "تمثيل العمال والفلاحين في الجمعية التأسيسية وحماية الحقوق والمصالح المشتركة للطبقة العاملة بأكملها"^(١). ولعل أكثر هذه الوثائق إثارة للاهتمام كانت ما كتبه فؤاد شمالي بنفسه ونشره في ١٢ مايو ١٩٢٩ في بيروت، تحت عنوان "نداء العام للعمال والحرفيين والفلاحين"^(٢).

وفيه قال شمالي ببلاغة واضحة: "حانت ساعة نهوض العمال والفلاحين الأحرار في لبنان والوقوف بشموخ. هل ستردون على صوت الحق والواجب، أم ستبقون خاضعين، لتستمر في حالة التشرذم والتفرق، حيث لا يوحدكم أي شيء، ولا يسمع صوتكم أي أحد؟".

ثم تابع فؤاد شمالي: "الانتخابات على الأبواب. هل نراكم غدا في مراكز الاقتراع بقيادة كاهن القرية (خوري الضيعة) والوسطاء فاسدين (السماصرة) وهم يقودونكم مثل الغنم للذبح حتى تعطوا صوتكم لمن يدفع لكم ليرة أو ليرتين، أو ينقلوكم في سيارتهم إلى مركز الاقتراع، أو ستقولون لهؤلاء السماصرة: "ابتعدوا عنا، لسنا عبيدا نبيع اصواتنا و نتاجر بضميرنا؟". وبعد ذلك أضاف فؤاد شمالي القول: "لم يكن في المجلس التأسيسي اللبناني نواب يدافعون عن مصالح الشعب" - وهذا الاستنتاج لا يقبل الجدل بالنسبة لفؤاد شمالي. وهاهو يحاول أن يثبت صحة أقواله مشددا على أن البرلمانين في بلاده قد وقفوا دائما إلى جانب "الشركات الاحتكارية"، و"هم يشربون دماء الناس. لم يفعلوا شيئا لإنهاء الأزمة الاقتصادية التي أجبرت آلاف اللبنانيين على الهجرة كل عام. وأخيرا، أصبحت

(١) لائحة العمال والفلاحين في منطقة جبل لبنان). كراسة موقعة من ف. شمالي وإي كاشمي، ٢٤ مايو

١٩٢٩ // المرجع نفسه، ف. ٤٩٥، اوب. ٨٤ وحدة الحفظ ٢٣، ص ٢٨.

(٢) هنا ولاحقا: نداء عام إلى العمال والفلاحين // المصدر السابق، ص. ٢٨-٣١.

الحكومة التي شكلتها هذه الجمعية التأسيسية حجر عثرة في طريق إنشاء الأحزاب والاتحادات والنقابات العمالية". ونوه فؤاد شمالي بأن الوقت قد حان، وبات يجب على العمال أن يتبعوا مبدأ واحداً فقط: "اتركوا الأمراء ليختاروا الأمراء، اتركوا الشيوخ، الباشاوات لانتخاب نواب من بين ممثلي طبقتهم. لكنكم، المظلومون والمذلولون، يجب أن تنتخبوا نوابكم من أبناء الطبقة العاملة. يجب أن تنتخبوا العامل المفكر والحرفي الحر والثوري والفلاح المفعم بالاباء والعزة".

ثم شرح فؤاد شمالي برنامجه. وقال إن هذا البرنامج هو وثيقة من وثائق اللجنة المنظمة للنقابات العمالية. وتم تفصيل الوثيقة وتوسيعها. لكن اللجنة النقابية اللبنانية اعتبرت بالدرجة الأولى أنه من الضروري أن يبدأ "العمال والحرفيون والفلاحون" في تنظيم "مجالس مندوبين".

وفي اجتماعات هذه "السوفيتات" (على ما يبدو، كانت هذه هي الطريقة التي كان ينوي بها تطبيق الفكرة التي تم التعبير عنها له في موسكو حول "السوفيتات")، كان من المقرر مناقشة البرنامج الذي اقترحه واعتماده، وبالتالي ليصبح برنامج "الطبقة العاملة". كان من المقرر أولاً وقبل كل شيء أن يناضل نواب "قائمة الشعب" في البرلمان من أجل إدخال "تشريع عمل للعمال والحرفيين والفلاحين" في البلاد. كان من المفترض تحرير المزارعين من جباية "العشر"، وتخفيض الضرائب على "الشعب".

علاوة على ذلك، تضمن البرنامج الانتخابي "لقائمة الشعب" الذي اقترحه فؤاد شمالي بنوداً بشأن التعليم المجاني الشامل في المدارس العامة، ومنح حقوق التصويت للمرأة، وحماية حقوق مستأجري الأراضي، وتنظيم الأشغال الاجتماعية للعاطلين عن العمل.

وطالب البرنامج بتغيير قانون الانتخابات، الذي كان من المفترض أن تستبعد من

نصه كل الإشارات إلى الطائفية السياسية^(١).

وكان يجب أن تنتقل أملاك الأوقاف الدينية إلى تحت إدارة الحكومة وتخصيص الموارد التي تأتي منها لتمويل الاحتياجات العامة.

وشدد فؤاد شمالي على ضرورة فرض ضريبة على رأس المال والميراث، وتفضيل مواطني الدولة على الأجانب عند التوظيف في جميع القطاعات المهمة اقتصاديا في الاقتصاد الوطني، وعلى إصدار قانون "حماية المهاجرين وحماية اللبنانيين المقيمين في الخارج على أساس مبدأ السيادة الوطنية". ونوه بأن ممثلي العمال في البرلمان سيطالبون بـ "تشجيع" الصناعة والزراعة الوطنية، وفرض سيطرة الدولة على دائرة الجمارك، وتعزيز السياحة الأجنبية. وفي حال دخول ممثلي "القائمة الشعبية" إلى البرلمان فسيطالبون بتنفيذ مشروع ري وسقاية الأراضي المهجورة وتحسين منظومة النقل وفتح مصرف زراعي وإلغاء الضرائب المفروضة على منتجات الصناعة الوطنية. وطبعاً ركز فؤاد شمال على قضايا حرية الصحافة، و"فصل الدين عن السياسة".

واعتبر أنه من الضروري أن تهتم الحكومة الوطنية المستقبلية بـ "الأخلاق والآداب العامة"، وفي هذا الصدد، تحظر المقامرة وتغلق النوادي التي تمارس ذلك، ويجب فتح "مدارس أخلاقية للمراهقين"، ومنع التسول وفتح دور لكبار السن والمعوقين. في حال فوز مرشحي "القائمة الشعبية" في لبنان سيتم فرض "احتكارات الدولة" وتصفية الاحتكارات الخاصة التي لا تلبى "مصالح الطبقة العاملة". وأخيراً ستتم تلبية "تطلعات العمال

(١) خلال ذلك، ترشح ف. شمالي نفسه كممثل للطائفة المارونية، والمشارك الثاني في "قائمة الشعب"، وترشح كاشمي كممثل عن الروم الكاثوليك // RTSKhidNI، ف 495، أوب. ٨٤ وحدة الحفظ ٢٣، ص ٢٨.

والفلاحين"، وسيسعى نوابهم إلى "ضمان وحدة الوطن".

في ٢٤ مايو ١٩٢٩ صدر نداء مشترك عن شمالي وكاشامي تم فيه تفصيل امام الناخبين المسائل المتعلقة بالتشريعات العمالية، وفيه تم في الواقع تكرار المتطلبات الأساسية لبرنامج سكرتير لجنة تنظيم النقابات العمالية. وعلى الرغم من اعتدال البرنامج الذي اقترحه شمالي، والذي كان يفتقر تماما إلى أي مطالب وشعارات شيوعية محددة، لم يسمح له، بالمشاركة في الانتخابات النيابية. في ١١ يونيو ١٩٢٩، ذكر ف. طعمة، الذي قدم نفسه على أنه "عامل من عمال التبغ" بكفاي، في "نداء" أن "قوة المال والتأثير الشخصي ورغبات رجال الدين" أجبروا فؤاد شمالي على سحب ترشيحه^(١).

وأضاف: "على الرغم من قناعتنا بأن البرلمان عديم الفائدة للطبقة العاملة، لأنه يقوم على ديمقراطية زائفة وهو أداة في أيدي السلطات، تستخدمه لمصالح الرأسماليين، لكن رغم ذلك وجد عمال الفكر الطليعي أنه من الضروري أن يكون للطبقة العاملة نائب في الجمعية التأسيسية، لكي يقوم هناك بفضح أنشطة الأرستقراطيين ولكي ينزع الستار عن مناورات الحكام الذين، بمساعدة هذه المناورات، يلقون الرماد في عيون الفقراء".

من الآن فصاعدا، أكد كاتب "النداء" أن "النواب سيكونون ألد أعدائكم". وطرح السؤال: "ماذا يجب أن نفعل؟". كانت الإجابة متوقعة: "توحدوا، وشكلوا نقابات، وأنشئوا حزبا سياسيا يقود الطبقة العاملة على طريق النصر".

ولا بد من القول إن هذه الوثيقة التي تم الاقتباس منها تعتبر بطبيعة الحال، مبدئية وأساسية الطابع. ومنها يتبين أن فؤاد شمالي وأتباعه النقايبين ذوي التفكير المماثل ظلوا

(١) هنا ولاحقا: بيان صريح إلى العمال والفلاحين. بكفيا، ١١ حزيران / يونيو ١٩٢٩ // نفس المرجع،

من أشد المؤيدين لأساليب النشاط التي عبّر عنها الزعيم الحالي للشيوعيين السوريين اللبنانيين فور عودته إلى لبنان. كانت "طلیعة" العمال هذه المرة، بالطبع، لجنة منظمة النقابات العمالية، التي اعتبروها تقريبا الاتحاد النقابي المستقبلي.

كما كان في السابق، استند فؤاد شمالي على البروليتاريين "المفكرين"، وافترض أنه يجب تنفيذ عملية تنظيم أنصاره بشكل بطيء ومتسق لكي يتمكن استخدامهم كسلاح للنضال، وشدد على أنهم يجب أن يكونوا بالذات من تلك الطبقة، التي تم وضع حل مشاكلها في طلیعة جميع النشاطات. وخلال ذلك تم إخضاع المشكلات القومية للجانب الطبقي. ولكن خلال ذلك تم وضع الجانب الطبقي نفسه في سياق أوسع للقضايا الإنسانية العامة. وأثبتت صحيفة "العمال" التي أصدرها فؤاد شمالي خلال شهري أبريل ومايو ١٩٢٩ صحة ذلك. وشملت شعارات صفحتها الأولى: "الإنسانية فوق الجميع" و"أعمال العالم اتحدوا" و"لندافع عن العمال والفلاحين"^(١).

هل نجحت التكتيكات التي اختارها فؤاد شمالي وهل استوفت المتطلبات المحددة التي وضعتها اللجنة التنفيذية للأمية الشيوعية المرسلة إلى الشيوعيين السوريين اللبنانيين؟ في بداية مايو ١٩٢٩، تم إرسال رسالة من القسم الشرقي في اللجنة التنفيذية للأمية الشيوعية إلى بيروت، حددت أمام الفرع الجديد من الكومنترن المهمات التي بدت حيوية لموسكو في ذلك الوقت. وجاء فيها أنه يجب أن يظهر في صحيفة "العمال"، عمود دوري منتظم تحت عنوان "اليوم الأحمر"، يتزامن مع ١ أغسطس - "يوم النضال ضد الحرب الإمبريالية". وكان يجب على المنظمة الشيوعية السورية اللبنانية أن توزع منشورات "تدعو إلى الكفاح الحازم ضد الإمبريالية الفرنسية التي تضطهد سوريا، وضد الإمبريالية بشكل

(١) عدد "العمال" بتاريخ ٤ أبريل ١٩٢٩ // نفس المرجع، ص ٢٧-٢٧.

عام التي مزقت إلى أشلاء المنطقة العربية. ويجب الترويج والدعاية "لفدرالية العمال- الفلاحين العرب ، واستخدام إمكانيات القوميين والدفاع عن الاتحاد السوفيتي"^(١). وقبل ذلك بشهر ، في أبريل من نفس العام ، أرسل القسم الشرقي في اللجنة التنفيذية للأمية الشيوعية إلى بيروت ، "قرارا بشأن بعض المهام العاجلة للحركة الوطنية الثورية في عربستان". وعندما يقال "عربستان" باللغة الروسية فالمقصود هو سوريا وفلسطين والعراق ودول الجزيرة العربية وماوراء الأردن. لقد كانت لحظة مهمة. لكن ، بالطبع ، لم تكن هذه نهاية المشكلة. وأشار القرار المذكور اعلاه إلى أن "عربستان" تشهد "اشتداد التناقضات بين الإمبريالية والجماهير العريضة من الشعب ، وفي نفس الوقت ، زيادة في التمايز الطبقي". ويترافق ذلك بنمو "البروليتاريا العربية" بوتيرة "تقدمية" ، رغم أنها "ما زالت ضعيفة من الناحية الكمية". ولكن هذا النمو اعطى اللجنة التنفيذية للأمية الشيوعية الاساس لكي تفترض أن البروليتاريا في هذه البلدان ، مع الانتفاضة التالية للحركة الثورية ، ستلعب دورا مستقلا مهما. ومن هنا استنتجت موسكو أن "هذا الاحتمال يتطلب حتما تسريع تطور الحزب الشيوعي العربي" ، الذي بدون قيادته "لا يمكن للنضال الطبقي البروليتاري ضد الرأسمالية ولا النضال التحرر الوطني ضد الإمبريالية أن ينجح في هذه البلدان". وتم بشكل مواز وضع امام الشيوعيين مهمة "تطوير الحركة النقابية العربية" تحت "تأثير الشيوعيين"^(٢).

وأخيرا في النصف الثاني من أغسطس ١٩٢٩ ، أرسل القسم الشرقي في اللجنة

(1) Au C.C. du P.C. Syrien, 3 mai 1929.

(٢) قرار بشأن بعض المهام الموضوعية للحركة الوطنية الثورية في عربستان ، ٥ أبريل / نيسان ١٩٢٩ // المرجع نفسه ، ص ٤-٧.

التنفيذية للأمية الشيوعية رسالة إلى اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوري، جاء فيها أن "القاعدة الأساسية" لهذا الحزب يجب أن تكون "منطقة ريف دمشق مع العاصمة دمشق، حيث يقع المركز الصناعي". لقد تبين أنه لا يجوز بتاتا حصر النشاط الحزبي في "داخل بيروت" فقط. وطرح الشيوعيون السوريون اللبنانيون في انتخابات مجلس النواب اللبناني "برنامجاً يحتوي بوضوح على شعارات انتهازية: (أ) يمكن من خلال البرلمان تحقيق تحسن كامل في وضع الجماهير من الطبقة العاملة والفلاحين الخاضعة للاستغلال؛ (ب) نقل ممتلكات الأوقاف إلى أيدي الدولة العلمانية. (ج) إلغاء الضرائب التي تثقل كاهل الصناعة الوطنية. (د) صدور قوانين تشجيع السياحة وتحسين المنتجعات".

لكن هذا البرنامج لم يتضمن "شعار النضال ضد الإمبريالية الفرنسية، وحكومة العمال والفلاحين، ومصادرة أراضي أصحاب الأراضي ونقلها إلى الفلاحين". وقيل لمؤيدي الكومنترن في سوريا ولبنان أن برنامجهم الانتخابي "خطأ سياسي كبير".

ولا يقل خطأ عن ذلك عن رفضهم تخصيص عمود تحت عنوان "اليوم الأحمر" في الصحيفة التي يسيطرون عليها. وفي الوقت نفسه، أكدت الرسالة أن المعلومات حول "المنصة" تلقاها القسم الشرقي في اللجنة التنفيذية للأمية الشيوعية جاءت في "إخبارية" من الحزب الشيوعي الفلسطيني^(١). ويبدو الأخلاق التي سادت في العلاقات بين أقسام الكومنترن كانت إنسانية إلى حد كبير.

ولكن قبل استلام هذه الرسالة في بيروت، وصلت من هناك رسالة موقعة من عضو "اللجنة المركزية الحزب الشيوعي السوري" الرفيق إميل (ن. ليشينسكي). وفيها تحدث عضو قيادة الحزب الشيوعي الفلسطيني، عن نشاطات التنظيم الذي تم تكليفه بقيادته.

(١) من اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوري، ٢٤ آب ١٩٢٩ / المصدر السابق، ص ١٦-١٧.

وأشار إلى أن إعادة تنظيم الحزب ما زالت "مستمرة"، وهي تسير "ببطء"، ولكن لكي تتم بشكل مضمون وموثوق"، "يتم التركيز على البروليتاريا، ولا يجوز تجنب العناصر من المدارس والجامعات". ثم كتب ن. ليشينسكي أن "بيروت تظل المقر المركزي لقيادة الحزب". وجاء في الرسالة أن الحزب "استغل الانتخابات في لبنان"، ووضع "قائمة الشعب"، التي تعارض "فظائع الانتداب"، وخيانة البرجوازية المحلية ورجال الدين من جميع الطوائف وتهاجم البرلمانية وزيف الدستور الجمهوري في لبنان". وذكر شمالي، بأنه خلال الخطب العامة التي ألقاها مع رفاقه الآخرين في "قائمة الشعب"، "تحدث عن الاتحاد السوفيتي، ... وتحدث أيضاً عن حكومة العمال والفلاحين". ويرى ليشينسكي أن هذا الأمر بالذات كان سبب فرض الحظر على مشاركة "القائمة" وملاحقة شمالي قضائياً.

كما تحدث الشيوعي الفلسطيني ليشينسكي عن حقيقة أن صحيفة "العمال"، التي أصبح فؤاد شمالي "عملياً رئيس تحريرها"، كانت أداة دعائية لبرنامج انتخاب لجنة تنظيم النقابات العمالية. وحتى بعد أن رفض صاحب الجريدة المذكورة (التي استأجرها الشيوعيون) التعاون، واصل زعيم التنظيم الشيوعي السوري اللبناني نشر مقالاته فيها تحت أسماء مستعارة مختلفة. لاحظ ن. ليشينسكي أن أعضاء الحزب يكرسون الكثير من الوقت والجهد لتنظيم ترجمة الأدب الشيوعي إلى اللغة العربية. ووفقاً له تمكن هذا الحزب من تحقيق بعض النجاح الملحوظ.

وذكر ليشينسكي أن ممثلي الحزب نشطوا بين "بين عمال الموانئ والسائقين في بيروت، وباشروا بتنظيم عمل منظمات الشباب الشيوعي اللينيني "كومسومول"، وإنشاء خلية بين أرمن الفيلق السوري في الجيش الفرنسي، ... وبات الحزب يهيمن على نقابة عمال التبغ". وتم تنظيم خلايا أرمنية جديدة في بيروت وزحلة وحلب. وتمكن الحزب الشيوعي السوري من ترتيب اتصالات مع الكتلة الوطنية، واقترح مشاركة ممثلين عن القوميين السوريين في

مؤتمر الرابطة المناهضة للإمبريالية في فرانكفورت.

وأخيرا قررت قيادته "عقد مؤتمر وطني للحزب". إلا أن مراسل اللجنة التنفيذية للأمية الشيوعية اعترف بصراحة أن "اللجنة المركزية ألغت" شرط وجود عمود صحفي حول "اليوم الأحمر" وقال، في هذا الصدد، في ظروف العمل غير المشروع أن الالتزام بهذا الشرط كان سيعني "العمل المفتوح" من قبل الشيوعيين. وكان سيتبع هذه الخطوة لو تم اتخاذها "تدمير جديد للحزب"، والذي لم يكمل إعادة تنظيمه بعد. بدون رفض المشاركة في اليوم الأحمر، سيضطر أعضاؤها، مع ذلك، إلى قصر أنفسهم على "الدعاية الشفوية في مكان العمل"⁽¹⁾. ولكن بعد ثلاثة أشهر، تم إرسال رسالة ثانية إلى موسكو، موقعة أيضاً من قبل إميل. الآن حاول ممثل قيادة الحزب الشيوعي الفلسطيني في بيروت تبرير نفسه، لأن مسؤولية "الانحراف الانتهازي" في صفوف التنظيم الذي كان يشرف عليه، كانت تقع في النهاية تقع على عاتقه، على اعتباره "الرفيق الأكبر" الحزبي للبروليتاريين العرب، الذين، بالطبع، على الرغم من معدلات نموهم "التقدمية"، ظلوا "متخلفين نظريا". ولكن طبعاً وبفضل عمله في بيروت كان ليشينسكي يعرف الوضع الحقيقي بشكل أفضل من موظفي القسم الشرقي في اللجنة التنفيذية للأمية الشيوعية، وبالطبع يمكنه تقييمه بشكل أكثر ملاءمة. لهذا السبب دافع عن نفسه وعن الذين كان يشرف عليهم.

ولا شك في أن تصرفاته كانت صحيحة تكتيكياً، لأنه تحدث قبل كل شيء، عن "إنشاء مجموعة من ٣٠ شخصا في دمشق، معظمهم من المشاركين في الثورة السورية". ثم كتب عن جغرافية انتشار الخلايا الحزبية على أراضي سوريا نفسها، "مجموعة في حلب - ١٩ شخصا، مجموعة في دير الزور - ١١ شخصا".. وكان هذا يعني أنه "بعد استكمال

(1) La lettre du C.C. du P.C.S. a la section orientale de l'I.C., 10 aout 1929.

إعادة تنظيمه ، سينقل الحزب مقره إلى دمشق أو حلب^(١). وبعد ذلك قام كاتب الرسالة بتنفيذ حجج اللجنة التنفيذية للأمية الشيوعية. وقال إن "النقد فيما يتعلق بالحملة الانتخابية ليس صحيحا"، لأن الحديث دار عن "التكتيكات"، ولم يكن هناك "توقيع الحزب الشيوعي السوري" على "نداءات ما قبل الانتخابات".

وطبعا هذه الوثائق لم تتضمن "شعارات شيوعية لكنها كشفت البرلمانية وأظهرت طابعها الطبقي وهاجمت الانتداب". أعلن ن. ليشينسكي أن الحزب "يعارض تماما الاتهامات بالانتهازية التي يوجهها الحزب الشيوعي الفلسطيني". علاوة على ذلك ، سعى ليشينسكي إلى تقديم الوضع الناشئ على أنه "سوء تفاهم". وشدد على أن "إعادة تنظيم الحزب" تتطلب منه "تهدئة يقظة الحكومة ولو بشكل مؤقت. ونوه ن. ليشينسكي بأنه في ظل هذه الظروف ، "من السابق لأوانه دعوة الجماهير ، لأن العواقب ستكون مدمرة". وتضمنت نهاية الخطاب ، معلومات إضافية حول التركيب العددي للحزب الشيوعي السوري وذلك بهدف دفع اللجنة التنفيذية للأمية الشيوعية لاتخاذ نهج أكثر توازنا تجاه مشاكل الحزب. ووفقا للخطاب بلغ العدد الإجمالي للهيكل التنظيمي للحزب ١٩٠ شخصا. عملت ثلاث خلايا حزبية في الجيش الفرنسي (اثنتان في بيروت وواحدة في حلب). وعملت "النقابة العمالية في زحلة (٤٥٠ شخصا)" تحت قيادة الحزب الشيوعي السوري ، ونشط أنصاره بين عمال السكة الحديد. وأشار ن. ليشينسكي إلى أنه تم تنظيم إضرابات في حلب وطرابلس تحت قيادة الحزب. ولكن رغم كل هذه الحجج ، لم ترغب اللجنة التنفيذية للأمية الشيوعية سماع أية تبريرات.

(١) هنا وأدناه :

في بداية نوفمبر عام ١٩٢٩، تم عقد اجتماع في القسم الشرقي باللجنة التنفيذية للأمية الشيوعية مخصص لـ "المسألة السورية، حيث كان المتحدث الرئيسي من السوريين المتوجدين في موسكو، وكان اسمه المستعار اسم "حسن".

ووفقا لما قاله أ. ماديان، كان اسم المذكور أعلاه وهيب مالك وكان يدرس في ذلك الوقت في الجامعة الشيوعية لشغيلة الشرق^(١). وهو على ما يبدو، كان من إتباع ف. أفربوخ الذي ساعد في إرساله للدراسة في العاصمة السوفيتية. من جانبه امتعض فؤاد شمالي واحتج بشدة خلال رحلته إلى موسكو على محاولات زعيم الشيوعيين الفلسطينيين تقديم حسن للمشاركين في المؤتمر السادس للكونغرس كمثل للشيوعيين السوريين اللبنانيين وأشار إلى أنه ليس إلا موفدا للدراسة في موسكو^(٢). لكن بهذا الشكل أو ذاك أصبح حسن تدريجيا الخبير الرئيسي للكونغرس بشأن الوضع في سوريا ولبنان وأنشطة الشيوعيين المحليين.

في لقاء حول "المسألة السورية"، أفاد قبل كل شيء، أنه في سوريا، بعد هزيمة "الثورة السورية الكبرى"، وخيانة البرجوازية الكبيرة والإقطاعية لمصالح الشعب، أخذ يختمر وضع جديد. ومن بين ما كان يميز هذا الوضع، "تقلبات البرجوازية الصغيرة"، و"الوضع الصعب للفلاحين والبدو والعمال" وهو ما تسبب في "انتفاضات تلقائية للفلاحين والعمال" شلت "محاولات القوميين لتكوين نقابات عمالية". علاوة على ذلك، حاول حسن، في الواقع، تقديم ف. شمالي كواحد من هؤلاء القوميين. وذكر حسن أن البرنامج الانتخابي لزعيم الحزب يليق "بحزب برجوازي صغير مسالم، لكن ليس أكثر".

(١) ماديان أ، المرجع السابق. ص ١٠٧.

(٢) RTSKHIDNI، ف 495، اوب 84. وحدة الحفظ ١٦، ص ١-٣.

وبحسب قوله "هذه محاولة لتخريب الحركة العمالية". وقام حسن بسرد المبادئ التوجيهية للبرنامج الرئيسي للجنة المنظمة للنقابات العمالية، لكنه فعل ذلك بشكل انتقائي ومتفرق متعمدا تشويه محتواها. ومن كلماته يمكن الاستنتاج أن فؤاد شمالي دعا إلى: أ- توحيد سوريا ومصادرة أراضي الكنائس ونقلها إلى الحكومة لاستغلال هذه الأراضي لصالح الفقراء. ب- تنظيم العمال في نقابات. ج- فصل الدين عن السياسة.

بعد ذلك شن حسن حملة عاتية ضد فؤاد شمالي مؤكدا أن لدى هذا الشخص "تفكير رجعي". وشدد على أن مطالب شمالي ليست أكثر من "نظرية برجوازية صغيرة حول طبيعة الثورة في سوريا والدور الذي ستلعبه البروليتاريا فيها". وترافق هذا التوصيف المهين بقذف وافتراء صريح.

وتابع حسن: "قال الرفيق فؤاد شمالي أنه بما أننا لا نمتلك القوة لمقاومة الشرطة، فلا يجوز أن نعمل تحت اسم الحزب، بل لنتنظر حتى يأتي اليوم الذي نصبح فيه أقوىاء". ومشيرا إلى كلام الأطراف الثالثة، قال حسن كذلك أن فؤاد شمالي يعتقد أنه في البداية في سوريا "يجب أن تحدث ثورة برجوازية"، لأنه "لا يوجد عدد كاف من البروليتاريا هناك، ولذلك من الضروري مساعدة البرجوازية".

ثم توصل حسن، إلى حد ما، إلى نتيجة غير متوقعة حول صحة الخط السياسي المدعوم من قبل يوسف يزبك. بحلول ذلك الوقت، كان يزبك في المنفى في أوروبا وتعاون مع الرابطة المناهضة للإمبريالية كممثل لسوريا. وبات يزبك بالنسبة لحسن بمثابة النموذج المثالي للشيعي الحقيقي ولكن ليس لأنه طالب بأن "يعمل الحزب في المناطق الصناعية المتطورة (وكان يعني بالطبع دمشق) أو لأنه طالب بتشكيل الخلايا الحزبية في الريف أو لطرحة شعار "المصادرة الفورية لأراضي الحكومة وأراضي كبار الملاك والكنيسة" وتحويلها إلى "لجان الفلاحين الثورية"، بل لأن يوسف يزبك، وفقا لاعتقاد حسن، "كان يدعو

ويؤيد فكرة فكرة الاتحاد الشيوعي العربي ... الجلاء الفوري للإمبرياليين وتوحيد جميع الدول العربية ... على أساس إنشاء حكومة العمال والفلاحين والدفاع عن الاتحاد السوفيتي"^(١).

طبعاً كان من الممكن إلقاء اللوم على فؤاد شمالي لأشياء كثيرة. كان طبعاً معتدلاً في تصريحاته وطلباته العلنية. لكن وراء هذا الاعتدال كانت تجربته المصرية والسجن في بيروت والسجن في جزيرة أرواد ومنفى في الصحراء - في مدينة الرقة السورية الصغيرة. هو بالطبع كان قلقاً على حالة الحزب وسعى إلى منع هزيمته التالية. أن تجاهل هذا الظرف سيكون مجرد جريمة. وبالطبع، كانت لديه فكرته الخاصة عن طرق بناء الحزب، وقد انجذب قبل كل شيء إلى النشاط النقابي. وكما كل الشيوعيين في الشرق في ذلك الوقت، لم يميز بين "البروليتاريا" و "الفلاحين". لكن القيام بذلك في تلك السنوات لم يكن صعباً فحسب، بل كان مستحيلاً في بعض الأحيان. الشغيلة في المدن هم من الفلاحين بالأمس، ويبدو أن فؤاد شمالي كان متأكداً بصدق من أن أعلى المثل الإنسانية تتطلب وضع حد لإفقار سكان الريف. في بعض الأحيان، كان يمكن لهذا النقابي اللبناني أن يصبح معارضاً جذرياً لمكنة الإنتاج - ولا سيما التبغ، الذي اعتبر نفسه بالطبع خبيراً فيه - بحجة "ضمان بقاء المؤسسات الصغيرة والمحافظة على فرص العمل"^(٢). وبقي ذلك نفس النهج الإنساني الذي تناقض مع الصياغة البلشفية للقضية وأعطى معارضي فؤاد شمالي سبباً لاتهامه بأنه "بورجوازي صغير".

(1) Section orientale. Question syrienne. 4 novembre 1929.

(٢) العريضة المقدّمة إلى الحكومة من رئيس النقابة العامة لعمال التبغ في لبنان مؤرخة في ٢٨ مايو / أيار، (١٩٢٨) // ف. ٤٩٥، اوب. ٨٤ وحدة الحفظ، ص ١١-١٢.

وإلى جانب ذلك، بقي فؤاد شمالي، على الأرجح، مؤيدا للدولة اللبنانية، والأرجح أنها لم يكن من أنصار وحدة "سوريا التاريخية" أو المنطقة العربية كلها.

ولكن شمالي كان في نفس الوقت صادقا ونزيها، وعلى عكس الكثيرين، لم يكن يرغب في تسلق الهرم الوظيفي والمهني (كان هذا آخر ما قد يثير اهتمامه) عن طريق التكيف مع التقلبات المستمرة في مسار الكومنترن.

في النهاية، لقد دار الحديث ليس عنه بالذات (كل الصفات والكليشات التي تم تعليقها عليه لم تكن أكثر من مجرد وسيلة للقضاء على لإبعاد فؤاد شمالي)، بل عن تبلور الخط الجديد للجنة التنفيذية اللاممية الشيوعية، وبواسطته سعى خصوم شمالي لشغل مكانه والحلول محله.

لقد تم حسم مصير فؤاد شمالي وبات نتيجة مفروضة، ولم يكن هناك ما ينقذه، حتى لو تحول في غمضة عين إلى بلشفي "حقيقي".

في ذات الوقت، تبلورت حالة بات فيها موضوع إبعاد شمالي يثير اهتمام ويلبي مصلحة ليس فقط الأعضاء الجدد في الحزب الشيوعي السوري، بل وقادة الحزب الشيوعي الفلسطيني الذين كانوا يتطلعون إلى القيادة على مستوى الحركة الشيوعية في منطقة الشرق الأوسط. في يناير ١٩٣٠، قام فايس (أفيغدور) بتحضير مذكرة إلى القسم الشرقي في اللجنة التنفيذية اللاممية الشيوعية، تم فيها تحديد مهام الحزب الشيوعي السوري. ودار الحديث فيها قبل كل شيء، "عن ضرورة قيام الحزب بنقل عمله من بيروت إلى دمشق حيث يوجد مركز صناعي أكثر تطورا". وتم الاقتراح على الشيوعيين السوريين اللبنانيين بضرورة التخلي عن "التكتيكات الانتهازية الضارة لإخفاء الحزب الشيوعي غير الشرعي" والتصرف على الفور "كقسم من الأمية الشيوعية".

وكان يجب عليهم "ربط نضال البدو من أجل المراعي بكفاح الفلاحين من أجل

الأرض"، وقيادة "الفعاليات المشتركة للفلاحين والبدو ضد ملاك الأراضي والحكومة". وأخيرا، كتب ك. فايس أن شعارات الحزب لا يمكن إلا أن تكون "تنظيم انتفاضة مسلحة للعمال في الشرق العربي لتحريرهم من الاضطهاد الإمبريالي" و "إنشاء فرق قتالية من العمال والفلاحين"^(١).

ولكن كانت واضحة للعيان سخافة وعشية الاقتراحات التي قدمها فايس، وكذلك الحجج التي سردها لدعم ذلك ومن بينها الزعم بأن دمشق في أوائل الثلاثينيات من القرن الماضي كانت "مركزا صناعيا متطورا" أو فكرة "العمل المشترك" للبدو والفلاحين (المستقرين). كانت واضحة تماما هذه العبثية، وكان واضحا ذلك أن كل ما كان يجري لم يكن له أية علاقة لا مع فؤاد شمالي ولا مع الشيوعية، ولا مع تطلعات الشعب العامل. والمثير في كل ذلك كان يكمن في أن فايس لم يكن من العلماء القابعين في المكاتب، بل عاش في الشرق الأوسط وكان يعرف حقائق المنطقة جيدا.

في فبراير من نفس العام، قدم ك. فايس وحسن، وكذلك وب. كيتايچورودسكي "مشروع قرار بشأن سوريا" إلى الدائرة الشرقية في اللجنة التنفيذية اللامية الشيوعية وفيها تم فقط سرد وتطوير بنود مذكرة فايس السابقة.

وفيها تم الإشارة إلى أن الحزب الشيوعي السوري "ليس له وجه سياسي"، وهو ما يتجلى في "وجود توجهات التصفية بين الأعضاء القياديين في الحزب".

أكد واضعو "مشروع القرار بشأن سوريا" مرة أخرى أن "برنامج ما قبل الانتخابات" ليس أكثر من "مطالب تافهة لإصلاحات طفيفة" من أجل "دعم الحكومة البرجوازية".

(١) أفيغور حول مهام الحزب الشيوعي السوري، ١٨ يناير ١٩٣٠ // المرجع نفسه، ف. ٤٩٥، اوب. ٨٤ وحدة الحفظ ٢٤، ص ١٩-٢٣.

وطالب هؤلاء أخيرا، بـ "الرفض الكامل للتكتيكات الانتهازية المتمثلة في التكتم على وجود الحزب"^(١).

ومع ذلك، فإن الشيء الأكثر أهمية في هذه الوثيقة هو أن الشيوعيين الفلسطينيين دعموا حسن بشكل علني، استعان كلا الجانبين بموظف سوفيتي مؤثر في اللجنة التنفيذية اللامية الشيوعية.

وأخيرا تم في ١ أبريل ١٩٣٠، تقديم النص الموسع لـ "مشروع قرار حول الوضع في سوريا وعمل الحزب الشيوعي السوري" الذي تم إعداده في الدائرة الشرقية للمناقشة من قبل اللجنة التنفيذية للأمية الشيوعية. هذه الوثيقة وضعت كل شيء في مكانه^(٢). وجاء فيها: "تقع سوريا على الطريق الكبير للسياسة العالمية، حيث تخوض الإمبريالية العالمية صراعا ضد الشرق الثوري وضد الاتحاد السوفيتي".

أصبح كل شيء واضحا، لقد بات هذا البلد في مركز اهتمام الجيوسياسيين في موسكو. وكان يجب على المؤيدين المحليين للكونترن أن يقوموا بحل المهام التي تم تحديدها لهم.

في هذا الصدد، قيل لهم بشكل لا لبس فيه: "عندما انخرفت دوائر ملاك الأراضي البرجوازيين إلى جانب الإمبريالية، بدأت المبادرة تنتقل إلى الطبقة العاملة والفلاحين (دار الحديث هنا عن فترة انتفاضة سلطان الأطرش) وظهور وتشكل المقدمات الأساسية لعمل الحزب الشيوعي، لكنها لم تكن عند متطلبات الوضع".

(١) مشروع قرار بشأن سوريا (اقترح لجنة مؤلفة من الرفاق أفغندور وخاسان وكيثاغفوردسكي، ١٠ فبراير

١٩٣٠ // المرجع نفسه، الصفحات ٢٤-٣٦.

(٢) هنا ولاحقا، اقتباس من المرجع السابق. ص ٤-١٢.

وظهر ذلك في "عجزها"، وغياب العلاقات "مع الطبقة العاملة ومع الفلاحين". من هذا، تم التوصل إلى الاستنتاج بأن "كل الأحداث ذات الأهمية القصوى مرت بجانب الحزب، أو تم التكتّم عليها".

وكانت هذه الأحداث "أساسية ومبدئية" (النضال ضد الإمبريالية، والمسألة الزراعية، والموقف من الثورة الوطنية). علاوة على ذلك، تم انتقاد الحزب بلا رحمة. ومن بين هذه الانتقادات، أن الحزب طرح مشاكل الانتخابات البرلمانية والمواقف تجاه الأحزاب البرجوازية "ليس بطريقة شيوعية، بل بطريقة إصلاحية -اجتماعية". وتمت مطالبة الحزب "بالتخلص من كل ما يمنعه من أن يكون حزبا بروليتاريا مناضلا حقاً"، للتخلص من "الطائفية والترهل والسعي إلى الشرعية والانتهازية والكسل السياسي".

وكان يجب على الحزب الشيوعي السوري توجيه كل قواه وجهوده "لمحاربة الإمبريالية وأنصارها الصريحين والسريين، ومن أجل إقامة أوثق صلة وقيادة الحركة الفلاحية والقبائل البدوية، ومن أجل التواصل مع الأحزاب الشيوعية في البلدان العربية الأخرى، مع الحزب الشيوعي في فرنسا ومع الأُمّية الشيوعية". وكان عليه أن "ينتزع النفوذ على حركة الطبقة العاملة من الأحزاب القومية"، وأن يشن "نضالا على جبهتين: ضد الإمبريالية والإصلاحية الوطنية، وليس السعي وراء جذب المثقفين إلى الحزب وخاصة من إتباع الأحزاب البرجوازية الصغيرة"، بل لدعم صفوفه بالعمال والفلاحين.

وأخيرا، تم إخبار الشيوعيين السوريين اللبنانيين بوضوح عن أهمية "التعريب النشط لعمل جميع أجهزة الحزب"، فضلا عن ضرورة فرض المركزية الكاملة للحياة الحزبية. كان لا بد من نقل الهيئات الإدارية للحزب الشيوعي السوري إلى دمشق "حيث يوجد العمال". كان من المفترض أن تكون شعاراتهم: "النضال الحازم ضد الإمبريالية الفرنسية، والنضال في سبيل الاستقلال التام لسوريا ودول الشرق العربي الأخرى، وإنشاء اتحاد جمهوريات

العمال والفلاحين العرب ، ومصادرة جميع أراضي الدولة والكنيسة والملاك ، وتحويلها إلى لجان الفلاحين الثورية لتوزيعها على الفلاحين الفقراء ، والحرية الكاملة في تنظيم الإضرابات الطبقية. كل هذه الشعارات ، بما في ذلك شعار تقرير مصير الأقليات القومية (تم التأكيد هنا أيضاً على أننا نتحدث عن "القضية الأرمنية التي بالغت فيها الإمبريالية الفرنسية") ، يجب أن "ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالاتحاد السوفيتي".

بعد ذلك بقليل ، عندما تم الاتفاق على مشروع هذا القرار ، تم إدخال العديد من الإضافات الهامة عليه. ونعتقد أنه يجب سردها بالكامل. دار الحديث عن ضرورة النضال الحاسم ضد الكتلة الوطنية ، وضرورة فضح أنشطتها بشكل منهجي حتى لا تلعب في سوريا دوراً شبيهاً بدور "الوفد" في مصر^(١). ودار الحديث كذلك عن أن "النهوض الثوري الجديد في سوريا سيحدث في مرحلة أعلى من الحركة الثورية عما كانت عليه في عام ١٩٢٧ ... وهذه المرة سيحدث ليس فقط ضد الإمبرياليين ، بل وضد العلاقات الرأسمالية والإقطاعية وشبه الإقطاعية القائمة"^(٢). بعبارة أخرى ، ووفقاً للنص المقتبس منه ، كان الانقلاب الاشتراكي متوقعا لسوريا في المستقبل القريب (وبالطبع لبنان كجزء لا يتجزأ من هذا البلد).

في ١ يوليو عام ١٩٣٠ صدر بيان عن الحزب الشيوعي السوري ، موجهاً إلى العمال والفلاحين والحرفيين والمثقفين السوريين ، وتضمن التقييم الشيوعي للوضع السياسي في سوريا ولبنان^(٣).

(١) مشروع قرار اللجنة التنفيذية للأمية الشيوعية بشأن الوضع في سوريا وعمل الحزب الشيوعي السوري

// نفس المرجع ، ص ٨٦.

(٢) تعديلات بعد المناقشة والمناقشة في اللجنة السياسية // المرجع نفسه ، ص ٩٩.

(٣) هنا ولاحقاً ، اقتباس سابق : بيان من الحزب الشيوعي إلى العمال والفلاحين والحرفيين والمثقفين
=/=

كانت هذه هي العقيدة السياسية الجديدة للحزب ، والتي تتوافق مع توجيهات الكومنترن ، والتي أصبحت خطه الرسمي بعد المؤتمر السادس. كان ظهور هذا البيان يعني أن "القوى المناهضة للانتهازية" كانت السائدة في الحزب الشيوعي السوري.

دار الحديث قبل كل شيء ، عن أن "الإمبرياليين الفرنسيين ، وخلافا لإرادة الشعب ، أعلنوا دستورهم في البلاد السورية وقسموها إلى دويلات صغيرة". لقد تم تقييد الشعب السوري "بالسلاسل حتى تتمكن الإمبريالية من نهب ثروات البلاد دون عقاب ، واستغلال الشعب العامل" ، وبالتالي "تلبية مطالب الرأسماليين الفرنسيين".

قال الشيوعيون مخاطبين مستمعهم المحتملين: "يا جماهير العمال والفلاحين! لقد كنتم تحاربون منذ سنوات عديدة من أجل استقلال البلاد ، وقد ضحى المئات منكم بأرواحهم في القتال ضد اضطهاد الإمبرياليين الذين دمروا دمشق ، ... أشعلوا النار في القرى ، ... شنقوا وأطلقوا النار على مئات العمال والفلاحين". ثم طرحوا السؤال: "هل ذهبت كل هذه التضحيات هباء؟ هل ستسمحون لهم بالاستمرار في استعبادكم ... وحرمانكم من أي حقوق؟". وكان يجب على من يستمع لهم أن يسير خلف الحزب الشيوعي السوري و"يرفض الدساتير المعلنة في البلدان السورية" وخلال ذلك تم تحذيرهم: "نعلن أن كل من يقبل هذه الدساتير ، ويشارك بشكل مباشر أو غير مباشر في تنفيذ أحكامها ، سيصبح عدوا لوحدة سوريا وعدوا لاستقلال البلاد".

السوريين. ١ يوليو ١٩٣٠ // نفس المرجع ، ف. ٤٩٥ ، اوب. ٨٤ وحدة الحفظ ٣٣ ، صفحة رقم ١.
انظر أيضاً: رسالة من سوريا. خطاب الحزب الشيوعي السوري وقلق الإمبريالية الفرنسية والبرجوازية العربية // الأهمية الشيوعية..

Sadi M. le manifeste du Parti communiste de Syrie 1930.

لكن عدو العمال السوريين لم يكن فقط الإمبريالية الفرنسية. ومضى النداء يقول :
"أيها العمال والفلاحون ! لقد تم خداعكم وخيانتكم مرات عديدة. لقد خان القادة
الوطنيون الثورة ودخلوا في مفاوضات للاتفاق والتفاهم مع الإمبريالية التي وعدت بالعفو
العام. لكن المئات من إخوانكم الثوريين ما زالوا يقبعون في الصحراء". تمت الإشارة في
النداء إلى أن دساتير سوريا ولبنان ، تمت صياغتها من قبل " الأغنياء والإقطاعيين ... لخدمة
ممثلي طبقتهم". والدليل على ذلك أن الدساتير "لا تعطي الأرض للفلاحين ولا تمنع
استغلال العمال". **وتم القول إن المضطهدين الفرنسيين وأتباعهم المحليين هم كتلة واحدة ،**
ويجب أن يواجه نضال العمال والفلاحين ضدهم. وفقط "العمال والفلاحون هم المقاتلون
الحقيقيون من أجل استقلال سوريا" و "يجب أن ينضم إليهم كل مؤيديها المخلصين".
وشدد النداء على أن لكن العمال السوريين "ليسوا وحدهم في نضالهم". لديهم
"مئات الملايين من الشعوب المضطهدة في الهند والصين وإندونيسيا" إلى جانبهم. وكذلك
يقف معهم "إخوانهم العرب" ، وكذلك "عدة ملايين من العمال والفلاحين الثوريين في
البلدان الإمبريالية نفسها".

أخيرا ، تقف إلى جانب المناضلين السوريين "روسيا البلشفية ، صديقة ونصيرة
الشعوب المضطهدة ، وهي البلد الذي يسعى إلى تدمير قوى الإمبريالية وتحرير الشعوب
الضعيفة من نير الإمبريالية".

ودعا الحزب الشيوعي السوري العمال والفلاحين إلى "تجاهل الدساتير المعلنة في
البلاد السورية ، وفضح الخونة بين القادة الوطنيين ، والدعوة إلى عقد مؤتمر للشعب
السوري ينتخب المشاركون فيه بحرية ويعبرون عن الإرادة الحقيقية للشعب السوري".
وطرح الحزب شعارات كان يجب أن تتحول إلى دليل عمل لمؤيده : "يسقط الاتفاق
والتفاهم مع المعتصبين - الامبرياليين ! يسقط الاستغلال وتحيا حكومة العمال والفلاحين.

عاشت سوريا لموحدة والمستقلة بالكامل! عاشت الوحدة العربية المناهضة للإمبريالية!
عاشت الأُمّية الشيوعية! عاش الحزب الشيوعي السوري! "وكان النداء موقعا من
"اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوري - فرع الأُمّية الشيوعية".

وأكدت التقارير المنشورة في صحف الكومنترن أن "الشيوعيين السوريين غمروا حرفياً
شوارع دمشق وبيروت وحلب وطرابلس وصيدا وغيرها من المدن والقرى بمناشيرهم"^(١).
كانت هذه مبالغة شائعة. لم يتجاوز عدد النسخ الموزعة للاستئناف أربعة آلاف نسخة
هكتوغرافية^(٢).

من الواضح أن هذا العدد من المناشير لم يكن كافياً "لإغراق" كلا البلدين. هذا
الإجراء، على الأرجح، ظل شكلياً لا أكثر بسبب انخفاض مستوى الطباعة وأمية الغالبية
العظمى من السكان.

ومع ذلك، تلقت اللجنة التنفيذية للأُمّية الشيوعية التقرير اللازم حول الأداء
"الناجح" لقسمها. من أجل ذلك بالذات تم تنظيم كل هذه الفعالية. ومع ذلك، كان
الطريق إلى نشر هذا النداء مؤلماً للغاية بالنسبة للحزب الشيوعي السوري.

في فبراير ١٩٣٠، قام ن. ليشينسكي بإبلاغ موسكو بأن قيادة الحزب تنوي عقد
جلسة مكتملة النصاب للجنة المركزية لمناقشة القضايا التي أثارها الكومنترن. ودار الحديث
بشكل خاص عن أن اللجنة التنفيذية للأُمّية الشيوعية طالبت بنشر البنداء في موعد لا
يتعدى يوم ١ مايو.

(١) Sadi M. le manifeste du Parti communiste de Syrie // Correspondances Internationales.

(٢) ماديان أ. اقتباس من نفس المرجع ص ١٠٧.

ولكن الحزب الشيوعي السوري لم يكن يملك الموارد المالية اللازمة للقيام بذلك^(١). ولكن في أبريل عام ١٩٣٠ ، انعقد المؤتمر الثاني للشيوعيين السوريين اللبنانيين في بيروت. وأكدت وثائق الحزب على أن هناك مواجهة عنيفة داخل الحزب بين أنصار فؤاد شمالي والخط الجديد "المناهض للانتهازية".

من جانبه عاد ن. ليشينسكي مرة أخرى إلى مسألة "إعادة تنظيم" الحزب ، وأبلغ اللجنة التنفيذية للأمية الشيوعية بأنه في بداية عام ١٩٢٨ ، لم يكن الحزب الشيوعي السوري موجودا تقريبا ، باستثناء عدد قليل من الرفاق الشباب في بيروت والجبال (جبل لبنان) وحلب. وكانوا يعملون جميعا في عزلة تامة".

وهذا ما يفسر التطلع الأولي للحزب لحل مشكلة استعادة صفوفه وتوسيع صفوفه. وقال مندوب اللجنة التنفيذية للأمية الشيوعية: "لقد فكرنا وعملنا ، معتقدين أن واجبنا الأول والوحيد كان ، أولا وقبل كل شيء ، إعادة تنظيم الحزب ، وبعد أن نتوصل إلى مستوى معين على الأقل ، نعتزم استئناف أعمالنا على الجبهات الأخرى ، وخاصة على الجبهة السياسية للنضال المفتوح". وبعد ذلك حاول ن. ليشينسكي أن يثبت عدم وجود لدى الحزب القدرة على العمل العلني المفتوح ، استشهد ببعض البيانات حول عدد المنظمات الموجودة لدى الحزب الشيوعي السوري.

ووفقا له ، تواجدت هذه المنظمات في بيروت (٧ خلايا) ، وحلب (٥ خلايا) ، ودمشق (٣ خلايا) ، وبيروت (٦ خلايا فلاحية) ، ودير الزور (مجموعة من ٢٥ فلاحاً) ، وزحلة (خلية واحدة) ، وبعبك (مجموعة من ١٥ عضوا في طور التكوين) ، وطرابلس

(١) رسالة من بيروت بتاريخ ١٧ فبراير ١٩٣٠ RTSHIDNI // ، ف. ٤٩٥ ، اوب. ٨٤ وحدة الحفظ ٢٩ ،

(٤ خلايا)، والإسكندرونة (مجموعة من ١٥ عضواً) وأخيراً السويداء (خلية من ٧ أعضاء).

وحسب كلماته، لا يزال الحزب "ضعيفاً جداً، وغير متصل بشكل كاف بال جماهير العمالية العريضة، ولم يتغلغل بعد في المؤسسات الكبيرة، وبين الفلاحين الفقراء والفلاحين المتوسطين". وفي ذات الوقت، كان مستوى التحضير النظري لأعضاء الحزب "جيداً" فقط في بيروت"، "وفي أماكن أخرى كان منخفضاً جداً"^(١).

ومع ذلك، لم تكن هذه هي المشكلة الوحيدة لدة الحزب الشيوعي السوري. الحزب، بحسب أمينه الفلسطيني، كان "يمر بفترة" الاضطفاء طبعي". وفيه "لا تزال نزعات الانحراف الانتهازية واليميني والتصفوية والاقتصادية وأحياناً القومية قوية للغاية". كان يجب على الحزب "طرد الانتهازيين"، وكانت "الميل الانتهازية" قوية في بيروت وبكفيا وطرابلس. وتجلى ذلك في رغبة المنظمات الشيوعية المحلية في المشاركة "في الانتخابات البلدية، وفي العمل النقابي".

لكن ن. ليشينسكي يعتقد أنه يمكن التغلب على كل هذه العيوب بمساعدة اللجنة التنفيذية للأمية الشيوعية. وعلاوة على ذلك، وأفاد بعد ذلك بأن المؤتمر الثاني للحزب الشيوعي السوري قرر نقل "لجنته المركزية إلى المركز الذي حددته اللجنة التنفيذية للأمية الشيوعية"، وكذلك "تكثيف" العمل بين العرب، وذلك لأن الأغلبية المطلقة من سكان البلدين هم من العرب. ولذلك دار الحديث عن تعميق عملية التعريب في صفوف الحزب. وتطلب الانضباط الحزبي من الشيوعيين السوريين اللبنانيين بالخضوع لمتطلبات

(١) هنا ولاحقاً:

Materiel de la 2-ieme Conference du P.C.S. Notre activite du fevrier 1928 jusqu'au 6 avril 1920 et notre organization.

اللجنة التنفيذية للأمية الشيوعية. وقد فعلوا ذلك بالإعلان، على سبيل المثال، عن نقل هيكلهم المركزي إلى دمشق أو التأكيد على الحاجة الملحة لمكافحة "الانتهازية". ومع ذلك، زج ن. ليشينسكي بمهارة ذكر "القومية" في نسيج قصته حول "رذائل" الحزب، والتي كانت لحظة أساسية في ظروف رغبات الكومنترن المتزايدة الملحة في التعريب.

علاوة على ذلك، ارتبطت قضية نقل مقر اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوري إلى دمشق بالحاجة إلى إنشاء هيكل حزبي مركزي صارم. ومع ذلك، واجه الشيوعيون السوريون اللبنانيون في الحياة الواقعية، استحالة تحقيق هذه الرغبة - فالوضع ليس فقط في كلا البلدين، بل في داخل مناطق منفردة من سوريا نفسها كان يتمتع بخصوصياته المتميزة للغاية.

من هنا يأتي أحد قرارات المؤتمر الثاني، والذي تلخص في أن عمل الحزب الشيوعي السوري بدأ "في ثلاث مناطق:

١. منطقة بيروت (أي ما يسمى "الجمهورية اللبنانية").
 ٢. منطقة دمشق (دمشق، وأطرافها: حوران، جبل الدروز، حمص، حماة).
 ٣. منطقة حلب (مدينة حلب ومحيطها: اسكندرونة، دير الزور).
- لكن وكما هو معروف،** التنازلات بشأن التفاصيل لا تعني دائما تنازلات في القضايا الرئيسية. إذن ما هي قيمة شدة وقساوة اللجنة التنفيذية للأمية الشيوعية، إذن؟ كان أحد هذه الأسئلة الرئيسية، بالطبع، مسألة دخول الحزب الشيوعي السوري إلى الساحة السياسية للبلاد، وتم تأطير على أنه نداء عام للشعب العامل.

في ١٢ مايو ١٩٣٠ (بحلول ذلك الوقت كانت المدة التي حددتها اللجنة التنفيذية للأمية الشيوعية قد انتهت بالفعل) أرسل ن. ليشينسكي إلى موسكو مواد إضافية من

المؤتمر الثاني للحزب الشيوعي السوري المتعلقة بإعداد هذا النداء. وفيها تم سرد وجهة نظر الأغلبية والأقلية من المشاركين فيه. وتحدثت الأغلبية عن ضعف الحزب ونقص الموارد المالية اللازمة لتنظيم هذه الفعالية.

طرحت الأقلية حججا أكثر "سموا". وكانت تعتقد أن هذه هي الطريقة الوحيدة "لإيقاظ الطبقة العاملة"، وأن "الوضع المادي" للحزب الشيوعي السوري لا علاقة له بمسألة النداء. وكان يجب إعلانه "مهما كان الوضع"⁽¹⁾.

ومع ذلك، فإن قرارات المؤتمر الثاني لم تتوافق بالكامل مع وجهة نظر الأقلية. نعم، في موضوع النداء، وفي النهاية تم اعتماد قرار توافقي: "يجب في اقرب فرصة الكشف عن الحزب، وتكليف اللجنة المركزية باتخاذ كافة الاجراءات اللازمة لهذا الغرض وتنفيذ القرار الحالي عندما ترى أن الاستعدادات اللازمة قد اكتملت بالكامل".

ولكن الأغلبية حافظت وتمسكت بمواقفها في النقاط الرئيسية. والحديث هنا يدور عن البرنامج الزراعي للحزب. وفيه جرى القول: "يشكل الفلاحون والعمال الأغلبية الساحقة في سوريا، وهم من يصنع الرفاهية والثروة للبلاد. جميع العناصر الأخرى تعيش على حساب العمال والفلاحين، ويجب على المجتمع أن يرضي مصالحهم الحيوية".

لقد تم تنفيذ ذلك وفقا لفكرة فؤاد شمالي. وانبثقت منها نقاط محددة من البرنامج - إنشاء "بنك زراعي تحت سيطرة النواب المنتخبين من قبل الفلاحين"، وتقديم مساعدة الزراعية للفلاحين، وإنشاء جمعيات المساعدة المتبادلة للفلاحين.

وطبعا ورد في هذا البرنامج شعار "الأرض لمن يزرعها". وبالطبع، تحدثت هذه الوثيقة عن "مصادرة أملاك الإقطاعيين (الاغوات) وتوزيعها على أفقر الفلاحين".

(1) Autor de la declaration du P.C.S., Beyrouthe, 12 mai 1930.

وأخيرا تم طرح القول إن "تحرير الفلاحين مستحيل في ظل النظام الحالي ، حيث يتم اضطهاد الفلاحين من قبل الإمبرياليين ، وكذلك من جانب الإقطاعيين المحليين والرأسماليين".

وهذا يعني أن على الفلاحين بالتحالف مع الطبقة العاملة ، الكفاح من أجل "تحرير سوريا ، أي. تحقيق الاستقلال الكامل لسوريا ووحدتها". ولكن في الوقت نفسه تم عرض عليهم "تنظيم التعاونيات الإنتاجية والاستهلاكية".

تم دفع الشعارات الثورية إلى الخلفية وحلت محلها التفاصيل - الحد الأدنى من البرنامج الديمقراطي العام^(١).

علاوة على ذلك ، اتفق المشاركون في المؤتمر على ضرورة "فضح أعمال الخيانة في الحركة الوطنية" ، إلا أنهم أشاروا رغم ذلك إلى أن الحزب يجب أن "يعمل مع أولئك القوميين الذين يوافقون على مطالبنا بشأن المسألة الزراعية وعلى قانون حماية العمل".

وأخيرا ، تم انتخاب "لجنة مركزية مؤقتة" في المؤتمر التي كان من المفترض أن تعمل حتى "افتتاح مؤتمر الحزب". وكان فيها ٤ عرب و ٣ "غير عرب".

كان ثلاثة أعضاء من أعضاء هذه اللجنة من بيروت (ومن المنطقي أن نفترض أنه في هذه الحالة كان الأمر يتعلق برفيقين أرمنيين و ن. ليشينسكي ، الذي ظل ضمن اللجنة) ، واحد من كل من جبل لبنان ، وطرابلس وحلب ودمشق. وطبعا كان فؤاد شمالي ممثل جبل لبنان^(٢).

(١) في فترة لاحقة ، بعد وصوله إلى سوريا ، وصف حسن هذا البرنامج بـ "المزيف بالكامل" و "برنامج للكلوك" // نفس المرجع ، ف. ٤٩٥ ، اوب. ٨٤ وحدة الحفظ ٢٧ ، ص ١٦ .

(٢) قرارات اعتمدها مؤتمر الحزب الشيوعي السوري المنعقد في نيسان ١٩٣٠ في بيروت // المرجع نفسه ، =/=

ومن الواضح بدون شك أن اللجنة التنفيذية للأمية الشيوعية ، لم تكن قادرة على تحمل مثل هذا العصيان المكشوف. وتم اختيار حسن (ف. مالك) كأداة للانتقام. ذهب إلى سوريا ممثلاً عن القسم الشرقي في اللجنة التنفيذية للأمية الشيوعية^(١).

في ديسمبر ١٩٣٠ ، بعد مكوثه في سوريا لمدة خمسة أشهر على الأقل والعودة إلى موسكو ، قدم حسن تقريره عن رحلته إلى القسم الشرقي^(٢).

كانت أولى أولوياته تأمين نشر النداء العام العلني للحزب الشيوعي السوري. ولكن كان يجب عليه كذلك بعد حل هذه المهمة ، أن يغير ميزان القوى الداخلية الذي كان لا يزال سائداً في الحزب. ولكن تقرير حسن ، الذي كان يختلف من نواح عديدة عن مراسلات ن. ليشينسكي ، تحدث عن كل من سوريا والوضع في الحزب الشيوعي السوري. وذكر أنه يوجد تفاضل داخل التكتلات الوطنية: اليمين ، بقيادة جميل مردم بك واليسار يمثلها إبراهيم هنانو ، وأخيراً ، الوسط ، برئاسة ف. البارودي.

ويجب القول إن ممثل اللجنة التنفيذية للأمية الشيوعية ، لم يكن راضياً عن أي من هذه الفصائل - اليمين "يسير علانية مع الإمبرياليين" ، واليسار "يتستر على الخيانة بمساعدة العبارات الثورية" ، وموقف الوسط "غير مؤكد".

بالطبع ، كان لا بد من تأطير قصة موقف الحزب وأخطائه وعيوبه ، في سياق سياسي واسع لإثبات أن الوضع السوري الداخلي كان مهيباً لثورة اشتراكية. كانت هذه إحدى

ص. ٧-٨ و ٢٠-٢١.

(١) المرجع نفسه ، ف. ٤٩٥ ، اوب. ٨٤ وحدة الحفظ ٢٧ ، ص ١٢.

(٢) هنا ولاحقاً انظر الموقع من جانب حسن..

قواعد اللعبة. بعد ذلك بدأت تهجمات جديدة ضد فؤاد شمالي من جانب حسن الذي كتب أنه في الجلسة الكاملة للجنة المركزية التي عقدت بعد المؤتمر، ذكر زعيم الحزب أنه يعارض نشر نداء الحزب الشيوعي السوري في ١ مايو، وحصل على دعم غالبية المنظمات الحزبية، باستثناء "الرفاق من طرابلس". وفي النهاية، تقرر أن النداء سيظهر في ١ يوليو، مما تسبب باحتجاج جديد من قبل فؤاد شمالي.

ووفقا لما ذكر حسن، كان شمالي معارضا بشكل مطلق لمراجعة البرنامج الزراعي الذي اعتمده المؤتمر الثاني للحزب الشيوعي السوري.

وفي هذا أيدته أغلبية أعضاء اللجنة المركزية التي ذكرت أنه:

١. لا يجوز اعتبار "الكتلة" بمثابة الشبيه السوري "للفد" في مصر.
٢. لا يجوز تحمل المسؤولية عن "العمال" لأن هذه الصحيفة لم تكن تحت السيطرة الكاملة للحزب.

٣. تم تحقيق التعريب داخل الحزب لأن غالبية أعضائه من العرب.

كانت تلك إهانة وفضيحة حقيقية. ولكن، مع ذلك، تمكن حسن من تغيير الحالة المزاجية واتخاذ قرار بشأن تاريخ إصدار نداء الحزب الشيوعي السوري في ١ يوليو. لا شك (وهذا واضح من التلميحات الواردة في تقريره) أنه لجأ إلى التهديدات المباشرة والابتزاز والوعود.

ولكن الأهم من كل ذلك هو أنه قدم نشاطاته في سوريا على أنها "نجاح كامل لخط الكومنترن" الذي فاز فور نشر النداء.

ومن تقرير حسن تبين أن الحزب الشيوعي السوري، "قام بتغيير عمله بالكامل". وهذا يعني، مع ذلك، أن هزيمة "الميل الطائفية" أجبرت "جميع العناصر الغربية على ترك صفوفه".

ونتيجة لذلك ، "تراجعت قوى الحزب وفقدت أكثر من ثلاثة أرباعها، لكن بالطبع على حساب "تحسين نوعية العمل ، ووضوح الخط السياسي ، والتواصل مع الجماهير". ووفقا لحسابات حسن ، كان الحزب الشيوعي السوري يضم ٢٠٨ أعضاء في ذلك الوقت. عملوا في بيروت (٦٠ شخصا، بينهم ١٠ عمال عرب)، وحلب (٢٥ شخصا، بينهم ٨ عمال عرب)، وطرابلس (٤٥ عضوا عربيا، بينهم ٣٠ عاملا و١٠ من الطلاب)، ودمشق (١ أرمني و٤ عمال عرب)، وبيروت (٢٠ فلاحا عربيا)، ودير الزور (٥ فلاحين عرب)، وبعبك (٧ فلاحين عرب)، وسهل البقاع (٥ فلاحين عرب)، وعكار (مثقف عربي واحد)، ورياق (٣ عمال عرب)، وزحلة (٨ حرفيين وفلاحين) واسكندرونة (١٠ عمال أرمن) والسويدية (٣ فلاحين أرمن). كانت هناك خلية عسكرية تابعة للحزب ، مؤلفة من ٥ جنود أرمن و٣ جنود عرب ، بالإضافة إلى خلية في القاعدة البحرية الفرنسية في بيروت (٣ بحارة أرمن).

من الناحية الشكلية، بات الحزب عربيا (كان العدد الإجمالي لأعضائه الأرمن ٨٩ فقط من أصل ٢٠٨). لكن من الواضح بشكل قاطع أن قوى الحزب تركزت في المقام الأول في بيروت وحلب ، في التنظيمات الحزبية التي لعب الأرمن دورا قياديا فيها. **بالإضافة إلى ذلك ،** كانت الغالبية العظمى من الأعضاء العرب في الحزب الشيوعي السوري من الفلاحين أو المقيمين في بلدات المقاطعات البعيدة ، وهذا لا يعني بأي حال من الأحوال أنه محصن تماما من احتمال حدوث تقلبات رقمية حادة في صفوفه. كان حسن فقط يقدم تمنياته على أساس أنها واقع موجود.

كما أفاد حسن بأن اللجنة المركزية في الحزب الشيوعي السوري تتألف من تسعة أعضاء ، من بينهم فؤاد شمالي ، وأ. ماديان ، ون. ليشينسكي (الذي كان اسمه وفقا لقائمة حسن ، "السوري") وكذلك حسن نفسه.

وبالإضافة إلى أ. ماديان، ضمت الهيئة العليا للحزب شخصا أرمنيا آخر، بالإضافة إلى أربعة عرب (عامل من حلب، واثنين من المثقفين و "فنان" واحد). هذا الحديث كان بالطبع عن اللجنة المركزية لـ "العمال والفلاحين".

لكن الأمر المهم تلخص في أن الحزب، وكما أشار حسن، تمكن تحت تأثيره من "تبني بالكامل" شعارات الكومنترن. منذ ذلك الحين، أعلن الحزب عما يلي: ١- النضال ضد الإمبريالية الفرنسية، من أجل الاستقلال الكامل لسوريا والوحدة السورية، من أجل تشكيل حكومة العمال والفلاحين. ٢- النضال في سبيل تحقيق يوم العمل لمدة ٨ ساعات وفرض تشريعات العمل؛ ٣- العمل من أجل مصادرة أراضي الحكومة وأراضي كبار الملاك والأديرة وتحويلها إلى تحت إدارة اللجان الثورية للفلاحين الفقراء والمتوسطين. ومن المعروف أنه تم الحديث عن كل ذلك في بيان الحزب الشيوعي السوري المنشور في ١ يوليو ١٩٣٠.

وهكذا تم تغيير الحزب. لكن وعلى الرغم من جهود حسن، فإن هذه التغييرات لم تصل بعد إلى نهايتها المنطقية. وبقي فؤاد شمالي داخل الحزب، والتعريب كان ناقصا، وبعض التنظيمات تمرتد علنا ضد المسار "الطبقي" الجديد المفروض عليه.

أفاد حسن، على سبيل المثال (وهذا وجه ضربة للتقارير المتفائلة المبالغ فيها لصحافة الكومنترن حول الانتشار الواسع لنداء الحزب الشيوعي السوري) بأن هذا النداء لم يتم توزيعه في رحلة^(١). بالإضافة لذلك لم تكن قرارات الجلسة الموسعة للجنة المركزية للحزب الشيوعي السوري التي انعقدت في بداية يونيو عام ١٩٣٠، خالية تماما من "الانتهازية". وفيها تمت إدانة مسار قادة الكتلة الوطنية الذين سعوا للتفاوض مع سلطات الانتداب

(١) نفس المرجع السابق. ف 495. اوب. ٨٤ وحدة الحفظ ٢٧، ص ١٢.

فيما يتعلق بإعادة الحياة البرلمانية على أساس الدستور في سوريا. ولكن، في الوقت نفسه، تم التأكيد على أن "اليسار في الكتلة ضعيف للغاية في مواجهة الأثرياء الكبار".

ولاحقا قالت القرارات: "فقط قوة العمال والفلاحين المتجسدة في حزبنا هي القادرة على إنقاذ الحركة المناهضة للإمبريالية. يضع التاريخ أمامنا مهمة كبيرة للغاية".

لكن لماذا لا يمكن تفسير هذه الكلمات على أنها اعتراف غير مباشر بإمكانية التواصل مع الجناح اليساري للحزب السياسي الرائد في سوريا في ذلك الوقت؟

لقد احتوت وثائق الجلسة الكاملة نفسها على أدلة أخرى على هذه الفكرة - الدعوة إلى عقد "مؤتمر عربي مناهض للإمبريالية" كأداة لمعارضة حكم فرنسا، حيث اقترح أن تشارك فيه "القوى الثورية الوطنية".

علاوة على ذلك، لم يرغب الحزب الشيوعي السوري بأي شكل من الأشكال في التمييز بين الطبقات التي يتألف منها الفلاحون - أكد قرار الجلسة الموسعة مرارا على فكرة "جبهة موحدة بين العمال والفلاحين في النضال من أجل تحررهم المشترك"^(١). ولكن الأمر لم ينحصر في ذلك فقط. لم يقيم الحزب الشيوعي السوري ببناء أية أوهام حول قدراته وإمكانياته. وأشارت مواد الجلسة الموسعة للجنة المركزية في حزيران (يونيو) إلى أن "الحركة البروليتارية وكذلك العمال في سوريا لا يزالون ينتظرون ظهور حزب يتولى المهمة التاريخية المتمثلة في تنظيم الحركة العمالية وقيادتها". بعبارة أخرى، "نحن حزب ذو إمكانيات كبيرة، لكن مع وسائل متدنية جدا لتحقيق ذلك"^(٢).

(1) La situation actuelle et nos taches. Approuve par le plenum du C.C. du P.C.S. le 8 juin 1930 et traduit a la langue arabe et armenienneLettre.

(٢) رسالة من اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوري في الجلسة الكاملة الثانية للجنة المركزية (استلمتها اللجنة التنفيذية للأمية الشيوعية في ٨ يوليو / تموز ١٩٣٠) // نفس المرجع، ص ٤٨-٤٩.

كانت فكرة إعادة تنظيم الحزب (وبالمصادفة مساعدة الكومنترن) لا تزال تحوم في الهواء. ومع ذلك، على ما يبدو، كانت لا تزال هناك وسيلة للضغط عليها. لقد تطلب حل المشكلات الجيوسياسية السوفيتية تغييرات فورية وجذرية في الحزب الشيوعي السوري.

طبعاً من بين وسائل الضغط على الحزب، كان يمكن أن تكون عملية تغيير قيادته (وهو ما تم فعلاً).

لقد ساهم اعتقال ن. ليشينسكي في نهاية عام ١٩٣١ في بيروت^(١) في أنه وبمبادرة من الشيوعيين الفلسطينيين، تم إيفاد المؤيد غير مشروط للتعريب وإنشاء "الحزب الشيوعي العربي" محمود مغربي الجزائري (أبو داود، عدنان) إلى اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوري ليشرف من الآن فصاعداً على رفاقه السوريين اللبنانيين.

في الوقت نفسه، تم إبعاد فؤاد شمالي عن العمل في اللجنة المركزية، وبقي رئيساً للنقابة العامة لعمال التبغ في بكفائي. ولكن في أكتوبر عام ١٩٣٠ تعرضت مواقع فؤاد شمالي في هذه النقابة لضربة ساحقة. اتخذت اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوري، قرارها بحل قيادة هذه النقابة، لأنها "أصرت على فرض ضريبة على استخدام الآلات" (كانت إحدى منشورات هذه النقابة، التي تقدمت بمطالبة بحظر ميكنة إنتاج التبغ). وطبعاً لم يدخل فؤاد شمالي في قوام القيادة الجديدة للنقابة المذكورة^(٢).

لكن الأمر لم يتوقف عند ذلك. في صيف عام ١٩٣١، تم شن هجوم شامل عليه، جرى خلاله استخدام القذف والافتراء الصريح ضده. وتم وضع بداية هذا الهجوم في

(١) ماديان.أ. اقتباس من نفس المصدر ص ١٢٤ - ١٢٥.

(٢) RTSHIDNI، ف. ٤٩٥، اوب. ٨٤ وحدة الحفظ ٣١، ص ٣٣.

جامعة شغيلة الشرق الشيوعية بموسكو.

في يوليو ١٩٣١ ، تلقى القسم الشرقي في اللجنة التنفيذية للأمية الشيوعية رسالة من أحد الطلاب السوريين الذين درسوا هناك (أطلق على نفسه اسم عضو في الحزب الشيوعي "السوري الفلسطيني") ، ذكر فيها أن فؤاد شمالي عرض عليه تقديم المساعدة في اعتقال أ. ماديان ، وفي الوقت نفسه ، "أن يتزعم الثورة الجديدة ومركزها في دير الزور (أي تكرار لأحداث" الثورة السورية الكبرى " ، والتي ، هذه المرة ، كان من المقرر أن تبدأ في شرق البلاد)"^(١).

وفي اليوم الذي وصلت فيه الرسالة إلى القسم الشرقي ، تمت ترجمتها إلى الروسية ، وتم تدوين ملاحظة حول الحاجة إلى ترجمة فورية للرسالة إلى اللغة الفرنسية لإرسالها إلى سوريا.

على ما يبدو كانت اللجنة التنفيذية للأمية الشيوعية تنتظر بلهفة شديدة هذه الوشاية القذرة. وكتب ل. ماديان ، أحد أعضاء قيادة الكومنترن ، على نص ترجمتها الروسية : "منذ ذلك الحين ، وقع عدد من الاعتقالات في سوريا في ظروف مريبة للغاية"^(٢).

في تلك الفترة شهدت سوريا ولبنان فعلا عمليات اعتقال للشيوعيين. ولكن كان الأمر يتعلق فقط بالعثور على حجة لطرد فؤاد شمال.

وبالفعل اتخذت اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوري ، قرارها بشأن طرد ف.

(١) الرسالة مكتوبة باللغة العربية وموقعة من جابر الحسن (والذي كان بالطبع اسماً مستعاراً). وفيها تم الحديث عن شغف ف. شمالي بـ "الخيول ، النساء" ، وأنه "أهدر أموال الحزب" // المرجع نفسه ، ف. ٤٩٥ ، اوب. ٨٤ وحدة الحفظ ٤٠ ، ص ٧-١٤ .

(٢) المرجع نفسه ، ص ٢٢ .

شمالي من الحزب بسبب التصرفات "غير اللائقة" التي ارتكبتها. وتم اتهامه "بتجنب العمل على مستوى القاعدة الشعبية"، وارتكاب "أخطاء انتهازية"، وكونه من أنصار العمل العلني، و"عدم المشاركة مطلقا في أعمال عمالية مباشرة (مظاهرات، إضرابات)".

لكن كل ذلك كان ضربا من الهراء والسخافة التامة! كان المتهم حاضرا في جلسة الجلسة الموسعة هذه، وأعلن اعترافه الكامل بالأخطاء التي ارتكبتها في وقت سابق وطلب تركه في الحزب. لكن رأي اللجنة التنفيذية للأمية الشيوعية سيطر على المشاركين في الجلسة، وتم تجاهل طلب النقابي اللبناني الرائد^(١).

أخيرا، في أبريل ١٩٣٥، أصدرت اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوري منشورا بعنوان في غاية البلاغة: "انتباه: أعداء الشعب!" وقالت أنه في وقت إنشاء الحزب، تمكنت بعض "العناصر الفاسدة سياسيا وأخلاقيا" من اختراق صفوفه، ومن بينها كان فؤاد شمالي - الذي تمكن من "شغل مناصب قيادية معينة".

ولكن ووفقا للبيان، تمكن الحزب الشيوعي السوري من اكتشاف وفهم أن هذه "العصابة" كانت تسعى جاهدة "لإبطاء وتدمير تطور الحزب وحركة التحرير الوطني". في النهاية تم طرد هذه "العناصر الفاسدة" من صفوف الحزب، بعد أن أصبحوا، بالإضافة إلى ذلك، "عملاء للشرطة و... للدول الأجنبية"، ومن بين هذه العناصر كان ذلك "اللبناني فؤاد شمالي"^(٢).

(1) Au C.C. du P.C. Syrien, 21-1-1933.

(2) من منشورات الحزب الشيوعي السوري: "انتبهوا: أعداء الشعب"، أبريل ١٩٣٥ // نفس المرجع، ف. ٤٩٥، اوب. ٨٤ وحدة الحفظ ٧٨، ص ٤٤.

ولكن كل هذه التغييرات التي حدثت في قيادة الحزب الشيوعي السوري لم تتمكن من تغيير الحزب وجعلته في النهاية أداة مطيعة للسياسة الخارجية السوفيتية، إذا لم يكن هناك أساس جاد لحق هذه التغييرات.

لقد تشكل في البلدين وضع جديد تبلور نتيجة عدم الرضا الذي نشأ في كلا البلدين مع التحرك البطيء للغاية لقيادة الحركة الوطنية السورية إلى السلطة في البلاد، فضلا عن استبعاد أفراد الطوائف غير المارونية في لبنان من العملية السياسية النامية هناك.

لقد تسبب هذا الوضع الطارئ الجديد بجلب العديد من الأشخاص الجدد إلى الحزب الشيوعي السوري ومن بينهم على سبيل المثال خالد بكداش^(١) وفوزي الزعيم في دمشق، كذلك اللبنانيين سليم خياط وفرج الله الحلو ونقولا شاوي ويوسف حتر الحلو. كان هؤلاء مجموعة جديدة من المناضلين الشيوعيين التي ظهرت على الساحة.

في وقت مبكر من يناير ١٩٣١، قام ليشينسكي بإبلاغ اللجنة التنفيذية للأمية الشيوعية بذلك وقال، أن "هناك عملية مزدوجة جارية" في الحزب وطور هذه الفكرة: "من ناحية، يتزايد تأثير الرفاق الجدد أكثر فأكثر، ومن ناحية أخرى، هناك انسحاب واسع نسبيا من صفوف الحزب نتيجة للإرهاب بعد إعلان وجود الحزب"^(٢).

(١) ربما كان الدليل الأول على ترشيح الشخص الذي تزعم الشيوعيين السوريين في المستقبل لفترة طويلة، هو المنشور: "إلى الكادحين في دمشق" الذي كتبه في ٢٩ آب / أغسطس ١٩٣٢، والذي وزع في العاصمة السورية بمناسبة زيارة المحامي الشيوعي الفرنسي انطوان الحاج. وفي ذلك المنشور دعا خالد بكداش إلى وحدة البروليتاريا العالمية فيها وطالب بالعفو الفوري عن السجناء السياسيين في بلاده. انظر: نداء إلى الشعب الدمشقي العامل. كاتبه خالد بكداش، ٢٩ آب ١٩٣٢ // المرجع نفسه، ف. ٤٩٥، اوب. ٨٤ وحدة الحفظ ٥٠، ص ٢٧.

(2) Rapport du mois octobre-decembre 1931, Beyrouth, 30 janvier 1931.

كان هؤلاء "الرفاق الجدد" يؤيدون بشكل غير مشروط النشر الفوري لنداء الحزب الشيوعي السوري وتعريب الحزب بشكل الكامل ويعارضون ما أسموه "بالانتهازية". بنى الكومنترن مساره نحو الحركة الشيوعية والوطنية السورية اللبنانية معتمدا على دعمهم. ومع ذلك، حل ممثلو الجيل الشيوعي الجديد، في نفس الوقت، مهامهم الخاصة. بمعنى آخر، حدثت عمليات في صفوف الحزب الشيوعي السوري، مماثلة لتلك التي أصبحت حقيقة واقعة في الأحزاب الشيوعية في مصر وفلسطين.

(٥) التحولات والتغيرات في الحزب الشيوعي السوري: تشكيل منظمة العمل السياسي القومي العربي

جاء ممثلو الجيل الجديد من الشيوعيين السوريين اللبنانيين إلى الحزب خلال فترة القمع الجديدة التي تعرض لها هذا الحزب، والتي أصبحت نتيجة مباشرة لنشر ندائه^(١)، ولكن هذا القمع نفسه بالذات أصبح، وللمفارقة، من أهم الظروف التي ساهمت في تعزيز مواقعهم في صفوف الحزب.

لقد أقنع الاضطهاد، هؤلاء الشيوعيين الشباب أن العمل الطويل لتشكيل النقابات والحزب والاعتدال في المطالب السياسية لا يمكن اعتباره أداة للرد على أجواء الرعب التي نشأت حول الحزب الشيوعي السوري.

(١) انظر على وجه الخصوص تقرير صحيفة "أورينت" البيروتية بتاريخ ٢ مارس ١٩٣١، المرسل من العاصمة اللبنانية إلى القسم الشرقي في اللجنة التنفيذية للامية الشيوعية. يتضح من هذا التقرير أن موجة القمع ضد الحزب الشيوعي السوري بدأت على الأقل في النصف الأول من يناير ١٩٣١ ووصلت ذروتها في منتصف مارس من نفس العام. ونشرت الصحيفة أسماء الموقوفين، وبذلك اتضح أن الشرطة تمكنت من اعتقال جميع أعضاء اللجنة المركزية والأمانة العامة في الحزب الشيوعي السوري، باستثناء ف. شمالي، وكذلك قيادة الكومسومول المحلي والتنظيمات الحزبية الرئيسية - في بيروت وحلب ودمشق.

ويلفت النظر أن اثنين فقط من بين ١٢ شيوعياً تم اعتقالهم في قائمة الصحيفة كانوا من العرب وهما خالد بكداش ورشيد يوسف. وتعليقاً على هذا التقرير، أفاد مراسلو اللجنة التنفيذية للامية الشيوعية في بيروت بأن الاعتقالات بدأت "فور نشر النداء" // المرجع نفسه، ف. ٤٩٥، اوب. ٨٤ وحدة الحفظ ٤١، ص ٢٨-٢٩.

لقد بدأوا بالفعل في الاعتقاد بأنه يجب تقييم هذا العمل على أنه "إصلاحي وانتهازي". واعتبروا أنه من الضروري الرد على الواقع القاسي بأساليب عمل مناسبة - بالعنف الثوري".

في يوليو ١٩٣٠، نشر الحزب الشيوعي السوري وثيقته السياسية الجديدة، تحت عنوان "ما الذي يناضل من أجله الحزب الشيوعي السوري". وأصبح ظهور هذه الوثيقة ممكناً، أولاً وقبل كل شيء، لأن ممثلي الجيل الجديد من الشباب باتوا يحددون بشكل متزايد نغمة العمل في صفوفه^(١).

وعلى غلاف الكتيب الذي يحتوي على نص وثيقة البرنامج الخاصة بالحزب الشيوعي السوري، كان هناك عنوان إضافي - "الهدف الأعلى وتركيبات البرنامج". وكان النص نفسه يحتوي على تفسيرات بشأن هذه الإضافة.

تحت "الهدف الأعلى" للحزب كان المقصود أن برنامج الحزب الأقصى - هو الشيوعية، وأما التركيبات فكانت تعني - الحد الأدنى من برنامج. ولكن ما مدى اختلاف قسمي هذه الوثيقة؟

تضمن قسم "تركيبات البرنامج" قائمة واسعة من مهام الحزب الشيوعي السوري ("المصالح الحيوية" للعمال والفلاحين، وتحرير المرأة، والنضال ضد الوضع المضطهد للأقليات القومية).

وشدد الشيوعيون السوريون على أن "المسؤولية عن محنة العمال والفلاحين في سوريا

(١) هنا وفيما يلي مرجع هذه الوثيقة. بحسب استنساخه في // "الطريق" بيروت ١٩٨٤ العدد ٣/٢ ص ٢٨٧-٣٠٠. وانظر أيضاً // صفحة من تاريخ الحزب الشيوعي السوري.. ب / م، ١٩٨٤، ص ٨ - ٣٣.

تقع بالدرجة الأولى على عاتق المستعمرين الفرنسيين". وطبعاً كانت كل الكلمات الواردة في البيان أكثر من عادلة.

لكن الحزب اعتقد أن "العمال" فقط هم من يمكن أن يكونوا مشاركين في حركة التحرر الوطني، والمرتبطين في نظر الشيوعيين بـ "الفلاحين المحرومين" و"النساء المستعبדות والمضطهدات"، و"الجماهير العاملة من المسلمين، والمسيحيين، والدروز، والعلويين. والأرمن والتركمان واليهود والشركس والأكراد".

وهكذا أصبح النضال من أجل الاستقلال، حركة جماهيرية للعمال تهدف إلى "تحرير الشعب السوري العامل"، والتي وقف ضدها معسكر موحد من "المستعمرين وأتباعهم، وأمرأ الإقطاع، ووزراء الطوائف الدينية، والبرجوازية وأكثر القوميين تطرفاً، وحشدوا قواهم من أجل التصدي بنشاط أكبر لجماهير العمال"^(١). علاوة على ذلك، فقد جاء في هذه الوثيقة أن التوجه "الطبقي" لهذه الحركة تضمنه هيمنة البروليتاريا بقيادة الحزب الشيوعي.

وشددت وثيقة برنامج الحزب الشيوعي السوري على أنه كان يجب على الحركة الوطنية، أن تطرح كهدف لها إنشاء "حكومة العمال والفلاحين" على غرار الاتحاد

(١) من الأمثلة النموذجية على هذه التكتيكات موقف الحزب الشيوعي السوري أثناء الانتخابات البرلمانية في سوريا عام ١٩٣١. خلال الحملة الانتخابية، تعرضت الكتلة الوطنية لاضطهاد شديد من قبل السلطات المنتدبة. وهو ما سمح للشيوعيين بجذب مناصريه المحتملين، بعد تضليلهم بمساعدة شعارات "حكومة العمال والفلاحين" و"الهيمنة البروليتارية في الحركة الوطنية".

وبالفعل ساهم الشيوعيون في إضعاف مواقف الوطنيين في البرلمان الجديد وتشكيل حكومة ترضي السلطات الفرنسية // حسن. الانتخابات في سوريا مرحلة جديدة في النضال // "الشرق الثوري"، ١٩٣١، عدد ١١/١٢، ص ٣١١-٣١٥.

السوفيتي، لأنها "وحدها القادرة على الصمود وتنفيذ الإجراءات الهادفة لتحقيق ... نقاط برنامج الحزب الشيوعي السوري"^(١).

وأعلن الحزب أنه في سياق نضاله من أجل تشكيل مثل هذه الحكومة، سيستخدم جميع "الوسائل لتحقيق الهدف الأسمى للحزب، بما في ذلك الثورة". إذن، كان يجب أن تصبح لحظة التحرر الوطني بمثابة لحظة التحرر الاجتماعي.

وبالطبع رفض الشيوعيون أي شكل من أشكال التعاون مع قادة الحركة الوطنية: "يوجد عدد كبير من الإقطاعيين والرأسماليين في سوريا، الذين يدعوا بحماس للكفاح الوطني. لكن العديد من العمال والفلاحين يعملون في مؤسساتهم وأراضيهم الذين يكتفيهم فقط النظر إلى كيفية استغلالهم واضطهادهم واستبدادهم من قبل هؤلاء القادة الوطنيين، الذين يعملون بالكلمات فقط كخدم مخلصين للشعب السوري، ويزعمون بأنهم يعملون لصالح تحرير سوريا من نير الاستعمار".

وتابعت الوثيقة الشيوعية القول: "في بعض الأحيان تندلع خلافات طفيفة بين القادة الوطنيين والسلطات الاستعمارية. لكن سببها هو فقط أن الإمبرياليين، من خلال تنافسهم، يقيدون تصرفات الإقطاعيين والبرجوازيين المحليين، ولا يعطونهم الفرصة لاحتكار عملية استغلال البلد وعمل الجماهير الشغيلة، ويعيقونهم من يصبحوا السادة الكاملين للبلاد، والسيطرة على البلاد الخاضعة للمستعمرين".

ويرى الشيوعيون أن القوميين يهتمهم فقط أمر واحد- فرض "سلطتهم الكاملة" على العمال، "جعلهم عميان ونقلهم" من اضطهاد المستعمرين إلى اضطهاد أكثر قسوة من قبل البرجوازية الوطنية.

(١) هنا ولاحقا // "الطريق" بيروت ١٩٨٤ عدد ٣/٢ ص ٢٨٧-٣٠٠.

وفي ذلك بالذات وكان يكمن معنى أنشطة جميع القوميين، وخاصة الكتلة الوطنية السورية، التي سعت، تحت "ذريعة" النضال ضد فرنسا، إلى كسب الجماهير إلى جانبها، وإخضاعهم لمصالحها الطبقية وجعلهم عبيداً مطيعين لسلطتها.

وشدد الحزب الشيوعي السوري على أن هؤلاء الوطنيين كانوا "خونة" ولن يقبلوا بتاتا تلبية مطالب العمال والفلاحين - أعدائهم الطبقيين".

وطبعا أيد الكومنترن هذه المشاعر. في نوفمبر عام ١٩٣٢، أرسلت السكرتارية السياسية للجنة التنفيذية للأمية الشيوعية "رسالة إلى سوريا" إلى قسمها السوري اللبناني. واتسمت هذه الوثيقة باللهجة الحادة. وشددت على أن "البرجوازية القومية العربية الإصلاحية تعمل كعميل برلماني - حكومي عاجز ومخادع للإمبريالية الفرنسية.

وأما الجزء الآخر من الكتلة، برئاسة هنانو، فيحاول التستر على خيانة الثورة المضادة - الإصلاحية الوطنية، وخداع الجماهير بعبارات "يسارية" والسعي لتوجيه الحركة الجماهيرية إلى قناة الخضوع للفرنسيين الإمبرياليين".

كما جرت العادة بالنسبة للكومنترن خلال فترة تنفيذه لنهجه المفتوح "طبقة ضد طبقة"، أصبح الوطنيون اليساريون الهدف الرئيسي لهجماتهم: "أن مناورات هذا الجناح اليساري للإصلاحيين الوطنيين تهدف للتستر على خيانة مردم بيك العلنية، لاستعادة ثقة الجماهير في الكتلة وقادتها الإقطاعيين والبرجوازيين، وبالتالي، تأخير خروج الجماهير من تحت تأثير الإصلاح الوطني".

وتمت مطالبة الشيوعيين بتوجيه الضربة الرئيسية ضد هذا الجناح من القوميين: "يجب تركيز الاهتمام الخاص، على محاربة جماعة إبراهيم هنانو".

وبدت هذه الفكرة غير قابلة للجدل لدى الشباب الشيوعيين السوريين اللبنانيين. بالنسبة لهم، كان من المؤكد أيضاً أن "إنجازات الحزب الشيوعي والتي من بينها ذكرت

اللجنة التنفيذية للأمية الشيوعية " النهج الصحيح نحو التعريب " ، كان ينبغي أن تؤدي إلى أن الحزب الشيوعي السوري سيكون في نهاية المطاف على اتصال " مع الجماهير المتمردة بشكل عفوي " و "يقودها تحت شعاراته".

وطلب منهم شن "انتفاضة عمالية وفلاحية ضخمة" تحت الشعارات التالية :

١. الإطاحة بالإمبريالية الفرنسية والاستقلال الكامل لسوريا.
 ٢. النضال في سبيل تحقيق جمهورية العمال والفلاحين العربية السورية.
 ٣. الكفاح في سبيل قيام تحالف كل العمال في البلدان العربية في النضال ضد الإمبريالية ومن أجل اتحاد جمهوريات العمال والفلاحين العربية.
 ٤. في سبيل استيلاء الفلاحين والمعدمين على أراضي البرجوازيين الصغار وأراضي الدولة وأراضي الإمبرياليين".
- والحزب، كما أظهر من نص "الرسالة إلى سوريا"، كان قادراً على القيام بذلك لأنه يمر بتغيرات "بعد فترة طويلة من الخمول والقحط".

من جانبهم اعتبر الشباب الشيوعيون هذه الكلمات على أنها موجهة لهم بالذات. لقد وافقوا، بالطبع كذلك على ذلك القسم من الوثيقة، الذي أشار إلى أن "الانتهازية قد ترسخت بعمق" في الحياة الحزبية الداخلية ومن الممكن وضع حد لها "فقط في النضال ضد أسوأ أشكال" من تطورها، وهي الظواهر المتجسدة في "السلبية والخمول من أجل تجنب القمع من قبل السلطات الفرنسية" والتحول إلى "الذيلية الكاملة فيما يتعلق بالإصلاحين الوطنيين من مختلف الأطياف".

في نص "الرسالة إلى سوريا"، تمت الإشارة إلى نواقص الحزب الشيوعي السوري، وتحريض الشيوعيين السوريين اللبنانيين الشباب ودفعهم إلى المزيد من التصرفات - بعد فقدانهم "للدور القيادي في نقابة عمال التبغ"، وضعف موقف الحزب في دمشق، وعدم

تعريب التنظيم الحزبي في بيروت.

وقيل لهم أن الوقت قد حان "للنضال من أجل القيادة المستقلة للجماهير"^(١). وقبل ذلك بقليل تلقوا "القرار بشأن مهام الحزب الشيوعي السوري"، وكانت معظم نصوصه مطابقة تماماً للوثيقة المعروفة - "مهام الشيوعيين في الحركة القومية العربية"، التي يُزعم أنه تم تبنيها عام ١٩٣١، في "مؤتمر الأحزاب الشيوعية في سوريا وفلسطين"^(٢). أما حسن الذي أبلغ بالطبع أعضاء القسم الشرقي في اللجنة التنفيذية للأمية الشيوعية بشأن مزاج الجيل الجديد من الشيوعيين، فقد اشتكى في سبتمبر ١٩٣٢ من أن "قرار السكرتارية السياسية للجنة التنفيذية للأمية الشيوعية بشأن القضية العربية (نفس قرار المؤتمر الشيوعي السوري الفلسطيني لعام ١٩٣١)، الذي تم إقراره في مارس، وصل إلى الحزب الشيوعي السوري فقط في سبتمبر ١٩٣١"^(٣).

ومع ذلك، في وقت مبكر من مارس ١٩٢٩، توصل الكومنترن إلى استنتاج أنه من الضروري إنشاء "حزب شيوعي عربي على أساس الحزب الشيوعي السوري. بحلول ذلك الوقت، كانت موسكو تعلم بالفعل أن هذه الفكرة ستجد أرضاً خصبة في سوريا. وجدير بالذكر أن الشباب المؤيدون للفكرة البلشفية في سوريا ولبنان كانوا معارضين بشكل مطلق للدولة المتناقضة وغير المتسقة للغاية التي تم إنشاؤها داخل أراضي هذين البلدين. وقد حدث هذا، أولاً وقبل كل شيء، لأنهم كانوا مستبعدة من عملية

(١) رسالة إلى سوريا. السكرتارية السياسية في اللجنة التنفيذية للامية الشيوعية، ٣ نوفمبر ١٩٣٢ // المرجع نفسه، ف. ٤٩٥، اوب. ٨٤ وحدة الحفظ ٤٧، ص ١-١٣.

(٢) قرار حول مهام الحزب الشيوعي السوري، ٦ فبراير ١٩٣١ // المرجع نفسه، ف. ٤٩٥، اوب. ٨٤ وحدة الحفظ ٤١، ص ٥٣-٥٦.

(3) A la Commission politique du C.E.I.C. , 28 septembre 1932.

"بناء الأمة".

لهذا السبب، كانوا بالطبع من أنصار الأفكار التي كان لها تاريخ طويل في الوجود في صفوف حزبهم والتي نشأت في سياق تاريخي جديد كنسخة متأخرة للإنشاءات الأيديولوجية لـ " النهضة العربية".

وخلال ذلك لم تكن معارضة الجيل الشاب من الشيوعيين السوريين اللبنانيين لفؤاد شمالي، تعني قط أنهم كانوا يستطيعون تحديث أو إعادة تفسير الأفكار التي لم تتركهم أبداً، على سبيل المثال، حول جوهر الدولة اللبنانية الحقيقية وتحولها إلى دولة "وطنية" حقاً. بالنسبة لهم كان طريق هذه الدولة، يمر فقط خلال إعطاء هذه الدولة الصفات الضرورية "للطبقة البروليتارية".

في عام ١٩٣٦ تم في بيروت نشر دراسة "الاشتراكية" لفؤاد. على ما يبدو، كانت هذه أحد الأعمال الأولى باللغة العربية التي أخبرت (بطبيعة الحال، من وجهة نظره كمفكر أرثوذكسي، على الرغم من طرده بالفعل من صفوف الشيوعيين في الحزب الشيوعي السوري) كيف يتم حل قضايا إعادة الهيكلة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية للمجتمع في الدولة التي كانت تشكل النموذج المثالي بالنسبة لفؤاد شمالي^(١).

لكن في عمله هذا، أثار فؤاد شمالي أيضاً أسئلة تتطلب الاهتمام الجاد. كان الأمر، على وجه الخصوص، يتعلق بتفسيره لمفهوم "الدولة الوطنية"، والذي كان مرتبطاً ارتباطاً مباشراً بتطور الحزب الشيوعي السوري. ولكن في الوقت نفسه، بدا التفسير الذي اقترحه، عند الاطلاع عليه، وكأنه تكرار عادي، بل تافه لأسس الدعاية السياسية البلشفية. ولكن كل ذلك كان في الواقع وليداً لتلك الأفكار التي هيمنت حقاً على الدوائر الراديكالية في

(١) هنا ولاحقاً// فؤاد شمالي - الاشتراكية. بيروت ١٩٣٦ ص ٥١-٥٦ و ٧٠-٧١.

المجتمع السوري - اللبناني ، والتي بدورها تحدت من خلال الوضع السياسي السائد في كل من ممتلكات فرنسا في الشرق الأوسط. لقد انجذبت هذه الأفكار نحو الصياغة البلشفية لمسألة الدولة ، لكنها لم تنشأ دائما منها ولم تتطابق معها في كل شيء. على العكس من ذلك ، لجأ أصحاب هذه الأفكار إلى العقيدة البلشفية من أجل الاعتماد عليها لتأكيد صحة افتراضاتهم.

قال فؤاد شمالي أن "الوطن" و"الوطنية" ليسا سوى اختراع من ابتكارات البرجوازية المصممة لصرف انتباه العمال عن أعلى مثال لنضالهم. وشدد شمالي على أنه يجب تدمير "مورفين الوطنية" الذي ليس إلا عبارة عن "صنم الشر" و "صنم وحشي بربري" ، مرة وإلى الأبد.

وأشار شمالي إلى أنه لو قبل الشيوعيون مفهوم "الوطن" ، فلن يحدث هذا إلا عندما يمتلئ "بالمحتوى البروليتاري".

بعد مرور أقل من ثلاثين عاما على نشر كتاب فؤاد شمالي المذكور ، سيأتي حزب إلى السلطة في سوريا ، والذي سيقول منظروه أيضاً أن الدولة السورية (وكذلك الدولة في جميع أنحاء العالم العربي) يجب أن تمتلئ بمحتوى "اشتراكي" وطني حقيقي وأن البعثيين بدأوا في حل هذه المشكلة.

ومع ذلك ، كان حزب البعث مجرد فرع واحد من القومية الإقليمية. لكن ، ربما ، كانت الشيوعية السورية اللبنانية فرعا متناميا مبكرا للحركة نفسها؟

يعتقد فؤاد شمالي أن الدولة التي يقاتل من أجلها الكوميتانغ الصيني ، وحركة الغاندي في الهند ، والوفد المصري ، والكتلة الوطنية السورية ، هي مجرد "وسيلة لإخضاع الطبقة العاملة لسلطة البرجوازية". وبغض النظر عن شكل هيكلها ، فإنها لا تستطيع إلا أن تكون بمثابة "العدو الأسوأ" للشعب العامل.

وفي هذا الصدد، أضاف شمالي أن "هدف الشيوعيين هو النضال غير المشروط ضد أي محاولات للبرجوازية، سواء في البلدان الرأسمالية أو في المستعمرات وشبه المستعمرات، لترسيخ سيطرتها من خلال إقامة دولة وطنية".

ووفقاً له، يجب على البروليتاريا من هذا المنطلق، "في كل مكان وزمان" يجب أن "تطلق نيرانها الشرسة على أي دساتير وقوانين وأنظمة برجوازية، حتى لو كانت ظاهرياً ديمقراطية للغاية، لأنها، بالطبع، خاطئة وزائفة ولا تخدم مصالح الشعب العامل بأي شكل من الأشكال".

مما لا شك فيه أن التجربة البلشفية كان لها تأثير هائل على الشيوعيين السوريين اللبنانيين. أن "الفكرة العمالية"، وباستخدام كلمات الباحث اللبناني المعاصر، "اكتسبت أهمية وجاذبية خاصة بالنسبة لهم بسبب انتصار ثورة أكتوبر الاشتراكية الروسية وتولي العمال الشيوعيين للسلطة لأول مرة على الإطلاق"^(١).

وكما قال يو. الحلو، متذكراً الأسباب التي دفعته للانضمام إلى الحزب الشيوعي، فقد سعى إلى "بناء ... دولة عمالية، كما حدث في روسيا، من أجل استعادة الحقوق والكرامة الوطنية المنهوبة".

وقال ممثلو الجيل الجديد من المثقفين اللبنانيين والسوريين في وصف لأنفسهم، أنهم من "المثقفين الوطنيين بعقلية ديمقراطية". لكن "ديمقراطيتهم" لم تكن أكثر من وسيلة لمعارضة النخبة التي قادت الحركة الوطنية وكانت قادرة على اكتساب السلطة الحقيقية في المستقبل المنظور. وتعاطف هؤلاء مع "تيار الفكر الاجتماعي القومي العربي"^(٢).

(١) هنا ولاحقاً. فرانسيس ت. اقتباس من المؤلفات ص ١٦٤-١٧٠.

(٢) نفس المصدر، ص ١٦٤.

وقد حرمت أيديولوجية هذا التيار، شرعية مزاعم النخبة التي كانت تعارضها. وقد تذكر يو. الحلو:

"في المدرسة التي درست فيها ... سمعنا لأول مرة كلمتي "العروبة" و "العرب" ... كانت لدينا أفكار قومية أجبرتنا على البحث عن مخرج من القشرة. القشرة التي يمكن القول إنها كانت محصورة في الإطار الضيق للبنان، المرتبط بفرنسا"^(١).

لقد شاهدوا في العقيدة "البروليتارية" وممارسات البلاشفة نوعاً من النموذج لحل مشاكلهم. ووفقاً لهم كان ذلك يتلخص في أن "الأمية" التي أعلنها البلاشفة، فتحت آفاقاً حقيقية للمضي لكي يمضي قدماً الناس، ليس لأنهم ينتمون إلى مجموعة طائفية أو عرقية أو أخرى، بل بسبب امتلاكهم للمهارات والقدرات اللازمة للقيام بهذه الحركة.

لقد سعى هؤلاء المثقفون الجدد إلى المعرفة. بدا لهم أن هذه المعرفة ستمنحهم أخيراً الحق في تمثيل شعبهم والتحدث نيابة عنه. وبفضل هذه المعرفة كانوا يتميزون بشكل أفضل عن غير الروحيين، المهووسين من "قادة" الأمة الحاليين الساعين لتحقيق المكاسب المادية.

على ما يبدو، فإن الشخصية الأكثر لفتاً للانتباه في صفوف هذه الطبقة المثقفة بين الشيوعيين في الثلاثينيات، كان س. خياطة، وهو الصحفي والكاتب الذي تمكن من خلال نشاطه من تكوين حول الحزب الشيوعي السوري هالة الحزب الساعي إلى التقدم وجذب ممثلين عن طبقات المجتمع ذات التفكير الحقيقي في كلا البلدين.

لقد ظهرت أفكار س. خياطة في الثلاثينيات من القرن الماضي، كتعبير مركز عن مشاعر أولئك الذين ابتكروا الفن والأدب العربي الجديد، ساعين إلى إيجاد أصولهم في

(١) نفس المصدر، ص ١٦٦-١٦٧.

ثقافة البشرية جمعاء.

وخلال الحديث عنه قال صديقه ن. شاوي في مذكراته: "أحضر معه ... حقائب كتب عربية وإنجليزية وفرنسية. ... بجانب مجموعة كبيرة من الأعمال الإنجليزية والفرنسية الحديثة في الفلسفة والتاريخ، صادفت كتباً عربية قديمة مطبوعة على ورق ضربه الصفار بالفعل. من بينها مقدمة ابن خلدون، وأجزاء منفصلة من كتاب الأغاني، وألف ليلة وليلة. وهناك كانت قصائد عمر الخيام وأبو نواس، وكتاب البخلاء للجاحظ، وروح الثورات لغوستاف ليون، وكتاب عن القرامطة، وكتاب لابن الجوزي عن تاريخ التيارات الأيديولوجية في الإسلام، ومجموعة من القصص القصيرة بقلم بوكاتشيو، ومختارات روايات لفولتير، وكتاب ملوك العرب، والمشاكل للريحاني، وكتب شبلي شميل وسلامة موسى والمزيني والعقاد ومحمود تيمور، وحياة بيتهوفن لرومان رولاند، كتب غوركي وأوستروفسكي وأورنبرغ، مؤلفات ... لفرانس، وباربوس، وموباسان، وبلزاك"^(١).

ويمكن على الأقل تسمية قائمة هذه الكتب بأنها غير منهجية وتتحدث كثيراً عن شخصية صاحبها، الذي اعتبر نفسه وقبل كل شيء، ممثلاً لجيل جديد من الناس قادرين على تجديد وتغيير العالم من حولهم بشكل جذري وفقاً لأفكاره الخاصة، والتي اعتبرها تتماشى تماماً مع مصالح المحرومين والمضطهدين.

في عام ١٩٣٦، كتب في عمله "خطاب إلى المثقفين"، أنه يوجد في سوريا مجموعة صغيرة من "الشباب المثقف" الذين يغرقون في "التعطش للتجديد والتقدم، وهو أمر ضروري لشعب يعاني بشدة"^(٢).

(١) ن. شاوي اقتباس من المؤلفات، ص ٢٠٨.

(٢) هنا ولاحقاً // س. خياطة. نداء إلى المثقفين. تم الاقتباس من نص // "دراسات اشتراكية" ("العدد الثقافي" =/=

وخلال مخاطبته لهم قال: "اذهبوا إلى جماهير الشعب، وسترون أنهم سيتوجهون إليكم. خذوا أياديهم وسيأخذون يدكم. حافظوا ودافعوا عن خبزهم وحقوقهم وثقافتهم، وسيدافعون عن شرفكم وكرامتكم، وحقوقكم المشروعة والمسلوبة. أعربوا عن احترامكم لهم وأدركوا عظمة الأهمية التاريخية للواجب المنوط بكم. قوموا بقيادة الناس بثبات وحكمة، وسوف يتبعونكم. تزعّموا حركتهم وستصبح وحدة الشعب بمثابة المتاريس التي تحمي قضية الشعب وتحرركم. قوموا برفع الشعب إلى مستوياتكم وسيرفعكم إلى مستواه. وبعد ذلك سترون أن أنقاض الإمبريالية والرجعية والشر ستزول وتندثر بفضل غضبكم الحديدي الذي لا يقاوم".

وكان المذكور من أنصار وإتباع إيديولوجية "النهضة العربية"، ويكن التقديس الكبير لتراث الحضارة التي اعتبرها عظيمة، والتي حددت الصعود اللاحق لأوروبا والعالم. ومن هذا التراث أخذ قبل كل شيء فكرة العدالة الإلهية التي أصبحت في انعكاسها على الأرض دعوة للعدالة الاجتماعية، وتم تفسير هذه الحضارة على أنها ظاهرة قومية. وكان المذكور مسيحياً أرثوذكسياً، وكان مهتماً بإحياء الأمة ككل، بشكل متساو تماماً - في مكوناتها المسيحية والإسلامية - التي اضطهدتها الغزاة الأجانب. لهذا السبب، كان على المثقفين الشباب، الذين خاطبهم، "توجيه قوة عقولهم إلى النضال العظيم". وهذا النضال "سيوحد العرب ويحولهم إلى أمة يسمع صوتها في مجتمع المستقبل". وكان يجب على "طاقة وفن" هذا "الشباب المتعلم" أن تخدم "المساهمة في التقدم السريع للبشرية إلى العصر الذهبي الذي ينتظرها، لتحقيق الهدف النبيل لمجتمع البشر الإنساني - الحرية

دمشق رقم ٢ عام ١٩٨٨ ص ٧-٩). يتم عادة استخدام الكلمة العربية "المثقفون" للإشارة إلى أصحاب العلم أو أصحاب الثقافة.

الوطنية الحقيقية والنظام الاشتراكي السوفيتي". ولكن الحديث دار كذلك عن مهمات اللحظة الحالية. وأشار ن. شاوي، متذكراً س. خياطة، إلى أنه "تحدث مرة ... عن الوضع في الدول العربية، وأن المستعمرين أعادوا رسم خريطة العالم العربي بأشع طريقة". وقال خياطة، في الوقت نفسه، أن "الملوك والأمراء والقادة الفاسدين الذين خانوا شعبنا، وتفاوضوا مع الأجانب وباعوا وطننا لهم بالمجان" هم أيضاً يتحملون المسؤولية عن هذا الوضع.

ذات مرة، قال ن. شاوي: "لقد تحدث لفترة طويلة عن الوحدة العربية كهدف لا يحتمل تحقيقه أدنى تأخير، كوسيلة نضالية لحشد قوى العرب من كل الدول لتحقيق التحرير"^(١). وشدد على أن الدول التي نشأت في الشرق الأوسط، داخل حدود أراضي "سوريا التاريخية"، لم تكن مجرد إقطاعية برجوازية، ولم تكن مرتبطة فقط بشكل وثيق بالعواصم الاستعمارية، بل بدت كظاهرة تجلى فيها بوضوح الطابع المعادي للقومية، لذلك لم يكن لعملية تشكيلها وقيامها أن تحظى بدعم "الشباب المثقفين". كان بإمكانهم فقط المطالبة بتدميرها والنضال في سبيل ذلك.

دخل س. خياطة إلى صفوف الحزب الشيوعي السوري في أوائل الثلاثينيات. ولم يكن مبتدئاً في السياسة: "قضى أربع سنوات مع أصدقاء، لا مثيل لهم في اللطف والدمائة، شبه أولاد. يا لها من نيران مشتعلة فيهم، ويا لها من ألسنة اللهب التي انبعثت منهم عندما حاولوا إضرام النار في معاقل التقاليد والاستعمار التي أحاطت بهم، تلك المعال الجافة والمتعفنة بالفعل! ومع ذلك، لقد خبت واندثرت بسرعة هذه الأرواح النارية، بالكاد اصطدمت بقوة قوية وقاهرة. وبسرعة حل مكان النار في هذه النفوس

(١) ن. شاوي اقتباس من المؤلفات، ص ٢١٠-٢١١.

إحساس قاس باليأس ، والذي لا يمكن أن يغفر له ، ولكنه سرعان ما قضى على الآمال العظيمة^(١). لقد بحث هؤلاء الفتيان عن مكانهم في البلاد: "أربع سنوات ، دفعني خلالها المد الثوري السوري الهائج من جانب إلى آخر. وبدا لي حينذاك أن كل شيء تغير - السياسة والعالم المادي نفسه ، الفكر والروح ! في ذلك الحين أحسست بتأثير كل الميول والتوجهات السياسية. لكنني انفصلت مرات عديدة عنها لأن دائرتها كانت محدودة - من القومية الأرستقراطية أو الدينية الرجعية ، والوطنية الفاسدة ، والجبانة ، والجاهلة. ولكن كانت هناك أيضاً ثورية شعبية صادقة ، تقودها منظمة شبيهة بالروح ، وكان هناك أيضاً تمرد أعمى ، شبه فوضوي. أربع سنوات هي فترة قصيرة ، لكن اتضح أنها كانت كافية لكي يفهم خياطة أن القادة ، الذين كانت أسماؤهم على شفاه الجميع ، "على اعتبارهم رسل اللجنة في أودية سوريا" ، ليسوا أكثر من "شلة من المحتالين الذين يخدمون مصالحهم الشخصية". أما "الشعب الذي أقسموا لخدمة آماله ، ذاك الشعب البسيط والشجاع الذي خضع خلال ٤ قرون للعبودية السوداء ، وقد ضلته سياسة الاستغلال الحالية ، فلا يزال يعاني من المستعمر الفرنسي". لكن ليس الاستعمار وحده يتحمل اللوم على معاناة هذا الشعب - فالمستغلون فيه كانوا ، قبل كل شيء ، "عائلات شبه إقطاعية من أصل مملوكي".

استخلص س. خياطة هذه الاستنتاجات (التي كانت في كثير من النواحي أسطورية وغير عقلانية) بنفسه ، وفي هذا ساعدته تجربته السياسية الخاصة. ولكن المهم ، هو أن سنوات البحث السياسي الواعي أظهرت له أن "قادة الشعب في الأوقات الصعبة بالنسبة له كانوا مجرد عجائز. لقد فكروا من منظور حقبة الماضي المظلم. نعم ، كانوا في بعض الأحيان

(١) هنا ولاحقا عمل س. خياط "أمراض الغرب" المرجع السابق. بحسب إعادة طبع مجلة "النهج" // خياطة س. إعادة نشر عام ١٩٨٥ ، ص ٢١٧-١٩.

من الشباب. لكنهم حاولوا أيضاً أن يكونوا مثل الرجال القدامى في العصر العثماني، واستمدوا أفكارهم - هذا إذا كانت لديهم هذه الأفكار موجودة لديهم فعلا - من الثقافة المتهالكة للعصر العباسي أو الثقافة الفرنسية ذات "الرومانسية" المختلة أو من الأكاديمية الجافة والرجعية". ولكن كان لابد من وجود مخرج! لماذا لا نلقي نظرة أكثر موضوعية على "بلاد السوفييتات"؟ ووفقاً لملاحظة خياطة "حول الأحداث التي تجري هناك، تم ترديد أمامي باستمرار مجموعة معينة من الأساطير التي تروي عن جهازي تشيكا وغ ب أو (الأمن السري السوفيتي)، حول سلطة الإرهاب، وحول الانفلات والإباحة المنفلتة الشيوعية التي أفسدت الشباب، وعن موجات الجوع المتتالية، عن الأمراض والسجون.. والشغب والتمرد". ولكن لقد استند الذين سردوا هذه "الأساطير" أمامه "على الصحف السورية والمصرية الغبية وعلى المجالات... المجالات التي ظهرت إلى الوجود فقط ليقراها الشباب ضعاف الأفق من المدللين والفتيات الخجولات، ومن بينها فيغارو وإيمي ديوبيل". وفيها تمت "طباعة وترويج القصص المختلة المجنونة التي بمساعدتها حاولوا ترفيه الأغبياء وكبار السن الذين تخطوا زمانهم". وبمساعدة هذه "القصص المختلة" حاولوا أن "لا تظهر لدي أية رغبة في كسر الجدار الذي ... أقيم عمداً حول الجمهوريات السوفيتية". شباب متمرد بشكل أعمى! لا يصدق كلمة واحدة من أصنام الأمم.

في عام ١٩٣٣، ظهر الجزء الأول من الكتاب س. خياطة، الذي لم يقم بإنجازه لاحقاً، تحت عنوان "أمراض الغرب. جولات معرفية على طول مسارات الصراع الطبقي في العالم الغربي". وجاء هذا الكتاب كنتيجة لرحلته إلى أوروبا وأمريكا الشمالية والاتحاد السوفيتي. بحلول ذلك الوقت، كان س. خياطة قد تخرج في كلية الحقوق بجامعة دمشق. بعد ذلك بسنة واحدة - في عام ١٩٣٤ - أصبح رئيس تحرير إحدى أهم المنشورات النظرية للحزب الشيوعي السوري - مجلة "الدهور". وفي كتابه المذكور، تحدث عن

اجتماع على متن سفينة من بيروت إلى نابولي مع صهاينة من فلسطين وكذلك عن إقامته في إيطاليا ، رغم أنه كانت توجد إداخلات في الجزء الأول تتعلق برحلته إلى ألمانيا وفرنسا والاتحاد السوفيتي. وكان الغرض من الكتاب أن يُظهر للشبان السوريين المتعلمين ، مدى الفقر الروحي للغرب ومدى قوة "البروليتارية" السوفيتية الشابة التي تتناقض معه. وكانت الفكرة الرئيسية لكتاب تتلخص في أن الغرب مريض وأمراضه مستعصية. وكان التأكيد الساطع لذلك ، في رأيه ، ظهور قطب جذب ثانٍ أكثر قوة - الاتحاد السوفيتي ، والذي أصبح حقيقة واقعة لأن العالم يتطور على أساس التناقضات المحددة تاريخياً والتي وجدت تجسيداً لها في صراع الطبقات والمجموعات الاجتماعية التي تتعارض مع بعضها البعض.

هذا القطب ، لا يزال يافعا - "وجهه يلمع ، وعيناه مغطاة بالرطوبة تنظران في مكان ما بعيداً ، لديهما إحساس عميق بالأنانية الإيثارية والاكتفاء الذاتي" - وفي هذا يكمن سحره ، لأن شبابه يجذب نحو الجيل الفتى ، جيل الشباب الراغبين في تغيير بلادهم والعالم أجمع.

أصبح التوجه إلى الاتحاد السوفيتي حقيقة واقعة ليس فقط لأنه في هذه الحالة كان يتعلق برغبة س. خياطة نفسه مع أصدقائه في البقاء منشقين ، كأشخاص "ذوي تفكير حر" لم يقبلوا وجهة النظر الرسمية ، بل لأنه كان يحمل في طياته كذلك نوعاً ما من الوجودية. كانت الدولة الجديدة ، التي بدت غير شبيهة بتاتا بالدول الأخرى ، بالطبع جزءاً من العالم الغربي. لكن داخل حدود هذا العالم الغربي ، كانت تشبه بعض الشيء الشرق السوري الأرثوذكسي المثقف المعتاد.

لقد أدرك هذا المثقف بوضوح أن "تفكيره الحر" كان نتيجة للتأثير المباشر الذي تعرضت له البيئة التي ولدته ، من جانب تلك الأفكار - "الحرية والمساواة والأخوة" - التي أصبحت نتيجة لتطور الغرب. ولكن ، كيف يمكن التوفيق بين تأثيرها المفيد والواقع

القاسي - لقد أصبح الغرب نفسه مغتصبا أجنيا وظالما للبلاد التي أنجبت خياطة نفسه؟ وإذا كان الغرب قد ساهم في ظهور الاتحاد السوفيتي - تم نقل التناقضات الطبقية التي مزقته إلى شرق أوروبا - فلماذا إذن لا يصبح مركز الجذب العالمي الجديد نموذجا مثاليا لحل مشكلة التعارض السابق بين مادية عالم وروحانية عالم آخر؟ وخاصة وأنه قد تحول فعلا إلى الشرق الغربي أو الغرب الشرقي. لقد اختبر تأثير أوروبا. وقد تمكن، مع ذلك، بفضل الثورة التي حدثت فيه، من أن يصبح نموذجا أوليا لعلاقات اجتماعية واقتصادية مختلفة - والأهم من ذلك - لعلاقات حضارية - جمعت أفضل ما كان موجودا في كل من الغرب والشرق.. في الاتحاد السوفيتي، أصبحت حقيقة واقعة "الوحدة الإنسانية والوفاق الحتمي المقبول لدى كل من الغرب ورجل الشرق". ووفقا لاعتقاد س. خياطة "في هذه الوحدة، يرى المفكرون المستنيرون"، واعتبر نفسه واحدا منهم، "ضمان السعادة البشرية، ومثلها المستقبلي الأعلى، وحالتها الأعلى، بالقرب من العدالة، والرفاهية المادية الحقيقية، وبعيدا عن فلسفة الحياة في الغابة".

وقد يبدو أن توجه خياطة إلى المثال السوفيتي، جعل منه شخصا "أميا"، ولكن "أميته" هذه كانت نابعة من تراث الحضارة الوطنية والإنسانية العالمية، وكانت تهدف في المقام الأول إلى إحياء العالم العربي. وبسبب هذا بالفعل، فقد احتوى على العديد من الفروق الدقيقة والظلال. لقد دفعه الحديث مع مرافقيه اليهود من فلسطين، المؤيدين الشرسين للفكرة والممارسات الصهيونية - وجعله يفكر في نهضة وانبعاث العرب. كان س. خياطة على دراية جيدة بإنجازات اليسوف لأن ظروف التفاعل الحزبي سمحت له بزيارة فلسطين.

ورأى بنفسه أن "الصهاينة حولوا الصحراء القاحلة إلى مزارع غنية ومزدهرة ... أقاموا مدن وبلدات جميلة ... وملأوا البلاد بالمصانع والمتاجر والمؤسسات المالية وأسسوا

مدارس عديدة... أنشأوا في القدس جامعة حديثة مكتبها لا مثيل لها في الشرق الأوسط بأكمله".

لكن هذا لا يعني أن هذه الإنجازات التي حققها اليسوف من شأنها أن تلهم المثقف الشاب لفكرة أنه يجب أن يصبح نموذجاً يحتذى به للعرب. يبدو أن فكره يسير في هذا الاتجاه: "لقد تمكن هذا الشعب البارع، الذي يجمع بين الفقراء والأغنياء، والمفكرين والأميين، من فتح لنفسه المجال الجديد الضخم لتجسيد حيويته اللامحدودة وتحقيق كل أحلامه، ومصدر كل ذلك هو فكرة وعقيدة وعلم وفن وصناعة وهدف محدد بوضوح".

لكن، بعد أن أدرك هذه الحقيقة، توقف فكر س. خياطة على الفور. وذكر أن "الإمبريالية البريطانية" تدعم "هذه الحركة" وهي تسعى إلى خلق "أقلية متحضرة قوية في فلسطين، مسلحة بكل ما يميز العقل الغربي، لمقاومة النهضة العربية وقتل الثورة التي أطلقها العرب - والتي هي جزء من الثورة العظمى في الشرق". ويرى خياطة أن الصهاينة يستخدمون رأس مال البرجوازية اليهودية، التي "تساعد المهاجرين الفقراء، وأتباعهم في الدين، وتحسن مستواهم المادي والمعنوي". ومع ذلك، فإن هذا "العمل الخيري ليس من أجل رفع كلمة الرب، بل هو جزء من برنامج" تهويد "البلاد، لتحويل فلسطين الجديدة إلى ملك لأبناء إسرائيل وحدهم". لكن الحديث لم يكن يدور فقط عن ذلك. "لقد قام الغرب باختيار كل تجار ومرابين صهيون، وعلمائه، ومعلميه الدينيين وكذلك شبابه البرجوازي النشط - ليشاركوا في أنشطة الحركات والمؤسسات والجماعات التي ظهرت هناك وقاتلت فيما بينها. وكلهم نتاج الحضارة الغربية. ... ولهذا السبب يمتلك الصهاينة تنظيماً واضحاً يسمح لهم بإدارة أي مشروع في مجال السياسة والبناء. وهم، الصهاينة، يتمتعون بـ تعاطف العالم الرأسمالي لأنه في هذا العالم "تعود ملكية الصحافة والنوادي إلى الجماعات اليهودية". لن يمر وقت طويل قبل أن تتحول هذه الكلمات إلى حجج

كليشيات معادية لإسرائيل ومعادية للسامية ، وهي مألوفة لأي "تقدمي" عربي. ووفقاً له تعتبر الصهيونية من "أمراض الغرب"! وإذا كان قد نشأ بالفعل في العالم الحديث عنصر مضاد لحضارة "روحانيته" المحتضرة والضائعة ، فإن انهيار العالم الغربي سيعني انهيار "الأمراض" التي ولدت عنه! وسرعان ما أصبحت فكرة س. خياطة هذه إحدى الكليشيات للفكر العربي "التقدمي". لكن أليست "العروبة" من "أمراض الغرب" كذلك؟

في أفكار س. خياطة ، كان هناك الكثير من الأشياء التي كانت بعيدة كل البعد عن الحقائق الشيوعية التقليدية. لقد أدى تعريب الحزب الشيوعي السوري إلى تقديم في الحياة السياسية أولئك الذين سعوا إلى وضع في طليعة أنشطة الحزب تلك القيم "القومية" التي ، وفقاً للمنطق الرسمي ، لا يمكن أن تكون جزءاً من أيديولوجيته وأهداف النضال العملي. ومن المعروف أن العقيدة الماركسية ، حملت في لحظة نشأتها فكرة إمكانية التضحية بشعوب بأكملها ومجموعات عرقية ، وبالطبع ، بالطبقات والممتلكات والفئات ، من أجل تحقيق أهداف الأعلى - التعايش الإنساني الشيوعي العام "المتناغم".

مثل أي نظام وجهات نظر آخر ، نشأ هذا المذهب من أجل حل المشاكل العملية - لإضفاء الشرعية على ترقية مجموعات النخبة الجديدة إلى طليعة الحياة السياسية ، ولهذا بسبب كانت فعالة.

كتب س خياطة: "هناك رأي ، يجب بموجبه أن ننصح الجماهير العربية بمقاومة الإمبريالية مع المنتمين للبيئة اليهودية. لكن هذا مستحيل وغير ممكن. يجب أن يكون العرب أساس هذه المقاومة ، لأن العرب هم الذين يتعرضون للاستغلال المطلق ، في وقت كانت فيه الطبقة العاملة ، ممثلة بالمهاجرين من البيئة اليهودية ، بالنسبة للأغلبية العاملة (السود) من العرب تمثل البرجوازية الصغيرة".

بالنسبة إلى س. خياطة ، كان من الواضح أيضاً أن "اليهود ككل هم جنود

للإمبريالية، وهم يلعبون دور الأداة لها". لهذا السبب، فإن "وجود يهود صالحين معارضين للصهيونية لا يعني بأي حال من الأحوال أن أولئك المكلفين بمهمة النضال الرئيسية يجب أن ينضموا إليهم ... يجب أن تقود الجماهير العربية النضال ضد الإمبريالية والصهيونية والزعماء العرب المتحالفين مع الإمبريالية".

بخصوص المثل الوطنية لشعب آخر؟ نعم بالطبع يمكننا التحدث عنها. لكن هذا الحديث سيكون له طابعه الخاص نوعاً ما: "نتوقع أن ينضم العمال اليهود، الذين استغلّتهم الصهيونية والإمبريالية، إلى المقاومة العربية. هذا في مصلحتهم الخاصة. يجب أن تعلم العناصر اليهودية العاملة والثورية والمناهضة للصهيونية أن تحررها الاجتماعي لن يتحقق إلا إذا حققت فلسطين تحررها الوطني كدولة عربية أولاً وقبل كل شيء".

لهذا السبب، نعتقد أن الجماعات الثورية من اليهود، إذا كانت صادقة حقاً في معارضتها للإمبريالية والصهيونية، وإذا لم تكن عبارة عن تجمع للدجالين الفاسدين، فيجب عليها ... من أجل تحقيق الفكرة العليا، ليس فقط الوقوف تحت راية المقاومة العربية، بل أن يصبح أنصارها من العرب الحقيقيين أيضاً".

لكن كيف تشبه هذه الكلمات ما قاله قادة عهدوت هافودة، الذين حارب ضدهم الاشتراكيون المحليون، في فلسطين نفسها!

ويجب القول إن كتاب خياطة تحول إلى أحد أهم عناصر التراث النظري الجديد للشيوعيين في سوريا ولبنان. على الأقل، في التقارير المرسلة إلى اللجنة التنفيذية للأمم المتحدة الشيوعية من قبل قادة الحزب الشيوعي السوري، تم وضع "أمراض الغرب" على قدم المساواة مع "بيان الحزب الشيوعي" المترجم إلى العربية⁽¹⁾. وتم توزيع هذا العمل بين

(1) Rapport generale sur l'activite du P.C. de Syrie de puis le 4-ieme plenum elargi du C.C. (juin 1933) jusgu'a 5-ieme plenum elargi du C.C. (aout 1934).

الجماهير، وبمساعده نفذ الحزب وأجرى أنشطته الدعائية والتحريضية.

علاوة على ذلك، عشية مؤتمر الكومنترن السابع، قام الشيوعيون السوريون- اللبنانيون بإبلاغ موسكو أنه "قبل عام ١٩٣٠، كان الحزب الشيوعي السوري مضطرا لمحاربة الانتهازية والدوائر الحاكمة، لأنه كانت تسيطر على قيادة الحزب عناصر من المعسكر المعادي، من معسكر الصهيونية المضادة للثورة". ثم تطور هذا الفكر بشكل واضح وثابت: "لم تكتف هذه العناصر بحقيقة أنها أعاقت تطور الحزب الشقيق في فلسطين. بل توغلت في مصر وسوريا من أجل لعب دور تخريبي هناك أيضاً". وتم إعلان أولئك الذين أشرفوا على عمل الحزب الشيوعي السوري- أي بيرغر، وف. أفيربوخ ويا. تيبيرون. ليشسينسكي، كأشخاص "غير قادرين على التخلص من بقايا الصهيونية والتعصب القومي للعرق الأعلى. لقد أثر هؤلاء على خط الحزب بشكل منعه من التحول إلى حزب جماهيري". وقام هؤلاء "بتطيل جهود أعضاء الحزب العاديين، الذين كان معظمهم يتمتعون بتفاني هائل ... في ظروف الأنشطة غير العلني والإرهاب الإمبريالي". لقد دار الحديث عن أن المشرفين السابقين على نشاط الحزب الشيوعي السوري، "لم يؤمنوا بالجماهير العربية، بإمكانات الحركة الثورية العربية"، ولم يفهموا "المهام الديمقراطية البرجوازية للثورة السورية"، وركزوا على الأقلية القومية الأرمنية "و بذريعة الأمية الزائفة" لم تستطع "رؤية الدور الخاص لهذه الأقلية في ظروف سوريا".

بكلمات أخرى، كل إخفاقات الحزب كانت نتيجة نشاطات "هذه العناصر شبه الصهيونية" و "الانحراف الدشناقي الشوفيني" داخل الحزب. هذا هو السبب الوحيد الذي جعل الحزب الشيوعي السوري غير قادرا على "كسب ثقة العمال العرب وضمان هيمنة البروليتاريا في النضال الثوري الوطني"، على الرغم من أنه "من وجهة نظر تكوينه الوطني والاجتماعي، ومن وجهة نظر وفاء سياستها في التحرر الوطني والحركة العمالية" كان

يمكنه أن يفعل ذلك^(١).

ولكن هذه "الأمية"، تم إقرارها من جانب اللجنة التنفيذية للأممية الشيوعية. في أواخر العشرينات وأثناء النصف الأول من الثلاثينيات، كان الحزب الشيوعي السوري صغيراً، وفي الواقع، لم يمارس أي تأثير كبير على الأحداث في كلا البلدين. وأدت الضربة التي وجهت للحزب بعد إصدار نداءه إلى "إضعافه المعنوي"، الأمر الذي أجبر المكتب التنفيذي للبروف اينترن على منع عقد "مؤتمر العمال السوريين العام" المخطط له سابقاً بسبب ضعف الحزب في تلك الفترة^(٢).

ورداً على ذلك، كتب ممثلو الحزب الشيوعي السوري عن الحاجة الملحة لتنظيم هذا المؤتمر حتى "لا يتتصر القوميون ولا يتمكنوا من توجيه الحركة الثورية للعمال إلى قناة معادية للثورة".

لكن، في الوقت نفسه، أبلغوا قيادة البروف اينترن عن وجود تأثيراً لهم في النقابات العمالية التي كانت تعمل في تلك السنوات والتي كان يقودها القوميون. **ويجب القول إن** معظم البيانات والمعطيات المقدمة من جانبهم، كانت مخيبة للآمال.

لقد عملت الخلايا الشيوعية السرية الطابع في نقابة عمال التبغ في جبل لبنان (٥٠ متعاطفاً مع الحزب الشيوعي السوري من أصل ٥٠٠ عضو نقابي)، وبين نقابة عمال المطابع في بيروت (١٠ شيوعيين من أصل مائة عضو نقابي) وفي حلب (٥ من ٧٠)، وفي نقابة سائقي السيارات بيروت (١٠ من أصل ١٠٠٠ متعاطف مع الحزب)، وفي دمشق (٥ من أصل ٥٠٠)، وأخيراً في نقابة عمال سكك الحديد في لبنان (٥ شيوعيين من أصل

(1) Rapport sur le Parti Communiste Syrien dans la periode du 6-ieme au 7-ieme Congres de l'I.C.

(2) La lettre a la Syrie, 25 novembre 1931.

٢٠٠ عضو^(١). وكان الحديث يدور عن الجمعيات النقابية الرئيسية في كلا البلدين. ولاحقاً، في التقارير الواردة من سوريا، أكد الشيوعيون أن "الحركة النقابية في حالة ركود"، والتنظيمات الحزبية في بيروت والإسكندرونة "لا تظهر نشاطاً"، وفي حلب تم تدمير منظمة الحزب الشيوعي السوري و "بصعوبة" كان من الممكن استعادة عمل المنظمات في زحلة وطرابلس. لكنها قالت، بالطبع، أن أعضاء الحزب "مصممون" على قيادة "الحركة العمالية الثورية"^(٢).

وفي النصف الأول من الثلاثينيات، كانت غالبية أعضاء الحزب من مختلف المثقفين والحرفيين^(٣). وفي نهاية عام ١٩٣٢ كانت منظمات الحزب الشيوعي السوري تتواجد في بيروت (١١٠ من العرب و ٥٠ أرمنيا)، والإسكندرونة (٢٥ أرمنيا)، ودمشق (٣٠ عربيا و ٣٥ أرمنيا)، وطرابلس (٢٥ عربيا و ٣٠ أرمنيا)، وحلب (١٦ عربيا)، وفي "دولة العلويين" (٥ عرب)، وزحلة (٧ عرب) وأخيراً في الرهاق (٣ عرب)^(٤).

وبالطبع، يشير ظهور أعضاء جدد من أصول عربية وأرمنية في الحزب إلى أن الشيوعيين سعوا إلى توسيع دائرة المشاركين في حركتهم. ومع ذلك، غالباً ما تم الانضمام إليه لأسباب تتعلق بالصدقة أو القرابة مع أولئك الذين أصبحوا شيوعيين بالفعل^(٥). وظل الحزب الشيوعي السوري إلى حد كبير حزب الشيوعيين الأرمن^(٦)، وتبين

(١) عن المؤتمر العمالي في سوريا. رسالة غسان بتاريخ ٢٠ يناير ١٩٣٠. // نفس المصدر ص ٥-٩.
(2) Rapport sur la Syrie et sur le Parti Communiste Syrien sur 4 mois, Janvier-avril 1931.

(٣) حوار شامل مع الرفيق خالد بكداش، ص ١٠٢.

(٤) RTSHIDNI، ف. ٤٩٥، اوب. ٨٤ وحدة الحفظ ٥٠، ص ٥٨.

(٥) بهذا الشكل بالذات دخل إلى صفوف الحزب الشيوعي السوري، ن. شاوي الصديق الكبير السابق لـ س. خياطة. // ن. شاوي. اقتباس من المؤلفات، ص ٢٥٢-٢٥٥.
=/=

أن خلاياه العربية غير كافية ومستقرة^(٢).

ومع ذلك ، استمر الحزب الشيوعي السوري في العيش في جو من "نفاد الصبر الثوري". في أغسطس ١٩٣٢ ، عقد اجتماع لأمناء التنظيمات الحزبية ، وورد في قراراته أن "الحركة المناهضة للإمبريالية بأكملها تتواجد تحت تأثير شعارات الحزب" ، وتتطور "الحركة

من جانبه تحدث خالد بكداش عن دخوله إلى صفوف الحزب الشيوعي السوري ، وأشار إلى أن صديقه فوزي الزعيم ، الذي كان قد أصبح شيوعياً بالفعل ، أخبره لأول مرة عن وجود الحزب الشيوعي وأهدافه ومهامه. وكان الحديث بينهما حول هذا الموضوع كالتالي : "قال لي فوزي : " خالد ، هناك حزب في سوريا يسمى الشيوعي. أنا عضو في هذا الحزب. كيف تنظر إلى موضوع الانضمام إليه؟".

وتابع بكداش القول إنه طرح السؤال : "ما هي أهداف هذا الحزب؟" أجاب أنه ضد الإمبريالية الفرنسية ، ويناضل من أجل الاستقلال ويقاوم ضد الرأسمالية. طرحت سؤالاً آخر : "ما هو جوهر سياسته؟" فقال فوزي أن قادة الكتلة الوطنية هم خونة. قلت : "كيف هم من الخونة وهم يقاومون ضد الاستعمار الفرنسي ، وحكم على بعضهم بالإعدام ، بينما طرد آخرون من البلاد". ثم قال : "لا أعرف. سوف تقابل شخصاً آخر سيشرح لك كل هذا. ...

وتابع بكداش أنه قابل هذا الشخص الآخر ، "الذي قال لي أن قادة الكتلة الوطنية هم خونة وليس كأفراد ، وليس كأشخاص ، أنهم خونة من الناحية التاريخية. ... أنهم لا يريدون النضال ، وإلى جانب ذلك ، فإنهم جميعاً كبار مالكي الأراضي والرأسماليين". // حوار شامل مع خالد بكداش ، ص ٩٨.

(١) في أبريل ١٩٣٠ ، تم انتخاب اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوري وكانت تضم ثلاثة رفاق أرمن وثلاثة رفاق عرب. الأمر يتعلق بالطبع ليس فقط بمسألة الوحدة الأممية. لقد عكس هذا التكوين للجنة المركزية فقط صورة حقيقية للتكوين الوطني للحزب // اقتباس من ماديان أ. ص ١٠٦.

في هذا التكوين للجنة المركزية ، تم تمثيل نفس الشيوعيين الأرمن كما في اللجنة السابقة ، بينما كان من بين أعضائها العرب فقط فؤاد شمالي عضواً في اللجنة المركزية للحزب حتى عام ١٩٢٦ // نفس المصدر السابق.

(٢) نفس المصدر السابق ص ٩٤.

الجمهورية المتطرفة" تحت قيادة الطبقة العاملة.

على الرغم من أن "الإرهاب تسبب بإضعاف حزبنا، إلا أنه يعتقد أن سوريا ولبنان قد دخلا بالفعل مرحلة نضوج الشروط المسبقة لحدوث الأزمة الثورية"، وهو ما يفترض أن الحزب الشيوعي السوري "يقف على عتبة حل مهمته الأساسية المتمثلة في التحضير لنضال حاسم يمكن أن يندلع في أي يوم الآن. وقد حدد الكومنترن شعارات هذا النضال بالفعل. وبدأ الحزب في "الاستعداد" لذلك⁽¹⁾ لكن هذا "التحضير" كان يتسم بطوابع خصوصية للغاية.

وبالعودة إلى أكتوبر ١٩٣٠، أرسل الأعضاء العرب في سكرتارية اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوري "رسالة مفتوحة إلى اللجنة المركزية والرفاق في بيروت". ودار الحديث فيها عن حقيقة أن التنظيم الحزبي للعاصمة اللبنانية ("الأقدم، موجود في مدينة كبيرة ومهمة للغاية") لا يزال غير مُعَرَّب و"يقتضى أرمينيا بالكامل تقريبا". وبسبب هذا، "يظل الرفاق العاملون فيها قصيري النظر من الناحيتين السياسية والقومية. وشددت الرسالة على أنهم يعملون فقط في البيئة الأرمينية، مما يؤدي إلى تعزيز "التعاطف مع أرمينيا السوفيتية فقط والنضال فقط ضد الدشناق والهنشاك، رغم الحاجة إلى "النضال على نطاق وطني في سوريا، والعمل بين الجماهير من العمال العرب".

أعلن الأعضاء العرب في قيادة الحزب أن هدفهم من الآن فصاعداً، (بات يتعلق بـ "المهمة الرئيسية للحزب") وهو التصدي "للنظرية الخاطئة القائلة بعدم وجود بروليتاريين ثوريين بين العمال العرب".

كما أكدوا أن عدم اكتمال تعريب التنظيم الحزبي في بيروت والحزب ككل هو السبب

(1) Rapport de la Syrie sur la reunion des secretaires du P.C.S., 19 aout 1932.

الرئيسي في "أ) عزل الحزب عن جماهير العمال العرب. ب) اقتصار أنشطته على البيئة الأرمنية؛ ج) بقي بعيدا خلف الأحداث السياسية والاجتماعية في البلاد"^(١). لكن هذا لم يكن، في الواقع، سوى بداية الهستيريا المعادية للأرمن في صفوف المنظمة التي تدعي "الأمية"

في أغسطس ١٩٣٢، أعلنت اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوري "انهيار قيادة التنظيم الحزبي في بيروت، التي اتهمت بـ"الفشل في إنجاز المهمة الأهم للحزب - تعريب التنظيم. وتشكلت اللجنة الجديدة لهذه المنظمة فقط من العرب، اثنان منهم، بحسب كاتب التقرير المقدم إلى اللجنة التنفيذية للأمية الشيوعية، "لم يتم اختبارهما بعد". وفي الوقت نفسه، فإنه تم رفض ودحض جميع اتهامات للقيادة الأرمنية السابقة والقول أن اللجنة المركزية كانت قد بدأت في إتباع "سياسة قومية"، وتم الاعتراف بأنها غلطة بعد التهديد بالتوجه إلى اللجنة التنفيذية للأمية الشيوعية، مع مطالبة بالطرد من الحزب"^(٢).

بحلول خريف عام ١٩٣٢، تم "تعريب" الحزب. من بين الأعضاء السبعة في قيادته الجديدة، كان هناك اثنان فقط من الأرمن"^(٣). لم يتبق أي أرمني واحد في أمانة الحزب، وفي الواقع، وقف في قيادة الحزب الشيوعي السوري م. مغربي الجزائري (عدنان) وخ. بكداش (رمزي). بعد ذلك بقليل، في فبراير ١٩٣٣، تغيرت قيادة الحزب مرة أخرى. تم توسيع اللجنة المركزية إلى عشرة أعضاء، تسعة منهم من العرب وواحد كردي (خالد بكداش).

(1) Lettre ouverte au Comite et aux camarades de Beyrouthe, 6 octobre 1930.

(2) Lettre d'Adnan de Beyrouthe, 11 fevrier 1932.

(3) Rapport de Syrie et le Parti Communiste Syrien, 8 octobre 1932.

وكان ثلاثة أعضاء من الهيئة العليا للحزب الشيوعي السوري دون ٢٥ عاما وثلاثة آخرين دون ٣٠ عاما. انضم ثلاثة منهم إلى الحزب في عام ١٩٢٨ ، وستة في عام ١٩٣٠ ، وواحد في عام ١٩٣٣. وكان هناك أربعة عمال في اللجنة المركزية ، وكاتب واحد واثنتان من المثقفين. اثنان فقط من أعضائه حصلوا على تعليم ثانوي ، واحد منهم أقل تعليما ، وأربعة درسوا في جامعة الشرق لشغيلة الشرق. وفي أعلى هرم حزبي في ذلك الوقت ، كان هناك أرمني واحد فقط (أ. ماديان) - عضو لجنة مدينة بيروت^(١). تم تغيير الحزب الشيوعي السوري بحجة أن "الانتفاضة الثورية تتطلب من الحزب أن يقودها ... ويستخدمها لتقوية موقفه"^(٢).

وأخيرا ، في يونيو ١٩٣٣ ، عقدت الجلسة الكاملة الرابعة الموسعة للجنة المركزية للحزب الشيوعي السوري. ولعل أهم الوثائق التي اعتمدها هو "قرار التعريب والأقليات القومية في سوريا" حيث وُضعت فيه كل اللكنات اللازمة. بحلول ذلك الوقت ، قام الحزب الشيوعي السوري باعلان نفسه بالحزب الذي "كان دائما عربيا"^(٣).

بدأت الوثيقة المذكورة بعبارة "سوريا دولة عربية" ، و"حيث القوة الرئيسية لمقاومة ... الإمبريالية وتحرير سوريا من نيرها هي الجماهير العاملة العربية السورية"^(٤). بدورها ، تلعب "الطبقة العاملة العربية والفلاحين العرب" وطليعتها - الحزب الشيوعي السوري ،

(1) Les election dans le syndicat des typos a Beyrouthe et le travail syndical du parti. Fin fevrier 1933. Bureau du Secretariat du P.C.S.

(2) Lettre d'Adnan de Syrie, 21 octobre 1932.

(3) These organisationnelle du C.C. de P.C.S. a toutes les organisations et cellules. Syrie, le 5 decembre 1932.

(٤) هنا ولاحقا :

Resolution du 4-ieme Plenum Elargie du C.C. du P.C.S. sur l'arabisation et les minorites nationales en Syrie.

دور "القوى الثورية الدافعة للثورة الوطنية والزراعية في سوريا ، حيث يعيش ثلاثة ملايين من السكان الأصليين".

ولكن لكي يصبح الحزب فعلاً قوة ضاربة فعالة ، يجب عليه الاقتراب من "السكان الأصليين" ، وأن يقوم بشكل جذري بتغيير "تركيبته القومية". ودار الحديث مجدداً عن تعريب الحزب.

ولكن في "القرار" أثارت القضية على نطاق أوسع - حول دور الأقليات القومية في الحياة الاجتماعية والسياسية في سوريا ولبنان.

وكان أول من ورد ذكرهم هم الأرمن ، لكن والحق يقال تجدر الإشارة إلى أنه تم فيه بشكل أقل تحليل وضع الأكراد والأتراك (لواء اسكندرون) والتركماني الناطقين بالتركية في "سوريا الداخلية" ، وكذلك الشركس (الأقلية الأديغية - الشيشانية ، التي تم تهجيرها من أراضي شمال القوقاز الروسي وأبخازيا).

وكانت الإمبريالية الفرنسية - المنطلق الرئيسي لتحليل وضع الأرمن السوريين اللبنانيين - "خلقت الظروف لانتشار وتوطين المهاجرين في سوريا" ، وفي المستقبل اللاحق ، قامت "بمحاولات ... لإنشاء" الوطن القومي الأرمني "في سوريا" ، وتحقيق "مشروع إجرامي هدفه إثارة الكراهية وعدم الثقة لدى الجماهير العربية تجاه الأرمن". من جانبهم "شارك الأرمن بالفعل في قمع الثورة السورية (الثورة السورية الكبرى)" ، والآن يتم إنشاء "كتيبة أرمنية لحراسة خط أنابيب النفط (القادم من العراق)".

كانت الخطوات التي اتخذتها سلطات الانتداب (قامت الإمبريالية الفرنسية بنشر ١٤٠ ألف أرمني في سوريا بهدف خلق أقلية قومية) تهدف ليس فقط إلى قمع الجماهير العربية السورية ، ولكن أيضاً إلى إعداد جيش للهجوم على الاتحاد السوفيتي ، وخاصة أرمنيا السوفيتية. "لكن الأمر لم يقتصر على هذا فقط. نفس الإمبريالية الفرنسية" التي لم تتمكن

من إرضاء مصالحها في آسيا الصغرى، تدفع "الجماهير الأرمنية المستغلة للانتقام من الأتراك".

بعبارة أخرى، "كانت هذه الجماهير ستصبح وقودا للمدافع في سياسة الإمبريالية الفرنسية". بدورها، أكدت الوثيقة المذكورة أعلاه، بالطبع، أن جميع أحزاب "القضية القومية" الأرمنية "برجوازية وبرجوازية صغيرة" و "تساعد بشكل مباشر أو غير مباشر الإمبريالية الفرنسية في نضالها ضد الحركة الثورية". وفي هذا الصدد تم إعلان أن داشناكتستون وهنشاك هما "الأخطر".

طبعاً، لم يحمل "القرار" علامة مساواة كاملة بين الأرمن السوريين اللبنانيين والأقلية اليهودية "المستعمرة" في فلسطين. "الإمبريالية والبرجوازية الأرمنية" فقط "تحاولان" قيادة الأرمن في كلا البلدين في اتجاه "التحول إلى مستعمرين". لكن في الوقت الحالي، لا تزال هذه المجموعة من سكان سوريا ولبنان "أقلية من المنفيين، والتي لا تطمح إلى إقامة حكومة أرمنية في سوريا حيث توجد أرمنيا السوفياتية حيث تأمل في العودة". في الوقت الراهن لا يعتبر الأرمن المحليين "جزءاً لا يتجزأ من الإمبريالية الفرنسية، بل هم أداة سياسية في يديها". وحتى الآن فإن الأقلية الأرمنية "لا تضطهد الجماهير العربية ولا تتمتع بامتيازات على عكس العرب، ولكنها تتبع طريق المعارضة السياسية للعرب".

كل هذه الظروف سمحت للحزب الشيوعي السوري بالقول إن "جذبها إلى جانب الحركة الثورية الوطنية أسهل بكثير من كسب الجماهير العاملة اليهودية لجانب حركة التحرير العربية في فلسطين".

بعبارة أخرى، كانت مهمة الحزب "العمل بجدية بين العمال الأرمن ... الذين يجب أن يفهموا أن الإمبريالية الفرنسية، والأحزاب الأرمنية البرجوازية و"الاشتراكية" تريد استخدامهم خلال تنفيذ أبشع جريمة إمبريالية. وكان لا بد من الشرح لهؤلاء العمال أنهم

"بلا شك يملكون الحق في العيش في سوريا، لكن يجب ألا يسمحوا لخصومهم الطبقيين بدفعهم ضد الحركة الثورية العربية، وضد الاتحاد السوفيتي، وخاصة ضد أرمينيا السوفيتية"⁽¹⁾.

بعبارة أخرى، "كأقلية قومية" لدى أرمن سوريا ولبنان "الفرصة الوحيدة لتحسين أوضاعهم المادية"، ولكن فقط إذا "دعموا العمال العرب السوريين في النضال ضد الإمبريالية، من أجل خلق نظام ديمقراطي". حكومة العمال والفلاحين ". وتم العرض عليهم "إتباع طريق إخوانهم - عمال وفلاحو أرمينيا السوفيتية".

كانت هذه الاستنتاجات غريبة ومروعة من نواح كثيرة. ولكن مع ذلك، لم يقتصر الأمر على هذا فقط. فبعد مرور عام، قام ممثل عن الحزب الشيوعي السوري (بحلول ذلك الوقت كان يمكن أن يكون فقط خالد بكداش) في موسكو بإبلاغ القسم الشرقي في اللجنة التنفيذية للأمم الشيوعية بأن "اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوري قد اتخذت قرارا وهي تطلب بخصوصه نصيحة الأمانة الشيوعية". وتلخص الموضوع في أنهم توصلوا في دمشق إلى استنتاج مفاده بأن "الأقلية القومية الأرمنية ... التي أنشأتها الإمبريالية الفرنسية والبرجوازية الأرمنية وزعماء غنشاك، أصبحت أقلية تدعم الإمبريالية".

من الآن فصاعدا بات الحديث يتعلق بـ "محاربتها"، وجذب "الجماهير العاملة الأرمنية إلى جانبنا" في النضال "من أجل التحرر الوطني والاجتماعي للجماهير العاملة في سوريا والتأكيد على أن أرمينيا السوفيتية فقط هي الحق الوطن الأم للشعب الأرمني العامل".

في الأربعينيات. تم تطوير كل هذه الأفكار بشكل أكبر إضافي. في أهم وثيقة لحزب البعث، الذي أصبح فيما بعد التنظيم السياسي الحاكم في سوريا، وفي برنامجه (الدستور)،

(1) Rapport de Syrie et le Parti Communiste Syrien, 25-04-1934.

تم الإعلان أنه تنظيم "الأمة العربية"، ويعمل ضمن "الوطن العربي" الذي يعود للعرب. وبالطبع، كانت سوريا أيضاً جزءاً منه هذا الوطن "العربي"، وتم اعتبار العربي كل من "يتكلم العربية، ويعيش أو يطمح للعيش على أرض عربية، ويؤمن أيضاً بالانتماء إلى أمة عربية".

بدوره، افترض هذا الحزب أنه يجب أن يتم إجلاء وطرده من أراضي "الوطن العربي" كل من يدعو أو يدخل في تكوين عنصري معاد للعرب، وكذلك كل من هاجر إلى الوطن العربي بهدف استعمارهِ^(١).

لكن ماذا عن الكومنترن؟ في أكتوبر ١٩٣٤، أرسل القسم الشرقي من اللجنة التنفيذية للأمية الشيوعية خطاباً إلى سوريا يحدد مهام الحزب الشيوعي السوري فيما يتعلق بالتحضير لعمل مؤتمر الكومنترن السابع. وجاء في الوثيقة: "لوحظ وجود اتجاه خطير في الحزب. بحجة أن العرب هم الآن غالبية أعضاء الحزب، تم اعتبار مهام التعريب بمثابة المنجزة بالفعل"^(٢).

على العكس من ذلك، أعلنت اللجنة التنفيذية للأمية الشيوعية أن الموضوع يكمن في "إجبار ممثلي الطبقة العاملة العربية والشباب المثقف المناهض للإمبريالية على أن يروا في الحزب الشيوعي السوري منظمتهم السياسية وأن يأخذوا زمام المبادرة بأيديهم من خلال قادة أكفاء ومخلصون". وأضافت اللجنة بعد ذلك: "وسيصبح الحزب فعلاً كامل التعريب

(١) دستور حزب البعث العربي الاشتراكي // الأحزاب السياسية في سوريا. دمشق عام ١٩٥٤، ص ٢٤١-٢٤٤.

(٢) رسالة إلى الحزب الشيوعي السوري حول الاستعدادات للمؤتمر السابع للأمية الشيوعية، ١٩ أكتوبر ١٩٣٤ // RTSHIDNI، ف. ٤٩٥، اوب. ٨٤ وحدة الحفظ ٦١، ص ٧٦-٧٧.

في اليوم الذي يحتضن فيه أفضل عناصر الطبقة العاملة العربية".

بعبارة أخرى، تم دفع ممثلي الجيل الجديد من الشيوعيين السوريين اللبنانيين إلى مزيد من الإجراءات الحاسمة عندما تعمّدت الهيئة القيادية للحركة الشيوعية غض الطرف عن الشوفينية وكراهية الأجانب التي تسببت فيها هذه الأعمال. لكن على الساحة ظهر السؤال الذي "تم حله بالفعل من حيث المبدأ". كان الحديث يجري عن "اتحاد الأحزاب الشيوعية العربية". ورأت الدائرة الشرقية في اللجنة التنفيذية للأمية الشيوعية أن "الوقت قد حان لتنفيذه".

وفي نوفمبر من نفس العام، تم إرسال خطاب إلى الحزب الشيوعي السوري من اللجنة السياسية في اللجنة التنفيذية للأمية الشيوعية. وتم فيها تحديد مهام الحزب والتأكيد على ضرورة اعتبار سوريا تقريبا "كقاعدة رئيسية للحرب الإمبريالية ضد الاتحاد السوفيتي". وجاء في الرسالة أنه يجري إنشاء البنية التحتية اللازمة لذلك (إعادة إعمار ميناء بيروت)، ويجري تشكيل كتائب أرمنية وشركسية. بدوره، فإن الحزب الشيوعي السوري "لا يزال غير نشط بما فيه الكفاية في مقاومة هجوم الإمبريالية". وتمت مطالبة الحزب "بجتوخي الرأة والمنهجية والإصرار" في محاربة الإصلاح الوطني للكتلة الوطنية ولم يردوا سماع أي شيء عن تعليق التعريب. بل على العكس، أكدت الرسالة أن "الحزب الشيوعي السوري لم يقم بعد بمثل هذا التعريب الذي يتزامن مع نضال كبير للجماهير". فقط "التغيير الحاسم في مجال العمل المناهض للإمبريالية وفي عمل النقابات العمالية يجب أن يدفع بالتعريب إلى الأمام"^(١).

(١) رسالة من الحزب الشيوعي السوري تمت الموافقة عليها في اجتماع اللجنة السياسية في ١٥ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٣٤ // المرجع نفسه، ص ٦٧-٧١.

خلال عمله لحل مشاكل الإستراتيجية الجيوسياسية السوفيتية بمساعدة وسائل محدودة للغاية (كان من المستحيل اعتبار المنظمات الشيوعية في المنطقة العربية هياكل قوية ومؤثرة عددياً)، لم يحاول الكومنترن حتى فهم الوضع الداخلي للأقسام التي يقودها في الشرق الأوسط. لقد قام بدفع هذه الأقسام نحو التعريب، دون أن يدرك على الإطلاق مدى تنوع هذه العملية. بالطبع، تحت هذا الشعار، على سبيل المثال، جاء الناس إلى الحزب الشيوعي السوري الذين يمكن اعتبارهم عرباً. لكن هل كان من الممكن في ذلك الوقت القول أن المجتمع القومي العربي، وخاصة في سوريا ولبنان، قد أصبح مكتمل التكوين؟ ألم تكن الفكرة "العربية" نفسها في ذلك الوقت، ليس أكثر من ممارسة فكرية لجزء صغير من المثقفين العرب؟

وتجدر الإشارة إلى أن هؤلاء "الشباب المثقفين المناهضين للإمبريالية"، ينتمون في أغليتهم الساحقة، إلى المجتمعات المسيحية (الأرثوذكسية والكاثوليكية اليونانية). وكان تقديم الفكرة القومية "العربية" المصوغة طبقاً ليس إلا محاولة أخرى من قبل هذه المجموعات من السكان المحليين للوقوف في طليعة الحياة السياسية، وبهدف تزعم العملية السياسية المحلية.

علاوة على ذلك، فإن الأفعال والتصرفات المناهضة للمارونية (معارضة ف. شمالي) والأفعال المعادية للأرمن من جانب مجموعة الشباب هذه كانت أحياناً بأدق التفاصيل تشبه المنافسة السياسية والاجتماعية التي تطورت تقليدياً داخل حدود "سوريا التاريخية" (والتي تضمنت محاولات اجتذاب القوى الخارجية إلى جانبها) بين الأقليات القومية والعرقية والطائفية الواقعة تحت وصاية الحكومة العثمانية. فقط تغيرت سياقات هذه المنافسة وبالتالي أشكال مظاهرها. ومع ذلك، بقيت نفس الرغبة المقصودة في التحريض على خصومهم، عندما ذكر ممثل الشيوعيين السوريين اللبنانيين أن "الإمبريالية

الفرنسية تستخدم الأرمن في مختلف المؤسسات والأشغال العامة، في مجتمعات الامتياز الأجنبية، في الجيش، في الخدمة العامة". وطبعت كتابات أشياء مشابهة في وقت ما للمسؤولين العثمانيين، وجرت محاولات لتخويفهم (وإن كان بطريقة لغوية مختلفة): "الإمبريالية تفعل هذا من أجل استغلالهم (الأرمن) بهذه الطريقة، لإشراكهم في النضال ضد حركة التحرير الوطني ليتحولوا إلى وقود للمدافع في الحرب الإمبريالية المستقبلية، في المقام الأول ضد الاتحاد السوفيتي"^(١).

لكن هل كان الحزب الشيوعي السوري "المعرب" حقاً حزباً "عربياً"؟ على الأرجح، تحول هذا الحزب إلى تجمع يعبر عن مصالح قسم ما من بعض الطوائف الدينية في كلا البلدين. وبالطبع، فإن وصول بكداش الكردي إلى قيادته يعني أن الحزب الشيوعي السوري بدأ يتجه نحو تشكيل زعامة كردية في صفوفه. لكن هذا لم يغير جوهر الحزب. لقد أصبح الحزب عبارة عن كتلة وحدت النخبة "الشيوعية" الأرثوذكسية والكاثوليكية اليونانية والأكراد.

ومع ذلك، فإن الوضع الحقيقي للحزب، والذي كان ضعيفاً للغاية وخال من أي روابط جادة مع أولئك الذين اعتبرهم قاعدته الاجتماعية، كان عبارة عن مصدر لتوجهات متزايدة في صفوفه نحو التعريف الذاتي باعتباره نقيضاً مطلقاً، قبل كل شيء، للكتلة الوطنية - حزب "الخونة من الناحية التاريخية"، وبشكل أوسع، "ككيان مستقل" يعارض "مجمع الفكر البرجوازي الإصلاحي"^(٢).

وطبعاً أصبحت القومية العربية الراديكالية، عنصراً طبيعياً في هذا التعريف الذاتي.

(١) نفس المصدر. ف. ٤٩٥، أوب. ٨٤ وحدة الحفظ ٦٦، ص ٢٩.

(٢) عبارة لخالد بكداش // حوار شامل مع الرفيق خالد بكداش، ص ١٠٦.

ولكن مع ذلك، كان يجب أن يصبح النشاط النقابي في مركز نشاطات الحزب الشيوعي السوري. لقد تطلبت ذلك عقيدة الحزب. وكان يتطلب ذلك أيضاً تحقيق مهمة اكتساب تأثير حقيقي من قبل الشيوعيين في البيئة، التي أعلنوا أنفسهم كممثلين لمصالحها. لكن الحركة العمالية المحلية تأثرت بشكل كبير بالقوميين الممثلين في سوريا، وفي مقدمتهم الكتلة الوطنية، التي كان قادتها، ولا سيما فخري البارودي، يتصرفون عادة كوسطاء بين المضربين وأرباب العمل^(١).

ويجب القول إن الوضع في لبنان لم يكن يختلف كثيرا عن الوضع في سوريا. في أغسطس ١٩٣٣، بذل الحزب الشيوعي السوري جهودا كبيرة لتنظيم إضراب لعمال المطابع في بيروت.

في ربيع نفس العام، تمكن أنصار هذا الحزب في انتخاب قيادة اتحاد الطابعات، من تحقيق نجاح كبير - كان خمسة من أعضاء هذه القيادة الخمسة عشر، كانوا من أنصار الشيوعيين. بدأ الحزب في حل مهمة أكثر أهمية - "تدريب كوادر للقيادة الثورية للنقابة"^(٢). وكما بدا للحزب الشيوعي السوري تم انجاز هذه العملية في نوفمبر عام ١٩٣٣، وتمكنت النقابة من استعراض ذلك.، عندما بدأت بإضراب وطني عام تحت شعار "ثورة العمال والفلاحين".

لكن سرعان ما اتضح أنها لا تحظى بدعم العمال وبالذات من العاملين في صحيفتين بيروتيتين على الأقل. وانتهت بلا جدوى وبالفشل محاولة "إشراكهم بشكل ثوري" في إضراب (لهزيمة دار الطباعة الناطقة بالفرنسية "المالية للإمبريالية"، حيث عمل العمال

(1) L'Orient et les colonies.

(2) Les elections dans le syndicat des typos a Beyrouthe et le travail syndical du parti. Fin fevrier 1933. Bureau du Secretariat du P.C.S.

الأرمن. علاوة على ذلك، بعد أن رفض المضربون محاولات الإقناع من جانب أعضاء المعارضة النقابية، شكلوا في نهاية المطاف وفدا للقاء ممثلي الحكومة اللبنانية. وانتهى الإضراب بعد أن تلقى العمال وعدا بإعادة التفاوض بشأن ديونهم لأصحاب العمل، وكذلك لإقرار تشريع العمل قريبا^(١). وتم حل القيادة القديمة للنقابة، ولم تشمل القيادة الجديدة متعاطفا واحدا مع الشيوعيين^(٢). كان هذا فقط واحدا من العديد من الأمثلة على نتيجة النشاط "الطبقي" للحزب الشيوعي السوري. ويمكن اعتبار عدم النجاح في بيئة العمل كأحد نتائج التطلعات القومية العربية للحزب الشيوعي السوري "العرب"، والذي كان أحد عناصره الأساسية هو تصعيد المعارضة للكتلة الوطنية.

ويشار إلى أن الجلسة الموسعة الرابعة الموسعة للجنة المركزية للحزب (أبريل ١٩٣٣) اعتمدت "القرار بشأن الحركة الوطنية الإصلاحية والثورية". وحددت هذه الوثيقة بوضوح حلفاء ومعارض الشيوعيين في صفوف الطيف السياسي السوري في ذلك الوقت^(٣). ومن نص الوثيقة يتضح أن الكتلة الوطنية، ذهبت بشكل نهائي إلى "معسكر الإمبريالية".

وخلال ذلك كان هناك فصيلان يعملان في صفوفها. وهما:

■ فصيل "الإصلاحيين المعتدلين" أنصار جميل مردم بك، الذين اعترفوا بالانتداب، وشاركوا في أنشطة البرلمان و"مع التحفظات" الدستور. لقد تصرفوا تحت شعار "الاستقلال في الريف أفضل من الاستعمار القارة"، وفي هذه الحالة كان الأمر يتعلق بالحصول على السيادة الوطنية داخل كل من الدولتين -

(1) Lettre de Beyrouthe, 6 novembre 1933.

(2) Circulaire centrale intérieure sur la dissolution du syndicat des typos a Beyrouthe, 13 aout 1933.

(٣) هنا ولاحقا:

Resolution du 4-ieme Plenum Elargie du C.C. du P.C.S. sur l'arabisation et les minorites nationales en Syrie.

سوريا ولبنان.

■ ثانياً، "الإصلاحيون المتطرفون" أنصار إبراهيم هنانو الذين لم يعترفوا بالانتداب الفرنسي وطالبوا باستبدال الانتداب بـ "معاهدة على غرار المعاهدة الأنجلو عراقية" (أبرمتها حكومتا العراق الملكية وبريطانيا العظمى في يونيو ١٩٣٠، واعترفت بالوضع المستقل لهذه الدولة) وطرح شعار "الوحدة بدون استقلال" أي تحقيق وحدة الأراضي السورية فقط.

اعتبر الحزب الشيوعي السوري، هذين الفصلين في الكتلة الوطنية، بمثابة الخونة، بعضهم "متنكراً" مثل هنانو، والآخر يعمل بشكل مكشوف كإصلاحي معتدل. وطبعاً تم استبعاد احتمال أية اتصالات معهما بشكل قاطع.

لكن كان هناك أيضاً جناح "ثوري" في الحركة الوطنية. وقد مثلته "الطبقات البرجوازية الصغيرة للمدن" التي "أضطرت على الانضمام إلى صفوف الجماهير العاملة" وبدأت "بالابتعاد عن الإصلاح الوطني".

وبدأ ممثلو هذه الشرائح (الطلاب والمثقفون والعاطلون والحرفيون وصغار التجار) في "تشكيل جبهة ثورية وطنية"، في محاولة "لانتزاع قيادة الحركة الوطنية من أيدي الخونة". وتم الإعلان عن البعثيين كقوة قيادية في صفوف هذه الجبهة، الذين في تلك السنوات كانوا فقط في بداية تحركهم نحو تشكيل حزب.

ومعهم، كان من المفترض أن ينشئ الحزب الشيوعي "جبهة موحدة". لكنهم كانوا جميعاً نفس القوميين العرب. وفي صفوف الحزب الشيوعي السوري دخل في تلك السنوات العديد من ممثلي نفس طبقة "البرجوازية الصغيرة" كما في صفوف البعثيين. وبحلول خريف عام ١٩٣٤، "زادت أعدادها بنسبة ١٥٠٪، من بينهم ٨٢٪ من العرب"، ومن بين هؤلاء، "٦٠٪ عمال"، وقيل عنهم، مع ذلك، أنهم "عاطلون مؤقتاً عن

العمل"، وكان هناك "٣٠٪ فلاحون لا يملكون أرضاً، و ٧٪ حريون وأصحاب دكاكين، و ٣٪ مثقفون"^(١).

إحدى أكثر اللحظات إثارة للفضول في أنشطة الحزب الشيوعي السوري خلال الثلاثينيات، ربما كانت تتمثل في الغياب شبه الكامل للإشارات إلى لبنان في وثائقه. بالطبع، يمكنه التحدث عن الإضرابات في بيروت ومدن أخرى في هذا البلد، وعن أنشطة المنظمات الشيوعية المحلية. لكن، مع ذلك، لم ينس بكلمة واحدة عن تطور العملية السياسية المحلية.

في الواقع، كان الشيوعيون السوريون اللبنانيون في ذلك الوقت واثقين من أن نجاحاتهم في سوريا، أو في المستقبل، نجاحات الحركة الوطنية السورية، ستخلق الشروط اللازمة للتخلص من "شكليات" الدولة اللبنانية. يبدو أن أفضل تأكيد لهذا الاستنتاج هو، في الواقع، الوثيقة الوحيدة للحزب الشيوعي السوري، المؤرخة في آذار ١٩٣٦، حيث تم التطرق إلى "المشكلة اللبنانية". نحن نتحدث عن نداء اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوري "لأهل لبنان النبيل" الصادر في شكل نشرة^(٢).

وفيها تم طرح بوضوح موضوع قيام "الإمبريالية الأوروبية ... بفصل شرق الأردن عن فلسطين والعراق من جهة، وعن سوريا من جهة أخرى. من سوريا، قام الإمبرياليون باقتطاع الجزء الجنوبي منها - فلسطين، وأنشأت الإمبريالية الفرنسية بدورها دولاً ومحافظات "مستقلة" لم تكن موجودة سابقاً على أراضيها". وبعبارة أخرى، كان لبنان واحداً من هذه الدول الجديدة التي ظهرت.

(1) Rapport general sur l'activite du P.C. de Syrie, 6 aout 1934.

(٢) إلى شعب لبنان الكريم. // نفس المصدر ف٤٩٥. اوب ٨٤. وحدة الحفظ ٨٨ ص ٢٠.

ولاحقا بعد ذلك، تم التأكيد في النداء على أن "الشعب اللبناني كان يسعى دائما من أجل الوحدة الكاملة لسوريا". وسيحقق هذا الهدف من خلال دعم "إخوته في الداخل السوري" و "قول كلمته للإمبريالية دفاعا عن الوحدة". عندها فقط، "ستراجع الإمبريالية أمام مطالبنا المشتركة". وأخيراً انتهى النداء بشعارات: "تسقط التجزئة / تحيا سوريا موحدة ومستقلة!".

و أصبح س. خياطة المعبر عن هذا التوجه القومي العربي. في كانون الثاني (يناير) ١٩٣٤، شغل المذكور منصب رئيس تحرير مجلة الدهور في بيروت، ولاحقاً، بعد إغلاقها من قبل السلطات، صدرت المجلة الأدبية والاجتماعية السياسية الجديدة "الطلیعة"^(١). واعتبر الكومنترن هذا الاصدار نموذجيا، وفي عام ١٩٣٧ طالب الشيوعيون السوريون بإنشاء "صحيفة أدبية" في مصر مماثلة "للطلیعة"، تلتف حولها "العناصر الديمقراطية والتقدمية" في هذا البلد^(٢).

في تلك السنوات، كان من بين المؤلفين الذين نشروا على صفحات الصحيفتين، منظر البعث - ميشال عفلق^(٣).

أصبحت الجبهة الموحدة مع البعثيين حقيقة واقعة. إلا أنها تضمنت "العديد من الجماعات القومية الثورية" (على سبيل المثال، أحد العقائدين البارزين في القومية العربية، اللبناني إدمون الرباط^(٤) والفلسطيني فوزي القاوقجي)، التي أخذت تطرق "جميع

(١) تمت إعادة نشر بعض أعداد المجلتين في // صوت الشعب أقوى. صفحة من صفحات الشيوعية

والعمالية والديمقراطية في ٥٠ عاما.

(2) Decision of the Secretariat of the E.C.C.I. on the Egyptian question, 14 may 1937.

(٣) انظر نفس المصدر. اقتباس من المؤلفات ص ٨٥-٨٦.

(4) Les evenements de Syrie. Lettre de Syrie, 14 fevrier 1936.

الأبواب من أجل أن تحصل على المساعدة التقنية".

وأقام الشيوعيون الاتصالات مع هذه الجماعات تحت شعار "الاستعداد للثورة"، وبالتالي أنشأوا بالفعل "جبهة ثورية موحدة مناهضة للإمبريالية"، قام فيها الحزب الشيوعي السوري بإعداد حلفائه "للتحرك في الوقت المناسب المطلوب".

كان من المفترض أن تكون هذه اللحظة هي "الحرب ضد الاتحاد السوفيتي". وفي هذا الصدد، ذكرت اللجنة التنفيذية للأمية الشيوعية: "إذا اندلعت حرب ضد الاتحاد السوفيتي ... فسنطلق حركة، دون أدنى تأخير، حتى في بداية الحرب". ثم قيل إنه "إذا كانت فرنسا إلى جانب الاتحاد السوفيتي (في الحرب المستقبلية)، فإننا، دون التخلي عن التعبئة الأوسع للجماهير للنضال ضد الإمبريالية، سوف نفكر في اللحظة المناسبة لذلك من أجل إطلاق العنان للثورة".

وفي هذا الصدد، ذكرت اللجنة التنفيذية للأمية الشيوعية: "إذا اندلعت حرب ضد الاتحاد السوفيتي ... فسنطلق الحركة، دون أدنى تأخير في أول بدايات الحرب". وبعد ذلك أضافت: "إذا كانت فرنسا إلى جانب الاتحاد السوفيتي (في الحرب المستقبلية)، فإننا، دون أن نرفض التعبئة الأوسع للجماهير للنضال ضد الإمبريالية، سننظر في اللحظة المناسبة لإطلاق ثورة"⁽¹⁾. تمت كتابة الرسالة من سوريا إلى موسكو في ١٨ يونيو ١٩٣٥. لم يحاول أحد في الكومنترن، كبح جماح الأشخاص الذين يتشاركون في التفكير.

لكن هذه القصة انتهت بشكل سريع نسبياً. وزعم الشيوعيون أنهم "تمكنوا من التسلل إلى المنظمة الثورية القومية Baas-EL-Kawmi، التي وافقت على العمل معنا". بطبيعة الحال، بالنسبة إلى هاتين المنظميتين المتقاربتين من حيث القاعدة الاجتماعية

(1) Lettre de Syrie, 18 juin 1935.

ووجهات النظر الأيديولوجية ، كانت المجالات الرئيسية للنشاط المشترك هي معارضة تقسيم سوريا ، ودعم الإجراءات نحو تحقيق الوحدة العربية ومعاداة الصهيونية.

ومع ذلك ، كما تم إبلاغ موسكو ، "ومباشرة ، بعد ذلك وضعنا لأنفسنا مهمة جعلهم يقبلون تماما برنامجنا للتحرر الوطني ، وقبل كل شيء ، شعاراتنا للثورة الزراعية". ثم أشارت الوثيقة إلى أن "هذه المنظمة تعرضت للتفكك ، وانضم بعض أعضائها إلى الحزب الشيوعي السوري"^(١). وكان ذلك الخط المعتاد لتفكك المنظمات التي اعتاد الكومنترين في تلك السنوات تسميتها "الثوار الوطنيين البرجوازيين الصغار".

ولكن ، ربما ، أحد أكثر مجالات نشاط الحزب الشيوعي السوري دلالة في الثلاثينيات ، كانت مشاركة ممثليه (س. خياطة ، في المقام الأول) وتحضيرهم لمؤتمر المثقفين السوريين اللبنانيين الذي انعقد عام ١٩٣٥ في زحلة (هناك دليل على مشاركة ممثلين عن دائرة أوسع من الدول العربية في عمله). وقد أقيم تحت شعارات "التحرير الوطني ، والتي فُهمت على أنها وسيلة لتحقيق الوحدة العربية.

ووحدت دائرة ذوي التفكير المماثل المجتمعين في زحلة في نطاق "عصبة التحرير الوطني" التي أنشأها س. خياطة. وكانت وثيقتها الأولى "حول الوضع السياسي في سوريا. وظهر بيان عصبة التحرير الوطني - في ديسمبر ١٩٣٤. وتناول إعادة وحدة "سوريا التاريخية"^(٢) ، وكان السؤال الوحيد هو ما هي الأساليب التي يمكن استخدامها لتنفيذ ذلك. في تلك الفترة تنامي "التوتر الداخلي" في البلاد ، مما وضع الإصلاحيين الوطنيين أمام

(1) Rapport sur le Parti Communiste Syrien dans la periode du 6-ieme au 7-ieme Congres de P.I.C.

(٢) هنا ولاحقا: حول الأوضاع السياسية في سوريا. بيان من عصبة التحرير الوطني. ٨ ديسمبر عام ١٩٣٤ // نفس المرجع ف. ٤٩٥ ، اوب ٨٤ ، وحدة الحفظ ٧٠.

خيار: إما "ثورة ١٩٢٥" أو "إلغاء الانتخابات" بحجة عدم الهدوء. ومع ذلك، فإن الكتلة الوطنية تحاول أن تفرض على سوريا "معاهدة إذلال واستعباد"، ليس فقط لأنها لم تعد قادرة على قيادة الجماهير، بل لأنها أصبحت أيضاً "قوة مخدرة للحركات الجماهيرية والشعبية".

وهذه المنظمة ترعى "سياسة القمع" التي تنتهجها الإمبريالية الفرنسية، ولا تعارض زيادة العبء الضريبي على الفلاحين، وتتغاضى عن "توطين الأرمن والآشوريين (الذين فروا من المذبحة التي نظمتها السلطات العراقية في العراق) في شمال سوريا - في منطقة حلب ودير الزور"، ولا تعارض بأي شكل من الأشكال تخفيض أجور العمال، بل وتستعد "للقوف في الحرب مع الإمبريالية الفرنسية".

ومن هنا يظهر استنتاج منطقي - "يعتبر تحرير البلاد والقضاء على تجزئتها من شأن الشعب العربي السوري".

قام س. خياطه بتحضير بيان مؤتمر زحلة^(١). وهو بالطبع، كرر إلى حد كبير بنود بيان العصبة، ولكن كانت هناك فروق دقيقة إضافية فيه. أولاً، دار الحديث فيه عن أن "العناصر المتفرقة وغير المنظمة" لم يعد بإمكانها البقاء في وضعها الحالي. ويتطلب تحقيق دورها التاريخي في مسار عملية التحرر الوطني الناضجة بشكل متزايد "توحيد هذه العناصر فوراً، وكذلك" توحيد جهودها في تنظيم العمل الجماهيري".

ويجب القيام بذلك لكي يتم في النضال ضد الإمبريالية "تحقيق استقلال البلاد ووحدتها، وكذلك اتحاد الدول العربية" فقط من خلال أساليب "التخريب الثوري" ومن خلال أكبر قدر ممكن من العنف. وشدد البيان على أنه لا يمكن حل جميع "المصالح

(1) Manifeste du congrès préparatoire du premier congrès de l'émancipation nationale.

السياسية والاقتصادية للجماهير" إلا عندما يتم "تحقيق وحدة البلاد" وهزيمة الروح الانفصالية بين الأقليات القومية والدينية.

لكن الحزب، الذي مثله رسمياً س. خياطه، لم يستطع حل هذه المشكلة بمفرده. ولذلك تم العرض عليه وعلى جميع المشاركين في المؤتمر، "العمل مع الوطنيين المخلصين والصادقين". وبالتواصل معهم كان لا بد من وضع برنامج موحد للتحرير الوطني. في المقابل، كان من المفترض أن تقود هذه الاتصالات هؤلاء الوطنيين إلى "فهم مهام التحرير الحقيقي" من خلال "الاعتماد على العمال والفلاحين العاملين".

وكانت تلك الخاتمة والاستنتاجات المعتادة لتلك السنوات! لكن يجدر استكمالها بالقول إن سوريا "قلب العروبة النابض". وطبعاً لا يزال يسمع حتى الآن صدى كلمات أحد الشيوعيين السوريين في الثلاثينيات حول "الاعتماد على العمال والفلاحين"، وعن سوريا كـ "قلب العالم العربي"!

في النصف الثاني من الثلاثينيات، دخل الحزب الشيوعي السوري "المعرب" في مرحلة جديدة من نشاطه. قام الكومنترن عشية مؤتمره السابع بتغيير تكتيكاته. من الآن فصاعداً، أصبحت مهمة الحزب ومهمة جميع الأعضاء في أقسام هذا الكومنترن، ممارسة النضال من أجل إنشاء "جبهة شعبية مناهضة للإمبريالية".

(٦) الحزب الشيوعي السوري في النصف الثاني من الثلاثينيات: ممارسة إنشاء "جبهة شعبية مناهضة للإمبريالية"

خلال السنوات ١٩٣٠-١٩٣٣ ، كما هو مذكور في وثائق اللجنة التنفيذية للأمية الشيوعية ، كان الحزب الشيوعي السوري عبارة عن "منظمة مغلقة بالأحرى ، شارك في مناقشات مجردة حول قضايا السياسة العليا"^(١) لم يكن لديها أكثر من ٤٠٠ عضو في صفوفها^(٢). وفعلا كان ذلك وصفا دقيقا لوضع حزين ، ظهر وتبلور أولا وقبل كل شيء ، كنتيجة لنهج اللجنة التنفيذية للأمية الشيوعية ، والمحاولات المتحمسة للشيوعيين أنفسهم الذين اتبعوا هذا المسار ليكونوا ثوريين بأي ثمن. وفي هذه الحالة لم تكن المنظمة الشيوعية السورية اللبنانية تشكل أي استثناء ، لأن الوضع نفسه بالضبط وللأسباب نفسها نشأ في فلسطين على سبيل المثال. ولكن الأمر الأهم كان يتلخص في شيء آخر - كان يجب على الحزب الشيوعي السوري أن ينتقل فوراً إلى حل المهام التكتيكية الجديدة ، التي من أجل التحديد النهائي لها تم عقد المؤتمر السابع للكومنترن.

لقد أنكرت هذه المهام ، الكثير مما قدمته اللجنة التنفيذية للأمية الشيوعية سابقاً والذي بدا للشيوعيين في كلا البلدين حقيقة لا جدال فيها. وتبين أن الكتلة الوطنية السورية ، وربما كذلك القادة التقليديين للطائفة المارونية اللبنانية ، يمكن ويجب أن يكونوا حليفاً للحزب الشيوعي السوري كجزء من تكتيكات "الجبهة الشعبية المناهضة للإمبريالية".

(١) الأممية الشيوعية قبل المؤتمر السابع العالمي (المواد). م ، ١٩٣٥ ، ص ٤٩٤.

(٢) مذكرة من "الحزب الشيوعي السوري" ، فف RTSKHIDNI // ، ف ٤٩٥ اوب. ٨٤ وحدة الحفظ

وبطبيعة الحال ، افترض ذلك أنه يتعين على الحزب من الآن فصاعدا أن يأخذ في الاعتبار الواقع السياسي القائم - وأن روسيا ولبنان لم يعودا يمثلان كيانا جيوسياسيا واحدا ، بل يعملان ككيانات دولة مستقلة.

ومن هنا ظهر أن مشكلة وحدة "سوريا التاريخية" أخذت تضيق وتتقلص حتى ضرورة النضال من أجل تصفية التشكيلات الإقليمية والعرقية الطائفية الداخلية التي بقيت على أرض الواقع في سوريا. كان من الواضح أن قضية الوحدة العربية ، علاوة على ذلك ، إنشاء "حزب شيوعي عربي" أخذت تتراجع إلى الخلفية ، لكن التكتيكات التحالف السياسي الواسع كانت تتطلب الانتباه للعمل ليس فقط في صفوف الأغلبية الوطنية ، بل وكذلك بين الأقليات العرقية والطائفية والقومية في البلدين.

لم يكن الأمر يتعلق فقط بمطالب الكومنترن ، التي وقفت وراءها مصالح السياسة السوفيتية العليا. كان هناك تغير واضح في الوضع داخل ممتلكات فرنسا في الشرق الأوسط. كانت كل من سوريا ولبنان تتجهان نحو الاستقلال.

في أعمال المؤتمر السابع للكومنترن ، مثل الحزب الشيوعي السوري كل من خ. بكداش (رمزي) ويو. الحلو (نادر). كيف تعامل الحزب الشيوعي السوري مع المهام الجديدة التي حددتها أمامه اللجنة التنفيذية للأمم المتحدة؟ لقد وردت الإجابة على هذا السؤال إلى حد ما ، في خطابات مندوبي الحزب في المؤتمر السابع للكومنترن.

تحدث الحلو (نادر) خلال مناقشة التقرير الخاص بأنشطة اللجنة التنفيذية للأمم المتحدة الشيوعية ، الذي اقترحه ف. بليك^(١). وكان الكثير من بنود حديثة بمثابة التكرار

(١) هنا ولاحقا خطاب نادر اقتباس من "المراسلون الدوليون" عام ١٩٣٥ رقم ١٠٠ ص ١١٤٩ -

للاستنتاجات المقدمة من جانب الحزب الشيوعي سابقا والتي اعتمدت على نهج "طبقة ضد طبقة". وأشار إلى أنه حتى عام ١٩٣٣ اتسم الحزب بـ "الانتهازية والتفوق والعزلة الذاتية". قال الحلو أن الحزب، بعد أن اختار طريق التعريب، تمكن من "تطوير خطه الخاص في حركة التحرر الوطني"، مما ساعده على "الفوز بمواقع مهمة في صفوف الطبقة العاملة، ولا سيما البروليتاريا العربية".

ووفقا لكلمات الحلو، تمكن الشيوعيون من "نيل ثقة الجماهير العربية"، التي باتت تعتبر الحزب الشيوعي السوري بمثابة حزب "أكثر المناضلين شجاعة وإخلاصا وثباتا من أجل قضية الشعب العربي، من أجل قضية التحرير الوطني الكامل". وشدد الحلو على أن المثقفين التقدميين من كل الدول العربية التفوا واتحدوا حول مجلة "الطلیعة" الناطق العلني الرسمي باسم الحزب.

لكن اللجنة التنفيذية للأمية الشيوعية، طالبت بالحديث عن التفاصيل الدقيقة الجديدة. ولهذا السبب **بأشر الحلو بالقول** إن حزبه "وجد تكتيكات الجبهة الموحدة كأساس لنشاطاته، وخاصة، النضال ضد الإمبريالية". وخص بالذكر عمل الحزب الشيوعي السوري على وجه التحديد بين "الأقلية الأرمنية". لكن الحزب مع ذلك يعتبر عملية التعريب مهمته الأساسية. وهنا خاض الحزب صراعا مع من عارضوا هذه العملية في صفوفه، مع "عناصر الدشناق". وطبعا لم يعر أحد الاهتمام أن هذه "العناصر" كانت من بين مؤسسي الحزب وتاريخيا بنيت الداعمة! من يهتم بأنهم وضعوا دائما الرافض المطلق للدشناكتسوتون في مركز أنشطتهم! لكن في الاتحاد السوفيتي، كانت هذه الكلمة، مثل كلمة "صهيونية"، عبارة عن كلمة اتهام.

من جانبه تحدث بكداش مرتين في المؤتمر. كانت المرة الأولى أثناء مناقشة تقرير غ.

ديميتروف، والمرة الثانية - أثناء مناقشة تقرير ف. بيك^(١). وكان كلا الخطابان، مثالا ممتازا للتقليد والانتهازية، عندما أعلن الحزب على الفور أن المبادئ الجديدة للكونمترن قد نفذت بالفعل. وقال بكداش في خطابه الأول أن "وفود الدول العربية تتفق تماما مع أطروحات غ. ديميتروف".

وتابع قائلا: "لقد غيّر شيوعيو المنطقة العربية مواقفهم بشكل جذري من الإصلاحات الوطنية للبرجوازية العربية". وهم يعتبرون أن مهمتهم تكمن في "دعم المطالب الحالية المناهضة للإمبريالية، بالإضافة إلى تلك الإجراءات التقدمية التي يمكن للحزب تنفيذها عندما يصل إلى السلطة".

وفي حديثه الثاني، اتبع بكداش نفس الخط مرة أخرى، مؤكدا: "هدفنا النهائي هو الاشتراكية، لكن يجب علينا أن نجتاز المراحل الأخرى أيضاً. نحن الآن في المرحلة الأولى من النضال، النضال ضد الإمبريالية العالمية، العدو الرئيسي للشعوب العربية. هذا العدو القوي يشدد تكتيكاته كل يوم. ومحاربته، نحتاج إلى تنفيذ التكتيكات الصحيحة". بعد ذلك نطق بكداش الكلمات التي تركت طبعا الاثر الطيب في نفوس اللجنة التنفيذية للأمم الشيعية: "يجب أن تقتنع الجماهير، بالاعتماد على تجربتها الخاصة، بأننا بالذات من يدافع حتى عن مصالحهم الوطنية والاقتصادية غير الكبيرة. يجب على جميع الشعوب المضطهدة أن ترى وتشعر وتفهم أننا نحن الشيوعيين أفضل أبناء الشعب. يجب أن تساعد الطبقة العاملة على تأكيد هيمنتها في حركة التحرر الوطني للدول العربية" أخيرا: قال

(١) الكلمة الأولى: اقتباس من "المراسلون الدوليون"، عام ١٩٣٥ رقم ٦٧-٦٨، ص ٩٩٠.

الكلمة الثانية: اقتباس من "المراسلون الدوليون"، عام ١٩٣٥ رقم ١١٢، ص ١٦٦٥-١٦٦٦.

بكداش "... البروليتاريا العربية قادرة على لعب دورها القيادي في الثورة الوطنية والزراعية. وإذا لم تلعبها البروليتاريا في الحركة النامية، فإن هذا سيثبت فقط أننا لم نساعد طبقتنا في حل هذه المشكلة، وأننا لم نقم بدورنا الطبيعي".

على الرغم من كل التناقضات في الخطابين، والتي نشأت، بسبب عدة عوامل وأمور من بينها، عدم المساواة في موقف كل من المتحدثين (الحلوقدم من بيروت في حين كان بكداش في تلك الفترة يعمل في جهاز اللجنة التنفيذية للأمية الشيوعية في موسكو) كان توجد فيهما نقطة في غاية الأهمية. قام كل منهما بالالتفات بهذا القدر أو ذاك نحو تكتيكات "الجبهة الشعبية المناهضة للإمبريالية"، وشدد بإصرار على فكرة الطابع "العربي" لحزبه، وتطلعاته، في نهاية المطاف، السعي لحل المشاكل العربية العامة.

وفي حديثه لم يحاول بكداش اخفاء ضرورة الحفاظ في عقيدة الحزب على شعار "الوحدة العربية"، لأنه، حسب قوله، "كان يحظى بشعبية كبيرة بين المثقفين والشباب ولأن الفاشية الإيطالية والألمانية تنشطان للغاية في البلدان العربية"، مع التركيز على هذه الشعبية^(١)، وكانت حجته الثانية، بالمناسبة، مثالا ممتازا للقدرة على المناورة والمعرفة الممتازة لنقاط ضعف القيادة!

أظهر الحزب الشيوعي السوري استقلالته، حتى وإن لم يكن بشكل كامل. لقد دافع الشيوعيون العرب، الذين ترعاهم اللجنة التنفيذية للأمية الشيوعية في قيادتها، بإصرار عن المسار الذي يمكن أن يساعدهم على البقاء مع التيار في المستقبل. في موسكو، ورغم التنصل من فكرة القومية العربية التي قدمت سابقا على أنها شعار "فيدرالية بين الجمهوريات العربية العمالية والفلاحية"، ورغم رفض فكرة وجود أداة "شيوعية" واحدة

(١) RTSHIDNI، ف. ٤٩٥، اوب. ٨٤ وحدة الحفظ ١٠٥ ص ٥٢.

لإنشاء هذه الفيدرالية - حزب قومي عربي ، تم رغم كل ذلك تقديم تنازلات كبيرة للعمالء السوريين - اللبنانيين. كان لابد من إبقائهم في دائرة النفوذ السوفيتي بأي ثمن. ومن المعروف أن الاتحاد السوفيتي واصل التصرف بهذا الشكل لاحقا في المستقبل ، عندما أقام علاقات مع مجموعات جديدة من القوميين الذين دافعوا عن نفس فكرة "الوحدة العربية".

من جانبه تمسك الكومنترن بالحزب الشيوعي السوري المعرب. وكما ورد في قرار الأمانة العامة للجنة التنفيذية للأمية الشيوعية الصادر في ٢٩ فبراير ١٩٣٦ ، تحت عنوان "مهام الحزب الشيوعي للدول العربية في النضال من أجل الجبهة الشعبية المناهضة للإمبريالية" ، واصلت الأحزاب الشيوعية في بلدان المنطقة العربية. للاحتفاظ بطابع "الجماعات المنغلقة المنعزلة عن الجماهير". فقط في سوريا قاد الشيوعيون "الخط نحو التعريب" وبفضل ذلك ، حققوا وشغلوا "مواقع معينة في النقابات العمالية وفي حركة الإضراب ، وشاركوا بفاعلية في حركة التحرير"^(١).

هذا الأخير كان ، بعبارة ملطفة ، ضربا من المبالغة ، لكن بالطبع بهدف تحقيق هدف نبيل. وفي سبيل نفس هذا الهدف النبيل عرضت موسكو على السوريين اللبنانيين ، وكذلك على الشيوعيين الفلسطينيين ، قرارا من الأمانة العامة للجنة التنفيذية للأمية الشيوعية "حول العلاقة والتعاون المتبادل بين الأحزاب الشيوعية في الدول العربية". وفقا لذلك كانت هذه الأحزاب تستطيع ويجب عليها إقامة اتصالات وثيقة ومتعددة الأطراف فيما بينها. على سبيل المثال ، طالب خالد بكداش (ووافق الكومنترن على ذلك) ، بأن يتم منح الحزب الشيوعي السوري دور المركز المشرف على شيوعيي مصر وفلسطين ودور

(١) هنا ولاحقا: ريزنيكوف أ.ب. اقتباس من المؤلفات ، ص ٢٧٦-٢٧٩.

المساعد في تشكيل الحزب الشيوعي العراقي^(١). وهذا بالذات يعني تطبيق فكرة جمع الشمل العربي على أرض الواقع على اعتبار أنه تم اعلان سوريا بمثابة "قلب الدول العربية". ولكن رغم كل ذلك كيف قام الحزب الشيوعي السوري بتنفيذ تكتيك "الجهة الشعبية المناهضة للإمبريالية"؟ لقد بدا في كلا البلدين، أن كل الظروف الضرورية قد نضجت لذلك. ولعل أهمها ظهور الحكومة اليسارية للجهة الشعبية في فرنسا، بدعم من الشيوعيين المحليين. لم تعد إمكانية استقلال كل من سوريا ولبنان سرايا بعيد المنال.

في يناير عام ١٩٣٦، دعت الكتلة الوطنية السوريين إلى المقاومة. كانت شوارع دمشق وحلب مغطاة بالحواجز، ووقعت اشتباكات مع القوات الفرنسية النظامية. وتخلت الكتلة الوطنية عن سياستها السابقة المتمثلة في "التفاهم النزيه"، والتي تم الإعلان عن "استنفاد" احتمالاتها، وأعلنت أنها ستعمل من الآن فصاعداً على أساس الميثاق الوطني الذي أعلنه هذا الحزب^(٢). وقالت المتلة، أن كامل أراضي سوريا، المنفصلة عن الإمبراطورية العثمانية، يجب أن تكون خالية من أي شكل من أشكال السلطة الأجنبية، وأن تحصل على الاستقلال والسيادة الكاملين. وكان من المفترض أن تصبح البلاد "دولة واحدة ذات حكومة واحدة". أعلنت الكتلة الوطنية رفضها لوعده بلفور و"الوطن القومي الصهيوني" وأعلنت رغبتها في إنشاء "اتحاد الدول العربية"، ولكن بشرط أن تكون عملية إنشائه. لن "تلغي تنفيذ الأهداف التي يجب تنفيذها في كل قطر على حدة".

وتحدث قادة هذا الحزب عن "المساواة" بين جميع ممثلي الشعب، بغض النظر عن

(١) RTSHIDNI، ف. ٤٩٥، اوب. ٨٤ وحدة الحفظ ١٠٥ ص ٥٢.

(٢) هنا ولاحقا: الميثاق الوطني الذي أعلنته الكتلة الوطنية. اقتباس // نفس المصدر ف. ٤٩٥، اوب. ٨٤ وحدة الحفظ ٩٢ ص ٨-٩.

انتماءاتهم المذهبية ، حول أهمية تحسين الرفاه المادي للمواطنين ومستوى ثقافتهم ، على أساس مبادئ "الأخلاق والتربية الوطنية العامة".

وقد دعا الميثاق الوطني "الأمة" بكل ما لديها من "القوى المادية والمعنوية" إلى خوض "معركة وطنية مقدسة (الجهاد الوطني)" من أجل تحقيق الحل النهائي للمهام التي تقف امامها. وبما أن هذه الحرب تطلبت وحدة وطنية غير مسبقة في السابق ، فقد اعتبرت الكتلة الوطنية أن "إنشاء أحزاب سياسية في هذه الظروف مخالف لفكرة توحيد صفوف الشعب". وتم إعلان المبادئ التي نص عليها الميثاق "كأساسية وجوهرية لحياة الأمة" ، وكل من معارضها "يحرم من حق الانتماء لهذه الأمة". كان من المقرر أن تجري المفاوضات المستقبلية مع سلطات دولة الانتداب على أساس الميثاق فقط ، وأصبحت الكتلة الوطنية منظمة "تستمد قوتها من إيمان الشعب ومن الدماء التي سكبها المقاتلين ومن روح الزعيم العظيم هنانو الذي رحل قبل الأوان". ثم جاء الشعار: "إلى الكفاح الشريف في ساحة المعركة الوطنية!".

ويجب القول إن الحزب الشيوعي السوري ، يمكن أن يوافق على جميع أحكام هذه الوثيقة (بالطبع ، باستثناء شرط عدم تشكيل أحزاب سياسية). والأمر يكمن هنا ليس في وطنية هذه الوثيقة ، بل في مناسبتها البراغماتية لإقامة اتصالات بين الحزب والذين بقيوا حتى الأمس ، بمثابة النقيض المطلق للشيوعيين.

كان حزب الحزب الشيوعي السوري ، أولاً وقبل كل شيء ، من احزاب "العمل الوطني" ، وإن كان يستخدم مصطلحات تلك الفترة ، "المتطرفة". بالمناسبة ، لم تكن فكرة الانخراط في الهيكل التنظيمي العام للكتلة الوطنية في ذلك الوقت ، غريبة على الحزب الشيوعي السوري.

وكان من الممكن أن تقول لجنته المركزية في إحدى منشوراتها الداخلية أن "الفترة

التاريخية الحالية ، فترة الثورة الديمقراطية البرجوازية في مرحلة النضال من أجل التحرر الوطني ، تجعل من الممكن ، علاوة على ذلك ، التعاون مع مجموعات وعناصر معينة من البرجوازية الوطنية".

ولاحقا من هذا الطرح يمكن الاستنتاج : "وعلى هذا الأساس ، فإن دخول حزبنا إلى الكتلة الوطنية ليس سوى خطوة عملية ضخمة نحو تنفيذ الجبهة الشعبية الوطنية من أجل استنزاف الاحتمالات الديمقراطية التي لا يزال موجودا لدى بعض مجموعات البرجوازية الوطنية ، لمصلحة مهمة التحرير"^(١).

ولكن الحزب الشيوعي السوري ، لم يتمكن من الموافقة على هذا بسبب موقف الكومنترن. لكن حتى طابعه "الوطني" لم يكن أهم ظرف دفعه نحو التحالف مع الكتلة الوطنية.

لقد فتح نشر الميثاق الوطني وخط العمل العام لقادة الحركة الوطنية (من "التفاهم السلمي" مع السلطات المنتدبة إلى "المعركة المقدسة" ضدهم) آفاقا كانت مستحيلة سابقا أمام الشيوعيين. كانت البلاد تدخل فترة من عدم الاستقرار ، والتي ، بشرط مدتها ، يمكن أن تقوي الحزب ، وتجذب مؤيدي الإجراءات المتطرفة إلى صفوفه ، وفي النهاية ، قد تخلق وضعاً يحل فيه الحزب الشيوعي السوري مكانه الذي خلفه له حليفه "البرجوازي الإقطاعي". كان هذا هو السبب الوحيد الذي جعل الشيوعيين يشغفون دائما بفكرة تكرار "الثورة السورية الكبرى" ، أما الكومنترن فقد طالهم باستمرار باستخدام أي "عمل جماهيري".

(١) "بيان مركزي داخلي موجه إلى جميع الخلايا والمنظمات : الوضع الحالي وواجبنا" // نفس المصدر ف.

٤٩٥ ، أوب. ٨٤ وحدة الحفظ ٨٦ ، ص ٤٠-٤٥.

بعبارة أخرى ، لم يكن الأمر يتعلق بتحالف مقبول بصدق من أجل حل قضية الاستقلال الوطني ، بل يتعلق بمنافسة حزبية مفهومة بوضوح مسبقاً ، والتي من شأنها أن تساعد في توجيه ضربة ساحقة للخصم الذي تم إعلانه كحليف ، وهذه الضربة من شأنها توسيع دائرة نفوذ القوة الخارجية التي تقف وراء الشيوعيين !

ومع ذلك ، كان السؤال يكمن أيضاً ، في أن تحول الحزب الشيوعي السوري إلى قوة يمكنها منافسة الكتلة الوطنية حقاً لا يمكن تحقيقه إلا إذا أصبح الشيوعيون أكثر اتساقاً في نشاطهم حتى من زعيم الحركة الوطنية ، أبطال أحكام الميثاق الوطني . وبهذا الشكل بالذات كان بمقدورهم التغلب على حساسية القوميين تجاه التوترات الحزبية داخل " الأمة الواحدة " . لكن هذه المهمة ، التي طغت عليها نشوة النضال ضد فرنسا ، كانت صعبة للغاية^(١) .

من جانبها طالبت اللجنة التنفيذية للأمية الشيوعية من الحزب الشيوعي السوري باصرار ، العمل في اتجاه تحقيق علاقات التحالف بينه وبين الكتلة الوطنية (ولكن ، بالطبع ، على أساس "الحفاظ على استقلاليتها السياسية والتنظيمية") . وقالت اللجنة للحزب ، أن "الكتلة الوطنية هي الحزب الجماهيري الرئيسي في البلاد" ، وأن التحالف معها "حتماً" سيحول "حزبنا إلى حزب شرعي" ، وسيكون قادراً على اختراق "كل المنظمات الجماهيرية التابعة للكتلة" . وشددت اللجنة التنفيذية في طلبها ، على أن حتى لو رفض قادة الكتلة الوطنية إنشاء "جبهة مع الشيوعي السوري تحت اسمه" ، يجب على الشيوعيين "بشكل غير مباشر" ، تحت اسم "تنظيم ما يجب إنشاؤه لهذا الغرض" ، حل هذه

(١) رسالة إلى الحزب الشيوعي السوري ، ٢٣ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٣٦ // نفس المصدر ف. ٤٩٥ ،

اوب. ٨٤ وحلة الحفظ ٨٣ ص ١٦٨ - ١٧٠ .

المشكلة. وكما لاذ أخير، إذا لم يوافق قادة الوطنيين على هذا، كان ينبغي على الحزب الشيوعي السوري أن يلجأ إلى الشعب (وهنا يبدو أن اللجنة التنفيذية للأمية الشيوعية تبالح كثير في تقييم قدرات قسمها السوري- اللبناني!) لتشكيل جبهة وطنية موحدة". علاوة على ذلك، يجب الشيوعيين، وعلى أساس تكتيكاته توجيه "الدعوة لجميع الأحزاب والمنظمات الوطنية الأخرى إلى أن تحذو حذونا".

ولكن من الواضح أن إقامة علاقات مباشرة في مارس ١٩٣٦ بين الكتلة الوطنية والحزب الشيوعي السوري قد تمت دون أي صعوبات. بالطبع، كان الشيوعيون هم البادئين في المفاوضات، لكنها تكللت بالنجاح - أعلن كلا الطرفين أنهما "سيواصلان النضال معا"^(١). لقد فهم قادة الحركة الوطنية بالطبع أن الشيوعيين كانوا مدعومين من قبل الاتحاد السوفيتي (وهم كانوا بحاجة إلى تضامن دولي مع نشاطاتهم)، وبالإضافة إلى ذلك، وُعدوا بمساعدة ملموسة - اتصالات مع الشيوعيين الفرنسيين ودعاية واسعة النطاق في فرنسا لفكرة استقلال سوريا.

إلى جانب وفد الكتلة الوطنية برئاسة هاشم الأتاسي، الذي ذهب إلى باريس في فبراير ١٩٣٦، توجه أيضاً خالد بكداش إلى هناك، حيث التقى بالشيوعيين وقادة الأحزاب اليسارية الأخرى، فضلاً عن ممثلين من الجمهور الفرنسي. وأتاح ذلك دعم الأصدقاء الفرنسيين الفرصة لتنظيم حملة غير مسبقة مؤيدة لسوريا في الصحافة الفرنسية^(٢). وبدا للمرء أن وحدة أفعال الشيوعيين والقوميين أصبحت لا تتزعزع. وبات مكان اللقاءات المنتظمة بينهما، دار إبراهيم هنانو في حلب، وقد أعرب ممثلو الكتلة

(١) نفس المصدر، ص ٣٥-٣٦. (de syrie le 6 mars 1936).

(2) Lettre du camarade Ramzi de Paris, le 4 aout 1936.

الوطنية بشكل ثابت ، كما أبلغ الشيوعيون لموسكو ، عن "رضاهم" عن التعاون مع الحزب الشيوعي السوري^(١). وتم النقل عنهم أنهم "شخصيا ليسوا ضد الشيوعية ، إلا أن عقول الناس لم تنضج بعد لفهم هذه الفكرة"^(٢). لكن في الواقع ، لم يكن كل شيء مثاليا بهذا الشكل. لقد عمل الشيوعيون فعلا الكثير لإجبار سلطات الانتداب على تقديم تنازلات كبيرة للوطنيين السوريين. ودعموا الإضرابات الجماهيرية في دمشق وحلب وحمص وحماة ودير الزور تحت شعارات الكتلة الوطنية ، وعندما تعرض نشطاءهم لمضايقات واعتقال من قبل جنود وشرطة فرنسيين ، شاركوا في المظاهرات الحاشدة والاعتصامات في المساجد والأسواق^(٣).

وأخيرا ، كان الشيوعيون أول من نظم الناس واستخدام القوة لمنع محاولات السلطات إغلاق منزل إبراهيم هنانو ، الذي أصبح رمزا وطنيا ، حيث كان مقر الكتلة الوطنية^(٤). علاوة على ذلك ، فقد عارضوا بشدة ما أسماه الحزب الشيوعي السوري في ذلك الوقت "استفزازات الإمبريالية الفرنسية". وكان ذلك جانبا مهما من أنشطتهم ، لكنه لم يكن محددًا وواضحًا بالفعل ، كما جرى الحديث عنه عادة في تلك الفترة.

لقد جرى الحديث ، قبل كل شيء ، عن المحاولات المفتوحة للانفصال لبعض المناطق ، والتي اعتبرها قادة الكتلة الوطنية ، الذين تحدثوا عن الدولة السورية المستقبلية

(١) رسالة من سوريا ١٩ يناير عام ١٩٣٦ // نفس المرجع ف. ٤٩٥ ، اوب. ٨٤ وحدة الحفظ ٨٣ ص رقم ١.

(٢) رسالة الحزب الشيوعي السوري // نفس المصدر ، ص ١٣٦-١٣٧.

(٣) رسالة من سوريا فبراير عام ١٩٣٦ // نفس المصدر ، ص ١٧-٢٠.

(٤) رسالة وتقرير من منظمة حلب إلى اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوري. ١٩ يناير عام ١٩٣٦ // نفس المرجع ف. ٤٩٥ ، اوب. ٨٤ وحدة الحفظ ٨٧ ص رقم ١-٤.

على أنها "كامل أراضي سوريا، التي استقلت عن الإمبراطورية العثمانية"، جزءاً لا يتجزأ من البلاد. في نوفمبر ١٩٣٦، أبلغ الحزب الشيوعي السوري اللجنة التنفيذية للأمم المتحدة الشيوعية أن "دي مارتيل (المفوض السامي لفرنسا) يشكل عصابات مسلحة تعمل ضد وحدة البلاد في منطقة العلويين وجبل الدروز".

بدورهم، قام "المسيحيون العرب والأرمن" المحليون في حلب، المتحدون في منظمة "الشارة البيضاء" و"بدعم" من الإمبريالية الفرنسية، بمحاولة "للتصدي للمسلمين وللمعاهدة (معاهدة الصداقة والمساعدة الفرنسية السورية المخطط لها)^(١). وفي نداء إلى "سكان حلب النبلاء"، من بين أمور أخرى، قيل إن مصير العرب المسيحيين المحليين مرتبط ارتباطاً وثيقاً بمصير "الشعب العربي الموحد في الدولة العربية السورية"، و "أن تطلعات الوطن" يمكن، إذا تحققت، أن تصبح ضماناً لتحقيق "المصير السعيد" للأرمن حلب^(٢).

وأخيراً، كتب الشيوعيون إلى موسكو، أن مؤيدي الانفصاليين "الدشناق" و "العرب المسيحيين" بدعم من "الأجانب الآشوريين (المهاجرين)" و "الاغوات الإقطاعيين الأكراد" في يوليو ١٩٣٧ قاموا بتنظيم "تمرد" انفصالي في الجزيرة السورية، مطالبين بترك المنطقة "كدولة مستقلة تحت الانتداب الفرنسي"^(٣). وتمت تسمية هؤلاء الانفصاليين "بشركاء الفاشيين الألمان - الإيطاليين". وتم تذكيرهم بأنه يجب عليهم العيش في "دولة عربية

(١) رسالة من سورية ٢٠ نوفمبر عام ١٩٣٦ // نفس المصدر ص ١٥٣-١٥٦.

(٢) من منشورات الحزب الشيوعي السوري: "نداء إلى الشعب الحلبي الكريم. اللجنة الإقليمية للحزب الشيوعي السوري" // نفس المرجع ف. ٤٩٥، اوب. ٨٤ وحدة الحفظ ٨٨ ص رقم ٣٦.

(٣) تمرد الدشناق في الجزيرة السورية. مقالة اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوري. الرفيق خالد بكداشفي صحيفة "صوت الشعب" يوم ٧ أغسطس عام ١٩٣٧ // نفس المرجع ف. ٤٩٥، اوب. ٨٤ وحدة الحفظ ٩٤ ص رقم ٥٥-٥٧.

سورية".

ولكن من الواضح أن الأهم بالنسبة للسياق العام للدولة السورية بات مشكلة لبنان وتخلي سلطات الانتداب الفرنسية عن لواء اسكندرون، حيث تعيش أقلية تركية كبيرة، وتسليمه لسلطات تركيا الاتاتورية (الآن ولاية هاتاي في جنوب غرب تركيا الحديثة).

بالتزامن مع المفاوضات الفرنسية- السورية، جرت مفاوضات فرنسية - لبنانية في باريس. لكن الحزب الشيوعي السوري عند الحديث عن لبنان، في النصف الثاني من الثلاثينيات، كان يؤكد بشكل ثابت أن الشيوعيين لا يقبلون بتاتا أن هذه الأرض "الغالية جدا للوطن السوري ستفصل عن إخوانها"، وأن "يتم نهب ثروتها من يحاول توجيه سكانها ضد الإخوة السوريين، ويشعل ذلك في صدرهم" نار التعصب الديني والتعصب المذهبي.

اعتقد الشيوعيون وأعلنوا صراحة أن الوفد اللبناني الذي كان يتفاوض في العاصمة الفرنسية على تغيير وضع بلاده "لا يعبر عن رأي جميع سكان الجمهورية اللبنانية لأنه لم ينتخب بحرية من قبل الشعب كله. ولم يأخذ في الاعتبار مطالب فريق كبير من ممثلي جميع الأديان"^(١). وكان الشيوعيون خلال ذلك يرددون رأي الجزء المسلم من اللبنانيين وتحدثوا عن "الأخوة الإسلامية المسيحية" بين اللبنانيين، منطلقين من وجهة نظر الأرثوذكس والسريان الكاثوليك. ولهذا ساهموا في تنظيم والمشاركة والترحيب بمظاهرات لمؤيدي

(١) من منشورات الحزب الشيوعي السوري: "أيها المسلمون والمسيحيون، حاربوا أصحاب دعوات الفتنة الدينية في لبنان الذين يريدون تكرار قصة الشارة البيضاء في حلب". يوليو عام ١٩٣٦ // نفس المرجع ف. ٤٩٥، اوب. ٨٤ وحدة الحفظ ٨٨ ص رقم ٤١-٤٢.

الوحدة مع سوريا في بيروت وطرابلس انتهت باشتباكات طائفية دامية^(١).

وأخيراً دعم الحزب الشيوعي السوري، في الواقع، رغبة السكان المسلمين من سكان بعض مناطق لبنان (على سبيل المثال، جبل عامل) في الانفصال عن لبنان والانضمام إلى سوريا. وكما ورد في إحدى وثائق الحزب في ذلك الوقت، فإن "الحزب الشيوعي السوري يؤيد مطلب السكان العرب في جبل عامل من أجل الوحدة مع الوطن المنقسم والمجزأ على أساس الاتحاد مع سوريا"^(٢).

وخلال ١٩٣٧-١٩٣٨، ساهم الشيوعيون في تشكيل لجان للدفاع عن لواء اسكندرون، وشاركوا في مظاهرات وتجمعات طالب المشاركون فيها بضمه إلى الدولة السورية. وفي عام ١٩٣٨، تم في سوريا إنشاء اللجنة العليا للدفاع عن لواء اسكندرون، والتي شارك في أنشطتها ممثلو الكتلة الوطنية والحزب الشيوعي السوري. ومثل الشيوعيون السوريون في هذه اللجنة العليا خالد بكداش^(٣). وجرى الحديث خلال ذلك على ضرورة الاعتماد على الجالية الأرمنية في هذه المنطقة^(٤). وتبين هذه المرة أن السكان الأرمن في اللواء، وعلى عكس حلب والجزيرة، كان بمقدورهم جلب الفائدة.

وفي صياغته لمشكلة لواء اسكندرون، انطلق الحزب الشيوعي من حقيقة أن سوريا

(١) من منشورات الحزب الشيوعي السوري: "الحوادث في بيروت وطرابلس. الشعب يؤيد الحزب الشيوعي

السوري في حملته على أنصار الفتنة". ٢١ نوفمبر عام ١٩٣٦ // نفس المرجع ص ٥٧-٥٨.

(٢) من منشورات الحزب الشيوعي السوري: "إلى أبناء جبل عامل العرب" // نفس المرجع ف. ٤٩٥، اوب.

٨٤ وحدة الحفظ ٨٨ ص رقم ٤٣.

(٣) قضية لواء اسكندرون // صفحات من تاريخ الحزب الشيوعي السوري ص ٤٣-٤٦.

(٤) انظر حول ذلك. حنا أ. من تاريخ الحركة النقابية في سوريا. ذكريات النقابي جبران خليل // "الطريق"

بيروت ١٩٨٦ رقم ١ ص ٤٥-٤٦.

لا تستطيع التخلي عنه لأن:

١. وجود جانب جغرافي للمشكلة: تمتد الحدود الطبيعية لسوريا من العريش (الآن مدينة في قطاع غزة -) في الجنوب إلى سفوح جبال طوروس في الشمال (الآن جزء من تركيا). في العهد العثماني كان لواء إسكندرون جزءاً من ولاية حلب.

٢. عدد سكان اللواء - الثلث ٨٠ ألف تركي، والثلثان الباقيين عرب وأرمن.

٣. إسكندرون من الناحية الاقتصادية - ميناء سوري مهم^(١).

وبعد ذلك دار الحديث، بالطبع، عنه أنه "لا يمكن حرمان أقلية السنجق التركية من صورتها الوطنية وحقوقها". ولكن، في الوقت نفسه، كما تم التأكيد عليه في قرار اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوري، "لا يمكننا الاعتراف بامتيازات لأية أقلية على حساب الشعب العربي السوري، ولا يمكننا المساهمة في تحول أي أقلية، إلى شريك في الإمبريالية، وإلى أداة لمكافحة الشعب العربي السوري".

ولكن تبين أن الواقع الحقيقي، أكثر تعقيداً مما توقعه الشيوعيون. وتبين أن الدولة السورية كانت خاضعة لتأثير العديد من العوامل والأوهام المتشابكة والمتداخلة (مناطقية ومذهبية ووطنية)، وهذا الظرف بالطبع تم استغلاله من قبل قوى خارجية. من جانبهم حاول الشيوعيون الحفاظ على وحدة البلاد الخيالية، وأصبحوا، في حل هذه المشكلة، أكثر استعصاءً على الحل، مقارنةً بالكتلة الوطنية. وأصبحوا في حل هذه المشكلة، أكثر عناداً بكثير، مقارنة حتى مع الكتلة الوطنية. ومن حيث الواقع وقف الشيوعيون في الصفوف المتقدمة في هذا المجال، وتحدثوا بشكل أكثر حدة وصرامة مما كان يسمح قادة

(١) قضية لواء إسكندرون. قرارات اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوري. RTSHIDNI، ف. ٤٩٥،

اوب. ٨٤ وحدة الحفظ ٩٦ ص ١٠-١٠٠.

الحركة الوطنية لأنفسهم في القيام بذلك ، أو الذين يعتمد مستقبل البلاد على سياساتهم حقا. وطبعا إلى حد ما ، أدرك الشيوعيون أنفسهم هذا الأمر ، فأبلغوا اللجنة التنفيذية للأمية الشيوعية أن "ممثلي الكتلة الوطنية ضد العنف". أعلن قادة الكتلة الوطنية أن "التفجيرات والإضرابات والمظاهرات هي أمر من اختصاص الشيوعيين"^(١).

ولكن يبدو واضحا كذلك أن ما قاله الشيوعيون في ذلك الوقت ، كان يتضمن لهجة شوفينية صريحة وازدراء لمخاوف الناس وآمالهم وتطلعاتهم الحقيقية! وكل هذا من أجل بعض المصالح "الطبقية" العليا التي طالبتهم بمنع تكرار في سوريا ما فعله "الدشناق الأرمنيون في تركيا والقادة الآشوريون في العراق والقادة الأكراد في تركيا"^(٢). والحديث كان يدور عن الإبادة الجماعية للأرمن في عام ١٩١٥ ، وعن مذبح الآشوريين في عام ١٩٣٣ ، وعن الأعمال المعادية للأكراد في ذلك الوقت بعد نهاية الحرب العالمية الأولى.

علاوة على ذلك ، كان الحزب الشيوعي السوري يدرك جيدا في ذلك الوقت أن حالة عدم الاستقرار وانتقال الوضع القانوني لسوريا قد أدى إلى ظهور هياكل سياسية مماثلة له. وكان أحدها الحزب السوري القومي الاجتماعي ، الذي تأسس عام ١٩٣٢ على يد أنطوان سعادة ، وهو من أبناء الوسط الأرثوذكسي. والحديث هنا يدور عن منظمة مركزية بشكل صارم ، وكان جوهر بنائها الأيديولوجي فكرة وجود "أمة عربية سورية"

(١) رسالة من دمشق حول الوضع في سوريا. ١٤ فبراير عام ١٩٣٦ // نفس المصدر ، ف. ٤٩٥ ، اوب. ٨٤ وحدة الحفظ ٨٧ ص ١٨-٢١.

(٢) نشرة داخلية بمناسبة حوادث دمشق والحالة الحاضرة بشكل عام ومهماتها تجاه ذلك. مارس ١٩٣٦ // ف. ٤٩٥ ، اوب. ٨٤ وحدة الحفظ ٨٦ ص ٢١-٢٢.

خاصة، توجب عليها إنشاء كيان دولة خاص بها داخل حدود "سوريا التاريخية"، بما في ذلك قبرص^(١). وساهمت الرغبة في الحصول على دعم خارجي في تلك السنوات، في إقامة اتصالات بين هذا الحزب وإيطاليا بقيادة موسوليني، في الوقت الذي اعتمد فيه الحزب الشيوعي السوري، طبعاً على دعم الاتحاد السوفيتي.

وكما الحزب الشيوعي السوري، كان حزب أنطوان سعادة، معادياً مطلقاً للانتداب الفرنسي، وكان يعارض كذلك للمركز "الصهيوني" في فلسطين ولأية محاولات انفصالية تحت شعارات، وطنية، ومذهبية، ومناطقية.

مثل الشيوعيين، سعى هذا الحزب للتأثير على الكتلة الوطنية ليصبح القوة الرائدة في العملية السياسية النامية في سوريا ولبنان. لكن، بالطبع، لم يعتبر الحزب السوري القومي الاجتماعي نفسه حزب "البروليتاريا". ومع ذلك، فإن الحجاب "البروليتاري" الذي أُلقي على الحزب الشيوعي السوري لم يخف بأي حال من الأحوال توجهاته القومية. وهذا الظرف، قلب القومي السوري الاجتماعي في النصف الثاني من الثلاثينيات إلى *noire* حقيقي بالنسبة لمنافسيه الشيوعيين.

أظهرت وثائق الشيوعيين السوريين اللبنانيين في ذلك الوقت أن الحزب الشيوعي السوري أصيب بالصدمة من تغلغل القومي السوري الاجتماعي السريع في البيئة الفلاحية (التي ظلت بعيدة عن متناول الشيوعيين إلى حد كبير) ومحاولاته النشطة لتعزيز تشكيل نقابات العمال (حيث، بعد رحيل ف. شمالي من الحزب الشيوعي، كانت مواقف الشيوعيين ضعيفة للغاية).

ووجد أعضاء الحزب الشيوعي أن يتم اعتبار منافسيهم من جانب أولئك الذين كان

(١) وثائق الحزب القومي الاجتماعي السوري: انظر في الأحزاب السياسية في سوريا، ص ٦٥-١٢٧.

من المفترض نظرياً أن يكونوا القاعدة الاجتماعية للشيوعيين ، ويتم النظر إليهم على أنهم "شيوعيون ، وأن برنامجهم لا يختلف عن برنامجنا".

لهذا السبب ، كانت إحدى طرق مكافحة القومي السوري الاجتماعي ، هي التركيز والتذكير الدائم بالروابط بين الحزب القومي الاجتماعي السوري و "الدولة الفاشية الأجنبية - إيطاليا" ، مما يعني (على الرغم من غموض هذا البيان ، لأنه حتى في صفوف الكتلة الوطنية كان هناك أناس يتعاطفون علانية مع الدوتشي) وأن هذا الحزب "دمية أجنبية في سوريا". وبالطبع ، أعلن الشيوعيون أن الحزب القومي الاجتماعي السوري عبارة عن مجموعة "ذات ميثاق ديكتاتوري يمنح زعيمها سلطة غير محدودة".

وأخيراً ، تم إعلان نشاطه هذا الحزب مؤيداً للإمبريالية ، حيث أن برنامج الحزب القومي الاجتماعي "التقط بدعة الإمبرياليين الجديدة ، الهادفة لتبرير تقسيم البلدان العربية من قبل المستعمرين الأوروبيين ورسمهم لحدود مصطنعة بين مناطق العالم العربي (أقاليم البلاد العربية)".

علاوة على ذلك ، أصبح من الواضح أن "الإمبرياليين اخترعوا لتحقيق ذلك الفينيقية (أيديولوجية الأحزاب المارونية في لبنان ، المصممة لإثبات خصوصيتها) على الساحل السوري (المقصود هنا لبنان) والفرعونية في مصر (أيديولوجية الطابع الخاص لمصر)".

وتابع الشيوعيون القول ، أنه تجري الآن ، "بمساعدة" الحزب القومي الاجتماعي ، "محاولات من جانب الإمبريالية الفاشية الإيطالية لإلغاء الطابع العربي (العروبة) لسوريا وخلق أمة سورية جديدة (القومية السورية) فيها". وكان الشيء الأكثر إثارة في التفكير الإضافي للشيوعيين أنهم قدموا "إنكار الطابع العربي لسوريا" على أنه "ظاهرة غير علمية وغير تاريخية" ، وكأن التأكيد على أن سوريا بلد عربي ، هو فعلاً ثابت تاريخياً وعلمياً! لقد دار الحديث عن أن هذا "الإنكار" كان يهدف إلى "فصل حركة التحرر الوطني

السوري عن حركات التحرر الوطني في مناطق أخرى من العالم العربي". هذه الكلمات لا تحتاج إلى تعليقات.

ومع ذلك ، لم يكن كل شيء سيئاً للغاية مع هذا الحزب. اتضح أنه يوجد في هذا الحزب - الحزب القومي الاجتماعي السوري ، "شباب مخلصين مستعدين للقتال من أجل استقلال سوريا" ، وتم "خداع" هؤلاء الشباب فقط عن طريق زعمائهم "الخونة". ويمكن طبعاً اجتذابهم إلى جانب الحزب الشيوعي السوري. من أجل تفكيك الحزب القومي الاجتماعي السوري من الداخل ، يمكن للشيوعيين الانضمام إلى صفوفه. ومع ذلك ، كان هناك خطر من أنهم ، بعد أن ينضموا إلى هذا الحزب لن يتمكنوا من وضع خط فصل بين هذا الحزب وحزبهم الأساسي.

لهذا السبب كانت مهمة (مقاومة انتشار نفوذه التنظيمي والأيديولوجي) ومهمة فصل الأعضاء الشباب عن القومي الاجتماعي السوري وتجنيدهم في صفوف الحزب الشيوعي السوري ، تقع فقط على الشيوعيين الذين كانوا "أقوياء سياسياً ونظرياً" ، وفقط بعد حصولهم على "إذن من منظمة منطقتهم"^(١).

في ٩ سبتمبر ١٩٣٦ ، انتهت مفاوضات قادة الكتلة الوطنية في باريس بإبرام معاهدة صداقة ومساعدة فرنسية - سورية^(٢) ، وفي نوفمبر ١٩٣٦ تم في بيروت التوقيع على معاهدة صداقة وتعاون فرنسية - لبنانية ووقع عليها رئيس الجمهورية اللبنانية إميل إدة والمفوض العام الفرنسيدي مارتيل وتم المصادقة عليها بالإجماع (كلاهما من قبل النواب المسيحيين

(١) نشرة داخلية مركزية. الحزب القومي السوري وموقفنا تجاهه. مايو ١٩٣٦. RTSHIDNI ، ف. ٤٩٥ ،

اوب. ٨٤ وحدة الحفظ ٨٦ ص ٢٨-٣١.

(٢) انظر حول ذلك

Ramzi. Une vague révolutionnaire traverse la Syrie// Correspondances Internationales.

ونظرائهم المسلمين) في برلمان البلاد.

بعد ذلك ، أدى تعيين مسلم سني في منصب رئيس الوزراء إلى تغيير جذري في الوضع في البلاد^(١). إذا تم الاعتراف بالمعاهدة الفرنسية - اللبنانية في البداية من قبل قادة المجتمعات المسيحية فقط ، فقد أصبحت الجماعات السياسية الإسلامية أيضاً من أنصارها. وافترضت المعاهدة الفرنسية - السورية (مثل المعاهدة الفرنسية - اللبنانية) أنه في غضون ثلاث سنوات ستقوم فرنسا بإلغاء نظام الانتداب الحكومي وتعترف باستقلال سوريا. لكن احتفظت الحكومة الفرنسية بالحق في وجود قواعد عسكرية على أراضيها ، والسيطرة على الجيش الوطني السوري ، والإبقاء على قواتها المسلحة في جبل الدروز ومنطقة العلويين في اللاذقية لمدة خمس سنوات من تاريخ توقيع المعاهدة. في حالة وجود "تهديد فوري بالحرب" ، يمكن لفرنسا استخدام الاتصالات والقواعد السورية. كما وردت أحكام متطابقة في المعاهدة الفرنسية - اللبنانية.

أدى إبرام المعاهدة إلى زيادة شعبية وتأثير الكتلة الوطنية بشكل كبير. في الانتخابات البرلمانية في سوريا في نوفمبر ١٩٣٦ ، حقق هذا الحزب نصراً حاسماً. أصبح السيد الأتاسي رئيساً للجمهورية السورية. في ديسمبر من العام نفسه ، صدق البرلمان السوري على المعاهدة.

أجبر الواقع الجديد الحزب الشيوعي السوري على التغيير. كان الأمر يتعلق أولاً بلبنان ، عندما بدأوا تدريجياً في التخلي عما بدا لهم من قبل كبديهيّات. في نهاية الثلاثينيات ، طرح خالد بكداش بغدّاش أمام الأمانة العامة للجنة التنفيذية للأمية

(١) حول تطور الوضع السياسي الداخلي في لبنان. انظر صليبي ك. مقالات حول تاريخ لبنان. إصدار عام

الشيوعية موضوع ضرورة "إنشاء حزبين - لبناني وسوري"، تبرره خصوصيات "النضال من أجل جبهة موحدة في كل بلد"^(١). وبدا واضحاً أن اللجنة التنفيذية للأمية الشيوعية تعتبر هذا الطرح صحيحاً^(٢). ولكن كيف بات نهج الحزب الشيوعي السوري نحو إنشاء "جبهة شعبية مناهضة للإمبريالية"؟ وكيف قيم الحزب مسار دعمه للكتلة الوطنية؟ وهل تعامل الحزب الشيوعي السوري مع المعاهدات التي أبرمها الوفدان السوري واللبناني بشكل لا لبس فيه؟ هذه ليست أسئلة غير مهمة بتاتا.

بتقييم الوضع عشية بدء المفاوضات الفرنسية - السورية، صرح الشيوعيون أن الأمر يتعلق بمثل هذا "تراجع الإمبريالية"، وهو "مناورة معدة جيداً". ويكمن جوهر هذه المناورة في أن الدولة المنتدبة وجدت لنفسها "الحل الأفضل" - "لإرضاء الطبقات القيادية للبرجوازية، واستئناف المفاوضات معها وتسهيل ظهورها في أعين الناس كمبدعين النصر وكزعماء وحيدين" للبلاد. وكان ذلك استنتاجاً حاداً. بعبارة أخرى، تلخص الموضوع في أن الحزب الشيوعي السوري وافق على التحالف مع الكتلة الوطنية فقط بسبب الوضع المؤوس. لقد تسبب خطه هذا في "وقف رغبة الجماعات الثورية الوطنية في بدء صدام مفتوح مع الكتلة" وفقط "بفضل تدخل الحزب هذا لم تسفك دماء الشعب". لقد بدا للشيوعيين أنهم كانوا ضد التيار. والحزب الشيوعي السوري بتجاهله وجهة نظر أكثر الثوار الوطنيين راديكالية (دعوا الكتلة فقط تعمل، وستنهار قريباً جداً، وبعد ذلك سوف يفهم الناس أنفسهم من يجب أن يتبعوا)، طرح مقابل ذلك "خط الفضح اليومي البرجوازية الإصلاحية ومفاوضاتها مع الإمبريالية".

(1) Au Secretariat of the I.L.C., au camarade Manouilski.

(2) ملاحظة سليم عبود إلى الأمانة العامة في اللجنة التنفيذية للأمية الشيوعية. ١٠ فبراير عام ١٩٣٨ //

نفس المصدر، ص ٢٤-٢٦.

وأشار الحزب إلى أنه لو أراد قادة الكتلة الوطنية فعلاً أن يكونوا صادقين مع الشعب، لما عقدوا مفاوضات أولية مع ممثلي السلطات الفرنسية حول تشكيل الوفد ولرفضوا إجراء مفاوضات في باريس وشدّدوا على قيامها في دمشق^(١). الحديث دار عن وثيقة الحزب الشيوعي السوري التي ظهرت في مارس ١٩٣٦.

على الأرجح، كانت تشير قلق الشيوعيين السوريين - اللبنانيين في منتصف الثلاثينيات فعلاً مشكلة مهمة: كيف يمكن المحافظة على ماء الوجه في الجو السريع التطور في تلك الحقبة، وعدم السقوط في ظل منظمة قوية ومؤثرة؟ كان ذلك فعلاً مهماً للغاية وخاصة وأنه وفقاً لتعليمات اللجنة التنفيذية للأمية الشيوعية، كان من المفترض أن يصبح الحزب الشيوعي السوري نموذجاً للتعاون مع الجبهة الوطنية، والتي كان على القوميين الراديكاليين الآخرين إتباعه.

ربما قالوا في صفوف الحزب أنه ينبغي "دعوة كل القوى الوطنية الثورية، المستعدة للقتال بصدق ضد الإمبريالية الفرنسية، لإنشاء جبهة تحرير موحدة لتحقيق الاستقلال الكامل لسوريا"؟ لو تخلت الكتلة الوطنية عن سياستها السابقة المتمثلة في "التفاهم الصادق" مع سلطات الانتداب، وإذا دعا قادتها الشعب إلى العصيان المدني، فلماذا لا تعتبر أفعالها "انتصاراً للحركة الثورية، وللشيوعيين وللمفكرين الثوريين"؟

لقد اعتقدوا في الحزب الشيوعي السوري، أنه بالمحافظة على مسار التحالف مع أولئك الذين بدأوا المفاوضات في باريس اليوم، ولكن من خلال تشكيل "جبهة تحرير" تعمل بالتوازي مع تحالف يضم الكتلة الوطنية، سنحقق نجاحاً أكبر. بعبارة أخرى،

(١) نفس المصدر ف. ٤٩٥، اوب. ٨٤. وحدة الحفظ ٨٣ ص ٤١-٤٢..

"الحزب مستعد للانضمام في أن واحد إلى جانب الكتلة الوطنية، وكذلك مع أي حركة وطنية أخرى". والأمر تلخص فقط، في كيف يجب أن تصبح منصة هذه الرابطة الموازية. وهنا للأسف اتضح أنه لا يمكن أن تكون إلا "الميثاق الوطني للكتلة"^(١). وظهرت حلقة مفرغة. وأصبحت أي محاولة من قبل الشيوعيين للخروج من ظل الكتلة الوطنية مستحيلة. وتمكن الوطنيون من التقاط الأداة الأكثر أهمية - أداة شرعنة الأفعال المناهضة للفرنسيين. وبقي فقط السير وفق مسارهم والتحول إلى أكثر المؤيدين راديكالية لأحكام الميثاق الوطني.

في فبراير ١٩٣٦، كان الحزب الشيوعي السوري يعوم مع التيار، على الرغم من احتفاظ قاموسه بملاحظات الإدانة (أو، كما سماه الخطاب الشيوعي، "الفضح") لخط الكتلة الوطنية. في إحدى المنشورات الموقعة من قبل لجنته المركزية في ذلك الوقت، جاء ذلك بشكل مباشر: "ألم تعلن الكتلة في ميثاقها عن بداية" معركة وطنية"، وهل لم تطلق على نفسها اسم "حزب الأمة بأسرها". إذن كيف يمكن للسيد جميل مردم أن يعلن في أحد الاجتماعات: "نحن لم ندعوكم للإضراب"؟ كيف يمكن لبعض قادة الكتلة دون خجل أن يتحدثوا باسم الشعب ويعلنوا إنهاء الإضراب، إذا كان الناس لا يعرفون عن ذلك، إذا لم ينل الشعب حقوقه، التي من أجلها ضحى مئات من أبنائه المخلصين بحياتهم؟"^(٢).

(١) نشرة داخلية بمناسبة حوادث دمشق والوضع الحاضر وواجبنا نحوها. نفس المصدر ف. ٤٩٥، اوب. ٨٤

وحدة الحفظ ٨٦، ص ١٨-٢٠.

(٢) نشرة من اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوري. "فقط القادة المزيفين هم حجر عثرة على طريق

الاستقلال"، فبراير ١٩٣٦ // نفس المصدر ف. ٤٩٥، اوب. ٨٤ وحدة الحفظ ٨٨، ص ١٠.

ظهرت نتائج هذه السياسة على الفور. في يوليو ١٩٣٦، صرح الحزب الشيوعي السوري بأن "الكتلة الوطنية تحاول احتكار... انتصار الشعب العظيم لخدمة المصالح الطبقية للبرجوازية والإقطاعيين". وتم وصف أنشطتها بأنها رغبة في إبرام مثل هذه "الاتفاقية مع السلطات الفرنسية، والتي من شأنها أن تحدد لكل طرف نصيبه في استغلال الجماهير". تم من قبل الشيوعيين تقييم المعاهدة التي يجري إعدادها في باريس على أنها "وثيقة حول تقسيم السلطات بين البرجوازية الفرنسية والبرجوازية السورية واللوردات الإقطاعيين". ولكن الشيوعيين بالغوا في تقييم في إمكاناتهم لاحقا، ودخلوا في عالم من الأوهام: "لو جرت المفاوضات في دمشق فكانت ستؤدي أما إلى دفع الإمبريالية لإرضاء مطالب الشعب بالاستقلال التام والوحدة، أو إلى صدام جديد بين الإمبريالية وجماهير الشعب... قادر على التطور إلى حركة تحررية ثورية ذات طابع زراعي واجتماعي"^(١).

ومع ذلك، فإن هذه الأوهام تعني شيئا واحدا فقط - تزايد في الحزب الشعور بفقدانه لاستقلالته ووقوعه في طريق مسدود.

كان هذا الشعور أقوى في المنظمات الحزبية الشعبية الأدنى. وفي فبراير ١٩٣٦، عندما بلغ الإضراب العام في حلب ذروته، أبلغت لجنة المدينة التابعة للحزب الشيوعي السوري اللجنة المركزية للحزب أن "الجماهير تتبع فقط قادة الكتلة الوطنية"، مما يخلق "وضعا حرجا" للشيوعيين. حدث ذلك بعد اعتقال قيادات الوطنيين^(٢). قبل شهر من ذلك، في كانون الثاني (يناير)، في لحظة نشوة، كانت نفس لجنة المدينة في مزاج مختلف تماما حيث

(1) Matériaux sur le travail du P.C. de Syrie dans le mouvement anti-imperialiste, juillet 1936.

(2) نشرة داخلية للجنة المنطقية في حلب. فبراير ١٩٣٦ // نفس المصدر. ٤٩٥، أوب. ٨٤ وحدة الحفظ

قالت : "الثورة تختمر... الكتلة الوطنية تواجه معضلة : إما تنظيم نضال شعبي والمضي قدما في عمل واسع وحاسم... أو التراجع أمام الإرهاب الإمبريالي وفقدان ثقة الجماهير. وبعد ذلك "ستمكن من اتخاذ... خطوة كبيرة نحو تحقيق جبهة شعبية وطنية لطرد الإمبريالية من بلادنا"^(١).

بالطبع في منتصف الثلاثينيات. خرج الحزب الشيوعي السوري من العمل السري. وتصرفت منظماته علانية، وتم نشر منشوراتها المطبوعة وبالذات صحيفة "صوت الشعب"^(٢)، بشكل قانوني مشروع.

ولكن مع ذلك، فشل الحزب الشيوعي السوري في تحقيق الحصول على صفة قانونية مشروعة. وأظهر لقاء الوفد الشيوعي برئاسة خالد بكداش مع سعد الله الجابري، أحد قادة الكتلة الوطنية، في أبريل ١٩٣٧، أن هذا الأخير الذي أصبح الحزب الحاكم في سوريا فضل المماطلة والتأني.

وقال زعيم الوطنيين لأعضاء وفد الحزب الشيوعي : "يجب أن ننتظر تصديق باريس على المعاهدة الفرنسية - السورية، وعندها سنمنحك على الفور حرية العمل". وأشار الجابري إلى تعقيد الوضع في فرنسا، وقوة الأحزاب اليمينية الفرنسية، ولهذا السبب قام بمنع صدور ونشر "صوت الشعب" في دمشق، مقترحا نقله إلى بيروت^(٣). طبعا تصرفت الكتلة الوطنية بحكمة، ولم تكن بحاجة إلى تعقيدات إطلاقاً خلال فترة بالغة الصعوبة

(١) نشرة داخلية للجنة مدينة حلب الحزبية. يناير عام ١٩٣٦// نفس المصدر، ص ٢٤-٢٥.

(٢) رسالة من سوريا. ٨ فبراير عام ١٩٣٧// نفس المصدر. ف. ٤٩٥، اوب. ٨٤ وحدة الحفظ ٩٢، ص ١٦-١٧.

(٣) رسالة رمزي من دمشق. أبريل ١٩٣٧. نفس المصدر. ف. ٤٩٥، اوب. ٨٤ وحدة الحفظ ٩٩ ص ٢٤-٢٦.

والحساسة في تطور العلاقات الفرنسية- السورية. لكن الشيوعيين أصيبوا بخيبة أمل بالطبع. وشارك الشيوعيون في الاجتماع الرسمي لوفد الكتلة الوطنية العائد من باريس. وزود قادتها قادة الحزب الشيوعي بتذاكر لحضور الحفل، حيث وصل أعضاء اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوري في سيارة تحمل الأعلام السورية والحمراء، وأفادت الصحف التي يسيطر عليها الوطنيون أن وفداً من الحزب الشيوعي السوري كان من بين المشاركين في الاجتماع^(١). واعتبر قادة الكتلة الوطنية أن من واجبهم المشاركة في اللقاء الذي تم تنظيمه لاستقبال خالد بكداش الذي عاد من باريس.

وكان في استقباله رئيس الوزراء ج. مردم بك. وشارك رئيس الحكومة السورية، مع زعيم الحزب الشيوعي السوري، في مسيرة بدمشق لدعم بقاء لواء إسكندرون داخل سوريا، وخلالها أنهى بكداش كلمته: "يعيش الشعب الملتف حول الحكومة الوطنية الجديدة في سبيل تنفيذ مطالبه"^(٢). واصطدم الحزب الشيوعي السوري عملياً بعدم امكانيى تشكيل نقابات عمالية تحت قيادته (فما بالك في العمل في الوسط الفلاحي).

واستحوذت الكتلة الوطنية على زمام المبادرة لتشكيل هذه النقابات، ولم يتبق سوى للشيوعيين إصدار منشورات "يسقط التزوير الدنيء لتتائج انتخابات قيادة النقابات العمالية!"^(٣).

لم يكن أقل أهمية موضوع النمو العددي للحزب الشيوعي السوري. في فبراير

(١) من رسالة الحزب الشيوعي السوري // نفس المصدر ف. ٤٩٥، اوب. ٨٤ وحدة الحفظ ٨٣ ص ١٣٦-١٣٩.

(٢) نفس المصدر ف. ٤٩٥، اوب. ٨٤ وحدة الحفظ ٩٣ ص ١٦-١٧.

(٣) نشرة من اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوري. "يسقط التزييف والغش في انتخابات النقابات". يناير عام ١٩٣٧. // نفس المصدر ف. ٤٩٥، اوب. ٨٤ وحدة الحفظ ٨٨ ص ٥٥.

١٩٣٧ ، في رسالة مرسله من دمشق إلى الشيوعي الفرنسي جي بيري ، أفاد خالد بكداش بأن الحزب يضم ١٥٠٠ عضو ، ٩٥٪ منهم من العرب^(١) . ووفقا لمعطيات اللجنة التنفيذية للامية الشيوعية ، في بداية عام ١٩٣٧ بلغ عدد أعضاء الحزب الشيوعي السوري ١٧٠٠ شخص. وفي عام ١٩٣٨ - حوالي ٤٠٠٠. لكن ما هو التكوين النوعي للحزب؟ ظل هذا السؤال دون إجابة. كنت صحيفة "صوت الشعب" الناطقة باسم الحزب الشيوعي السوري تصدر يوميا بمقدار ٧٠٠٠ نسخة. لكن أن هذا بمثابة الواجهة المعروضة من الموضوع. علاوة على ذلك ، كان الشيوعيون يكتفون فقط بفتات الإنجازات التي كان بمقدورهم تحقيقها من خلال الحلم بالثورة التي يقودونها. لكن الثورة لم تحدث. وكان من الضروري التبرير القول إنهم تمكنوا بالفعل من الحصول على شيء ما ، مع العلم جيدا أن الحزب الآن يعتمد كلياً على الحسنات التي تتفضل بها له الكتلة الوطنية.

في بداية شهر فبراير ١٩٣٧ ، انعقدت جلسة مكتملة للجنة المركزية للحزب الشيوعي السوري في دمشق لمناقشة الوضع في سوريا ولبنان في ضوء التقارير التي قدمها خالد بكداش ونيقولا الشاوي^(٢).

قال الشيوعيون الآن أن إبرام المعاهدة الفرنسية - السورية وإقامة حكومة وطنية في سوريا كان "نتيجة مباشرة لنضال الشعب السوري البطل" ، ساهم فيه الحزب الشيوعي

(١) مذكرة "الحزب الشيوعي السوري" // نفس المصدر ف. ٤٩٥ ، اوب. ٨٤ وحدة الحفظ ١٠٥ ص ٢-١.

(٢) هنا ولاحقا مواد الاجتماع الموسع. اقتباس: "ماذا يطالب الشعب من النظام الجديد؟ قرارات الجلسة الكاملة للجنة المركزية للحزب الشيوعي السوري ، المنعقدة في ١ و ٢ فبراير ١٩٣٧ في دمشق ، حول قضايا لواء اسكندرون والوضع الحالي في سوريا ولبنان على أساس التقارير التي قدمها الرفيقان خالد بكداش ون. شاوي" // نفس المصدر ف. ٤٩٥ ، اوب. ٨٤ وحدة الحفظ ٩٥ ص ٢٥-٤٠.

السوري في انتصاره " ساعيا في خدمة البلاد ". من الآن فصاعداً ، " باتت البلاد تشعر أن معركتها (بدأ الحزب الشيوعي السوري يتحدث بلغة الكتلة الوطنية) لم تذهب سدى : لقد تم التخلص من عبء كبير من الاستبداد المطلق الذي ساد في السنوات الماضية ، وأخذت البلاد تتنفس هواء لا يشبه الهواء الذي كان موجودا في أجواء الحقبة الماضية ، هاهي تتنفس هواء الحرية الذي نحتاج من أجله بالطبع إلى بذل جهود إضافية وتوخي المثابرة واليقظة لتحويل هذه الحرية إلى حرية كاملة ". بعبارة أخرى ، كان الحزب الشيوعي السوري يخبر حلفائه أن الوقت قد حان الآن لتحقيق تطلعات الشعب. لكنه قام بذلك ليس على أساس ممارسة ضغوط شديدة على الكتلة الوطنية ، بل من خلال نصحتها بتوسيع نطاق الإجراءات والتدابير التي نفذتها بالفعل.

نعم ، لاحظ الشيوعيون وأشاروا إلى أن الحكومة الوطنية حظرت تصدير القمح وذهبت إلى فرض أسعار منخفضة للدقيق لسكان الأحياء الفقيرة. ولكن الشيوعيين شددوا على أن الناس يتوقعون من السلطات الوطنية " خبزاً للجماهير ومحاربة ارتفاع الأسعار " ، وهو أمر لا يمكن تحقيقه إلا " بضرب أيدي المحتكرين وكبار الإقطاعيين الرجعيين الذين يواصلون التمتع بالامتيازات ".

وتابع الشيوعيون القول ، أن سوريا نعم أصبحت دولة ديمقراطية ، لكن " يجب السماح للقوى الشعبية السورية بإظهار إبداعاتها الكامنة ". ووفقا لهم ، لا يوجد شك في أن النقابات العمالية بدأت العمل بشكل قانوني في سوريا ، لكن العمال لازالوا بحاجة إلى " حرية كاملة للنشاط النقابي ". وشدد الشيوعيون على " ضرورة تغلغل روح الديمقراطية في الريف السوري أيضاً " ، حيث يجب أن ينقذ الفلاح من " جشع المرابين .. واستبداد الإقطاعيين ". بعد ذلك دار الحديث عن الصناعة الوطنية ، والاحتكارات الأجنبية ، والانتخابات البرلمانية الحرة ، والثقافة ، والرياضة ، والرعاية الطبية ، والجيش ، وتطهير

جهاز الدولة ، الذي يجب تطهيره من المؤيدين المخفيين والمكشوفين للإمبريالية الفرنسية والفاشية الإيطالية ، إلخ.

وحل كل هذه المشاكل ، وفقا للحزب الشيوعي السوري ، كان ممكنا فقط على أساس "اتحاد الشعب السوري بأكمله". وأشار الشيوعيون إلى أن هذه الوحدة قد تشكلت بالفعل في عصر الحركة الوطنية العام لإبرام المعاهدة الفرنسية - السورية ، عندما قاوم الشيوعيون بشجاعة "مكائد" الشارة البيضاء " ، وعندما ناضلوا من أجل الحفاظ على الشخصية العربية للواء اسكندرون ، وبالطبع عندما أطلقوا حملة تضامن مع سوريا في فرنسا.

وتساءلوا لماذا لا يمكن أن يكون "واجب الأمة" اليوم تحقيق "جبهة وطنية واسعة ومنظمة بين الإخوة من الكتلة الوطنية (الإخوان الكتلاويين) والحزب الشيوعي وجميع العناصر الديمقراطية"؟ ولماذا لا ننشئ بينهما "تحالف قوي" ... من أجل تحقيق الحريات الديمقراطية للشعب والتطلعات الوطنية ومحاربة الفقر والنهضة الاقتصادية والزراعية لسوريا ومحاربة الدعاية والممارسات الرجعية والفاشية "؟

وكان يجب أن تعمل هذه الجبهة المكونة من هذين الحزبين تحت شعار: "وحدة الشعب السوري كله في خدمة الوطن السوري ومصلحة النضال ضد أعداء الشعب في الداخل والخارج". وبدا أن الحزب الشيوعي السوري اخذ بالاندماج في السلطة. وباتت كل تصرفاته تعتمد كلياً على هذه السلطة. ولم يعد من الممكن الحديث عن أي استقلالية له. وكان من السذاجة الاعتقاد بأن الكتلة الوطنية يمكنها أن تستجيب لنصيحته الخجولة. هذه الكتلة كانت الحزب الحاكم وقامت بحل مشاكل البلاد ، انطلاقاً من فهمها البراغماتي للمشاكل التي تواجه سوريا.

في الوقت نفسه ، كانت هناك مشكلة نشاط الحزب الشيوعي السوري في لبنان ،

والذي كان دائماً يعتبره الحزب جزءاً لا يتجزأ من سوريا. بالطبع، قام الحزب المذكور بتغيير نهجها تجاه هذا البلد، وربما تجلّى ذلك بشكل واضح في تحول هيكله التنظيمي. ومع ذلك، فإن البحث عن مكان للشيوعيين في النظام السياسي لهذا البلد الذي تبلور لتوه كدولة، كما كان الحال سوريا، لم يكن مهمة سهلة.

ومع اعترافهم بالوقائع السياسية الجديدة، استمر الشيوعيون في الإصرار (كما لوحظ في قرارات الجلسة الكاملة في فبراير ١٩٣٧ للجنة المركزية للحزب الشيوعي السوري) على أن إحدى أولويات حكومة الكتلة الوطنية السورية هي إنشاء "الاتحاد السوري اللبناني".

علاوة على ذلك، تغيرت لهجة الوثائق المذكورة في كثير من النواحي عندما تحول المشاركون في الجلسة العامة إلى تحليل الوضع اللبناني. وأشاروا إلى أن "النظام الجديد.. فقط غير إلى حد ضئيل الوضع الذي كان قائماً في الحقبة السابقة". فالمعاهدة الفرنسية - اللبنانية لم تقم بأي حال من الأحوال بإعادة الحريات الديمقراطية، ولم تحسن الوضع الاقتصادي، ولم تقوّي أسس الاستقرار السياسي على مبادئ الديمقراطية حتى يمكن للبلد أن يمضي على طريق التقدم والتطور". ويلفت النظر أن الشيوعيين قالوا كل ذلك عن بلد قاموا في عاصمته - بيروت، بنشر صحافتهم بشكل قانوني ووزعوها في سوريا "الديمقراطية". وتابع الشيوعيون القول إنه توجد في لبنان، "سيطرة قوية جداً للمسؤولين الفاشيين في الإدارة، والشركات الاحتكارية الأجنبية، والمؤسسات التبشيرية والمكاتب التمثيلية"، والتي، بالطبع، "تعتمد على القادة التقليديين من أعلى المستويات، الإقطاعيين والرجعيين". وشددوا على أنه يتم في هذه الدولة إنشاء "أحزاب رجعية" بحرية في الوقت الذي "تعرض أي حركة تطالب بالحرية للشعب للقمع".

هل يمكن تغيير هذا الوضع الذي بدا للشيوعيين أنه دخل في طريق مسدود؟ بالنسبة لهم، لم تكن هناك مشكلة جديّة هنا. كان يكفي فقط "تحقيق الحريات الديمقراطية"، و

"تطهير" الإدارة من "المسؤولين الفاشيين" الذين خلقوا "جوا من العداء بين لبنان وسوريا والتخلص من هذا العداء"، و" تعزيز أواصر التضامن "بينهما، وفرض الاتحاد اللامركزي بينهما، وضع حد لـ "جشع الشركات الاستغلالية الأجنبية التي تهيمن على الحياة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية في لبنان، وكذلك حظر الدعاية الفاشية في المدارس" (لم يكن الأمر بالطبع متعلقاً بمؤيدي الدوتشي فحسب، بل وتعلق بالتنظيمات السياسية للطائفة المارونية، ومن بينها" الكتائب اللبنانية "). وبطبيعة الحال، تم استكمال هذه القائمة أيضاً بمطالبات لتعزيز الصناعة الوطنية والقطاع الزراعي، وتطوير السياحة، فضلاً عن إعادة التوزيع الديمقراطي للعبء الضريبي" و "حماية المستأجرين" من قبل الدولة.

كان كل شيء سهلاً للغاية! وبقي يلزم أمر صغير جداً لتنفيذه: "الحزب الشيوعي يدعو إلى خلق جبهة ديمقراطية، تضم كل من يسعون لإنقاذ لبنان من التناحر القاتل للزعماء على المقاعد في الحكومة والبرلمان ومن مكائد أعداء البلاد ودعاية الرجعيين والفاشيين، من كل أولئك الذين يقاتلون من أجل إقامة نظام ديمقراطي وإنساني في لبنان". لكن كم كان ذلك غير متوقعا، وراء كل هذا، ظهر ظل فؤاد شمالي، الذي تم الافتراء عليه وطرده من الحزب!

لكن من غير الواضح من في لبنان يمكن أن ينجذب إلى التقييم المنحاز الساذج للوضع في ذلك البلد والدعوة الصريحة للحفاظ على الوحدة السياسية بينها وبين سوريا؟ الموارد، الذين حصلوا على دولة لهم وانتصروا رغم استمرار المواجهة العنيفة بين الفصائل العشائرية للنخبة (الخلاف بين أنصار إيدو والخوري يعتبر المثال الساطع لذلك)؟ لكن هذه المواجهة لم تشكك بأي حال من الأحوال في استقلال لبنان. بين الأرمن، بعد هزيمة "انحراف الدشناق" تجاه الحزب الشيوعي السوري، سيطر الدشناكتوتيون والهنشاك بشكل كامل، الذين رأوا وجود لبنان "المسيحي" يمنح الضمان لأمنهم الوجودي؟ بين

الطوائف المسيحية الأخرى؟ أو ربما بين المسلمين؟ يجدر القول أن الخمول السياسي كان لا يزال سائداً بين الشيعة اللبنانيين. ولعب الدروز دور أبطال الدولة اللبنانية، وطرحوا في الوقت نفسه شروطهم الخاصة لضمان نشاطها الحيوي. أهل السنة؟ هؤلاء حصلوا بالفعل على منصب رئيس الوزراء الذي يرضيهم ولذلك ساروا على طريق التخلي عن المطالبة بعودة سكان المناطق التي تقطنها هذه المجموعة إلى سوريا. أصبح الوقت الذي بدأ بعد إبرام المعاهدة اللبنانية - الفرنسية، وإعادة الدستور والحياة النيابية، حقبة مساومة نشطة وتنافس على ما يسميه الشيوعيون بحق "الكراسي". لكن هذه "الكراسي" كانت حقيقة ملموسة للنظام السياسي الطائفي الذي نشأ في لبنان، مما جعل من الممكن أخذ مصالح النخب من جميع الطوائف في الاعتبار بمرونة على أساس تشكيل تشكيلات كتل عرقية. وحتماً هذا النظام لم يكن بمثابة السراب، كما لو عاد لبنان إلى "حضن الوطن".

اضطر أعضاء التنظيم اللبناني للحزب الشيوعي السوري، الذين وجدوا أنفسهم في فراغ، إلى النأي بشكل جذري عن وجهة النظر الرسمية للجنة المركزية. في ١ مايو ١٩٣٧، نظّموا تجمعاً في سينما "كريستال" بيروت، وشارك فيه أيضاً "أنصار الديمقراطية" - مجموعة من الليبراليين في العاصمة اللبنانية. وخلال محضر خالد بكداش صدر قرار قال: "التجمع الجماهيري ... يعبر عن إعجابه بالنصر الذي كفله تضامن شعبه للوطن والذي أدى إلى عقد المعاهدة الفرنسية - اللبنانية".

وأشار القرار بعد ذلك إلى أن دعم الشعب لـ "الحكومة الوطنية اللبنانية" يعني أن هذا الشعب ينتظر من الحكومة "ربما تنفيذ عاجل وسريع للإصلاحات ... القادرة على التخفيف من معاناته كإرث من الحقبة الماضية". تبع ذلك سرد ملخص للمهام التي تواجه الحكومة اللبنانية، بمصطلحات مماثلة لتلك المستخدمة في قرارات الجلسة الكاملة في فبراير

١٩٣٧ للجنة المركزية للحزب الشيوعي السوري فيما يتعلق بالحكومة السورية^(١).
في نوفمبر ١٩٣٧، أصبح الحزب الشيوعي اللبناني، الذي ترأس لجنته المركزية فؤاد الحلو، حقيقة واقعة. في ٢١ نوفمبر ١٩٣٧، توجه هذا الحزب مؤيديه المحتملين بنداء مع اقتراب الموعد النهائي للتصديق على المعاهدة الفرنسية- اللبنانية من قبل برلمان دولة الانتداب^(٢).

وأكد زعيم الشيوعيين اللبنانيين أن "الأجانب من الفاشيين الإيطاليين والألمان يخططون وينظمون استفزازات لضرب النظام اللبناني الجديد". وتابع الحلو، مخاطباً ممثلي الأحزاب السياسية اللبنانية، وحذر من أن عملاء القوى الإمبريالية يحاولون "استغلال" "صدقهم ووطنيتهم" لتحقيق مصالحهم الخاصة. وكانت تشير الاهتمام قائمة هذه الأحزاب، حيث تضمنت "الكثائب اللبنانية" المارونية الأكثر تطرفاً ومنظمة الكشفة الإسلامية - نجادة المتعارضة. قبل فترة وجيزة اعتبر الحزب الشيوعي السوري هذه القوى السياسية كمراكز للتأثير الإيطالي الألماني في البلاد، أما الآن فتتم مخاطبتهم: "أيها الإخوة!". وتابع الشيوعيون القول لهذه القوى: أيها الإخوة! أتم أبناء الشعب اللبناني، تسعون من كل قلوبكم للدفاع عن الحريات الديمقراطية والدستور والنظام الجمهوري".
كان هذا التحول في الخطاب والممارسة السياسية أمراً طبيعياً. لم يبدأ الحزب الشيوعي

(١) يطالب الشيوعيون والاشتراكيون والناشطون المؤيدون للديمقراطية بإقامة نظام ديمقراطي حقيقي في لبنان). "المساء" بيروت، ٦ أيار (مايو) ١٩٣٧ // نفس المصدر ف. ٤٩٥، اوب. ٨٤ وحدة الحفظ ١٠٤ ص ٥.

(٢) هنا ولاحقاً انظر: "حافظوا على سمعة لبنان ولا تسمحوا لأعدائه باستخدام استيائكم لتحقيق أهدافهم الإجرامية. نيابة عن اللجنة المركزية للحزب الشيوعي اللبناني فرج الله الحلو". بيروت ٢١ نوفمبر عام ١٩٣٧ // نفس المصدر ف. ٤٩٥، اوب. ٨٤ وحدة الحفظ ١٠٠ ص ٢١

البناني نشاطاته وعمله في لبنان "الرجعي - المذهبي" المجرد، بل في بلد حقيقي كان من المفترض أن يصبح ميدانا طبيعيا لنشاطه الحياتي. ولكن كان الأوان قد فات. أدى إبرام الاتفاقية السوفيتية - الألمانية إلى تحويل الشيوعيين السوريين واللبنانيين إلى "عملاء لقوة معادية".

في ٢٩ سبتمبر ١٩٣٩ ، بقرار من المفوض السامي لفرنسا ، تم حل جميع المنظمات الشيوعية في أراضي كلا البلدين وتم حظر المطبوعات التي تتحدث نيابة عن هذه المنظمات. تم شطب الشيوعيين من الساحة السياسية. في كتاب مذكراته أشار ماديان إلى أن "المسؤولية الرئيسية عما حدث يتحملها الشخص الذي يمتلك القوة الحقيقية لاتخاذ القرارات ، الشخص الذي خلق جو عبادة شخصيته بين شعبه ، وحرّم الآخرين من فرصة المبادرة " ، وكان طبعا يقصد يوسف ستالين في كلامه هذا^(١).

كان هناك الكثير من الحكمة في كلماته. لكن فقدان الاستقلال الذاتي بشكل مطلق دمر الحزب الشيوعي السوري ، وكذلك تنظيم الشيوعيين اللبنانيين الذي انفصل عنه ، وليس فقط من خلال إتباع تعليمات قوة خارجية عمياء ، بل ومن خلال الاعتماد الكامل على حلفاء أقوياء ومؤثرين حقاً في الساحة السياسية الداخلية لكلا البلدين. لقد تم تدمير الحزب بشكل شبه كامل ، وانهارت هياكله التنظيمية ، واتضح أن هناك ما يكفي من التهديد لكي يغادر صفوفه كافة الذين قاتلوا في الأمس في سبيل "مستقبل الشعب المشرق".

(١) ماديان أ. اقتباس من المؤلفات. ص ٢١.

الخاتمة

بدلاً من الخاتمة

لم يكن أولئك الذين أطلقوا على أنفسهم في العشرينات من القرن العشرين ، اسم "الشيوعيين" ومارسوا نشاطاتهم في الدول العربية في الشرق الأوسط ، لا أبطالاً ولا عملاء للدولة السوفيتية. كانوا ، في المقام الأول ، أناسا يتمتعون بالفضائل والذائل البشرية المعتادة.

يمكن لهؤلاء الأشخاص كتابة كتب ممتازة ، وتعليم أبناء جلدتهم ومواطنيهم الوصايا الإلهية ، وإعطائهم علمهم وقوتهم وروحهم بلا تحفظ والانخراط في السياسة والتسييس ، وتحريض بعضهم البعض والإبلاغ عن أحبائهم ، إذا كانت ظروف حفظ الذات تتطلب ذلك. لكن الأهم من ذلك كله ، أنهم اعتقدوا أنهم هم فقط ملح الأرض " ، وأن المستقبل لهم ، لأنهم أصبحوا حلفاء للبلد الذي أعلن أنه كان هذا المستقبل ، وأنه وجد تجسيده الكامل للأبد.. لا شيء بطولي ، لا شيء سري ، كل شيء من مزايا البشر!

أعطاهم حليفهم السوفيتي المال ولم يرفضوه. جاءوا إلى الاتحاد السوفيتي ودرسوا هناك ووقعوا في الحب وتزوجوا وتلقوا العلاج الطبي واستراحوا. لكن ما الغريب أو السيئ في هذا؟

كانت الأموال التي تلقتها أحزابهم متواضعة للغاية بحيث لا يمكنها حل المهام التي وضعها كومنترن موسكو أمامهم ، ولم تتوافق بأي حال من الأحوال مع نطاق هذه المهام. لقد طُلب منهم ، في الواقع ، أن يعملوا مجاناً لصالح البشرية ، التي فهموا من خلالها فقط "سُدس العالم" أي الاتحاد السوفيتي. التواجد في الاتحاد السوفيتي؟ والتواجد هناك ، في البلد الذي شعر فيه الشيوعيون في الشرق الأوسط بعلاقة عضوية ، وكان ينبغي أن يعاملوا بتفهم لأنهم طالما خاطروا بحياتهم من أجل تلك الدولة وقدموا لذلك أفضل سنواتهم ،

وانتهى به الأمر بالكثيرين منهم في السجن أو المنفى. ألم يستحقوا القليل من الدفء من "رفاقهم الأقدم والأكبر" وأولئك الذين عاشوا بالفعل في حالة المثالية الاشتراكية المحققة؟ نعم، وأولئك الذين أطلقوا على أنفسهم اسم الشيوعيين في ذلك الوقت الغريب من توقع الكون لعالم جديد أفضل وأكثر إشراقاً، ألا يستطيعون المطالبة، وإن كان جزئياً، بالتعويض عن خسائرهم وجراحهم وعذاباتهم؟

كان من المفترض أن يختلف النموذج الاشتراكي عن العالم المادي الوقح، وهو الذي يؤكد أنه مبني على أساس مبادئ الأخوة العالمية، والخير، والعدالة. لقد تحولت منظمات الوطنيين، التي كانت تناضل من أجل إعادة هيكلة جذرية لحياة شعوبها ودولها، بشكل صارم ومتعمد إلى أحزاب شيوعية. لقد تم اغتصاب هذه المنظمات واجبار أعضائها على معرفة ما يسمى الحقيقة العليا - العقيدة الشيوعية. واتضح أنهم بدلاً من النضال من أجل التطلعات الطبيعية لشعوبهم، تحولوا إلى أداة لتحقيق أهداف "أكثر علواً" من الدوافع الأولية لدخولهم إلى الساحة السياسية التي أعلن أنها "متدنية".

وفي سبيل تحقيق هذه الأهداف، تم ارغام أعضاء هذه المنظمات "البروليتارية"، "المناضلين الذين لا ينحنون والذين يضحون بالذات"، على ممارسة الدسائس السياسية وليس السياسة، وأن يكتبوا ليس كتباً، بل إدانات، وأن يكذبوا ويمارسوا المؤامرات. وربما كان الأمر مقبولا لو انتهت الأمور عند هذا الحال. لكن عندما لم تعد هناك حاجة إليهم، تم نسيانهم أو منعهم من ذكر أسمائهم في البلد، والتي بدأوا يعتبرونها وطنهم الثاني (وربما الأول؟)، فقط لأن أحدهم عندما قرر التوقف والتخلص من عدم الاستقرار الوجودي، أو التفرغ لتربية الأطفال، أو القيام بأعمال تجارية، أو التدريس. وإذا بدأ أحدهم ينضج وبدأ يفهم أنه يتعرض للخيانة، ورفض الإيمان الأعمى بالشيوعية، فسيتم تعرضه للعنات وسيُطرد من "معسكر الإنسانية التقدمية". كان يجب عليه مواصلة الإيمان

الأعمى ، حتى لو كان موضوع هذا الإيمان سخيلاً.

ويظهر التساؤل ، هل كان بمقدورهم التعامل معه بهذا الشكل ، لولا رؤيتهم للعالم واعتبار أنفسهم بمثابة - "ملح الأرض" ؟

لقد سعى هؤلاء الناس أنفسهم وتطلعوا إلى أن يصبحوا فراشات تطير باتجاه النار المشتعلة. كان حبهم لبلادهم ولشعبهم أكبر من اللازم ، وكانت الكراهية شديدة جداً لأولئك الذين ألقوا باللوم عليهم في كل مشاكل بلدانهم وشعوبهم - الغزاة الأجانب والأرستقراطيين المحليين والمتسربين الذين حققوا الثروة - وفقط هذا الحب والكراهية هو ما أجبرهم على تسمية أنفسهم "الشيوعيين" واختيار الاتحاد السوفيتي. أو ، من يدري ، كان الكبرياء عظيمة جداً ، مما أجبرهم على اتخاذ هذا الاختيار؟ ولكن ، على أي حال ، كان هذا الاختيار إنسانياً ، وقد حددته أحد المشاعر البشرية العديدة. واليوم ، في الواقع لم يعد مهما بتاتا الغوص في أسبابه الأولى. ربما لم يكن هناك ضحية كما لم يكن هناك جلاذ. كان هناك صيادو الأرواح البشرية الذين رأوا أن مهمتهم هي أن يكونوا ناجحين وألا يغادروا دون اصطياد فريسة ، والأرواح التي كانت تتمنى بشغف ، لسبب أو لآخر من الدوافع البشرية ، أن تجد نفسها في نهاية المطاف في الشبكة التي وضعها هؤلاء الصيادون. لا شك في أن الكومنترن ، الذي تم إنشاؤه في الاتحاد السوفيتي ، وكذلك الوطنيين الذين ركضوا نحوه دون النظر إلى الوراء ، كانا كتلة واحدة موحدة ولم يكن لأحدهما أن يظهر لولا ظهور الآخر. ولكن ماذا بعد؟ وعلى من يجب أن نلقي اللوم اليوم؟ ممارسة ذلك ستكون ليس حتى ضرباً من الغباء ، بل ، على الأرجح تصرفاً إجرامياً. لقد مرت سنوات كثيرة وطويلة منذ بدء ممارسة صيادي الأرواح لنشاطهم ولم يعد هناك أي دواعي للحكم وعلى أي أحد وإدائته. لا معنى ولا طائل من كل ذلك الآن.

المهم هو أن تاريخ الشرق الأوسط له أيضاً لمسة شيوعية ، وبدونها سيبدو هذا

التاريخ غير مكتمل وغير منتهي. من المهم أن تكون هذه اللمسة قد أدخلت في تاريخ المنطقة بواسطة الدولة التي سبقت روسيا الحديثة وكانت سلفاً لها، الدولة، التي ستشعر بنفوذها الهائل دائماً، مع مواصلة الحركة نحو مستقبلها..

ولماذا لا يمكن لهذه اللمسة، وإن كانت صغيرة، أن تصبح حلقة وصل بين روسيا وبين دول العالم العربي؟

* * * * *

